
إبن سعود
ولادة مملكة
تعريب
رمضان لاوند



أية رحلة خاطفة لامعة خططت حياة ابن سعود!لقد أقسم ولد عبد الرحمن ولما يزال فتى صغيراً،(لا يملك حجراً يريح عليه رأسه) أنه يوحد الجزيرة العربية. ولما كان قد اغتصب منه حقه و حرم من ميراثه، فإن المملكة التي يحلم بها لم توجد بعد.إنه لا يوجد غير هباء من القبائل التي تتقاتل و يمزق بعضها بعضاً للفوز بالواحات و مواطن الماء. إن قرونا قد انقضت كانت فيها مواطن الإقتتال تدمي الجزيرة العربية الوسطى. وبالرغم من المنازعات الوراثية القديمة و حالة الفوضى التي ما تزال هذه القبائل غارقة فيها فإنها مصنوعة من مادة واحدة. إنها تتكلم اللغة نفسها، و يستهويها الشعراء أنفسهم، و تتلو الصلوات ذاتها و تعبد الله نفسه. و إذاً فإن في وسعها أن تسهم في صنع مستقبل واحد...هكذا انطلق ابن سعود يغزو مملكته على رأس أربعين رفيقاً ذوي تصميم و عزم، يقوده مزاج جامح شديد الحمية، و يسنده حظ لم يلبث أن رأى فيه ظاهرة الإختيار الإلهي. ثم في صبر أو نفاذ صبر، بالقوة أو الحيلة، أخذ يعاقب هجماتها الخاطفة تتخللها فترات انتظار طويلة. إنه لن يكف يوماً عن توسيع أرضه حتى اليوم الذي يبلغ فيه البحر الأحمر و الخليج العربي. و بعد نصف قرن، وجد نفسه على رأس مملكة رائعة و قد أصبح حاكماً على مكة و متصرفاً بإمبراطورية نفطية هائلة. و المملكة هذه تساوي ثلاثة أضعاف و نصف ضعف للتراب الفرنسي، لقد خرجت من رمال الصحراء كما تخرج المعجزة.

وبالرغم من أن هذه الملحمة البدوية اللماعة بألوانها المثيرة، قد أدخلت في حوليات القرن العشرين، فإنها تضم الروعة في القصة العربية إلى الانطلاقة في إنشودة بطولية.

ابن سعود...ولادة مملكة

بنوا ميشان

تعريب

رمضان لوند

دار أسود للنشر

صدر هذا الكتاب باللغة الفرنسية عن

دار ألبان ميشال للنشر بعنوان:

IBN – SEOUD

Ou

La naissance d'un Royaume

Benoist – mechin

إلى

ولدي ، إيفرين حسن

و معرب كتابي، رمضان لاوند

و الناشر ، كريم ل ز أسود

الذين فتحو أمامي أبواب العالم العربي

كلمة المؤلف

كل كاتب مؤلف يمسك بين يديه، لأول مرة، كتاباً له، مترجماً إلى اللغة الأجنبية يخامره شعور ثلاثي من الفرح، و العرفإن، و القلق.

هو فرح، بفكرة أن ما كتبه سيجد الطريق إلى جمهور من القراء الجدد، و أن فكره سينقل إليهم و أن هذا الفكر سيحمل إليهم رسالة تفهم و صداقة، قد تصنع له أصدقاء جددا يعينه عطفهم على متابعة مهمته، حتى ولو لم يكتب له أن يعرف وجودهم أبدا.

وهو عرفإن لمن أحب كتابه بمحبة كافية بحيث يتجشم متاعب ترجمته كلمة كلمة، و سطرا بعد سطر، و أني لأعلم، و قد كنت مترجماً، بأن الترجمة ليست بالعمل اليسير، فهي تتطلب جهداً متطاولا و متفإنياً يقضي بوضع النفس كلية في خدمة شخص آخر.

وهو قلق أيضاً، ولا سيما حين يتعلق الأمر، كما هي الحال هنا، بلغة لا يمارسها المؤلف شخصياً و على ذلك يجب أن يثق بمترجمه ثقة مطلقة. لكنه لا يستطيع مهما تكن ثقته، أن يمتنع من التساؤل عما إذا كان المترجم قد فهمه جيداً، و عرف كيف يجد الكلمات المطلوبة ليترجم بها فكره — و بإختصار، ما إذا عرف كيف يتصرف بحيث أن القارئ الجديد يشعر أنه يقرأ كتابا أصيلا، و بتعبير آخر، نصاً ينبثق مباشرة عن لغته الخاصة، لا منقولة عن لغة أجنبية.

وعلى ذلك ، فإني أحرص على القول بأنه فيما يتعلق بهذه المشاعر الثلاثة: الفرح ، العرفإن و القلق، و لا سيما الثالث منها — أي القلق — قد إختفى تماما، بفضل السيد رمضان لاوند نفسه.

ذلك لأن السيد لاوند لم يتوقف طول عمله عن مسائلتي ووضع الشوائب، التي فاتني الإلتفات إليها، في الضوء، و الأخطاء التي ربما وقعت فيها، مما سمح لي مرة واحدة بتصحيح بعضها، و تعديل بعضها الآخر، و بتكوين فكرة رفيعة عن التصور الذي صنعه، لدوره كمترجم. و الأفضل من هذا أيضاً: إعتقادي أن في وسعي القول هنا —

دون خوف الوقوع في الخطأ – بأن النص العربي ل (حياة أبن سعود) هذه، قد يكون أعلى مكانة من النص الأصلي الفرنسي.

وكيف يمكن أن يكون على غير هذه الصورة؟

ولد السيد رمضان لاوند في بيروت عام ١٩٢٢م. و بعد أن قضى فترة شباب صعبة وضعته على صلة بقسوة الحياة، أمضى أربع سنوات من الدراسة في كلية بيروت الشرعية، تبعتها سنتان أخريان من الدراسة في كلية الشريعة من جامعة الأزهر، في القاهرة. ثم أصبح مدرسا للأدب و الفلسفة الإسلامية في عدد من المؤسسات التعليمية في الشرق. و لما كان يملك اللغة الفرنسية و اللغة العربية على سواء فقد سمي عام ١٩٥٦ مديراً لمكتب (العالم العربي للأنباء) الذي كان يرتبط في تلك الفترة ، بسفارة العراق في لبنان. كتب و نشر عددا من المؤلفات و المترجمات(فلسفة أبن سينا و تأثيرها في فلسفة اوربا في القرون الوسطى) (نداء الإسلام) (مصير القومية العربية) (أدم و حواء) دراسة عن (أميل زولا) كتابا عن الحرب العالمية الثانية إلخ.

يضاف إلى كل ما سبق أنه رشح نفسه عام ١٩٦٤ لأنتخابات المجلس النيابي، كمرشح مستقل. و إذاً فقد وجب أن يتوفر له ما هو أكثر من الصفات المطلوبة للقيام بهذا العمل.

إن العون الطيب الكريم الذي قدمه إلي كان من الأهمية بحيث أنه إذا خصصت ثلاثين عاما في دراسة العالم العربي ، و إذا كتبت بين ١٩٤٧ و ١٩٧٥ ستة مجلدات تتعلق به(يمثل بينها ربيع عربي ، صيفإن إفريقيان، أقدار محسومة، الملك سعود، أو الشرق في عصر التغيير، و ترجمة ل "فيصل" ملك العربية السعودية)، ثم أبن سعود ولادة مملكة، الذي يقدمة السيد لاوند اليوم إليكم، فهو الأول بينها . لقد كتبته في ظروف صعبه، و في عصر كنت أعرف فيه العالم العربي و استوعب تعاليم الإسلام بقدر أقل كثيراً مما أعرف و أستوعب منه اليوم.

إنني، كي أصل إليكم، أيها القراء العرب الأعزاء- و هنا أستخدم كلمة (عرب) في أوسع معنى لها- قد احتاج كتابي إلى دليل – هو السيد رمضان لاوند الذي قبل أن يعربه,وإلى سفير – هو السيد كريم ل ز أسود، الذي تكرم راغباً في نقله إليكم، بإعتباره ناشراً معروفاً.

أقول قولي هذا ، راغباً في الإفادة من الفرصة التي يتيحها لي اليوم، ظهور هذا النتاج، لأتوجه مباشرة إليكم، أنتم ياقرائي العرب الجدد.

بدأت بكتابة هذا الكتاب عام ١٩٤٧. و قد ظهر غداة وفاة ابن سعود، في نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٥٣. و انقضى منذ ذلك اليوم أكثر من ربع قرن لكن أين كان هذا العالم العربي، عام ١٩٤٧؟ العراق و الأردن و اليمن كانت ما تزال تحت الوصاية الأنكليزية و اتحاد لامارات الخليج لم يكن قد وجد بعد، أما عمان فكان يبحث عنها عبثاً في الخرائط الجغرافية، القوات البريطانية تحتل منطقة قناة السويس و تمسك مصر فاروق تحت سلطة لندن. ليبيا، وإن كانت متحررة من الوصاية الإيطالية لكنها لم تكن بعد قد حققت الإستقلال. سوريا و لبنان، و إن لم تعودا تحت الانتداب الفرنسي كانتا ما تزالأن تبحثان عن طريقهما، موريتانيا لم تكن قد وجدت بعد: لقد كانت جزءا من إفريقيا الغربية الفرنسية، الصحراء الغربية كانت اسبانية، فرنسا تمارس سلطانها السياسي في مراكش و الجزائر و تونس. و مع ذلك فقد كان العالم العربي حيا في قلبي. كنت واثقاً بأن يوما يأتي يقف فيه في عين الشمس مستقلا موحداً. أما أنه مستقل ، فهو اليوم كذلك (في حدود مايستطيع فيه بلد أن يكون مستقلا في قرننا العشريني) و أما أنه موحد، فهو لم يتحقق له ذلك حتى الأن، لكنني واثق من أن هذا اليوم قادم هو أيضاً. إنني أحفظ في أذني قولاً لصياد شاب من الكويت ، كنت أحدثه عن الوحدة على شاطئ من الخليج. و لما كنت قد لفت نظره إلى أن الطريق التي تقود إلى الوحدة ما تزال طويلة ، أجابني و في نظرته لهب غير عادي:

(ومع ذلك سنتوصل إليها بإرادة الله، لأن الله أكبر من أطول طريق)

عشرون عاماً مضت و الطريق مستمرة...

و أنا، ماذا فعلت في هذا الوقت ؟ تكلمت من أجلكم، و كافحت من أجلكم – صدقوني أن هذا كان في الغالب، معركة قاسية ، معركة ، ربما لم يكن في وسعي أن أتابعها لو لم أتلق العون من قبل أيفرين.

فتى جزائري كان يكافح من أجل استقلال بلاده، حصد، بسبب مرافقته لي طوال طريقي، طعنات و جراحات. كان يمكن أن يكون قاتلاً, إنه بفضل شجاعته و الدم المراق منه قد أصبح ولدي. فلولاه هو، ماكنت، دون ريب ، كتبت ما كتبته عنكم.

و إذاً فقد كتبت كتابا عنكم و من أجلكم. و لم أطلب أي مكافأة غير تلك المكافأة العليا: أن أتبين أنني لم أخطئ أبداً، و أن الأحداث قد أيدت رأيي في أنكم تسيرون على طريق الإستقلال و الحرية. انظروا اليوم، ماهو دوركم و قوتكم في العالم فنموها لا يتعلق إلا بكم... لم أقتصر على كتابة كتب, كنت، في كل مكان و حيثما أستطعت، الناطق بإسم كفاحكم و آلامكم و مجدكم بعشرات من المقالات، و المحاضرات، و الأحاديث المذاعة في الراديو و التليفزيون، بعدد كبير من المحادثات المعقودة مع الملوك، و رؤساء دول، و ووزراء و سفراء، في أوروبا كما في جنوب البحر الأبيض المتوسط، سعيت إلى مساعدتكم، بتجنيد أصدقاء و بمساعدتهم على أن يفهموكم فهما أحسن و أفضل. لماذا لا أسمي أهم هؤلاء؟

لقد عقدت طوال هذه السنوات علاقات شخصية و طيبة مع رشيد عالي الكيلأني من العراق الرئيس شكري القوتلي و ميشال عفلق من سوريا، جمال عبد الناصر و أنور السادات من مصر, الملك سعود و الملك فيصل من العربية السعودية ، الملك الحسن الثاني من مراكش ، الرئيس الحبيب بورقيبة من تونس، الكولونيل معمر القذافي من ليبيا.

بعضهم قد توفي اليوم، لكن أسماء أخرى قد تأتي و تنضم إلى أسمائهم في الغد. في عام ١٩٥٨ قمت بمهمة الوسيط بين جمال عبد الناصر و الجنرال ديغول في محاولة لأنهاء حرب الجزائر، و في عام ١٩٧٠ بين صاحب الجلالة الحسن الثاني و الرئيس بومبيدو للمساعدة على إزالة سوء التفاهم الذي وقع بين فرنسا و مراكش، ذلك لأن عملي قد تمت ممارسته دائماً بإتجاه التفهم، و السلام، و تعريف أفضل بالعلاقات الفرنسية العربية.

و لما كانت كتبي قد ترجمت إلى اللغات الأنكليزية، و الألمانية، و الإيطالية، و الإسبانية، و الدانمركية، و اليابانية، فقد حملت كتاباتي فكري كله إلى ما وراء فرنسا إلى حيث لا يستطيع صوتي أن يذهب. كنت أردد دون إنقطاع: (لنحيِّ ولادة عالم عربي حر وموحد، ذلك لأننا في حاجة إليه قدر حاجته إلينا. إن بعضنا يحتاج إلى بعض لأننا نتكامل معاً يجب أن نكون أخوة إذا أردنا أن نكون كاملين، لا مشوهين، و لا ناقصين و بائسين).

لا شك أنكم لم تكونوا تعرفون هذا كله، لكنكم ستعرفونه في الوقت الحاضر. آه بأي صبر نافذ انتظرت هذا اليوم!

هذا ما لم أنقطع عن تكراره و ترديده في كتبي. هل هي كتب سياسة؟ بكل تأكيد. و ما هو الشيء غير السياسي في أيامنا هذه؟ لكنني، فيما وراء السياسة، أردت منها أن تعرّف بكم تعريفاً أفضل في بلادنا، وأن تخلق بيننا مزيدا من علاقات الود والتقدير ، وأن تظهركم تستطيعون أن تكونوا كبارا ونبلاء ، اذ منذ يتم تبادل التقدير ، لا يعود في الوسع تبادل الكراهية ، فالتقدير هو أساس الصداقة .

أوه ، أعلم جيدا أن بعضكم قد يهز كتفيه ويقول : (ليس للكتب التأثير الكبير المطلوب . ماذا تستطيع هذه الكتب أن تفعل ضد القوى الكبيرة في عصرنا : الذهب ، النفط ، الطائرات ؟

عودوا إلى صوابكم إن للكتب تأثيرها الكبير وقد كان لها مثل ذلك في كل وقت.

فهل يجب أن نذكركم انتم يا رجال الكتاب ، بهذا الأمر ؟

لماذا يكون للكتب هذا التأثير؟

لأنها تحمل إلى الناس انفعالات ، ومعارف ، وافكارا تكمن طويلا في الأعماق ، ولكنها تستيقظ فجأة وكما قال فكتور هيجو ، واحد من اكبر الشعراء الفرنسيين :

(ليس ما هو أقوى من فكرة جاء وقتها أبدا) .

نوفمبر (كانون الثاني) ١٩٧٦

محرم ١٣٩٦

بنوا ميشان

مقـدّمة

بقـلم المعـرب

رمضـان لاونـد

كل معرفة من معارف البشر ثمرة لحافز من الحوافز الملحة التي لا يستطيعون مقاومتها ...

وكلما زاد الحافز إلحاحاً زادت الرغبة في اقتحام المجاهل من عالم المعرفة الواسع ... وقد تباينت المعارف في شروط الصحة والوثاقة بتباين الظروف التي تصاحب كلا منها والتجارب التي ترافقها والمناهج التي يستعين بها أصحابها ...

ومهما تكن قيمة المعرفة في ميزان الصحيح والخطأ والحق والباطل فهي ضرورة بشرية يشهد على أهميتها أنها قد صاحبت الأنسان منذ فتح عينيه على الدنيا في يوم من أيام التاريخ الموصولة بظلمات الأزل.

ذلك لأن كل معرفة هي استجابة لمطلب من المطالب التي تلح على الأنسان وتضغط عليه ... وبتعبير آخر هي ثمرة للدوافع الغريزية التي تحفل بها النفس البشرية ...

كان الأنسان منذ طفولته التاريخ يحلم بالتغلب على الموت ويكافح للتحرر من المرض والجوع والفقر والضعف . إنه يطمح باستمرار للخروج من قيود الزمان والمكان ...

أما رغبته في الخروج من قيود الزمان فهي نابعة من طموحه إلى الخلود ...

وأما رغبته في الخروج من قيود المكان فهي نابعة من طموحه إلى القوة التي يستوعب بها أطراف الموجودات كلها . ويدخل في مفهوم الخروج من هذه القيود وتلك كل العلوم والمعارف على اختلاف ما تتصف به من الوضوح والغموض والوثاقة والضعف ابتداء من الأساطير التي تميزت بها بدايات المسيرات البشرية وانتهاء بالعلوم الموضوعية التي يفاخر أهل النهضة الحديثة بأنها قمة المعرفة البشرية حتى اليوم...

ومهما تكن قيمة هذا التصنيف فنحن لا نحاول اليوم مناقشته بل نقتصر على رواية الوقائع المتتابعة التي رفعت بها قواعد الحضارات البشرية مع ملاحظة أن المعرفة البشرية حتى اليوم ما تزال موصولة في كثير من ميادينها بالعواطف والأنفعالات والنظرات الخاصة والحوافز الفردية والمصالح الضيقة والتقاليد والاعتبارات الوطنية والقومية وغيرها من العصبيات الفردية والجماعية ...

ولما كانت هذه المقدمة قد كتبت كمدخل لكتاب يترجم لحياة المغفور له عبد العزيز بن سعود منشىء المملكة العربية السعودية وباني أمجادها ، فمن الطبيعي أن نسلط الضوء على معرفة بالذات هي معرفة التاريخ ...

والجدير بالذكر أن التاريخ قد صاحب مسيرة البشر منذ البداية ...

وتعاقبت على أخباره حالات لا تحصى من الوضوح والغموض والموضوعية في البحث والعصبية في تقرير فاختلطت فيها الأسطورة بالحقيقة ... وامتزجت فيها الرغبة في التحقيق الموضوعي وتقرير الوقائع كما وقعت في أيام الناس ثم الرغبة الخفية أو الظاهرة في تمجيد الأحداث والرجال الذين صنعوها.

وإذا كانت كتب التاريخ وتراجم الرجال قد تفاوتت في تقرير الوقائع الصحيحة والركض وراء الأخبار المحققة والتأثر بالمواقف الفكرية المسبقة والتقاليد والعادات فإنها ما تزال بالنسبة للأجيال الطالعة ضرورة تربوية وحاجة من حاجات الفرد والجماعة التي لا يستغنى عنها.

السبب في ذلك أن إحياء الماضي ، الذي هو شأن المعرفة التاريخية ، جزء من تلك الرغبة الملحة العميقة في مد طرفي الوجود عند كل جيل ...

فهو من ناحية يجعل الجيل الحاضر يشعر بامتداده في الماضي ويستمتع به مفاخراً بما تحقق فيه من المنجزات ، وهو من ناحية أخرى يشعر هذا الجيل بأن خروجه من الدنيا لن يخرجه من ذاكرة الأجيال القادمة . إنه بتعبير آخر جهد من الجهود التي بذلها الأنسان وما يزال للتحرر من قيود الزمان التي تضغط على روحه وعقله ويشعر معها بأشباح العدم من قبله ومن بعده .

*****

والواقع أن التاريخ قد بدأ علىصورة حكايات تتصل بالأسطورة وتختلط بعواطف من يحكونها وينقلونها من جيل إلى جيل وتتأثر برغباتهم الخفية والظاهرة ... منها ما يكون دون الواقع ومنها ما يكون فوقه. لكنها في كل حال قد قامت بدورها في شحذ الهمم وإشباع الرغبات وتحريك المسيرة العامة والخاصة وتعبيد الطريق إلى المستقبل ...

ثم أخذ التاريخ يبتعد شيئاً فشيئاً عن الأسطورة الخالصة ويعمل وسعه على نقل الوقائع كما حدثت في ماضي الأيام والسنين . لكن محاولته لم تكن هينة يسيرة . لقد اصطدمت دائماً بفنون من العصبيات والأفكار المسبقة والعقائد والميول وبصورة خاصة بمستويات الذكاء البشري .

حتى إذا جاءت النهضة الحديثة ووضعت المناهج الموضوعية للبحث والتحقيق استطاع التاريخ أن يدخل مرحلة العلوم اليقينية في خطوات وجلة قلقة . لكنه بقي مقيداً إلى حدود متفاوتة من الميول والرغبات العميقة والخضوع لمعطيات نابعة من العواطف والأنفعالات الفردية والاسرية والعشيرية والحزبية والقومية .

ومهما يكن شأن هذه الضغوط التي تمارسها المعطيات المشار إليها فإن التاريخ كعلم قد سجل خطوات واسعة إلى الأمام باتجاه التحقيق الموضوعي والمعرفة الخالصة.

هذه بالإضافة إلى المعارف الأخرى التي يفترض من المؤرخ أن يستوعبها لإعطاء نتاجه الموضوعية العلمية الممكنة.

فالتاريخ لم يعد مجرد حكايات منقولة إلى الأفواه بل أصبح يعتمد على عناصر متعددة ومصادر كثيرة تأتي في مقدمتها الوثائق التي تركها السابقون لمن بعدهم . والوثائق هذه هي من الغزارة والتنوع بحيث احتاجت وما تزال إلى الترتيب والتصنيف والتمييز بين الصحيح وغير الصحيح منها كما احتاجت وما تزال إلى المهارة في قراءتها واستخراج الحقائق من خلال السطور والمعالم فيها ...

كما أن المؤرخ في حاجة ماسة إلى عناصر أخرى نوردها على سبيل المثال لا الحصر...

١) إلى اثراء ثقافته التاريخية بحيث يستوعب التيارات الكبرى التي تتحرك بها الأمم والشعوب عبر القرون .

٢) إلى دراسة وافية لجملة من العلوم الإنسانية من مثل علوم النفس والاجتماع والأنثروبولوجيا والفلسفة .

٣) إلى خيال غني يساعده على ملءالثغرات وترميم الفراغات في سلسلة الوقائع التي تحتويها الوثائق والمعالم الأثرية والأخبار المحققة .

٤) إلى قدرة على الأداء يقدم بها مادة التاريخ بالأسلوب الحي الذي تشترك في صياغته المعرفة الموضوعية من ناحية والموهبة الأدبية المعطاء من ناحية أخرى.

كل هذه العناصر مجتمعة تحقق نوعاً من التكامل في شخصية المؤرخ وتوفر له المادة التاريخية بجانبها العلمي والفني بحيث تخرج هذه المادة صورة حية للوقائع وتحكي حكايات الرجال والنساء التي يجد معها القارىء نفسه أمام مشاهد حافلة بالحيوية والحرارة فتتحرك في خياله كما تتحرك الشخوص أمام عينيه فوق خشبة المسرح.

***

في ضوء هذه الملاحظات نستطيع القول بأن كتب التاريخ قد تفاوتت في قيمتها العلمية بتفاوت الكفاءات التي يتميز بها واضعوها في تحقيقهم للوقائع والأحداث الواردة في فصولها. وكلما كان المؤرخ أقرب إلى الحيدة في بحثه كانت الدراسة التي يضعها أقرب إلى الواقع وأصدق في رواية الأحداث وتقديم الرجال ..

وقد حرصت " دار أسود للنشر " على تقديم النتاج التاريخي الحديث مستندة في اختيارها إلى المعطيات والتحفظات المشار إليها في الفقرات السابقة فكان هذا الكتاب الذي نقدمه إلى القارىء الكريم بعنوان : " ابن سعود –ولادة مملكة " للأستاذ المؤرخ الفرنسي " بنوا ميشان " .

والجدير بالذكر أن بنوا ميشان لا يحتاج إلى تعريف . يكفي أن نعلم بأنه قد قدم إلى المكتبة الفرنسية جملة من المؤلفات الموثوقة ترجم فيها لبعض عظماء الرجال الذين تعاقبوا في القرن العشرين وفي مقدمتهم: مصطفى كمال أو موت امبراطورية ، وابن سعود – ولادة مملكة ، وفيصل الذي هو آخر مؤلفاته . يضاف إليهم ترجمته المحققة لرجال غربيين شاركوا في صنع جانب من الأحداث التاريخية الهامة نذكر منها لورانس ملك الصحراء غير المتوج ,الذي لعب دوراً كبيراً في الجزيرة العربية خلال الحرب العالمية الأولى والسنوات القليلة التي تلتها.

ومن الدراسات التي أرّخ بها لهذا القرن العشريني نذكر :

١) تاريخ الجيش الالماني ١٩١٨ - ١٩٤٦ .

٢) حصاد الأربعين : مذكرات أسير من أسرى الحرب.

٣) هذا ما يبقى : رسائل جنود فرنسيين سقطوا في ميدان الشرف ١٩١٤ — ١٩١٨ .

٤) ستون يوماً زلزلت الغرب : ١٠ مايو (ايار) — ١٠ يوليو (تموز) ١٩٤٠ .

٥) ربيع عربي

٦) الملك سعود

٧) الجزيرة العربية مفرق القرون

واذا كنا قد حرصنا على الإشارة إلى كثير مما كتبه ، فلكي نسلط الضوء على ميدان نشاطه الفكري الذي هو كما يبدو لكل قارىء ميدان التاريخ . إن " دار أسود للنشر " إذ تختار كتابا من كتب بنوا ميشان فإنما تفعل ذلك بسبب من الدور الكبير الذي قام به هذا المؤرخ المعاصر في حكاية الأحداث القريبة من عصرنا . وهي مهمة تحتاج إلى حسّ تاريخي متميز مع ثراء في الفكر وشمول في الاستيعاب.

***

وقد يتساءل القارىء عن السبب الذي دفعنا إلى اختيار كتاب يتحدث عن ابن سعود دون سواه.

وقبل أن نجيب عن هذا التساؤل نلفت نظره إلى أننا قد اخترنا للمرحلة التالية كتاباً آخر للمؤلف نفسه بعنوان : فيصل . ذلك لأن المغفور له فيصل ابن عبد العزيز بعد سقوطه شهيداً في ٢٥ مارس (آذار) من عام ١٩٧٥ أصبح جزءاً مكملاً للجزء الذي يتمثل في والده المغفور له عبد العزيز بن سعود ...

ففيصل هو الأغصان الوارفة التي بدأت بظهور الثمرات في الوقت الذي كان فيه عبد العزيز هو الجذور التي ترسخت بها قواعد المملكة وارتفعت قواعدها كما يرتفع جذع الشجرة من هذه الجذور ...

ثم نعود لنقرر أن ابن سعود لم يخرج إلى الدنيا ليجد أمامه ملكا عريضا وثروات كبيرة ونفوذاً واسعاً يضم شتات الأرض التي ترتفع فوقها اليوم معالم المملكة العربية السعودية . لقد خرج إلى الدنيا ليجد نفسه في أسرة مغلوبة على أمرها مبعدة عن مواطن النفوذ ، ضاقت بها الأرض بما رحبت حتى لم تعد تتسع لبيت يؤوي عبد العزيز الطفل ووالده عبد الرحمن والقلة القليلة من الأقرباء والأنصار.

والواقع ان الكاتب قد أفاض بالحديث عن طفولة ابن سعود والأيام السوداء التي تعاقبت عليه وعلى أسرته حتى نهاية العقد الثاني من عمره ...

ومن هنا تبين لنا ان ابن سعود قد حفر طريقه إلى المستقبل في أرض وعرة ارتفعت فوقها جبال من الصخور الغرانيتية وعصفت بكل جوانبها رياح رملية حارة يساندها الجوع والعطش والاحساس بضغط الأعداء ومطاردتهم له حيثما كشفت الأحداث عن وجوده .

لكن ابن سعود ، الذي سيطلع القارىء على ما كتب في هذا الكتاب ببراعة وصدق في وصف البطولات والمآسي التي تميزت بها أسرته منذ تحركت أطماح العقيدة واحلام المجد في قلب محمد بن سعود واضع حجر الأساس لبنية هذه الأسرة المجيدة ، قد صمم منذ بدأ يدرك ما حوله ويتعرف إلى من حوله من الأصدقاء والأعداء على أن يعيد للأسرة دورها في صنع التاريخ وأن يوقظ الجزيرة العربية ويذكر الرجال والنساء فيها بما قدمته في الماضي وبما تستطيع أن تقدمه في مستقبل الأيام.

ومن حق التاريخ علينا أن نقول : أن عبد الرحمن والد الفتى عبد العزيز قد أوقد نار الطموح في نفس ولده وكان يعده منذ طفولته الأولى لتسلم المهمات الخطيرة ايمانا منه بأن طفله هذا دون البقية من اولاده يتمتع بصلابة في الإرادة وبسطة في الجسم وذكاء في العقل تؤهله للقيام بما لم يستطع غيره من ابناء الاجيال السابقة أن يقوم به.

وقد أثبت الفتى ابن سعود في المواقف الحرجة التي تضيق فيها صدور الرجال وتتلاحق أنفاسهم خوفاً من مفاجآت الغد ,لقد أثبت أنه عند حسن الظن وأنه جدير بالاستجابة لكل التحديات.

ولا نحب هنا أن نستبق أحداث القصة فنختار بعضاً من هذه المواقف التي تفجرت بها شخصية ابن سعود وبرزت فيها معالم الأصالة والقوة وبصورة خاصة حرارة العقيدة في قلبه. فإن في صفحات الكتاب الذي نقدمه إلى القارىء منقولاً إلى العربية ، ما يشبع رغبته ويرضي فضوله إلى معرفة حقائق العصر.

وخلاصة القول أننا اخترنا كتاباً يؤرخ لابن سعود لأن ابن سعود هو من الرجال الذين تجتمع فيهم أحلام أمة وقصة بطولات ونفحات عقيدة.

***

ويزيد في أهمية اختيارنا لكتاب يترجم لحياة ابن سعود أن عبد العزيز قد أنشأ مملكته فوق أرض وبين أفراد شعب كان وما يزال وسيبقى لهم دور خاص في صنع الأحداث الكبيرة في منطقة هامة من العالم تمتد أطرافها عبر القرون ويتزايد تأثيرها الحضاري مع بداية كل عصر . بل إن في وسعنا القول أن الجزيرة العربية التي ارتفعت فوقها معالم المملكة العربية السعودية منذ أكثر من خمسين عاماً هي أشبه بالرحم تزداد خصوبة في العطاء في كل دورة من دورات الحمل.

ونحن لا نحاول هنا أن نصف مراحل هذا الحمل التاريخي فقد تولى المؤلف الإشارة إليه على صورة من الصور ... لكننا نضيف إلى ما ورد في هذا الكتاب بعض الملاحظات التي نتمنى أن نفرد لها في يوم قادم دراسة مستقلة.

١ — الملاحظ أن التحركات الحضارية التي نشأت حول الجزيرة العربية في بلاد الشام والعراق باعتبارها المخرج الطبيعي لقلب شبه الجزيرة كانت حصيلة الهجرات البشرية التي انطلقت من الجنوب إلى الشمال الشرقي أو الغربي .

فكانت كل هجرة بمثابة الوقود الذي تنتفض به وتتحرك عقول وقلوب وارادات وترتفع بها مدن وقرى وتنشأ ممالك وتتحقق عن طريقها غزوات واسعة في ميادين العلوم والآداب والاديان.

إن في وسعنا القول بأن الجزيرة العربية هي التي قدمت العنصر البشري الحي الذي صنع حضارات البابليين والآكاديين والآشوريين والآراميين والأنباط وغيرهم ممن تركوا وراءهم آلاف المعالم والآثار التي تحكي حكاية ما قدموه للعالم.

وبالرغم من أن الهجرات البشرية التي خرجت من الجزيرة العربية كانت في كثرتها الساحقة تتجه نحو العراق وبلاد الشام إلا أنها قد اجتازت المنطقة الغربية والغربية الشمالية أي في شرق افريقيا والشمال الشرقي منها حيث تقوم مصر والسودان وإلى الجنوب منها ارتيرية والصومال . فالتاريخ حافل بالوقائعالتي تشهد على دور هذه الهجرات في صنع الافكار والعقائد ورفع الهياكل والقلاع وبناء المدن والدساكر.

٢ – يلاحظ أيضاً أن الجزيرة العربية قد حققت عطاءها الكبير بالهجرة البشرية الواسعة التي حملت معها مادة حضارة هي أخصب حضارة عرفها الشرق كله على الأقل , إنها حضارة الإسلام.

وليس أدل على عظمة هذه الحضارة وقدرتها على البقاء وفعاليتها في صنع مسيرات البشر أنها ما تزال حتى اليوم الحقيقة الكبرى التي تتحدد بها أصالة الشعوب العربية المسلمة . بل إن إشراقة هذه الحضارة قد تجاوزت الأرض العربية الواسعة لتستوعب قلوب الملايين من المسلمين غير العرب ولتحقق على الأقل وحدتهم الدينية والحضارية وتشدهم جميعاً إلى البيت الحرام حيث يرتفع بناء الكعبة المشرفة هذا البناء الذي يرمز إلى وحدة العرب والمسلمين ويلم شملهم في حد أدنى من التجمع والالتقاء.

٣ – يلاحظ أن الموجة العربية الإسلامية لم تقف عند الحدود التقليدية التي عرفت للهجرات السابقة بل تجاوزتها لتضم إلى جسم الأمة والأرض العربيتين مناطق واسعة في غربي آسيا وشمالي أفريقيا وجانب من غربي القارة السوداء وشرقيها. هذه المناطق الشاسعة لم تعتنق دين العرب وحسب بل أصبحت تتكلم لغة العرب وترتبط بالولاء لتراثهم الثقافي وتعتبر نفسها جزءاً من الوطن العربي والأمة العربية.

صحيح إن الإسلام هو الذي استقل إلى حد غير قليل في تحقيق هذا النمو العربي . لكن الإسلام لا يبلغ أغراضه الا بالرجال الذين يعتنقون عقيدته ويتخلقون بأخلاقه.

ومن هنا يتبين لنا أن اختيارنا لكتاب يترجم لحياة ابن سعود مؤسس وباني المملكة العربية السعودية قد زادت خطورته وبدت أهميته أكثر فأكثر بسبب الأرض التي رفعت فوقها قواعد هذه المملكة وأحفاد الرجال الذين أسهموا في صنع " المعجزة العربية " كما تقول السيدة " دوجواشون " المستشرقة الفرنسية في كتابها " المعجزة العربية [١] " .

***

على أن الحوافز التي دفعتنا إلى اختيار هذا الكتاب لا تقف عند شخصية المؤلف ولا تجد ما يفسرها في شخص ابن سعود نفسه أو في الدور الذي قامت به الجزيرة العربية على امتداد القرون وحسب, فهناك حافز آخر لا يقل أهمية عن تلك التي ذكرت من قبل .

لقد بدأ العالم يتحدث عن المملكة العربية السعودية ومؤسسها في اهتمام بالغ منذ العام الذي تحققت فيه وحدة الشاطئين الشرقي والغربي بسقوط دولة الحسين الهاشمي عام ١٩٢٦ وبخروج الملك علي ولده من أرض الحجاز في سفينة عبر بها البحر الأحمر بعد استسلام جده أمام الحصار الوهابي.

ذلك أن المراقبين قد وجدوا في الإنجازات الضخمة التي حققها ابن سعود ما يلفت النظر ويشد العقول والقلوب رغم انتقاده لكثير من وسائل النصر وأسباب القوة.

---

١) المعجزة العربية تأليف السيدة دوجواشون تعريب رمضان لاوند صدر في دار العلم للملايين في بيروت.

ولعل أهم ما شد العقول والقلوب عند المفكرين هو نجاح ابن سعود في تحقيق الوحدة بين القبائل المتعادلة في طول الجزيرة العربية وعرضها . لقد احتاج إلى الكثير من الشجاعة والذكاء مع قدر كبير من الأناة وسعة الصدر بالإضافة إلى الحزم البالغ . كما أثبت هذا القائد الرائد بأن العقيدة الدينية هي القوة الكبرى التي تستطيع أن تتغلب

على كل العقبات وأن تجتاح كل السدود . ولا شك أن نظام الاخوان الذي ابتدعه ووضع أنظمته وسهر عليه شخصياً كان هو الكبسولة التي تفجرت بها طاقات الشعب العربي في طول الجزيرة العربية وعرضها.

ولكي ندرك المتاعب التي واجهها ابن سعود في ترسيخ هذا النظام الديني نذكر أن الذين استجابوا لدعوته لتكوين أول مستعمرة وهابية زراعية رغم المغريات الكثيرة والنفوذ المعنوي الكبير الذي كان يتمتع به لم يزيدوا على ثلاثين رجلاً ثم أخذ العدد يزداد أكثر فأكثر حتى بلغ خمسين ألفا في فترة قصيرة جداً .

إن الشيء الثابت أن أعظم ما تميز به ابن سعود هو قدرته الكبيرة على كسب القلوب وتعبئة الرجال و هي قدرة غالب بها قروناً من العصبيات والعداوات القبلية ومحا بها ألوفا من الثارات والأحقاد التي صنعتها المنازعات حول مواطن الماء والكلأ .

وانتصر ابن سعود في معركته التي هي جوهر أصالته كإمام لشعب من المؤمنين وملك لمئات من العشائر والقبائل .

***

لكن هذا الانتصار لم يكن كل شيء في حياة ابن سعود أو في حوليات المملكة العربية السعودية . فقد شاءت الإرادةالإلهية أن تضيف إلى عنصر القوة والميزة القيادية عند الملك عاملاً آخر زلزل الأوضاع العامة في البلاد وانتقل بها إلى مرحلة جديدة في التاريخ الحديث .

كان ابن سعود يحلم بإحياء الأرض . وكان يؤمن بأن في وسع الجزيرة العربية أن تزود شعبها بما يحتاج إليه من أنواع الغذاء . يغذي هذا الإيمان في قلبه إحساس عميق بوجود المياه الصالحة للزراعة وثقة لا تتزعزع بما كان أبناء شعبه يتداولونه من أخبار هذه المياه وتوفرها في مناطق كثيرة واسعة من أرض الجزيرة . فلم يتردد في جلب الخبراء من الخارج الذين أكدوا له ظنه بل عينوا له بعض المواطن التي تتوفر فيها المياه الغزيرة .

وهنا أصبح الحلم عند حافة الحقيقة وبدأت مرحلة جديدة من مراحل البحث عن المياه لإرواء المناطق الخصبة في البلاد فحفرت الآبار الكثيرة وخرجت المياه الغزيرة منها وأخذت الصحراء تلبس لبوسها الأخضر شيئاً فشيئاً .

لكن المفاجأة الكبرى لم تكن في توفر المياه والكشف عن مواطنها رغم أهمية هذه المياه في حماية الوطن وترسيخ قواعد الدولة وتحضير البدو الذين يمثلون الأكثرية الساحقة في شعب الجزيرة . هذه المفاجأة كانت في الكشف عن حقول النفط الهائلة التي لعبت دور الزلزال في ميدان الاقتصاد السعودي بخاصة والعالمي بعامة.

لقد اهتزت البيوت المالية في لندن ونيويورك وباريس وغيرها من العواصم الغربية وتزاحم مندوبو الشركات النفطية العالمية عند أبواب القصر الملكي في الرياض في محاولة جادة للحصول على امتياز للتنقيب عن النفط .

ولعلنا هنا لا نحتاج إلى الإطالة في الحديث عن دور النفط في تغيير المعالم الأساسية في دولة المملكة العربية السعودية فإن قارىء اليوم يعيش يومياً مع أحداث النفط ويشهد التحولات الهائلة التي تجري في الاتجاهات الأفقية والعامودية في مسيرة الجزيرة العربية المعاصرة.

يكفي أن نقول : أن المملكة العربية السعودية قد حققت قفزة واسعة جداً جعلتها في مقدمة المسرح العالمي للأحداث ولا سيما الأحداث الأخيرة التي تفجرت بها الأوضاع في العالم العربي ابتداء من حرب رمضان ، السادس من أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٧٣ .

ولا شك أن كتاب - فيصل — الذي سيقدم إلى القارىء بعد هذا الكتاب هو الذي يتولى حكاية الجانب الهام من أحداث الحرب الأخيرة ويكشف عن خفايا المواقف العربية والدولية والصهيونية بخاصة.

***

وقبل أن نضع القارىء أمام مادة الكتاب الذي نقدم له بهذه المقدمة السريعة نسجل ملاحظة أخيرة تلفت النظر وتكشف عن وجود الحلقة المفقودة في عالم الرجال والجماعات والتي تعارف الناس على تسميتها بـ" الحظ " .

فإذا وافقنا على أن الحظ الذي هو مفهوم غامض في العقول كان علينا أن نقول : أن ابن سعود الذي يقدم بنوا ميشان قصة حياته ونشأة المملكة التي أسسها هو من الرجال المحظوظين . فقد كشفت هذه القصة في مناسبات

متعددة عن دور العناية الإلهية في اخراج ابن سعود من عدد من المآزق الشديدة . من بينها المأزق الذي واجه ابن سعود ووالده عبد الرحمن وثلاثة من الأصدقاء في صحراء الربع الخالي التي كادت تغرقهم في هوة اليأس .

وبينما كانوا جميعاً باستثناء ابن سعود الذي كان في الثالثة عشرة من عمره يستعدون للقاء الموت في تلك الأرض المنكرة امتدت يد الله لأنقاذهم . ثم تكرر هذا المأزق في مناسبات أخرى واجهت فيها مسيرة ابن سعود متاعب بدا للجميع تعذر التغلب عليها ثم لم تلبث أن تداعت بتدخل خفي من العناية الإلهية أيضاً ..

فاذا كان هناك من يعتبر هذه الأحداث المفاجئة علامة من علامات الحظ وعنواناً على يمن النقيبة فنحن نعتقد أن ما يسمى بالحظ هو العناية الإلهية التي تتدخل في الفترة الحاسمة لتعبيد الطريق أمام الرجال ذوي الإرادة الصلبة والإيمان العميق.

ولا شك أن ابن سعود هو من هؤلاء الرجال في الطليعة ...

***

نعتقد أننا قلنا ما يكفي حتى الأن للكشف عن الأسباب التي دفعتنا إلى نشر كتاب " ابن سعود – ولادة مملكة " في اللغة العربية وتقديمه إلى القارىء على أساس أنه شاهد من شواهد طريق الأمة العربية الصاعدة إلى المستقبل .

ورجاؤنا أن نكون قد وفقنا إلى نقل النص الفرنسي بأقصى ما يمكن من الضبط والأمانة في الأداء . والله نسأل أن يجعل من هذا الكتاب صورة صادقة لأروع قصة من قصص البطولات العربية في هذا القرن.

المعرب

رمضان لاوند

الباب الأول

الحركة والجمود عند العرب

(٥٠٠٠ ق م – ١٨٨٠ ب م)

لا نكاد نتمثل الجزيرة العربية غير أنها كتلة صحراوية من الحجارة والرمال ، وأنها أتون يستهلك ذاته في بطء تحت سماء ضارية . انها ، على العكس من كثير من المناطق الأخرى في العالم ، هي البلد الذي صودر فيه الدور الأولي للأرض لمصلحة الضوء والسماء . انها تبدو وكأنها صورت من عنصر غير مادي. أما آفاقها فهي أقرب إلى تلك الصور المتوهجة التي تولد في أعماق النار منها إلى مشهد من مشاهد الطبيعة .

ومع ذلك ، فإنها لم تكن دائماً على هذه الحال . ذلك أن المؤرخين يؤكدون لنا ، أن الجزيرة العربية ، كانت في عصور متقادمة العهد ، منطقة خضراء خصبة تسقيها أنهار كثيرة ، بل بلاداً باسمة تفترشها على التناوب كل من المراعي والغابات ، في الوقت الذي كانت فيه أوروبا تتمدد متلفعة تحت الكفن الأبيض للعصر الجليدي .

كيف كانت حياة تلك الجزيرة العربية الناضرة والمكسوة بالغابات ، حيث تخر الينابيع في أعماق الفرج المكشوفة ؟ الواقع أننا لا نعلم شيئاً ، إذ أنه لم تبلغنا أية شهادة عن ذلك . ومما لا شك فيه أن حيوانها كان شبيهاً بحيوان افريقيا والبلاد الهندية ، الاقليمين اللذين تقوم الجزيرة العربية بدور صلة الوصل بينهما. لقد كان من الضروري أن نلتقي فيها حيوان الماموث والأوروك ، والجواميس والغزلان ، وكذلك النسور والفهود . لكن هذا كله لم يعد موجوداً أبداً .

وعندما بدأ الجليد ينسحب إلى الشمال ، خرجت أوروبا من سباتها واستيقظت على الحياة ، بينما شهدت الجزيرة العربية الشمس وهي تفترس غاباتها فتتحول إلى صحراء . هكذا تبدلت أشجارها المتكلسة إلى هباء وأصبحت الأمطار أكثر ندرة ، وجفت الأنهار,فانتشرت معالم التعرية والتآكل أكثر فأكثر ، بينما غطت الرياح التي لم يعد يعترض مسيرتها شيء ، وهي رياح الجنوب الرهيبة ، مروجها بطبقة من الرمال المتحركة .

كل شيء بقي على ما هو عليه في أثناء ألوف كثيرة من السنين . أما عند تخوم الجزيرة فقد ولدت مدنيات على مثال الصواريخ المتوهجة ، وارتفعت نحو القمة ، فلمعت كأنها البرق الساطع ، ثم انهارت. وقد كان ارتفاعها وهبوطها من السرعة بحيث أن بهاءها كان يختفي متضائلاً أمام الإحساس بهشاشتها.

هكذا برزت ممالك كبيرة ثم عادت إلى العدم . ففي الشرق ، عند شواطىء دجلة والفرات شوهدت على التعاقب كل من أور ، بابل ، نينوى والمدائن ، كما شوهدت حول هذه العواصم الغنية المترفة ، أمبراطوريات السومريين والأكاديين والأشوريين والفرس . كلها ضاعت في ظلمات التاريخ الواحدة بعد الأخرى ، لم تترك وراءها غير سلسلة من المدن الميتة ، يستمر ذوبان أقواس النصر فيها تحت الشمس . أما في الغرب ، في وادي النيل ، حول طيبة وممفيس ، فإن مصر الفراعنة قد ارتفعت وبلغت قمة بهائها ثم سقطت بدورها في الفناء ، ولم يعد يسمع غير الصراخ الحاد للطيور الجارحة ، محلقة فوق خرائب القبور الملكية . وفي الشمال عند شواطىء البحر الأبيض المتوسط ، برزت فينيقيا وازدهرت، وكذلك التالاسوقراطية الإغريقية والأمبراطورية الرومانية .

لكن الجزيرة العربية بقيت في منأى من هذه الحركات . لقد كانت مستعصية على الزمن والتغير والتاريخ ، بانطوائها على نفسها في صمت وجمود. ذلك أن العالم المتمدن لم يكن قد توصل إلى إجتياز ستار النار الذي يبعدها عن الأنظار . وقد ظن أنها سعيدة لأنها كانت مجهولة.

أما القليل الذي كان يعرف عنها فقد كان متناقضاً وغامضاً . وبين وقت وآخر كان أحد التجار القادمين من الهند ، ممن يحملون إلى صور أو جبيل بعض المجوهرات والعاج أو المرمر ، يتكلم بانبهار عن الممالك التي كان قد اجتازها خلال رحلته ويصف بحماسة بالغة مدناً مختبئة وراء رمال الصحراء . وهنا يبادر العلماء والكتبة الناسخون إلى احتواء هذه الأساطير وتوثيقها دون أي تحقيق أو تثبيت . وعلى ذلك فقد عدّد بطليموس في " العربية السعودية "

وحدها مائة وسبعين أطما بينها ست حواضر وخمس مدن ملكية [1] .

هذا وقد عهد الأمبراطور أغسطس إلى قنصل مصر الإقليمي آليوس غالوس ، باجتياح شبه الجزيرة للاستيلاء على القلاع التي كثر الحديث عن ثرواتها ، رغبة منه في معرفة الحقائق المختبئة وراء هذه الأساطير . وقد جمع القنصل فيالقه ، وأمر رجالها بارتداء دروعهم النحاسية الثقيلة واخترق معهم قلب الجزيرة العربية عام ٢٤ ق — م . لكنه لم يجد فيها غير أرض ممحلة حزينة ، تسكنها قبائل متوحشة لا تكاد تكون لها صورة بشرية . وقد هلك أكثر الجنود من العطش خلال تلك البعثة . أما الآخرون فقد تساقطوا تحت ضغط الحرارة والإنهاك الشديد . ثم ترك الهلكي للطيور والجوارح بعد أن جرى تجميعهم في سرايا مئوية . وتمضي بضعة أسابيع فيجد البدو الذين يمرون من هناك جثثهم نصف مغطاة بالتراب ، وما تزال قبضاتها العارية الهزيلة مشدودة على سيوفها.

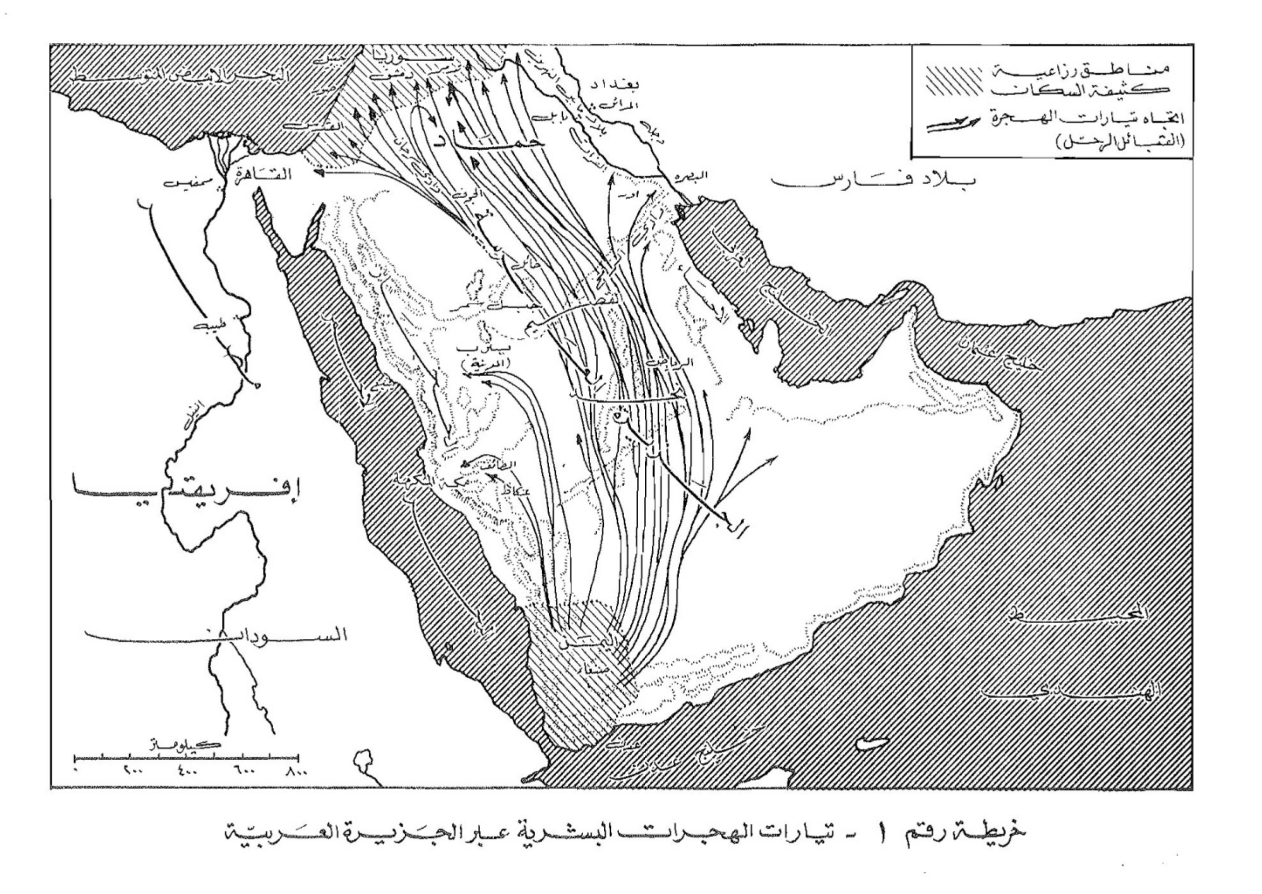
ثم أقلعت روما عن غزو شبة الجزيرة عملاً بنصيحة آليوم فبقيت الجزيرة العربية بكراً ومعزولة عن العالم ، " ذلك أنها كانت منطقة قاحلة غير مضيافة ، وبلاداً عنيفة قاسية ، يسكنها أناس لهم عنف بلادهم وقسوتها ".

وقد نجح بعض القبائل في بناء بيوت متواضعة من الآجر واللّبن حيث يتوفر قليل من الماء أو توجد بئر مستدير وسط واحة من الواحات أو عند شاطىء البحر . أما السكان الآخرون فقد كانوا يعانون حياة يائسة . وكان هؤلاء يتألفون من الرعاة البدو الذين يقودون أمامهم قطعاناً هزيلة بحثاً عن مرعى أكثر هزالاً . كانوا بخشونتهم وجوعهم وحرمانهم من كل ثقافة لا يملكون كثروة وحيدة لهم غير حيويتهم .

لكن هذه الحيوية كانت ضخمة ضخامة كل ما تحدثه الصحراء في أعمال الرجال .

---

١) بطليموس : جغرافية ، الكتابان — ٥ و ٦ — أنظر أيضاً سترابون الكتاب ١٧ .



خريطة رقم ١ - تيارات الهجرات البشرية عبر الجزيرة العربية

ذلك أن الصحراء لا تبدو جامدة وخالية إلا لأولئك الذين يجهلون أسرارها . ان موجات بطيئة غير منقطعة من الكائنات البشرية كانت تسيل في هجرات عبر هذا الإطار الهامد والمتحجر، حيث لا شيء يبدو متحركاً منذ أوائل الخليقة ، منطلق من اليمن ، عند الزاوية الجنوبية الغربية من شبه الجزيرة ، لىتدو في الشمال الشرقي منها ، في مناطق أكثر خصوبة من سوريا والعراق .

وقد كانت نسبة المواليد منخفضة ، والوفيات مرتفعة في التجمعات الحضرية للقطاعات المتوسطية . وعلى ذلك فقد كانت المدن تمتص الفائضمن الفلاحة المحلية بسهولة ، بحيث لم تكن هذه الأخيرة في حاجة إلى المهاجرة لتأمين حاجتها إلى العيش.

لكن الوضع في الطرف الآخر من الجزيرة العربية كان شيئاً آخر . ففي اليمن ، حيث الأرض أقل قحولة والأمطار أكثر غزارة ، أتيح للسكان أن ينصرفوا بسرعة إلى الزراعة . ومن ثم زاد عددهم بسرعة أيضاً . ولما لم تستطع مساحة الأراضي المزروعة أن تمتد وتتسع ، ولم تكن هناك مدن وحرف يدوية محلية قادرة على إمتصاص الفائض منهم ، فقد كان يحدث احتقان بطيء ، لا تستطيع البلاد أن تتحرر منه إلا بقذف الفائض من سكانها إلى الخارج . ولم يكن في وسع هؤلاء أن يجتازوا البحر الأحمر لاستعمار أفريقيا ، حيث يقوم السودان في مواجهة اليمن ، وهو أيضاً صحراء أقل استعداداً لاستيعاب البشر من الجزيرة العربية كما أنهم لم يكونوا قادرين على استيطان الأرض على امتداد الساحل ، لأن شعوباً ذات أصول أجنبية كانت تقيم في تلك المنطقة . وعلى ذلك فقد أرغموا على اجتياز الرمال بالاتجاه نحو الشمال الشرقي. هكذا كانت الصحراء الداخلية هي المخرج الوحيد المتاح لهم . وقد كان الفريق من السكان الذي فرضت عليه الكثافة السكانية عملية الهجرة يدفع أمامه الجماعات الصغيرة المقيمة عند تخوم الأراضي المزروعة ويرغهما على الهبوط إلى الوديان المتجهة نحو الجزيرة العربية الوسطى ويضطرها دون توقف إلى التخلي عن الينابيع الغزيرة والواحات الخصبة ، واللجوء إلى مواقع من الماء أكثر ندرة وبساتين من النخيل المتباعد المتفرق . هكذا لا تعود هذه الجماعات التي دفع بها إلى منطقة تستحيل فيها الحياة الزراعية ، قادرة على تأمين أرزاقها إلا بالأنصراف إلى رعي المواشي والأُبل .

على أن هذه الجماعات التي كادت تصبح رعوية وحسب ، لم تبلغ بسبب ذلك أقصى درجات الاغتراب. لقد انتهى بها المطاف، تحت ضغط الجماهير المتدافعة خلفها، إلى الأبعاد عن آخر الواحات البائسة والدخول في الصحراء حيث أصبحت بدوية خالصة . . " يقول لنا لورانس : ان هذه المسيرة التي ما تزال موضع ملاحظة حتى اليوم في أسر معزولة وقبائل يمكن أن تقاس مراحلها وتؤرخ بدقة ، قد تتابعت على التحقيق منذ اليوم الأول الذي حفلت فيه اليمن بسكانها . ان الوديان القائمة بين مكة والطائف ، حافلة بذكريات خمسين قبيلة قد انطلقت من هناك وهي اليوم موجودة في بلاد نجد وجبل شمر والحماد حتى حدود سوريا أو العراق . من هناك يجب البحث عن نقطة الأنطلاق للهجرات العربية ، حيث مصنع البدو الرحل ، ومصدر التيار البشرية التائه في الصحراء " [١] .

ولما كان الاحتقان اليمني ظاهرة دائمة ، فإن السيولة البشرية لم تكن تنضب أبداً . هكذا كانت تدفع إلى الصحراء جماعات جديدة دون توقف ، حتى أن الجزيرة العربية الوسطى قد عرفت هي أيضاً أزمات الفائض من السكان ، رغم ما يبدو من المفارقة في هذا الأمر . ومن هنا تتابعت الاضطرابات والأنتفاضات والمصادمات بين القبائل ، ساعية إلى التفاني لتأمين حقها في الحياة .

أين كان في وسعها أن تذهب ؟ فالجنوب كان محرماً عليها . والعودة في الاتجاه المعاكس للتيار كان مستحيلاً ، ولو أنها استطاعت التوصل إلى ذلك ، فإنها لن تجد في هذا الاتجاه غير رمال قاحلة ، أو قبائل أخرى مصممة على إبادتها واستئصال شأفتها . كما أن النفاد إلى الحجاز غير مرغوب فيه ، لأن المنحدرات الحادة التي تشكل الوجه الداخلي لهذه المنطقة محاطة ، بصفوف كثيفة من السكان الجبليين ، الذين كانوا يتميزون بمواقعهم الدفاعية [٢] .

---

١) ت . أ . لورانس : أعمدة الحكمة السبعة ، ص : ٤٧ .

٢) ت . أ . لورانس : ص : ٤٨ — ٤٩ .

هكذا لا تبقى أمامهم غير الواحات الوسطى من نجد ، تلك التي كانت تتجه نحوها القبائل التائهة ، فإذا كان رجالها ذوي قوة وسلاح جيد فقد كانوا ينجحون في احتلالها جزئياً . اما إذا كانت الصحراء قد أساءت تغذية قواهم فإنهم لا يلبثون أن يرتدوا تدريجياً إلى الشمال ، بين أجراف الحجاز وأنقاض الأحساء.

ومع ذلك فإن الضغط لم يكن يتوقف أبداً . لقد كان التيار البشري مستمراً في انطلاقة نحو الشمال بحركة بطيئة ، ولكنها قاسية لا ترحم ، يحمل معه القبائل على امتداد الواحات التي تنتشر عبر تدمر والجوف ووادي سرحان حتى تخوم سوريا والعراق . " هكذا كانت المناسبة والبطون الجائعة تلهمهم حيازة المعزى أولا ثم الخراف . وفي يوم من الأيام يقبلون على زرع القليل من الشعير لماشيتهم . ومن ثم يتحولون عن حياة البداوة ليعانوا ما يعانيه الفلاحون المزارعون ، من البدو المتدافعين وراءهم ، ممن يتخذون الطريق التي اتخذوها هم أنفسهم من قبل .

وهنا يتحالفون مع الفلاحين الذين سبقوهم إلى الإستقرار فوق الأرض بدافع المصلحة المشتركة ، وبطريقة غير محسوسة ، خوفاً من أن يتعرضوا لعمليات السلب والنهب . هكذا يتمثلون حياة هؤلاء ويصبحون هم أنفسهم في عداد الفلاحين " (١) .

لقد كانت تتكامل ، في ضواحي دمشق ، دورة تطور بدأت قريباً من عدن . ان الدفعة التي أخرجت العرب من أراضيهم لتجعل منهم بدواً رحلاً هي نفسها التي أخرجتهم من الصحراء لتجعلهم مرة أخرى من المزارعين . كلهم ، دون استثناء ، قد مروا من هناك . وليس من أسرة مقيمة في الشمال ، لم يكن أباؤها قد ا جتازوا الجزيرة العربية الوسطى في فترة معينة من التاريخ . هناك استقبلت طابع البداوة . وقد كان هذا الطابع يحدث فيها أثره بثبات يستعصي على المحو تبعاً لطول إقامتها في الصحراء . إن " البدوي " كما لاحظ واحد من خيرة العارفين بالعالم الإسلامي ، " ليس كما يظن ، إنساناً غير ذي جذور يتيه بحثاً من متعة التيه : بل هو يمثل الأنسان المتكيف خير تكيف للبيئة الصحراوية وليست البداوة طرازاً من العيش أقل علمية من الحياة الصناعية في ديترويت أو في مانشستر : إنها تكيف الأنسان لوسطه الطبيعي على نحو عقلأني صامد متزمت حتى الإفراط والشطط " (٢) .

---

١) ت . أ . لورانس : ص ٤٨ — ٤٩ .

٢) فيليب حتي : مختصر تاريخ العرب ص : ١٤ .

ومهما أبعدنا في العودة إلى ماضي الجزيرة العربية ، فإننا نجد فيه هذا التيار الدائم غير المنقطع ، الذي يسيل من الجنوب إلى الشمال . انه الظاهرة الأساسية لكل الحياة العربية ، ولاسبب التحتي الذي يعين مصير كل من أزماتها التاريخية الكبيرة ويفسرها . انه هو الذي الذي احتفظ بالحياة داخل منطقة من العالم ، تبدو فيها الحياة مستحيلة عند النظرة الأولى . وهو نفسه الذي احتفظ بالحيوية وأنماها عند سكانها . لقد فرض قوانينه ونظمه على القوة الأولية التي دفعت بها عبر المساحات المكشوفة شروط غير ملائمة . هذه القوة هي التي وجهتها الصحراء وحولتها في بطء إلى طاقة وإلى ضوء . لقد أخرجت من هذه الخامة الخشنة واللامبالية ثلاثة طرز بشرية هي أكمل ما عرفه العالم العربي : المحارب والشاعر والقديس .

والأرجح أنه في أي مكان آخر ، غير الجزيرة العربية ، لم يستطيع الوسط الخارجي أن يخضع المادة البشرية لمثل تلك القوة من الضغوط ، والتزمت من الإكراه والقسر ، والشدة من النشوة . " يقول لنا جيرالد دو جوري : في الصحراء وحدها يستطيع الأنسان أن يتذوق بامتلاء فرحة أن يكون إنساناً وأن يتخلص من الإختلاط الخانق في العالم . كل ما يراه هناك يشعره بفخر الأنتماء إلى السلطان البشري . فلا منافس له فيها. ولا حيوان يستطيع الانقضاض عليه بصورة مباغتة وحتى الأشجار فهي غائبة غير موجودة . ان صمت الوحدة يعيد الهدوء إلى الأعصاب المتوترة ، كما تصبح كل ملكية غير ضرورية وغير موضع للحسد والغيرة فيما سوى الدابة التي تحمله وبعض الحاجات الأساسية .

الإنسان هنا وحده ، في وسط إخوته ، فوق الأرض التي صوروا منها ، وجهاً لوجه أمام أعظم أدوات الخالق : الشمس ، والقمر ، والكواكب . إنّ جمال الفجر الذي لا يوصف ، وروعة الغروب ، وتلألؤ النجوم تعلن انتصار الخلق في كل يوم . وأن حب الصحراء يبدو وكأنه تحد للعقل . ومع ذلك فإن غريزة الأنسان السوي لا تستطيع أن تقاومه ، ومنذ أن تتعرف إليها في المرة الأولى فإن الصحراء لا تني أبداً عاملة على اجتذابها إليها " [1].

---

١) جيرالد دو جوري : نخيل الجزيرة العربية ص : ١٠٥ .

على أن الصحراء لا تقتصر على اجتذاب الأنسان وحسب . انها تعجنه وتحوله . " وقد كتب ت.أ. لورانس من ناحيته يقول : الصحراء هي من الأصالة والتفرد بحيث لا تقبل القسمة أبداً . انها تحتوي الأنسان بكليته ، ثم لا تتركه حتى تكون قد أعادت صنعه رأساً على عقب . وحتى الغريب الذي يجتازها فقط، يخرج منها إنساناً مختلفاً عما كان عليه من قبل . ومهما فعل بعد ذلك ، فإنه لن ينسى أبداً الفترة التي عاشها فيها ، كما يحتفظ بالحنين إليها حتى آخر حياته " [١].

وإذاً فالأجدر من هذا كله أن يحدث هذا الإطار طابعه في القبائل التائهة التي يكتب عليها أن تعيش فيه عدداً من القرون . انها كانت تنسى ذكريات أصولها بسرعة منذ خروجها من اليمن مسقط رأسها . كل ما كان من غير الصحراء يمّحي من ذاكرتها . فهي لا تعود تعترف بغيرها وطناً لها أبداً .

ومن ثم تبدأ في النفوس والأجساد صياغة بطيئة تجعل من هؤلاء المزارعين التافهين ، محاربين غير مُدافعين . وقد كانت موارد الصحراء من القلة ، والقبائل من الكثرة وإرادة الحياة من الفتنة بحيث أن الوجود فيها يصبح موضعاً لتنافس لا رحمة فيه ولا هوادة . في هذا الأتون المستعر حيث لا يتم الحصول على شيء إلا بالعنف أو بالحيلة ، يكون المستقبل موقوفاً على الأكفأ والأنشط من الناس . وتنتهي الحياة البدوية ، بطبيعة الأشياء ، إلى الأنتظام تبعاً لسلم من القيم ترتفع فوق قمتها المروءة التي تعني في الوقت نفسه مزيجاً من الشرف والرجولة . والرجل الذي يملك من هذه المروءة ما لا يملك سواه يعترف به زعيماً ، لأنه أكفأ من غيره في تأمين البقاء لعشيرته . إن حيويته وصلابته كانتا تعوضان عن التدمير الذي تحدثه نسبة الوفيات المخيفة . وقوة ذراعه كانت تتيح لرفاقه فرصة الوصول إلى مواطن الماء. إن قبيلة لا مروءة لها كان مقضياً عليها أن تختفي وتزول ، فإما أن تهلك جوعاً ، وتنطفيء من العقم أو تحول إلى العبودية من قبل قبيلة أشد مراساً على القتال — وهذا أسوأ الأمور – .

---

١) ت . أ . لورانس : أعمدة الحكمة السبعة ص : ٥٢ .

في هذا العالم الشرس البسيط ، الذي يتردد إليه باستمرار كل من الجوع والموت ، تقوم الأسلحة بدور هو من الأهمية بحيث أنها تتزين بفضائل رمزية ، ان نوعاً من الإمتزاج الصوفي يتحقق بينها وبين أولئك الذين يستعملونها ، فإما أن يحمل الأنسان إليها فضائله ، وإما أن تنقل قوتها وقسوتها إليه . لقد كان السيف يمثل في الوقت نفسه كلاً من الجلد بصلادته ، والبراعة بحده ، والعفة ببريق فولاذه الصلب العاري . ان الجسد والروح واللحم والنفس لم تكن غير موجود و احد ، – تماماً كما السيف والذراع التي تحركه يكونان موجوداً واحداً أيضاً – .

ذلك لأن التفريق بينهما يساوي الأنتحار . ان الرجل العقيم أو الجبان كان يرى سيفه قاتماً ويشهد انكساره بين يديه. وكان يصبح ضعيفاً . وضعفه يفقده سلطانه ومكانته في عشيرته .

كل محارب ساقط كان يُطرد من جماعته ثم لا تستقبله أية قبيلة أخرى " يقول لنا فيليب حتي " ليس على البدوي ما هو أفجع من أن يفقد انتماءه إلى قبيلة من القبائل ، إذ بدون هذه القبيلة يجد نفسه عملياً في حال كاملة من الضعف : إن وضعه القانوني منذ ذلك اليوم وضع الخارج على القانون ، فلا يتمتع بالحماية والأمن " [١].

هكذا كانت تتكون من جيل إلى جيل نخبة صارمة تستبعد الضعفاء لمصلحة الأقوياء وترفع إلى رتبة الزعماء الرجال الأكثر " رجولة " أي الأكثر خصوبة ، والأكثر إبداعاً ، والأكثر جرأة وشجاعة.

ومع ذلك فإن هذه القبائل ، التي تقضي عليها شهوة الحياة أن تتفإنى ، كانت تشعر باستمرار بانتمائها بعضها إلى بعض ، لأنها تتكلم اللغة نفسها . وكانت تحس معها بالفخر العظيم .

والمؤسف أن هذه اللغة كانت تتطور في اتجاهات متباينة مختلفة تبعاً لمسيرة القبائل . إن عشيرتين تنتميان إلى أصل واحد ، فرقت بينهما سيئات البداوة واتخذتا طريقين متباعدين خلال أجيال كثيرة ، كانتا تلاحظان باندهاش ، حين تلتقيان من جديد حول بئر من الماء ، انهما لم تعودا تستعملأن العبارات نفسها للتعبير عن الأشياء نفسها . والأخطر من هذا كله : ان محاربي الحجاز أو الأحساء بدأوا لا يفهمون محاربي نجد أو حائل .

هذا وكان العرب ذوي كبرياء يريدون أن تعرف شجاعتهم من قبل شبه الجزيرة كلها . لكن فساد لغتهم كان يشكل عقبة أمام انتشار أمجادهم.

---

١) فيليب حتي : مختصر تاريخ العرب ص : ٢١ .

على أن الصحراء التي تلد المحارب ، قد ولدت الشاعر أيضاً . وقد استطاع هذا الشاعر أن يحقق تفوقه بسرعة بالغة على هؤلاء الناس المتعطشين إلى سماع الأقاصيص الخرافية والقصائد البطولية . ان الشاعر – أي العارف – هو الذي وكلت إليه مهمة الحسم في الخلافات ذات الطابع اللغوي ، وقول ما يحسن من القول ، ورفض ما لا يحسن من التعبير، وتثبيت الكلمات التي يتقرر تمثيلها للأشياء بصورة مبرمة قاطعة . فإذا لجأت أسرتان إلى استعمال تعبيرين مختلفين لقول فكرة واحدة ، فقد كان يؤخذ بالتعبير الذي يختاره الشاعر . كان حكمه غير قابل للإستئناف وكان ينتشر بين الجميع . هكذا برزت شيئاً فشيئاً وفي بطء شديد ، لغة وحيدة تبناها العرب بحماسة بالغة انتهت بهم إلى إعتبارها وطنهم الثاني . " كتب فيليب حتي يقول : ليس من شعب في العالم يبدي مثل هذا الإعجاب المتهوس بالتعبير الأدبي ، وليس من شعب يتحرك كالعرب بالكلام الملفوظ أو الكتابة . بل ليس من لغة في العالم تبدو جديرة بممارسة تأثيرها في نفوس من يتكلمونها إلى هذه الدرجة من القوة التي لا تقاوم . وحتى يومنا هذا نجد في بغداد ودمشق والقاهرة مستمعين يستفزهم حتى الهذيان إنشاد القصائد القديمة والخطب الملقاة بالعربية الأدبية مع العلم أن لاذين يفهمونها جيداً هم قلة من الناس . إن الإيقاع والقافية والموسيقى تحدث في المستمعين أثراً يمكن أن يوصف بالسحر الحلال " [١] .

من أجل ذلك – وهذا واقع معبر – يجب ألا يبحث عن المظاهر المحسوسة الأولى للوحدة العربية لا في دولة ، ولا في نظام معين للحكم ، بل في مؤسسة ذات طابع شعري . فمنذ القرن الثالث للميلاد ، وفي أوقات منتظمة ، عمدت القبائل إلى اعلأن الهدنة العامة والتوجه إلى عكاظ ، وهي مدينة صغيرة تقع بين الطائف ونخلة ، للاستماع إلى الشعراء ينشدون قصائدهم ويجابهون شعراء القبائل المختلفة . إن هذه الإجتماعات التي كانت تتخذ في الحياة العربية مكانة شبيهة بالألعاب الأولمبية عند الأغريق ، كانت تستمر أياماً كثيرة . لقد كانت ندوات فصاحة حقيقية ، حيث يعقد اللواء " لمن ينشد أعمال خير الشجعان بأصفى تعبير لغوي " .

---

١) فيليب حتي : مختصر تاريخ العرب ، ص : ٢٧ .

وفي يوم التجمع الأخير ، كان الشاعر الذي حظي بإعجاب الأكثرية يقف فوق مرتفع من الأرض ويبدأ بانشاد قصيدته أمام جمع عظيم . " فتارة يشيد بفضائل قبيلته ونبالة زعيمه ، وتارة أخرى يصف متعة الثأر، ومرة ثالثة يشيد بالشجاعة ، أم الشرف فهو مادة قصيدته الدائمة . وفي مرات أخرى ينصرف إلى وصف روائع الطبيعة ، وسكون الصحراء ، وطيب الواحات وعذوبة الينابيع . وأما المستمعون المتعلقون بشفتيه فقد كانوا يستسلمون لكل المشاعر التي يريد أن يثيرها في أنفسهم . لقد كان الإعجاب بالبطل والازدراء بالجبان يرتسمان في وجوههم المتيقظة ، بينما يستمد الشاعر مزيداً من النشاط عند شهود قوته فيستعيد إنشاده بحرارة متجددة " [١].

كان الشاعر يطيل الكلام ، يستفزه إلهامه . وقد يهبط الظلام في الغالب قبل أن تنتهي المباراة . وتصعد النجوم إلى السماء ، فتُسمع ، دون أن ترى ، أصداء الجماهير المنتشية بالشعر ، وهي تضطرب في الظلام . وبعد أن ينتهي لاشاعر الأخير من إنشاد قصيدته ، ينهض الحكم ليعلمن اسم الفائز ، الذي تكتب قصيدته بحروف من الذهب على شريط عن القماش الثمين وتعلّق على الكعبة لتحفظ للأجيال القادمة (٢) .

وهنا تتوقف الهدنة . فتحمل القبائل أسلحتها وتعود إلى الصحراء حيث تعود المنافسات والمعارك سيرتها الأولى . لكن هذه القبائل كانت تحمل من عكاظ إحساساً جديداً : إنه الإحساس بالملكية المشتركة لكنز لا يقدر بثمن ، يجب عليهم أن يدافعوا عنه معاً ، إذا تعرض للتهديد .

---

١) سيديو : تاريخ العرب ، ص : ٣٢ .

٢) بفضل هذه الرعاية حفظت لنا حتى اليوم سبع " قصائد ذهبية " أو سبع معلقات . وبقيت أسماء ناظميها مشهورة . كثيرون منهم كانوا يشيدون بمعارك جرت في نجد ويصفون مواقع قبيلة تميم القديمة ضد العامرين (٥٧٩) والبكريين (٦٠٢ –٦٣٠) أنظر سيديو ص : ٣٢ .

لم يلبث العرب الذين تأثروا بالشعراء واتجهوا نحو مظاهر الفكر ، أن سجلوا خطوة لاحقة واكتشفوا وراء الشعر ، وطناً ثالثاً هو : الدين .

كانت القبائل في البداية قد أخذت تعبد السيف العاري ، وقد زرعته في التراب ، لتثبت دائرة الشياطين عند مركزه . ثم زالت الدائرة شيئاً فشيئاً : وبقي السيف العاري وحده ، شهادةً على الجهود المبذولة للارتفاع من رتبة الصورة المحسوسة إلى الفكرة المجردة . وعلى ذلك انسحبت التعددية الإلهية البدائية وتركت مكانها لنوع من الإحساس المسبق باله واحد خالد ، مطلق تم إدراكه قياساً على عري الصحراء . وكان هذا العري من الخشونة والقحولة بحيث يعجز عن اجتذاب الحساسيات الأجنبية . لقد كان يملؤها بشعور من الخوف والوهن . أما البدوي فقد كان يستقبله بكل روحه . أو ليس أنه ، وهو المتحرر من كل قيد مادي ، يتمتع بحرية شخصية مطلقة ؟ أو ليس أنه هناك كان يحس بأكثر انفعالاته كثافة وأشد أفراحه ثراء وخصوبة ؟ " لقد كان يملك في هذا العري كلا من الهواء ، والرياح ، والشمس ، والضياء ، والبطاح المكشوفة والفراغ الذي لا حد له . انه لم يعد يرى في الطبيعة ، لا الجهد البشري ولا الخصوبة : ليس غير السماء فوقه والأرض النقية من كل سوء تحته . هناك يقترب من الهه بصورة غير واعية . ذلك أن الله عنده لم يكون موضعاً للتشبيه ، ولا محسوساً ، ولا هو ذو طابع خلقي ، ولا منشغلاً بالعالم أو به هو نفسه : إنه الكائن الموجود دون لون ، ودون صورة ودون صوت ، انه الكائن الذي يستوعب كل شيء ، وهو بيضة كل حيوية . ولم تكن الطبيعة والمادة غير مرآة تعكس كينونته . انه لم يكن في وسع البدوي أن يبحث عن الله في داخل نفسه ، ما دام أنه كان واثقاً من وجوده في ذات الله . كان يجد في هذا الإله العربي ، الذي هو العظيم وحده ، والذي كان في عمليات الطعام ، والقتال ، والحب ، فكرُهُ الأكثر إلفاً ، وسنده ورفيقه [1] .

---

١) ت . أ . لورانس : ص : ٥٥ .

وكان العرب يسعون جاهدين إلى الإقتراب من ربهم ، من جيل إلى جيل باستبعاد صفاته ، رغبة في التوصل إلى ذاته . لكنهم لا يبلغون ذلك إلا بصعوبة . كان فكرهم ينحني تحت ثقل خيالهم ، وكان ميلهم الطبيعي إلى التعبير عن أنفسهم بالصور لا بالمعاني الكلية يعترض طريقهم في كفاحهم لأنتزاع إسمه من الألوهية في ذاتها . لقد كان اندفاعهم يحتفظ منه بشيء فيه نقص وعاهة . لكن هاجساً محيراً من العالم العلوي ، كان يحلق ، فوق هذه الجهود ، كما تحلق الصرخى التي تبلغ من الحدة بحيث لا تستوعبها الآذان البشرية .

وهنا ولدت الصحراء شخص النبي بعد أن ولدت كلاً من المحارب والشاعر . " يقول لنا لورانس : ان هذا الشعب قد اجتاز دون توقف مراحل من التشنجات والأنتفاضات ، فهو عنصر الأفكار ، والعبقرية الفردية . ان تحركات البدو غريبة جداً ، ولا سيما في مناقضتهم لهدوئهم اليومي ، ان رجالهم العظماء ، هم أكثر عظمة بالقدر الذي يجاوزون به بشرية جموعهم . ان عقائدهم تنطلق من الفطرة ، وتصرفاتهم من الإلهام . إن ما يصنعونه أكثر فأكثر هو العقائد (١) .

ان العرب يفخرون في أنهم قد زودوا العالم بأربعين ألف نبي ونحن نملك الشواهد التاريخية على ذلك في مائة منهم على الأقل . ان اختبار حيواتهم يكشف عن تشابه غريب بينهم : كلهم يتخذون الاتجاه نفسه في تشبث رتيب.

هؤلاء الرجال المتصفون بالموهبة الدينية ، ولدوا جميعاً لا في التوحد بل في صميم تجمع بشري :
واحة ، قرية أو مدينة متاخمة للصحراء . وفجأة يستولي عليهم اندفاع شديد غير عقلأني ويدفع بهم إلى صمت الرمال حيث كان في وسعهم أن يسمعوا بوضوح أشد الوحي السماوي الحي ، هذا الوحي الذي كان من المحتمل أنهم قد حملوه معهم إليها (٢) .

---

١) مقدمة على الصحراء العربية لشارل م . دوتي ، ص : ١١ .

٢) ان صفة " غير العقلأني " التي نسبها المؤلف إلى اندفاع الأنبياء نابعة من أنه لا يجد في موهبة النبوة غير نوع من الأنجذاب النفسي الخاضع للأنفعالات أو الشطحات الصوفية . مع العلم أن الوحي كما جاء في حوليات الدعوة الإسلامية هو حالة تلق من السماء يتجاوب مع الأحداث والوقائع اليومية على نحو منطقي منظم . وعلى ذلك فإن الصوت السماوي الذي يتلقاه النبي لا يحتمل أبداً أن يكون قد حمله معه حين يخلو إلى نفسه في حالة توحد كما كان شأن محمد بن عبد الله عليه السلام وهو في غار حراء . " المعرب " .

لقد كانوا يقيمون في الصحراء مدة تطول أو تقصر ، في حالة من التقشف والعبادة . وأخيراً يعودون إلى مساقط رؤوسهم بعد أن يكون إلهامهم قد تكامل فاتخذ أبعاده النهائية ليشركوا حواريهم فيما استقبلوه من ذلك الوحي.

على أنهم لم يكونوا كلهم من القوة بحيث يحتملون مثل هذا الجهد الفكري . كثيرون كانوا يتساقطون في أثناء مسيرتهم ومن أجل ذلك : "كانت حاشية الصحاري مغطاة بالعقائد المبتورة المنكسرة " . لكن بعضهم كان ينتصر في التجربة . فكانوا يعودون منبهرين " بنظرة واحدة إلى الله ويظهرون عبر غشاوتهم الجسدية "كما هو الشأن عبر زجاج مُدخن " شيئاً من الجلال الساطع ذلك الجلال الذي تجعل النظرة الجليةُ إليه الأنسان أعمى أصم وابكم " [١] .

وكما أن المحارب كان في المقدمة من صفوف المعركة المادية فإن النبي كان في المقدمة من صفوف المعركة الروحية . لقد كانت ترقبه أخطار حقيقية – جنون أو تشنجات – لذلك فقد كان العرب يحيطون النبي باحترام خاص [٢] . فإذا ظهر إلى الناس مرة أخرى مترنحاً ومنهوكاً . بأثر من عنف الجهد الداخلي أو من أثر تقشفه فقد كان البدو يتدافعون حوله ليتلقوا من فمه النور الذي انبثق من اتحاد جسده بالمطلق . وليدركوا النجاح الذي تحقق فيما أولاه الله من الولاية والسلطان .

---

١) ت . أ . لورانس : ص : ٥٥

٢) ما يزال المؤلف فيما يتحدث عنه من الجنون والتشنجات كأخطار ترقب مسيرة النبي يرى في النبوة تلك الظاهرة الأنفعالية العارية من موازين العقل ومقاييس المنطق الواقعي . وفي هذا الموقف ما يدعو إلى الدهشة لا سيما وأن النبي محمد بن عبد الله عليه السلام لم يتصرف يوماً في سنوات الدعوة تصرف ضحايا الأنفعالات غير الواعية يضاف إلى ذلك أنه عليه السلام أسس دولة ونبي مجتمعا وشرع له مستعيناً بما كان يأتيه من وحي السماء . وعلى ذلك فإن الزعم بأن الجنون والتشنجات كانت من الأخطار التي ترقب النبي في دعوته هو سوء فهم لطبيعة النبوة وبصورة خاصة لطبيعة الدعوة الإسلامية . والأغرب من هذا كله أن الكاتب يجعل من هذه الأخطار المرتقبة تفسيراً للاحترام الشديد الذي يظهره العرب للأنبياء . ولا يرد علينا ما قد يستشهد به الكاتب من آيات القرآن الكريم إذ يقول عزّ من قائل : " أنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً " فالقول الثقيل لا يحدث الجنون ولا التشنجات المرضية . " المعرب " .

أما أشهر الأنبياء في عصر ما قبل الإسلام— ورقة بن نوفل ، عثمان بن الحويرث ، عبيد الله ، زيد بن عمرو — فقد أحدثوا بنبوءاتهم حماسة بالغة شديدة . لقد كافحوا ضد الأساطير القديمة وشجبوا العبادات المحلية ، وعلموا العرب كيف يصلون جماعة وطوروا فكرة الإله الواحد [١] . وإذا كان هؤلاء جديرين بأن يقولوا ، بصورة أوضح ممن سبقهم ، ما ليس من صفات الله ، إلا أنهم لم يكونوا خيراً منهم في تعيين هذه الصفات . هكذا اقتصروا ، في عجزهم عن تحقيق أي بناء إيجابي ، على إعلأن " أن رسولاً من السماء سيظهر قريباً على الأرض ، ليحمل إلى العرب شريعة الله وليفتح لهم أبواب الجنة " . وقد كان هذا كافياً لدفع الجميع إلى انتظار هذا المسيح في اختلاجة من الصبر النافذ .

هذا هو العمل الذي كان قد تحقق ، منذ البدايات الأولى ، في أعماق تلك الصحراء التي يظنها العالم ساكنة جامدة وخالية .

كان قد صبغ فيها عنصر من المحاربين الذين لا يقهرون كما تم الحفاظ على وحدة اللغة . وقد كانت المسيرة نحو الوحدانية تقترب من القمة .

إن الجزيرة العربية لم تعد تنتظر غير الرجل العبقري الذي يحمل إليها في استنارة مفاجئة ، وعيها بوحدتها ، وذلك بضم كل هذه القوى المتفرقة في حزمة واحدة .

---

١) يجدر بنا أن نلاحظ بأن كلمة نبي عند الكاتب لاتعني ما تعنيه عندنا نحن المسلمين أو العرب بخاصة . فالنبوة كما جاءت في كتاب الله اسم يطلق على الرجال الذين تلقوا الوحي من السماء . أما كلمة نبي عند الكاتب فتطلق على كل من يتصدى للاصلاح الديني أو تصفية العقيدة . " المعرب " .

وكان محمد هو هذا الرجل المنتظر (٥٧٠ - ٦٣٢) ولئن استطاع الهاشمي ابن عبد الله أن يحتوي في الوقت نفسه وبصورة كلية روح مواطنيه ، وأن يفرض شريعة وحيدة على مجموع القبائل فذلك لأنه كان في وقت معاً نبياً شاعراً [١] ومحارباً جمع في نفسه ، على درجة عالية ، الفضائل المتميزة لهذه النماذج البشرية الثلاثة . لقد كان التعبير الحي عن كل الأطماح العربية .

لقد حمل إلى البدو ، باعتباره نبياً ، الدين الذي كانوا ينتظرونه ، انه الإسلام ، باعتباره نبياً ، الدين الذي كانوا منهم مسلمين ، أ ي مؤمنين . وبفضله حفلت الكعبة ، هذا المكعب من البناء الذي كان يعتبر المقام الخالي لإله مجهول ، بحضور علوي وأصبحت بيت الله ، الاله الواحد ، اللامتناهي ، الخالد ، والعربي بصورة متفردة [٢] .

أما باعتباره شاعراً ، فقد أنشأ القرآن بلغة هي من النقاء والصفاء بحيث وجد الناس فيها الدليل على أصله الإلهي [٣] .

وأما باعتباره محارباً ، فقد أعد الجيوش التي كانت ستحمل عقيدته من شواطىء الغانج إلى شواطىء الوادي الكبير .

لم يكن هدف محمد ، في إنشائه لكتابه [٤] ، أن يقدم إلى البشرية أخلاقاً أرفع من أخلاق الأنجيل ، ولا أن يفرض قوانين متجانسة على كل شعوب الشرق ، بل كان هدفه أن يحمل إلى البدو عقيدة قادرة على احداث حركة كبيرة للوحدة القومية .

---

١) أنكر الإسلام على المشركين الزعم بأن محمد بن عبد الله عليه السلام كان شاعراً ولكنه في الوقت نفسه جاء بكتاب من السماء يتحدى بما فيه من جمال التعبير وإعجاز الصياغة وجملة المعاني فصحاء العرب من قريش . " المعرب " .

٢) الثابت أن صفات الله تعالى التي جاءت في القرآن الكريم ليست صفات اله قومي ولا هو ينتمي إلى شعب معين بل هو بها رب العالمين . والقرآن حافل بالآيات التي تؤكد هذه الحقيقة . " المعرب " .

٣) نحن لا نستغرب إصرار المؤلف على إعتبار النبي عليه السلام منشئاً لكتاب الله لسببين ، أولاً : لأنه يحاكم تراثنا الديني بعقل غير عقلنا ويستعين بموازين غير موازيننا . ثانياً : لأنه لا يستطيع أن يتذوق الأسلوب القرآني ، " المعرب " .

٤) أنظر الهامش السابق " المعرب " .

إن هذه الفكرة ، التي كانت شاغله الرئيسي لا تشيع في القرآن وحسب ولكنها تشيع أيضاً في كل تصرفاته.

وعندما اعتزل الناس في غار حراء قريباً من مكة ، ليتعبد في العزلة منذ بلغ أواخر العقد الرابع من عمره ، كان يدير فكره حول مصائر وطنه ويحزنه أن يرى العشائر تفتت طاقتها في اقتتال أخوي . ويتساءل في نفسه : أو ليس أن إسالة الدماء ، التي كانت تراق عبثاً في الصحراء ، في سبيل نشر كلمة السماء ، أرضى لله ؟

إذاً فقد كان من الواجب خلق حالة من التكافل بين القبائل تكون من القوة بحيث تستطيع أن تحطّ عنها خصوماتها الداخلية وتدفعها إلى تكوين أمة واحدة . وكان محمد يعلم بأنه لن يتوصل إلى تحقيق هذا الهدف ما لم يذوب عداواتهم الخاصة في عاطفة أوسع ، لا يستطيع إحداثها غير عقيدة دينية [١] . ولكنه، وهو الذي يعرف مواطنيه جيداً ، كان يدرك أيضاً بأن هذه العقيدة لن تجد لها أنصاراً إلا إذا حققت الأنتصار في ميادين القتال . هنا فقط يمكن الاعتراف بها على أنها حقيقة صحيحة ، كما يمكن أن تحظى بتأييد الأنصار المؤمنين دون تحفظ . من أجل ذلك تناول عدد غير قليل من الفقرات في النص المقدس سلوك الرجال في الحرب وتنظيم الجيش .

إن للعرب رؤية بسيطة وحاسمة للأشياء باعتبار أنهم قد اعتادوا التباينات العنيفة للصحراء . فلا يوجد بالنسبة إليهم غير الحق والباطل ، غير الإيمان والكفر ، ولا شيء وراء ذلك من تلك الرؤى الوسطية المستمرة الغامضة . " إن هذا الشعب يتعلق بالألوان الأولية ولا سيما الأسود منها والأبيض ، انه يرى العالم دائماً تبعاً لخط مستقيم . انه شعب ممتلىء باليقين ، يحتقر الشك ، هذا التاج العصري من الأشواك عند الرجال الغربيين .
إن العربي لا يستطيع أن يدرك صعوباتنا الميتافيزيقية ، والأسئلة التي نطرحها على أنفسنا . أنه لا يعرف غير ما هو حق ، وما هو باطل ، ما نؤمن به وما لا نؤمن به ، وعلى ذلك فإن كل تردداتنا وتحفظاتنا غريبة عنه.

---

١) لم يعرف عن النبي عليه السلام أن هذه القضايا قد شغلت فكره قبل مجيء الوحي ولم يحدث أن فاتح أحداً من معارفه بمثل هذه المشاغل وهذا لم يكن يتعارض مع تجنبه عبادات قريش ورفضه لبعض تقاليدهم النابعة من هذه العبادات أو من أخلاق البداوة . " المعرب " .

" وليست رؤية العرب هي التي تقف أمام الأبيض والأسود وحسب : فهذا شأن جهازهم الداخلي أيضاً . ان أفكارهم تنتقل بسهولة كبرى من الطرف الأقصى إلى الطرف المقابل . انهم يتحركون بصورة عفوية في الحدود القاصية. وفي بعض المرات يبدو وكأن فقدان التناسق والترابط قد احتواهم جملة واحدة . انهم يستبعدون كل تسوية ويتابعون منطق أفكارهم حتى المحالة ، دون أن يروا أي تنافر بين استنتاجاتهم المتعارضة . ان حكمهم المطمئن يتأرجح ببرود بين خط مقارب وخط مقارب آخر ، في طمأنينة بالغة بحيث لا يكادون يظهرون على وعي بفرارهم المثير للدوار[١]".

ان الكون الذي حمله محمد إليهم كان متوافقاً مع هذا الواقع النفسي . لقد كان الرجال مقسمين إلى فريقين مختلفين تماماً : العرب المؤمنون حملة الحقيقة الإلهية ، والوثنيون الكفرة الذين ينكرون وجود الله وخلود الجسد من جانب (٢) ورسالة النبي من جانب آخر . أما واجب كل مسلم تجاه هؤلاء الآخرين فكان بسيطاً : لقد كان عليه أن يجاهد لالحاقهم بالإسلام.

إذاً فكل حرب كانت مقدسة ما دام أنها تهدف إلى نشر " الدين الحقيقي " وقد أعد الله النعيم المقيم لأولئك الذين نذروا حياتهم لهذه الحرب . لقد كانت خدمة السلاح تتخذ صفة الواجب المقدس . كان على الجميع أن يشاركوا في القتال ، حتى العمي والمقعدين منهم . ولم يكن يعفى من هذا الواجب غير الأطفال والمجانين والنساء . حتى أن على هؤلاء واجب " التعرض لكل مسلم يرينه هارباً بحد السيف " . وذلك أن الفرار من ميادين القتال هو أكبر الآثام والذنوب ، إنه من تلك الذنوب التي توجب اللعنة الخالدة . ان كل الآداب القرآنية ، التي أمليت لإثارة الحماسة عند العرب . كانت تبلغ أعلى درجات الإثارة في تلك المقالة التي أصبحت نداءهم إلى التجمع : " الجنة أمامكم والجحيم وراءكم ! " .

---

١) ت . أ . لورانس : مقدمة على كتاب " الصحراء العربية " لدوتي ص : ١٠ – ١١ .

١) لم يرد في دين الإسلام أن الجسد خالد أبداً فاقتضى التنويه . " المعرب " .

على أن محمداً لم يقف عند هذه الأوامر العامة . بل جاوزها إلى تقرير التفصيلات المتعلقة بالتنظيم العملي . لقد أصدر تشريعاً خاصاً بتوزيع الغنائم ، يثبت أنه لم يكن قليل الاحتفال بأهمية الدعاوة : إن أربعة أخماس الكنوز المستولي عليها كان يجب أن تعود إلى الجيش ، بينما يوزع الخمس الأخير على صورة صدقات لأنواع معينة من الناس وقد حصل الشعراء والدعاة إلى الله على نصيب منها " لتشجيعهم على الإشادة بشجاعة المقاتلين . كما وضع في الوقت نفسه نظام المعسكرات وقد اتصفت فيها الحياة بالرصانة البالغة بل بالصرامة أيضاً . لقد حرم فيها على الجندي كل من القمار والعبث المضيع للوقت والغيبة . وقد كان الجنود يمارسون العبادة في صخب السلاح وحمأة القتال .
أما فترات ما بين العمليات القتالية فقد كان من الواجب أن تستخدم في الصلوات والتأمل وتدبر القرآن . كما فرض الزهد الشديد على المقاتلين وعوقب من يشرب الخمر منهم . وأخيراً انصرف النبي محمد بكل عنايته إلى التعبئة والتسلح وإنشاء الجيوش . لقد فرض على كل فارس أن يؤمن مطيته وأسلحته ومؤونته لمدة أسبوع واحد . كما أنه لم يكن يقبل أي متطوع جديد دون أن يدرس سلوكه بعناية بالغة ودون التعرف إلى سابقاته والأسباب التي تدفعه إلى التطوع في الجيش " .

ومع ذلك فإن محمداً لم يقرر الأنتقال من الدعوة السلمية إلى الدفاع المسلح إلا عام ٦٢١ م أي بعد أن جاوز الخمسين من عمره . وقد أحاط أنصاره بهذا القرار ، بعد أن جمعهم حوله في مدينة العقبة الصغيرة وسألهم ما إذا كانوا مستعدين لمبايعته في هذه الطريق الجديدة . فلما أجابوه بالإيجاب دعاهم إلى القسم بأن يكونوا له أمناء .

وقد كانت للعقبة بيعتان ، أما ما بايعوه عليه فلم يكن غير الدفاع عنه بعد أن يهاجر إليهم وغير الالتزام بأخلاق الإسلام .

فقد جاء في سيرة ابن هشام ص ٢١٩ الطبعة المختصرة الصادرة عن دار ريحاني للطباعة والنشر في بيروت قوله حول البيعة الأولى : " ذكر لي ابن شهاب الزهري عن عائذ الله بن عبد الله الخولأني أبي ادريس ، ان عبادة بن

الصامت حدثه أنه قال : بايعنا رسول الله ليلة العقبة الأولى : على أن لا نشرك بالله شيئاً ، ولا نسرق ، ولا نزني ، ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيه في معروف ، فإن وفيتم فلكم الجنة وان غشيتم من ذلك شيئاً فأخذتم بحده في الدنيا فهو كفارة له ، وان سترتم عليه إلى يوم القيامة فأمركم إلى الله عز وجل : ان شاء عذب وان شاء غفر " . أما فيما يتعلق بالبيعة الثانية في العقبة فإن رسول الله **صلى الله عليه وسلم** قد شرط على الأنصار أن يدافعوا عنه . قال لهم " أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم " . وفي ص ٢٢٨ من المصدر السابق نفسه ورد ما يلي : قال أبو الهيثم ابن التيهان : يا رسول الله ، ان بيننا وبين الرجال حبالاً وإنا قاطعوها (يعني اليهود) فهل عسيت أن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ قال : فتبسم رسول الله ثم قال : " بل الدم الدم والهدم الهدم أنا منكم وأنتم مني أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم " . وجاء في ص ٢٢٩ من المصدر نفسه جواباً من الأنصار على قول العباس " فإنا نأخذه " أي الرسول " على مصيبة الأموال وقتل الأشراف، فما لنا يا رسول الله ان نحن وفينا ؟ قال " الجنة " قالوا : أبسط يدك ، فبسط يده فبايعوه " .

وانعقد الاتفاق بين الحاضرين ، في بيعة العقبة الثانية (وقد كان عددهم في حدود ثلاثة وسبعين تقريباً) على تكوين أخوة مقاتلين ومنحهم محمد بركته . ان هذه القبضة الصغيرة من الرجال ، المتحدين بإيمان مشترك ، كانت النواة الأولى للفيالق الإسلامية . وقد انتشر في المنطقة نبأ تأسيس هذه الأخوة . ونودي في الناس أن الله قد أحاطها بالرعاية والحماية وأن سلسلة طويلة من الأنتصارات قد وعدت بها . وقد أقبل المتطوعون من القرى المجاورة بعد أن دخلوا في الإسلام متأثرين بمواعظ النبي الملتهبة فارتفع عدد الرجال بعد تلك البيعة الصغيرة .

فلو قدر لمؤرخ محايد أن يزور الجزيرة العربية في ذلك العصر ، لأدهشه ذلك الميل إلى الوحدة الذي كان يظهر بين مختلف الجماعات في شبه الجزيرة . لكنه كان جديراً بالتنبؤ بأن هذه الوحدة ستتحققق لمصلحة القرشيين ، إذ كل شيء كان يشير إلى أنهم المؤهلون لسيادة الجزيرة العربية . ان هذه الأسرة ، التي كانت الأغنى والأشرف في بلاد الحجاز قد سجلت سبقاً معيناً في طريق التوحيد السياسي . انها هي التي كانت تتكفل بهدنة التجمعات في عكاظ ، وتؤمن السلام في مكة وتزود الهيكل " الكعبة " بمن يحتاج إليه من السدنة والعاملين فيه . ولم يكن محمد بالنسبة إليها غير مغامر لا ماضي له وفقير لا ثروة له ، وبصورة خاصة كان دون تراث من التقاليد .

لكن القرشيين كانوا على قدر كبير من الثروة والثقافة ،

كما أنهم كانوا قد أمسكوا بكل المراكز المؤثرة في الحجاز ، وكانت تنقصهم العاطفة الملتهبة التي تؤمن وحدها نجاح المصائر السياسية الكبيرة وباعتبرهم أحراراً وارتيابيين وربما وثنيين أيضاً ، فقد سمحوا بارتفاع عدد كبير من التماثيل حول الكعبة ليتأكدوا من أنهم لا يغضبون أي اله باستعاده من طقوس العبادة . لقد كانوا يرتبطون بعملائهم مع كل ما كانوا يملكون : هبات مادية ومناصب إدارية مأجورة.

أما محمد فقد كان يتجاوزهم بامتياز ساحق : لقد كان يحمل في نفسه الوحي الإلهي . كان يتكلم " باسم الاله الوحيد الموجود " ، وهو بالاضافة إلى ذلك كان " اله العرب " ، لقد كان في وسعه التأكيد لمواكنيه بأن هذا الإله قد منحهم العالم قسمة بينهم وأكد لهم أنهم سيتمتعون بالنعم السماوية فيما لو قتلوا وهم يقاتلون في سبيله . وعلى ذلك فإنه لا سابقة للرجال – ولا سيما البدو منهم – في أن يتخلفوا عن اللحاق بمن يعدهم بأقسى أنواع الحياة ، لكنها أكثرها اثارة للحماسة . " قال شاعر إسلامي : ان ما ترغب فيه زهرة الحياة الدنيا ، ليس هو الأمن المادي ، لكنه الخطر الذي يتم التغلب عليه في صحبة كريمة ، وهو الحب أيضاً ، ثم اللهو والغزو " .

وقد رفض القرشيون أن يعترفوا بقداسة الرسالة التي حملها النبي إليهم حينما شعروا أن سلطانهم سيضيع من بين أيديهم فيما لو تركوه ينمي نشاطه . فتآمروا عليه وأرغموه على الفرار فجأة من مكة الهجرة ١٦ يوليو (تموز) ٦٢٢م.

ورد محمد بإعلان الحرب عليهم بعد أن وثق بجماعته الصغيرة . فإنقضّ عليهم وهو على رأس ٣١١ من المشاة و ٣ من الفرسان ، وهزمهم هزيمة حاسمة قريباً من بدر (٦٢٤ م) .

هذا الانتصار الأول قد حقق للإسلام ، كما سبق أن قدر هو نفسه ، أكثر مما حققته أبلغ المواعظ . فالمؤمنون زادوا إيماناً ، أما المترددون فقد كشفوا عن أنفسهم ، وأما المنكرون فقد زلزلوا زلزالاً شديداً . لقد جذب هذا الأنتصار متطوعين جدداً . ثم لم تمض شهور قليلة حتى أصبح محمد يتصرف بقوة قوامها ١٥٠٠ فارس .

ولما كان القرشيون راغبين في التخلص من ابن عبد الله فقد تحالفوا مع اثنتي عشرة قبيلة وجاءوا يحاصرونه في المدينة . فاحتمى منهم محمد وراء خندق عميق وانتظر (٦٢٦ م) . ثم لم يلبث المهاجمون، وقد شلت حركتهم ، أن اختلفوا فيما بينهم . فاستغل محمد هذه المناسبة لايجاد ثغرة في صفوف أعدائه المحيطين به ، واستعاد موقفه الهجومي وهزم القبائل المعادية واحدة وراء الأخرى .

فالتمست هذه الأخيرة عفوه ودخلت في الإسلام (٦٢٧ م) . وبانتصاره في معركة الخندق ، عقد مع القرشيين هدنة لمدة عشر سنوات (معاهدة صلح الحديبية ٦٢٩ م) ثم ارتد نحو اليهود ، الذين انطلق بعض عناصرهم إلى الجنوب واعترض القوافل الخارجة من المدينة ، فإنتزع منهم على التوالي كلاً من خيبر وفدك ووادي القرى وتيماء . ثم قرر الظهور من جديد أمام الناس في مكة فدخل المدينة حاجاً يحيط به ٢٠٠٠ من الفرسان شكراً لله على ما أنعم به عليه من الأنتصارات .

وبدأت شهرة النبي تمتد وتنتشر إلى ما وراء حدود الحجاز . فجاءت القبائل من نجد متأثرة بما حققه من النجاح، لتحيّ فيه " زعيم الجزيرة العربية " .

هذا وقد منحته سلطة مطلقة على نفسها واستأذنته في أن تتبعه في كل الحروب التي يخوض غمراتها.

كان هذا أكثر مما يستطيع القرشيون أن يحتملوه . فبادورا إلى خ رق معاهدة الحديبية باجراء طائش حينما أنذروا برؤية سلطان عدوهم ينمو في موازاة قواته المسلحة . وقد استغل محمد هذه البادرة للاستيلاء على مكة والاقامة فيها بصورة دائمة . وكان الاستيلاء على المدينة المقدسة ضرورياً لأنتشار عقيدته الدينية وتثبيت سلطانه السياسي . فوقف أمام الأسوار بجيش عدته عشرة الآف فارس مدججين بالسلاح . فأحدثت هذه المظاهرة تأثيرها في نفس العدو . وفرّ نحو الشاطىء فريق من السكان ملأ الرعب قلوبهم ، أما المدافعون بقيادة أبي سفيان فقد استسلموا دون مقاومة تذكر ، ١١ يناير (كانون الثاني) ٦٣٠ . هذا وقد سأل أبو سفيان محمداً أن يلحق به ابنه معاوية فوافق على ذلك فكانت لهذا القرار نتائجه الكبيرة فيما بعد ، ذلك أنه كتب لمعاوية أن يصبح واحداً من أكبر القادة المتميزين في الجيش الإسلامي ومؤسس أسرة الأمويين المجيدة .

وبعد أن تقبل النبي خضوع الحامية دخل بناء الكعبة وحطم التماثيل التي تزدحم فيها ، ثم أخرج منها كل النفايات التي جعلتها تتراكم كهانة مهملة ، وأعاد إلى بيت الله عريه وعين طقوس الحجات القادمة ، وقد ألغيت كل الرتب النابعة من الوثنية . ونادى محمد قائلاً " لقد جاء الحق وزهق الباطل أن الباطل كان زهوقاً ".

والجدير بالذكر أن الاستيلاء على مكة زاد إلى حد بعيد من مهابة محمد وضاعف حماسة القتال عند كتائبه . ثم لم يعد في وسع أحد أن يشك في : أن الله قد تولى الأخوان بحمايته . فالقرشيون المغلوبون على أمرهم والمجردون من امتيازاتهم دخلوا في الإسلام ، وكذلك آخر العشائر المعادية في الحجاز . أما قبيلة التميميين المشهورة فقد اعتنقت العقيدة الإسلامية بعد " معركة مجيدة " ، كانت نوعاً من المباراة المسرحية وكان المتخاصمون " يتنافسون جاهدين في سخاء يتجاوزون به ذواتهم " .

وهنا تدفقت القبائل من كل جوانب الجزيرة العربية معلنة ولاءها للنبي . فشهد عام (٦٣٠ – ٦٣١ م) الذي سمي " عام السفارات " قدوم زعماء الطائف وحضرموت وعمان والأحساء والبحرين وحائل يرفعون يمين الولاء . فتعهدوا باحترام أوامر القرآن وتزويد الأخوان بمدد هام من أنصبتهم . أما اليمنيون الذين كانوا قد تظاهروا بالرفض فلم يلبثوا أن أعيدوا إلى التعقل من قبل علي ، ابن عم لمحمد . فبلغ من أهمية القوى الإسلامية أن محمداً استطاع أن يقسمها إلى عدد كبير من الجيوش .

وفي آخر عام ٦٣١ م كان محمد قد بلغ قمة مجده . لقد انتشر سلطانه في الجزيرة العربية كلها . ولم يعد نفوذه الروحي والزمني موضع مناقشة أبداً . وأصبح القرآن هو الشريعة المشتركة لكل القبائل . لقد كان شخص النبي محاطاً باحترام مطلق بعد أن نسبت إليه كل الصفات الملكية والدينية . " قال أحد القرشيين : لقد شهدت كسرى وقيصر في أبهى معالم القوة عندهما ولكنني لم أشهد أبداً سيداً يتمتع بما يتمتع به محمد من احترام أصحابه له " .

لم يكن محمد يتوقف عن تفسير كتاب الله واثارة الحماسة القتالية عند المؤمنين ، وهو مستند في المسجد إلى جذع نخلة أو جالس على كرسي عارية من كل زينة .

وقد رويت عنه أقوال تبشر بالانتصارات القادمة . منها نص جاء في ص ٤٧٧ — ٤٧٨ من مختصر سيرة ابن هشام ورد فيه ما يلي : " وحدثت عن سلمان الفارسي أنه قال : ضربت في ناحية من الخندق ، فغلظت عليّ صخرة ورسول الله قريب مني ، فلما رآني أضرب ورأى شدة المكان علي نزل فأخذ المعول من يدي ، فضرب به ضربة لمعت تحت المعول برقة ، ثم ضرب به مرة أخرى فلمعت تحته برقة أخرى ، ثم ضرب به الثالثة فلمعت به برقة أخرى ، قلت : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما هذا الذي لمع تحت المعول وأنت تضرب ؟ قال : أو قد رأيت ذلك يا سلمان؟" قلت : نعم قال " أما الأولى فإن الله فتح علي بها اليمين ، وأما الثانية فإن الله فتح علي بها الشام والمغرب، وأما الثالثة فإن الله فتح علي بها المشرق " .

هذا وقد كان أرسل إلى " ملوك الأرض " كتباً يدعوهم فيها إلى الإسلام . أما رسله فقد استقبلوا بابتسامة المتفضل . فمن عساه يكون هذا البدوي الصغير المعجب بنفسه ليجرؤ على مخاطبة ملك فارس وأمبراطور الشرق بمثل هذه اللهجة ؟ أما كسرى الثاني فقد مزق رسالة النبي . فصرخ محمد حين جاءه علم بذلك قائلاً : " مزق الله ملكه " وأما الأمراء الغسانيون في ضواحي دمشق فقد أجابوه بازدراء وتحدوه أن ينفذ ما هددهم به .

وقد حج النبي حجته الأخيرة في مكة ، وجمع قواته كلها في المدينة فبلغ عددهم ١٤٠ ،٠٠٠ من الرجال، وكان يستعد لغزو سوريا لتأديب الغسانيين الوقحين حين فاجأه المرض وتوفي في ٨ يونيو (حزيران) ٦٣٢ م .

هذا وقد أوصى أعوانه بمتابعة رسالته " بحمل كلام الله إلى أطراف الأرض " . كما أورثهم الأدوات الضرورية لتنفيذ هذه المهمة : جزيرة عربية موحدة تجتمع فيها القبائل بعضها إلى بعض بحيث لا يشكلون غير شعب واحد ، وغير جيش مؤمن تعلم وتمرس بفنون القتال خلال عشرة أعوام من المعارك.

لم يعد هناك ما يمنع كل هذه الطاقات المحبوسة ، والتي دفعت حتى بلغت درجة التوهج بالوعد بالجنة ، من الانفجار في الخارج . وتحركت الفيالق الإسلامية بقيادة كبار قادتها وبدأت تتدفق نحو العالم بعنف العاصفة الهوجاء .

وتقدمت هذه الفيالق بالسرعة التي كانت تفاجىء بها أمماً مزعجة متهيجة ، تسقط في الفوضى والاضطراب . ولم يكن في وسع أي خصم من الخصوم أن يوقف تقدمها ، وقد كانت حماستها التي تغذيها وتدفع بها من القوة بحيث أنها لم تتوقف إلا بعد أن بلغت جبال حملايا وبلاد البورغون .

لقد طالب الخليفة الأول لمحمد " عليه السلام " أبو بكر (٦٣٢ – ٦٣٤) كل الأمة بحمل السلاح ثم دفع بها إلى سوريا . وهي التي كانت الهدف الأول المعين من قبل النبي لكنها كانت في الوقت نفسه وجهة التيار الذي كان يدفع القبائل الجنوبية منذ عدد من القرون نحو الأراضي الأخصب في الشمال . هكذا جاء إندفاع الطبيعة يغذي العصبية الدينية .

جعل أبو بكر قيادة الجيوش لخالد ، القائد الذي تمرس بالحرب وكشف عن كفاءاته خلال حصار المدينة. وقد بدأ بالاستيلاء عل الجوف وحوران ، مما فتح له الطريق إلى نهر العاصي . ثم انطلق لمواجهة الجيوش المتحالفة لهرقل الثاني ، والأمراء المسيحيين الغسانيين بقواتهم المؤلفة من ستين ألف رجل ، وسحقهم في سهول أجنادين على رأس عشرين ألف فارس والواقع أن الأغارقة لم يستطيعوا مقاومة الحملات الإسلامية العنيفة ، رغم تفوقهم العددي فإنسحبوا بعد أن فقدوا أربعين ألفاً من رجالهم . ان هذا الأنتصار الأول للفيالق الإسلامية فتح أمام خالد الطريق إلى دمشق . فلم يلبث أن حاصرها فاستسلمت المدينة بعد أن تلقت عدداً من الهجمات (٦٣٣) . حيث أقام خالد فيها قيادته العامة . فلجأ آخر الأمراء الغسانيين المطرودين من البلاد ، إلى بيزنطية .

وتوفي أبو بكر في العام التالي فخلفه عمر (٦٣٤ – ٦٤٤) وقد خصص الخليفة الراشدي الثاني ، وهو رجل الحرب الممتاز سنوات حكمه العشر " لنشر الشريعة " فجعل القيادة لأبي عبيدة ووكل إليه مهمة إخضاع سوريا ، في الوقت الذي تلقى فيه كل من عمرو بن العاص ، ويزيد ، ومعاوين بن أبي سفيان أمراً باخضاع فلسطين .

أما أبو عبيدة فقد اتخذ موقف الهجوم ، واحتل على التعاقب كلاً من حمص وبعلبك ، وانطاكية ، دافعاً بالقوات الإغريقية – البيزنطية إلى كيليكيا وكيادوكيا وفي عام ٦٣٨ سقطت كل من بيروت واللاذقية وجبلة وتدمر وحلب . ثم وجه أبو عبيدة قواته إلى المدن البحرية وانتزعها واحدة واحدة . فاضطرت صور وطرابلس وصيدا وعكا أن تفتح له أبوابها واستقبلت الحاميات الإسلامية .

وبعد الإستيلاء على الساحل هبط أبو عبيدة نحو الجنوب ، فاستولى على عسقلأن وغزة ونابلس وطبريا ثم بادر إلى محاصرة بيت المقدس . فقاومه البطريرك صفرونيوس مقاومة يائسة ، دون جدوى . وانتهى إلى الإستسلام حين استنفد عنده الغذاء والماء . لكنه طالب بأن يكون استسلامه على يد الخليفة في شخصه . فجاء عمر قاصداً من مكة ليتسلم مفاتيح القبر المقدس ثم دخل إلى المدينة باحتفال بالغ . ولم يلبث حتى وضع حجر الأساس لبناء مسجد جامع وهكذا أقام الإسلام عند قبر المسيح .

وهنا وجه عمر الأمر إلى إياد بالنفاذ إلى العراق . فاحتل إياد كلاً من الرقة وسروج ، وحران ، وأورفة، والرستن ونصيبين . كما سقطت الموصل وآمد عام (٦٤٠) . ثم قسم العراق إلى أربع مقاطعات إدارية ، جعلت إدارتها للحكام العرب .

ثم جاء دور كل من أرمينيا وجورجيا ، اللتين أرغمتا على الخضوع ودفع الجزية للأمراء المسلمين . وفي عام ٦٤٢ كانت القوات الإسلامية قد بلغت بلاد القوقاز .

وبينما كانت هذه العمليات تتعاقب عند شط العرب وجنوب بحر قزوين كان كل من أبي عبيدة وسعد يزحفإن نحو فارس كسرى ، الذي كان محمد قد أمر " بتمزيق ملكه " وكان كسرى الثاني منذ ذلك الوقت قد ذبح من قبل ولده ، شيرويه ، وخلفه على ملكه حفيده يزدجرد الثالث . وباجتياز نهر الفرات ، التقى أبو عبيدة وسعد الطلائع الفارسية عند قوس الناطف وسحقاها سحقاً . ثم انقضّا على الفرق الأساسية لجيش العدو الذي كان يعسكر في سهل القادسية . والجدير بالذكر أن هذه المعركة ، القاتلة والقلقة ، قد عصفت لمدة ثلاثة أيام . وأخيراً هزم الفرس

وهاموا على وجوههم في فوضى شديدة إلى قلب البلاد . ثم هزم يزدجرد مرة أخرى عند " جلولاء " فلجأ إلى أصطخر " برسيبوليس " يحمل معه النار المقدسة لزرادشت .

إنّ انتصار القادسية قد حقق للعرب فرصة الإستيلاء على كلدة وأشور ، اللتين أطلقوا عليهما إسم العراق — العربي ، بالاضافة إلى الغنائم العظيمة . ثم أخذت الحيرة والكوفة ، وباب الأسباط ونهر شير . وسقطت المدائن عام ٦٣٧ . وقد أمر سعد باجتياح العاصمة ثم لم يرفع يده إلا عن خرائب القصر ، الذي تشهد قبته المهيبة ، حتى اليوم ، بما بلغته المدنية الساسانية من الرونق والبهاء .
وقد بنى العرب مدينة البصرة ، خلفاً لها ، عند مصب دجلة والفرات ، هذا وقد عرفت هذه المدينة بسرعة حالة عظيمة من الرخاء وأصبحت مرحلة هامة في الطريق البرية إلى الهند .

وبينما كان سعد يتابع غزو الدلتا ، كان أبو عبيدة يطارد يزدجرد . فلحق به عند نهاوند ، جنوب أكباطان وسحق جيشه سحقاً . ان هذا الأنتصار المدوي الذي أطلق عليه العرب اسم " انتصار الأنتصارات" فتح أمامهم الشرق كله . وسقطت كردستان وأذربيجان سريعاً بين أيديهم . ثم احتلو شيراز ، وأصفهان ، وهمدان ، وقزوين ، وطورس وسوس فأصبحوا بذلك سادة بلاد ساسان وفارسستان .

ومن الطبيعي أن تحدث هذه الأنتصارات المتعاقبة قمة الحماسة عند الفيالق الإسلامية فإنطلقت عبر السهوب الواسعة " كأنها إعصار من النيران " وانتزعت على التوالي كلاً من الأحواز [١] وتستر وجنديسابور ثم خضعت كل من كرمان وشيراز ولم يكن في الأفق ما يدل إلى قدرة المقاومين على إيقاف هذا الزحف . لقد كانت آسيا في حالة ذهول أمام سورة الرياح العربية العاصفة .

وقد تابع ابن حنيف مهمة أبي عبيدة بانزال الهزيمة بالقوات الهندوسية وارغامها على التراجع إلى ما وراء نهر الأندوس ، وكانت قد أقبلت متأخرة من السند لأنجاد يزدجرد . ثم انطلق إلى الشمال فاستولى بهجمة واحدة على مرو ، وهراة ، وبلك ونيسابور .

ثم احتلت على التوالي كل من : آريا ، وهاكاكانيا ومرجيانيا ودرانجيانا ، وباروباديزيا ، هذه الغزوات وضعت فارس كلها تحت السيطرة العربية .

هذا وقد أراد ابن حنيف أن يجتاز نهر آموداريا لكن اجتيازه كان موطن صراع شديد لقد اصطدمت التشكيلات العربية لأول مرة بقبائل أكثر تمرساً بالقتال من كل تلك التي تعاملت معها حتى ذلك الوقت : انها القبائل التركية . هكذا اقتصر ابن حنيف على رؤية مدينتي بخارى وسمرقند منتصبتين في الأفق ، وتراجع إلى ما وراء النهر بانتظار النجدات المطلوبة .

وفي الوقت الذي كانت فيه الفيالق الإسلامية تنطلق منقضة على آسيا الوسطى ، كان معاوية يبني أسطولاً قوياً في دور الصناعة البحرية في كل من صور وصيدا . لقد كانت العمليات البحرية حدثاً جديداً بالنسبة للعرب ، مما كان يدعو إلى التساؤل حول تصرفاتهم بشأنها . لكنهم كشفوا فيها عن مثل ما كشفوا عنه من روح المغامرة والشجاعة فوق اليابسة .

---

١) الأحواز هي التسمية الحقيقية لمنطقة الأهواز . " المعرب " .

وقد كان الأسطول من القوة ، تحت قيادة أمرائه ، وهو تعبير ظهر لأول مرة في التاريخ باسم " الأسطول العربي المسلم " ، كما كان يدعوه الأغارقة ، بحيث أنه أشاع الرعب في قلوب أعدائه ورفع راية النبي فوق الجزائر الرئيسة من بحر إيجه . ثم استولى البحارة العرب على كل من جزيرة قبرص (٦٤٧) وأقريطش ورودس (٦٤٩ — ٦٥٠) وقتلوا رجال حامياتها . ولم تمض خمس عشرة سنة على وفود الإسلام إلى شواطىء سوريا حتى أصبح سيداً للجانب الشرقي من البحر الأبيض المتوسط .

لكن عمر لم يكن يطمح فقط إلى غزو الشرق وحسب . لقد كان على الغرب أيضاً واجب التعرف إلى شريعة النبي . أو ليس أن محمد بن عبد الله قد نبيء بسقوط الغرب من قبل البرقة الثالثة التي انبثقت تحت معوله حينما كان يحفر الخندق تجاه المدينة ؟ هكذا كان عمر قد احتفظ بعمرو بن العاص أبرز قائد عنده ، في فلسطين .

ثم كلفه بالحاق مصر وأفريقية بعالم العقيدة بأن جعله على رأس مجموعة ثانية من جيوشه .

واجتاز عمرو بن العاص شبه جزيرة سيناء ، ثم اخترق مضيق السويس واستولى على بليوز أو الفرما " أو التينه كما يقال اليوم " عام (٦٣٩) منطلقاً من بيت المقدس ، واتجه مباشرة نحو مصر الوسطى ، التي كان يحكمها ، في غموض ظاهر ، حاكم قبطي باسم البطالسة . وبعد أن أخذ ممفيس عام (٦٤٠) رجع عمرو إلى الشمال وأقام الحصار حول الاسكندرية . وقد صمدت المدينة أمام الحصار لمدة أربعة عشر شهراً بفضل النجدات التي تردد بها عليها الأسطول البيزنطي في عدد من المحاولات ، وأنزلت خسائر كبيرة في صفوف المهاجمين . لكنها رغم الدفاع البطولي للحامية ، انتهت إلى الاستسلام والسقوط . ودخل العرب إليها على صورة الاعصار في ٢١ ديسمبر (كانون أول) ٦٤١ .

والجدير بالذكر أن سقوط الاسكندرية قد زلزل كل العالم المتمدن بشدة . هكذا أحدث سقوط هذه المدينة الرائعة تأثيراً بالغاً في التطور اللاحق للمدينة العربية ، ذلك لأن التراث الثقافي القديم كان قد تركز تقريباً في تلك المدينة[١] وكان عمرو بن العاص قد أغضبته الخسائر التي تكبدها في حصاره لهذه المدينة فأقسم أن ينزل فيها الخراب والدمار . لكن غبطته بالنصر قد هدأت من غضبه فاقتصر على هدم تحصيناتها القديمة وبنى في موضعها مسجداً جامعاً أطلق عليه اسم مسجد الرحمة .

أما الإستيلاء على الموقع اللاحق للقاهرة فقد تحقق في الربيع التالي ، وكان سقوط بلاد النوبة الخاتمة المجيدة لغزو مصر .

هكذا أبيد سلطان البطالسة .

وفي الوقت الذي كانت فيه الفيالق الإسلامية تتدفق نحو آسيا الوسطى فقد تدفقت في الوقت نفسه ، بعنف لا يقاوم على امتداد الساحل الإفريقي .

هكذا تقدم كل من عبد الله بن سعد والزبير كالعاصفة على امتداد الساحل واحتلا على التعاقب كلاً من برقة وطرابلس وقابس . فجعلت هذه الأنتصارات منهما سيدي ليبيا وطرابلس الغرب وأفريقية البيزنطية.

وأسس عقبة بن نافع ، أحد قادة عبد الله ، مدينة القيروان على بعد ١٦٠ كيلو متر من قرطاجة . ثم زحف عبر المغرب ، الذي كان يسكنه في ذلك العصر مزيج من الأغارقة والوندال وسكان البلاد الأصليين، دون أن يحصن هذه القلعة العظيمة بالرجال والسلاح . واخترق صفوف السكان المعادين له على رأس فيالقه بغارة خاطفة حملته حتى شواطىء الأطلنطي عام (٦٧٥) وكان رجاله قد ابتهجوا برؤيتهم هذا المحيط المجهول وظنوا أنهم قد بلغوا أطراف الأرض وصرخ عقبة ، في غمرة من الحماسة ، وقد خاض بحصانه أمواج المحيط ، رافعاً سيفه نحو الأفق :

– يا رب محمد ! لولا أن هذه الأمواج قد حجزتني لحملت اسمك المجيد إلى ما وراء حدود العالم .

---

١) الملاحظ أن النهضة الثقافية التي ظهرت عند العرب قد برزت معالمها أكثر فأكثر على التعاقب في سوريا ثم العراق ثم في مصر على الترتيب . " المعرب " .

في تلك الأثناء كان عثمان (٦٤٤ – ٦٥٥) قد خلف عمر ثم جاء علي بعد عثمان (٦٥٥ – ٦٦٠) . وبعد وفاة علي كانت الأمبراطورية قد أصبحت أوسع من أن تتكيف للنظام الأنتخابي الذي يقلب الأوضاع رأساً على عقب عند وفاة كل خليفة .

فإنفجر بعد وفاة علي صراع شديد بين المرشحين للخلافة . وأحدثت اضطرابات خطيرة في شبه الجزيرة كلها . فاضطر قائد نشيط ، باسم الحجاج ، للاستعانة بأقسى الأساليب للحفاظ على وحدة الأمبراطورية . وتم القضاء دون شفقة على الثورة التي سادت لفترة من الزمن مدينة مكة . ولم يتردد الحجاج ، لأنقاذ الأمبراطورية من أنيبيد آخر مجموعة من الثوار حتى عند درجات الكعبة . هكذا تلطخ البيت المقدس بالدماء .

وقد اعترضت هذه الاضطرابات مسيرة الفتوح لمدة ثلاثين عاماً (٦٧٥ – ٧٠٥) ولم تعد هذه الفتوح سيرتها الأولى إلا بعد أن حل معاوية مؤسس الأسرة الأموية ، وخلفاؤه ، محل الخلفاء الراشدين وجعلوا الحكم وراثياً في أسرتهم .

لكن هذه الأعوام الثلاثين لم تكن فترة خسارة بالنسبة للاسلام . كانت الجيوش الإسلامية قد حققت نجاحات ضخمة في فنون القتال ، حينما انطلقت من جديد ، ذلك أنها لم تكن في البداية غير حشود فوضوية من الفرسان الذين يستمدون قوتهم الأساسية من سرعتهم ، وصلابتهم وعصبيتهم الدينية .

كانوا ينطلقون نحو العدو صائحين دون أن يبالوا بما يصيبهم من الخسائر ، وينتهون بتحطيمه بما يكيلونه له من ضربات حملاتهم المتكررة . أما الأن فقد كسبت الجيوش العربية معرفة أكثر ذكاء بفن القتال وأصبحت قواتهم منتظمة. وكانت الوحدات قد تنوعت في تسليحها وطريقة منتظمة . وكانت الوحدات قد تنوعت في تسليحها وطريقة تعبئتها . أما مناوراتها فاتسمت بالمرونة وزودتها براعة الحرّاقين [١] بعتاد من الأسلحة الجديدة ، مشتقة في أكثرها من النار الاغريقية للفينيقيين .

---

١) الحراق هو صانع الأسهم والصواريخ النارية . " المعرب " .

وأخيراً أصبح قادتهم الذين نشأوا في ميادين القتال ، أحسن المخططين العسكريين في زمانهم . وعندما تولى الوليد الأول سلطة الخلافة (٧٠٥ –٧١٥) استأنفت هذه الجيوش حملتها على العالم بقوة متناهية .

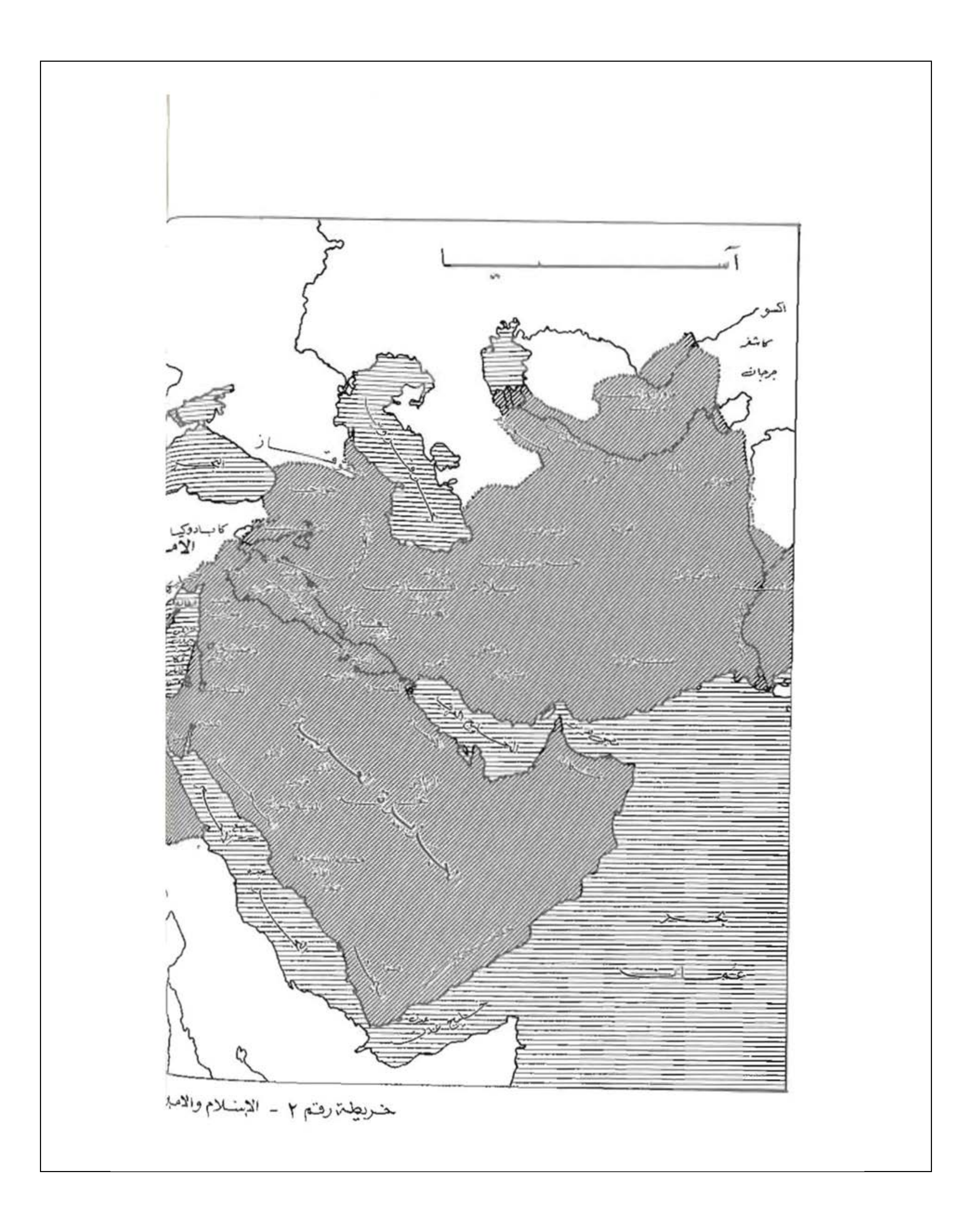
افتتح العاهل الجديد ، الذي كان قد نقل عاصمة بلاده إلى دمشق ، المرحلة الثانية من الفتوح بتوجيه الأمر إلى قتيبة ومحمد ابن القاسم باستئناف الهجوم على آسيا الوسطى فاجتاز قتيبة نهر أموداريا [١] مرة أخرى ونجح في انزال هزيمة تامة بالأتراك ، بفضل الأنتصارات التي حققتها جيوشه منذ معركتها السابقة . ثم أخضع كلاً من خوارزم وبلاد ما وراء النهر هكذا خصصت لسلطانه كل بلاد التتار المستقلة.

ثم توجه قتيبة إلى أفغانستان وبلاد الصين . ولما لم يرضه احراق الأصنام في فرغانة وناكشب وبايكاند وبخارى والدخول منتصراً إلى سمرقند ، فقد احتل على التعاقب كلاً من كاشغر وأكسو وجرجان وكوتان وأرسل اثني عشر سفيراً إلى أمبراطور الصين ليرغمه على اعتناق الدين الإسلامي . وقد حاول الأمبراطور أن يكسب الوقت باطلاق وعود مطاطة " لرسل النبي " ومنحهم ذهباً كثيراً . أما ملك أفغانستان فلم يوفق إلى مثل ما وفق إليه أمبراطور الصين فأرغم على دفع جزية منتظمة للمنتصر . وأقيمت حامية إسلامية في كابول .

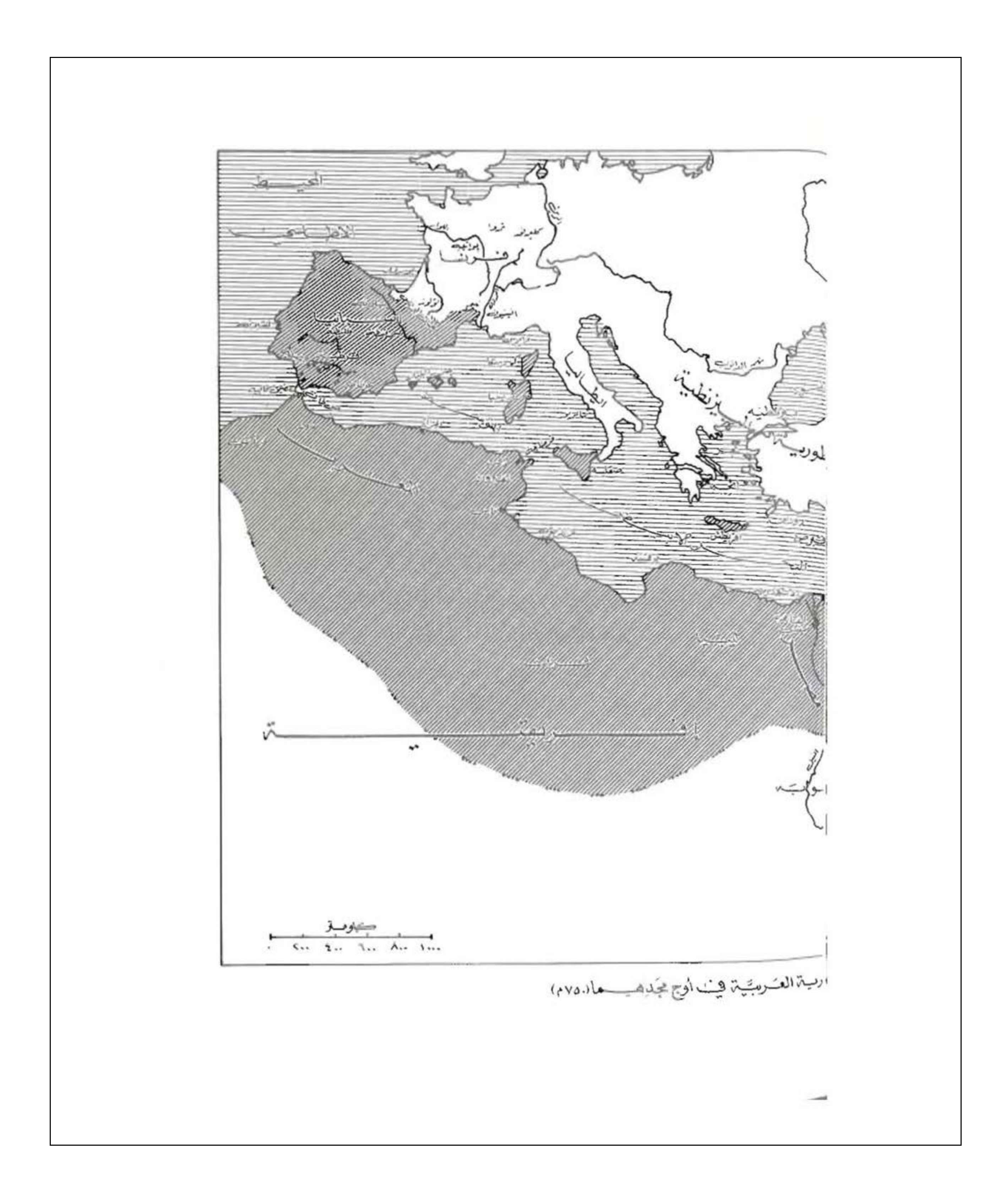
وهنا توجه العرب إلى بلاد الهند (٧٠٧) فكانت المعركة التي خاضها محمد بن القاسم سريعة ودامية . وبعد أن تقدم محمد حتى ضفاف نهر الأندوس بادر إلى مهاجمة الملك ضاهر ، وتحداه ، واستولى على كل من مدينة ديبل ، وبيرون ، وبهماناباد ، وألور وملتان ، في الوقت الذي كان فيه أسطول بحري ، قد انطلق من البحرين في الخليج العربي وصعد مياه الأندوس لالتقائه . وتم فتح السند كله . فأصبح الأندوس " جادة الإسلام إلى الشرق " أما السند فقد أصبح قاعدة انطلاق للبعثات العسكرية التالية .

---

١)كان يطلقعليه إسم جيجون أو الأكسوس .



خريطة رقم ٢ - الإسلام والامب



ارية العربية في أوج مجدها (٧٥٠م)

وفي عام (٧١٥) كان محمد بن القاسم يستعد لاجتياح مملكة كانوج (بانجاب) بعد أن اجتاز السفوح الأولى لجبال حملايا . وكانت طلائعه قد بدأت بالظهور عند ضفاف الغانج حين تلقى أمراً من دمشق بالتوقف عن الزحف. ذلك أن سليمان ، الخليفة الجديد ، قد شاعت الغيرة عنده من قائده وبدأ يتخوف من أن يقتطع هذا الأخير لنفسه أمبراطورية في آسيا ، بعد أن بلغته أنباء الثروة الأسطورية للمدن المفتوحة من قبل هذا القائد . أما الأسطول العربي فلم يبق ثابتاً في أثناء هذا الوقت . ذلك لأن قوته قد زادت بنسبة كبيرة جداً منذ العهد الأول للفتوح لقد ثبت أقدامه في صقلية (٧٢٠) وسردينيا (٧٢٤) وكورسيكا وفي جزر الباليار خلال الغارات والغزوات السريعة التي قام بها فمنح العرب بذلك سيادة مطلقة على البحر الأبيض المتوسط كله .

أما الأنتصارات التي تحققت في الجانب الغربي فقد كانت أشد إثارة للإعجاب والدهشة . ان التقدم العاصف الذي سجله عقبة بن نافع نحو الأطلنطي عام (٦٧٥) كان غارة دون غد . لقد اضطرت القوات الإسلامية لاخلاء المغرب كله والأنسحاب إلى برقة أمام الحملة التي شنها الأغارقة والسكان الأصليون وقد ارتكب عقبة عملاً طائشاً حين لم يستول على قرطاجة . لقد كانت هذه المدينة المحصنة تحصيناً جيداً ، تمثل خطاً دفاعياً عظيماً ، والسيطرة عليها تفتح الطريق إلى المغرب كله . ولذلك امتنع حسان ، المكلف باستعادة الأراضي المفقودة ، عن ارتكاب الخطأ نفسه الذي أقدم عليه القائد السابق .

وقد كانت المهمة الأولى التي عهد بها إلى قواته هي اسقاط هذه القلعة المعروفة بمنعتها بأي ثمن . وقد حقق الجنود هذه المهمة بحماسة غير عادية . فلم يصمد شيء أمام هجماتهم المندفعة . " يقول أحد الرواة : ان الموتى أنفسهم يتساقطون في المدينة فوق المدافعين تشدهم مسيرتهم العنيفة . وتفرق المحاربون المسلمون في أرجاء السور ، بحثاً عن رؤوس يقطعونها ، وبطون يبقرونها ، في عاصفة من الموت ، والغنيمة ، قد زاغت أبصارهم ، وجحظت عيونهم ، وصرخت شفاههم ، وانقبضت أيديهم المتشجنجة على سيوف عريضة معقوفة دامية أو على قصبات رماحهم التي كانت تتدلى منها مزق من اللحم " . هكذا اكتسحت المدينة كما لو أن مداً من أمواج البحر المتلاطم قد جرفتها

وانتقلت ثرواتها إلى الفريق المنتصر (٧٠٧) أما حسان فقد دكها دكاً ليمنعها من منافسة القيروان التي أسسها عقبة عام (٦٧٤).

ثم انتقل لمواجهة الأهالي الذين كانوا قد تجمعوا حول متنبئة غريبة تدعى الكاهنة ، كانت تكره العرب وتزعم أنها مرسلة من قبل الله " لتضع حداً لاعتدادهم وزهوهم " . فحصر حسان الكاهنة في المعركة وسحق أنصارها في معابر جبال الأطلس (٧٠٨) . وقد مكنه هذا الأنتصار من الاستيلاء نهائياً على الشريط الساحلي وسمح له أن يفرض جزية ثقيلة على أهالي البلاد " أو البرابرة " أما خليفة حسان ، موسى بن نصير ، فقد كان واحداً من أكبر وجوه الملحمة الإسلامية . وقد حالف البرابرة المغلوبين على أمرهم خلافاً لسياسة الأمير السابق واستطاع أن يكتسب ثقتهم باجراءات رحيمة . لقد اجتذبهم ، وعبأهم في قواته ، ودعاهم " لمتابعته حيث يقودهم " (٧٠٩) .

كان موسى ، بهذا الأسلوب ، يعمل على تنفيذ خطة تنضج في عقله منذ زمن طويل . كان يشهد في الأفق ، تجاه الشاطىء الأفريقي ، شريطاً ساحلياً آخر يحدث في نفسه فتنة غريبة ، إنه أسبانيا . ولما كان المسافرون لا ينون يمتدحون ثراء مدنها ، وروعة حدائقها وخصوبة سواحلها فقد قرر الإستيلاء عليها .

وقد ضاعف موسى استعداداته بعد أن حصل على اذن الوليد . لكن ابن نصير كان رجلاً عاقلاً . فلما لم يكن راغباً في تعريض خيرة جيوشه لتجربة حافلة بالاحتمالات المفاجئة فقد قرر أن ينتدب فصائله البربرية على صورة طلائع بقيادة زعيمهم طارق .

فاجتاز هذا الأخير مضيق " كاليبه " [١] في أبريل (نيسان) ٧١١ م . ثم نزل في الشاطىء الإسباني وأقام معسكره عند جرف جبلي حاد عمد باسم " جبل طارق " وبعد أن استعرض رجاله للمرة الأخيرة أحرق مراكبه ليبين لهم أن المغامرة التي يقدمون عليها ليست ذات عودة ثم مضى إلى داخل البلاد [٢].

---

١) كاليبه هو أحد عامودي هرقل : الأسم القديم لجبل طارق .

٢) لم يثبت التحقيق التاريخي صحة النبأ الخاص باحراق المراكب فإن حوله شكوكاً كثيرة . " المعرب " .

أما الوزيغوت الذين كانوا يحتلون شبه الجزيرة الايبيرية في ذلك العصر فقد فقدوا كثيراً من بأسهم الأول القديم . وكان ملكهم لذريق أميراً مترفاً ذا مستوى فكري رفيع لكنه في ا لوقت نفسه قد أوهنته رخاوة العيش ونعومة الحياة في القصر . " ثيابه المغطاة بالذهب وعربته المصنوعة من العاج وسرجه المرصع بالحجارة الكريمة كانت تخفي الحديد تحت بريقها .

والحديد هو المعدن الذي يمثل القيمة الحقيقية . أما النبلاء الذين كانوا يحيطون به بأزيائهم البهية وجهازهم الرائع، فقد كانوا أكثر اعتماداً على عدد جنودهم منهم على شجاعتهم . وكان هؤلاء الجنود عبيداً مجندين بالقوة لا يقاتلون إلا مكرهين يقابلهم البرابرة المستعدون لاستقبال الموت على أساس أنه يخير يؤمن لهم نعمة السماء يتقدمهم قائد ذكي ، ويبدون وكأنهم قد نسوا دونيتهم العددية [١].

أما الصدام الحاسم فقد جرى عند ضفاف غواديليت غير بعد من شريش . لقد أنهك الجيشان خلال سبعة أيام من مناوشات ومعارك فردية . وأخيراً قرر طارق أن يحسم الموقف فحمل على الويزيغوت باندفاع شديد على رأس فرسانه ونجح في تقطيع القوى المعادية إلى أجزاء كثيرة . فلم يلبث الويزيغوت حتى بدأوا يشعرون باضطراب الأرض تحت أقدامهم . وحينما رآهم أسقف أشبيلية والقوات التي يقودها ، يتفرقون ، انتقل إلى جانب الغزاة . فحاول لذريق عبثاً أمام هذه الخيانة أن يجمع كتائبه الهاربة من كل جهة فاستدرجته الهزيمة العامة وهلك على الأرجح في مياه الوادي الكبير (٧١١).

عرف طارق أن يستغل هذا الأنتصار الباهر بعمث . فإنقضّ على طليطلة عاصمة المملكة بعد أن استولى على كل من استجة وملقة ، والبيرة وغرناطة وقرطبة . فاستسلمت طليطلة المحرومة من المدافعين. ثم تابع طارق سيره إلى الشمال فوصل عبر سرقسطة وبنيلونة إلى جيرون عند خليج بسكاي .

---

١) ل . أ . سيديو ، ص : ١٤٩ .

أما موسى الذي لم يرد أن يترك لمساعده كل أمجاد هذه المعركة ، فقد سارع إلى اجتياز مضيق جبل طارق ونفذ إلى الأندلس التي لم تكن بعد قد أخضعت بصورة كلية . وبعد أن استولى على ماردة وقرمونة وأشبيلية لحق بطارق في طليطلة ، في الوقت الذي كان فيه ولده عبد العزيز قد أصبح سيداً للوزيتانيا وايستريمادورا على رأس نجدات من سبعة آلاف رجل قادها من البر الأفريقي .

كل أسبانيا كانت بين أيدي المسلمين . وقد قسمت هذه الفريسة الرائعة بين الفيالق المنتصرة . أما فيلق دمشق فقد أ قام في قرطبة . وأما فيلق حمص ففي أشبيلية وفيلق قنسرين في إيان ، وفيلق فلسطين ، في مدينة صيدونيا والجزيرة ، وفيلق فارس في شريش وفيلق اليمن في طليطلة . وفيلق العراق في غرناطة . أما فيلق مصر ففي مرسية ولشبونة . وأخيراً عشرة آلاف فارس من نجد والحجاز اقتطعوا لأنفسهم أكثر السهول الداخلية خصوبة . حتى ليقال أن " جزيرة عربية جديدة " بكل مقاطعاتها قد أقيمت وراء أعمدة هرقل عند تلك النقطة المتطرفة من يونانت . لكن فتح اسبانيا في نظر موسى لم يكن غير البداية . فعهد إلى إبنه عبد العزيز بادراة البلاد وترك وراءه الحاميات الكافية لتأمين النظام فيها . ثم اتجه نحو الشمال بما بقي من قواته . وعندما بلغ قمة جبل البرانس وشهد عند قدميه سهول الناربون الغنية وضع " وهو المعلق فوق أوروبا " خطة عظيمة : لقد قرر أن يصل إلى البوسفور عبر الطريق البرية وأن يستولي على القسطنطينية من الخلف ، باخضاع كل الشعوب التي يلتقيها في طريقه . هذا المخطط أوحت به إليه كبرياء لا حدود لها . بالاضافة إلى غريزته القديمة كبدوي لا تدخل المسافات الطويلة في حسابه ".

هكذا اقتطع طليعة من جيشه بقيادة الأمير السمح بن مالك الخولأني وعهد إليه باحتلال سبتمانيا . هكذا تم احتلال الناربون عام ٧١٩ . وعندما قتل السمح خلال إحدى المعارك استولى خلفه عنبسة بن سحيم الكلبي على كل من كاركاسون وأدج وبيزريه ونيم لكنه اصطدم بمقاومة شديدة من قبل أود دوق أكيتانيا الذي اعترض طريقه إلى تولوز (٧٢١).

وهنا انحرف عنبسة وفرسانه نحو وادي الرون ، الذي تسلقوه على مراحل . فتعرضت لعمليات النهب والتخريب من هؤلاء الغزاة كل من مقاطعات : الألبيجوا والرووزع والجيفودان والفيلا .

ثم بلغت القوات الإسلامية مقاطعة البورغون باستمرارها في التقدم على امتداد السون . أما بون فقد سقطت وأصابها خراب شديد . ثم انتزعت أوتان عنوة وخربت عام (٧٢٥) بينما أفتدت مدينة سنس نفسها بدفع الجزية . وكادت أوكسير تواجه مصير أوتان . ثم عسكر العرب في وديان الأوب والأبسانت حيث قدر لدير كليرفوا أن يبني فيما بعد تقريباً .

أما مدينة تروا فقد تحصنت وراء أبوابها مترقبة للحصار .

هذه العمليات الحربية توافقت مع انزال بحري قام به الأسطول العربي في مقاطعة فريجوس (فراكسينا) ثم أقامت الكتائب الإسلامية بالقوة فوق المرتفعات التي تدعى باسم " مرتفعات المور " وهناك انطلقوا حتى يروفإنس حيث احتلوا كلاً من آرل وأفينيون (٧٣٠) . هذه الأنتصارات شجعت موسى على توجيه الأمر إلى قائد آخر من قواده ، الأمير عبد الرحمن ، بافتتاح ما بقي من بلاد الغول . فاجتاز عبد الرحمن على رأس جيش كبير الممر الجبلي " يويسردا " وفي هذه المرة لم يسطع دوق أكيتانيا أن يصمد أمام الغازي . لقد أرغم على الأنسحاب بسرعة نحو الشمال الشرقي ففتح الطريق أمامهم إلى بوردو بعد أن هزم عند ضفاف الغارون . ففتحت بوردو عنوة. ثم اتجه عبد الرحمن إلى تور وفي نيته أن يستولي على دير سان مارتان الذي كان في ذلك العصر مزاراً وطنياً لكل الفرنجة بعد أن حقق انتصاره مرة أخرى في ممر دوردوني .

والجدير بالذكر أن نبأ وصول العرب إلى ضفاف نهر اللوار ، قد أحدث في بلاد الغول كلها صدمة انفعالية شديدة تستعصي على الوصف . فهل كانت ستصبح أوروبا إسلامية ؟ هكذا قرر شارل ابن بيبان دايستال ، الذي كان يمسك الخط الصاعد لأسرته ، أن ينقذ المسيحية المهددة . فاستدعى اللوديين إلى حمل السلاح وحشد جميع أعوانه م ن المحاربين الفرنجة والموزيين . فاستجاب لدعوته كل الرجال القادرين على القتال . أما عبد الرحمن فتراجع عن اللوار وانتظر عدوه عند فوويا بين تور وبواتييه ، وقدر للغرب أن يتقرر مصيره هناك (٧٣٢).

" كان العرب يترقبون معركة أخرى شبيهة بمعركة شريش ، لكن آمالهم قد خابت لأن الفرنجة الأوسترازيين لم يكونوا يشبهون الويزيغوت المنحطين . انهم لم يكونوا يحملون الذهب أبداً فوق ثيابهم وكانوا ينهضون للمعركة مدججين كلية بالحديد.

هنا لا يوجد عبيد يقاتلون دفاعاً عن سيد مكروه ، بل رفاق يحيطون بزعيم يزعم أنه مساو لهم . ولم تحدث خلال الأيام الستة الأولى غير التحامات جزئية سجل فيها المسلمون تقدماً ظاهراً . وفي اليوم السابع أصبح الإلتحام عاماً ، فكان دامياً وعظيماً . فإنهزم العرب أمام اندفاع شارل العنيف الذي خرج من هذه المعركة بلقب مارتل وأرهقوا بقوة الفرنجة وقاماتهم الفارعة [١] .

وقد قتل عبد الرحمن في أثناء المعركة . وفي الليلة التالية شاع الخوف في صفوف العرب الذين فقدوا قائدهم وشعروا بالضياع في بلاد لم يكونوا يعرفونها فتنازعوا فيما بينهم . وشوهدت في فرج بواتو ، قبائل الحجاز واليمن ونجد تشهر سلاحها الواحدة ضد الأخرى ، وتقتتل في غضب شديد . هكذا تبخر الجيش تحت تأثير الكارثة . فتراجعت بقاياه بصعوبة بالغة نحو سبتمانيا ، تنهكها ضربات شارل مارتل وأخيه تشيلد براند . ثم لم تجد نفسها في مأمن إلا خلف حصون الناربون وكاركاسون [٢] .

هكذا بلغ الأنتشار العربي عام ٧٤٣ ، الحدود التي لم يتجاوزها من بعد أبداً بعد أن أوقف زحفه في الغرب بانتصار شارل مارتل كما سدت الطريق أمامه عند بيزنطية بصود ليون الثالث وجوستنيان الثاني. وبقيت أوروبا بعيداً عن متناول هذا الأنتشار بفضل قوة الفرنجة وصلابة الأغريق . لكن السلطان الإسلامي بقي ممتداً بين ناربون وكاشغر، فوجد الخليفة نفسه " هذه الصورة الإلهيةعلى الأرض " على رأس أمبراطورية أوسع من أمبراطوريتي داريوس والاسكندر الكبير في وقت معاً .

---

١) ل . أ . سيديو ، ص : ١٥٨.

٢) هذه صورة لتراجع الجيش العربي غير معروفة في المراجع التاريخية الموثوقة . أن فيها من خيار الرواة الغربيين حظاً غير قليل . " المعرب " .

والجدير بالذكر أنه لم يحدث أبداً أن مثل هذا الأنجاز قد تحقق في مثل هذه الفترة من الزمن ، ولم يخطىء رواة العصر حين قارنوه بالعاصفة . أكثرمن اثنى عشر ألف كيلومتر كانت تفصل بين المواقع القصوى المحتلة من قبل العرب في الشرق وفي الغرب . ومع ذلك فإنه لم يكن قد انقضى غير مائة وعشرين عاماً على بيعة العقبة ، أي منذ اليوم الذي أسس فيه محمد النواة الأولى للجيوش الإسلامية وقد جمع حول شخصه أربعين رجلاً من المحاربين .

" الجنة من أمامكم ، والجحيم من ورائكم ! "

كان القادة العرب يدفعون فيالقهم إلى مهاجمة العالم كله ، ويحصلون على نتائج خارقة مدهشة مع صرخة الحرب هذه . الجحيم ؟ لقد كان الفرسان المسلمون يتمثلونه بسهولة فائقة . فهو أتون الصحراء الحامي المستعر ، الذي خلفوه وراءهم أما الجنة ؟ فلكي يكونوا فكرة عنها لم يكن أمامهم غير أن يتصفحوا القرآن .

" كانوا يقرأون فيه أن المؤمن يدخل لى الجنة ويستمتع فيها بفنون من الثراء وبملكيات عظيمة بعد أن يرتوي من حوض النبي . ان ربيعاً دائماً يحتفظ بالخضرة في حدائقها : حيث تخر وتسيل أنهار من كل نوع: أنهار من المياه العذبة، وأنهار من اللبن ، وأنهار من الخمر ، وأنهار من العسل تمضي تحت ظل كثيف من الأشجار . هذه الأشجار تشيع من حولها ، وفيما يرضي سادتها ، برودة ظلالها وكل أنواع الثمار. إن غياضاً طيبة الرائحة تدفع الأنسان السعيد إلى الحلم عند وشوشات أحد الينابيع ، هذا إذا لم يؤثر الاستراحة في مقصورة من اللؤلؤ ، والياقوت الأحمر والعقيق . ويصدر عبد الله أوامره وقد تلفع بالحرير وضم ساقيه إحداهما إلى الأخرى وسط الأزهار والورود فوق بساط لين . فإذا بوجبة رائعة من الطعام تحمل حالاً إليه في صحاف من الذهب الخالص . لحوم شهية وثمار نادرة – ثلاثمائة صحن في كل وجبة – تغذيه دون أن تحدث البشم والإشباع الشديد . وثلاثمائة فتى من الفتيان يبدون في انتظامهم أشبه ما يكونون بقلاءدة اللؤلؤ الدقيق ، يحملون كؤوساً وآنية من البلور الصخري ويصبون له أشربة سماوية ، أشربة لذيذة تمتع الروح دون أن تفسد العقل وتضيعه.

" قال الله عز وجل : كلوا ,اشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية " .

ثم اثنتان وسبعون حورية خالدة بعيون سوداء شبيهة بالآلىء في أصدافها ، يستجبن لنداء المؤمن ويصنعن له مزيداً من المتع اللذيذة بأغنياتهن العذاب . أما المؤمنون الذين يتمنون أن يرزقوا بالأطفال فإن لهم ما يتمنونه . فتربيتهم هي من السرعة والسهولة كما هي ولادتهم ... " .

وعندما جمدت مسيرات الفروسية الغازية ، عمد العرب إلى إعطاء صرختهم الحربية معنى حرفياً ، مادياً مباشراً . كانت الصحراء ، أي الجحيم ، قد اختفت أمام أعينهم . أما الجنة التي كان زعماؤهم يقولون لهم أنها " أمامهم " أو ليست هي الأرض التي تحيط بهم ، والتي كانت نباتاتها الوافرة تتعارض مع قحولة المساحات الشاسعة التي خلفوها وراءهم ؟ فلماذا لا تتحول حالاً إلى مواطن للمتعة ، دون انتظار الجنات الخالدة التي وعد الله بها المؤمنين [١] ؟

كل شيء فيهم وحولهم كان يشجع على تحقيق شهواتهم . فهناك أولاً رغباتهم الحسية التي طالما كبتت قبل ذلك خلال أجيال كثيرة وهي لم تكن تطلب غير أن تتفجر في الخارج وأن تثأر لنفسها من قرون عديدة من التقشف ، ثم واقع أن القرآن نفسه كان يمثل الآخرة لهم وكأنها صورة منقولة لهذه الدنيا . والواقع أن محمداً كان قد وعد أنصاره " بأن الأنسان سيعاد خلقه على التحقيق في ضوء المبدأين الأساسيين اللذين يتألف منهما — الروح والجسد — يوم لاقيامة ، ذلك لأن الله خالق كل شيء قادر على أن يبعث ما خلق مرة أخرى ، فليس من ظل ، ولا لعنة تثقل كاهل الجسد أبداً ولا شيء يمنع الأنسان من أن يرضي أشواقه . وأخيراً كانت كبرياؤهم تثير فيهم تذوقاً متنامياً للترف.

---

١) هذه صورة للعربي نابعة من خيال المؤلف واستنتاجاته الخاصة وبعضها من كتابات السذج من المتدينين والوعاظ الذين ظهروا بعد عصور النهضة الإسلامية .

" المعرب " .

أوليس من حق الخليفة الذي كان " صورة للألوهية في الأرض " أن يحيا " في حالة استباق للجنة في السماء "[1]؟

كان الخلفاء الأولون لمحمد " عليه السلام" يتميزون بأبسط العادات . أما أبو بكر فلم يترك وراءه ، حين وفاته ، من متاع الدنيا، غير قميص واحد وعبد و احد وجمل واحد بينما كان عمر " بن الخطاب " ينام بين الفقراء عند درجات المسجد الجامع ، أما علي فقد كان يقتصر في غذائه على قبضة من التمر ويوزع على الفقراء المساكين ، كل يوم جمعة ، كل المال الذي كان قد كسبه خلال الأسبوع . وعندما انقسمت الأمبراطورية إلى أجزاء عديدة بعد ذلك بمائة عام (٧٥٢) وقامت أسر حاكمة يستقل بعضها عن بعض في بغداد والقاهرة وقرطبة وطليلطة ، فإن هذه العواصم ، بتجديدها " معارك المجد " القديمة جعلت من مقومات الشرق أن ينافس بعضها بعضاً في مظاهر الأبهة والفخامة . لقد كان المجد وقفاً على من يوفق بأمانة إلى بناء الجنة باستلهام الوصف الذي كان يعطيه محمد لها .

وتم الارتفاع بفنون العمارة والشعر والرقص إلى أعلى درجات الكمال الذي لا مثيل له . في كل مكان في أسبانيا ومراكش ومصر والشرق ارتفعت مدن ومساجد وقصبات وقصور ذات بهاء لم يسمع به من قبل بينما لم يكن الغرب المسيحي قد حقق شيئاً بعد مثله .

لقد أطنب الكتاب العرب في مدح روائع القصور التي كانت مشهورة معروفة . فوصف الرازي المغربي " قصراً قائماً في البحر " في مورفيدرو ولآخرون وصفوا قصر المنتصر في بلنسية ، وقصر الهاشم في طليطلة ، وقصر الظاهر في المرية . أما في قرطبة فقد كانت قصور الرصافة ومروان ، وقصر الأمير أبي يحي " الذي يقوم على قناطر فوق الوادي الكبير " .

---

١) هذه تصورات قد تخطر في خيال العامة عند كل شعب مؤمن بيوم الحساب لكنها لم تكن جوهر الثقافة والسلوك عند المسلمين . " المعرب " .

والجدير بالذكر أنه لم يبق واحد من هذه القصور . أما الأبنية التي ما تزال قائمة حتى اليوم فقد شوهت خلال العصور تشويهاً بلغ من قسوته أنها لم تعد تطرح أمام الأنظار غير بقايا باهتة لبهائها السابق . ومع ذلك فإنها ما تزال تحدث في نفس الزائر جاذبية مؤثرة ! ولكي نتخيل ما كانت عليه يجب أن نلجأ إلى كتابات القدماء من الرواة .

" يقول لنا واحد من هؤلاء : أن مسجد قرطبة الذي بني لتخليد أمجاد الأمويين كان طوله يبلغ ستمائة قدم وعرضه مائتين وخمسين . أما أجنحته الثمانية والثلاثون فقد كان يمسكها ألف وثلاثة وتسعون من عمد الرخام . وكان يدخل إليه من الجهة الجنوبية عبر تسعة عشر باباً مغطاة بصفائح من البرونز ، ذات صنعة دقيقة بارعة . وبين هذه الأبواب كان الباب الأوسط مرصعاً بصفائح من الذهب . وفي أعلى المسج ترتفع ثلاث قبب مذهبة تعلوها رمانة ذهبية . هذا البناء الواسع كان يضيئه في الليل أربعة آلاف وسبعمائة مصباح . أما قبة المحراب فقد كانت مصنوعة من الذهب الخالص " .

وكانت تمتد حول المسجد مدينة رائعة جعلت من نفسها بالسرعة البالغة المدينة الأكثر ثقافة في أوروبا كما كانت بيزنطية والاسكندرية من أكبر المراكز الثقافية الثلاثة في عالم البحر الأبيض المتوسط . وقد حققت قرطبة لنفسها شهرة دولية بما فيها من دور الصناعة وصناعة الجلد بالاضافة إلى مائة وثلاثة عشر ألفاً من المنازل الخاصة وواحدة وعشرين ضاحية وسبعين مكتبة والكثير من محلات الوراقين [١] والمساجد والقصور . كانت ترى فيها كيلومترات وكيلومترات كثيرة من الشوارع المعبدة والمضاءة ليلاً بمصابيح ، في الوقت الذي لم يكن فيه بعد سبعمائة عام في شوارع لندن غير مصباح عمومي واحد ، بينما كان من يجتاز عتبة بيته في باريس في يوم مطير يتعرض للغرق في الطين حتى ما فوق عقبيه [٢] .

---

١) تجار المكتبات . " المعرب " .

٢) فيليب . ك . حتي ، ص : ١٣٩ .

وغير بعيد من هناك يرتفع عند ضفاف الوادي الكبير قصر الزهراء ، الذي كان محل اقامة عبد الرحمن الثالث ، فلننظر فيما يقوله لنا راو آخر : " كان الخليفة يقيم في هذا القصر وكذلك نساؤه وأعوانه . أما سقفه المحمول على الأربعة الآف وثلاثمائة واثني عشر عاموداً من الرخام ذي الألوان المختلفة مما حمل من أفريقيا وفرنسا واليونان وايطاليا فقد كان مع أرضية القصر مغشى ومصبوغاً بلو ن أزرق سماوي ، ومزيناً بالذهب المقولب " .

أما القاعة الرئيسية ، وهي قاعة الخلفاء ، فقد كانت مبنية كلها بالرخام وأما جدرانها وسقوفها ، المرصعة باللالىء الدقيقة والماس وغيرهما من الحجارة الكريمة . فقد كانت مزداته بالنقوش والزخارف البارعة الجميلة . وفي وسطها ترتفع نافورة في حوض من اليشب ، يخرج منها ماء ، وافرٌ ومطيب ينتشر أريجه في الهواء ويشيع البرودة في الروح والحواس . وقد زرعت في قاعدة الحوض أحجار كريمة كثيرة تشبه المغاور حيث تنبثق الينابيع الطبيعية غالباً ببلوراتها الغريبة وجمالها الصناع حتى ليلتبس الأمر على الناظر . وحول تلك النافورة ينتصب إثنا عشر حيواناً من الذهب الخالص ، بأحجامها الطبيعية – ويخرج من أشداقها ماء بارد أبداً ، بفضل الرياح في سيارّا – مورينا ، الملتمعة في أثناء النهارتحت أشعة الشمس الباهرة في الأندلس ، وفي أثناء الليل الذي يستحيل إلى مطر من الماس والزمرد تحت أضواء القمر الرائعة، المتسللة عبر أغصان الحدائق المورقة .

وكانت تسبح في مياه الحوض أوزة من الذهب . وقد علقت فوق النافورة لؤلؤة ثمينة بحجمها غير العادي ونقاوة بريقها . هي هدية قدمها ، ليون الأمبراطور اليوناني إلى صاحب المقام الرفيع عبد الرحمن الثالث . كما كانت حجرات القصر وأجنحته الأخرى مزدانة بمثل هذا الثراء . الطنافس في كل مكان منه، والسجاجيد الفارسية الفخمة ، والذهب في فيض كبير ، وفي كل مكان منه طيور وورود مقلدة ببراعة نادرة حتى ليخيل للرأئي أنه يسمع زقزقة العصافير ووشوشة النسيم عبر الأغصان المورقة ، وينتشي بأريج الورود .

وقد انصرف الأمراء الأمويون إلى أعمال الري الهامة فيما وراء المدن والقصور والمساجد . فعملوا على بناء أقنية كان الغرض منها جعل الطبيعة أكثر وفرة وخصوبة . وبفضل هذه القنوات بنيت حدائق عظيمة حول قصر الرصافة ، حيث زرعت نباتات وشجيرات من كل نوع ، كان المبعوثون يسعون إلى الحصول عليها حتى في أبعد البلدان من قبل:

فهناك أشجار البرتقال والحامض والرمان والبطم والليلك الفارسي والكاميليا من شيراز وأشجار الأرز من أفغانستان . وقد بنيت معابر وجسور من المراكب فوق مياه التاج والوادي الكبير اللذين كانت ضفافهما مزدانة بالأرصفة والحواجز الرخامية .

أما فيما يتعلق بأعياد قرطبة " فلا شيئ يستطيع أن يعطينا فكرة عن الترف والنشوة العامة التي كانت تشيع فيها. المدينة مضاءه خلال الليل ، والشوارع مغطاه بالورود ، وفي كل مكان حيث تكون المنتزهات والميادين العامة تتردد أصداء الآلات الموسيقية في الهواء والناس منصرفون إلى الرقصات الفرحة [١] .

وعندما انتزع الموحدون والمرابطون عاصمة المملكة في غرناطه عند نهاية القرن الثاني عشر ، أرادوا أن يفسدوا عمل سابقيهم . كان الفن المغربي قد بلغ قمته وكان قصر الحمراء التعبير الأعظم عنه . أما الصورة الخارجية للقصر المهيب ، والقاسي تقريباً فقد صنعت طبقاً للتقاليد " لتحويل أنظار الأجنبي " أما المدخل فلم يكن غير قوس عظيمة مزدانة في بساطة تامة ببعض الشعارات والرموز . وأما في الداخل فإن المهندسين المعماريين فتحوا الأبواب مشرعة لكل المصادر في مخيلاتهم . " فهناك ممرات واسعة مصبغة ومذهبة ، مزدانة بالقناطر من كل الأشكال قد قطعت إلى زخارف أكليلية ومعلقات رصعت بتخريمات ومسننات من الجص " . أما الأجنحة ، التي تخترقها نوافذ مشرعة ، وقاعة السفراء ، ثم قاعة الأختين ، وحجرات الأطفال الأمراء ، وبرج الأقمار ثم الفناء ويافورة الأسود وفناء البركة ، الذي تقوم تحته حمامات على الطراز القديم ، هذه كلها كانت تحدث في نفس الناظر الآثار المعجبة المدهشة . هنا كانت المياه تنبثق عبر ملايين من الأعمدة الصغيرة الأنيقة ، وهناك ، تنتشر في أقنية صغيرة من الرخام . تارة تشكل شلالات ، وتارة أخرى فوارات متدافعة وتغذي أحواضاً في أقنية مظللة بأشجار الرمان وشجيرات الورود . وفي كل مكان نقوش ممزوجة ببراعة مع منحوتات زخرفية تعلن عن أمجاد مدرسة ابن سراج . وللامعان في تزيين هذه الفتنة من البرونز ، والرخام والذهب ، كانت أنواع من الخزف المنتشر بسخاء تفجر سمفونية من الألوان الزرقاء والقرمزية ، والصفراء والخضراء [٢] .

---

١) ل . أ سيديو ، ص : ٢٧٣ .

٢) سيديو ، ص : ٤٣٢ .

أما في مصر فإن الفاطميين والطولونيين حاولوا جهدهم أن ينافسوا الأسر الأيبيرية فتميزوا بتشييد الأبنية الفخمة ، ولا سيما المساجد الكبيرة في القاهرة والاسكندرية . لقد بنى خمارويه ابن طولون حديقة كبيرة جمعت فيها كل أنواع الحيوانات المتوحشة : الأسود ، والأنمار المرقطة والفيلة والفهود . " لقد كان لكل من هذه الحيوانات مقصورته وحوض من الرخام تحمل المياه إليه في قنوات من البرونز . وكان هذا الأمير يبسط الأبهة نفسها في أعياده كما في زينات قصوره . كما كانت له بحيرة صغيرة من الزئبق تحمل السرير الذي يستريح فوقه وتهدهده [1] .

أما القدح المعلى في الفخامة والبهاء فيعود دون مناقشة أو تردد إلى أسرة العباسيين ممن جاوز أبرز ممثليهم –أبو العباس السفاح (٧٥٢ – ٧٥٤) أبو جعفر المنتصر (٧٥٤ – ٧٧٥) هارون الرشيد العادل (٧٨٦ – ٨٠٩) والمأمون رجل الإسلام المهيب (٨١٣ – ٨٣٣) كل ما أتينا على وصفه من قبل .

لقد ارتفع هؤلاء إلى مرتبة الخلفاء بعد أن أسسوا مدينة بغداد عام ٧٦٢ م وأصبحت لهم في نظر رعاياهم العراقيين والفارسيين صفات أنصاف الآلهة .

إن العباسيين باعتبارهم حكاماً لكل المقاطعات القائمة شرقي نهر الفرات ، والمؤتمنين على ثروات الشرق كله كانوا يستمتعون بمداخيل خيالية ينفقونها في إسراف لم يسمع بمثله لاسيما وأنه لم تكن لهم جيوش دائمة تحتاج إلى مخصصات مستمرة . " قال سيديو : كان هناك إسراف في غير قاعدة ، وهبات سخية ، الذهب واللآلىء منتشرة ملء الأيدي في القصور والحدائق والمساجد ، لقد بنت زبيدة ، زوجة هارون الرشيد ، في مكة قناة تحمل المياه إلى المدينة من الجبال المجاروة وأنفقت عليها مليوناً وسبعمائة ألف من الدنانير . أما المأمون فقد وزع في يوم من الأيام على جلسائه أربعمائة ألف دينار ونظم رهاناً كان عدد الجوائز فيه مساوياً لعدد مدعويه فارتفع ما دفع فيه إلى أكثر من مائتي ألف دينار . كل جائزة منها تمثل ملكية مع عدد كبير من العبيد . كان يملك في قصره ثمانياً وثلاثين ألف

---

١) ل . أ . سيديو ، ص : ١٩٦ .

قطعة من السجاجيد منها اثنتا عشرة ألف سجادة مطرزة بالذهب واثنتان وعشرون ألفاً من السجاجيد التي تفرش في الأرض . كما أقام في القاعة التي استقبل فيها سفيراً أغريقياً ، شجرة من الذهب الخالص مغطاة بجواهر على صورة الثمار . أما الاسطبلات التي بناها ولده المعتصم (٨٣٣ – ٨٤٢) في سامراء ، غير بعيد من بغداد ، فقد كانت تتسع لمائة ألف من الخيل . وعندما أسس الخليفة هذه المدينة رفع الأرض المخصصة للبناء ، دون أن يبالي بالنفقات التي يقتضيها هذا العمل الضخم الكبير[١] " .

ومما لا ريب فيه أن سيديو لم يخطىء ، ذلك أن تأسيس بغداد ما يزال واحداً من أجمل عناوين المجد عند هذه الأسرة . ان هذه المدينة التي بنيت عند ضفاف دجلة ، بالقرب من سلوقيا القديمة والتي عمل على تشييدها مائة ألف من الحرفيين والعمال الماهرين والمهندسين المعماريين لمدة أربع سنوات ، وقد حظيت بازدهار سريع جداً ، وأصبحت في زمن قصير " الحاضرة التي بلغت شهرتها بعيداً جداً حتى أن الناس كانوا يتحدثون عنها بين بلاد الصين وبلاد شارلمان " .

أما الفنانون في العصر العباسي فقد استطاعوا ، بعد اتصالهم بالبلاد الهندية وسوريا وبيزنطية وبلاد فارس ، أن يبعثوا في الأسلوب العربي حيوية وافرة جريئة مصفاة ، ورشاقة لطيفة ، وابداعا مجنحاً لا يوجد في الأبنية الأكثر صرامة وثقلاً في كل من مراكش واسبانيا.

لقد كانت الفسيفساء الذهبية والخزفيات ذات الألوان الحية ، والتشكيلات الاكليلية وقواعد التيجان المنحوتة والقبب غير القابلة للوزن والأجنحة الممشوقة الفارعة هذه كلها كانت تتحدث عن فرحة الحياة والجذل عند الفاتحين . ان الذين شاهدوا " ذلك المجد الذي هو بغداد " في القرن التاسع لعصرنا يؤكدون " أن كل شيء فيها كان يتلألأ بالحياة " .

---

١) ل . أ . سيديو ، ص : ١٨٥ – ١٨٦ كان لفن العمارة العسكرية العربية تأثير كبير على العرب فيما بعد ، حيث " بقيت القلاع في القرن الحادي عشر تبنى بتقنية بدائية ، دون التحسينات التي أدخلها عليها الصليبيون بعد مائة عام (سان برنار دوكليرفو ، كتاب المائة الثامنة ١٩٥٣ ، ص ٦ : أنظر أيضاً في هذا)

كانت المدينة على شكل دائري ، مع سور مزدوج من الآجر بينهما خندق عميق . وهناك جدار ثالث يرتفع إلى خمسة وعشرين متراً هو بمثابة سور إضافي للأحياء القائمة في قلب المدينة .
وقد كانت للجدران أربعة أبواب ، تخرج منها على صورة قضبان العجلة ، أربع طرق تتجه نحو أربع زوايا الأمبراطورية. وقد كان المجموع شكل سلسلة من الدوائر المركزية حول قصر الخلفاء ، الذي يطلق عليه اسم القبة الخضراء ، والذي كان منها بمثابة نقطة الارتكاز . وإلى جانب القصر يقوم المسجد الجامع . أما قبة قاعة الاستقبال التي سمي القصر بها ، فقد كانت على ارتفاع أربعين متراً . يعلوها تمثال لفارس يحمل رمحاً يقال أنه كان في فترات الخطر " يشير بنفسه إلى الجهة التي يرتقب منها مجيء العدو " .

وعلى طول الأرصفة والأحواض والمستودعات التي تمتد ثلاثين كيلومتراً كانت ترابط مئات المراكب، ابتداء من السفن الحربية إلى حراقات المتعة والخيزرانيات القادمة من الصين حتى الأطواف البسيطة المصنوعة من جلود الخرفإن والمنتفخة بالهواء مما مايزال يرى حتى اليوم . أما في أسواق المدينة فقد كان الخزف والحرير والمسك يأتي من الصين ، والمواد المعدنية والأصباغ الأخرى من الهند وماليزيا ، ثم الياقوت الأحمر واللازورد الأزرق والأنسجة والرقيق من البلاد التركية في آسيا الوسطى ، والعسل والشمع، والفراء، والرقيق الأبيض من روسيا واسكندنافيا ، ثم العاج ومسحوق الذهب والرقيق الأسود من أفريقيا الشرقية .
وكان قد احتجز مكان خاص لتجارة السلع الصينية . وكانت المقاطعهات المختلفة للأمبراطورية ترسل منتجاتها إليها بطريق البحر أو بواسطة القوافل . والأرز والقمح وأقمشة الكتاب من مصر ، والمصنوعات الزجاجية والخردوات والأثمار من سوريا ، والديباج وللآلىء والأسلحة من الجزيرة العربية ، والحرير والعطور والأثمار والبقول من بلاد فارس .

وفي بداية القرن العاشر كانت بغداد تفخر في أنها تملك ٢٧ ألفاً من الحمامات العمومية ثم ارتفع العدد فيما بعد إلى ٦٠ ألفاً ، وهي أرقام تبدو شديدة المبالغة . لكن رحالة مغربياً زار بغداد عام ١٣٢٧ فوجد في كل من أحيائها الثلاثة عشر حمامين عموميين أو ثلاثة من أحسن طراز ، مزودة كلها بالمياه الساخنة والباردة .

وفي أيام الاحتفالات الكبيرة ، من مثل تولية خليفة من الخلفاء ، والزواج والحج أو استقبال سفير أجنبي، كان القصر يبسط كل ما عنده من البهاء والزهو العظيم .

ففي عام ٨٢٥ جرى الاحتفال بزواج المأمون من الفتاة بوران ابنة وزيره فإنفق المال في إسراف خيالي حتى أنه بقي في التراث الأدبي العربي " على أنه واحد من أكثر أنواع الشطط المسرف الغريب الذي لا ينسى في ذلك العصر". ففي ليلة الزفاف سكبت فوق رأسي العروسين ألفإن من حبات اللؤلؤ ذات الضخامة الفريدة من على صحفة من الذهب في الوقت الذي كان فيه العروسان واقفين فوق بساط من الذهب مرصع باللآلىء والياقوت الأزرق. على أن الخلفاء العباسيين لم يكونوا يقتصرون في بسط ما يملكون من البذخ والثراء والإسراف على أعياد البلاط واستقبالاته : ان حرصهم على شعبيتهم كان يدفعهم إلى الاهتمام بكل شيء ، من أقصى العام إلى أقصاه لتزويد رعاياهم بالفرح والحيوية . كانت جوقات من الضاربين بالعيدان والقيثارات والمزاهر ومن النافخين في المزمار تطلق ألحانها في الحدائق العامة بصورة غير منقطعة . تارة يخترق المدينة موكب من الراقصين ، ترافقه الأبواق والمزاهر والطبول . وتارة أخرى يعلو أحد الشعراء منبراً أقيم عند ركن من ميدان عام يذكر المستمعين بروائع الفتوح ويتحدث " باعتزاز عن شرف المروءة البدوية بكلمات صاخبة مدوية بالقوافي والإيقاعات [١] " . في هذا الإطار الفاتن عاش هارون الرشيد والمأمون ، مشاركين في أفراح جمهور مختلف الألوان غير مبال بما يأتي به الغد . يقول الشاعر المتنبي في عاصمة الفرح هذه " كل يوم فيها يبدع متعاً أشهى ، وكل ليلة تلد شهوات أكثر ندرة [٢] ". فإذا نزل الغسق وارتفعت من مياه لأنهر برودة لطيفة ، كانت ترى أضواء قصر الخليفة . ذلك أنها كانت الفترة التي يستقبل فيها هارون الرشيد زواره ! وكان بلاط الخليفة جمعاً من الناس على شيء من الغرابة ! يرى فيه خليط من هنا وهناك تبعاً لمزاج رب القصر ، الفقهاء وعلماء الكلام والمطربون والقضاة والشعراء والسفراء والفرسان التائهون والمنجمون والمشعوذون ".

---

١) جودفروا – دو مومبين : المؤسسات الإسلامية ، ص : ٢٠٤ .

٢) لم أستطع العودة إلى النص العربي المنظوم في ديوان المتنبي لأن المؤلف لم يعين القصيدة التي رجع إليها أو الصفحة من الديوان . " المعرب " .

فبعد أداء صلاة المساء في خشوع ظاهر ، كانوا ينشرون الأشعار ويشربون بين أغنيتين . وكان صوت المغنين والعيدان يبعث الأنغام القوية في رقة ظاهرة عبر الهواء المتموج بوشوشات المياه الجارية والأبخرة المعطرة التي ترتفع من المجامر . وقد يطرأ ما يحدث التنوع في الحفلة اليومية هذه ، كاستجواب لسجين قوي العارضة متوقد القريحة ، أو زيارة لزاهد متسول فيه كبرياء وخشونة ، وفي بعض الأوقات رأس تقطع في الوقت الذي تدار فيه الكؤوس على الشاربين . ويقترب الليل من نهايته ، وقد أثقل السكر القلوب ، فيبكي الحاضرون وتتلى أشعار حول قصر الحياة وفنائها [١] .

وأخيراً يقترب الفجر ثم يقبل على أداء الصلاة من يستطيع من الضيوف أن يتماسك واقفاً على قدميه : إنها حياة حافلة بالمشاعر العنيفة والرقيقة ، والخشونة والنعومة نجد ما يماثلها في عصر نهضتنا والتي أبدعت في تصويرها ألف ليلة وليلة وكتاب الأغاني ومروج الذهب والمؤرخون والشعراء ... [٢] ".

لكن العرب لم يجهدوا فقط في بلوغ الأطراف القصوى من الأبهة المادية . لقد أرادوا أيضاً أن يكونوا أساتذة في ميدان التأمل الفكري . ولا ريب أن النبي قد وصف لهم الجنة على أنها دار النعيم .

لم يعر جمهور المؤمنين هذه الجملة كثيراً من الاهتمام . لكن عدداً صغيراً من العقول ، جديراً بفهمها ، قد استنتج منها أن التأمل هو فوق اللذة الحسية وأن النشوة العليا هي في المعرفة . فإذا كان في وسع الناس الحصول على المتعة المسبقة بالجنة بخلق انعكاساتها على الأرض ، أفليس في وسعهم أن يحصلوا أيضاً على الإحساس المسبق برؤية الله بالعمل على التعمق في معرفة قوانين الخلق ؟

---

١) هذه صورة لا تتفق مع ما عرف عن هارون الرشيد بخاصة من مضاء العزيمة والاكثار من الحج إلى البيت الحرام ومرافقة البعوث العسكرية . " المعرب " .

٢) ان هذه المراجع التي يستند إليها المؤلف ذات وثاقة تاريخية متفاوتة . أما ألف ليلة وليلة فهي مغرقة في الخيال والأسطورة امتزجت فيها عواطف الناس ورغباتهم . وأما كتاب الأغاني فقد رواه الندماء والشعراء والرقعاء والصعاليك والمطربون من أصحاب الهوى والشهوات . وأما مروج الذهب فهو لا يقل عن أكثر الكتب التاريخية احتفالاً بالأخبار المبالغ فيها والتي تحتاج إلى تحقيق وتثبت .

ان الاستيلاء على الرها وجنديسابور ، اللتين كانتا في القرن السادس ، موطنين لثقافة مكثفة ، قد جعل العرب على صلة بالفكر الهيلنستي والهندوسي . لكن الثابت الذ لايقبل جدلاً هو أن الإستيلاء على الإسكندرية قد لون حضارتهم أعمق ما يكون فباحتلال هذه المدينة وضعوا أيديهم في الوقت نفسه ، على كنز فكري لا يقدر بقيمة : انه مكتبة البطالسة [١] فهي وإن أحرقت عام ٣٩٠ في عهد تيودوز فإنها كانت ما تزال تحتوي على عدد غير قليل من المخطوطات [٢] وبفضل هذه الأخيرة أصبح العرب بين ليلة وضحاها وقد وضعوا أيديهم على جزء كبير من التراث القديم . هكذا عرفوا، في القرن السابع كلاً من فيثاغورس وهيرقليطس وديمقريطس وزينون وايلياتس ، وانتستينس وأفلاطون [٣] وأرسطو وديوجين صاحب الفلسفة الكلبية ، وأريستيبوس ، وأبيقور ، والرواقيين ، وأفلوطين ، وبروكلس، وأبولونيس التياني ، وأمونيوس وبورفير ، ثم هيبوقراط وجالينوس ، وديسقوريدس وأقليدس ، وأرخميدس ، وديوفإنت ، وهيرون وبطليموس وتيودوز وهيبسكلس ومانيلوس ، أي قبل أن تصل مؤلفاتهم إلى الغرب بوقت طويل .

ان اكتشاف هؤلاء المؤلفين أوقد المخيلات وأحدث فيها انطلاقة بلغت أطراف الأمبراطورية . لقد أقبل النساخ والمتعلمون على حل الرموز في النصوص الهيلينية بفضول شديد ، تحول بسرعة إلى نشاط متحمس. كما بذل الخلفاء العباسيون وسعهم في تشجيعهم بتوفير الرعاية لهم . لقد كان حنين يأخذ من المأمون وزن المؤلفات الأغريقية التي ينقلها ذهباً . أما الترجمة الأولى لأرسطو فقد دفع لصاحبها وزنها من الماس . كما حصل مترجم آخر على عشرة آلاف دينار ، وصقرين وحصان مطهم جائزة له على أبحاثه حول مبادرة الاعتداليين في فصلي الربيع والخريف .

---

١) لقد ظن ، لفترة من الزمن ، أن العرب هم الذين دمروا هذه المكتبة . لكن الواقع أنهم قد حفظوها وأضافوا إليها عدداً من المخطوطات . لقد كانت مكتبة الاسكندرية تحوي في القرن العاشر ٦٠٠٠ مخطوطة ، مخصصة بصورة أساسية لعلم الفلك والرياضيات .

٢) فيدون ، الكراتيل والقوانين .

٣) كله تقريباً .

لقد شاعت حمة حقيقية من المعرفة في عالم الإسلام . فإلى جانب القصور والمساجد في كل المدن الكبيرة ، ولا سيما بغداد ودمشق والقاهرة وسبتة وطنجة ومراكش وأشبيلية وقرطبة وغرناطة ومرسية وطليطلة وأخيراً ساليرنو ، ارتفعت قواعد لبيوت الحكمة والجامعات والمراصد والمدارس ، حيث كانت جماعة من العلماء تكب على دراسة النصوص القديمة ، وتعليم الرياضيات والطب والكيمياء . هكذا شهد العالم انفجاراً فكرياً حقيقياً بعد الأنفجار المادي الذي ميز عصر الحملات العسكرية والأنفجار الفني الذي رافق بناء الصروح وتأسيس المدن . لقد انطلق الباحثون والعلماء لتحقيق الفتوح في ميدان العلم ، تماماً كما انطلقت الفيالق الإسلامية في فتوحها للعالم .

ومما أتاح للفلاسفة والرياضيين العرب فرصة ألا يكونوا فقط مجرد شارحين لتراث اليونان ، أنهم ارتفعوا بسرعة إلى مفهوم المنهج فأدركوا أنه لاقيمة للعلم ما لم يكن ذا طابع تجريبي . " الأنتقال من المعروف إلى المجهول ، والوعي الصحيح بالظاهرات للصعود فيما بعد من النتائج إلى الأسباب ، ورفض كل ما لا تبرهن التجربة عليه . هذه هي المبادىء التي كانت تدرس في مدرسة بغداد [١] ".

أولاً يكفي أن يقال أيضاً ، كما قال لورانس : " لقد حفظ العرب لمستقبل العصر الوسيط ، شيئاً من الماضي الكلاسيكي [٢] " لقد كانوا أكثر من نقلة : كانوا متممين بل مبدعين في كثير من الميادين . انهم بانتقالهم من الشحر إلى الملاحظة ، ومن الملاحظة إلى التجربة ، ومن التجربة إلى استنتاج القوانين العامة ، قد إرتفعوا ، كما يقول لنا همبولت ، " إلى درجة من المعرفة يجهلها القدماء ، ومن الواجب أن ينظر إليهم على أنهم المؤسسون الحقيقيون للعلوم الطبيعية ، بالمعنى الذي نعرفه لها في عصرنا الحاضر ".

---

١) ل . أ . سيديو ، ص : ٣٤١ .

٢) ت . أ . لورانس ، أعمدة الحكمة السبعة ، ص : ٥٧

انها مدرسة بغداد ، المؤسسة من قبل أبي جعفر ، التي أطلقت هذه الحركة وقد كان علم الفلك أول علم تقدم في ذلك الوقت . لقد بقي بدو الصحراء يعيشون في تأمل النجوم خلال قرون من السنين . والنجوم هذه هي التي أعطتهم فكرة عن الجلال الإلهي . أما خلفاؤهم فقد حملوا بصورة طبيعية على البحث في كبد السماء ، في سعيهم الحثيث إلى التقدم في " رؤية الله " لكنهم الأن لن يعودوا مقتصرين على التأمل في الكواكب ، بل جهدوا في قياس مداراتها ، والتنبؤ بعودتها واكتشاف قوانينها التي تعين دوراتها.

لقد بنى هارون الرشيد مرصداً فوق جسر بغداد الكبير حيث عمل تحت رعايته كوكبة من العلماء . فهناك بادر يحي بن خالد إلى مراجعة المجسطي لبطليموس وانهى يحي ابن يوسف الترجمة الأولى لأقليدس.

لقد حقق علم الفلك في هذا المرصد انطلاقة لامعة وسريعة . من بينها قياس درجة خط الزوال السماوي الذي حققه سند بن علي (٨٥٣) ، ثم دراسة الفروق في خط العرض الأكبر للقمة المحققة من قبل أحمد وحسين ، وتصحيح لائحة الاعتدالين في الفصول ومراقبة حركة البعد القصي للشمس من قبل البتاني (٩٢٩) ، ووصف الأنقلاب المداري في الصيف واعتدال الخريف عام ألف من قبل القوهي بن رستم واكتشاف " التباين القمري الثالث" من قبل أبي الوفا (٩٣٧ – ٩٩٨)، هذه كلها حملت معارف العرب إلى ما وراء الحدود التي بلغها هيبارك وبطليموس . وبفضل هذا الحصاد من الملاحظات ، استطاع عمرالخيام – الذي لم يكن شاعراً كبيراً وحسب ، بل فلكياً ذائع الصيت – أن يعمل عام (١٠٧٩)على اصلاح التقويم الفارسي ، " فتوصل إلى دقة لم تتجاوزها قوائمنا العصرية [١] ".

وقد استتبعت انطلاقة علم الفلك تطوراً موازياً في علوم الرياضيات .فعقد اللواء لمن تميز فيها بالجرأة والبراعة ، لأول من اكتشف فرضية جديدة ! منهجاً جديداً في الحساب . ان اختراع الجبر (الذي لم يطرح ديوفإنت منه غير بعض المبادىء) من قبل محمد بن موسى الخورازمي [٢] وتطبيق الجبر على الهندسة من قبل تلميذه ثابت بن قرة

---

١) أنظر دليل مكتب خطوط الطول لعام ١٨٥٠.

٢) في كتابه المشهور : اللوغارتمات .

(المتوفي عام ٩٠٠) ثم حل المعادلات من الدرجة الثالثة . وتأسيس علم المثلثات الكروية من قبل البتاني ، وايضاح القاعدة الخامسة من القواعد الست التي تستعمل لحل الزوايا القائمة من قبل جابر (١٠٥٠) [١]. هذه كلها ملأت المعاصرين بالاعجاب وحققت لأصحابها هبات أميرية .

وعندما أخذت بغداد تسقط ، ابتداء من القرن العاشر ، انتزعت القاهرة المشعل وتابعت الأبحاث التي شرع فيها العباسيون برعاية الخليفتين الفاطميين العزيز والحكم .

وقد تميزت خاصة بفضل الملاحظات التي سجلها ابن يونس (٩٧٨ — ١٠٠٨) نعم لقد سجل ابن يونس تلميذ أبي الوفا ، في مرصد جبل المقطم " التقويم الهاشمي الكبير " الذي حل في الشرق كله محل المجسطي لبطليموس والأبحاث المشابهة لمدرسة بغداد . لقد استطاع ابن يونس أن يطور علم الرياضيات في عصره بحساب الأقواس الفرعية، التي تبسط المناهج المستعملة حتى ذلك الوقت تبسيطاً كبيراً ، باعتباره مخترع التقاويم الستينية الأولى [٢] . أما خلفه الحسن ابن الهيثم (المتوفي عام ١٠٣٨) فقد ألف أكثر من أربعة وثمانين كتاباً ، منها شرح المجسطي ، ولآخر يطرح نوعاً من التماثيل مع نظريات أقليدس. ثم رسالة في البصريات حيث درس الرؤية المستقيمة والمنعكسة والمنكسرة وكذلك المرايا الحارة وكتيب بعنوان " المعارف الهندسية " مفتخراً في أنه قد قال فيه " أشياء جديدة جداً حتى أن هذا النوع من الأبحاث لم يكن معروفاً من قبل القدماء أبداً ".

أما فاس ومراكش فقد كانت لهما " مدارسهما " أيضاً ، ففي هذه المدينة الأخيرة " ثار البتروجي (١١٥٠ م) عند قراءته لبطليموس ، بسبب ذلك التعقيد من الأشكال الهندسية المنحرفة عن المركز والدوائر الدائرة حول مراكز خالية ومتحركة بنفسها " ، فلاحظ الميل في فلك البروج وطرح " نظاماً جديداً للعالم " يقارب المركزية الشمسية التي كان يقول بها أرستارك من ساموس [٣] .

---

١) كان يجب أن ينتظر فيات (١٥٤٠ — ١٦٠٣) لمعرفة القاعدة السادسة .

٢) لم تعرف هذه البحوث في أوروبا إلا بعد ٧٠٠ عام بفضل البحوث التي قام بها الأنكليزي ر . سمبسون .

٣) يتساءلون عما عساه يكون علم الفلك عند العرب لو أن المصادفة قد عرفتهم بأرستارك ومدرسة ساموس بدلاً من أن تضع بين أيديهم أبحاث بطليموس التي جعلت من الأرض مركزاً للكون .

أما أبو الحسن الذي عاش في أفريقيا الشمالية في بداية القرن الثالث عشر ، فقد تجول في جنوب اسبانيا والمغرب، فعين ارتفاع القطب في إحدى وأربعين مدينة ، من إفران عند الأطلنطي حتى القاهرة . انه كمهندس جريء ، استعان بخصائص نقاط التقاطع المخروطية لوصف أقواس الرموز وحدد الثوابت والمحاور لهذه المنحنيات في ارتباطها بخط العرض في مكان معين ، وبميلأن زاوية الشمس وارتفاع المزولة الشمسية . لقد كتب " رسالة في نقاط التقاطع المخروطية " و " رسالة في البدايات والنهايات " التي استبقت اكتشافات كوبرنيكوس وتيخوبراهي .

أما المدارس التي كان لها مزيد من الألق وحملت شهرة العلم العربي إلى أبعد من ذلك فهي جامعات اسبانيا . ان الحدائق النباتية الرائعة المزروعة من قبل الموحدين والمرابطين في الرصافة وغرناطة لا تسمح فقط باثراء كتاب الأعشاب لديوسقوريد المحفوظ في الإسكندرية بألفي نبة جديدة ، بل تدفع العقول نحو دراسة المواد الطبية ، لكل من الأقراباذين والكيمياء ، وبصورة عامة لكل العلوم الطبيعية . ان جامعات قرطبة وطليطلة وغرناطة قد ذاع صيتها في العالم كله بالنجاح الذي حققته في الطب ، والتشريح ، والجراحة والكيمياء ، والبصريات واكتسبت من هذا الواقع ، أسلوباً شخصياً يميزها من الجامعات المنافسة في مصر والشرق ، هذا باعتبارها أقل تمحوراً حول الفلك والرياضيات من مدارس بغداد والقاهرة .

أما جابر " أبو الكيمياء " الذي يفترض أنه عاش في القرن الثامن ، فقد ترك وراءه كتابات نجد فيها تركيب حامض الكبريتيك وحامض النتريك أو ما يسمى بماء العقد والماء الملكي " الماء الذي يحلل به الذهب " واعداد الزئبق وغيره من الأكاسيد المعدنية بالاضافة إلى ملاحظات متقدمة جداً حول التخمر الكحولي . وأما الرازي (٨٥٠ — ٩٢٣) فقد شخص كلاً من مرض الجدري والحميراء أو الحصبة . وباعتباره متميزاً في علم التشريح وجراحاً مشهوراً ، كان أول من ميز العصب الحنجري المنثني إلى الوراء ومارس عدداً من المرات عملية التكثف المانع للأبصار في العين.

وأما عبد القاسم (٩١٣ — ١٠٠٣) فقد شخص مرض التضخم في الغدة الدرقية وما يسمى بمرض بوت [١] كما وصف عملية استئصال الحصى من المثانة ، ونصح بممارسة عملية القطع في المكان الذي يقوم به الجراحون العصريون . وأما ابن الهيثم (٩٦٥ — ١٠٣٩) فقد درس ظاهرة انكسار الأشعة أو انحرافها أي المكان الظاهر من الصورة في المرايا المنحنية والكروية ، مما يعني معرفته بمعادلات الدرجة الرابعة — واكتشف مبدأ الغرفة السوداء . وبتطبيقه لاكتشافاته على علم التشريح ، نشر الوصف الأول الدقيق للعين ، مع القرنية ، والجليدية ، وشبكية العين[٢].

وأما أرزاشيل " كذا " (١٠٨٠) فقد وضع ٤٠٢ من الملاحظات لتحديد البعد القصي للشمس وصنع ساعات أثارت اعجاب كل معاصريه . والثابت أنه كان في وسع الأمراء العرب في الأندلس أن يفخروا بجامعاتهم حيث كان العلماء يدرسون فكر أرسطو في الوقت الذي لا يكاد فيه شارلمان وأعوانه يتقنون توقيع أسمائهم [٣].

تلك كانت درجة النمو العالية التي توصل إليها العلم العربي ، في الوقت الذي برز فيه صف من العلماء الجدد ، من عمالقة الفكر الحقيقيين ، الذين تجاوزا كل ما صنع قبلهم . ان المعرفة التي حصلوا عليها والتي كان المسيحيون يعتقدون أنها حصيلة عهد عقدوه مع الشيطان ، وباعتبارهم رحالة كباراً يتنقلون عبر أقاليم الأمبراطورية كلها ليثروا جعبتهم من الملاحظات والمعارف ، ان هؤلاء من أشباه فاوست المسلمين كانوا في الوقت نفسه فلكيين ورياضيين ومهندسين وأطباء وفيزيقيين ومعماريين وشعراء، وكانوا إلى جانب هذا كله عباقرة مبدعين . إننا نتصورهم اليوم بسرور فائق يتنزهون في حدائق شيراز أو غرناطة بوجوههم السمراء ، المتقدة والمقاطع الجانبية لوجوههم الشبيهة بالطيور الجارحة ومعاطفهم الكبيرة البيضاء التي كان سيستعيرها منهم فيما بعد فرسان الهيكل وفريدريك الثاني دو هوهنشتاون.

---

١) طبيب جراح انكليزي " ١٧١٤ — ١٧٨٨ " عرف بأبحاثه حول أمراض الفقرات الصلبية وقد أطلق عليها اسمه.

٢) فيلارات شال في مذكراته حول مناهج الهندسة لم يتردد في اعلأن أن ابن الهيثم يجب أن يعتبر المرجع الأصلي لمعارفنا في علم البصريات .

٣) فيليب ك . حتى ، ص : ١٠ .

كان الأول بينهم ، ابن سينا (٩٨٠ – ١٠٣٧) والملقب " بأمير العلوم " وكان بلا منازع واحداً من أعجب الرجال في عصره . لقد كتب في كل العلوم ومارس سلطانه المطلق على الفكر الإسلامي لمدة ستمائة عام . ان قوانينه أو قواعده ، درست في كل الجامعات الكبيرة في الغرب ، في بادو ، وفيرازي ، وسالارنو ، وشارتر ، وأوكسفورد ، وباريس . لقد تميز بدراسات متقدمة جداً في علم الكيمياء حيث أجرى التجارب على الفوسفور ووضع قواعد الكثير من المتفجرات . وبعودة إلى أبحاث ايرازسترات ، أدخر نفسه، في علم الطب ، لدراسة القلب، والأوردة والشرايين . وقد كان أعظم أمجاده أنه وضع قبل سيرفي دهارفي بخمسمائة عام نظرية الدورة الدموية .

ويظهر ابن سينا وكأنه لم يأت إلى الغرب . لقد كان تلميذه ابن زهر (المتوفي عام ١١٦١) هو الذي عرف بمكتشفات استاذه في أسبانيا . ولما كان يريد أن يتأسس الطب في تفرد تام على معطيات الملاحظة . فقد كان أول من وحد دراسة هذا الفن وفن الجراحة والصيدلة، ونحن ندين له ، بالاضافة إلى أول جراحة في المجاري التنفسية وإلى ملاحظاته الممتازة حول التواء المفاصل والكسور ، في وصفه الجديد لكثير من الأمراض من مثل التهاب التامور " شغاف القلب " واستسقاء الرئتين إلخ ..

وقد تتلمذ عليه محمد ابن رشد (١١٢٠ – ١١٩٨) عبقري عالمي حقيقي ، ما تزال سعة المعرفة عنده تدهشنا حتى اليوم . فهو كفيلسوف مشبع بالحكمة القديمة ، ترجم أرسطو ونقله إلى الغرب . وهو كمهندس كتب رسالة ممتازة حول نقاط التقاطع المخروطية ورسالة أخرى حول علم المثلثات الكروية . وهو كفلكي رصد كسوفين لكوكب عطارد والشمس . وهو كطبيب ندين له في رسائله حول الترياق والسموم والحميات، بالاضافة إلى شرح لجالينوس .

أما ككيمائي فقد اكتشف الخصوصية المذيبة لحامض الكبريتيك كما أبدع اخلاطاً عديدة . وهو كعالم في الفيزياء، استشعر مفهوم الطاقة ومارس التجارب الأولى حول المغناطيس . على أن أبحاثه كلها لم تحل دون أن يدخر جزءاً من وقته لنظام الري في الأندلس ، ولبناء ثلاثة أقنية وتأليف كثير من الدواوين الشعرية.

وأخيراً جاء ابن البيطار (المتوفي عام ١٢٤٨) فأصلح أعمال ديوسقوريد وجالينوس وأوزيباز وترك تحت عنوان " أدوية بسيطة " نوعاً من موسوعة في المعارف الطبية في زمنه .

لقد كان الشعلة الأخيرة ، ولكنه كان أحسنها . وقد كانت شهرة المدارس في طليطلة وقرطبة في القرن الثاني عشر من الاتساع والكبر بحيث أنها كانت تجتذب النخبة من كل بلاد الغرب . منهم جيلبرت الذي كان سيقدر له أن يصبح بابا تحت اسم سيلفستر الثاني ، وأديلارد من أوكسفورد ، ثم رودلف البروجي ، وليونارد من بيزا ، وجيرار الكريموني وفيتاليون من كراكوفيا ، وآخرون جاءوا يمتحون من بئر العلم التي لم يكن في وسع الأساتذة في بلادهم أن يزودوهم منها ، ويعودون إلى بلادهم ، في عصرها الوسيط القائم ، بشيء من تلك المدنية المدهشة التي يجب أن ندين لها بمعرفة الفكر الأرسطي ، وقياس البعد القصي للشمس، وقوانين دورة الدم ، والقافية الشعرية ، والوتر الخامس في العود ...

نعم ، لقد كانت الشعلة الأخيرة . ومما لا ريب فيه أنه ما يزال يوجد مؤرخون وجغرافيون وأطباء وبلاغيون ، ولكن عصر الإبداع كان قد تم واكتمل .

كان العرب قد عاشوا في دنيا فاتنة مستمرة للروح والجسد مدة ثلاثمائة عام . فهم لم يبذروا فيها كنوزاً مادية وحسب . بل استهلكوا فيها حيويتهم أيضاً . لقد قتل نشاطهم بالإسراف في نشوتهم وسكرهم . فلم يبق غير القليل من الرماد من كل النيران التي ركزها فيهم توقد الصحراء . فوجدوا في ذلك نوعاً من المرارة المخيبة ، والاحساس بأنهم أفرغوا كأس الحياة حتى الأعماق .

وعندما توفي عبد الرحمن الثالث ، الذي أمسك السلطة في أسبانيا لمدة نصف قرن وبنى قصر الزهراء المعجب ، وجدت بين أوراقه مذكرة تحمل الكلمات التالية " خمسون سنة مضت منذ كنت خليفة "، لقد استمتعت بكل شيء، بالكنوز والأمجاد ، والذائذ واستنفذت كل شيء . الملوك يقدرونني ، ويخافونني ويحسدونني . كل ما يرغب فيه الرجال قد منحتن إياه السماء . في هذه الفترة الطويلة من الهناءة الظاهرة ، حسبت عدد الأيام التي كنت فيها سعيداً : فارتفع العدد إلى أربعة عشر يوماً أيها الهلكي البائدون قدروا العظمة والعالم والحياة ... " .

هذا الحنين المحزن أمام سعادة مستحيلة ولد عند العرب شعوراً بالحرمان والخيبة . لقد أصبحوا ساخرين وجشعين بعد أن كانوا ذوي حمية وحماسة . ان شعار المتع الذي كانوا قد انصرفوا إليه لم ينضب القوة الفيزيقية لهذا الجنس فقط، ولكنه فتت صفاته الخلقية . وهنا أيضاً ، لم تكن أبداً " تلك المتابعة المترددة لظلال وسطية " بل نوع من الأنقلاب العام في القيم . لقد حل البخل والدعارة والخداع والتصنع شيئاً فشيئاً محل العزة الشامخة ، والمروءة والشرف.

لقد انعكس الأنهيار في الصفات على العادات . وعلى ذلك فلم يعدهناك احساس بالاحترام نفسه لأوامر محمد، وأخذ التردد في انتهاك توجيهاته يقل أكثر فأكثر . وكيف يمكن أن يكون غير ذلك ما دام أن الخلفاء أنفسهم كانوا يعطون المثل في الفساد ورقة التدين ؟ أو لم يكن يزيد يشرب الخمر رغم التحريم القاطع لها من قبل النبي ؟ وعبد الملك ، أو لم يضرب نقوداً صور فيها كأمبراطور وثني يحيد به سيف ويعلو التاج رأسه رغم تحريم القرآن القاطع لصنع الصور البشرية [١] ؟

ومنذ انطفأت حماسة البدايات ظهر النقص في الصلابة والعقل المنظم عند العرب بوضوح تام . لقد كانت مدنيتهم دائماً ذات طبيعة عقلية وحساسة أكثر منها عملية . إنهم بتعودهم العيش في إطار من الغزوات ومواكب الفرسان والسراب لم يكونوا يعرفون أبداً ماذا كانت الدولة ، والحكومة ، أو الوطن المنظم . لقد كانوا عراة من الحس السياسي بحيث أنهم لم يكونوا يطمحون إليه . ان الأوطان التي اقتطعوها لأنفسهم — وهي الشعر ، والفن والدين — ذات كيان تجريدي ، وإبداعات من الحلم . لأنهم كانوا مستمرين في تلاوة الصلوات نفسها والقصائد نفسها في الأوقات نفسها أيضاً ، لقد كانوا يعتقدون دائماً أنهم رعايا امبراطورية وحيدة وقوية [٢].

---

١) مما يلفت النظر في هذه الفقرة أن الشاهدين اللذين استعان بهما المؤلف قد ظهرا في عصر أعظم الفتوح ... أن يزيد بن معاوية وعبد الملك بن مروان كانا يعيشان في العصر الذي بلغت فيه قوة العرب أعلى المراتب . وقد كنا نفضل أن يبحث المؤلف عن شواهد تاريخية في عصور الأنهيار التي وصفها . يضاف إلى ذلك أن تحريم الصور البشرية لم يرد في القرآن الكريم كما ذكر المؤللف . " المعرب " .

٢) مما يدعو إلى الدهشة والعجب أن المؤلف قد نسي الفقرات الطويلة التي تحدث فيها عن العقول العربية المنظمة والازدهار العظيم في مدينتهم التي استمرت ثلاثة قرون وعن شيوع المنهج العلمي عندهم حين أخذ يفلسف الشخصية العامة للعرب . كما أننا لم ندرك العلاقة العملية بين الصلاة التي تؤدي في وقت معين وبين ما يزعمه من أن حضارة العرب لم تكن ذات طابع عملي . " المعرب "

لكن دينهم لم يكن غير شكلية صلبة جامدة ، أما شعرهم فهو تمرين بلاغي لا قيمة له ولا حياة فيه [١] . وأما امبراطوريتهم فلم تكن موحدة ولا قوية . لقد انقسمت إلى أجزاء كثيرة ، بعد الأسرة الأموية ، وكان كل جزء منها في حال من الهشاشة الشديدة .

ان البلاد التي تؤلف هذه الأمبراطورية كانت تتعرض للأنهيار عند أول صدمة . وكان التغلب على أعراض الأنهيار ممكناً لكن هذه الأخيرة لم تتخذ صفتها الحاسمة بصورة مستعصية على المعالجة إلا لأن حيوية العرب لم تتجدد بعد ذلك . فالقبائل المهاجرة انقطعت عن مصادرها . انها لم تعد تستقبل موجات جديدة منطلقة من نجد أو الأحساء . لتجدد نشاط الحاميات الأسبانية أو الفارسية .فبقوة الأشياء وطبيعتها ، حلت أجيال جديدة مولودة عند ضفاف الفرات أو الأوكسوس [٢] " في الشرق " والأيبر أو الوادي الكبير " في الغرب " محل الغزاة الفاتحين الأولين . والأجيال الجديدة هذه لم تكن تعرف أبداً بلادها الأصلية ولم تخضع للقواعد الصارمة في الصحراء . فابن سينا ولد قرب شيراز، وابن البيطار عند ضواحي ملقة ، والوضع هو نفسه بالنسبة للأمراء والقادة وحكام المقاطعات . كل المراكز الهامة وكلت إلى أبناء " الأسر الجديدة " .

إن هؤلاء الفتيان المتأنقين ، بل والمتخنثين في الغالب ، قد نشأوا في ظلال بغداد أو قرطبة ، فلم يعودوا يشعرون بأي جاذب نحو الجزيرة العربية ، التي ما كان في وسعهم أن يصمدوا أمام وضوحها الشرس العنيد . والأسوأ من هذا أيضاً : أنهم أصبحوا يجهلون حتى أسماء أجدادهم . لقد كانوا أجيالاً منحطة : فزعموا أنهم أحفاد فاتحين تفاوتت صلتهم بأصول أسطورية خرافية — من مثل تبع ذي القرنين [٣] الذي لم يكن غير الاسكندر الكبير أو ذاك " الأفريقوس " الذي هزم البرابرة هام ٥٠ قبل الميلاد . كل ذلك كان نابعاً من اندهاشهم أمام العالم الإسلامي الذي يشهدون سعته وجهلهم بالأصول التي ينسبون إليها تنشئتهم .

---

١) كيف يستطيع المؤلف أن يفسر لنا الحيوية الفكرية التي أطنب في الحديث عنها حين يزعم أن الدين الإسلامي هو شكلية صلبة وجامدة . بل كيف يستطيع أن يفسر التقدم العظيم الذي سجله التشريع الإسلامي في مواجهة الوقائع اليومية إن صح ما يدعيه من وجود الشكلية الصلبة الجامدة في الإسلام . أما فيما يتعلق بالشعر فنحن نعتقد أنه لم يطلع عليه ولم يحاول أن يكون فكرة واضحة عن قيمة هذا الشعر وحيويته . " المعرب " .

٢) اسم قديم لنهر أموداريا الذي تصب مياهه في بحر قزوين وقد كان العرب يطلقون عليه إسم جيجون . " المعرب ".

٣) لم يعرف العرب تبع ذو القرنين ، بل الاسكندر ذو القرنين .

ومن هنا نتبين كيف أصبحت الأمبراطورية العربية غريبة عن الجزيرة العربية .

كما أن الجزيرة العربية قد أصبحت من جهتها غريبة كل الغربة عن الأمبراطورية . انه لم يحدث أبداً أن فتحاً من الفتوح قد عاد على البلاد التي ولدته وأخرجته إلى الدنيا بأقل مما عادت به فتوح الجزيرة العربية عليها . لقد كانت نقطة ارتكاز الإسلام تنتقل بالقدر الذي تنمو فيه العمليات العسكرية . فنقلت العاصمة إلى دمشق ، ثم إلى بغداد فإلى القاهرة . أما الخلفاء فلم يعودوا يبالون أو يهتمون بكل ما لم يكن داخل الحدود المحتوية لممالكهم . انهم لم يعودوا يتحدثون عن اليمن أو عن نجد إلا بعبارات الازدراء .

وكانت الجزيرة العربية ، منذ القرن العاشر ، قد انغلقت على نفسها من جديد واعتزلت بقية العالم فالفتوح ككل لم تعد غير سراب خادع . انها لم تحقق أي هدف من الأهداف التي عينها لها النبي ، ما دام أنها لم تحمل كلام الله حتى أطراف الأرض ، ولم تثبت وحدة الجزيرة العربية بالمعنى الدقيق للكلمة .

إن هذا الهروب خارج الصحراء لم ينته إلا إلى تبذير مسرف للقوى . والعودة وحدها إلى الصحراء هي التي يمكن أن تعيد بناءها [١] .

---

١) ليس أدعى إلى الحيرة من هذا الرأي الذي طرحه المؤلف . فلو أنه أدرك أن الوطن الحقيقي للمسلم هو عقيدته وبالتالي دينه كله لما وجد في الخروج من الصحراء تبذيراً للقوى . فحيث يكون المسلم قادراً على ممارسة دينه بحرية تامة فهو في وطنه . من هذه الناحية ، واعتماداً على ما قاله المؤلف عن عظمة الأمبراطورية العربية وسعتها نستطيع أن نؤكد بأن الأهداف التي عينها النبي عليه السلام قد تحققت . أما فيما يتعلق بالصحراء نفسها فإن دورها التقليدي ، في حدود ما يكشف التاريخ عنه هو دور الرحم التي تقذف بأجنتها ، وهي الهجرات العامة ، بين فترة وأخرى . وقد سبق للمؤلف أن تحدث عنها وعن أسبابها . لقد كانت الصحراء وما تزال هذه الرحمن الولود . أما فيما يتعلق بانقطاع العلاقة بين الأجيال الجديدة والأجيال القديمة فهو تأكيد للدور الطبيعي الذي وكلته السنن الطبيعية للصحراء . الدرور الذي تقوم به الرحم الولود لتغذية الدورة الحضارية المستمرة التي تبدأ منها وتنطلق في أقطار الأرض تحمل معها الفن والفكر المتوقد والشجاعة والحيوية ولا سيما عقيدة الوحدانية حتى تستهلك ذاتها . ثم تعود الدورة سيرتها الأولى ... يكفي أن نتذكر موجات المهاجرين الذين بنوا حضارات قديمة من مثل بابل وأكاد وأشور وفينيقيا وأخيراً حضارة الإسلاملنتبين صحة هذا الرأي . ان محمدا عليه السلام لم يأت لبناء وطن في أرض الصحراء بل أتى لبناء عقيدة وتشكيل الأنسان القادر على مواجهة الحياة وبناء حضارة وقد نجح في ذلك كما لم ينجح أحد قبله ولا بعده . " المعرب " .

هذا وقد عادت الجزيرة العربية إلى سباتها القديم الذي سبق أن عرفته قبل ظهور محمد ، وهي حال لا تشبه القرون الوسطى أو العصور القديمة ، بل هي نوع من حياة كامنة قائمة على هامش التاريخ ، حدث هذا كله بعد أن أنهكت بالمخاض الرهيب الذي حملها على إراقة خيرة دمائها حتى منحدرات حملايا وفرج الغابات في بواتييه . لقد عادت الصحراءء ، المفرغة من سكانها ، إلى الصمت . كما أن القبائل المنزوفة الدماء لم تعد هي أيضاً تتقاتل ، لأن شبه الجزيرة قد أ صبحت قادرة على توفير الموارد الكافية لسكانها الموزعين في أرجائها.

على أن الصحراء لم تصبح صامتة وحسب ، بل أصبحت جامدة أيضاً وهو ما لم يشاهد من قبل أبداً . حتى ليقال أن نفحة من الموت قد مرت فوق الرمال ، تزرع الفراغ والحزن في كل مكان . إن قلب الجزيرة العربية لم يكد يخفق أبداً . وأقل اغماء يصيبه يمكن أن يورده موارد التهلكة .

وفي بطء شديد ، وعلى درجات غير محسوسة ، أخذ المستوى البشري يرتفع من جديد ، لقد زاد عدد السكان. وأخذ التوازن يختل أكثر فأكثر بين عدد القبائل ونقص الموارد . ثم استعادت الحياة البدوية إيقاعها التقليدي في كل قرن أو جيل من السنين .

فاليمن عادت تزدحم بسكانها وتقذف الفائض منهم إلى الشمال من جديد . ومن جديد أيضاً بدأ " السيل البشري " يستولي على الجماعات السكانية التائهة ويدفع بها عبر الأتون في نجد والقصيم .ومن جديد استعادت الصحراء وظيفتها الأساسية تسحق قبائلها الواحدة ضد الأخرى ، وترغمها على اختزان حيوية جديدة في ذواتها . هكذا بدأنا نشهد ولادة جديدة ، كما كان الشأن من قبل ، للمنافسات الدامية حول مواطن الماء . كما بدأنا نشهد مزيداً من العنف في الصدام بين العشائر ، وهي تتنازع ملكية الواحات وصرائم النخيل وبدأنا نشهد أخيراً عودة التباينات المبدعة إلى الظهور ، بفضل القضاء على الأضعف من الأفراد.

لقد عادت الجزيرة العربية إلى نزعتها الطبيعية التي هي ولادة الأنبياء والمحاربين وتشكيلهم .

في تلك الأثناء كان سقوط القوة العربية قد أتاح للغرب أن يثأر لنفسه ففي عام ١٠٩٧ ظهرت طلائع الصليبيين في معابر جبال طوروس يتقدمها ويقودها جودفروا دوبويون ، وبودوان دو بولوني ، وعدد كبير من النبلاء الشامبينوا والوالون . فاستولى البارونات الفرنجة على حلب وسوريا وفلسطين والأردن هابطين على امتداد الساحل . فأقاموا امارات وممالك مسيحية في أنطاكية ، والرها وطرابلس وبين المقدس (١٠٩٩) بينما استولت أساطيل جنوا والبندقية على جزيرتي رودس وقبرص ، ولم يلبث هؤلاء القادمون الجدد ، شأن الامبراطور أغسطس من قبل أن تسامعوا بالثروات الخيالية المدفونة في قلب الجزيرة العربية . فقرر الإستيلاء عليها واحد من أشجع المحاربين المسيحيين ، رينو دو شاتيون ، سيد الكرك ومونتريال في الأردن. أو ليس أن تجاراً قادمين من الجنوب قد أكدوا له أن المدينة تحتوي على كنز لا يقدر بثمن وأن قبر النبي يفيض بالذهب والأحجار الكريمة ؟

هكذا انطلق رينو من قصره في الكرك ، خلال صيف ١١٨٢ على رأس جيش من ألف وخمسمائة فارس فباغت إيلات عند خليج العقبة واستولى عليها ثم نظمها وجعل منها قاعدة انطلاق للجيش الذي كان يعد له .

إن بضع حملات تمهيدية قامت بها فصائل صغيرة من المحاربين الفرنجة ضد القوافل المتوجهة إلى تبوك ومويلح ، قد أفزعت خليفة مصر وجعلته يقيس أبعاد الخطر . لكن جرأة أعدائه دفعته إلى تعبئة أسطول على عجل عند الشاطىء المصري من البحر الأحمر ، لمهاجمة القاعدة المعادية في أسرع وقت ممكن .

ثم لم تكن عير قضية زمن . ففيبناير (كانون الثاني) من عام ١١٨٣ ، استولت القوات الفرنجية على الشاطىء المقابل ، حيث المرفأ الذي انطلق منه ، قبل عشرة قرون ، جيش آليوس ، بعد أن اجتازت ذراع البحر التي تمتد بين الحجاز وشبه جزيرة سيناء . هكذا كان الصليبيون يتجهون بخطوات سريعة نحو هدفهم. فأصبحوا على بعد يوم واحد من المدينة المقدسة بعد أن اجتازوا خيبر في طريقهم وبدا لهم أن النصر في متناول أيديهم . وكانوا يستعدون للدخول إلى مدينة النبي دخول الظافرين .

وفجأة هوجموا من كل جانب بأرجال من الفرسان المسلمين يظهرون بصورة مفاجئة ، ويحملون بشدة على الأرتال المسيحية ، ثم يبتعدون في وسط إعصار من الغبار . فلم يستطع الفرسان الصمود أمام هجمات الخيالة المسلمين وقد شلتهم مغافرهم ، ودروعهم المزردة ، ودرقاتهم المثلثة الثقيلة . فقتل أو أسر منهم ثلاثمائة فارس ثم أبيد ما بقي من الجيش إبادة تامة . أما رينو دو شاتيون ، الذي لم يكن موجوداً في ميدان القتال فقد أتيح له أن ينجو من المذبحة . لكن موته لم يكن إى إلى أجل . لقد أسره صلاح الدين بعد ذلك بأربع سنوات في معركة حطين ، فقطعت رأسه بأمر من صلاح الدين نفسه جزاء له على تهوره .

أما فيما يتعلق بالفرسان المسيحيين ، المهزومين في الصحراء ، فقد وجدت دروعهم فيما بعد محطمة قد دفن نصفها تحت الرمال . بعض هذه الدروع كان ما يزال محتوياً على جثث الرجال الين يشكلون ، وهم أحياء ، زهرة الأقطاع الغربي . أما مغافرهم الممزقة فقد كانت تنتشر فوق الطريق الممتدة بين خيبر والمدينة . لكنهم رغم مظهرهم الشامخ لم يعودوا يخيفون أحداً ثم أصبحوا مجاثم للجوارح من الطير والصقور .

وبعد هذه التجربة البائسة ، لم يحاول الفرنجة فيما بعد النفاذ إلى الجزيرة العربية أبداً . لقد أقلعوا عن المغامرة في تلك المناطق المتوقدة ، التي يبدو ، وكأن لعنة الله تحلق فوقها [١] . هذه البعثة العسكرية توافقت مع سقوط الممالك المسيحية وقرعت جرس الحزن على القوة الفرنجية في الشرق . ثم لم تمض سنوات قليلة (١٢٥٠) حتى سقطت سوريا كلها في أيدي المسلمين .

---

١) لعل المؤلف يقصد أن هذه اللعنة تحلق فوق الغزاة ! " المعرب " .

بينما كانت المعارك تتعاقب بين العرب والأوروبيين ، كان فاتحون آخرون قادمون من أعماق آسيا ، يتوافدون نحو التخوم الشمالية لشبه الجزيرة . فالسلجوقيون من سكان السهوب الطورانية غزوا مملكة بغداد وآسيا الصغرى عام (١٠٥٥) محطمين بذلك البقايا الأخيرة للقوة العباسية ومهددين بيزنطية بانتظار أن يتحطموا بدورهم عام (١١٥٤). ثم أقدم جنكيزخان وفرسانه على اجتياح خراسان ، ليختفوا بعد ذلك ، مقنعين بستار من النار (١٢٢٠) . وظهر تيمورلنك فجأة في الأناضول مع حشوده من التتار واتجه إلى الجنوب فاجتاح " إزمير " وحلب ودمشق وفجأة تحول إلى الشرق في الوقت الذي كان ينجز فيه مسيرته المنتصرة (١٤٠٢) .

وأخيراً جاء دور الأتراك العثمانيين ، فأقام هؤلاء بصورة نهائية باعتبارهم أحسن تنظيماً من سابقيهم ، حول البحر الأبيض المتوسط الشرق كله . وبعد أن فتحوا بيزنطية (١٤٥٣) وألحقوا بلاد البلقان بمملكتهم، انتزع سلاطينهم لأنفسهم لقب الخلافة وأرغموا أكثر البلاد الإسلامية على الاعتراف بسلطانهم.

لكن الجزيرة العربية بقيت بعيدة عن كل هذه الأحداث . والثابت أن الأتراك قد احتلوا كل الأقاليم الموجودة في حاشية شبه الجزيرة . كما لا شك أيضاً في أنهم قد عينوا حكاماً وأقاموا حاميات في بيت المقدس . ودمشق – بغداد والبصرة ، الا أنهم بالرغم من اعلأن سلطانهم على الجزيرة العربية كلها ، لم يجرؤا أبداً على اجتياز تخوم الصحراء.

وحول عام ١٥٥٠ أراد سليمان العظيم أن يحسم الأمر مع البدو ، الذين طالما حدثه قواده عن طبيعتهم العدوانية . فاستدعى إلى استنبول باشا دمشق وكلفه باجتياح نجد وحائل ، ليفرض على قبائل الداخل يمين الولاء .

لكن حاكم دمشق كان يهاب هذه المحاولة ، لأنه يعلم أن الهزيمة ستكلفه حياته . فطلب من السلطان أن يضع تحت تصرفه عدداً من خيرة وحدات الجيوش في الأمبراطورية ، على أمل أن يرفض طلبه . هكذا جمع الباشا الكثير من

كتائب الأنكشاريين [1] في دمشق وهو على رأسهم ، وأمرهم أن يلبسوا لبوس المعركة ثم توغل معهم في قلب الصحراء فإنطلق الأنكشاريون وقد جمعوا في أرتال موصوصة ، ثم اختفوا في الأفق .

لم يحدث من قبل أن الاستقلال العربي قد واجه مثل هذا الخطر الجديد . فإن انكشاريي سليمان كانوا يمثلون ، في نظر البدو ، خطراً أعظم جداً من فرسان رينو دو شاتيون أو الجنود في فيالق آليوس جالوس . فالجنودالأتراك لم يكونوا منظمين ومدربين على القتال وحسب بل كانوا متعودين على القتال تحد أشد الظروف قسوة ، كما أن جهازهم قد أعد إعداداً متوافقاً مع طبيعة الصحراء .

لكن كل هذه الميزات تلغيها سيئة رئيسية : فهم يجهلون البلاد التي توغلوا فيها جهلاً تاماً . انهم لم يكونوا يعرفون الدروب ولا إتجاهات الرياح . فوجب عليهم أن يسلموا قيادهم إلى أدلاء من العرب أضلوهم على علم وقادوهم إلى منطقة قاحلة تماماً حيث لا توجد أي بئر ولا يقعون فيها على أي أثر من الماء . وبدأ الأنكشاريون يضربون في الكثبان الصحراوية بحثاً عن قليل من الظلال والرطوبة وقد ذعروا من العطش وحرارة الشمس الكاوية — فصرعت الحمى عدداً منهم . أما الباقون فقد أخذوا يدورون تائهين حول أنفسهم ، تحت سماء موقدة حامية ، لها شحوب معدن يذوب فأقدم بعض الجنود ، وقد أصيبوا بنوبة من الجنون ، على اشهار السلاح ضد قادتهم ثم انتحروا بعد ذلك . أما الباقون منهم فقد تفرقوا وجاءهم الموت بعد آلام مبرحة ، دون أن يشهدوا ظلاً لعدو واحد . ثم لم ينج واحد منهم أبداً . كانت هي القصة نفسها منذ بداية العصور . التشكيلات الأجنبية تتوغل في الصحراء ثم تختفي دون أن تترك وراءها أي أثر ، تماماً كالنهر الذي تمتصه الرمال . وبعد ذلك بقليل يكتشف بدو رحل جثث هؤلاء الغرباء نصف مفترسة من قبل الحيوانات المتوحشة . أما باشا دمشق فقد آثر الاختفاء على أن يرفع إلى سيده نبأ الكارثة . لقد وجد جالساً القرفصاء منطوياً على نفسه عند جرف من الأجراف ، ممسكاً بيده لوحة من الطين كتب عليها : "كان يجب ألا يطلب إلي أن أهزم الشمس " .

---

١) الأنكشاري هو جندي من المشاة في الجيش التركي القديم . " المعرب " .

إن النتيجة المأساوية لهذه البعثة العسكرية جعلت الأتراك أكثر تعقلاً ، فأقلعوا نهائياً عن غزو شبه الجزيرة عملياً واقتصروا على ممارسة سلطة اسمية عليها . وهكذا بقيت الجزيرة العربية الوسطى مستقلة ، واستمرت القبائل نعيش حياتها كما كان شأنها من قبل .

إن زعماء العشائر في حائل والأحساء ، ونجد والحجاز يعتبرون أنفسهم ممثلين لارستقرطية الجزيرة العربية ، ذلك لأنهم وحدهم الذين لايخضون للوصاية الأجنبية ولم يسبق لهم أن خضعوا لها على امتداد تاريخهم . انهم يجدون في استقلالهم مصدر كبرياء شديدة . كبرياء على قدر ما قدموه إليها من التضحيات . وكم كان ازدراؤهم شديداً بعرب مصر وسوريا الذين قبلوا أن يحنوا رقابهم تحت النير العثماني ! إنهم يشعرون بالاشمئزاز والتقزز من هؤلاء الدمشقيين والقاهريين ، الكاذبين الثرثارين ، الذين لم يتركوا جنسهم في حالة من الأنحطاط فقط ، بل باعوا أرواحهم من أجل امتيازات وقتية . انهم المنافقون الفاسقون ، الذين لا يستحقون اسم " المؤمنون " فالمؤمنون الحقيقيون الأنقياء ، يجب أن يبحث عنهم في أعماق الصحراء . لقد كانت الأفواج المستمرة التي لا تنقطع من البدو الرحل تمر عبرها ، في الوقت الذي تغذي فيه نبضائها كلاً من الحركة والحياة . أما اليمن فتقدم الخامات البشرية . لكن نجداً هي التي تعطيها الحيوية وتسقيها . فتحول الحديد المشكوك فيه إلى فولاذ نقي لا شائبة فيه أو ليس أن أكبر الرجال ، وأشجع المحاربين، وأسرع الجمال وأنقى اللغات ، كانوا في نجد ؟ كان في وسع الآخرين أن يفخروا بمدينتهم ، ومقاهيهم الفخمة ، وظلل الموسيقى عندهم ! أما سادة نجد فلم يكونوا يعرفون شيئاً من ذلك كله . والأكثر من هذا أنهم لم يكونوا يريدون معرفة شيء منه أنهم يفضلون أن يبقوا حراساً لعظمة لا مكان فيها للشهوات الأرضية والممسكين بالعرى الخلقي والفكري حيث لا يصرفهم شيء عن التأمل في ذات الله .

وبالقدر الذي كانت فيه القبائل يمزق بعضها بعضاً ويذبح بعضها بعضاً ، كانت تحس بارهاصات موجة جديدة من الحماسة والإثارة تولد في نفوسها . وكما هو شأنهم دائماً ، فإن قوتهم المضغوطة تعبر عن نفسها بالطموح المزدوج إلى الوحدة والتفوق . كانت تحاول الوصول إلى درجة التزهد المطلق " واسترداد الجنة في أعماق جحيمها " .

مرة أخرى كانت القرون قد أكملت عملها التشكيلي البطيء وعادت الجزيرة العربية مستودعاً لطاقات لا ينتظر امتلاؤه بها غير الفرصة المناسبة لينتشر إلى الخارج . وكانت الأيام منضجة معدة لظهور ملحمة إسلامية جديدة .

بينما تعيش القبائل بانتظار الرجل الذي يصلح عقيدتها ويعيد صنع وحدتها . كانت تتساءل في قلق ، منتظرة علامة معينة ، بل نبـءة منذرة ثم تتساءل مرة أخرى ما إذا كان الرجل الذي سيمسك المصائر بيديه سيكون ، كما هو الشأن قبل ألف عام ، نبياً أو محارباً .

والواقع أنه كان نبياً [1] : وكان يدعى محمد بن عبد الوهاب .

أما محمد بن عبد الوهاب فهو من أحفاد قبيلة تميم الماجدة ، التي تحدثت " المعلقات الذهبية " عن شجاعتها في عكاظ ، والتي كانت واحدة من أولى القبائل التي لحقت بمحمد " عليه السلام " هذا وقد ولد محمد بن عبد الوهاب في أذينة من بلاد نجد ١٦٩٦ . كان يعرف القرآن عن ظهر قلب منذ العام العاشر من عمره ، ذلك أنه اتصل بالآداب والعلوم وهو ما يزال صبياً – وكان قد قام برحلات كثيرة إلى دمشق وبغداد والبصرة وبلاد فارس فاطّلع على الفرق المختلفة التي تتنازع على الأنتشار والتفوق في صميم العالم الإسلامي . ثم انسحب إلى الصحراء للصلاة والتأمل ، أميناً على المصير التقليدي للأنبياء .

في تلك الأمداء العظيمة الموحدة والصامتة لخلوته هذه ، كان يطيل التفكير في مستقبل الإسلام ويحزنه أن يرى الفساد العميق الذي تردى فيه . فقد توالدت ، بسبب الخلفاء العثمانيين وفقهاء الشريعة ، أخطر أنواع الوثنيات والبدع التي انطفأ بها نور الإيمان تحت أكوام من التعقيدات والشروح الحافلة باللغو العابث .
وكان التفاخر بأنواع الترف قد حل في كل مكان محل التقشف الأول . كما أن التوجه بالعبادة والتقديس إلى محمد وإلى الأولياء قد حل محل العبادة والتقديس لله .

---

١) يلاحظ أن كلمة نبي عند المؤلف لا تعني ما تعنيه عندنا على التحقيق . فهي تشتمل على كل قديس – أو داعية إلى الله بالاضافة إلى النبي المرسل من السماء .

أما أوامر القرآن فقد كانت تخالف في كل يوم . لم يعد أحد يراقب في نفسه وفيمن حوله شريعة محمد . كما أن كلام الله لم يعد مسموعاً في أي مكان .

وأما في الميدان السياسي ، فربما كان المشهد أكثر مدعاة للحزن أيضاً . كل العرب الذين يعيشون خارج شبه الجزيرة كانوا مستعبدين من قبل الأتراك بينما الذين يعيشون في الصحراء الوسطى ، ممن نجوا من الوصاية التركية ، كانوا يستعملون استقلالهم للإقتتال فيما بينهم بدلاً من أن يعملوا على تحرير اخوتهم.

كان محمد بن عبد الوهاب على غرار محمد " عليه السلام " يرى أن أخطر مهمة له هي توحيد كل القبائل البدوية وتجميعها باسم مثال ديني . لكن ما عساه يكون هذا المثال ؟ هل هو وحي جديد ؟ كلا على التأكيد . لقد حمل النبي ، مرة وإلى الأبد ، كل الحقيقة للعالم فلا يمكن أن يحدث فيها أي تغيير . واذاً فليس غير العودة إلى التراث. ان الواجب هو إصلاح الشريعة والعودة بها إلى نقائها القديم.

وقد بلغت الأوضاع درجة من الفتور والتواني بحيث أن العرب لم يعودوا يعرفون المعنى العميق لعقيدتهم .

ماذا تعني كلمة " إسلام " ؟ انها أن تسلم أمرك إسلاماً مطلقاً للإرداة الإلهية. ولماذا اختار النبي هذا الإسم ؟

ذلك لأن الله ، في قوته المطلقة ، قد خلق العالم خارج الزمان كما أن الله قد قرر مصير الأنسان أو يقرره خارج الزمان كله .

إن اللغة العربية تدرك هذه الحقيقة جيداً . ذلك أنه يوجد بالنسبة لها ماض وحاضر ومستقبل كما أنها تعطي الفعل معنى العمل التام والمستقل عن مفهوم الزمن . ان الله يعين مصير الأنسان بأن يظهر طريق " الهداية " له . فمن الناس من يتبعها مستفيدين من الرعاية التي يمنحهم الله إياها ... ومنهم " من ختم على آذانهم " بحيث أنهم لا

يعودون قادرين على إدراك المعنى في أوامره . في هذا العالم ، الذي تسيطر عليه حتمية مطلقة ، أصبح العرب صماً أمام نداءات الحقيقة . لقد ضلوا عن طريق الهداية .

لا شيء يستطيع إعادة الهداية إليهم ابتداء من تأملات رجال العلم ، ونصائح الشعراء ومجادلات الفقهاء ومنازعات الكلاميين ، ما لم يعودوا إلى مصادر الوحي أي إلى المراقبة الدقيقة لقواعد القرآن . والقواعد هذه بسيطة جداً . سأل بدوي محمداً " عليه السلام " : ما هو الإسلام ؟ فأجابه محمد " أن نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت ان استطعت إليه سبيلاً" تلك هي قواعد الحياة التي يجب العمل بها دون قيد أو تخلف . ان الصلاة والصيام والصدقات هي وحدها التي تقود المؤمنين إلى الله . أما ما بقي فهو النفاق ، والوثنية والتجديف.

لم يكن محمد بن عبد الوهاب ، وهو يصوغ عقيدته يهدف إلى تأسيس فرقة دينية جديدة ، أي أن يقدم لتلامذته شرحاً شخصياً للكلام المقدس . كان مقتنعاً بأنه يمثل الإسلام المحض ، أي الإسلام ، النقي المصفى ، الذي أعيدت الحياة إليه . وبإلغائه الألف عام من التاريخ العربي بحركة واحدة ، عاد إلى نقطة البداية التي انطلق منها محمد .

وكما يمكن أن نقدر الأمر ، فقد اصطدمت مواعظه بعداوة الفقهاء والواعظين في مكة . ذلك أنه لم يكن في وسع هؤلاء أن يسمحوا بانتشار هذا التعليم الثوري ، الذي كانت صرامته تشكل في الوقت نفسه تهديداً لامتيازاتهم واهانة لطراز حياتهم . فاضطهدوا المصلح بقسوة وطردوه رجماً بالحجارة . وهنا أدرك —كما فعل محمد من قبل — ان عقيدته لن تنتصر ما لم تفرض بالقوة ، فهرب إلى الدرعية عاصمة نجد وطلب الحماية من زعيم للبدو النجديين ، محمد بن سعود (١٧٤٩ م) .

ثم لم يلبث محمد بن عبد الوهاب أن عرف في محمد بن سعود الصفات الاستثنائية لرجل الحرب . كما أن محمد ابن سعود قد تأثر بالفصاحة الملتهبة عند ابن عبد الوهاب . لقد كان المحارب يبحث عن عقيدة وكان الواعظ يبحث عن سيف . فتعاقدا على ضم قوتيهما معاً " لتنفيذ الإرادة الإلهية وإعادة الوحدة المفقودة إلى الشعب العربي " . ومن

أجل توثيق هذا الاتفاق زوج ابن عبد الوهاب ابنته لمحمد بن سعود ووكل إليه مهمة التوجيه السياسي والعسكري للدعوة . وقد وجب أن تتحقق هذه الدعوة على مرحلتين : أولاً ، إلحاق القبائل في الجزيرة العربية الوسطى بالوهابية والاستيلاء على بلاد نجد ، ثانياً ، مد بساط الإصلاح إلى ما بقي من الجزيرة بعد أن يصبح محمد وابن عبد الوهاب سيدي نجد.

وقد بادر ، بسرعة بالغة ، أنشط الرجال في نجد ، ممن أثارت مواعظ المصلح حماستهم ، إلى الأنضواء تحت راية محمد بن سعود ، فعلم الحكام الأتراك في دمشق والبصرة صباح يوم جميل في دهشة ظاهرة " ان قبائل نجد ، التي كانت حتى ذلك الحين منقسمة على نفسها ، قد توحدت تحت قيادة واحدة ، والتزمت لدين أشد تقشفاً من دين المسلمين السنة ، وأن مشرعاً يشرف بنفسه على تطبيق الإصلاحات، في الوقت الذي يفرضها فيه بالسلاح ، محارب شجاع ، على كل من يبدي لها أية معارضة (١) ".

كان جزء كبير من نجد قد اعتنق هذه العقيدة الجديدة . وتعرض شيوخ الأحساء للأنسحاق ، بسبب معاداتهم للإصلاح ثم أقدم الفرسان الوهابيون – كما كانوا يسمون في تلك الفترة – على تنظيم غزوات عند حدود الحكاز وسوريا للاعلأن عن " يقظة الجزيرة العربية " أمام البدو كلهم .

هذا وقد وجه سلطان القسطنطينية ، محمود الأول ، أوامره إلى حكام البصرة وبغداد وجدة ، وإلى باشاوات مصر وسوريا بالعمل على إبادة " المبتدعين " ومنعهم من الاستيلاء على المدينتين المقدستين – المدينة ومكة – اللتين تمنحهم السيطرة عليها امتيازاً بالغ الخطورة – فعل هذا بعد أن أنذر بالنجاح السريع للوهابية .

---

١) ل . أ . سيديو ، ص : ٤٥٨ .

لكن هذا كله لم يفد في شيء . لقد انطلقت الموجة العربية الثانية وراحت تتدفق على شبه الجزيرة ، بعنف مشابه تقريباً لعنف الموجة الأولى . وبالرغم من الإجراءات المضادة التي اتخذها الباب العالي ، استمر محمد بن سعود في كسب المزيد من الأرض .

لقد انضمت إليه مدينتا عنيزة وبريدة وجاء محاربوهما يزيدون تعداد جيوشه . وعندما توفي عام ١٧٦٥ كان قد ترك وراءه لإبنه عبد العزيز سلطاناً مكيناً استفاد منه لاستكمال فتوجه لبلاد نجد ، التي أعلن نفسه ملكاً عليها (١٧٦٥ – ١٨٠٣) . هكذا نفذ الجزء الأول من الخطة .

أما ابن الوهاب فقد توفي عام ١٧٩٢ . وحينما خلف سعود عبد العزيز عام ١٨٠٣ كانت العقائد الجديدة قد زرعت بعمق في الأقاليم الوسطى . وبذلك جمع سعود –الذي سمي فيما بعد سعود الكبير – إلى نفسه لقب أمير نجد وإمام الوهابيين باعتباره حفيداً لمحمد من قبل أبيه وحفيداً لابن عبد الوهاب من قبل أمه . وعرف سعود ، باعتباره زعيماً سياسياً ودينياً للحركة ، أن يحقق لها التناسق والدينامية عير العاديتين ثم جمع قواته فوق هضبة الدرعية ، وخطبهم بحضور الفقهاء والوعاظ الوهابيين ثم انتقل إلى تنفيذ الجزء الثاني من الخطة : فتح الجزيرة العربية .

وهبط أرض الحجاز كأنه " العاصفة " فأصبح سيد الاقليم كله بسرعة ودخل المدينة والطائف ومكة وجدة بعد سلسلة من المعارك المنتصرة . وكما قدر السلطان من قبل ، فقد زادت ملكية المدينتين المقدستين من امتيازاته في نظر مواطنيه . وبدخوله إلى المسجد ، راح يحطم بنفسه قبور الأولياء وكل الزينات الممنوعة التي سمح الأشراف باقامتها ثم أعاد إلى الكعبة بساطتها الأساسية (١٨٠٤ م) .

ثم فاجأ منطقة عسير التي خضعت له دون مقاومة ، ومن هناك توجه إلى اليمن التي استولى على عاصمتها صنعاء عنوة واقتداراً . هذا الأنتصار الأخير فاضت به كأس الحماسة عند محاربيه . لا شيء يبدو قادراً على إيقاف اندفاعهم . وفي عام ١٨٠٨ كان سعود الكبير قد أكمل عملياً فتح شبه الجزيرة . لقد كانت مملكة تحتوي بالاضافة إلى نجد ، على الحجاز ، عسير ، اليمن ، حضرموت ، الأحساء ، البحرين ، والبصرة . أما في الشمال فقد امتد سلطانه حتى حوران . وقواته التي تعسكر في وادي سرحان كانت تشكل تهديداً لكل من دمشق وبغداد .

مرة أخرى كانت الجزيرة العربية مستعدة للاشتغال ، وبتوحدها كاملة بين يدي سيد واحد ، وجدت طريق الهداية مرة أخرى .

بينما كانت هذه الأحداث تتعاقب في الجزيرة العربية ، كانت جيوش نابليون تحدث الذعر في أوروبا . أما النزاع الذي وضع فرنسا أمام انكلترا فقد كان ينعكس في مياه البحر الأبيض المتوسط حتى الشرق الأدنى . لقد اصطدم نابوليون في معركة مصر (١٧٩٨ - ١٧٩٩) بمقاومة مزدوجة من قبل الأتراك والأنكليز .
وكانت عودته المفاجئة إلى فرنسا ، واغتيال الجنرال كليبر الذي خلفه وراءه ، والتوقيع على معاهدة باريس (٢٥ يونيو " حزيران " ١٨٠٢) التي أعاد بموجبها مصر إلى الباب العالي ، هذه كلها وضعت حداً وقتياً للتوسع الفرنسي في الشرق .

لكن نابليون لم ينس الحلم الذي كان قد بناه في ظلال الأهرام – أنه غزو البلاد الهندية – والذي كان يأمل به في أن يوجه ضربة قاضية إلى القوة البريطانية . فأرسل إلى سوريا الكولونيل سيبستياني " ليقيم فيها القوات الأنجليزية والعثمانية " (١٨٠٢) والجنرال ديكان إلى بلاد الهند " في محاولة للتفاهم مع ابن تيبو – صاحب وأمراد البلاد " (١٨٠٣) . وهتف في العام التالي قائلاً أمام الأمراء الألمان : " لم يعد هناك ما نعمل في أوروبا . إذ لا يمكن القيام بعمل كبير إلا في الشرق ، كما لا يمكن صنع الشهوات الكبيرة والثروات العظيمة إلا فيه أيضاً " . وهناك حدث آخر ذو مغزى خاص : لقد عرض على قيصر روسيا الاسكندر ، أن يعملا معاً على اقتسام تركيا ، " لفتح أبواب الشرق على مصاريعها " بعد أن حاول عبثاً أن يجر السلطان سليم الثالث إلى إقامة حلف ضد بريطانيا .

هذه التدابير – التي كان الأمبراطور يثير الحديث عنها حتى في سانت – هيلين – كان من الطبيعي أن تقوده إلى احتلال الجزيرة العربية – وقد أصبح لمملكة سعود من الأهمية بحيث أنه لا يمكن اهمالها . فأرسل نابوليون أحد الدبلوماسيين ، السيد لاسكاريس ، فتوجه هذا الأخير إلى الدرعية ، في نهاية ١٨١١ م، وعقد محادثات سرية كثيرة مع إمام الوهابيين .

كان العرب قد احتفظوا بذكرى خاصة للمنتصر في " أبو قير " وكانوا يسمونه " أبو النار " لقد كانوا من الحساسية بالنسبة للقيمة العسكرية بحيث يتأثرون جداً بذاك الذي يعتبره الكثيرون " إله الحرب " وقد انتهى بعض الحكايات التي نشرت ببراعة تامة إلى احاطته بهالة من الأساطير . أو ليس أن بونابرت قد رؤي ، يلبس برنساً أبيض ، وهو يجتاز الصحراء على ظهر جمل ويمتدح القرآن وفضائل النبي ؟ أولم يقل يوماً لديسكس رغبته في اعتناق الدين الإسلامي ؟

وصل لاسكاريس إلى الدرعية تتقدمه " فكرة مسبقة ملائمة " . وعندما طلب رسول نابوليون من سعود أن يساعده سيده على الاطاحة بالقوة العثمانية وأن يمهد الطريق إلى الهند أمام الكتائب الفرنسية ، استمع إمام الوهابيين إليه ، باهتمام هو على قدر ما في هذه العروض والمخططات من توافق مع اتجاهاته الشخصية فقد كانت أسرته تقاتل الأتراك منذ عدد من الأجيال . والاستيلاء على سوريا ، هو استجابة للدوافع التقليدية القديمة التي تدفع العرب من الصحراء نحو الأراضي الخصبة في الشمال الشرقي . وباختصار بدت له هذه المعركة تتويجاً لرغباته . لأنه وجد فيها بداية لملحمة إسلامية شبيهة بتكل التي توج فيها أبو بكر وعمر برايات الفخار .

لكن الإنجليز كانوا يقظين . لقد كان لهم عملاؤهم في السويس وجدة ومسقط وعدن . فلم يلبث هؤلاء أن علموا بما يجري في عاصمة نجد . ولما كانت حكومة لندن غير راغبة ، بأي ثمن ، في أن تنضم الجزيرة العربية إلى معسكر نابوليون ، فقد بادرت بدورها إلى انتداب مبعوثين إلى سعود لاقناعه بعدم الاتفاق مع الفرنسيين . حتى ان اللورد كاستلريغ وعده بجعل السلطان يعترف بسيادته ، فيما إذا تعهد صراحة بالامتناع عن مهاجمة تركيا .

لبث سعود طويلاً يوازن بين هذه العروض المتناقضة وأخيراً انضم إلى عروض لاسكاريس باعتبارها " الأكثر ملاءمة لأطماح الشعب العربي " (١٨١١) .

وبعد التوقيع على الاتفاق أصدر سعود أمره لقواته بالاستعداد للمعركة . وبدأ الهجوم عند نهاية عام ١٨١٢ في غمرة حماسة عامة . فتوغل الفرسان الوهابيون في أرض العراق حيث اجتاحوا مدينة كربلاء . ثم هاجموا مدينة حلب

واستولوا على هذا الموقع القوي وأرغموا سكانها على أن يدفعوا جزية لهم ، بينما كان رتل آخر ، يتجه من وادي سرحان ويحدث الخراب في ضواحي دمشق . وقد كانت حيوية المهاجمين لا تكف عن النمو . هكذا رأى الوهابيون أنفسهم يمشون نحو القسطنطينية ويتدفقون باتجاه شواطىء المتوسط .

وقد كان من الممكن لهذا الهجوم الجريء أن ينجح فيما لو تم قبل ذلك ببضع سنوات . لكن الوقت كان متأخراً جداً عام ١٨١٢ م . فإن الكارثة التي انتهت إليها معركة روسيا قد حملت الضربة القاضية إلى قوة نابوليون . ان حريق موسكو وأعاصير الثلجح في بيريزينا بقضائها على كل آمال الأمبراطور ، سجلت تحولاً في تاريخ العالم ، كان من المنتظر أن تبدو آثاره في أعماق الجزيرة العربية .

لقد وجدت انطلاقة سعود تسهيلات كبيرة جداً في حضور القوات الفرنسية في القاهرة من ١٧٩٨ إلى ١٨٠١ . وفي أثناء ذلك الوقت لم يجرؤ الأتراك المشلولون على القيام بأية مبادرة مقابلة ، وحتى بعد الأنسحاب من مصر احتفظوا بموقف حذر ، خوفاً من انزال جديد قد يقوم به القادة النابوليونيون .

وعندما استبعد كل خطر من هذه الجهة – ومنع الأنسحاب من روسيا دولة فرنسا من القيام بأي تدخل جديد في الشرق – استطاع الأتراك أن يخصصوا الجزء الأكبر من قواتهم لردع " الثورة العربية " ومنذ عام ١٨١٣ أصدر السلطان أمره إلى نائب الملك في مصر محمد علي ، بأن يضع حداً وبصورة نهائية لسعود وأنصاره .

أما محمد علي فقد وضع طوسون باشا على رأس بعثة عسكرية أولى . فرد سعود بقوة وأرغم عدوه على اللجوء إلى ينبع . فجهز محمد علي بعثة عسكرية ثانية وتسلم هو شخصياً إدارة العمليات الحربية . لكن هذه المعركة لم تسجل من النجاح أكثر مما سجلته المعركة السابقة . وقد كاد محمد علي أن يقلع عن محاولته يائساً من سلسلة الفشل بعد أن هزم في تراباي وطرد من القنفذة ثم ارتكب خطأ فاحشاً بالسماح للوهابيين بمحاصرة الطائف ذات الموقع الاستراتيجي الهام ، حينما قتل سعود بحادث عارض تحت أسوار الطائف ديسمبر (كانون أول) ١٨١٤ .

إن هذه الوفاة ، التي وقعت في تلك الفترة الخطيرة الحاسمة ، كانت كارثة حقيقية بالنسبة للجزيرة العربية . لقد خلف ملك نجد اثنى عشر ولداً ، لكن أي واحد منهم لم يكن بحيث يستطيع أن يحل محله . فإنتقلت السلطة إلى يدي عمه عبد الله ، الأنسان الضعيف الجبان ، وغير الجدير بحكم الجزيرة العربية في مثل تلك الظروف الخطيرة .

وهنا عاد محمد علي إلى الهجوم ثم لم يلبث أن سجل نقاطاً على عدوه وبعد سلسلة من المعارك الدامية حرر مدينة الطائف وهزم الوهابيين في قولاق قريباً من القنفذة (١٠ يناير "كانون الثاني " ١٨١٤). ثم قطع محمد علي رؤوس كل الزعماء الأسرى . هذا الحادث أفزع عبد الله فوضع السلاح وعقد معاهدة مهينة مع طوسون باشا .

وبحجة أن عبد الله لم ينفذ بنود المعاهدة بأمانة ، أعد محمد علي في العام التالي ، بعثة عسكرية ثالثة ، عهد بقيادتها إلى ولده ابراهيم باشا . فتم اخضاع نجد في أقل من ثمانية عشر شهراً . وعسكر ابراهيم باشا بقواته عند أسوار الدرعية في ٢٢ مارس (آذار) عام ١٨١٨ بعد أن فتح على التتابع كلاً من عنيزة وبريدة وشقرا .

وصمد عبد الله المحاصر مدة سبعة أشهر . ثم انتهى أخيراً إلى الإستسلام بعد أن استنفد قواته . فأمر السلطان محمود الثاني بارساله إلى القسطنطينية . وهناك قيد بالسلاسل الكثيرة ، وأقتيد عبر المدينة لمدة ثلاثة أيام ثم قطعت رأسه أمام مسجد أيا صوفيا .
وعرض جسده أمام الجمهور لمدة أسبوع ثم ترك بعد ذلك للكلاب التائهة . وفي نهاية سبتمبر (أيلول) تم اجتياح الدرعية . لكن هذا لم يكن كل شيء .

بعد ذلك ببضع سنوات ، بدأ فيصل ، حفيد الرجل المعذب ، يجمع حوله بعض القبائل يريد أن يثأر للاهانة التي أصابت أسرته . لكن محمد علي لم يتح له الوقت اللازم لرفع الرأس . فبينما كان المصريون يضعون الحج إلى مكة تحت وصايتهم ، والأنجليز يقيمون نهائياً في عدن ، أرسل أربعة جيوش إلى شبه الجزيرة لاغراق هذه البادرة الثورية في لج من الدماء.

أما الجيش الأول الذي يقوده خورشيد باشا فتوغل في نجد ، ووصل إلى فيصل في سهل ديلام وهزمه هزيمة ساحقة ووصل حتى شواطىء الخليج العربي ، بعد أن اجتاز الجزيرة العربية من أقصاها إلى أقصاها.

وأما الجيش الثاني الذي يقوده كوتشوك ابراهيم باشا ، فقد اندفع نحو اليمن ، وانتزع صنعاء بالقوة وأرغم إمام اليمنيين على التنازل عن الإمامة لمصحلة السلطان.

أما الجيشان الثالث والرابع اللذان يقودهما على الترتيب أحمد باشا وسليم باشا ، فقد أخضعا السكان غير الراضين في عسير والحجاز بحد السيف (١٨٣٦ – ١٨٣٧) . وبعد هذا كله ، ولما كان الأتراك غير راغبين في البقاء في هذه البلاد غير المضيافة ، والتي حولوها إلى خ رائب دامية ، انسحبوا ، تاركين وراءهم جزيرة عربية مبقورة البطن ، ومدناً مدمرة ، وقرى محروقة ، وغابات النخيل متلفة لأجيال عديدة .

هكذا تم ترويض تلك القوة ، التي بدت وكأنها معدة لبعث الأيام الكبيرة في الإسلام . لقد ضيق عليها الخناق في الصحاري التي كانت قد خرجت منها منتصرة (١) .

لقد انتهت الموجة الإسلامية الأولى إلى انتصار كبير مع محمد وعمر وأبي بكر بينما انتهت الثانية مع ابن عبد الوهاب وسعود الكبير بكارثة . لقد تحطمت الأمبراطورية الوهابية . أما الدرعية فقد مزقت وفتتت تفيتاً . إن أسوارها ومعاقلها المنهارة تشهد على العنف الشديد الذي انقض به الأتراك عليها.

وعادت الجزيرة العربية إلى جمودها الأول . شعراء تائهون ، وأنبياء (٢) ، ومماليك ميتة ، وجرائم ، وفروسية ، وعظمة بائدة ، كل هذا قد أبيد أو حول إلى حالة شبيهة بالحلم.

---

١) ل . أ . سيديو ، ص : ٤٦٣ .

٢) يقصد المؤلف بهذه الكلمة معنى أوسع من معناها في العربية . إنه يقصد بها أيضاً الأولياء وأصحاب الدعوات الدينية . " المعرب " .

ولم يعد ، في الصمت الأصفر الكبير ، غير الدروب الحزينة للقبائل ، التي تكافح حتى لا تهلك ، حول مواقع الماء ، وحتى لا تسترد الحكم يد حازمة قوية . وبين وقت وآخر ، كانت تتردد ، طلقة نار ، أو صراخ أجش ، وضجة جولة ليلية لكوكبة من الفرسان تشهد على أن الجزيرة العربة لم تمت تماماً ، ذلك لأن سكانها كانوا يترددون في الظهور في وضح النهار . مرة أخرى ، لم يعد يوجد غير الفراغ وأبدية الصحراء . ولم يعد غير ارتفاع الشمس وهبوطها . ولم يعد غير الرياح ، الرياح الرملية الرهيبة ، التي تضيع الدروب ، وتغطي بكفنها كل بقايا الماضي وتمحو حتى ذكرى الأعمال غير المفيدة ، التي يحاول الرجال أن يهدؤا بها حمى العظمة عندهم .

الباب الثاني

فتح نجد

(١٨٨٠ - ١٩٠٥)

هكذا كان الموقف في الجزيرة العربية حين ولد في الرياض عام ١٢٩٨ من الهجرة ، خلال شهر ربيع الأول ، في صباح يوم من فبراير (شباط) ١٨٨١ ، صبي أعطاه أبواه اسم عبد العزيز .

أمه ، ساره السديري ، كانت ابنة لأحمد ، زعيم الدواسر، قبيلة من الجنوب مشهورة بالقوام الهرقلي عند محاربيها. وهي نفسها كان لها القلب الفخور والبنية القوية . وقد تميز عبد العزيز منذ ولادته بالصلابة النادرة ، وكان الأمر نفسه بالنسبة لثلاثة صبيان آخرين ولدتهم بعده : محمد وعبدالله وسعد .

أما زوجها ، عبد الرحمن ، والد عبد العزيز ، فقد كان ولد ذاك الفيصل الذي سحقه خورشيد باشا في سهل ديلام . ولما كان عبد الرحمن ابن أخ لسعود الكبير ، والحفيد المباشر لمحمد بن سعود وابنة محمد بن عبد الوهاب ، فقد وجب أن يكون في ضوء هذا النسب إمام الوهابيين ، أي زعيم كل المؤمنين من هذه الفرقة الدينية .

أما العلماء الوهابيون ، فقد انسحبوا في كبرياء نفور وضاعفوا من تزمتهم العقدي والمسلكي تحت تأثير الاضطهادات التي أنزلها الأتراك بهم . " يقول لنا ارمسترونغ : كانوا رجالاً قساة شديدي التشيع لأفكارهم ومذاهبهم في التدين يوجهون إلى العالم نظرة متعصبة ، كما يقودون رعاياهم بعصا فولاذية صارمة . انهم لم يكونوا يسمحون لأنفسهم بتذوق أي نوع من أنواع الترف ، أو لين في العيش . وكانت بيوتهم عارية ومساجدهم مجردة من كل زينة . وكانوا يحرمون أنفسهم من كل متع الحياة : الخمر ، والطعام اللين ، والتبغ ، والثياب الحريرية ، كما يحرمون الموسيقى والغناء ، وتسوؤهم قهقهة الضحك وينزعون من الحياة كل فرح لها عن سابق إصرار وترصد ، خوفاً من أن يصرفهم هذا الفرح عن مهمتهم الأساسية ، التي هي التوجه بكل أفكارهم إلى الله . ذلك أن الإله الطيب الرحيم نحو الذين يطيعونه دون تردد لا يلبث أن يبدو شديداً قاسياً أمام الذين يخالفون عن شريعته.

وكان الوهابيون يعتبرون أنفسهم شعب الله المختار . ممن يرتفعون عن مستوى العامة من الناس . أما مهمتهم فهي العودة بكل الناس إلى طاعة الله حتى ولو اضطروا في تحقيق ذلك للاستعانة بالسيف(١).

---

١) هـ . س . أرمسترونغ : سيد الجزيرة العربية ، ص : ١٦.

وإذاً فان عبد العزيز الصغير الذي ولد في ذلك العام من ١٢٩٨ للتاريخ الهجري ، كان ينتمي إلى أسرة قديمة جديدة ، أما الدم الذي يجري في شرايينه فهو على مثال الدماء عند أكثر الأسر نبالة في الجزيرة العربية . ولما كان بين جداده نبي وملوك كثيرون ، فقد ك ان في وسعه أن يصعد من خلال — جدته ابنة محمد بن عبد الوهاب — عبر ثمانين جيلاً من المحاربين الشجعان ، حتى يبلغ قبيلة التميميين القديمة ، التي اختلطت أمجادها مع فجر الإسلام وحفرت قصة أمجادها في أرضية غير واضحة الملامح من الشعر والأسطورة . اما من خلال أجداده لأبيه فقد كان يجد من المجد ما يصعد به إلى أعلى من ذلك أيضاً ، ما دام أن العلماء المحققين قد نظموا شجرة نسبه المباشر ، عبر عدنان إلى اسماعيل ولد ابراهيم (١) .

في هذه الغمرة الوافرة من العشائر ، والقبائل والأسر الملكية ، المولعة كلها بأنسابها والمتفاخرة بعضها على بعض بأقدمية هذه الأنساب ، التي يشكل تشابكها لحمة التاريخ العربي ، لم يكن من يقصرون عن منافستهم غير الهاشميين وحسب . فهؤلاء يشغلون مكانة خاصة في شجرات الأنساب إذ أنهم الأحفاد النازلون في خط مباشر مستقيم لابن قتادة ، سادن الكعبة المقدسة ، والذي بدوره ينتسب إلى هاشم ، جد النبي ، فهم إذاً ينتسبون إلى أسرة محمد نفسها.

لم يكن لهذا الأمير الفتى الذي جاء إلى الدنيا غير امتياز واحد هو هذا النسب الأسطوري . أما فيما سوى ذلك فان القدر لم يمنحه شيئاً أبداً . لقد مزقت أسرته وأفقرت بالهزيمة التي نزلت بها من قبل .

---

١) أنظر ص ٤٣٠ من كتاب : نسب الأسرة السعودية .

وكان سلطانها موضع اعتراض وجدل . يضاف إلى ذلك ، أنه رأى النور في جوف قصر قديم خرب ، وفي وسط مدينة كانت ما تزال نصف مدمرة .

إن مدينة " الرياض " التي تعني في العربية " الحدائق " قد حلت محل الدرعية ، العاصمة القديمة في نجد ، التي تم اجتياحها وتخريبها بأمر من الأتراك قبل ذلك بستين عاماً . لكن هل كان في وسع أحد أن يطلق اسم " عاصمة " على تلك القرية البائسة التي كانت ما تزال جدرانها المتصدعة المتشققة تشهد على عنف إبراهيم ؟ الثابت أن المواقع الحصينة في المدينة قد رفعت منذ ذلك الوقت ، لكن عملية الإصلاح لم تخضع لأي تنظيم لقد اقتصر على ردم الثغرات وحسب ، فأعيد بناء برج هنا ، ومخرج للنجاة من هناك ، وأضيف إلى ذلك كله عدد من الدفاعات الجديدة.

وهل كان في وسعنا أن نطلق كلمة " قصر " على تلك البنية القبيحة المصنوعة من أكوام من الأبنية غير المتناسقة بعضها مع بعص والتي يصل بعضها ببعض متاهة من الأروقة والممرات والطرق المستديرة ؟ وهنا أيضاً اقتصر على إجراء بعض التحسينات السريعة ، باضافة مساكن جديدة إلى ا لمساكن القديمة ، بحيث أن هذه البنية قد أصبحت تشغل كل وسط المدينة.

وتم ارضاع عبد العزيز بادىء الأمر من قبل أمه ، داخل الجناح المخصص للنساء من القصر . لكنه لم يكد يكبر حتى نقل إلى جناح الرجال ووكلت تربيته ومهمة العناية به إلى عبد سوداني . حيث عاش في زمرة من الأطفال الصاخبين المشاغبين من صغار أبناء عمومته وأبناء العاملين في القصر.

وعندما بلغ سن القراءة والكتابة ، أخذ أبوه بيده وتولى الإشراف على تربيته . وباعتباره إماماً للوهابيين ، فان عبد الرحمن ، لم يكن في وسعه أن يكون أكثر تساهلاً مع ولده منه مع أبناء العاملين تحت إدارته . لقد أرسله إلى مدرسة الرياض الدينية . وهناك فوق مقعد خشبي مطلي بالطين الأبيض — تبعاً لتقنية لم تتغير أبداً منذ عهد الكلدانيين —عمل عبد العزيز الصغير على كتابة فقرات من القرآن وحفظها عن ظهر قلب دون أن يعمل أحد على أن يشرح له معنى ما يحفظه.

لم يظهر الطفل غير قليل من الاستعداد للدراسة . فالمشاغل الفكرية لم تكن تبدو الجانب القوي البارز عنده . لقد كان يقضي الجزء الأكبر من وقته في التأملات الحالمة أو في مصارعة رفاقه في الفصل . أما العلماء — وهم في

كثرتهم غير مثقفين – فلم يفعلوا شيئاً كثيراً لحضه على الدراسة . ان النقطة الوحيدة التي كانوا يظهرون فيها شديدي التزمت والصرامة هي التعليم الديني . فهم لم يكونوا يسمحون في هذا الميدان بأي لهو أو إهمال . وعلى ذلك فان عبد العزيز كان يؤدي الصلوات في مواقيتها بكل دقة منذ بلغ السابعة من عمره . كان يصحب والده إلى المسجد خمس مرات في كل يوم . ليؤدي فيه الصلاة جماعة ، كما كان شديد الحفاظ على فريضة الصيام التي أمر بها النبي [1]. ثم لم يلبث حتى أخذ يتلو شخصياً الآيات من كتاب الله .

وكان عبد الرحمن رجلاً تقياً أكثر منه رجل حرب ، لكن هذا لا يعني أنه لم يكن يغذي طموحاً خفياً في نفسه : يقضي باسترداد سلطان أسرته وبنشر العقيدة الوهابية بين قبائل الجزيرة العربية كلها.

ومنذ تهيأت له الفرصة ، أشرك صغيره عبد العزيز في مواجهة هذه الخطط والأهداف وحاول أن يفهمه بأن تحقيق هذه وتلك هو المهمة التي خلقه الله من أجلها . " قال له : إنه لشرف كبير منحتك إياه العناية الالهية . لكن يجب أن تدرك الواجبات المترتبة على ذلك . ان صعوبات كثيرة ترتفع بينك وبين وحدة الجزيرة العربية . فعليك أن تعد نفسك لمواجهة الكثير من الحرمان ، والمعارك ، وأن تركز كل أفكارك على هذا الهدف الفريد .

لا تستسلم لليأس بسبب الخصومة . وعندما تبدو لك الطريق ضائعة في الظلمات ، تعلم الصبر ، حتى يلهمك الله ما يجب أن تفعله ! ".

ولما كان عبد الحرمن يحدس بما سيواجهه أبناؤه من المتاعب العديدة ، فقد بذل عناية خاصة في تربيتهم تربية عسكرية . فكان عبد العزيز يحسن استعمال السيف والبندقية ، والقفز فوق حصان منطلق في سيره دون سرج أو ركاب وهو بعد في الثامنة من عمره . ولكي يعلمه أبوه احتمال المتاعب أسلمه إلى رؤساء بعض القوافل وجعله يقوم بجولات طويلة في الصحراء . لقد أرغمه على القيام بانتظام يومياً قبل ساعتين من طلوع الفجر حتى في شهر ديسمبر (كانون الأول) حين تهب رياح جليدية حوله في الهضبات العالية . كما أجبره أيضاً على السير حافي القدمين ، في حرارة الصيف الشديدة ، فوق الصخور المتكلسة بشمس الظهيرة . ودفعه إلى تنمية قواه البدنية، بتوجيه التحديات

---

١) التي أمر بها الله عز وجل . " المعرب " .

إلى الآخرين من شبان المدينة . وأخيراً دربه على تنمية جلادته وصبره، بتعويده السيطرة على نفسه في صرامة شديدة . "كان يقول له : إن البدوي الحقيقي يجب أن يعرف كيف يقتصر على حفنة من التمر ، وجرعة من الماء وثلاث ساعات من النوم . فبهذه المبادىء استطاع أسلافنا أن يبنوا الأمبراطورية ".

كبر عبد العزيز بسرعة وأصبح صبياً رشيقاً فارع القوام . كان نادراً ما يرى في حالة استراحة . وكانت تمريناته المفضلة هي المصارعة والسير طويلاً على القدمين ينمّي بهما خفة السنور ومرونته.

أما صفة العنف عنده فلم يكن يشك فيها أحد أبداً ، فاذا عارضه ند من أنداده ، احمرت عيناه بالدم وأصبح فريسة لأزمات رهيبة من الغضب . لكن هذه الأزمات لا تلبث أن تزول بسرعة . فإذا هدأ غضبه استعاد سيطرته على نفسه واسترد دعته وبشاشته كما كان شأنه من قبل.

ومع ذلك فانه لم يكن يعرف شيئاً عن الحياة . ان أنظاره لم تكن تتجه إلى ما وراء المواقع الحصينة في المدينة . على أن ما كان يجري في أزقة الرياض المظلمة والمتعرجة كان كافياً لامتصاص اهتمامه كله.

ذلك أن الموت كان يجول في كل مكان . نعم ... لقد كان الخطر خفياً في كل مكان ولكنه مصدر تهديد جدي ... كان كامناً عند منعطف كل شارع ... ومتربصاً في ظل كل مشربية ، مختبئاً حتى في الممرات الصامتة من القصر . كل إنسان كان تحت رحمة الوشاية أ و الإنتقام . لقد كان الأمن كلمة مجهولة . كما لو أن عمليات الاجتياح والتخريب التي انصرف الأتراك إليها لم تكن كافية . هكذا كانت الحرب الأهلية قد أقامت في قلب المدينة .

ولم يكن عبد الرحمن الابن الأكبر في الأسرة . فقد كان له أخوان يكبرانه سناً ، محمد وعبد الله [١] ، يتنازعان السلطة ويقضيان وقتهما في انتزاعها الواحد من الآخر . وكما يكون الشأن دائماً ، افترق الناس فرقتين متنافستين ، وقد اجتمعت كل فرقة منهما حول أحد الأخوين . وكان هذان الفريقان يتبادلان الكراهية وينصرفان إلى التقاتل دون هوادة ولا رحمة.

---

١) الأخ الثالث سعد توفي مصاباً بالتيفوس .

هكذا كانت عاصمة نجد مسرحاً لاعتداءات وعمليات اختطاف دامية فانصار عبد الله وأنصار محمد يتذابحان خلالها بغضب جامح حتى عند سلم المسجد الجامع الكبير.

أما عبد الرحمن فقد وقف بعيداً عن هذا الصراع وعاش متنحياً عن الميدان مع أنصاره في جناح من القصر حيث يصرف وقته بخاصة في ممارسة العبادات الدينية . على أن حياته رغم ذلك لم تكن أقل تعرضاً لكابوس حقيقي لقد كان محاطاً بسرب من الجواسيس ، المكلفين من قبل أخويه بتسجيل كل حركاته وسكناته . وقد كان محمد وعبد الله يتهمانه بالتخطيط لقتلهما.

ولذلك فقد تم الاعتداء على عبد الرحمن أكثر من مرة حتى وهو في داخل جناحه من القصر واضطر للدفاع عن نفسه بالسلاح.

إن الجو المأساوي الذي خلقته هذه المنافسات العنيفة ، يرغم كل واحد منهم على البقاء في حالة إحتراس وتيقظ. وإن الأعصاب والعقول لم يكن لديها الوقت الذي يسمح لها بالاسترخاء والراحة . إن أقل حالة من الخدر الضعيف قد تورد صاحبها موارد التهلكة . لقد كانت مدرسة لتنمية القوة وفي وسعنا أن نتخيل النكهة الطيبة التي يجب أن يجدها فيها صبي قوي مقاتل في سن عبد العزيز.

وبالقدر الذي كانت فيه أخطار أخرى تنضم إلى هذه الأخطار الداخلية فان أخطاراً خارجية لم تكن أقل اثارة ولا مخافة .

هذا وتوجد إلى الشمال الغربي من الرياض مدينة تدعى حائل هي مركز تجمع لبدو شمر . نجح أحدهم، محمد بن رشيد ، رجل طموح حقود في تجميعهم تحت سلطانه . وقد كانت عداوة تقليدية تفصل بين قبائل شمر وقبائل نجد . فأراد ابن رشيد أن يستغل هذه العداوة والإفادة من الخلافات المنتشرة في الرياض ليسود نفسه على المدينة ، وليطرد منها السعوديين ، وليلحق نجداً بحائل ، " ويحطم كبرياء الوهابيين التي لا تطاق" . ومما يجعل ابن رشيد موضع خطر شديد ، انه كان يتمتع ، في تحقيق هذه العملية ، بالتأييد المطلق من قبل الأتراك. لقد كان هؤلاء يعتمدون عليه لسحق السعوديين فزودوه لهذا الغرض بالمؤونة والأسلحة.

هذا وقد خاض ابن رشيد معركته ربيع عام ١٨٩٠ م . أما قبائل نجد التي أضعفتها منازعاتها الداخلية فلم تستطع أن تواجهه بمقاومة جدية . فاحتل مدينة الرياض عنوة بعد معركة دامية ، يساعده ابن عمه عبيد الذي كان يقود جناح اليسار من جيشه . فقتل اخوا عبد الرحمن في أثناء المعركة : اما ابن رشيد فقد قتل عبد الله . بينما قتل محمد من قبل عبيد . هذا وقد عين المنتصر ، سالماً ، أحد أصدقائه ، حاكماً على المدينة مع توجيه الأمر إليه بتحكيم السيف في سكانها عند أول بادرة من بوادر الثورة.

في هذه الأثناء وافق ببادرة كريمة منه — لم يلبث أن ندم عليها فيما بعد — على السماح لعبد الرحمن وحاشيته على البقاء في الجناح من القصر الذي كانوا يشغلونه من قبل . والثابت أنه فعل ذلك اعتقاداً منه أنهم خاضعون وأنهم لا يشكلون عليه أي خطر .

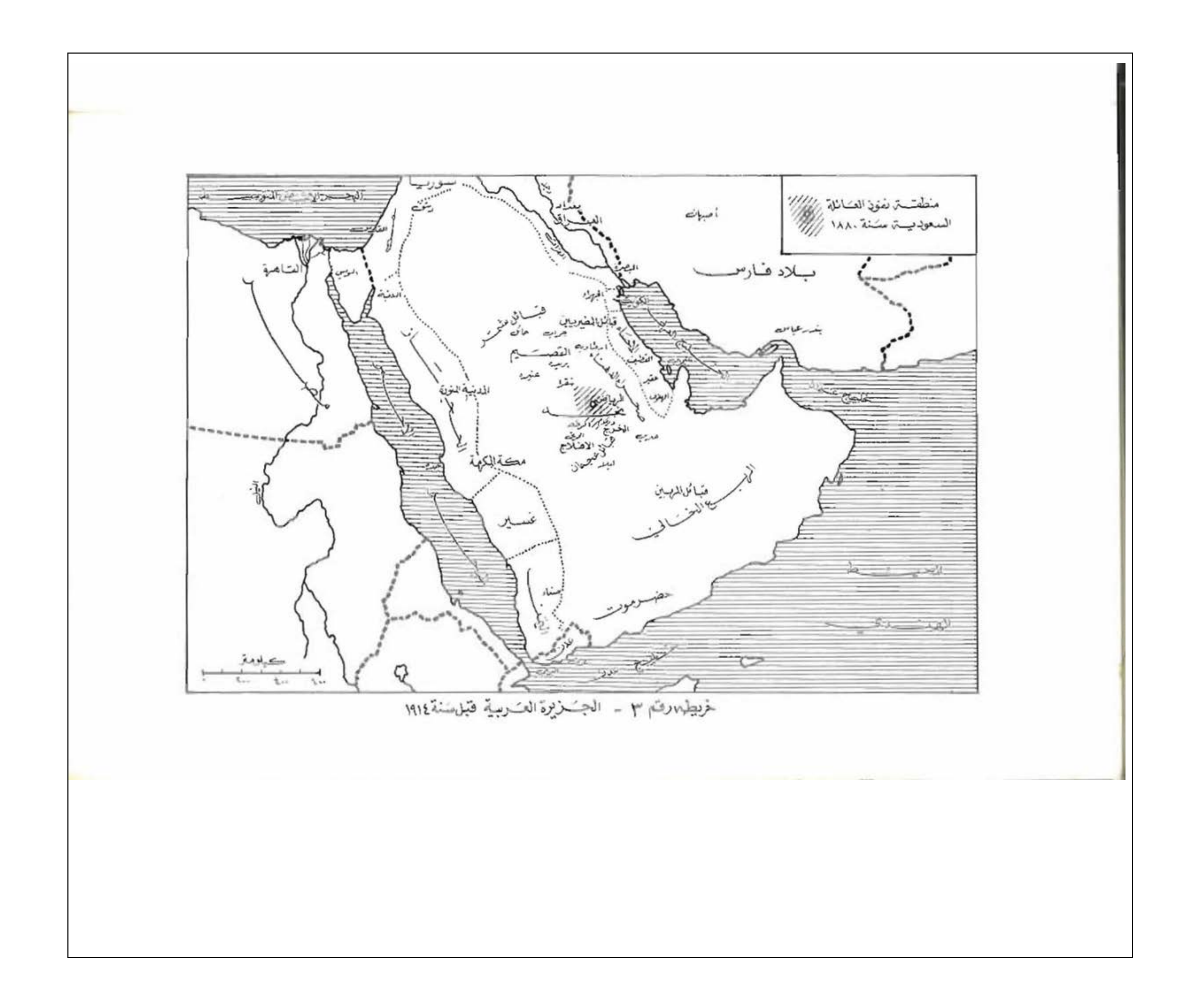
والجدير بالذكر أن انتصار ابن رشيد أحدث أثراً غير مرتقب : انه بقضائه على أخوي عبد الرحمن قد جعل من هذا الأخير زعيماً لأسرة السعوديين . على ان الإرث الذي انتهى إليه لم يكن ذا قيمة . انه لم تعد له أية سلطة في عاصمته الخاصة . كان يعيش غريباً في قصر آبائه . وهو لم يحتفظ بمكانه في الرياض إلا بتسامح المنتصر .

لقد كان من قبل هدفاً للتجسس م قبل أخويه ، أما الآن فقد وضع تحت رقابة عدوه.

لم يستطع عبد الرحمن أن يتحمل هذا الوضع المذل لمة طويلة .فقرر أن يزلزل نير ابن رشيد ويتخلص منه فأوقد نار ثورة بين السكان . لكن سالماً استطاع أن يسيطر عليها ويضع حداً لها دون صعوبة وشنق أربعين من الثوار فوق المآذن كإجراء تحذيري.

لم ييأس عبد الرحمن فعاد إلى مكائده التي حدس ابن رشيد بها وأصدر أمره إلى سالم بأن يضع حداً لتصرفات السعوديين وأن ينزل بالمدينة عقوبة تذهب مثلاً في الناس.

أما سالم فلم يكن ينتظر غير هذه الفرصة . ذلك أنه لا هوادة في حرب الصحراء . ان المغلوب على أمره يجب ألا يعتمد أبداً على رحمة المنتصر . لكن ابن رشيد أراد مرة أخرى أن يجنب عبد الرحمن خطر العقوبة : وقد أثبتت التجربة مرة أخرى أنه كان على خطأ أيضاً .



خريطة رقم ٣ - الجزيرة العربية قبل سنة ١٩١٤

ولما كان الوقت وقد رمضان فقد قرر سالم أن ينتظر نهاية الصيام . وفي مثل هذه الفترة جرت عادة العرب على تبادل زيارات المجاملة . " وهنا خطط للذهاب إلى القصر ، كما قال لنا أرمسترونغ ، وتقديم تحياته إلى عبد الرحمن عازماً على أن يسأل مضيفه أن يقدم إليه كل الذكور من أفراد الأسرة فإذا اجتمع شملهم في قاعة الاستقبال بادر حراسه إلى الإحاطة بهم وقتلهم عن آخرهم . لقد كانت الوسيلة الوحيدة للتخلص من عقدة الأفاعي " .

لكن عبد الرحمن علم بمقاصد عدوه في الوقت المناسب . ففي صباح الزيارة التي خطط لها ، أحضر إلى القصر بعض أنصاره المخلصين ، وشرح لهم حقيقة الموقف وسلحهم وطلب إليهم أن يكونوا على استعداد للتدخل عند أول إشارة .

وصل سالم نحو الظهر يرافقه حراسه . فاستقبله عبد الرحمن بالكثير من الاهتمام ، وشكره على حسن التفاته وتلطفه الذي أراد أن يعرب عنه وأدخله إلى قاعة الاستقبال . ولكي يوهم زائره بأن غير مرتاب في مقاصده ، كان قد جمع في القاعة عدداً كبيراً من أعضاء أسرته من بينهم الفتى عبد العزيز الذي كان قد بلغ الحادية عشرة من عمره . وقد كان هذا الأخير جالساً بين ساقي عبد عملاق أسود اللون.

هذا وقد تبادل عبد الرحمن وسالم ألف مجاملة وتبادلا التهاني على صحتهما الممتازة . كان يراقب أحدهما الآخر بنظرات خفية وهما يتناولان القهوة ، ويستعدان للوثوب أحدهما على الآخر . وبعد أن تحدث سالم بلهجة فكهة مداعبة ، التفت فجأة إلى عبد الرحمن ، وقال له : – سيدي ، أنا لا أرى هنا غير جزء من أسرتك . أفلا تستطيع احضار الآخرين ؟ فانه يسرني جداً أن أحييهم أيضاً ! " .

وفي الوقت نفسه أخرج عبد الرحمن خنجره من قرابه . وقد كانت تلك هي الإشارة التي ينتظرها أنصاره . فاقتحموا القاعة ، شاهرين لاسيوف وسيطروا على سالم وقيدوا قدميه ويديه ثم ألقوا به في بئر، بعد أن ذبحوا حراسه . لقد كانت مذبحة رهيبة . وكان عبد العزيز يتابع هذا المشهد وقد اتسعت عيناه من الذعر ، وهو جالس بين ساقي العبد الأسود الذي وقف أمامه ليحميه من الضربات الطائشة . فتلطخ جسده بالدماء ، ونقشت هذه الصورة عميقاً في ذاكرته .

قال عبد العزيز فيما بعد : " لقد تعلمت هنا أنني يجب أن أكون أول من يضرب حين أتعرض للتهديد ".

ولم تكد تنتشر أنباء المذبحة في المدينة حتى لجأ السكان كلهم إلى السلاح . فطردوا حامية سالم ، وحصنوا أبواب الرياض واستعدوا لمقاومة هجوم مضاد من قبل ابن رشيد . كما انضم أبناء القرى المجاورة إلى الثورة ...

وحين علم ابن رشيد بموت سالم ، أصيب بانتفاضة غضب شديد ، فجمع قواته كلها وغادر حائل متجهاً إلى الرياض ، وقد قرر إبادة عبد الرحمن وأسرته وجميع ذريته . " تلك الفئة المكروهة الملعونة التي لن تترك الجزيرة العربية في سلام ، ما دام أن واحداً من أفرادها باق في عداد الأحياء ".

أما عبد الرحمن فقد استنفر جميع أنصاره ووزع عليهم السلاح والمؤن التي خلفتها الحامية الرشيدية وراءها ثم انطلق لمواجهة المهاجمين . والتحم النجديون والشمريون لعدد كثير من الأسابيع في معارك دموية فوق السهول الممتدة في الجنوب الشرقي من عنيزة . وأخيراً كانت الغلبة لابن رشيد ، بسبب من تسلحه ، فاضطر عبد الرحن للانسحاب إلى ما وراء المواقع المحصنة في الرياض .

وجاء ابن رشيد يضرب حصاره حول المدينة . ثم قطع المحاربون من الشمريين أشجار النخيل ، ودمروا أقنية الري، وسمموا الآبار واجتاحوا الحدائق التي كانت تحيط بالمدينة .

وبدأت الأغذية والمياه تنقص عند الناس . ولما أيقن السكان بأنه قد قضي عليهم بالموت جوعاً وعطشاً ، بعد أن فرغت صهاريج البدلية من مياهها ، جاءوا يرجون إمام الوهابيين أن يستسلم . ورفض عبد الرحمن . اذ أن الاستسلام يعني تسليم الأسرة كلها للموت .

وقد هدده السكان بالتمرد عليه لارغامه على التسليم بما اقترحوه عليه ، أما أنصاره الذين كانوا يتخوفون من انتقام ابن رشيد ، فقد ابتعدوا عنه فريقاً بعد فريق ثم لم يبق إلى جانبه غير قوات ضئيلة جداً . ولما لم يرد زعيم السعوديين أن يقع حياً بين أيدي أعدائه قرر أن ينجو هارباً بنفسه . فجمع بعض الجمال وقرابة عشرين من أنصاره وأعد بسرعة بالغة ما يحتاج إليه من المؤونة وأشياء الرحلة ثم استأذن أصدقاءه بالسفر وغادرت القافلة الصغيرة مدينة الرياض في عتمة الليل ونجحت خفية في اجتياز خطوط الأعداء . وكان الفتى عبد العزيز وأخوه محمد يستقلان منها الجمل الأول .

وعندما دخل ابن رشيد عاصمة نجد على رأس فرسانه ، انطلق يخب بفرسه حتى القصر ، ثم صعد درجات السلم أربعاً أربعاً ، لكنه لم يجد فيه أحداً . فقد هرب السعوديون وفوتوا عليه فرصة الانتقام .

سار عبد الرحمن باتجاه الجنوب وسأل زعيم قبائل عجمان أن يلجئه وينزله ضيفاً عليه . فقبل — ذلك لأن قانون الصحراء يرغمه على الاستجابة لمثل هذا الطلب — لكن هذه القبائل كانت مشهورة بمكرها وخيانتها ، ولم يكن عبد الرحمن يجهل هذا منهم .

ولما كان راغباً في تقصير فترة إقامته في المنطقة التي يعاديه سكانها فقد قسم قافلته إلى قسمين ، فأرسل زوجته إلى البحرين في الخليج العربي ثم تابع طريقه إلى الجنوب مع فتاه عبد العزيز.

وقد أحسن صنعاً ، إذ أن زعيم العجمان كان يستعد لقطع رأسه وارساله إلى ابن رشيد ، على أمل أن يجتذب التفات المنتصر . لكن المفاجأة في رحلة عبد الرحمن أفسدت هذه الخطة وأحدثت في نفوس العجمان موجة من السخط الشديد . فأقسموا أن يقتلوه عند أول فرصة سانحة .

وبعد بضعة أيام من السير الحثيث ، توقف زعيم السعوديين عند واحة الحريق حيث كانت تنتظره مفاجأة جديدة. لم تكن قد مضت عليه أيام قليلة حين استقبل زائراً مجهولاً طلب إليه أن يحدثه على حده . لقد كان رسولاً من قبل الأترك أرسله إليه حاكم الأحساء . ذلك أن وقاحة ابن رشيد بدأت تقلق القادة من القسطنطينية . لقد بدأ زعيم الشمريين ، بعد أن أسكره النجاح الذي حققه ، يكشف عن سوء ما تطويه روح الاستقلال عنده وأخذ يتكلم عن عزمه على التخلص من وصايتهم . ولما كان الأتراك حريصين على سياسة التوازن التي يطبقونها في الجزيرة العربية ، فقد عرضوا على عبد الرحمن مساعدته على استعادة الرياض ، شرط أن يسمح باقامة حامية عثمانية فيها وأن يعترف رسمياً بتبعيته للسلطان.

والواقع أن عبد الرحمن لم يعد شيء عنده ، حتى السقف الذي يظل به أفراد أسرته . لكن افتراض موافقته على الركوع أمام أولئك الذين دمروا بلاده ، وأهلكوا أباه ، وقتلوا جده أمام مسجد أيا صوفيا ، كان يبدو له اهانة بالغة ، ولما لم يستطع السيطرة على غضبه ضرب الرسول التركي بالسوط على وجهه وهدده بالقتل ان هو جدد عروضه وكلفه بابلاغ سادته بأن شرفه ليس عرضة للبيع.

ورفع الرسول تقريراً إلى القسطنطينية بفشل مهمته وبالطريقة الزرية التي عومل بها . فأهدر السلطان دم عبد الرحمن واعتبره خارجاً على القانون وأدرج اسمه في اللائحة السوداء للرجال الذين نذروا للموت دون محاكمة ، بتهمة تهديد الأمن الداخلي للأمبراطورية .

هذا القرار ، كان في نفسه شكلياً محضاً ، ذلك لأن الحكومة التركية لم تكن في حال تسمح لها بتنفيذه . لكنه في الوقت نفسه يزيد من الأخطار التي تحيط بالسعوديين وتجعل حياتهم أشد اضطراباً وقلقاً . ان أي انسان ، منذ ذلك اليوم ، يعتدي على حياة عبد الرحمن ، حتى ولو كان اعتداؤه لاشباع ثأر شخصي ، يجعل منه منفذاً لقرار أمبراطوري دون أن يتعرض لأية عقوبة .

هكذا أقدم والد عبد العزيز في بادرة طائشة على تأليب غضب ابن رشيد ، وكراهية العجمان وعداوة حكومة القسطنطينية ضد شخصه عند أخطر منعطف من منعطفات حياته .

لقد كان ذلك كثيراً جداً لرجل وحيد دون سلاح ودون أنصار .

تابع عبد الرحمن وعبد العزيز وموكبهما الصغير سيرهم نحو الجنوب بحثاً عن ملجأ لهم في الصحراء الصخرية الكبرى من منطقة الربع الخالي مطاردين من كل مكان ، ومحاطين بالجواسيس والأعداء دون أن يكون لهم من يسألونه توفير ملجأ لهم . وبعد أن توقفوا عند حقل النخيل في جبرين ، كانوا قد تركوا وراءهم كل أثر من آثار المدينة ونفذوا إلى تلك المنطقة اللاهبة التي يسميها البدو " القطاع الخالي من الجزيرة العربية " .

هذا الاقليم ، حيث لا تجرؤ أية قافلة على اجتيازه والتعرض له ليس شيئاً من الصحراء . انه ركام لا شكل له من الحجارة والصخور أحدثه زلزال أرضي رهيب منذ ما قبل التاريخ ، بل هو مملكة من الجمادات الخالصة حيث لا يوجد ماء ولا عشب أخضر يغطي وجه الأرض المخدد . وإذا كان فيه ماء فهو مشبع بالمانيزيا التي لا يعود معها صالحاً للشرب.

في هذه الهضبة المتوقدة الحامية ، ذات القحولة التامة ، يتربص بالمسافر دون هوادة كل من العطش وضربات الشمس المحرقة والجنون والموت .

وبالرغم من أن هذه المنطقة هي أقل المناطق في العالم صلاحاً للعيش ، فهي مأهولة بشعب من أكثر شعوب الجزيرة العربية بدائية وتخلفاً : انهم المريون . أولئك الذين طردوا من اليمن في أزمان ضائعة من التاريخ القديم ، شأن كل القبائل الأخرى في شبه الجزيرة . ولما لم يكن في وسعهم أن يحتفظوا بمكانتهم في صلب " التيار البشري " المستمر فقد طردوا وأبعدوا نحو الجنوب . فاضطروا للإكتفاء بتلك المساحات الخالية التي لا ينافسهم أحد عليها . وحيث يأتي كل شيء بهم للتعجيل بانحلالهم بسبب من ضعفهم الشديد الذى لم يمكنهم من فرض أنفسهم في المعركة من أجل الحصول على مواطن الماء . فطردوا وأبعدوا من قبل خصوم أكثر نشاطاً منهم ونزل بهم عار هزائم لا تعوض.

كان المريون بقاماتهم الطويلة الناحلة وشعرهم الأشعث ووجوهم الشاحبة وشبههم بالحيوان أكثر منهم بالإنسان ، نماذج بشرية حزينة . أما غذاؤهم فهو كاف للحيلولة دون الموت جوعاً . بضع ثمرات ، وعظايات زاحفة مشوية على الصخور الحامية ، وجرذان ، وبيض النعامات الذي قد يعثرون عليه في الرمال ، ثم غزال شارد بين وقت وآخر . فاذ عضهم الجوع بنابه قاموا بغارات بعيدة جداً ، يقطعون فيها مسافات قد تبلغ ٤٠٠ كيلو متر في مسيرة واحدة متصلة للاستيلاء على قطعان لقبائل تكون أسعد منهم حظاً وتعيش عند تخوم تلك المنطقة الملعونة.

عند هؤلاء الناس انطلق عبد الرحمن وولده ومن معهما يبحثون عن ملجأ لهم وهم على ثقة من أن أعدادهم لن يلحقوا بهم فيه أبداً . " أما عبد العزيز فقد شارك في بعض غارات المريين للحفا على حياته وأصبح بالاتصال بهم ، بدوياً بكل معنى الكلمة .

لقد منحته مدينة الرياض القوة وخفة الحركة . أما جولاته في الصحراء فقد مكنته من السيطرة على نفسه وأكسبته الجلادة والصبر . وتعلم أن يغتذي بحفنة من التمر وقليل من اللبن المخيض ، موجود في قربة من جلد المعزى . ان هذا الطفل القوي العضل قد أصبح فتى شديد التقشف والزهد وسمره تقلب الرياح. فاكتسب ، خلال تلك الفترة ، قدرة على مقاومة كل محنة مما جعل أباه يشبهه بحزام من الجلد القوي المتين [١] ".

---

١) هـ . س . أرمسترونغ ، سيد الجزيرة العربية ، ص : ٢٧.

هذه الحياة كانت بالنسبة للفتى عبد العزيز تعذيباً حقيقياً . وكان أبوه يكرر على مسمعه ، منذ طفولته الأولى ، أنه مدعو للسيطرة يوماً على الجزيرة العربية كلها . لكنه كان يلقي نظرة من حوله فلا يجد شيئاً — لا شيء غير منفى لا سقف يستظل به ولا بيت يأويه ، لا أصدقاء ، ولا سلاح ، اللهم غير أنه مرغم على الإختباء هرباً من أعدائه.

وكان عبد العزيز يحس بالكراهية العميقة لهؤلاء المريين رغم أنه شارك في غاراتهم . كانوا في أجسادهم من القذارة حتى القرف أما في أخلاقهم فلم يكونوا يساوون شيئاً أبداً . وكان يسخط هذا الفتى الوهابي الذي تربى في ظل التعاليم المتشددة " للعلماء " أن يرى هؤلاء الناس في مثل هذه الحالة من الانحلال ، ورقة الدين ، وفي الجملة أسوأ كثيراً من الكفرة . فالمريون لم يكونوا يحترمون أية شريعة ولا يحافظون على عهودهم بل لم يكونوا على أية درجة من درجات الشرف . انهم لم يخضعوا أبداً لاعتبارات المروءة وقيمها . فهم ، باختصار ، حثالة الجزيرة العربية .

وقد يحدث له في الغالب أن يفارقهم وينسحب إلى الصحراء للصلاة والتأمل . أو ليس أن أفضل أبناء الإسلام قد استلهموا في العزلة قرناً بعد قرن أرفع إلهاماتهم ؟ هكذا كان يغوص في أعماق نفسه هرباً من آلامه في وسط تلك المفازة التي تفترسها النيران . لقد قيل له دائماً بأنه ولد للقيام بأشياء عظيمة . والحقيقة أن هذه الحياة المنبوذة في وسط رفاق لا تكاد تكون لهم صورة بشرية هي شيء عظيم !

هل خسر الهداية بحيث كتب عليه الهلاك الأبدي ؟ هل كان من أولئك الذين ختم الله على آذانهم فلا يسمعون أوامره وتعاليمه ؟ كان عبد العزيز في الساعة التي تغيب فيها الشمس وتشيع الحمرة بذلك الضياء العملاق فوق البساط الجامد من الرمال ، يركع فوق صخرة ويفرغ عقله من كل هاجس ويضرع إلى الله أن يسمعه صوته ، أن يزوده باشارة ، أن يثبت له أخيراً أنه لا يبوء باللعنة . كان يردد في غير تعب ولا ملل دعاء " التلبية " متوجهاً إلى القبلة .

إلهي ، ها أنا أجيب دعوتك.

لك الحمد والنعمة والقوة .

أنت ربي لا شريك لك.

وبفضل ترداده لأدعيته الضارعة المتبتلة كان يحس بحماسة غريبة تنمو في نفسه . ان شيئاً ما في أعماق حزنه الشديد كان يحضه على عدم اليأس . أو لم يكن شاباً قوياً يفور بالحياة؟

وفي مساء يوم من الأيام وقد كان مستغرقاً في الصلاة ، أحس فجأة وكأنه قد انتزع من ذات نفسه. لقد رأى في وهج المغيب صوراً هائلة ترتفع عند الأفق . لقد رأى ، في صميم انبهاره ، سعوداً الكبير وابن عبد الوهاب ... وشاهد خلفهما ، صورة أكبر لكل من محمد وعمر، تتبعهما فيالق لا تقهر من الرجال، فقد اعتموا بعمامات بيضاء وأشهروا سيوفهم الملتمعة بالضياء ...

آه ! ليت انه يكون مثل هؤلاء ، حملة راية الإيمان ، وقادة الشعوب والمؤسسين للممالك ! أن يمسك بضمة واحدة قوية ، تلك القبائل التي يمزق بعضها بعضاً وأن يصنع معها وحدة الجزيرة العربية ... نعم، نعم، لقد كان الفتى عبد العزيز يشعر بالموهبة ويحس بالقدرة على تحقيق ذلك ، لو أن الله يمنحه الثقة ويجعل منه رجلاً ! أنه بنعمة من الله سينتصر بالسلاح والكلمة ، فيرفع بيده مرة واحدة كلاً من السيف والشريعة . ولكي يصنع الوحدة العربية يجمع بين يديه السلطانين الأكبرين : السلطان السياسي والسلطان الديني ويقتفي خطوات النبي من بعده ...

لكن فترات الحماسة هذه لا يمكن أن تدوم طويلاً . لقد كانت أحلام فتى في الثالثة عشرة من عمره، أضعفه الحرمان والصيام وآثار الحمى في جسده . وبسرعة يستعيد الحاضر سلطانه ويعيد الفتى إلى الضرورات اليومية القاسية.

وجاء الخريف . وبدأت رياح الرمال ، رياح الرمال الرهيبة ، تجتاح الصحراء وتدفن كل الأشياء تحت كفن من الغبار . وأخذت أشواك الصحراء تذبل حول مواطن الماء ثم لم تعد جذور نبات الحلفاء المنسحقة تصلح للطعام . واختفت الطرائد ونفدت المؤن ثم لا تمضي بضعة أسابيع حتى تبلغ رحلتها نهايتها. ولا يبقى غير الجوع والعطش والحمى تعمل عملها هناك.

كان عبد الرحمن على وشك أن يستسلم لليأس . لقد عجز الرجال عن تحطيم ارادته. لكن الصحراء أقوى من الرجال : ثم انتهت إلى الانتصار . هل كتب على السعوديين أن يقفوا عند هذه المرحلة كالنهر الجاف الذي يضيع في الرمال ؟ هل سيعثر بعضهم في الربيع التالي على هياكلهم العظمية مفرقة ، قد بيضتها حرارة الشمس ؟ لا أحد يعلم أبداً أي حلم كان لهم ...

وفي مساء ، جمع عبد الرحمن تحت خيمته ، وقد بلغ منه الجهد مبلغه ، كلاً من ولده والرجال الثلاثة من الذين بقوا معهما .

- " قال لهم بصوت وقور مهيب : إنّ واجبي يقضي علي أن أحدثكم بكل صراحة . إن الله ، في حكمته وتدبيره ، قد قضى ، فيما يبدو ، أن نموت هنا . أنه ليس من مهمتنا أن نستبين أغراضه ، أو أن نتمرد عليه . كل ما يفعله هو خير ما يفعل ، ويجب أن نحمده عليه . اننا سنتلو معاً دعاء الأموات ".
- " فأجاب عبد العزيز ، كلا ! نحن لن نموت هنا ! ".
- " قال : ما الذي يجعلك على مثل هذا اليقين ؟ ".
- " قال : عندما أصبح رجلاً سأحكم الجزيرة العربية ! ".

ونظر عبد الرحمن منبهراً إلى ولده نظرة طويلة . ففوجىء بأن اكتشف في نظراته بريقاً لم يلحظه من قبل أبداً .

وفي صباح اليوم التالي – بعد ليلة قضيت في الصلاة – شاهد عبد الرحمن في الأفق كوكبة من الفرسان ، جاءت تبحث عنه من قبل أمير الكويت . لقد أرسل هذا الأخير إلى أبي عبد العزيز يدعوه وأسرته للاقامة في مدينته . عرض عليهم المأوى ومستوى من العيش يتفق مع منزلتهم وأن يزودهم بكل ما يحتاجون إليه .

هكذا نجا السعوديون في الثانية الأخيرة ! لكن ما عساها تكون بواعث هذا العرض الغريب ؟

بينما كان عبد الرحمن يتيه في الربع الخالي ، نقض ابن رشيد يمن الولاء لدولة القسطنطينية ، وقد ظن أنه أصبح السيد غير المدافع للجزيرة العربية الوسطى . وبعد التفكر في هذا الأمر أدرك وزراء عبد الحميد الخطأ الكبير الذي وقعوا فيه حين سمحوا بسحق السعوديين سحقاً تاماً ، إذ لم يعد شيء يحول دون امتداد الأطماح عند رشيد .

وفي ضوء هذا الموقف قرروا قلب سياستهم ومساعدة عبد الرحمن على استعادة أملاكه بحيث يضعونه في صميم النزاع مع خصمه المنافس . أما قرار الإعدام الذي أصدروه فقد تم إلغاؤه. لكنهم لما كانوا يعرفون كبرياءه النفور ، وغير راغبين في أن يتعرضوا لرفض جديد من قبله ، فقد قرروا التصرف معه بواسطة أشخاص ثالثين.

كان أمير الكويت ، محمد ، رجل الأتراك المخلص . ومع ذلك فقد كان عربياً . ولم يكن عند عبد الرحمن أي مبرر لرفض العون من قبله . وعلى ذلك فان سلطات استانبول توجهت بالرجاء إلى محمد بعرض ضيافته على عبد الرحمن وأفراد أسرته ، على أن يعوض الباب العالي عليه كل النفقات المترتبة على هذه الضيافة . ولا نحتاج إلى القول بأن محمداً كان هو نفسه يخطط للإفادة من هذه العملية.

وطبيعي أن يجهل عبد الرحمن كل هذه التدابير . فقبل عرض الأمير بحرارة وجاء يقيم في الكويت مع أفراد عائلته (١٨٩٥) . أما الكويت — فلم تعد تلك الأزقة الضيقة المتعرجة في الرياض ، ولا تلك الأمداد الواسعة الكئيبة في الربع الخالي .

لقد كانت مرفأ هاماً يقوم غير بعيد من مصب الفرات ، " مارسيليا الشرق "كما كان يقول في شيء من الصلف البحارة المساحلون في الخليج العربي .

وكان شعب الكويت حسن الضيافة ، مؤلفاً من مزيج من الناس . وكانت شوارعها وأرصفتها تحفل بحيوية مثيرة . يتلاقى فيها تجار قادمون من طهران وبومباي ، فرس وهندوس ، وسوريون من مدينتي حلب ودمشق وأرمن وأتراك ويهود وأوربيون . كانت القوافل تخرج من الكويت في كل الاتجاهات : نحو فارس ، نحو الجزيرة العربية الوسطى ، نحو مصر ، ونحو سوريا .

التجارة فيها مزدهرة وكذلك التجسس . وكان لأكثر الدول الكبيرة ممثلون — قناصل وعملاء سريون — تحت ستار أنهم تجار أو مبشرون أو علماء آثار.

في وسط هذه الحركة النشيطة ، والجديدة بالنسبة إليه ، عاش عبد العزيز عيشة الفتيان العرب في مثل سنه . كان يتسكع فوق الأرصفة ، يشارك في محادثات البحارة والتجار والمهربين الذين كانوا يقدمون من البريم وعدن ، أو من سيلان . كان يستمع بتهم شديد لأقاصيص المسافرين ويلتقط عبر ذلك نتفاً من الأنباء الواردة من بغداد ودمشق أو من القسطنطينية . كان يحس وكأنه موجود في مركز الكون . لكن هذا كله لم يكن ينسيه هدفه الأساسي : الذي هو غزو الجزيرة العربية . أوليس أن الله قد أبقى عليه للقيام بهذا العمل ؟ إذ كيف يمكن أن يفسر تدخل محمد بغير هذا التفسير ؟

وفي مقاهي المرفأ عقد عبد العزيز صلات مع جماعة من المراهقين الذين كانوا ينتسبون إلى " الشبيبة الذهبية " من المدينة .

كان هؤلاء يعملون على إبهاره بوصفهم لثروات المخازن والمستودعات التي سيورثهم إياها آباؤهم . وقد انتهى هذا الغرور إلى اغاظته واسخاطه . فأعلن إليهم في شيء من المغالاة والتشدق ، رغبة منه في التأثير عليهم ، بأنه هو أيضاً

لم يكن أول قادم ، بل هو ابن أخ لسعود الكبير ، لكن اسمه سيكشف يوماً من الأيام اسم جده . فابتسم الفتيان ابتسامة الأشفاق عليه . فأغضبه ذلك وراح يلقي عليهم موعظة حافلة بالشواهد القرآنية ، ليؤكد لهم عزمه على صنع وحدة الجزيرة العربية مرة أخرى في يوم من الأيام وفره للسلطان الوهابي . وفجأة انفجر رفاقه ضاحكين . فاضطرب غاضباً واتهمهم بالكفر وتوعدهم بالذهاب إلى جهنم ، إذا لم يقلعوا عن بطالتهم وأرتيابهم وعاداتهم المنحلة . أما الفتيان فقد هزوا أكتافهم وعزلوه عنهم . والثابت أن هؤلاء الوهابيين لا يعاشرون ولا يؤلفون . كان منهم المتعصبون ، وكان منهم المولعون بالكذب . أما عبد العزيز فكان من الفريقين في وقت معاً .

وقرر ولد عبد الرحمن أن يلقنهم درساً يذكرونه في قابل الأيام وأن يظهر لهؤلاء الفاسدين المشاغبين ما هو جدير بفعله . كان قد التقى قبل أيام قليلة رعاة قادمين من بلاد نجد مع إحدى القوافل . وبسؤاله لهم عن أخبار البلاد ، أسروا إليه في سرية تامة أن سكان الرياض يئنون تحت مقارع ابن رشيد وأنهم لا ينتظرون غير عودة السعوديين لاشعال نار الثورة لمصلحتهم .

هكذا أقدم عبد العزيز ، في عصبية عجلة ، على اقتراض جمل يملكه والد واحد من أصحابه ، ثم انطلق به وحيداً لفتح مملكة له . والمؤسف ! أن الأمور لم تمض أبداً كما كان يأمل أن تكون . ان أية قبيلة لم تتحرك عند اقترابه منها إما لأن الذين حملوا إليه الأنباء كانوا متفائلين جداً ، وإما أنهم استغلوا سرعة تصديقه فخدعوه عن الواقع . كان جمله هرماً قد أكله الجرب . ولذلك فقد بدأ يعرج بعد ثلاثة أيام ، والتوت إحدى قوائمه، فجثم فوق الرمال ورفض أن يتابع سيره. وعلى ذلك فأن عبد العزيز قد اضطر إلى اجتياز طريق العودة سيراً على القدمين وقد انتابته سورة من البكاء غيظاً وغضباً . وبعد أن تاه في الصحراء يوماً كاملاً التقى قافلة أخذته معها، ودخل إلى الكويت ممتطياً ظهر حمار مثقل بالأمتعة. والحقيقة أن هذا كان جهازاً جميلاً بالنسبة لصبي كتب له أن يغزو الجزيرة العربية ! كل الكويت عرفت ما جرى له فجعلت منه هزواً وسخرية.

ثم حملت أخبار هذا الحادث إلى القسطنطينية ، حيث أثارت مثل ذلك من السخرية والهزء أيضاً . وقد أصابت رصيد السعوديين بضربة شديدة . لقد قيل في السراي : إذا كان هذا هو كل ما يستطيعون فعله فهم لا يستحقون المبالغ التي يجري انفاقها عليهم.

وعاد عبد العزيز إلى تسكعه في الأزقة ومقاهي الميناء . لكنه لم يجد فيها من الجاذبية ما كان يجده من قبل . انه لم يعد يجد نشوه في النظر إلى السفن المتتابعة في الفرضة ، أو في الاستماع إلى البحارة يقصون عليه حكاية مغامراتهم. لقد كان في الجو شيء ثقيل عفن يثير فيه الحنين إلى الصحراء وإلى جفافها الشرس العنيف. وعندما تكمن العواصف فوق الخليج العربي ، تغرق المدينة في رطوبة ثقيلة وترتفع من المجارير وأحواض قلفطة السفن رائحة كريهة عفنة . كما أن بطالته قد بدأت تثقل عليه . كان يحس بغمرة من النشاط والقوة في جسده ومن الحماسة القتالية ويتألم من رؤية هذه القوى دون عمل تقوم به . كان يحس وكأنه بلغ أعماق طريق غير نافذ .

وفي الفترة ذاتها ، تعقد وضع عبد الرحمن . فقد وجدت الحكومة نفسها أمام صعوبات بالغة الخطورة ، بحيث أنها لم تعد تجد أية مصلحة في صراعات العشائر التي كانت تتعاقب في وسط الجزيرة العربية . لقد أعادت دولة اليونان قضية أقريطش إلى سطح الأحداث . وكشرت الدول الكبيرة عن أنيابها . وكانت الخزانة العثمانية خالية الوفاض . فمن كان عساه يفكر ، في القسطنطينية في النزاع القائم بين ابن رشيد والسعوديين؟ وهنا قطع التعويض الذي كان قد وعد به الأمير محمد عن النفقات المفروضة للأسرة السعودية. وفجأة امتنع الأمير عن تزويد عبد الرحمن بما كان يحتاج إليه من المؤونة ولم يعد يهتم بهم . فشاعت حالة من القلق في الدار . وتم سريعاً انفاق المدخرات الموجودة . وكان عبد العزيز قد تزوج عام ١٨٩٥ — في الخامسة عشرة من عمره من الأميرة جوهرة ، ابنة أخ حفيدة لعبد الوهاب . وفي عام ١٨٩٩ ولدت له ابنه الأول تركي ، وفي العام التالي رزق منها ولداً آخر هو خالد . كل هذا كان يضاعف الأعباء التي تثقل على عبد الرحمن ذلك أن جوهرة — رغم نسبها العظيم —كانت فقيرة شأن زوجها الفتى . فما العمل ؟ كان المستقبل يبدو قائماً . فهل أن مصير السعوديين سيتمرغ في طين مرفأ صغير في الخليج العربية بعد أن نجا من التدمير فوق الرمال.

كان عبد العزيز يتساءل عما إذا كان عليه أن يعمل في رصيف الميناء ، للتخفيف من أعباء الميزانية العائلية ، حين طرأ حادث مسرحي ثان ، هو أشد اثارة من ظهور فرسان محمد في صحراء الربع الخالي.

كان لمحمد ، أمير الكويت ، أخ يدعى مبارك ، يعيش معه في تنافر مستمر . ذلك أن مباركاً قد بدد نصيبه من الإرث الأبوي . ثم غادر الكويت إلى بومباي بعد نزاع جرى بينه وبين محمد ، حيث قضى عدداً من السنين يعقد الصفقات ويقوم بأعمال تجارية . ويبدو أن أعماله وصفقاته قد كانت مثمرة . فأين كان يجد هذه الأموال ؟ الواقع أن أحداً لم يكن يعرف ذلك، لكن شيئاً واحداً ثابت ويقيني : هو أنه كان يجد هذه الأموال في كل وقت .

فإذا سئل عن مصدر هذه الثروات إقتصر على خفض ناظريه وأجاب بكل تواضع : " ان الله كبير وكرمه لا حدود له!".

وعاد مبارك إلى الكويت عام ١٨٩٧ ، لكن محمداً الذي لم يكف عن كراهيته كان يرفض استقباله في القصر الذي يقيم فيه وينزل به كل أنواع الازعاج والتنكيد . وقد احتمل مبارك المسكين كل هذه التصرفات السيئة بصبر جميل أثار الاعجاب عند الجميع .

كان مبارك بفكره الثاقب ذي الجوانب المتعددة ، لا يعرف ما يصنع بأوقات الفراغ عنده ، فكان يقوم غالباً بزيارة عبد الرحمن ويسأله طويلاً في قضايا الجزيرة العربية الوسطى . ومع ذلك فان عبد الرحمن لم يتعاطف معه أبداً . فما كان يقال له عنه يصدم تزمته الوهابي يضاف إلى ذلك أنه كان يتوجس خيفة من أن تسبب له تلك الزيارات المتكررة سخط الأمير محمد .

لكن موقف عبد العزيز كان مختلفاً عن ذلك تماماً . لقد كان يجد في مبارك ذكاء وتسلية وثراء بفضل التجارب المتراكمة التي تمرس بها في أثناء رحلاته . وكان مبارك يحسن رواية القصص والحكايات فكان عبد العزيز ، المتعطش للمعرفة يستمع إليه يتكلم خلال ساعات بحماسة شديدة.

أما مبارك الذي أرضاه أن يكون له مثل هذا المستمع الواعي المدرك فلم يلبث طويلاً حتى استبان الصفات الاستثنائية لابن عبد الرحمن . لقد فتن في وقت معاً بمزاجه التأملي وبتلك الحماسة المشعة التي تصدر عن شخصه . " كان يقول في نفسه : ان لهذا الصبي خامة جيدة ، ومن الممكن أن يجعل منه شيء كبير ".

وكان عبد العزيز قد بلغ الثامنة عشرة من عمره . لم يتردد على المدرسة منذ هجرته من الرياض . وبذلك كان متخلفاً عن أترابه من الفتيان . لكن الحياة البالغة الصعوبة التي قضاها منذ طفولته قد سقت شخصيته وأنضجت

أحكامه . وقد عرض مبارك على عبد الرحمن أن يتولى تعويض الفتى عما فقده من الأيام . وبعد أن وافق عبد الرحمن أحضره إلى داره ليكمل تعليمه . فعلمه التاريخ والجغرافيا والحساب وقليلاً من اللغة الانكليزية . ثم عرض عليه بعد ذلك أن يعينه سكرتيراً له .

كان مبارك يحيا حياة حافلة بالنشاط في ظل بطالة ظاهرية . فبدأ باحاطة عبد العزيز علماً ببعض أنشطته ، ثم جعله يحضر مقابلاته الخاصة.

هكذا تعلم ولد عبد الرحمن ، في دار مبارك ، جملة من الأشياء الجديدة ، أساليب في العمل والتفكير كانت مجهولة أو ممنوعة في الرياض . لقد ا تصل برجال من كل المهن ومن كل المصادر والاتجاهات : تجار ومضاربين ومستكشفين ، وأصحاب مصارف وموظفين ، ورجال سياسة ومغامرين ، وأيضاً عملاء للدول الأجنبية . فرنسيين ، وانجليز وألمان وروس . لقد أدهشه أن يكتشف أهمية العلاقات التي يعقدها مبارك وسعتها . فقد كان يبدو ذا صداقات في كل عواصم العالم.

ولم يكن عبثاً أن مباركاً قد خضع كل هذا الزمن الطويل دون مقاومة تذكر للتصرفات المذلة التي كان يواجهه بها أخوه : كان ينتظر ساعته . وفي نهاية عام ١٨٩٩ قدر أن الوقت الملائم للانتقام قد جاء . وفي يوم من الأيام أهان محمد أخاه على ملأ من الناس ، وكانت الإهانة أشد فظاظة عن العادة . فأقدم مبارك بحجة الانتقام لهذه الإهانة ، على التسلل ليلاً إلى القصر مع عبدين له ، وقتل أخاه في سريره وأعلن نفسه أميراً على الكويت . أما الناس فقد استقبلوا هذا الانقلاب بلا مبالاة تامة . ذلك أن محمداً كان قد أثقلهم بالضرائب . وقد أملوا أن يكون مبارك أكثر سخاء من سابقه .

هذه الثورة في القصر ، غيرت وضع السعوديين بين ليلة وضحاها لقد كان محمد يتعهدهم بالنفقة بأمر من القسطنطينية . أما مبارك فقد وفر لهم الحماية بعطف شخصي . وهي لم تكن موجهة في الدرجة الأولى لعبد الرحمن بل لولده عبد العزيز . الذي تأثر به معجباً بشخصيته : ذلك أنه كان مؤمناً بمستقبله.

ولم يكد الأمر يستتب للأمير الجديد في قصر الحكم ، حتى أجرى على السعوديين مخصصاتهم وأحضر عبد العزيز إلى القصر ليكمل تربيته . فبينما يعقد مبارك الاجتماعات ويستقبل زواره ، كان الفتى يبقى جالساً عند زاوية من

القاعة ، متلفعاً بعباءته ، يقلب صامتاً حبات الكهرمان في سبحته ، متظاهراً بعدم الاهتمام بالأحاديث التي كانت تجري أمامه ، لكنه في الواقع ، كان شديد التنبه لكل ما يرى ويسمع ، مسجلاً في ذاكرته كل حركة ، بل كل نبرة محققاً في كل يوم مزيداً من المعرفة بكل الدوافع المعقدة للسياسة المحلية، وبتلك ، الأشد تعقيداً أيضاً، للمسائل الدولية.

لكن رد الفعل عند الأتراك لم يكن طويلاً . لقد كان محمد ممثلهم في الكويت . ومبارك هو الذي قتله . وأقام نفسه على كرسي الأمارة ، دون أن يلتمس موافقتهم.

وإذاً فليس من الممكن أن يبقى مثل هذا الجرم دون عقوبة . من أجل ذلك كان الأتراك في حاجة إلى مساعد ، إذ أنهم لم يكونوا يملكون قوات جاهزة لإرسالها إلى الكويت . هكذا دققوا تحت ضغط الضرورة التي أزعجتهم ، فتوجهوا مرة أخرى نحو ابن رشيد ، وبينوا له أن من يملك نجداً والرياض يجب أن يملك الكويت ومنفذاً إلى البحر . وتعهدوا بالتنازل له عن هذه الميناء ، فيما إذا طرد مباركاً وأخرجه منها واعترف بسلطانهم من جديد .

وكان ابن رشيد موافقاً ما دام أن العرض يدور حول توسيع منطقة نفوذه . فأقدم على جميع قواته كلها . بعد أن استرد مساندة الأتراك له ، وسار إلى الكويت ، ليخرج منها " الرجل الغاصب " .

وعندما علم مبارك أن ابن رشيد قد تحرك نحوه ، جند عشرة آلاف متطوع ، وسار لالتقائه بجيش مؤلف من رجال ينتسبون إلى أكثر القبائل تنوعاً . لقد كان يستوعب رجالاً من قبائل المنتفك والعجمان ، وكثيراً من المحاربين القادمين فرادى من بلاد نجد على أمل أن يحطموا وصاية الرشيديين.

وقد جعل مبارك القسم الأكبر من قواته تحت قيادة عبد الرحمن ووضع عبد العزيز على رأس وحدة عسكرية مستقلة ، مكلفة بالقيام بعملية إلهاء . فمضى عبد العزيز نحو الرياض ماراً بالجنوب وأحدث موجة تمرد بين قبائل نجد، من أجل أن يزرع الفوضى والاضطراب في الصفوف الخلفية لقوات العدو . ثم يتصل الرتلان العسكريان قريباً من العاصمة . فاذا تحررت بلاد نجد من حامياتها الرشيدية . استعاد السعوديون كل سلطاتهم . كان أمير الكويت شديد التفاؤل وكان يعلن ثقته المطلقة في النصر .

والواقع أن عبد العزيز قد ابتهج لفكرة ممارسته قيادته الأولى وإظهار ما هو جديد بفعله كما كان يسعده أن يمحو الذكرى المؤلمة لمغامرته السابقة ، وأن يحقق مهمته بنجاح كبير . وهكذا ثارت كل القبائل وزودته بالمتطوعين وقد فتنتها حماسته وحميا شبابه . وعندم وصل إلى التخوم الجنوبية لمدينة الرياض ، كان قد أصبح على رأس عدد غير قليل من المحاربين .

وفجأة بلغته أنباء منذرة من الشمال ، حيث كانت تجري المعركة الأساسية . كان مبارك قد التقى قوات ابن رشيد قريباً من قرية صريف فبادر مباشرة إلى الهجوم . وفي وسط المعركة تخلف عنه حلفاؤه فهرب بنو المنتفك ، أما العجمان ، فانهم على عادتهم من المكر والخداع انتقلوا فجأة إلى معسكر عدوه . وهزم مبارك، وحال دون دمار جيشه ظهور عاصفة في المنطقة . لقد أصبحت قواته في حالة هزيمة تامة فتراجعت إلى الكويت .

ومنذ علمت قوات عبد العزيز أنباء هذه الكارثة انفضت بدورها عنه . وأسرعت القبائل الثائرة عائدة إلى قراها خوفاً من إجراءات ابن رشيد الإنتقامية . ثم لم يعد حول عبد العزيز وقد ترك من كل جانب ، غير حفنة من الرجال المخلصين . فعجّل هو أيضاً بالعودة إلى الكويت حيث وجد مباركاً ووالده منهمكين في تنظيم المقاومة بعصبية ظاهرة.

كان ابن رشيد يتقدم على مراحل صغيرة ، محدثاً الحرائق في القرى والواحات من كل مكان . أما في البريدة التي انضمت إلى السعوديين فقد شنق فوق المنائر المائة والثمانين من وجهاء المدينة وفرض على الناس غرامة ثقيلة . ثم اتجه نحو الكويت . وسحق آخر قوات مبارك في الجهراء ، على بعد كيلومترات قليلة من الشاطىء ، واستعد للاستيلاء عنوة على الميناء (أغسطس " آب " ١٩٠١).

لم يعد مبارك يملك جيشاً ولا سلاحاً . ولم تكن مدينته محصنة . أما حلفاؤه فقد تفرقوا عنه . فكان من المنتظر أن تسقط الكويت بين يدي عدوه دون مقاومة . لقد كانت الكارثة كاملة تامة .

مرة أخرى أصبح مصير السعوديين عرضة لخطر كبير . لقد ظنوا أنهم سيدخلون الرياض منتصرين . لكنهم لعبوا لعبة سيئة خاسرة فانهارت كل آمالهم . أما بالنسبة لعبد الرحمن وأفراد أسرته فلم يبق لهم غير مخرج واحد : الهرب ، نعم ، الهرب مرة أخرى ، ليتجنبوا الوقوع في أسر المنتصر والتعرض لعائلة الموت .

كان عبد العزيز ووالده عبد الرحمن منهمكين في إعداد جمالهما وإعطائها مؤونة أخيرة من الماء للقيام برحلة إغتراب طويلة عبر الرمال . كل شيء كان يبدو ضائعاً في غير أمل ، حينما ظهرت بارجة بريطانية عند فرضة الكويت . فألقت مراسيها غير بعيد من الميناء ووجهت مدافعها نحو المدينة . ثم أرسل قائد البارجة الحربية زورقاً إلى البر وعرّف من يلزم بأن مباركاً هو صديق صاحب الجلالة البريطاني ، وأن بريطانيا قد وضعته تحت حمايتها وأنها لن تسمح بطرده من مدينته . ثم أرسل الضابط البحري الانكليزي مندوبين إلى ابن رشيد يطلبون إليه سحب قواته من المنطقة . وفي الوقت نفسه ، أبلغت حكومة لندن سلطان القسطنطينية بأن القرار الانكليزي في هذا الشأن هو قرار نهائي.

وهنا لم يسع الحكومة التركية إلا أن تنحني أمام هذا الانذار . فنصحت ابن رشيد بعدم الإصرار على موقفه . فانسحب من المنطقة والغضب يملأ قلبه . وتنفس الناس الصعداء في الكويت . لقد نجا مبارك . وكذلك السعوديون .

والواقع أن عبد العزيز ما كان في وسعه أن يفهم حقيقة ما حدث إلا بعد و قت طويل ولولا أن مباركاً قد زوده بتفسير ذلك .

كانت مدينة الكويت الصغيرة قد أصبحت خلال الأشهر الأخيرة واحدة من المناطق الحساسة في الشرق الأوسط، دون أن يدرك هذا الأمر أحد من سكان المنطقة . ففوق هذه المساحة الصغيرة من الرمال ، التي تنازع عليها عبر القرون أشوريون وبابليون ، رومانيون وفارسيون ، أتراك وعرب ، بدأت الدول الكبرى في العالم تتصادم بدورها ، مستعدة للتدخل . أما الدول الكبرى فهي ألمانيا وانكلترا وروسيا .

قبل ذلك بفترة وجيزة ، أي في أبريل (نيسان) من عام ١٨٩٩ كانت الحكومة الألمانية قد عقدت مع الحكومة العثمانية اتفاقاً على مد خط حديدي كبير ، خط برلين — استانبول — بغداد ، يجب أن ينتهي طرفه عند الكويت[١].

---

١) جورج أ نسل : المسألة الشرقية ، ص : ٢٢٧ — ٢٢٩ .

وكان تنفيذ هذا الخط برلين — بغداد يحدث لانكلترا قلقاً شديداً ، ذلك لأن هذا الخط الحديدي يمكن أن يقطع الطريق البرية إلى الهند ، وهو الطريق الذي كانت لندن ذات مصلحة أولية في منع سقوطه بين يدي أية أمة منافسة . لقد كانت بريطانيا العظمى تراقب كل الطرق البحرية التي تمتد إلى الشرق : تلك التي تدور حول أفريقيا ، عند رأس الرجاء الصالح ، وتلك التي تمر بقناة السويس وعدن ، عبر البحر الأبيط المتوسط ، والبحر الأحمر والمحيط الهندي . والطريق الوحيد الذي لم يكن يخضع لرقابتها هو الطريق البري الذي يمر في مناطق تابعة للأمبراطورية العثمانية ، وقد صممت انكلترا على مراقبته عاجلاً أم آجلاً .

أما روسيا فقد كانت تخطط ، من جانبها ، لمد الخط الحديدي باكو — أصبهان ، الذي ينتهي عند بندر عباس على الخليج العربي .

وإذاً فإن حكومة القيصر ذات الأطماع في تلك المناطق ، ليس من مصلحتها أبداً أن ترى الألمان مقيمين فوق الخليج العربي .

لكنها في الوقت نفسه لا مصلحة لها أيضاً في رؤية البريطانيين مقيمين فيه .

كان محور التغلغل الألماني متجهاً من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي . بينما يتجه المحور الروسي من الشمال إلى الجنوب . أما المحور البريطاني فلم يكن متجهاً من انكلترا بل من بلاد الهند . كان ينطلق من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي عبر المحيط الهندي وخليج عمان . كل هذه المحاور كانت تتلاقى وتتقاطع عند نقطة واحدة هي : الكويت .

من هنا جاءت الأهمية التي اتخذتها تلك المنطقة من العالم .

ولما كانت انكلترا قد تنبأت بالأزمة التي انفجرت صيف عام ١٩٠١ قبل ذلك بوقت طويل ، فقد أخذت تراقب بانتباه شديد كل ما كان يجري فوق الساحل العربي من الخليج ، ساعية إلى التفاهم والتقارب ، بوسائل مختلفة ، مع صغار الملوك الذين كانوا يمسكون زمام السلطة .

أما أمير الكويت القديم ، محمد ، قد كان يحكم المدينة لحساب الأتراك ، حلفاء الألمان . فتركه في مكانه يعني ترك الباب مفتوحاً أمام الأطماع الجرمانية . من أجل ذلك قرر الانكليز أن يستعيضوا عنه بأخيه مبارك ، الذي تم

الفوز به سراً للقضية البريطانية . وعلى ذلك فانه منذ اقامته في بومباي توافد إليه عملاء " المكتب الهندي " ودفعوا له مساعدات كبيرة ، بانتظار الخدمات التي سيتمكن من توفيرها لهم . وهؤلاء العملاء الانكليز أنفسهم هم الذين أعدوا الانقلاب ، الذي بفضله أزاح مبارك أخاه عن الحكم . وأخيراً كانوا هم أنفسهم الذين حرضوه على رد غارة ابن رشيد بالسلاح وتعهدوا له بمساندة انكلترا غير المشروطة .

من أجل ذلك اندفع مبارك في تلك المغامرة بمثل هذا التفاؤل ، رغم عدم استعداده الظاهر للقتال . كان متنعاً بأن الانكليز سيساعدونه أمام كل شيء وضد كل شيء ، إذ أن السماح بسحقه من قبل ابن رشيد يعني اقامة حاكم جديد في الكويت يكون لحساب الأتراك وإلغاء الغنم الذي تحقق بالقضاء على الأمير محمد.

لكن الأمور لم تمض تماماً كما قدر مبارك من قبل . لقد كان الانكليز يظنون أن في وسعه التغلب بسهولة على خصمه ، ولذلك فإن هزيمته قد فاجأتهم ، بل أزعجتهم كثيراً . ولما كانت عادتهم قد جرت على العمل بواسطة أشخاص ثالثين ، فانهم لم يكونوا حريصين أبداً على التدخل بوضوح في الخليج العربي . لأن في هذا التدخل ما يكشف عن الاهتمام الذي يولونه لهذه المنطقة ، وما يثير التمرد والرفض عند مستشاريات أوروبا كلها . ولما لم يكن في وسعهم أن يسكتوا عن انسحاق مبارك وأن يسمحوا لأعدائه بالاستيلاء على المدينة ، ترددوا طويلاً في الكشف عن أوراقهم . ثم قرروا القيام بمظاهرة بحرية .

لكن هذه الحركة لم تكد تحدث — وقد كانت ذات أهمية خاصة ما دام أنها قد صفقت باب الكويت بخشونة في وجه ابن رشيد والأتراك والألمان ، وأرغمت هؤلاء الأخيرين على ايقاف العمل في مد الخط الحديدي إلى بغداد ، حارمة إياهم من كل منفذ على البحر — توقف الانكليز عند هذه المرحلة ، خوفاً من أن يحدث اشتعال عام في الموقف وانسحبوا من الخليج العربي مباشرة بعد أن بلغوا هدفهم وتظاهروا بعدم الاهتمام بمبارك ، الذي خفض عجزه العسكري من حرارتهم.

هذا التحول المفاجىء في الموقف أدهش عبد العزيز وجعله يطيل التفكير فيه . قال في نفسه : من الممكن إذاً أن نضيع الجيش وننهزم في ميدان القتال ، وأن نخرج رغم ذلك بغير خسارة كبيرة ! ؟ هذه هي قوة السياسة، التي في وسعها أن ترغم المنتصر على الانحناء أمام المنهزم ؟ فأدرك لأول مرة الدور العظيم والخفي الذي تقوم به الدبلوماسية في

شؤون هذا العالم . لقد بدت له على صورة قوة سحرية ، جديرة باحداث أكثر التحولات غير المنتظرة وفك العقد دون مقاومة تذكر لأشد المواقف تناقضاً في ظاهر الأمر...

لكنه زار أيضاً ، ولأول مرة ، الشهوات والأطماع غير المعلنة التي كانت تحوم فوق الجزيرة العربية " ان القوى الكبرى تضع إطاراً حول الأمبراطورية العثمانية ، وتنتظرانهيارها لاقتسام أسلابها " . كان قد سمع مرات كثيرة هذه العبارة ، خلال المؤتمرات التي عقدت من قبل مبارك ، دون أن يربط بها تفسيراً خاصاً . أما الآن فقد بدأ يدرك ماذا يعني هذا الذي سمعه ، وأي معضلات رهيبة يطرحها للمستقبل. أو ليس أن البلاد العربية من بين أسلاب تركيا ؟ كان يعيش حتى ذلك الوقت في وهم أن العرب يكفيهم أن يطردوا الأتراك ليصبحوا مستقلين . وتبين له فجأة أن الأمور ليست بتلك البساطة ، فإذا كانت الدول الأوروبية قد أقامت الحراسة حول " الرجل المريض " فلكي يستبدلوا وصايته بوصايتهم .

وقال عبد العزيز في نفسه : أن النجاح في المهمة التي ندب نفسه لها — وهي توحيد الجزيرة العربية وتحريرها — يفرض عليه أن يمارس لعبة حذرة حكيمة . ان الاصطدام بهذه القوى العملاقة ، يعني مواجهة انسحاق أكيد . وإن واجبه هو التسلل بينها والافادة من منافساتها وخصوماتها . دون الاستسلام أبداً لوعودها، ولا قبول " حمايتها " والطريقة التي أظهر بها الانكليز عدم مبالاتهم بمبارك ، بعد أن استخدموه لقطع الطريق على الأتراك ، تظهر بوضوح أنهم لا يلاحقون غير مصالح أنانية . الجزيرة العربية ؟ نعم انهم لم يكونوا يبالون بها . فما هي مصلحة انكلترا في جزيرة عربية موحدة ؟

لقد علّمت الأحداث الأخيرة عبد العزيز أن عليه لا أن يقاتل وحسب ، بل أن يمكر ويحتال ويتذاءب ويخاتل وأن يترصد الظروف الملائمة . كما أنها أثبتت له بأن الجزيرة العربية لن تحقق وحدتها إلا بنفسها — أي برجل قوي يفرضها عليها.

وكان عبد العزيز قد بلغ العام الواحد والعشرين من عمره . " يقول لنا أرمسترونغ : أنه كان مصارعاً عضلاً شامخ القامة ، فتى عملاقاً طوله متران وأربعة سنتمترات ، يتجاوز برأسه أطول بدو الصحراء . أما

بنيته القوية ، وحركاته الفسيحة الرحبة ، ومشيته السهلة فتكشف عن نبالة ورجولة . وأما عيناه فقد كانتا تكشفان عن حمية مزاجه . لم يكن فيه شيء من المسكنة أو البلادة (١) .

لقد نجا مبارك . لكن ابن رشيد لم يكن مغلوباً . لقد بقي سيداً على بلاده نجد والرياض عاصمتها . هذه الفكرة لم تكن تترك لابن عبد الرحمن فرصة للراحة . أنه لم يكن يفكر إلا في شيء واحد : العودة إلى القتال أما أبوه فقد حاول أن يصرفه عن هذا الأمر بكل ما في وسعه من الجهد.

قال له أكثر من مرة : " لم يحن الوقت بعد ، يجب أن نصبر . وفيما بعد سننظم معاً بعثة عسكرية جديدة ".

لكن عبد العزيز لم يكن قادراً على البقاء في مكانه . فهذه سبع سنوات مضت جرجر فيها أذياله في أسواق الكويت ، متفقاً وقته في الاستماع إلى اتهامات المنفيين واعتراضاتهم . حتى مؤتمرات مبارك كانت قد بدأت تضجره وتسأمه وتظهر له غثة تافهة . ان مثل هذه الحياة لا تليق بسعودي . فعبد العزيز لم يكن مهرباً ولا مكتبياً ، بل رجل حرب . إن الجمود الذي قضت به عليه الأحداث القائمة يضع أعصابه أمام امتحان قاس شديد . كان في حاجة إلى العمل – العمل بأي ثمن . ان حيويته لم تعد تجد ما يشبعها في ضيق الكويت . أنها في حاجة إلى مزيد من الآمداء لتنشط وتتمرن . آه ! كم يمتعه العدو في الصحراء فوق فحل من الخيل نصف متوحش ! لقد كانت الصحراء حافلة بالفرص لرجل من معدنه . كان واثقاً من النصر بعون من الله . كما كان شديد الوثوق بطالعه وبسكان نجد فيما لو تقدم صفوفهم وأعلن نفسه زعيماً عليهم ، إنهم سينهضون للحاق به وطرد ابن رشيد من قصر الرياض ! من أجل ذلك، كان في حاجة إلى رجال وسلاح وجمال وذهب كثير . وكان مضطراً للإعتراف بأنه لا يملك شيئاً من ذلك .

حاصر عبد العزيز مباركاً بمطالبه . فألح عليه أن يعود إلى مقاتلة ابن رشيد . لكن مباركاً لم يكن يصغي إليه . لقد جعلته مغامرته الفاشلة الأخيرة شديد التحفظ والحذر . انه لم يكن يريد القيام بمحاولة جديدة، يفقده الفشل فيها ثقة حماته بصورة نهائية .

---

١) هـ . س .أرمسترونغ ، ص : ٣٨ .

وهنا توجه عبد العزيز نحو الانكليز . فاتصل بعملاء من القنصلية البريطانية وسألهم تقديم العون له. لقد كان مباركاً موضع ثقتهم في الكويت . فلماذا لا توكل إلى عبد العزيز مهمة مماثلة في نجد ؟ أو لم يكن هو أيضاً ، أكثر من مبارك ، العدو الصامد للأتراك ؟ لكنه لم يتلق أي جواب . فالفتى عبد العزيز من ضآلة الشأن بحيث لم يثر الاهتمام عند ممثلي صاحب الجلالة البريطاني .

وعاد عبد العزيز إلى محاولته عند مبارك دون أن يداخله اليأس . وبعناء شديد التمس منه أن يتركه يجرب حظه . فانتهى مبارك إلى النزول عند إلحاحه . ولكي يتخلص من لجاجه أعطاه ثلاثين من الجمال ، نصف مصابة بالجرب ، وثلاثين بندقية قديمة مع ذخيرتها ، ومائتي ريال ذهباً ورجاه ألا يعود إلى إزعاجه .

لم يكن عبد العزيز يرغب في أكثر من ذلك . لقد كان يتصرف لأول مرة في حياته بقوة لا تتعلق إلا به، رغم صغرها . وقرر أن يظهر لمبارك ما يمكن أن يفعله بها.

وبدأ بوضع خطة للعمليات . فقرر بادىء الأمر ، أن يستولي على القصر . فإذا أصبح سيداً له كان في وسعه أن يسيطر على المدينة . فإذا تمكن منها بقوة فرض سلطانه على كل قبائل نجد. وبذلك تصبح له زاوية من الأرض يثبت فيها قدميه ثم ينصرف بعد ذلك إلى عمليات أوسع وربما وجدته السلطات البريطانية موضع اهتمامها فتجيبه على رسائله . هكذا يكون قد زرع في قلب الجزيرة العربية أعلامه وأوتاده الأولى لقوته في المستقبل .

وبرفضه وضع اعتراضات أبيه موضع الاعتبار ، قرر عبد العزيز الانتقال مباشرة إلى العمل فحياته القلقة أصبحت مستحيلةالإحتمال . لقد كفاه أن يكون لعبة الأيام والأحداث وأن يتيه كما تشتهي الرياح كورقة ميتة . انه منذ اليوم، لخيره أو لشره ، سيقبض على حياته بيديه ويوجهها بنفسه . وغادر ابن عبد الرحمن مدينة الكويت على رأس حفنة من المتطوعين خريف عام ١٩٠١ ، وغاص في الصحراء، مخلفاً والده على حراسة أهله ، ولديه تركي وخالد وزوجته الشابة التي كانت تنتظر الولد الثالث.

لقد كان ما جرى بداية لمغامرة ، كبيرة ...

حاول عبد العزيز أن يخفف من جهاز رجاله قصداً إلى توفير أكبر قدر ممكن من الحركة لمجموعته الصغيرة : بطانية واحدة تحت قتب [1] الراحلة ، بندقية ، وذخيرة ، وبضع تمرات وكمية من اللبن المخيض لمدة ثلاثة أيام .

ثم قام بسلسلة من الغزوات ، ممهداً بها طريقاً لنفسه عبر الكثبان من الرمال وراح ينقض بغتة على قافلة من القوافل أو مضرب من المضارب ، يتبعه رجاله مسرعين وهم يطلقون صرخات وحشية ، فيستولي على الغنيمة ثم يتابع طريقه ، بكامل سرعته . وفي مساء اليوم التالي يقوم بغارة أخرى على بعد ستين كيلو متراً من المكان الأول.

كان عبد العزيز يقوم بالحراسة أو يعتلي راحلته طوال النهار، بينما رفاقه يغطون في نومهم ، ذلك لأنه تعود منذ طفولته ألا ينام غير ساعات قليلة .

هذه الحياة المرهقة بدت وكأنها تنمي قواه . لقد أصبح ولد عبد الرحمن في بيئته الطبيعية.

وفي يوم من الأيام قام بغارة على قبائل عجمان ، تلك التي أرادت أن تقتل والده بعد هربه من الرياض. فدمر مضاربها وسلبها صندوقاً ممتلئاً ذهباً . وشاع الخبر في المنطقة كلها . وأخذ الناس يتحدثون في مجالسهم عن عبد العزيز الغني الكريم ، الذي يدفع بسخاء لمن يقاتل معه. فأقدم بدو كثيرون من كل جانب ينضمون إليه ويزيدون عدد مجموعته الصغيرة.

على أن عبد العزيز لم يكن لصاً قاطع طريق ، ولا مخرباً ، ولم يكن هدفه جمع الثروات كان هدفه يقتصر على إثارة الخيال عند النجديين ، وعلى تعريفهم بحضوره ليدفع بهم إلى الثورة.

لكن القبائل في هذه المرة لم تنتفض ولم تتمرد على عدوه . لقد أجابته على ندائه ، يوم قام مبارك بهجومه . فلما فشل الهجوم وانهزم مبارك نفذت فيها إجراءات انتقامية شديدة. ان الوجهاء الجدد لم يكونوا حريصين أبداً على أن يشنقوا فوق المنائر في مدنهم ، شأن من سبقهم من الرجال.

---

١) القتب من الجمل كالسرج من الحصان .

" لقد قالوا له : أنت تزعم أنك زعيمنا وشيخنا ؟ ونحن لك مصدقون . لكن عليك أولاً أن تثبت ذلك عملياً فإذا فعلت تابعناك من بعد ".

هكذا تتابعت أسابيع من الفشل والبؤس . ولما كانت غزوات عبد العزيز محددة من قبل فقد حدث ما أفسدها عليه أو أنها أصبحت غير مثمرة . وكانت القبائل على حذر شديد فلم تسمح لنفسها بلاقتراب منه . هكذا ذاب المال بسرعة . وأرهقت الرواحل ، فسقطت من المرض . ونفذت الذخيرة . وبدأ المرتزقة من البدو ينفضون عنه بعد أن عجزوا عن تجميع الغنائم ، أما ابن رشيد فقد أطلق وراءه قوة صغيرة جيدة التسلح ، لم تلبث أن طردته من بلاد نجد بجهد قليل . وهنا توجه عبد العزيز نحو قبائل الأحساء . فانتدب الأتراك لواء من الجيش طرده من تلك المنطقة . فلجأ إلى قبائل عجمان وسألها الجاءه بعد أن يئس من اتمام مهمته . لكن هؤلاء لم يكونوا قد نسوا الغرة التي ذهبوا ضحايا لها . فمنعوه من الاقتراب من منازلهم تحت طائلة الموت . ثم هبط عبد العزيز نحو الجنوب وقد لعن كلاً من ابن رشيد وقبائل الأحساء والأتراك والعجمان . كل الطرق الأخرى كانت مغلقة دونه . فلم يبق أمامه غير حل واحد، وهو الحل الرهيب : انه العودة إلى صحراء الربع الخالي الكبيرة.

لكن مجرد التفكير في رؤية هذا العماء من الصخور مرة أخرى حيث كاد يهلك من قبل ، كان يحدث في جسده قشعريرة من الرعب . ومع ذلك فلم يكن عنده ما يفعله غير ذلك ، إلا أن يعترف بهزيمته . وقرر عبد العزيز أن يقود مجموعته إليها وقد شاع الموت في روحه.

كان قد بلغ حقل النخيل في جبرين ، عند تخوم الصحراء الكبيرة ، حيث لحق به رسول من قبل أبيه.

- قال له عبد الرحمن : ان مصيرك يا بني يملأ نفوسنا بالحزن والكآبة . عد إلى الكويت . هذا ما ننصحك به. فالوقت الملائم للعمل لم يأت بعد ".

ومنذ تبلغ هذه الرسالة جمع حوله كل الرجال الذين اختاروا البقاء إلى جانبه وعرض الموقف أمامهم. ولم يخف عنهم أنه موقف ميئوس منه.

- قال : " انني لا أستطيع أن أضمن لكم أية غنيمة ، أو أي انتصار . انني لا أعدكم إلا بسلسلة طويلة من المحن ، والصيام والحرمان . أما من جهتي فأنا مصمم على متابعة المعركة . لا تمنعني عن ذلك أية قوة في العالم

، حتى ولو اضطررت للقتال وحيداً ضد الجميع ، وحتى لو كان انتصاري الوحيد هو الهلاك في ميدان القتال . انني بعون من الله ، سأمسك بكل الفرص التي ستقدمها الصحراء لي . لكنني لما كنت غير راغب في ارغام أي شخص على متابعتي ، فان في وسع من يفضل العودة منكم أن يعود ! ".

وهنا أبدى أكثر الرجال رغبتهم في تركه . لقد فقدوا ثقتهم به وبلغ الخوف منهم مبلغه من الصور القاتمة التي وصفها لهم . أما الذين اختاروا البقاء إلى جانبه فهم محارب شجاع صموت يدعى ابن جلوي ثم أخوه محمد ، والثلاثون من العرب الذين تجندوا معه في الكويت وشكلوا النواة الأساسية لمجموعته وعشرة رفاق جدد جاءوا من الرياض : فبلغوا بذلك قرابة خمسين رجلاً مع العبيد .

وهنا رفع عبد العزيز سيفه واضعاً حده بين عينيه ، مجدداً تصرف النبي بعد بيعة العقبة .

- قال لهم " أقسموا على حد هذا السيف انكم ستبقون أمناء مخلصين لي ، في السراء والضراء والمنشط والمكره".

وتعاقب الرجال واحداً وراء الآخر أمامه ورددوا قسمهم .

- " وهنا أعلن لهم وقد أعاد سيفه إلى قرابه ، إنهم قد أصبحوا منذ الآن أخوة في الله ! إن حياتي هي حياتكم وإن موتي هو موتكم . ها نحن أولاء قد ارتبط أحدنا بالآخر بعهد لا ينقض أبداً " .

ثم التفت إلى رسول عبد الرحمن..

- قال له : " عد من حيث أتيت ، وقص على أبي ما شهدته منذ قليل . قل له : انني لا أستطيع أن أحتمل أكثر مما احتملت ما تتعرض له بلادي من الانسحاق تحت عقب ابن رشيد ، وما تتعرض له أسرتي من المهانة والتمرغ في الوحل . انني أستعد لأن أراهن بكل شيء مع الموت . ولن أعود إليهم ما لم أحقق النجاح الذي أريد . ان الموت عندي أقل مرارة من أن أكون مغلوباً على الدوام. كل شيء ، في هذه الدنيا ، هو بين يدي الله ".

ثم جمع من حوله من الرجال ووضع الأقتاب [١] فوق ظهور الجمال . وتحرك الرتل في بطء باتجاه الجنوب واختفى عن الأنظار ، كما لو أن الضياء قد ابتلعه.

كان ابن رشيد قد أقام حامية كبيرة في الرياض، تحتل كل المواقع المحصنة من المدينة . ولم يكن في وسع عبد العزيز أن يواجهه بالهجوم بسبب القلة العددية في قوته المسلحة.

إن فرصته الوحيدة للنجاح هي العمل عن طريق المباغتة من أجل ذلك كان عليه أن يبدأ بالاختفاء، أن يجعل من الجميع ، وأن ينتظر الوقت الذي يظن يه ابن رشيد أنه قد أصبح في عداد الأموات.

لم يكن شيء أقل سهولة من هذه المحاولة . لقد اختفى عبد العزيز ورفاقه في أعماق الربع الخالي لمدة خمسين يوماً، والذين عاشوا في الصحراء يعلمون أنه ليس أشد إزعاجاً وصعوبة من أن يمضي الإنسان فيها بعيداً عن الأنظار، منه في قلب مدينة كبيرة . إن جذوة لا تزال محتفظة بحرارتها ، أو ظلاً ، أو أثر قدم ، كل هذا يمكن أن يدل إلى مرور إنسان من الناس . هكذا كانت تلك المحاولة محنة قاسية جداً على تلك المجموعة من الرجال.

حتى ذلك الوقت ، كان رفاق عبد العزيز قد عاشوا في جو القتال المرح البهيج تسكرهم رائحة البارود ويغتذون بالماشية التي انتزعت من العدو . أما الآن فقد أصبحوا خاضعين لإعاشة مجاعة مقننة . ولم يكن في وسعهم أن يطاردوا الحيوانات أو الطيور لأن أي طلق نار يكشف عن وجودهم . كان عليهم أن يقتربوا من مواقع الماء النادرة زحفاً على بطونهم .

بل كان عليهم أن ينتظروا هبوط الليل . وكانوا مرغمين على الاحتفاظ بالماء لعدد كثير من الأيام في قرب من جلد المعزى ، حيث تصبح شديدة الملوحة . أما التزود بالحيوان فقد كان يطرح معضلات مستعصية تقريباً على الحل، في تلك البلاد المحرومة حيث لا عشب ولا علّيق . وكان على الرجال أن يقوموا كل يوم بجهد حقيقي لمنع الجمال من أن تهلك جوعاً وخوراً.

---

١) الأقتاب من الجمال كالسروج من الخيل.

وكلما امتدت الأيام ، كان الرجال يستسلمون أكثر فأكثر لليأس .

- " وقد أعلن ولد عبد الرحمن فيما بعد قائلاً : ان تلك الفترة كانت واحدة من أشد الفترات في حياته.

هؤلاء الرجال جاءوا إليّ من أجل القتال . فالحرب بالنسبة إليهم مهنتهم ووسيلتهم إلى تزجية أوقاتهم . انهم لم يكونوا يفهمون لماذا قضيت عليهم بالبطالة والفراغ . ان تلك العزلة في الصحراء تبدو لهم عبثاً غير معقول ولا منطقي. كانوا يريدون القتال أو العودة إلى زوجاتهم . وكانوا يقولون : ان حياة لا قتال فيها ولا نساء لا تستحق أن تعاش . ومع ذلك فقد وجب علي أن أمنعهم من العودة إلى بيوتهم حتى لمدة أربع وعشرين ساعة . كنت أعلم أنهم سيتكلمون . ان أقل إفشاء لهذا السر يمكن أن يكون سبباً للقضاء علينا لأنه يعني الكشف عن وجودنا للعدو. ان الصعوبات التي اصطدمت بها ، خلال تلك الفترة ، قد علمتني أن أشد ما يمكن الحصول عليه من الرجال ليس هو الشجاعة في الحرب بل هو التفاني وانكار الذات ".

يوماً بعد يوم ، كان على عبد العزيز أن يعظهم، وأن يرفع من معنوياتهم ويشدد من عزائمهم ، وأن يذكرهم بالقسم الذي أقسموه في جبرين.

- "كان يردد على مسامعهم قائلاً : أو لم تقسموا على البقاء إلى جانبي في السراء والضراء والمنشط والمكره؟ أو لم تتعهدوا بمتابعتي حتى الموت ؟ ".

- فكانوا يجيبون قائلين : " نعم ونحن مستعدون دائماً لتنفيذ هذا العهد . لكنه يا عبد العزيز أسوأ من الموت ! " أما ولد عبد الرحمن فقد كان يخاطب العقل عند بعضهم ، والكبرياء وحب الذات عند بعضهم الآخر ، ويبعث الحيوية في شجاعتهم باقواله وبالمثل الذي يضربه لهم . هذا العمل يزيد من رهق صاحبه لا سيما وأنه كان عليه أن يعاوده كل صباح يضاف إليه جهد جسدي كثيف ، لقد كان في الجملة يعيش عيشة جنوده، ويقوم بمثل ما يقومون به من الخدمة. ويفرض على نفسه مثل ما يفرضه عليهم من التقنين في المؤونة ويقوم بقدر من الحراسة فوق نصيبه منه.

ثم لم تلبث المحنة أن أصبحت أكثر رهبة وهولاً . لقد جاء شهر رمضان . فالوهابيون لا يسمحون لأنفسهم بانتهاك فرض الصيام مهما تكن الضرورات الداعية لذلك . ففرض عبد العزيز ورفاقه على أنفسهم تضحية إضافية تقضي بالامتناع عن الطعام والشراب بين شروق الشمس وغيابها . لقد كان هذا تحدياً حقيقياً للصمود البشري.

لكن الرجال تحملوا هذه الزيادة من الألم بمزيد من القوة الروحية من ذي قبل . لقد توقفت الاعتراضات. ان الافراط في المحنة قد أيقظ فيهم إحساساً بالتنافس . نعم ، لقد كان هذا تحدياً ! فكما أن الفراغ المجرد للطبيعة من حولهم كان يمنح فيضاً من الحب غير مرتقب للسماء ، فان الضعف في أجسادهم كان يسلط الضوء على قدرة إرادتهم . وكانوا يجدون في هذه المفارقة مزيداً من الفخر والاعتزاز . ان السعادة الفائقة الحارة التي لا تنتمي إلا إلى لمن يخترق حدوده ويتجاوز العتبة الخفية التي لا نعود نميز فيما وراءها بين الممكن وغير الممكن ، كانت توقد شعلة غريبة في أعماق حدقاتهم . لقد اتسعت العيون بالجوع والحمى ، وكانوا يتوقون جميعاً إلى العذاب الأكبر الذي يستهلك انتصارهم.

- " قال عبد العزيز فيما بعد : لو أنني ألقيت بنفسي في الجحيم ، وأمرت رجالي بأن يتبعوني ، فأنا أعتقد أنهم فاعلون وهم يطلقون صرخة الفرح ... ".

في اليوم الثامن والعشرين من شهر رمضان ، وبعد أداء صلاة العشاء ، أعلن عبد العزيز لرفاقه بأن محنتهم قد انتهت ، ثم أمرهم بالاستعداد للرحيل . هذه المجموعة الصغيرة ، التي كانت قد اعتادت الانتقال في أثناء الليل فقط ، بادرت إلى حزم أمتعتها ثم اتجهت نحو الشمال . فلما وصلت إلى بئر " أبو جيفان " توقفت قليلاً ، واحتفلت بعيد الفطر ، الذي يعلن نهاية الصوم ووصلت في الليلة التالية إلى سلسلة من الهضاب تقوم على بعد عشرة كيلومترات تقريباً جنوبي الرياض [١].

---

١) هناك نصوص كثيرة حول الإستيلاء على الرياض من قبل الفتى عبد العزيز . هناك نص أرمسترونغ الأحسن والأكمل. فهو مأخوذ من شهود عيان منهم ابن جلوي ، الذي اضطلع بدور نشيط في هذه العملية . وعلى ذلك فان له قيمة الشهادة الفضلى. وقد أخذنا بهذا النص متجنبين ما في غيره من النصوص من الاختلافاتالتي تتمتع بالوثاقة نفسها . (أنظر : ملك الجزيرة العربية ، ص : ٤٦).

وبعد أن وصل إلى هناك ترك عبد العزيز كل الحيوانات عند موقع من الماء ، مع عشرين رجلاً يقومون على حراستها.

- " قال لهم : لا تلحقوا بي ما لم أطلب ذلك منكم ، فإذا لم تصلكم مني أية اشارة خلال أربع وعشرين ساعة ، عودوا إلى عبد الرحمن وقولوا له : أن ولده قد مات ".

وتقدم عبد العزيز يرافقه الرجال الثلاثون الذين بقوا له مشياً على الأقدام عبر أشجار النخيل التي تنتشر جنوبي عاصمة نجد على امتداد كيلومترات كثيرة . لم يكن قد وضع أية خطة . ولم يكن له أي حليف في ذلك الموقع . لقد قرر التعلق بفرصته ، كما ستمثل أمامه والعمل بالتالي تحت إلهام الوقت . ثم أسلم أمره لله يدله سواء السبيل .

وتوقف عبد العزيز وموكبه من جديد عند شمشية حيث تنتهي حقول النخيل وتبدأ الرياض والحدائق التي سميت المدينة باسمها. وهناك قطعوا نخلة وجردوا جذوعها من أعذاقها [1] ذلك أن قشرته الخشنة تجعل منه سلماً لا بأس بها. ثم عين عبد العزيز ابن جلوي وستة رجال معه ليساعدوا على القيام بمهمته وترك من بقي من مجموعته قرب أحد الصهاريج بقيادة أخيه محمد .

- " قال لهم : كونوا على اتصال بحرس المؤخرة وأنتظروا تعليماتي . فإذا لم تبلغكم مني رسالة حتى ظهر غد ، بادروا إلى قلب الصحراء ، فهذا يعني أننا قد متنا جميعاً . فلا قوة إلا بالله ! ".

وتسلل عبد العزيز وابن جلوي والرجال الستة عبر الرياض والحدائق تحت ستار الظلام وهم يحملون جذع النخلة على مناكبهم . كانوا يتوقفون قليلاً كل مائة متر للإختباء وراء دغل أو عند منحدر ، ذلك لأنهم كانوا يتخوفون دائماً من أن يبصرهم أحد الحراس . هكذا بلغوا قاعدة الحصون ، غير بعيد من المقبرة الكبيرة التي تحد الطريق إلى مكة. وهناك اختبئوا في حفرة وأصغوا بآذانهم . نبح كلب من بعيد . أما فوق رؤوسهم فقد كانت تتردد أصداء خطوات الحراس الذين يقومون بجولتهم في قمة الحصون لقد كانت فترة تبديل الحرس. حارسان يتبادلان كلمة المرور ثم يختفيان في الظلام . وعاد الصمت إلى كل شيء .

---

١) أعذاق مفردها عذق : هو من النخل كما يكون الغصن من الشجر.

إنّ أحداً لم يبصر عبد العزيز ورفاقه.

وبعد أن أثبتوا الجذع إلى السورفي شيء من الانحراف أخذوا ، أي عبدالعزيز ورفاقه ، يتسلقونه كل بدوره ، ثم خطوا فوق الحاجز وقفزوا فوق زقاق يق كان يحاذي الحصن . الوقت هو نصف يناير (كانون الثاني) . الهواء الليلي قارص البرودة . كل سكان الرياض كانوا محبوسين في منازلهم . هكذا تسللوا في محاذاة الجدران على امتداد الزقاق الخالي واقتربوا من منزل راع يدعى جويسر يقوم بالقرب من منزل الحاكم وقد أخفوا أسلحتهم تحت جلابيبهم ليتجنبوا كل ضجة .

- طرق عبد العزيز الباب بهدوء . فتردد صوت إمرأة من الداخل .
- " من هناك ؟ " .
- " أجاب عبد العزيز بصوت منخفض : أنا قادم من لدن الحاكم . لقد أتيت أرى جويسر لاشتري منه بقرتين ".
- " صرخت المرأة قائلة : إمش في طريقك . هل تحسب هذا المنزل حانة ؟ اذهب ! فهذه ليست الساعة الملائمة لطرق أبواب الأشراف من الناس ".
- " فأردف عبد العزيز : إذا لم تفتحي الباب حالاً ، فإنني سأشكو جويسر إلى الحاكم غداً فيعاقب على ذلك".
- ثم تراجع إلى الجدار ، يحيط به رجاله الستة ، وانتظر .

وبعد فترة قصيرة ، فتح بواب مصراع الباب في خفر وتردد وهو يحمل مصباحاً ضئيل النور . فأمسك رجلان بحنجرته لمنعه من الصراخ . وتسلل عبد العزيز وابن جلوي والرفاق الستة نحو المنزل عبر الباب، ثم أغلقوه وراءهم في صمت تام.

أما رجل المصباح فقد كان خادماً عمل طويلاً في خدمة عبد الرحمن في قصره وانحنى ابن جلوي فوق أذنه وقد إشار إلى أطول رفاقه ثم قال له بصوت خافت :

- " ألم تتعرف إلى عبد العزيز ؟ ".

- " أجاب الرجل مندهشاً : هذا سيدنا ، وهو يركع على ركبتيه . ثم قال : كم أصبح كبيراً ! ".
- " قال ابن جلوي : وسيكون أكبر إن أنت ساعدته ".
- " فماذا تريدون ؟ " .
- " معلومات " .

لم يكن الرجل يريد غير أن يزودهم بها . قال : ان حصن مسماك مشغول بجنود ابن رشيد . وهؤلاء لا يبدو أنهم يترقبون هجوماً ، إذ أنهم لا يتخذون أية حيطة خاصة . أما الحاكم الذي يمثل ابن رشيد في عاصمة نجد فقد كان يدعى عجلان . كان يتردد في العادة ليلاً على الحصن . وبعد شروق الشمس بقليل ، تقاد إليه خيوله في الميدان الكبير ، لكي يفتشها . ثم يقوم بجولة على حصانه أو يعود إلى منزله سيراً على قدميه ، أنه لم يكن يتحرك أبداً دون أن يواكبه حراسه . أما داره فكانت تقوم على بعد منزلين . حيث لا يقوم أحد على حراستها.

مضى عبد العزيز للتعرف إلى الأمكنة يتبعه رفاق السلاح . فاجتاز السطح المستوي للبناء المجاور زاحفاً على بطنه . وعند البيت التالي سقطوا على غير انتظار فوق رجل وزوجته مستغرقين في النوم فكموا فميهما وقيدوهما في سريرهما.

كانت دار الحاكم مجاورة لهذا البيت ، وكانت لها طبقة إضافية . ولكي يتسلقوه إلى سطحه علا بعضهم بعضاً . فلما بلغوا قمة الدار . تمددوا على بطونهم وبقوا جامدين فترة طويلة من الزمن تخفق قلوبهم . كانوا يخافون دائماً من أن يكون قد سمعهم أحد من الناس لكن لا شيء قد تحرك . ولم يبادر شخص إلى توجيه أي انذار.

وبعد أن خلعوا أحذيتهم نفذوا إلى الدار بأقدام عارية وهبطوا إلى الطبقة السفلى . وهناك وجدوا مجموعة من الخدم حبسوهم في قبو وأغلقوا الباب عليهم بالمفتاح . وأقام عبد العزيز أحد رفاقه حارساً عند الباب . ثم صعد إلى الطبقة العليا يتبعه الخمسة حيث اكتشف حجرة نوم الحاكم.

وفي هدوء تام وضع عبد العزيز طلقة في مؤخرة بندقيته ثم تسلل إلى الحجرة وقد خلف رجاله عند مسطحة السلم يتبعه ابن جلوي وحده . شكلان بشريان كانا متمددين فوق السرير إنهما زوجة عجلان وشقيقتها .

نهضت زوجة الحاكم فزعة ، فوضع عبد العزيز يده على فمها بينما كان ابن جلوي يكمم شقيقتها . كانت زوجة عجلان من سكان الرياض وتدعى مطلبة ، وكان أبوها من قبل في خدمة عبد الرحمن . وعبد العزيز يعرفها جيداً.

- " قال لها : لا تتحركي يا مطلبة ، فإذا لم تسكتي قتلتك . إنني أرى أنك قد تعهرت إذ تزوجت خنزيراً من خنازير الرشيديين ! ".
- " فاحتجت مطلبة قائلة : أنا لست كما تقول . لقد تزوجت منه بعد رحيلكم فماذا جئت تصنع هنا . إذهب ! انه ان وجدك بادر إلى شنقك ! " .
- " سألها عبد العزيز دون أن يضطرب أو يرف له جفن : متى يعود إلى الدار ؟ ".
- " ساعة بعد الفجر " .
- " إذاً ، احتفظي بهدوئك ، فإذا أطلقت صرخة واحدة ، قطعنا لك رقبتك " . ثم حبسها عبد العزيز مع شقيقتها في الطبقة السفلى حيث جمع الخدم كلهم .

كان جزء كبير من الليل قد مضى حتى ذلك الوقت . ولم يبق لطلوع الشمس غير أربع ساعات . قام عبد العزيز بجولة في الدار ، ليتعرف إلى موقع كل شيء فيها . أما واجهة البناء فقد كانت تشغلها قاعة واسعة مع مقصورة لها فتحة ذات مغلاقين مخرمين . هذه الفتحة تطل على الميدان الكبير . وفي الجانب الآخر من الميدان كان حصن مسماك يرتفع بشبحه الكثيف القاتم ، وببابه الثقيل ذي المصراعين ، الداخلين في الجدار . وكان هناك حارس ليلي يغدو ويروح فوق قمة الحصن . وفي طرفة عين وضع عبد العزيز خطته للهجوم . لقد قرر الانقضاض على الحاكم في الوقت الذي يغادر فيه الحصن . والاستفادة من الفوضى التي تعقب ذلك للدخول إلى مبنى القلعة .

ثم أرسل رجلين لاستدعاء أخيه محمد ومن معه وهم الذين كانوا ينتظرون إشارته عند حدود حقول النخيل . وعندما وصلت هذه النجدة ، وضع رقباء خلف فتحات الشرفة وأمرهم أن يحذروه ، حين يرون أيّ شيء أمامهم .

هكذا قضى رفاق عبد العزيز الساعات الأخيرة من الليل يستمع أحدهم إلى الآخر وهو يتلو بصوت منخفض آيات من القرآن يفعلون هذا وهم متمددون على الأرض أو مقرفصون على أعقابهم . وأخذوا في الصلاة ، يسأل أحدهم الآخر الصفح والغفران ثم ناموا قليلاً بعد ذلك .

وعندما اقترب الصباح حمل إليهم رجل المصباح قهوة وخبزاً وتمراً . فأكلوا بشهية تامة . ثم توجهوا نحو القبلة وأدوا صلاة الفجر ، وفحصوا أسلحتهم للمرة الأخيرة وانتظروا ما سيحمل النهار إليهم .

لم تكد الشمس تشرق حتى كان أحد الرقباء ، القائمين عند فتحات الشرفة قد أشار بيده . فاقترب عبد العزيز من النافذة . لقد كان العبيد يقودون خيل الحاكم في الميدان بينما بدأت حامية الحصن بالاستيقاظ من النوم .

وجه عبد العزيز تعليماته الأخيرة إلى رفاقه . أربعة منهم كان يجب أن يبقوا في مراقبهم ، وراء فتحات الشرفة . ثم لا يكادون يرونه يجتاز الميدان راكضاً حتى يطلقوا النارعلى الحراس على الحراس القائمين عند مدخل القلعة . وأما الآخرون فعليهم أن يتبعوه ركضاً وراءه.

فتح باب القلعة الكبير على مصراعيه . وظهر الحاكم عجلان عند أعلى درجات السلم يحيط به حراسه. وهبط الدرجات ببطء وتهيأ لاجتياز الميدان للتفتيش على خيوله . هكذا جاءت الفترة الحاسمة .

مضى عبد العزيز يهبط الدرج أربعاً أربعاً وهو ينادي على رجاله ثم خرج من دار الحاكم ، واجتاز الميدان بأقصى ما وسعه من السرعة ثم قفز على عجلان وهو يطلق صراخاً وحشياً .

واستدار عجلان بسرعة البرق الخاطف ، ثم أخرج سيفه يريد أ ن يطعن به عدوه . لكن عبد العزيز رد الطعنة بعقب بندقيته ، وطوق الحاكم بيديه ثم رفعه عن الأرض . أما عجلان فقد رد بشغربية [١] عنيفة جعلت عبد العزيز يفقد توازنه ، ثم تدحرج الرجلان في الغبار وقد التصق أحدهما بالآخر.

وأما الحراس ، الذين لم يتبينوا حقيقة ما يجري ، فقد تفرقوا وركضوا لاجئين إلى الحصن . وقد قتل أحدهم من قبل ابن جلوي حين هم بطعن عبد العزيز بالسيف . واستمر عجلان يتخبط كالمجنون تحت قبضة خصمه . وبنجاحه في التخلص من هذه القبضة انطلق نحو الباب صارخاً " إلى السلاح " . لكن عبد العزيز رفع بندقيته وأطلق النار عليه. فحطمت الطلقة ذراع عجلان ، وأرغمته على ترك سيفه . وقام عبد العزيز بقفزة جديدة إلى الأمام ، وأمسك به من ساقيه في الوقت الذي كاد يبلغ فيه الباب .

---

١) الشغربية : حركة في المصارعة يعتقل بها المصارع رجله برجل خصمه فيصرعه.. " المعرب " .

وفي الوقت نفسه ، انطلق رفاقه نحو القلعة في فصيل منتظم . فحدث عند درجات المدخل عراك مضطرب غامض ، مزيج من الرجال اختلط بعضهم في بعض يصرخون ويتقاتلون بالسيوف والخناجر.

وفي أعلى الحصن أخذ بعض جنود الحامية يقذفون المهاجمين بكتل من الحجارة وآخرون يطلقون رصاصهم الكثيف عبر مرامي النار . ونجح عجلان في تحرير إحدى ساقيه ثم رفس عبد العزيز في حالبه بضربة شديدة من قدمه. فترنح ولد عبد الرحمن من الألم وأفلته . أما الحاكم فقد حمل إلى الحصن واختفى فيه بمساعدة بعض الجنود . وحاول بعض الحراس أن يغلقوا الباب وراءه . فانقض ابن جلوي وثلاثة رجال آخرين عليهم ونجحوا في الاحتفاظ بمصراعي الباب مفتوحين . أما عبد العزيز ، فانه نفذ بدوره إلى القلعة ، بعد أن استعاد توازنه . فشاهد عجلان هارباً عبر الساحة الداخلية للبناء مخلفاً وراءه خطاً من الدماء . فانطلق ورفيقه ابن جلوي خلفه فأدركاه وأمسكا به فوق درجات المسجد ، حيث كان يبحث عن ملجأ له . فعاجله ابن جلوي بطعنة من سيفه نفذت فيه من جانب إلى جانب . فأطلق عجلان صرخة صاحلة ثم انهار على نفسه.

وعاد عبد العزيز وابن جلوي إلى القلعة ، دون أن يضيعا الوقت أبداً لينجدا رجالهما فيها . وكان هؤلاء في أشد الحاجة إلى النجدة . لقد قتل اثنان منهم ، وجرح أربعة آخرون جراحاً خطرة . كانوا يقاتلون واحداً إلى عشرة ، بسعار جنوني بلغ من شدته أن حامية القلعة بدأت تفقد مواضع أقدامها . ثم انطلقوا نحو الحصون فقتلوا وجرحوا نصف الجنود الرشيديين وقد فاضت حماستهم متأثرين بعبد العزيز وابن جلوي ، ثم ألقوا بأجسادهم من فوق الحواجز. والباقون من المدافعين رُدوا على أعقابهم داخل ردهة لا مخرج لها، فاضطروا للاستسلام.

لم تكد هذه المعركة تنتهي حتى بادر عبد العزيز إلى إرسال المنادين إلى المسجد وفوق الحصون ليعلنوا للجميع أنه قد استولى على القلعة وأن الحاكم عجلان قد مات.

وانطلق الناس في الرياض يحملون سلاحهم ، منذ علموا بهذا النبأ ، ثم استولوا على بقية النقاط المحصنة في المدينة، وذبحوا من بقي من رجال حامية ابن رشيد واستقبلوا المنتصر بالفرحة والحماسة.

وعندما جاءت الظهيرة كان عبد العزيز سيد مدينة الرياض .

وفي الساعة نفسها ، كان يولد في الكويت ولده الثالث سعود [1] .

بينما كان عبد الرحمن يستعد لارسال فارس نحو نجد ، ليعلم ولده بتلك الولادة ، كان عبد العزيز بدوره ينتدب رسولاً إلى الكويت ليخبر أباه بنجاح مهمته.

- " قال له : لقد استوليت يا أبي على عاصمتنا وأنا على رأس عشرين رجلاً . تعال وألحق بي بسرعة : فان الناس ينتظرونك ! ".

غادر عبد الرحمن مدينة الكويت خفية حتى لا يلفت أنظار أعدائه إليه . فلما بلغ نصف الطريق إلى الرياض ، التقى مفرزة من مائة وخمسين فارساً ، انتدبهم عبد العزيز لملاقاته في الطريق ، ولحمايته من أي هجوم محتمل من قبل ابن رشيد . وبعد بضعة أيام ، وصل عبد الرحمن والموكب الذي يرافقه إلى عاصمة نجد . وقد احتشد كل الناس في طريق الواصلين وهتفوا طويلاً لإمام الوهابيين .

غادر عبد الرحمن مدينة الرياض منذ عام ١٨٩٠م دون أن يطأ أرضها بقدميه . وكان قد مضى أحد عشر عاماً حين شعر والد عبد العزيز بالانهاك والتعب . ان الحياة الصعبة التي عاشها خلال فترة نفيه ، قد شيبته في وقت مبكر . فجمع في قصره القدماء من الأنصار والفقهاء ، ووجهاء المدينة ليعلن إليهم ما عزم على صنعه.

- " قال لهم : ان الحكم فيكم يحتاج إلى رجل أكثر شباباً وفتوة ونشاطاً مني أنا . انكم تعرفون ولدي

عبد العزيز ، لقد رأيتموه يعمل واستطعتم أن تقدروا خصائصه وصفاته الاستثنائية . ولذلك قررت التنازل، لمصلحته، عن كل وظائفي العسكرية والسياسية . انني لن أحتفظ لنفسي إلا بوظائفي الدينية فقط . انني أريد أن أدخر ما بقي لي من العمر للدرس والصلاة والتأمل في ذات الله " .

فانحنى العلماء والوجهاء أمام هذه الرغبة .

---

١) سعود ابن عبد العزيز ، ولد عام ١٣١٩ هـ خلال شهر شوال (يناير "كانون الثاني " ١٩٠٢) خلف والده على العرش عام ١٩٥٣ .

وتم الإحتفال بتنصيب عبد العزيز في اليوم التالي . هكذا قدم عبد الرحمن لولده عبد العزيز ، في ميدان المدينة الكبير وعلى ملأ عظيم من الناس ، سيف عمه سعود الكبير ، ذلك السيف الذي يتوارثه السعوديون جيلاً بعد جيل. ذلك أن سعوداً الكبير نفسه كان قد ورثه عن أبيه عبد العزيز ، الذي تلقاه بدوره من محمد بن سعود ، وهو الذي انتهى إليه من قبل ابن عبد الوهاب ، وابن عبد الوهاب تلقاه شخصياً عن آبائه التميميين . في هذه البلاد التي تطلق فيها الأسماء على الأسلحة وتوضع لها شجرات الأنساب ، كما يفعل لزعماء القبيلة والحيوانات الأصيلة ، فقد كان هذا السيف واحداً من أنبل السيوف في الجزيرة العربية . إن فرنده من فولاذ دمشق ، وقبضته ، من الذهب الخالص ، وقد كانت مرصعة باللؤلؤ . وكان يقال أن البركة قد نزلت عليه منذ أصبح في حوزة ابن عبد الوهاب ، ان فيه دفقاً من القداسة جديراً بأن يعطي حامله الرفاه والسعادة والنصر [١].

ركع عبد العزيز أمام والده وقبل فرند السيف " أي حده " ثم نهض بعد تبتل قصير وأمسك السيف من قبضته فرفعه إلى السماء حمداً لله وشكراً .

ثم خفضه ببطء نحو الجهات الأربع وأقسم أن أي عدو لن يجتاز سور المدينة ، ما دام قائم هذا السيف في يده .

هكذا أصبح عبد العزيز أميراً لمدينة الرياض .

---

١) جرت العادة أن يجد الناس في البركة العربية ، مجرد مرادف للحظ وحسن الطالع . والواقع أن لهذا التعبير معنى أعمق من ذلك كثيراً . " اذ مهما يكن الأصل الذي ننتمي إليه ، فإن للقديس ، أي الولي ، صفة أساسية هي البركة ، أي الدفق المقدس، بما يحمل إلى العابدين ، الرفاه ، والسعادة وكل النعم في العالم . وفي وسعه أن يمد هذه الهبات إلى ما وراء الأفراد ، فوق منطقة بكاملها وحتى إلى ما وراء هذا العالم ، بشفاعته عند الله . وليس من الضروري أبداً أن تبادر إرادة الولي إلى العمل ، لكي تصبح البركة فاجعة مؤثرة : يكفي حضوره أو الاتصال به وهكذا ينتشر هذا الدفق وينتقل بواسطة خدام الولي . انها تشع من جسد الولي في أثناء حياته ، وتستمر بعد وفاته ، ذلك لأن جثته المحفوظة بأعجوبة ، تنقلها إلى القبر الذي يحتويها ، بل إلى الغلالة التي تحيط به والأرض التي تحاذيه ".

(المنشآت الإسلامية ، ص : ٥٩) والأمر هو نفسه بالنسبة لبعض الأدوات – وبصورة خاصة ، الأسلحة ، التي تكون ملكاً لشخصيات أسطورية . " المؤلف ".

عندما علم ابن رشيد بالمغامرة الجريئة التي استولى بها عبد العزيز على الرياض ابتسم ساخراً .

- " صرخ قائلاً : لقد وقع هذا الفتى الطائش في الفخ ! " .

لكن عبد العزيز لم يكن فتى طائشاً . كان يعلم أن قضيته لم تنتصر بعد . لقد أدرك بحس استراتيجي مدهش لصبي في مثل سنه ، أنه سيغلب على أمره وينهزم فيما لو بقي محصوراً في المدينة ، وان عليه أن يخرج منها سريعاً ليحتفظ بحريته في الحركة .

واتجه عبد العزيز على رأس نخبة من فرسان الرياض إلى الحوطة في جنوب بلاد نجد ، وأقام في منطقة الأفلاج ، بين قبائل الدواسر الذين تنتسب والدته إليهم . ومن هناك ، انطلق في كل الاتجاهات يناوش وينهك الحاميات الرشيدية بغزوات متحددة . وفي أثناء ذلك ، كان عبد الرحمن ، الذي بقي في الرياض يتخذ كل الاحتياطات الضرورية لوضع المدينة في حال تسمح لها بالصمود أمام حصار طويل.

أما ابن رشيد فقد راح يطارد عبد العزيز وأقام معسكر قيادته في ديلام – في المكان نفسه الذي سبق لابراهيم باشا أن هزم فيصلاً . فانقض عليه عبد العزيز في هجوم مباغت ، وهزمه في حقل من النخيل يمتد غربي المدينة ، وأرغمه على الاتجاه إلى الشمال.

هكذا اعترفت الأفلاج بسلطان عبد العزيز وتبنت قضيته فمضى ابن رشيد نحو الكويت ، على أمل أن يجتذب عدوه خارج منطقة يسانده سكانها ويبذلون وسعهم لمساعدته في خوض المعارك فخاف مبارك خوفاً شديداً ووجه نداء استغاثة إلى عبد العزيز ذاك الفتى الذي كان قد أعطاه قبل زمن قصير ثلاثين جملاً أجرب ، مع توجيه الأمر إليه بالرحيل في أسرع وقت ممكن . وببادرة من المروءة انطلق ولد عبد الرحمن لانجاد حاميه القديم.

لكن مناورة ابن رشيد لم تكن غير خدعة حربية . فمنذ تأكد له أن عبد العزيز قد اتجه إلى الكويت في خطوات حثيثة ، عاد فجأة إلى الوراء وجاء يضرب حصاره حول مدينة الرياض . وكان من حسن الطالع أن عبد الرحمن قد اتخذ التدابير الضرورية لذلك . فأغلقت عاصمة نجد أبوابها وصمدت أمام المحاصرين.

أدرك عبد العزيز أنه قد خدع . لقد كان حتى ذلك يكيف حركاته دائماً وينسقها مع حركات خصمه. ان هذه المناورة المتسمة بالتهيب والخشية قد حرمته من جزء كبير من وسائل العمل عنده .

ولما كانت التجربة قد منحته الشجاعة المطلوبة ، فقد قرر التصرف منذ ذلك الوقت تبعاً لخطة شخصية . فبدلاً من أن يعود إلى الرياض ، لتحرير المدينة ، سار نحو الغرب ثم انتقل إلى شمال العاصمة ، قاطعاً بذلك خطوط التراجع عند عدوه وأخذ يدمر بلاد شمر ، حيث كان ابن رشيد قد جند الجزء الأكبر من قواته.

ولم يكد هؤلاء يعلمون أن عبد العزيز منصرف إلى احراق قراهم ومحاصيلهم ، حتى رفعوا معسكرهم واندفعوا راجعين .

فحاول ابن رشيد جهده أن يحتفظ بهم في مواقعهم دون فائدة . هكذا تبخر جيشه خلال بضعة أيام . فلم يبق له غير الوقت اللازم للتراجع واللجوء إلى حائل . ثم استولى عبد العزيز ، في محاولة لاستغلال هذا النجاح ، على كل من شقرا ومدينتين أخريين وأخرج منها الحاميات الرشيدية . ولم تمض بضعة أسابيع حتى أصبح سيداً لكل المواقع القائمة شمالي الرياض فيعمق يمتد ثمانين كيلو متراً .

واستمرت المناجزة دون هوادة بين عبد العزيز وابن رشيد خلال عامين ١٩٠٣ و ١٩٠٤ ، في كرّ وفرّ . لقد استمر الخصمان يتقاتلان لمدة ستة وعشرين شهراً كأنهما وحشان كاسران ، دون نتيجة فاصلة .

وفي عام ١٩٠٤ أتيحت أخيراً لعبد العزيز فرصة لتوجيه ضربة كبيرة . فبين الرياض وبلاد شمر يوجد أغنى اقليم في نجد ، القصيم ، من أهم مدنه عنيزة وبريدة . وكانت ما تزال لابن رشيد في هذا الإقليم حامية . لكن الناس فيه معادون له ويتمنون هزيمته في أعماق نفوسهم.

وفي بداية فصل الأمطار ، حيث جرت العادة في توقف المعارك ، غاب ابن رشيد عن الإقليم لفترة قصيرة . فاستغل عبد العزيز هذه السانحة ليقوم بغزوة سريعة في قلب القصيم . فانتزع عنيزة عنوة وقتل الحاكم الرشيدي ، ثم حاصر مدينة بريدة وقد كانت محصنة تحصيناً جيداً .

فسارع ابن رشيد إلى انتداب فريق من المحاربين الشمريين لإخراجه منها . يقودهم ابن عمه عبيد . الذي كان قد قتل محمداً ، شقيق عبد الرحمن ، بعد الاستيلاء على الرياض عام ١٨٩٠ م . فهزمه عبد العزيز عند البخارية ، وفرق قواته وأخذه أسيراً عنده .

كان ولد عبد الرحمن راكباً جمله الكبير حين أقتيد إليه عبيد .

- " قال له من فوق راحلته : أهذا أنت عبيد الذي قتل عمي محمداً قبل اليوم ؟ ".

ثم قفز إلى الأرض، وأخرج سيفه من قرابه وراح يروز حده في مهابة بين يديه .

- قال عبيد ضارعاً : " لا تقتلني يا عبد العزيز ! " .
- أجاب عبد العزيز : " هذه ليست ساعة الرحمة . إنني سأقضي فيها بالعدل . انها ستكون العقوبة العادلة لجريمة لم يعاقب عليها " .

وبادر عبد العزيز إلى هز فولاذ السيف في عين الشمس بمعصمه ، ثم ضرب عبيداً ثلاث مرات بسرعة البرق الخاطف .

أما في الأولى فقد قطع وركه ، مرغماً إياه على الإنحناء إلى الأمام . وأما في الثانية فقد غرس حد السيف في رقبته. وأما في الثالثة فقد شق صدره من أدنى إلى أعلى بذؤابة سيفه ، وأخرج قلبه الذي سقط ينبض في الرمال.

وبقي ولد عبد الرحمن يحدق فيه صامتاً حتى توقف عن الخفقان . ثم رفع سيفه إلى السماء ، وقبل فرنده الذي يسيل من الدماء ، ومسحه بوشاحه وأعاده إلى قرابه . ولما كان المحاربون الذين حضروا هذا المشهد قد سمروا في مكانهم ، وجمدهم الذهول ، دفع عبد العزيز بمناكبهم وأمرهم بالعودة إلى مراكزهم بصوت قاس شديد.

أما حامية بريدة فقد استسلمت في اليوم نفسه . كل القصيم حتى تخوم بلاد شمر اعترف بسلطان السعوديين . ثم فعلت الخرج مثل ذلك . فألحق عبد العزيز هذين الإقليمين بالأفلاج ، التي كان قد ملكها من قبل . هكذا تكون كل مملكة نجد تقريباً قد أعيد بناؤها بين يديه .

أثار موت عبيد المأساوي ، وقد جدد بعد أربعة عشر عاماً ذكرى مقتل سالم ، عند ا بن رشيد ثورة غضب شديد . الثابت أن هؤلاء السعوديين كانوا كلهم متشابهين ، كانوا يحفلون دائماً بالغرائز الدموية نفسها ولن تعرف الجزيرة العربية السلام إلا حين يبادون عن بكرة أبيهم ! ولما كان يريد الثأر لنفسه من الهزيمة التي نزلت به ، توجه ابن رشيد نحو الأتراك وطلب منهم عونهم . ألم يكن بعد كل شيء حليفهم ووليهم المخلص ؟

درست الحكومة العثمانية التماسه . وقدرت وجوب أن تضع حداً لحياة هذا الفتى السعودي الذي لا بد وأن يسبب لها المخاوف الشديدة بقلبه الجريء وتعطشه إلى الغزو والفتوح . فأصدر وزير الحربية ، بالاتفاق مع السلطان ، أمره إلى حاكم بغداد بالقضاء على المتمرد الثائر ، والقبض عليه حياً أو ميتاً ، وارسال رأسه إلى القسطنطينية .

وفي أوائل يونيو (حزيران) من عام ١٩٠٤ رابط في سامراء عند ضفاف دجلة ثماني كتائب من المشاة الأتراك ترافقهم بطاريتان من المدافع المحمولة ، وكان ابن رشيد قد استدعى مواليه وأنصاره من المحاربين الشمريين . وفي نهاية الشهر نفسه سارت هذه القوات نحو الجنوب ، واتجهت على مراحل قصيرة باتجاه جبهة القصيم.

كان يكفي قبل ذلك ببضع سنوات انتداب سرية واحدة للقضاء على عبد العزيز . لكن ضخامة الوسائل التي لجأ إليها الأتراك تدل ، بطريقة قاطعة إلى نمو قوته . لقد تجاوزت حيويته الإطار المحلي لأول مرة وشدت انتباه الوزراء العثمانيين . كل ذلك كان سراباً خادعاً .

لكنه كان في الوقت نفسه خطيراً أيضاً . فامتنع عبد العزيز من التقليل من خطورة الموقف . ان رفض المعركة هو خسارة لماء الوجه وسقوط إلى أدنة مما كان عليه من قبل الاستيلاء على الرياض . ومواجهة العدو تعني التعرض لأخطار كبيرة بسبب الفارق الكبير بين القوى المتقابلة . وراح ولد عبد الرحمن يقيم ما له وما عليه لمدة طويلة . وأخيراً قرر قبول المعركة .

ولم يكد يتخذ قراره حتى أقدم على العمل بطاقة اليائس وقوته . فاستدعى إلى حمل السلاح كل الرجال القادرين وجمعهم حول قرية البخارية . إذ يجب أن تحدث الصدمة الفاصلة هناك.

بدأت المعركة عند فجر الخامس عشر من شهر يوليو (تموز) ١٩٠٤ وبالرغم من أن الشمس لم تكد تشرق بعد فقد كانت الحرارة شديدة . وقرر عبد العزيز أن يبادر بالهجوم إدراكاً منه لقلته العددية . فوجه جهوده كلها نحو أجنحة الجيش المعادي . حيث يجتمع فرسان شمر . فاخترق صفوفهم أربع مرات متتابعة من جانب إلى آخر وأرغمهم على التفرق.

واختلف الموقف حينما أراد أن ينقض على المشاة الأتراك . كانت حملاته ، في كل مرة ، تنكسر أمام المربع المتماسك من الأجساد والفولاذ ، كان ثابتاً لا يتزلزل كأنه القلعة المحصنة ، وكان يقوم بعملية الربط بين البدو الشمريين . لقد كانت المناورة التي نفذها عبد العزيز سيئة : وعندما اكتشف ذلك ، فات الأوان.

وفي فترة الأصيل ، عندما بدأ الفرسان السعوديون يظهرون علامات التعب ، أطلق الأتراك نيران مدافعهم ولما كان البدو غير معتادين على مثل هذه الأسلحة فقد أفزعهم قصف المدافع .

وعندما أراد أن يثبت لهم أن هذه الأسلحة تحدث من الصخب أكثر مما تسبب من الأضرار ، ترجل ولد عبد الرحمن وانطلق تحت الطلقات هاجماً على البطاريات المعادية ، وهو يصرخ في كل من معه أن يتبعوه ويقتدوا به . وفجأة انفجرت قنبلة أمامه على بعد أمتار منه ، فانتزعت أصبعاً من يده اليسرى وأصابت ركبته بجرح خطير . فانتزعت أصبعاً من يده اليسرى وأصابت ركبته بجرح خطير . ولما فقد عبد العزيز كمية كبيرة من دمائه حمل إلى مضربه مغشياً عليه .

أما رجاله ، فانهم حين لم يعودوا يرونه توهموا أنه قد مات وبدأوا يضعفون وعندما عاد إليه وعيه أدرك ولد عبد الرحمن أنه سيخسر المعركة إذا لم يظهر حالاً أمام قواته وبعد أن ضمدت جراحه بسرعة ، ركب حصانه مجدداً رغم الألم الشديد الذي تسببه له ركبته وعاد إلى الظهور في وسط المعمعة . وقد أصاب ظهوره ، غير المنتظر ، جنوده بالذهول ومنع التراجع من أن يتحول إلى تشتت وتبدد . وبتغلبه على آلامه ، نجح في إزالة الرعب الفوضوي وفي إعادة الهاربين والحفاظ على ظاهر من النظام في تشكيلاته ذات المعنويات الهابطة . لكنه لم يستطع أن يمنع جيشه من الاتجاه نحو الجنوب . لقد هزم ولد عبد الرحمن.

وكان من حسن حظه أن العثمانيين لم يحسنوا استغلال انتصارهم . فابن رشيد الذي فقد ألفاً من فرسانه لم يجرؤ على مطارد عدوه ، الذي يسهل أسره عليه . وأما المشاة الأتراك فقد كانوا منهكين جداً بسبب الحرارة . فتركوا فريستهم تنجو بنفسها وانقلبوا إلى قرى القصيم لإعادة النظام إليها — أي لتدميرها.

هنا عرف عبد العزيز فترة من العداوة الشديدة . كل شيء ظهر متحالفاً ضده أما جرحه الذي لم تتوفر له العناية اللازمة فقد تقيح وأحدث له الحمى الشديدة . وتبخر جيشه . كما تسلل من لدنه زعماء القبائل الذين كان قد طلب إليهم مساندته . وفي ذلك الوقت كان الأتراك يتجمعون ليوجهوا إليه الضربة القاضية .

وبدا القدر وكأنه قد ترك ولد عبد الرحمن . وكان جديراً بأي انسان غيره أن يستسلم لليأس . لكنه هو لم يفعل ! فليس عبثاً أن أصدقاءه قد سموه نمر الصحراء . إن العداوة أعجز من أن تحطم إرادته أو تقضي عليه ، انها تضاعف من إرادته . ذلك أنه وهو الذي نشأ في الأخطار قد سبق له أن عرف عدداً غير قليل من المواقف اليائسة . لكنه لم يفقد في يوم من الأيام ثقته بطالعه . فالحظ في كل مرة وعند آخر دقيقة يبادر إلى انجاده.

وفي هذه المرة أيضاً ، تصرف بيقظة وحيوية فرغم أن جراحه كانت تؤلمه دون انقطاع ، رفض أن يستسلم بسببها للجمود ، وراح يبحث عن الجديد من الحلفاء . هكذا أرسل الرسل إلى مطيري وعتيبة والدواسر وحتى بعيداً إلى الشمال حيث تقوم قبائل المنتفك وعنيزة .

ولما لم يستطع رسله أن يكونوا مقنعين لمن يقابلونهم بصورة كافية ، قام هو شخصياً بجولته في القرى، والتمس من زعماء العشائر أن يتحدوا معه لطرد الغزاة من البلاد .

كان يردد على مسامعهم دون كلل أو ملل : " إن هذه الحرب التي أخوضها هي حربكم أيضاً . ان عليكم أن تساعدوني على قهر ابن رشيد وغلبته ! وليس في وسعكم أن تقفوا جانباً بانتظار نتائج المعركة ! لقد ارتكب ابن رشيد الجريمة التي لا تغتفر اذ أدخل الأتراك إلى الجزيرة العربية الوسطى . فإذا أثبت هؤلاء أقدامهم فيها . ذهبت حريتكم مرة وإلى الأبد . قفوا أيها الناس ! وخذوا أسلحتكم ، وانضموا إليّ ! " .

لكن اقناع زعماء القبائل لم يكن بالأمر اليسير . لقد كانوا شكاكين حذرين ونزقين مع حساسية شديدة . كانوا يقولون لأنفسهم : ان الانضمام إلى السعوديين ومساندتهم ، يعنيان التعرض لخطر الوقوع بعد ذلك تحت سلطانهم . لا شك أن الوحدة العربية شيء جميل . لكن لفوضى الصحراء جاذبيتها أيضاً . فلماذا لا ندع السعوديين والرشيديين يتقاتلون ويفترس بعضهم بعضاً ، ثم نستفيد من خصوماتهم فنستولي على أسلابهم .

خاطبهم ولد عبد الرحمن بقدر كبير من الحماسة والحرارة وقدم نفسه إليهم بالثقة التي لا تتزعزع في أنه بطل الاستقلال العربي ، حتى انتهى به الأمر إلى جعلهم يشاركونه في قناعته .

وبعد أن وزن زعماء القبائل ما لهم وما عليهم لفترة طويلة انتهوا إلى التعهد له بتقديم المساندة المطلوبة.

هكذا انطلق أمير الرياض الشاب ينتقل من مدينة إلى مدينة يشرح للناس فيها حقيقة الموقف ويقول لهم : ان النزاع الذي يجعله في مواجهة ابن رشيد ليس نزاعاً حول السلطة ، بل هو قضية حياة وموت بالنسبة لكل قبائل الصحراء . يفعل هذا وهو يعرج دائماً معتمداً تحت أبطية على عكازيه لأن جراح ركبته لم تكن قد اندملت بعد.

والواقع أن حيويته قد حققت لقضيته أكثر مما حققته أعظم الخطب الحماسية اللاهبة وقد وافق الناس وقبلوا العودة إلى القتال متأثرين بتلك الشجاعة الفائقة . وأقبل عبد العزيز يحض القبائل ، ويجند الرجال ، ويصادر الركائب ويسلح كل من كان قادراً على حمل البندقية ، قبل أن يستيقظ الأتراك وابن رشيد من ذهولهم ، ثم انقض عليهم في هجوم مباغت ، على رأس جيش جديد .

وكان هذا اللقاء الثاني شمالي مدينة الرياض ، قرب قرية شنانة .

هذا وقد امتنع عبد العزيز من اللجوء إلى التكتيك الذي استعمله في العام السابق . لقد قرر أن يهمل الشمريين وأن ينقض مباشرة على المشاة الأتراك ويستفيد من الوقت الذي يكون فيه رجاله أنشط ما يكونون في محاولة لتدمير العدو في موقع القلب منه . وقد لجأ إلى هذا الأسلوب متأثراً بتجربته السابقة . هذه الطريقة كانت هي الجيدة والمثلى.

وانطلق الفرسان السعوديون صارخين وهم في كامل قوتهم وأهبتهم ، نحو الكتائب العثمانية . فانحنى خط الدفاع التركي تحت تأثير الصدمة ، ثم انقسم على نفسه ولما كان عبد العزيز ورجاله المحاربون قد اخترقوا قلب جيش الأتراك من جانب إلى جانب أعادوا الكرة عليه مقتحمين صفوفه من الخلف ، ثم قسموا التشكيلات المعادية إلى أجزاء كثيرة. أما الشمريون فانهم تفرقوا بدداً حين شاهدوا الكتائب التركية تترنح وتفقد الثبات في مواطىء الأقدام . والواقع أن الأتراك كانوا جنوداً ممتازين . فأعادوا تشكيل مربعهم القتالي. لكن عبد العزيز حاصرهم وأحاط بهم . فحطم الأتراك حصاره وبدأوا حركة تراجع إلى الوراء . ثم استمر هذا التراجع في اليوم التالي والذي يليه . وفي اليوم الثالث تاه المشاة

الأتراك عن طريقهم عند هبوط الليل ، وانطلقوا على غير هدى في كل اتجاه . ولما كانوا قد ابتعدوا عن مواقع الماء فقد نفذت مؤونتهم منه ، فشققت الشمس أيديهم وشفاهم . أما عيونهمفقد كانت تحترق بالحرارة والغبار. كما فقد أكثرهم أحذيتهم . فلم تعد أقدامهم غير جرح كبير ، يخلف آثاره الدامية فوق الرمال. ثم لم تلبث الكتائب التركية حتى أصبحت رتلاً طويلاً من الهاربين ، الذين يمهدون طريقاً لأنفسهم عبر الكثبان وهم يترنحون .

واستمرت هذه الهجرة الحزينة ستة أيام كاملة — ستة أيام لم يكف فيها الفرسان السعوديون عن مطاردة المتخلفين والإجهاز على المرضى منهم . لقد كان البدو ينقضون عليهم بسرعة البرق الخاطف ، ويطلقون نار البنادق على أهداف هي في متناول رصاصهم تقريباً ثم يتابعون إحضارهم [1] في إعصار من الغبار.

فإذا سقط أحد الأتراك منهوكة قواه في جانب من الطريق انقضت عليه نساء المحاربين من الدواسر لقطع رقبته . أما الذين نجوا منهم من القتل فقد ماتوا من الضنى والانهاك . ثم لم ينج منهم من ا لموت غير عشرين رجلاً فقط وصلوا إلى البصرة .

لم يكن في وسع الأتراك أن يسكتوا عن مثل هذا الإذلال . إن كارثة شنانة قد حطمت سلطانهم في شبه الجزيرة العربية كلها .

فوجه السلطان عبد الحميد لوماً شديداً إلى حاكم بغداد على أنه لم يقدر قوة الخصم حق قدرها . وأمره في هذه المرة بالعودة إلى القتال على أن يجند الكثير من الفرق . بينما كانت أوساط عبد العزيز وزعماء المذهب الوهابي سكارى من الفرح والنشوة . لقد أدار الانتصار رؤوسهم . فلم يعودوا يتحدثون في أقل من سحق الأتراك والسير إلى القسطنطينية وطرد السلطان ووزرائه منها بضربات السيوف .

لكن عبد العزيز ، الذي كان يرى الموقف بنظرة أكثر واقعية ، رفض الاستسلام لنشوة الحماسة العامة. كان يعلم ما عاناه من الشدة والأذى في القضاء على ابن رشيد وعلى جيش تركي ، لا يتجاوز حجم قواتهما عشر كتائب . فإذا أخذت الأمبراطورية العثمانية الموقف مأخذ الجد وقررت أن تدفع ثمنه المطلوب ، فان في وسعها أن تجمع له قوات

---

١) أحضر بالحصان : أي أسرع به .

كبيرة جداً . لقد كان هذا التقدير إحتمالاً لا يمكن لعقل ذكي أن يتعرض له في طيش وخفة . وإذاً فان الاستمرار في القتال غير ممكن . والواجب يقضي بالانتقال إلى المفاوضة . لكن هل يقبل الأتراك الدخول فيها والموافقة عليها ؟

هنا أشرك عبد العزيز مباركاً في إدراكه للموقف وطلب إليه أن يقوم بدور الوسيط بينه وبين الأتراك. وقد كانت لمبارك علاقات صداقة حميمة مع مخلص باشا حاكم البصرة التركي . فبادر إلى إعداد لقاء بين مخلص وعبد الرحمن ، الذي عمل كمندوب مفاوض لولده . وبعد مناقشات ومحاورات حثيثة اتفق الجانبان على الشروط التالية : يعترف سلطان القسطنطينية بسلطان عبد العزيز في بلاد نجد . وفي مقابل ذلك ، يوافق عبد العزيز على إقامة قوة عسكرية عثمانية في القصيم واقامة حاميتين تركيتين في عنيزة وبريدة.

وقد صدق ولد عبد الرحمن هذا الاتفاق على غير إرادة منه ، لكنه فعل هذا مع احساس بالانفراج . ومع ذلك فان الوجهاء الوهابيين ، أنصار حرب الإبادة ، وبعض القادة العسكريين الذين كانوا يظنون أنهم حرموا من ثمرات نصر سهل يسير ، قد رفضوا هذه الصفقة . حتى أنهم جاوزوا ذلك إلى اتهام أميرهم بالخيانة.

- " لقد أعلنوا أن هذا الموقف الخاضع تجاه القسطنطينية غير لائق بالسعودي ! وان هذه السياسة المتخاذلة لن تسبب لنا غير المرارة . ولا شك أن أجدادنا سيخجلون عنا ، ان هم شاهدونا نتصرف على هذه الطريقة! " .
- ويجيبهم عبد العزيز قائلاً : " صبراً أيها الناس فان المعركة لم تنته بعد . ان هذه السياسة ستسبب للأتراك من المرارة أكثر مما تسببه لنا . أن المهم ، في هذه الفترة هو أن نكسب المزيد من الوقت ! ".
- " ويردف العلماء قائلين : الصبر ! دائماً الصبر ! أهذه هي اللغة الصالحة لرجل محارب ؟ إننا دعينا إلى قليل آخر من الصبر ، انتهى كل شيء إلى الضياع ... " .

وصلت القوات التركية وأقامت مركز قيادتها في القصيم .

وقد حدث كل شيء في البداية بصورة عادية . لكن المحتلين لم يلبثوا أن وجدوا أنفسهم في قبضة صعوبات غير مرتقبة . لقد امتلأت الطرق ، في سرية تامة ، بعصابات لا سبيل إلى الإمساك بها . تدمر القوافل القادمة من البصرة. وبالرغم من كل الجهود المبذولة لم يستطع جنود السلطان أن يضعوا أيديهم على المعتدين . ولما كانوا في حذر دائم وعلى أهبة مستمرة فقد استنفدوا نشاطهم باقامة الدوريات وتنظيم عمليات الاستكشاف دون فائدة . وعلى ذلك فان أية محاولة لم تتوصل إلى حماية القوافل من التدمير.

وفي أثناء الأشهر التالية ، إزداد الموقف سوءاً ، محدثاً حالة من الضيق المتزايد في المنطقة كلها . لقد ظهر أن الأتراك كانوا عاجزين عن توفير الأمن في المناطق التي وكلت إليهم حراستها . الهجمات والطعنات تتجدد في كل ليلة. لا شيء كان يصل إلى غايته ... المؤن ، والسلاح والذخيرة . هكذا قطعت الحاميات التركية عن قواعدها.

بعد عام واحد ، أصبح الأتراك لا يملكون غير الأسمال البالية وكادوا يموتون جوعاً . وفي بعض المواقع اضطروا لأكل اللب من أشجار النخيل . وفي بعضها الآخر ، كانوا يبيعون بنادقهم ليحصلوا على مؤونتهم من الطعام . ثم انتهى بهم وباء الزحار [1] إلى تحطيم معنوياتهم . وبدأ المشاة العثمانيون يهربون من صفوف الجيش ، بعد أن أمتحنوا امتحاناً عسيراً بمناخ تلك المناطق لا سيما وأنهم كانوا في كثرتهم فلاحين أناضوليين .

ولما لم تعد حكومة القسطنطينية تعرف ما يجب أن تفعله توجهت نحو عبد العزيز والتمست منه مد المساعدة لحامياتها ومساندتها في القضاء على عمليات السلب والنهب . أما ولد عبد الرحمن فقد أستقبل هذا الطلب بابتسامة صغيرة . وأعرب عن أسفه لضياع الأمن في طرق المواصلات ، ووجه إلى القادة الأتراك عبارات المجاملات اللطيفة وحضهم على متابعة جهودهم .

لكنه لم يقدم إليهم أية مساعدة جدية . ثم صادف بعد ذلك أن تضاعفت الغزوات وعمليات السلب والتدمير خلال الأشهر التالية .

---

١) الزحار : هو مرض الإسهال الشديد في الأمعاء.

هكذا أصبحت الحكومة التركية في وضع سيء لا تحسد عليه . وكان عهد عبد الحميد غارقاً حتى الأذقان في صعوبات من كل الأنواع . فاليمن والحجاز عند حافة الثورة . وكانت سوريا موطناً لنشاط الجمعيات السرية . أما في القاهرة ودمشق وسالونيك ومنستير ، فان الثورة تحت الرماد ، لا تنتظر غير الفرصة الملائمة للخروج إلى ضوء الشمس.

وكان الأتراك مرغمين على توزيع قواتهم في أربعة أقطار الأمبراطورية ، وعلى نحو لم يكن في وسعهم معه أن يتصرفوا بقوات كافية للتدخل جدياً في الجزيرة العربية . كما أنه لم يكن في وسعهم تقوية حامياتهم في القصيم ، بينما أرمينيا وبلاد البلقان في حالة غليان كامل . ولم يكن عبد العزيز يجهل هذا كله . كان في وسعه استغلال هذا الوضع لمهاجمة الأتراك ، وانزال الهزيمة بهم وطردهم من البلاد . كما يمكن أن يكون مصدر كسب له في أوساطه التي تحضه على ذلك . إلا أن ولد عبد الرحمن رفض الانصراف عن خطته التي اختطها لنفسه. لقد أقسم أن يقضي على الأتراك ويتخلص منهم بتجنيد عصابات بسيطة ، ولذلك فلم يكن يزعجه ترك التجربة مستمرة حتى النهاية . "كان يقول لنفسه : لماذا نتعب أنفسنا في خوض معارك طاحنة حين يكون الزمن قادراً على اسقاط الثمرة المطلوبة بين أيدينا دون قتال ؟ ".

أما الأتراك ، فانهم بعد أن أسقط في أيديهم ، ارتدوا إلى الوسيلة التي طالما حققت لهم أغراضهم في الماضي : إنها الرشوة . لقد قدموا الذهب إلى عبد العزيز ، في مقابل عونه لهم . ولم يكن أمير الرياض غنياً. فالذهب عصب الحرب . وهو يسمح بشراء الأسلحة ، وتجنيد الرجال ، وكسب الحلفاء . لكن عبد العزيز أجاب السلطان بأنه ليس للبيع .

لم يكن رفضه لهذا العرض بسبب عدم الاهتمام ولا بسبب الكبرياء ، بل كان بحساب سياسي . كان يعلم أن السلطان العثماني عند حافة الانهيار . ولذلك لم تكن عنده أية رغبة في عقد أية التزامات نحوه ...

وهنا بادر الأتراك إلى تخفيض حامياتهم في القصيم على مراحل بعد أن أدركوا انهم مضيعون في وكر من الزنانير . ثم انتهوا إلى سحبها كلها وقد علموا أنها لم تعد ذات فائدة على الإطلاق . وفي نهاية عام ١٩٠٥ تقريباً كانت آخر الوحدات العثمانية تجلو عن المنطقة . فاختفت عصابات المخربين بقدرة قادر . لقد ربح عبد العزيز الجولة ، دون الخروج من حياده الظاهري .

كان جديراً بالعلماء الوهابيين أن يعترفوا شاكرين بالمهارة التي خرج بفضلها من الموقف . لكن هؤلاء " العلماء " كانوا ذوي مزاج سوداوي عابس ، ينظرون إلى كل شيء بمنظار أسود . لقد نقموا من ولد عبد الرحمن اتفاقه مع الأتراك ، وتنبأوا له بأن هذه السياسة لن تقود إلا إلى الكوارث . أما الآن وقد جلا الأتراك عن الأرض ، فيبدو كما لو أنهم نقموا منه أن الكارثة المرتقبة لم تقع . ففي مزاج عبد العزيز شيء لا سبيل إلى تحديده وكان يسوؤهم إلى حد بعيد . ان ثقته المطلقة بنفسه ، وأن ذلك الاندفاع الذي يتميز به ، وطريقته الجريئة في الازدراء بنصائحهم لم تكن تعني عندهم شيئاً ذا قيمة . كانوا يتساءلون : ما عسى يكون مستقبل نجد ، تحت قيادة مثل هذا الرجل ؟ كانت محادثاتهم الخاصة تكشف عن طريقة فهمهم للأحداث ، فيهزون رؤوسهم بوقار ظاهر وهم ينظرون إليه في عمله.

وعندما جلا الأتراك عن البلاد ، وجد ولد عبد الرحمن نفسه مرة أخرى أمام ابن رشيد وجهاً لوجه ، لكن التناسب بين القوى لم يعد كما كان من قبل . لقد انقلب في ذلك الوقت . كان ابن رشيد وحده . وكان نجمه يبهت وينطفيء بينما نجم عبد العزيز يلمع بضياء يطرد في وضوحه وقوته . يضاف إلى ما سبق ، أنه وجد نفسه على رأس تجمع كبير ، فالانتصار في شنانة ، وانهيار الأتراك قد منحاه مزيداً من الامتياز . كانت قبائل جديدة تأتي منضمة إليه في كل يوم . وأخيراً أصبح مسلحاً تسليحاً جيداً بفضل السلاح الذي حصل عليه من تدمير القوافل العثمانية.

في تلك الأثناء ، يمكن أن يسبب أقل تهور له نتائج خطيرة . ذلك أن ابن رشيد ، رغم النكسات التي ألمت به ، كان ما يزال محارباً رهيباً ، وقادراً على أن يوجه إلى خصبه ضربات قاسية شديدة غير منتظرة. ان الحياة في الصحراء متحركة كالرمال . وان فشلاً واحداً ، أو خطوة واحدة متعثرة كافيان لتمزيق شبكة المحالفات الهشة التي نجح ولد عبد الرحمن بنسجها من حوله بين ليلة وضحاها.

ومنذ أنهى الأترك جلاءهم عن القصيم ، بدأ عبد العزيز حرب انهاك ضد ابن رشيد ، أرغمته على التنقل دون توقف . وكان ابن رشيد قد هرم . فبعد اليوم الذي خاض فيه هذا الخنزير البري غمرات الحرب، بدأ يحس بالتعب . فلم يعد يملك المرونة ، والصلادة عند الشباب.

في مساء يوم من الأيام ، أقام مضاربه قريباً من قرية مهنا ، وقد كان الرجال منهكين بالجهود التي بذلوها خلال الأيام السابقة . ولما كان يعلم أن عبد العزيز غير موجود بالمنطقة . قدر أنه لا يتعرض لأي خطر ، وأن اقامة الحراس اجراء غير مفيد .

والواقع أن عبد العزيز كان على بعد عشرات الأميال من هناك . لكنه عندما علم من قبل الجواسيس أن ابن رشيد قد أقام مركز قيادته في أرض مكشوفة وأنه لا تحميه أية إجراءات أمنية ، أصدر أمره إلى رجاله بالركوب مباشرة وانقض على مهنا بأقصى سرعته . كان عبد العزيز وفرسانه ينطلقون الليل كله دون توقف. فوصلوا قرب معسكر الرشيد عند الساعة الثالثة من الصباح .

هبت رياح الشمال وأحدثت عاصفة من الرمال قبل الفجر بقليل فترجل عبد العزيز ورجاله ثم تقدموا عبر حقل من النخيل دون أن يراهم أحد وقد أخفوا أنفسهم وراء سحب كثيفة من الغبار ثم انقضوا في هجوم مباغت على معسكر العدو . أما رجال ابن رشيد الذين فوجئوا وهم نائمون فانهم لم يجدوا الوقت الكافي للرد على المهاجمين : لقد طعن أكثرهم بالخناجر داخل مضاربهم.

لم تكن شمس النهار قد طلعت بعد . والرياح تعصف في هبات متتابعة ، تصادمت بها رؤوس أشجار النخيل . وكان في وسع ابن رشيد أن ينجو بنفسه بفضل الفوضى العامة . لكنه لم يكن جباناً فسارع إلى سلاحه ثم خرج من مضربه وهو يطلق صرخة الحرب ليجمع بها رجاله . فهل كانوا كلهم أمواتاً أم أن الأحياء منهم لم يسمعوا النداء بسبب الرياح العاصفة ؟ لقد وجد نفسه وحيداً ، تائهاً في غير اتجاه واضح عبر المعسكر المدمر في ضوء الصباح الغامض ، وفي وسط الزوابع الكثيفة من الغبار ، فشاهده بضعة فرسان من السعودينن في الوقت الذي كان يختبىء فيه وراء جذع نخلة . فأصابوه برشقة من طلقات بنادقهم وهم قريبون منه.

قطع عبد العزيز رأس عدوه وحمله معه إلى الرياض . ثم أمر أن يطوف به في بلاد نجد كلها وقد زرعه فوق رمح يتقدمه أربعون محارباً يدحرجون أمامهم إطارات كبيرة مغلفة بالمطاط . فكان لهذا الهدير الحزين ، الذي يتردد بعيداً في الصحراء غرض واحد هو إعلام الناس أن السعوديين هم الغالبون وأن ابن رشيد قد مات ، وأنه لم يعد أي مبرر ، منذ اليوم ، للخوف من إجراءاته الانتقامية .

أما خلف ابن رشيد فقد كان فتى مراهقاً تنقصه التجربة . فقتله أحد أخوانه . ثم قتل هذا الأخير من قبل ابن عمه . فتنازع ذكور العائلة كلها في اقتسام ميراثه . وأخذت قبائل حائل ، بعد أن جرت إلى هذه المنازعات ، تتقاتل بدورها . هكذا شاعت الفوضى عندها فأصبحت في حالى استيطان مستمر . نعم ، انها لم تعد تمثل أي خطر على بلاد نجد.

وعندما دخل ولد عبد الرحمن دخوله الظافر إلى الرياض ، تقدم نحوه الجميع معربين عن تقديرهم وشكرهم حتى أولئك الوهابيون الذين كانوا ينتقدونه بشدة . ثم أقيمت صلاة الشكر في المسجد ، وعلى أثرها تمت تسمية أمير الرياض من قبل أبيه ملكاً على نجد وإماماً للوهابيين بحضور قدماء الأخوان ، ورجال الدين ، وزعماء المنطقة والقادة العسكريين . وبذلك اجتمعت له السلطة السياسية والسلطة الدينية . لقد بدأ حلم المراهقة يتحقق في الأمر الواقع.

منذ ذلك اليوم اتخذ عبد العزيز اسم ابن سعود بصورة رسمية . لكن رفاق السلاح استمروا يطلقون عليه اسم "نمر الصحراء " احياء لذكرى القفزة الرائعة التي قام بها يوم انقض على رقبة الحاكم عجلان واسترد فيها عاصمته بقبضة يده.

في ذلك اليوم قدمت الأضحيات واحتفل الناس في الرياض وما حولها بالمناسبة لمدة أسبوع كامل. والواقع أنها قد استحقت هذا العيد بعد أعوام القلق والقتال.

لكن عبد العزيز لم يكن يريد الانفراج للنابض الذي شده بقوة . فالاستيلاء على نجد في نظره لم يكن غير مرحلة أولى . إنّ الأعظم والأمجد ، لكنه الأصعب أيضاً ، هو ما يجب أن يفعله من بعد.

بعد ثمانية أيام من المناداة به ملكاً جمع إليه النخبة من محاربيه في ميدان المدينة الكبير ، ليطلعهم على خططه . وقد وقف قليلاً أمام جمهور الناس فصيل من الرجال المقاتلين الذين غطتهم ندوب الجراح يقودهم ابن جلوي . لقد كانوا الخمسة عشر من الرجال الأحياء الباقين من المجموعة الأولى من المتطوعين ، الذين أقسموا له يمين الولاء في جبرين.

وهناك خطبهم عبد العزيز من أعلى درجات القصر . وشكرهم على أنهم خدموه بمثل هذا التفاني . وذكرهم بكل ما قاموا به معاً ، الاستيلاء على الرياض ، وفتح الأفلاج والخرج ، ثم فتح القصيم . ومعارك البخارية وشنانة . وطرد الأتراك ثم الانتصار النهائي على ابن رشيد.

- " قال لهم : لقد أنزلتت بكم محناً ثقيلة . هذا شيء أعرفه : لكنني أعرف أيضاً بأية جرأة تغلبتم

عليها. ان ما فعلناه هوشيء كثير . لكنه قليل بالنظر لما بقي علينا أن نفعله ! وأنا لا أريد أن أرغم أحداً على أن يتصرففي غير ما يرضاه لنفسه . فاذا تبعتموني ، أعدكم ، بعون الله أن أجللكم بالنصر . سأجعل منكم شعباً عظيماً

وستستمعون برفاهية هي أكبر كثيراً من تلك التي عرفها أجدادكم . ستنشرون في كل مكان نقاوة عقيدتنا ، تبعاً لدعوة سيدنا محمد بن عبد الوهاب . وأنني لأعلم أنكم تتحرقون رغبة في طرد الأجانب وابادة الفاسقين . من أجل ذلك أقول لكم : لا تدعوا أسلحتكم تصدأ ، بل أحزموا بطونكم من أجل معارك جديدة ! فإلى الأمام ! مع الله ! من أجل اصلاح العقيدة وغزو الجزيرة العربية ! ".

وفجأة خرجت السيوف من أغمادها . والتحمت ألوف من شفرات الفولاذ في الشمس ثم تردد هتاف عظيم من أعماق كل الصدور.

ومضى الليل كله وقد حفلت شوارع الرياض وميادينها بالغناء والرقص . ثم تفرق الناس عائدين إلى قراهم . وفي أثناء الأيام التالية كانت تسمع حتى تخوم بلاد نجد العبارة الملتهبة التي رددها الملك الشاب أمام جنوده وخلصائه .

- إلى الأمام ؟ مع الله ! من أجل اصلاح العقيدة وغزو الجزيرة العربية ! .

الباب الثالث

غزو الجزيرة العربية

(١٩٠٥– ١٩٢٨)

كان ابن سعود حتى ذلك الوقت قد بلغ السابعة والعشرين من العمر . كان رقيقاً قوياً وطويلاً كأنه البرج الثابت المكين.

وكان النصر الذي حققه قد توجه بهالة من المجد العظيم ثم لم يعد أحد بعد ذلك يجادل في قيمته العسكرية . لقد عرفنا كيف غلب الأتراك وسحق ابن الرشيد وغزا بلاد نجد بذؤابة سيفه . ومع ذلك فان سلطته كانت ما تزال متزعزعة غير ثابتة .

ذلك أن القبائل المقيمة في الجزيرة العربية الوسطى والتي اعتادت الحرية المطلقة خلال قرون من حياة البداوة لم تكن أبداً على استعداد للخضوع لنير سيد واحد – مهما تكن فضائله وخصائصه . كل نظام يبدو لها ضغطاً غير محتمل ، بل هو إهانة لأقدس ما كانوا يملكون.

" يقول لنا حتي : إن روح العشيرة يطالب أصحابه قبل كل شيء بولاء مطلق غير مشروط نحو الآخرين من أعضاء العشيرة ، فهو نوع من التزمت الوطني المثير . والولاء نحو القبيلة يفترض مسبقاً أن تكون هذه الأخيرة بنفسها ، وحدة كاملة ، كافية ، ومطلقة ، وهو الولاء الذي يقابل على نحو من الأنحاء فردية أعضاء القبيلة وقد ألقت بظلها مستوى عال رفيع . وكل قبيلة أخرى تعتبر في النتيجة فريسة مشروعة ، وغرضا معيناً للتخريب والقتل [١] " .

وبتعبير آخر كانت القبائل العربية شبيهة برمال الصحراء . كل منها تشكل ذاتاً مستقلة بوحشية شرسة . وهي كالرمال يمكن أن نمسك بها بشد قبضة اليد عليها. لكنه من الصعب جداً أن نجعل منها كتلة موحدة . فلا يكاد الضغط يرتفع حتى تسيل حبات الرمال من خلال الأصابع وتتشتت في وحدات صغيرة معزولة بعضها عن بعض ومستقلة إحداها عن الأخرى كما كان شأنها من قبل.

إن أكثر العرب لم يساندوا عبد العزيز بالولاء الصادق أو في ظل مثل أعلى . فلم ينضموا إليه إلا بوازع المصلحة . كانوا يقولون في أنفسهم : إننا إذ نتخلص من ابن رشيد ، لا يمنعنا شيء من الانصراف دون رقابة إلى العمليات العادية من السلب والنهب .

---

١) فيليب ك . حتي . ص : ٢١ – ٢٢ ويضيف المؤلف قائلاً : " إن الخلق العربي بعد تطويره وتنميته وبعد الانتصارات الأولى للإسلام ، لم يستطع التخلص من روح العشيرة ، ولا من الجانب غير الإجتماعي لفرديته ، من هنا يجب أن نرى العوامل الأساسية التي قادت مختلف الدول الإسلامية إلى تفتتها وأخيراً إلى ضياعها " .

ففي نظرهم أن التجمع حول أمير الرياض يجب أن يكون وقتياً وعابراً . أما وأن عدوهم قد مات فإن تحالفهم لم يعد ذا غرض معين .

على أن عبد العزيز نفسه قد أسهم في خلق هذا الفهم الخاطىء . أو لم يكن قدم نفسه إليهم على أنه " بطل الاستقلال العربي " ؟ فماذا تعني هذه الكلمات إذا لم تكن دعوة موجهة إلى الأمراء والشيوخ لمعركة يستمتعون في نهايتها . بحقهم الكامل بالتصرف على هواهم.

لكن عبد العزيز لم يكن في نيته أبداً أن يدع القبائل تعود إلى فوضاها القديمة ، فأهوت قبضته عليهم بطريقة بدت لهم أشد وأقسى مما كانوا ينتظرون منه . فلما رأت الملك يمنعها من القيام بأقل غزوة دون موافقته ، ويعاقب بشدة تلك التي تركب رأسها وتصر على تجاهل إرادته ، بدأت تتذمر وتضج ثم تنتفض وتنضوي في طريق الثورة والتمرد.

لقد كانت بين نجد والكويت منطقة ذات تخوم غير محددة حيث تعيش قبائل مطير . هذه القبائل كانت مستعصية على النظام بصورة خاصة . وكانت كل محاولة لمراقبة تصرفاتها وضبطها تبدو لها غير محتملة . وكان على رأسها محارب من الطراز الأول هو الشيخ دويش ، لا يروقه أبداً أن يكون تحت الوصاية التي يريد ولد عبد الرحمن أن يفرضها عليه . وعلى ذلك فقد قدر ، في تعلقه الوحشي الشرس بامتيازاته ، إن عليه تحطيم سلطة ابن سعود قبل أن يتاح له الوقت الكافي لتعميق جذوره فاتصل بالفريق من قبائل شمر الذي يعيش في القصيم ، وكشف لهم عن الأطماع غير المقبولة للأمير الجديد وأقنع حاكم بريدة على رفض كل تبعية نحو السعوديين .

أما عبد العزيز فقد تبينت له مباشرة خطورة هذا العمل منذ علم أن حاكم بريدة رفض تنفيذ أوامره ومنع الرسل الذين انتدبهم إليه من الاقتراب من مدينته . فتقدم على رأس ألف محارب نجدي وسار نحو بريدة .

وفي وسط الطريق ، بين الرياض وبريدة ، اصطدم ابن سعود بكوكبة من الشمريين المتمردين الذين يقصدون إلى قطع الطريق عليه . فحمل عليهم دون تردد ومزقهم بعد أن أنزل بهم خسائر كبيرة .

ثم توجه نحو قبائل مطير ، الذين سارعوا إلى نجدة الشمريين ، فهزمهم بدوره وأرغمهم على التراجع إلى أرضهم . لكن القضية في نظره لا يمكن أن تقف عند هذا الحد . كان عليه أن يعاقب المتمردين بطريق تذهب مثلاً في الناس ، بحيث ينزع من نفوسهم كل رغبة في العودة إلى مثل ذلك . وقد طالما غير المطريون معسكرهم . وإذا فان عليهم أن يتعلموا على حسابهم ، بأن هذه الأيام قد مضت إلى غير رجعة.

هكـذا توغـل ابـن سـعود في أراضـيهم ، وأحـرق قـراهم حـتى حـدود الكويـت وشـنق زعمـاءهم أم الشـيخ دويش فقد دان بسلامته إلى هربه.

-" كان ابن سعود يقول : إنني سألوح بسيفي في وجه البدو . فهذا هو المنطق الذي يفهمونه " .

لقد طاردهم وفرق صفوفهم حتى جاء الأحياء منهم خاضعين يلتمسون عفوه.

ثم سـار نحـو بريـدة . وتصـديقاً للمعلومـات الـتي حملـت إليـه ، وجـد الأبـواب مغلقـة والمدينـة في حالـة حصـار. وكـان لـه أصـدقاء في ذلـك الموقـع . ففـي سـاعة صـلاة المسـاء ، وبينمـا كانـت الحاميـة كلهـا مجتمعـة في المسـجد ، فـتح لـه هـؤلاء الأصـدقاء الأبـواب فتـدفق المحـاربون النجـديون عبرهـا وفاجـأوا سـكان المدينـة . ثم جـر الحـاكم الـذي كـان قـد عينـه قبـل وقـت قصـير إليـه . فسـقط علـى ركبتيـه باكيـاً ، ومـرغ جبهتـه في الـتراب ، لأنـه كـان ينتظـر أن تقطـع رقبتـه ، لكـن ابـن سـعود وجـه إليـه نظـرة إزدراء ، وأمـره أن يـنهض واقفـاً ثم قضـى بأن يترك المدينة حالاً مع عائلته كلها.

كانـت قلعـة بريـدة مفتـاح نجـد الشـمالية ومحطـة هامـة في طريـق القوافـل . ولكـي يحـون دون العـودة إلى مثل هذه الأحداث عين ابن سعود ابن جلوي حاكماً عليها .

وكـان ابـن جلـوي رجـلاً نشـيطاً مخلصـاً وممـن أقسـم يمـين الـولاء لعبـد العزيـز في حقـل النخيـل مـن جـبرين ، وتبعـه منـذ ذلـك الوقـت ، في كـل المراحـل . لقـد كـان في وسـع ولـد عبـد الـرحمن أن يثـق بـه . وكـان يحـدث مـن الخوف في نفوس من يقتربون منه . ما جعل لكلامة قوة الشريعة ، حتى بالنسبة لأكثر البدو ثورة وتمرداً .

منذ ذلك اليوم لم يحدث أي اضطراب في القصيم . هكذا تم إخماد الثورة في مقاطعات الشمال .

ولم يكد الهدوء يعود إلى القصيم حتى انفجرت ثورة أخرى في الجنوب . في هذه المرة كان العجمان هم الذين يسعون إلى رفض وصاية عبد العزيز . أما موطن الثورة ففي مدينة ليلا وكان الذين يؤلبون الناس عليه بضعة محاربين متعصبين من فرقة القتلة .

وكانت هذه الثورة أشد خطورة من سابقتها . أولاً ، لأنها أقرب إلى الرياض ولأنه من المحتمل بالنتيجة أن يمتد خطرها إلى العاصمة . ثم أنّ تصرف هؤلاء القتلة قد سمم العاصمة بأن زرع فيها انتفاضة دينية أحدثت الاضطراب في العقول . فوجب على ولد عبد الرحمن التدخل بنشاط خاص . لقد كان ما جرى معركة طبقية لملكية ناشئة ضد إقطاع صاخب شغب يرفض الإنحناء أمامها.

توغل عبد العزيز في منطقة العجمان بقوة ، وكان عليه تصفية بعض الحسابات الشخصية معهم، فدمر أراضيهم بطريقة منظمة وأرسل قوتين تأديبيتين إلى قريتي القطين والحوطة ، وأمرهما باجتياحهما بعد إبادة السكان فيهما.

– " لقد أمر رؤساء المفرزتين قائلاً : يجب ألا يبقى حجر على حجر . لا شيء يجب أن يدل إلى موقع هاتين المدينتين " .

وتم تنفيذ هذه الأوامر بدقة . ثم سار نحو مدينة ليلا ، فأخذها عنوة ، وأرغم الحامية على الاستسلام وقضى بقطع الرؤوس لتسعة عشر عضواً من فرقة القتلة .

ثم أرجأ تنفيذ العقوبة أربعاً وعشرين ساعة ، وأرسل رسله إلى المقاطعة كلها يدعو فيها الناس إلى مدينة ليلا ، لأنه كان يريد أن يحضروا عقوبة المجرمين .

وفي أثناء الليل ، أمر باقامة منصة خارج الحصون فوق مساحة من الأرض جرت عادة القوافل أن تجتمع فيها . وعند الفجر توافد سكان المدينة ، وأبناء القرى المجا ورة وعدد كبير من البدو وأزدحموا فوق الفناء أمام المنصة .

كانوا يشغلون الجوانب الثلاثة من مضلع رباعي ، بينما جعل الوسط خالياً من قبل قوة نجدية.

هذا وقد اجتاز ابن سعود الموقع بصمت مأساوي مؤثر وصعد المنصة ، يحيط به شيوخه وحرسه الخاص . وقد منحته هامته الهرقلية وغضبه الذي كان يغضن معالم وجهه، هيئة رهيبة . ثم فتحت أبواب المدينة ورؤي القتلة التسعة

عشر يتقدمون في بطء شديد مثقلين بالسلاسل ويسيرون في رتل هندي ، واقتيدوا ، واحداً وراء الآخر ، حتى أسفل المنصة وأرغموا على الركوع.

– " قال ابن سعود وهو يشير بيده : لا حول ولا قوة إلا بالله ! " .

وفي الوقت نفسه اجتاز الموقع عبد عملاق أسود ، عاري الصدر يحمل سيفاً يتبعه مساعداه وجاء يقف أمام صف المحكومين . قرأ كاتب المحكمة الوهابي قرار الاتهام ، معدداً الأسباب التي استحق بها المتمردون حكم الموت . وبذلك روعيت كل الإجراءات الرسمية لتنفيذ العقوبة الكبرى . لقد كان ابن سعود حريصاً على اظهار أنه لم يكن يتصرف بقسوة ولا بدافع الإنتقام ، بل لارغام رعاياه على احترام الشريعة .

وخز الجلاد الأسود جانب كل رجل بدوره بذؤابة سيفه وفي الوقت الذي كانت فيه الضحية تتقلص مقشعرة بملامسة الفولاذ ، يقطع رقبتها . ثماني عشرة مرة شوهد الجلاد وهو يقوم بالعمل نفسه . وثماني عشرة رأساً دامية تدحرجت فوق الغبار . وعندما تقدم المحكوم التاسع عشر بدوره وركع أمام ابن سعود. أشار هذا الأخير إلى الجلاد أن يبتعد .

– قال له : إنني أعفو عنك . وأنت حر فاذهب وقل في كل مكان ما عساك رأيته . قل للصحراء كلها كيف يصون ابن سعود العدالة ويحققها .

وبعد إنتهاء الإعدامات ، تقدم ملك نجد إلى الأمام فوق المنصة وخطب الناس . فشرح لهم ما تعنيه خطيئة التمرد والعقوبات الرهيبة التي تصيب المجرمين الذين يقومون بارتكابها . ثم طلب إلى الحاضرين أن يقتربوا منه ، وقد خفض صوته وكلمهم بلهجة أكثر رقة .

– " قال لهم : أنتم رعاياي المحبوبون . اعلموا أنه ليس أشد إيلاماً لي من أن أعاقبكم على هذا النحو. فلا ترغموني على معاودة هذا الأسلوب . اختاروا من بينكم حاكماً مخلصاً يمكن أن أثق به.

إنني أترك لكم الحق في أن تحكموا أنفسكم وتديروا شؤونكم شرط أن تقسموا على أن تكونوا موالين مخلصين ". وارتفعت من الجمهو همهمة من المفاجأة . كانوا ينتظرون أن تمزق صفوفهم أو أن يحولوا إلى العبودية . وها هو ابن سعود يسمح لهم باختيار حاكمهم ! هذه الأريحية أحدثت تأثيرها العميق في النفوس . لكن جثث المعذبين الثمانية عشر بقيت معروضة أمام الناس لمدة ثلاثة أيام ، تفترسها الكلاب والطيور والجوارح ، لكي يكون هذا المشهد الرهيب بمثابة تحذير الذين تسول لهم نفوسهم اشعال نار الثورة .

وذاعت قصة مدينة ليلا وانتقلت من قرية إلى قرية . كانت تحكي عند كل مساء أمام نيران المضارب . إن العقوبة القاسية التي أنزلت بالمحرضين على الثورة والأريحية المفاجئة التي تبعتها أثارتا خيال البدو إلى أبعد الحدود . " قالوا : هذا هو الرجل الجدير بأن يحكمنا . إنه محارب عظيم ، وقاض حازم لكنه عادل ، وزعيم ينهض لمسؤولياته ويعرف ما يريد " .

وتسامعت أكثر القبائل بعداً بأنباء تنفيذ عقوبة الإعدام بالقتلة فأخذها خوف شديد . " شيئان بخاصة يؤثران في العرب : القوة والعدل . لقد كانوا يعرفون أن ابن سعود رجل قوي . ثم علموا بعد ذلك أنه عادل أيضاً وقد ظهر مصمماً على أن تحترم إرادته . فالأفضل هو أن يطيعوه لا أن يتعرضوا لغضبه " . هكذا تمت السيطرة نهائياً على ثورة الجنوب.

بينما كان ابن سعود يعاني هذه المتاعب الداخلية ، كان الموقف الخارجي قد تطور كثيراً . إن الثورات التي كانت العلامات المنبئة عنها قد تواترت بادىء الأمر وأرغمت الأتراك على سحب حامياتهم من القصيم . انتهت إلى الانفجار والاشتعال . وفي عام ١٩٠٨ استولى " الشبان الأتراك " على السلطة في بلادهم .

وفي العام التالي كان السلطان عبد الحميد قد أسقط عن عرشه وولي مكانه السلطان محمد الخامس. وكان الثلاثي أنور وطلعت وجمال الذين يحكمون تركيا ، قد تعهدوا بالانقطاع عن أخطاء الماضي .

كما وضعوا خطة لتحقيق الإصلاحات الواسعة . لكن القادة الجدد احتفظوا في أثناء ذلك بنقطة واحدة من سياسة العهد القديم : كانوا متفقين تماماً على عدم التنازل عن البلاد العربية . وكانت قراراتهم كلها آية على إستعدادهم لتشديد القبضة عليها .

هكذا عينوا حكاماً جدداً ، أكثر شباباً ، وأعظم طاقة ، في كل من العراق وسوريا ، وفي المقاطعات الساحلية للخليج العربي والبحر الأحمر . كما زادوا حامياتهم في بلاد الاحساء . وأخيراً عينوا الحسين شريفاً على مكة .

كان شريف مكة واحداً من أكثر الأشخاص أهمية في العالم الإسلامي ، إذ أنه يتمتع بامتيازات دينية واسعة . وكان باعتباره سادن الحرمين استمراراً للخليفة على نحو من الأنحاء ، ذلك لأن الخليفة لم يكن في وسعه إعلان الجهاد دون موافقته . يضاف إلى ذلك أيضاً أن تعيين الحسين بدا لقادة لجنة " الإتحاد والترقي " ، إختياراً موفقاً بصورة خاصة. كان هذا الأمير العربي هاشمياً منتسباً إلى طبقة الأشراف " النبلاء " من أحفاد هاشم ، جد النبي محمد . وكان قد تزوج ابنة أحد كبار الموظفين الأتراك ووضع نفسه طمعاً وجشعاً تحت تصرف القسطنطينية . وبذلك أصبحت السلطات العثمانية على ثقة من أنه سيخدم خططها الخاصة بالأمانة المطلوبة.

وفي أثناء هذه السنوات ، لم تبق القوات الأوروبية مكتوفة الأيدي . أما بريطانيا فقد دعمت قواعدها في الجزيرة العربية بعد أن نظمت ونسقت بيد بطيئة ، ولكن ثابتة ، خيوط الجمة المعقدة للمصالح والمنافسات التي تشد هذه المنطقة من العالم وتضغط عليها.

لقد تظاهرت بعدم الاهتمام بنظام مبارك في الحكم بعد الأزمة التي انفجرت في الكويت في أغسطس (آب) من عام ١٩٠١ ، لكن ازورارها عن هذه المدينة لم يستمر لمدة طويلة . ففي عام ١٩٠٣ ، أقدم اللورد كورزون على احتلال المرفأ بصورة مفاجئة وأرغم مباركاً على تسوية ديونه نحو الحكومة البريطانية على شكل " معاهدة خاصة " فترتب على هذه المعاهدة أن تفوز انكلترا بحق الحماية على الكويت وبحق ممارستها لصلاحيات " شرطة الخليج " ثم انسحبت القوات البريطانية بعد ذلك (١).

ثم عقدت الحكومة البريطانية بعد ذلك مع القيصر اتفاقاً تنال روسيا بموجبه حق التدخل والحماية على بلاد التركستان وإيران الشمالية ، بينما احتفظت بريطانيا لنفسها بحق السيادة على ايران الجنوبية والخليج العربي ٣١ أغسطس (آب) ١٩٠٧.

وبينما كان هذا العمل المنهجي يتم في شمال شبه الجزيرة كانت وزارة الخارجية البريطانية قد بدأت بالتمهيد لنفسها وترسيخ أوتادها في الجنوب . لقد أبعدت الأطماع الفرنسية في قناة السويس بالموافقة على أن يكون لباريس حق الرقابة على مراكش وذلك بموجب معاهدة وقعت في ١١ إبريل (نيسان) من عام ١٩٠٤ ، وفي الوقت نفسه تترك مصر لبريطانيا . وفي عام ١٩٠٦ وجهت حكومة لندن نحو الأتراك في العقبة ضربة أخرى مكررة بذلك حادث الكويت كلمة كلمة وسطراً سطراً . والعقبة هي مرفأ يطل على البحر الأحمر ويقع قريباً من السويس حيث أرغم السلطان على سحب قواته منها بعد مظاهرة قام بها الأسطول البريطاني.

هكذا كان يتحدد حول الجزيرة العربية تهديد مزدوج : أما التهديد الأول فقد سببته تقوية الحاميات التركية ، والثاني نشأ عن تدعيم النفوذ البريطاني.

هذا كله ما كان ليمضي دون أن يقلق ابن سعود . لقد بدأ يشعر بوجوده في ضيق وحرج شديدين منذ أصبح سيداً لبلاد نجد عام ١٩٠٥ . كان عليه ، تحت طائلة البقاء محصوراً في رمال الجزيرة العربية الوسطى ، أن يؤمن لنفسه منفذاً على البحر ، وأقرب بحر إليه هو الخليج العربي . لكن ما هي فائدة الدخول في نزاع مع الأتراك ، إذا كان بعد تغلبه عليهم — وهذا غير مؤكد — سيجد نفسه في اليوم التالي في نزاع مثله مع انكلترا؟

---

١) أنظر جورج أنسل : المسألة الشرقية ، ص : ٢٣٠

ولما لم يكن يعلم أي اتجاه يأخذه ، توجه ولد عبد الرحمن نحو مبارك ، وسأله أن يتعرف إلى رأي حماته في هذا الموضوع بصورة خفية عام (١٩١١) . فاتصل أمير الكويت بالسطات البريطانية . وبين لها أن مصالح ابن سعود ليست متعارضة مع مصالحها فهما كلاهما يريدان إخراج الأتراك من الخليج العربي . لكن هل كانت الحكومة البريطانية

قادرة على تحقيق هذا العمل . دون أن تسبب ذريعة للحرب مع الأمبراطورية العثمانية وأن تحدث التحرك في كل المستشاريات الأوروبية ؟ أما إذا قام ابن سعود بهذه المهمة مكانها ، فإنها لن تكون أكثر من نزاع داخلي صغير ، يسهل الحفاظ على أبعاده المحلية ، ثم تكون النتيجة النهائية لفائدة الجميع . فاقتنع البريطانيون بهذا المنطق الذكي الماكر . وأجابوا مباركاً بأنهم لن يعترضوا على تصرف حليف شرط ألا يمس مقاطعة الكويت . وكان هذا الجواب قد حقق تمنيات مبارك تماماً .

على أنه رغم التأكد من الحياد الانكليزي ، تبقى الحرب ضد الأتراك أمراً مشكوكاً في نتائجه . ولما كان مبارك يعلم جيداً ما يجري في القسطنطينية نصح ابن سعود بالانتظار . فالتصلب التركي لم يكن غير لهب الهشيم . وسيتبين الشبان الأتراك بسرعة أن سياستهم العربية شديدة الطموح وأنهم لا يملكون الوسائل الضرورية للحفاظ عليها وصيانتها.

والواقع أن نبوءة مبارك قد تحققت أسرع مما كان يقدر . فقبل نهاية ذلك العام (١٩١١) أقدم الإيطاليون على مهاجمة طرابلس الغرب . ثم لم تكد تنتهي المنازعات الإيطالية التركية حتى اندلعت نار الحرب البلقانية الأولى

(أكتوبر " تشرين أول " ١٩١٢) . وسار الصربيون نحو سالونيك والبلغاريون نحو القسطنطينية.

وبذلك يكون الأتراك في حاجة إلى كل جندي من جنودهم .

وهنا أدرك ابن سعود أن وقت العمل قد جاء .

بين الكويت وعمان ، على طول الخليج العربي ، تمتد منطقة رملية ، فقيرة وحزينة أنها منطقة الاحساء وهي قليلة السكان.

فإذا أتى فصل صيد اللؤلؤ ، تغير فيها كل شيء وأصبحت المنطقة مركزاً لنشاط تجاري مكثف . إن القبائل التي تسكن عادة في داخل هذه الأرض ، تتوافد نحو البحر لعقد الصلات والصفقات مع سكان الشريط الساحلي وجزيرة البحرين التي تقوم في مواجهتها . إن القطيف ، والعقير وخبر والمرافىء الأخرى التي تكون في العادة خالية من الناس ، تستقبل في ذلك الفصل جمهوراً صاخباً من أصحاب الأعمال . فإذا انقضى هذا الوقت ، انسحبت القبائل ، وخلت

المدن ، أما التجار فانهم يحملون بضائعهم إلى أسواق الهند وفارس . وتعود الاحساء عند ذلك إمتداداً صحراوياً خالياً من الناس.

في ذلك العصر ، كانت الاحساء خاضعة لحاكم تركي ، يقيم في الهفوف ، عاصمة المقاطعة فأرسل ابن سعود عدداً من الجواسيس ليعرف الوضع النفسي عند السكان ، وليكون فكرة واضحة عن حجم الحامية العسكرية.

فلما عاد هؤلاء الرسل السريون ، رفعوا إليه تقريراً مشجعاً كل التشجيع . أما سكان الهفوف فقد كانوا مرهقين مزعجين من قبل الأتراك لأن إدارتهم الفاشلة ، تجعل حياتهم مستحيلة . كما أن المنطقة كانت حاشدة بالمجرمين الذين يعتدون على القوافل ويسلبونها . فلم يكن فيها من يشعر بالأمن . أما فيما يتعلق بحاميات الهفوف والمدن الرئيسية الساحلية ، فقد تم تخفيضها تخفيضاً كبيراً .

لقد استدعيَ القسم الأكبر من هذه القوات إلى البصرة ، لتنتقل بالسرعة الممكنة إلى الجهة البلقانية . وكانت وحدة قوية من المشاة قد اتجهت نحو الشمال ، قبل قليل ، بكامل أمتعتها وأسلحتها وأضاف الجواسيس أنهم قد التقوا في المقاطعة ، عدداً كبيراً من الوهابيين وقال لهم هؤلاء : أنهم مستعدون لتبني قضية ابن سعود ، فيما لو قدم إليهم بقوات كافية . هذه المعلومات أقنعت ملك نجد بأن من الممكن القيام بعملية عسكرية في مقاطعة الاحساء .

وبعد أن جند خيرة قواته ، اتجه عبد العزيز نحو الشرق بخطوات حثيثة دون أن يتوقف في أي مكان، على أمل أن يسبق المخبرين الذين يحتمل أن يكونوا قد لاحظوا وجهته فانطلقوا ينذرون الحامية به. لقد اجتاز صحراء الدهناء في مرحلة واحدة فقط ، ونفذ إلى الاحساء ثم انقض مباشرة على الهفوف. فوصلت قواته مساء اليوم الثالث عند تخوم المدينة دون أن يعلن أحد عن وصوله.

كان الليل حالك السواد لا قمر فيه . وقد اجتاز ابن سعود الواحة الكثيفة التي تحيط بحصون المدينة ، يصحبه سبعمائة رجل ووقف هناك مستخفياً وراء أشجار النخيل ، أمام باب إبراهيم باشا . ثم ترجلوا في تلك المنطقة وتقدموا

زاحفين على بطونهم نحو الأسوار ذات الشرفات . فبدا لهم أن خندقاً قد حفر حديثاً حولها . وكانت تعلو هذه الأسوار المحصنة على مسافات متباعدة أبراج عالية ومربعة يشغلها الحراس المراقبون.

ودون أن يتنفسوا الصعداء ، أقد إثنا عشر جندياً على تسلق الأسوار مستعينين بسلالم من خيوط النخيل . فطعنوا الحراس بالخناجر وفتحوا باباً يسمحون به لمن بقي من القوات المسلحة بالدخول إلى المدينة . فكانت تلك العملية من السرعة والصمت بحيث أنه لم يعط الإنذار بوجود العدو . لقد كانت المدينة نائمة ، يغلفها صمت ثقيل.

هبط رتل الوهابيين نحو شارع السوق ، أي سوق الخميس ، ثم توجه مباشرة نحو القلعة . هذه القلعة وتدعى — الكوت — كانت بناءً كبيراً مربعاً . يشرف على المدينة كلها ، يحيط به تاج من الأبراج الصغيرة المساعدة . وكان من حسن حظ المهاجمين أن حاجز الباب الحديدي مفتوح وأن الجسر الممتد فوق الخندق نازل . بالإضافة إلى أن أفراد فصيلة الحراسة نائمون أيضاً . فقتلهم الوهابيون ثم تدفقوا نحو القلعة .

أما الأتراك ، الذين أخذوا على غرة ، فانهم لم يجدوا الوقت الكافي لرفع البنادق من مساندها . فقتل أكثرهم بالسلاح الأبيض ، واستسلم الآخرون دون مقاومة . وبعد ذلك بساعة واحدة أصبح النجديون سادة القلعة . أما الوحدة العسكرية التي كانت تحتلها فقد نزع سلاحها وحبست في أقبية القلعة.

ومنذ أشرقت الشمس بنورها ، هبط ابن سعود من القلعة واجتاز المدينة ، بكامل قواته ، يتقدمه حامل العلم . كان الوهابيون يرددون الأناشيد ويضربون بلاط الشوارع بحوافر خيولهم.

وبسماع هذه الضجة هرع السكان إلى عتبات أبوابهم. وكان من شدة المفاجأة التي سببتها لهم رؤية هذا العرض أنهم احتاجوا إلى فترة طويلة للخروج من ذهولهم.

كان الحاكم التركي والقسم الأكبر من الحامية قد حجزوا أنفسهم في مسجد إبراهيم مقتنعين بأن ملك نجد لن يجرؤ أبداً على ا قتحام بيت الله . فأرسل ابن سعود مفاوضاً يحمل إليهم الانذار التالي.

- " إذا أصررتم على المقاومة ، فإنني سأضع لغماً تحت المسجد وأفجره بكم نحو السماء . وسيكون المشهد صورة جميلة من الألعاب النارية ! إنه ليست لكم أية فرصة

للنجاة بأنفسكم . وعلى العكس، فانكم إذا وافقتم على الاستسلام أتعهد بحمايتكم وأدعكم تخرجون سالمين من المدينة [١]".

ظن الحاكم التركي أن ابن سعود يخدعهم.

- " قال في نفسه : إن تقواه معروفة مشهورة . وإن إمام الوهابيين لن يجرو أبداً على المساس ببيت الله ! " .

لكنه حين شاهد النجدين يبدأون بحفر نقب عند المسجد أدرك أن ولد عبد الرحمن لم يكن يمزح أبداً . ثم أعاد النظر في الموقف فوجد من الحكمة أن يقبل عروض المنتصر.

بعد ذلك بأربع وعشرين ساعة ، كان الأتراك يغادرون الهفوف بمراسم الشرف في الحرب . وتوجهوا نحو أقرب مرفأ وأبحروا إلى مدينة البصرة . ولم تكتب لهم العودة بعد ذلك إلى الاحساء أبداً .

وفي الأيام التالية ، كان ابن سعود يجوس خلال المقاطعة في كل اتجاه ليتقبل خضوع القبائل . ثم استولى دون قتال على كل من مرفأ القطيف وعقير ، وعلى كل الساحل حتى حدود الكويت .

ثم سحب ابن جلوي من بريدة وعينه حاكماً على الاحساء وكلفه بفرض النظام في المقاطعة بتطهيرها من العصابات المنتشرة فيها .

فقام ابن جلوي بهذه المهمة بنشاطه المعهود عنه . فلم يلبث سكان الاحساء أن أصبحوا قادرين على التفرغ لأعمالهم.

---

١) أنظر جيرالد دوغوري : الجزيرة العربية والمستقبل .

- "كان العرب يقولون : إن صولجان سعود طويل ، وإن ظله يمتد عبر الصحراء والبدو يخافونه".

وانحنى الأتراك أمام الأمر الواقع ، جاعلين من الضرورة فضيلة لهم . ثم دخلوا في مفاوضات مع ابن سعود وعقدوا معه ، لأول مرة ، معاهدة رسمية [١] . لقد أقروا أن الاحساء جزء لا يتجزأ من نجد وأن ابن سعود هو ملك القطاعين

معاً . ومنحوه وشاح الهلال ، وأعطوه كل الأسلحة التي خلفوها في الهفوف ، وتعهدوا بعدم التدخل في شؤونه الخاصة . وفي مقابل ذلك قبل ابن سعود بالإعتراف باللسان الرسمي للأتراك . والواقع أن هذا البند كان حبراً على ورق ، ما دام أن الحكومة التركية عاجزة عن تنفيذه .

أما الانكليز فانهم لم يتدخلوا التزاماً لما تعهدوا به . وأما الاحساء ، الفقيرة الموحشة في الظاهر ، فقد كانت في الحقيقة منطقة من أغنى المناطق في العالم . إن هذه الأبعاد القاحلة من الرمال كانت تساوي أمبراطورية .

لكن ابن سعود لم يكن يعلم هذا بعد ، وكذلك الانكليز . ولو كان شيء من ذلك لجرت الأحداث ، دون ريب ، على غير هذا النحو .

وأصبح ابن سعود ملكاً على نجد والإحساء . إن هذا الإلحاق الأخير قد أعطاه منفذاً عريضاً على البحر وزاد أهميته في الجزيرة العربية زيادة بالغة . فهو لم يعد ملكاً صغيراً غير ذي أهمية ، سجيناً في الصحراء الوسطى . لقد هزم الأتراك في شنانة ، وأرغمهم على الجلاء عن القصيم ، وها هو يخرجهم الآن من الاحساء . ومن هنا تبين لأصحاب العقول النيرة ، أن وراء هذه الأعمال ، إرادة منهجية حاضرة. فبدأ زعماء القبائل من أقصى شبه الجزيرة إلى أقصاها ينظرون بدهشة إلى صعود قوته . لقد بدأت صورة " الملك العملاق " تبهرهم.

هذا وقد جاءت عناصر ثورية من سوريا لتجتمع به في الرياض . كانوا أعضاء في " جمعية الفتاة ". وهي جمعية سرية أسست في دمشق ، لتحرير سوريا . " يقول لنا لورانس : هذه الجمعية كانت تضم أصحاب أراض ، وأدباء وفقهاء وموظفين كباراً . توحدهم ، في ظل قسم الولاء ، كلمات السر ، وإشارات يعرف بها بعضهم بعضاً . ومطبعة، وصندوق مشترك : أما هدفهم فهو تدمير الأمبراطورية العثمانية . وبفضل السهولة الصاخبة عند السوريين ،

---

١) أما إتفاق البصرة الذي عقده قبل ذلك بسنوات قليلة بين مخلص باشا وعبد الرحمن فقد كان اتفاقاً شفهياً وحسب.

كانوا قد بنوا بسرعة منظمة كبيرة . وكانوا يبحثون عن العون في الخارج ، آملين أن يستردوا الحرية بالمفاوضات لا بتقديم التضحيات . وكانت اتصالاتهم كثيرة مع مصر ومنظمة الأحد وهي جمعية شبيهة بها أسست في العراق ،

وشريف مكة وبريطانيا العظمى : وباختصار ، مع كل الذين يعتقدون أنهم جديرون بتقديم عونهم لتحقيق أغراضهم[1].

– قال لابن سعود : نحن منهمكون في إعداد مؤامرة واسعة ضد الأتراك . لقد تفاوضنا من قبل مع مبارك في الكويت ، ومع الحسين في مكة ، هذان الأميران تعهدا بتقديم عونهما فلماذا لا يكون ملك نجد على رأس هذه الحرب المقدسة وهو الذي يتمتع باعجاب الجميع بسبب فضائله القتالية ؟ أفلا يكون هذا رمز مجد جميل لحفيد سعود الكبير ؟ " .

استمع إليهم ولد عبد الرحمن بانتباه شديد . لقد كان هو أيضاً ، شديد الإعتزاز بالإنتماء إلى العنصر العربي وهو أشد منهم رفضاً لفكرة أن يكون محكوماً من قبل الأتراك .

لكنه قدر في الوقت نفسه أن محدثية من أصحاب الأفكار الخيالية ، ممن يحسنون القول ويجدون في رغباتهم حقائق واقعة .

لم يدهشه أن يكونوا على إتصال مع مبارك . فمن هو الذي لم يتصل مبارك به ؟ أما مع الحسين ؟ فإن هذا الهاشمي المتزوج من إمرأة تركية ، كان على اتصال وثيق بقادة الإمبراطورية . أو ليس أنه كان تابعاً للسلطان ، والمساعد المخلص للخليفة ؟ ثم أليس أن عبد الله ، أحد أولاده ، كان نائباً لرئيس البرلمان التركي ؟ وأن فيصلاً ولده الآخر ، كان نائباً عن أبيه في البرلمان نفسه ؟ الواقع أن تآمره على سادته بواسطة جمعية الفتاة السرية ، هو افتراض لا يرد أبداً. نعم ، لقد كان هؤلاء المحامون الدمشقيون كلهم فئة من المتشدقين ...

أما فيما يتعلق بتحرير سوريا ولبنان ، فالثابت ، أن هذا الموضوع كان شيقاً ومثيراً . فابن سعود لم يكن يجهل الجاذبية التي تمارسها هذه الأراضي الخصبة منذ قرون على قبائل الصحراء .

---

١) ت . أ . لورانس : أعمدة الحكمة السبعة ، ص : ٦٠ .

إن كل معركة تخاض في هذا الاتجاه ستفوز بالعطف الشعبي العام . ولكنه كان يقدر أن هذا التخطيط غير قابل للتحقيق في ذلك الوقت .

يضاف إلى ذلك ، أن ما جاء الثوريون السوريون يعرضونه عليه ، كان بالنسبة للظروف القائمة ، من نوع المغريات التي لا يجب أن يستجاب لها أبداً . فالملاحظ أن البدو في الجزيرة العربية الوسطى قد تدفقوا مرتين ، خلال التاريخ ، نحو حوض المتوسط . أما في المرة الأولى ، فقد نجحت العملية ، في عهد أبي بكر وعمر ، واستطاعت الفيالق الإسلامية أن تغزو وتبني أمبراطورية ، وفي المرة الثانية ، فشلت العملية ، في عهد سعود الكبير وعبد الله ، واجتذبت العدو حتى قلب شبه الجزيرة .

وفي كل مرة — ومهما اختلفت نتائج المحاولة التي تقوم بها الجزيرة العربية من نصر أو هزيمة —كانت هذه المحاولة تمثل خيانة نحو الجزيرة بالذ ات ، ذلك لأن كل الطاقات المبددة خلال تلك البعثات العسكرية قد صرفت أصحابها عن الغرض الأساسي . وهو بناء أمة عربية . كان الشعب العربي قد خرج من هذه المغامرات المستنزفة لدمائه ، في القرن التاسع أو القرن التاسع عشر ، منهوك القوى وأفقر مما كان عليه من قبل . وبذلك يعود إلى فوضاه القديمة بعد تلك الانفجارات الهائلة في حيويته [1] .

---

١) حين نضع الصحراء العربية في مكانها الطبيعي من المنطقة المحيطة بها فإننا نكتشف ما قررناه من قبل من أنها بمثابة الرحم التاريخية التي تدفع بموجات المهاجرين في كل اتجاه ولا سيما في اتجاه الشمال الشرقي وهو ما سبق أن قرره المؤلف من قبل . فالجزيرة العربية لا تستطيع ، بطبيعة أرضها ، أن تستوعب حضارة منعزلة عما حولها من الأنشطة البشرية . ولذلك فإن سوريا والعراق إلى جانبهما الشمال الأفريقي فيما بعد قد كانت الأحواض الطبيعية التي تستوعب نشاط هذه الهجرات وتوفر لها الظروف الملائمة التي تسمح لأصحابها ببناء الحضارات . أما فقر الجزيرة العربية فهو نابع من طبيعتها لا من الهجرات المتتابعة منها . وإذا فهي تعطي ما عندها —رفض ابن سعود أن يرتكب الخطأ الذي ارتكبه من سبقه من الرجال . فهو لن يدفع بلاده في واحدة من تلك المغامرات غير المأمونة ، حيث تسيل دماء شعبه فيما لا يفيد . لقد كان ما يهدف إليه شيئاً آخر : إنه يتلخص في انتزاع الجزيرة العربية من نظامها الإقطاعي ، وإعادة بناء الأراضي ، ووضع حد للفوضى فيها ، وما تفرضه السنن الطبيعية عليها . أما فيما يتعلق بعدد الهجرات فالواقع أن تاريخ الجزيرة العربية لم يسجل الهجرتين اللتين أشار إليهما المؤلف وحسب . لقد كانت هناك هجرات كثيرة . لعبت كل منها دوراً أساسياً في بناء كل حضارة نشأت في العراق وسوريا باستثناء الحضارة الحثية . كما تضاف إليها هجرات أخرى تفاوتت حجومها نحو شرق أفريقيا إبتداء من المنطقة التي توازي البلاد اليمنية حتى مصر. ثم تدفقت هجرات مثلها نحو الشمال الأفريقي . ولعلنا لا نحتاج إلى التذكير بهجرة بني هلال وسليم في العهد الفاطمي . وقد كان لهذه الهجرة إلى جانب ما أحدثته من التخريب بسبب المعارك التي خاضها أصحابها مع دول المنطقة ، فضل تعميق الارتباط بين شمال أفريقيا والعنصر العربي .

على أن الهجرة إلى المناطق المذكورة لم تكن دائماً على صورة موجات بشرية ضخمة فقط في فترات معينة ومتباعدة تباعد التقلب في مصير الحضارات الناشئة بل كانت وما تزال مستمرة على صورة زحف خفي لا يحدث الزلازل السياسية والإجتماعية العنيفة بل يتسلل شيئاً فشيئاً ويتوغل في الأراضي الخصبة المحيطة بالصحراء .

وقد جاء المؤلف نفسه على وصف هذه الظاهرة في مقدمته الضافية على هذا الكتاب . ومن هنا يبدو لنا أن الصحراء هي الأم التي تضع الخامة البشرية لكل الحضارات الناشئة تقريباً في منطقة الهلال الخصيب ثم في وادي النيل والشمال الأفريقي بخاصة بعد الهجرة الإسلامية الواسعة . كما أنها المدد الدائم للتيار البشري الذي تتجدد به الحيوية والخصائص النفسية والخلقية في البلاد التي تستقبل عناصر هذه الهجرات . " المعرب ".

وبتعبير آخر ، إعادة الوحدة إليها . ولئن قدر له —كما كان يأمل بكل إخلاص وصدق — أن يكون من وراء موجة إسلامية جديدة ، فهو لن يندفع نحو أهداف توسعية إلا بعد أن

يوحد مملكته وينظمها . من أجل ذلك وجب أن تكون للمملكة حكومة وإطارات إدارية . كما يجب أن تجهز بأسباب التقدم والبناء وأن تستغل ثرواتها . فإن مكن للملكته في الأرض ورسخ لها قاعدة ثابتة ، كان في وسعه أن يوجه أنظاره إلى الخارج . نعم إن سوريا هدف مهم. لكن العمل لها يكون فيما بعد ... بل بعد وقت طويل .

هكذا صرف ولد عبد الرحمن مخاطبيه بكل تهذيب . لقد كان عليه أن يفعل شيئاً آخر غير الركض وراء الأفكار الخيالية ...

إن المهمة التي تستقطب فكره كله كانت شيئاً مختلفاً اختلافاً تاماً .

كان عبد العزيز قد بلغ العام الثاني والثلاثين من عمره . وقد هيأت له الحياة العنيفة المضطربة التي عاشها منذ شبابه الأول فرصاً كثيرة للتفكر والتأمل في المسائل الأساسية للجزيرة العربية .

لا لأنه كان ذا عقل استنتاجي ومنطقي فقط بل كان قبل كل شيء رجلاً تجريبياً وحدسياً أيضاً . وقد مكنته غريزته من أن يستوعب الواقع بطريقة أكثر مباشرة وأكثر قوة مما لو حاول أن يقارب هذا الواقع بالتحليل أو التعليل العقلي.

أما مجموعة رعاياه فقد كانت تنقسم إلى فريقين . الأول أقلية قروية ومدنية . والثاني ، أكثرية من البدو الرحل . وقد كان في وسع ملك نجد أن يطمئن إلى ولاء الأولين . أما الثانون، فإن الإعتقاد بأنهم ينحنون لنظام مشترك بالقدر الذي يقوون فيه على حالهم من البداوة ، هو الدليل الواضح على جهل صاحب هذا الاعتقاد بطبيعة هؤلاء الناس . إنهم في حركة دائمة ، لا شيء يستطيع أن يمسك بهم في أي مكان . ففي نظرهم أن وضع البدوي المترحل هو أشرف الأوضاع وأنبلها وهم يعتبرون أنفسهم صورة لكمال الخلق البشري . أما الرجل المتمدن فهو لا يبدو لهم أقل سعادة منهم وحسب ، بل هو أيضاً وإلى حد بعيد دونهم مرتبة ومكانة . ولما كانوا شرهين إلى تلك الأنساب الكريمة التي يرتفعون بها في الماضي حتى

آدم نفسه ، فإنهم يفخرون بنقاوة دمهم ، وفصاحتهم وشعرهم ، وسيوفهم ، وركائبهم ، وفوق هذا كله ، بنبالة أجدادهم [1].

إن كل ما يملكون هو مضربهم ، وحصانهم ، ونساؤهم وبخاصة حريتهم . ليس من التزام يقيدهم أنهم متموجون كالبحر متحركون كالرياح.

ومن هنا تصدر أخلاقهم القلقة وصفاتهم الانفعالية . إن كلمة واحدة كافية لنقلهم من الضحك إلى البكاء ومن البشاشة إلى الغضب . وهم عاجزون عن القيام بجهد مستمر طويل كما يغيرون رأيهم في تقلب يدعو إلى اليأس . كما أنهم عصبيون جداً أشبه بالذباب في يوم عاصف.

كان ابن سعود يعرفهم جيداً . ويعلم أنهم غير موثوقين ، كجنود ، وأنهم مخيبون كرعايا . إنهم ينتجون قليلاً ويدمرون كثيراً . إذا تبين لهم أن حظهم في المعركة قد قلب صفحته فهم لا يترددون في تغيير معسكرهم وهم في صميم المعركة، وفي محالفة الغالب لتدمير المغلوب . إن تأليف قلوبهم وخلق المحالفات بينهم صعب جداً ، ثم لا تدوم هذه المحالفات غير وقت قصير.

والواقع أن تقلبهم المفاجىء والمستمر هو الذي جعل الحرب ضد ابن رشيد طويلة ودامية . وكان نزعهم الطبيعي نحو التفرق بعد كل معركة هو الذي كاد يعرض العمليات العسكرية ضد الأتراك للفشل . وقد عاقبهم ابن سعود في مرات كثيرة . لكن هذه العقوبة لا تهدئهم إلا لوقت قصير . هكذا لم يتوصل إلى تعديل أخلاقهم ولا عاداتهم .

---

١) أنظر، فيليب ك . حتي ، ص ٢٢ .

وأدرك ابن سعود ، أن نجاحه في تحضيرهم وتحقيق الإستقرار عندهم ، مشروط بتغيير ظروف حياتهم تغييراً أساسياً . ذلك أن هذه الظروف ، في النهاية ، هي التي تحدد سلوكهم

وتصرفهم . في ضوء هذا المفهوم ، ولتحقيق هذا الغرض ، وضع خطة جريئة ، لم يجرؤ حاكم عربي قبله على تنفيذها . لقد قرر أن يحجز البداوة ويحيطها بالسدود شيئاً فشيئاً بتثبيت البدو حول مواقع الماء وحضهم على حرث الأرض ، أي إعادتهم إلى وضعهم الزراعي الذي كان لهم ، قبل أن يرغمهم التيار البشري على أن يصبحوا سكاناً تائهين بدفعهم عبر شبه الجزيرة . كان ما يريد تحقيقه عملاً بالغ الضخامة والمشقة ، قد يعرض هيبته للخطر. لكنه إذا نجح في تحقيق هذه الخطة فإن وجه الجزيرة العربةي كلها سيتحول.

إن العامل الذي سيطر ، حتى الآن ، على حياة الصحراء ، كان ندرة مواقع الماء ، والمساحات القليلة للأراضي المزروعة ، فيما لو قورنت بحجم الناس الذين يحتاجون إلى الغذاء، وهكذا يتحقق التوازن ، على مراحل ، بين الطرفين ، ومن ثم تعرف الصحراء عصر الهدوء . لكن الواقع أيضاً أن موجة جديدة قليلة جداً من المهاجرين كافية لتحطيم التناسب بينهما وخلق أزمة جديدة في زيادة السكان.

وبذلك تدخل الصحراء في حالة غليان ، ويشهد العالم زيادة في العنف في المعارك التي تخوضها القبائل حول المصادر الطبيعية . المنافسات تصبح أشد شراسة ، والأحقاد أكثر حدة، والمعارك أشد غائلة ودموية . ثم لا يعود التوازن إلا حين يطرد فريق من السكان نحو الشمال أو تتم إبادته ، على أن يكون مساوياً في عدده للفئة الطارئة من المهاجرين .

ومما لا شك فيه أن انتخاباً قاسياً للأصلح يتم بهذه الوسيلة . وما دام أن الأشياء تجري على مثل هذه الوتيرة فإن سكان الجزيرة العربية لن يزيدوا مطلقاً . كما أن مستوى العيش فيها يبقى متدنياً وهابطاً جداً ، فلا تتخلص أبداً من طبيعتها الخاصة التي هي النتيجة الحتمية لظروف العيش فيها.

كان خطة ابن سعود تقتصر في البداية على اجتذاب عدد قليل من البدو حول بعض المواقع التي تتوفر فيها المياه والتي يتم اختيارها بدقة ، أي التي تكون بعيدة عن طريق القوافل، ثم الاحتفاظ بهم فيها عن طريق الهبات والإمتيازات الخاصة ، وبالتالي تنمية مساحات الحقول

المزروعة ، بأعمال الري والحرث ، من أجل أن يأتي بدو آخرون للإقامة فيها بدورهم ومضاعفة هذه الجزيرات من الخضرة ، بقدر الزيادة في عدد سكانها ، وأخيراً ترسيخ جذور هؤلاء البدو في تلك الأراضي المنتجة، التي انتزعت قليلاً قليلاً من قحولة الصحراء.

ومنذ تبدأ هذه المشروعات في التطور ، فإنها لا تلبث أن تمارس جاذبيتها على القبائل المجاورة . ولا شك أن البدو الذين أصبحوا مزارعين سيكون لهم أولاد كثيرون . كل شيء يسمح بالتفكير في أن عدد الناس في هذه المستعمرات سيزيد بسرعة .

وكان ابن سعود قد قرر في نفسه الاعتماد على هؤلاء لتكوين العناصر المطلوبة لجيش دائم ، يختلف اختلافاً تاماً عن المتطوعين غير المنظمين الذين قادهم في شبابه الأول . إن إتصال هؤلاء العرب بالأرض وثباتهم في منزل ، سيجعلان منهم طرازاً جديداً مرتبطاً بالملك في عاطفة من الولاء السلالي مما يختلف عن التعطش للمغامرات والغنائم التي كانت تحركهم حتى ذلك الوقت . إن هذه المستعمرات لم يكن يقصد بها انتاج الحبوب والثمار وحسب : بل أن تكون مشاتل لانتاج الجنود .

لكن ابن سعود يعرف أخلاق رفاقه . إنه يعلم أن خطته ستصطدم ، في البداية ، بتقاليد وعادات وأحكام مسبقة صنعتها ألوف السنين . فلا يسعه التغلب عليها إلا باثارة عاطفة أقوى وأشد . إنها العاطفة الصوفية عند البدو . وإذاً فقد وجب أن تكون هذه المستعمرات الزراعية والعسكرية مستعمرات دينية في الوقت نفسه . إنها يجب أن تنظم على صورة " أخوانيات " يرتبط فيها الأعضاء بعضهم مع بعض بقسم ولاء شبيه بالقسم الذي سبق لعبد العزيز أن طالب به رفاقه في حقل النخيل من واحة جبرين . وبذلك تصبح المراكز مواقع للولاء الوهابي المحض . إنها ستكون منتديات للمؤمنين : لكنهم المؤمنون الذين يدعون إلى القتال ، والسيوف في أيديهم ، من أجل انتصار العقيدة الحقيقية .

كانت القوة والمثابرة أمرين لا غنى عنهما للملك . فبدونهما لا يتوصل أبداً إلى توحيد الجزيرة العربية . وعلى ذلك فإن الإعمار الداخلي الذي وضع خطته ، هو الوسيلة الوحيدة والممكنة لتحطيم فردية العشائر والتخلص نهائياً من خصوصيتهم البالغة القدم . أنه وحده الذي يسمح بتعليم الجنود أن واجباتهم نحو القبلية تأتي بعد طاعتهم لله وولائهم للملك ، وأنه من الجريمة بمكان أن يقتل مسلم أخاه المسلم إلا في أوقات الحرب ، على أن يكون البدء بالقتال والانتهاء منه من الإمتيازات الملكية الخالصة . وهو وحده الذي يسمح بارغام البدو على تناسي منازعاتهم الخاصة ، وادخار أنفسهم للدفاع عن القضية المشتركة .

– "كان ابن سعود يقول : أريد أن أعين وجهة وحيدة لغريزة الحرب عند العرب وأن أعلمهم أن يعتبروا أنفسهم أعضاء في جماعة واحدة. إن هذا التوجيه سيوفر لهم فرصاً من الازدهار لم يكونوا ينتظرونها أبداً . على أن هذا العمل سيكون طويلاً ، ولن أتراجع عنه . وسيتحقق أكثر من نصفه ، حين تعتبر وحدات الجيش مستعمراتها التي نشأت فيها بمثابة أوطان صغيرة خضراء داخل وطن ذهبي كبير .. " .

إن مستقبل الجزيرة العربية كلها ، في ذهن الملك ، كان معلقاً بهذا الاصلاح الكبير في ميادين الإجتماع والجيش والدين . من أجل ذلك أعار نجاحه كل هذا الاهتمام الخاص . كما أنه لم يكن في وسعه أن يفعل شيئاً ، في هذا الميدان ، إلا بمساعدة الفقهاء والعلماء والواعظين .

والجدير بالذكر أن هذه الفئة من الناس كانت تمثل هيئة قوية منظمة تنظيماً دقيقاً . يقف عند القمة منها أحفاد ابن عبد الوهاب أو " القدماء " ويمثلون طبقة متميزة . وكان ابن سعود ، باعتباره الامام ، رئيسهم الأعلى . وقد قوي مركزه في نظرهم ، بالزواج ، في الكويت ، من حفيدة لإبن عبد الوهاب ، الأميرة جوهرة التي رزق منها حتى ذلك

الوقت أربعة أبناء : تركي وسعود وفيصل ومحمد [١]. من رجال هذه الطبقة كان يجري اختيار " العلماء " أو فقهاء الشريعة ، المسؤولين عن مراقبة المذاهب الدينية ، وتفسير النصوص وتعليم الشعب. ثم يأتي بعدهم " المؤذنون " سدنة المساجد الذين يدعون المؤمنين إلى الصلوات اليومية الخمس ويسهرون على الالتزام لشروط العبادة .

وعند قاعدة هذا البناء يأتي " المطوعة " أو الواعظون ، المجاهدون المحليون الحقيقيون في سبيل العقيدة الوهابية ، وهم موزعون في القرى والقبائل ، على أساس أن يكون هناك واعظ واحد لكل خمسين من السكان تقريباً . ويوجد حول كل واعظ مجموعة من " التلاميذ " .

هذه المنظمة كانت جهازاً رائعاً للإعلام والدعاية ، ذلك لأنها ترسخ جذورها حتى أعمق أعماق المواطنين . وبواسطة هؤلاء الدعاة ، يستطيع العلماء وفقهاء الشريعة أن ينشروا تعاليمهم من أقصى شبه الجزيرة إلى أقصاها . فلا يستطيع أي تجمع بشري أن ينجو من قبضتهم . كما لا تستطيع ساعة من نهار أو ليل أن تتحرر من تنظيماتهم.

وقرر ابن سعود أن يثير اهتمام العلماء والفقهاء بتحقيق خطته في الإصلاح . فسأل أباه أن يجمع له فقهاء الشريعة ثم حضر أمامهم ليشرح له أغراضه.

أصغى " العلماء " إليه بهيئة مهيبة وقور لكنها غير مؤيدة . يريد عبد العزيز أن يضع حداً للبداوة ، وأن يحطم الإطارات القديمة للقبائل ، ويرسخ أقدام البدو عند مواقع الماء ويجند جيشاً من أعضاء المستعمرات الزراعية الجديدة؟! وهز الفقهاء رؤوسهم متسائلين : ماذا يعني هذا كله ؟ إلى أين يريد أن يقودهم هذا " العبد العزيز " بأفكاره الغريبة المتطرفة ، والذي ، بالإضافة إلى ذلك ، لا يقيم وزناً لنصائحهم ؟ هكذا تفحصوا عرض الملك ، وقلبوه على وجوهه كلها . وتذاكروا خلال ساعات ثم أصدروا قرارهم : إن الخطة التي عرضت عليهم لا يمكن أن تجد التأييد المطلوب لأنها ليست متوافقة مع تعاليم القرآن وأوامره.

---

١)كان ولده الثاني خالد قد مات في وقت مبكر.

كان ابن سعود محنقاً بسبب هذا الموقف . إن ضيق الأفق عند فقهاء الشريعة ، وضعف خيالهم ، وتفسيرهم الجامد لآيات القرآن جعله يفورغضباً . لقد عرض عليهم خطة اصلاح تستطيع أن تغير وجه الجزيرة العربية وأن تضمن لها مستقبلاً هو أرفع من كل ما عرفته حتى ذلك اليوم ، كما اقترح عليهم اخراج القبائل من واقع الفوضى والبؤس ليصنع منها قليلاً قليلاً ، وطناً عصرياً وأمةً حديثة ، وكان هذا هو كل ما أجاب به أصحاب تلك العقول المتخلفة المحدودة ؟ فما العمل مع هؤلاء البلداء ، الذين يزعمون وجوب أن يبقى كل شيء تماماً كما كان في القرن الثامن تحت طائلة انزال لعنة الله على من يغيرون ويخالفون ؟ كان يريد لو أنه عاملهم كالحامية التركية ، التي حبست في الهفوف داخل مسجد إبراهيم ...

ومن حسن حظ الملك أن عبد الرحمن العجوز قد تدخل في الوقت المناسب ونجح في تجنب الانفجار. فهدأ ولده وكشف له عن أن تأييد (العلماء) لخطته ، ضروري وأساسي .

وأن هذه الخطة مهما حسنت وكانت جيدة فهي غير قابلة للتحقق إلا بهذا التأييد . والواقع أن الملك كان ستعرض لغضب البدو بسبب خطته هذه ، فإذا أضاف إلى ذلك عداوة الفقهاء فإنه يكون قد تصرف بطيش وخرق. لم يكن أمام عبد العزيز أي خيار : فإذا كان حريصاً على اصلاحه فإن عليه أن يفوز بتأييد العلماء ومساندتهم له .

ومن جهة أخرى ، كان عبد الرحمن يتمتع بسلطة كبيرة في الأوساط الدينية بسبب تقدمه في السن ، وتبتله الصادق ، وتخليه تخلياً تاماً عن الأطماح الشخصية . إنه هو الذي أنقذ الموقف . فالتمس من الفقهاء أن يعيروا تصريحات ولده أذناً صاغية وألا يعتبروا قرارهم نهائياً . كما أن ابن سعود ، من جانبه ، بذل جهداً خاصاً لمصالحتهم . وبسيطرته على غضبه استطاع أن يضبط القابلية الارتيابية عند " العلماء " فأطرى صدقهم وتملق نفوسهم ، وأبدع في ذكاء برد اعتراضاتهم نقطة نقطة . واستمرت المناقشة أسبوعاً كاملاً فكشف عن الأهمية والفوائد العميقة التي يمكن أن يخرجوا بها من وجود فيلق وهابي ، تخصص جهوده لنشر عقيدتهم أي للعمل على تنمية تأثيرهم في البلاد . وطبيعي أنه لم يحقق هذا الأمر دون مهارة وكياسة . ثم برهن لهم على أن العقيدة الحقيقية لا يمكن أن تنتشر في الجزيرة العربية دون هذا الفيلق ، وأن الوهابية ستبقى محبوسة في الصحراء الوسطى ، وأنهم يجعلون أنفسهم في حالة

الرفض شركاء للفاسقين والكفرة . وباختصار ، دافع عن قضيته بمهارة انتهى بها إلى زلزلة موقفهم .

ووافق الفقهاء على مخالفة عبد العزيز في خططه متأثرين تأثراً شديداً بمساندة عبد الرحمن لولده . هكذا أصبحت خطة الملك " خطة العلماء " فهم معاً مجتمعين يخلقون ميليشيا مسلحة ، في خدمة الله . وعلى مثال الفيالق الإسلامية الأولى ، المؤسسة من قبل النبي ، كون البدو ، المدعمون بنظام جديد " أخوانية " عسكرية ، أي " أخو من المحاربين متحدين في ذات الله ".

وبعد أن أخذوا عهداً من ابن سعود بأن يكون جيشه الجديد في خدمة الدين . أمر العلماء " المطوعة " وتلامذتهم بالطواف في كل البلاد ، من قرية إلى قرية ، ومن قبيلة إلى قبيلة لإلقاء سلسلة من المواعظ ، يزاد بها التشجيع على خلق نظام " الأخوان " لقد كان على الواعظين أن يقولوا للبدو بأن تعاليم " المروءة " القديمة قد ذهبت ، وأن الشريعة الإلهية تتقدم على شريعة القبيلة وتقاليدها ، وأن طاعة السلطان مقدمة على طاعة العشيرة . وكان عليهم ، بالإضافة ، إلى ذلك ، أن يذكروهم بقول النبي : "كل مسلم يحرث الأرض يقوم بعمل صالح" . كذا ؟! وعلى أثر هذه الدورة الدعاوية ، التي يقصد بها إثارة الحماسة في القبائل ، يجب على " المطوعة " أن يوجهوا النداء إلى المستمعين ، يدعونهم فيه للإسهام ، كمتطوعين في تأسيس المستعمرات .

بدأ الواعظون معركتهم – واصطدموا في كل مكان بجدار من اللامبالاة أو العداوة ذلك أن البدو المتعلقين في شراسة بتقاليدهم القديمة ، لم يكن في وسعهم أن يتخلوا عنها بسهولة بين ليلة وضحاها . والأكثر من ذلك أن طراز العيش الذي يعرض عليهم لم يكن يغريهم أبداً. " إن كل سعادة الدنيا هي فوق ظهر حصان " ، هذا ما يقوله المثل القديم . كان آباؤهم وأجدادهم قد عاشوا كرجال أحرار، ينطلقون كما يحلو لهم عبر الصحراء ، لا يخضعون إلا إلى نداء الأرض والفضاء والسماء ، وها هم أولاء يجدون من يحضهم على تطبيق هذه العادات

النبيلة ليصبحوا مزارعين مقيمين وفلاحين صغاراً ؟ وهذا يعني بالنسبة إليهم أن يوافقوا على سقوطهم . أي أمير يقبل لنفسه ، وبكامل رضاه ، وضع العبد الرقيق ؟ بعضهم ثار غاضباً أمام هذا العرض المذل . وأما بعضهم الآخر فقد أجاب بسخرية وازدراء . هكذا لم تحقق " المروءة الجديدة " أي نجاح . فلم يعثر في نهاية المطاف إلا على ثلاثين مرشحاً متطوعاً وحسب .

كان هذا هو كل ما يطلبه ابن سعود . أو ليس أن الفيالق الإسلامية الأولى التي حملت لواء النبي من نهر الأندوس إلى الوادي الكبير قد خرجت من حفنة صغيرة من المحاربين ؟ وهو نفسه أو لم يغز مملكة ، على رأس قوات لا تزيد في الأصل على عشرين رفيقاً ؟ إن ابن سعود باستناده إلى هذين المثلين ، كان يضع نفسه بصورة غريزية في خط قانون عالمي خلاصته : إن كل ما هو كبير في العالم هو في البداية نتاج مجموعات صغيرة جداً من البشر .

أقبل ابن سعود على اقامة زمرته القليلة من المتطوعين في واحة الأرطاوية ، الواقعة في وسط الطريق بين نجد والإحساء . لقد كان موقعاً وحشياً ومحزناً لا يوجد فيه غير أربع أو خمس آبار جيدة ، قريبة من سطح الأرض . هذه الآبار لم تكن مستعلمة إلا من قبل القبائل المترحلة أو المسافرين التائهين . وقد كانت هذه الآبار في الأوقات العادية مغطاة بأغصان الشجر ، لمنع الرياح من ردمها بالرمال . وتقوم حول هذه الحفر بضعة هكتارات من الأرض البور الميتة وقرابة خمسين من أشجار النخيل . كان هذا هو كل شيء . ليس فيها كوخ حتى ولا منزل متواضع متداع . فهي مكان قليل الجاذبية في الحقيقة للبدء بحياة جديدة فيه .

لكن ابن سعود لم يكن قد نسي إقامته الثانية في صحراء الربع الخالي . إنه يعلم أن مواطنيه لا يقدمون خير ما عندهم إلا حين يكون ما يعرض عليهم القيام به بمثابة التحدي لهم .

كان المقدم على هذه الزمرة يدعى " مطيب " فأقبل بشجاعة على تنفيذ المهمة مع جماعته من الرواد . ولما كان هو وأصدقاؤه موضعاً لازعاجات القبائل المجاورة، جاء الملك

يـــزورهم ليؤكـــد لهـــم تأييـــده ومســـاندته وأعلـــن لهـــم أن مـــن يســـيء إلـــيهم ويـــزعجهم ســـيكون حســـابه عنـــد الملـــك نفســـه . ثم أعطـــاهم قلـــيلاً مـــن المـــال – قلـــيلاً جـــداً ، ذلـــك لأنـــه لم يكـــن يريـــد أ ينضـــم إلـــيهم بـــدو آخـــرون طمعـــاً في الـــربح المـــادي – وحمـــل إلـــيهم بعـــض الفلاحـــين ليعلمـــوهم الحـــرث والـــري . وقـــد قســـم بيـــنهم قطـــع الأرض وحقـــوقهم في المـــاء ، ثم ســـاعدهم علـــى بنـــاء مســـجد وبعـــض المساكن المصنوعة من الآجر .

نعـــم كـــان البنـــاء يحـــدث إحساســـاً جديـــداً تمامـــاً عنـــد هـــؤلاء الرجـــال الـــذين لم يعيشـــوا حـــتى ذلـــك الوقـــت إلا بالتـــدمير والســـلب والاغتصـــاب . لقـــد ملأهـــم هـــذا الإحســـاس بالدهشـــة وأخـــذ يحـــدث تعـــديلاً خفيـــاً في نظـــرتهم إلى الأشـــياء . لقـــد كـــانوا أشخاصـــاً بـــدائيين ، لكـــنهم ممتلئـــون بالنيـــة الطيبة، تلك النية التي يصنعها في الخفاء أمل في مستقبل أفضل .

قيـــل لهـــم : " أن الملـــك في حاجـــة إلـــيهم لتحويـــل الجزيـــرة العربيـــة . فأجـــابوا بثقـــة عميـــاء : " نحـــن حاضرون " ! .

كـــان ابـــن ســـعود يشـــعر نحـــوهم بعاطفـــة حقيقيـــة ، فيـــأتي في الغالـــب إلـــيهم ليشـــجعهم علـــى جهودهم وليشرح لهم المعنى العميق لعملهم هذا .

– " كان يقول لهم : أنكم البادئون في تحقيق اصلاح كبير . إن مصير الجزيرة العربية موضوع في أيديكم . من أجل ذلك لا يجب أن يهزمكم أي فشل ولا أية صعوبة . وقد تعجبون من أن عملاً كبيراً كهذا يمكن أن يتعلق بمصير القلة من الرجال ؟ ليس ما يهم هو العدد . إن ما يهم هو الحيوية ونقاوة الإيمان. إن الذين يهزأون بكم ، وإن الذين لم يريدوا الاستجابة لندائي سندمون على ذلك يوماً من الأيام . لقد ظنوا أنني أريد أن أنحط بهم إلى طبقة العبودية ، بينما كانت رغبتي الوحيدة هي تحريرهم من الجوع ، من الجهل ، ومن العماء والفوضى ! دعوهم يسخرون ويهزأون ، فأنتم أكثر حرية منهم ، إنهم لن يسخروا أبداً يوم انتصاركم ، حينما سيقارنون بين عريهم وغناكم ! أسهروا بحرارة تامة على ألا تتعرض وحدتكم لخطر الاختلاف والتفرق . هذا هو الخطر الوحيد الذي يتربص بكم . أما فيما سوى ذلك ، فلا تخافوا شيئاً ، إذ أنكم تحت حمايتي وحماية الله عز وجل ! " .

كان الملك يقضي ليالي كاملة وهو يحاورهم ، ويفحص الصعوبات في عملهم ، واحدة واحدة وكان المعمرون الجالسون على صورة نصف دائرة حول نار من الأشواك يطرحون عليه الأسئلة ويسألونه النصيحة . فينقل عبد العزيز إليهم حماسته قليلاً قليلاً ، وتبدو عيونهم وهي تلتمع ببريق لم يكن فقط انعكاساً لألسنة النار اللاهبة .

آه! إنها لمغامرة رائعة أن يكون الواحد منا رجلاً وأن يوفق إلى أن يوحي للآخرين من الرجال ثقة تامة مطلقة ! فهناك لم يعد يوجد ملك ولا رعايا . إنه لم يعد يوجد غير مجموعة صغيرة من العرب ، ضائعين في عظمة الصحراء ، لكنهم منبهرون بالعمل نفسه ، ومؤمنون بالمستقبل ...

فإذا بلغ الليل نهايته ، كانوا يؤدون معاً صلاة الفجر ثم ينطلق كل منهم إلى حيث يدعوه عمله . فبأية نظرات مفتتة كانوا يحيون أشعة الشمس الأولى ، التي تفرض ذهبها فوق قمة أشجار النخيل ، وتسكب الألق في قنوات الري، كما لو أنها وعود حالية بالرجاء ...

وبعد وصول أوائل البدو إلى أرطاوية بستة أشهر ، دعي ابن سعود لحضور حفل بسيط جداً ، لكن المساهمين فيه قد حاولوا أن يحيطوه بأقصى فخامة ممكنة . وبعد أن أقسموا يمين الولاء للملك غادر المعمرون مضاربهم من شعر المعزي دون عودة ، تلك المضارب التي ترمز إلى البداوة ، من أجل أن يسكنوا البيوت المبنية من الآجر التي بنوها بأنفسهم . إنهم باجتيازهم عتبات هذه البيوت الجديدة يكونون قد خرجوا من القرون الوسطى ، للدخول في العصور الحديثة.

هكذا بدأت التجربة بداية جديدة ، دون أن تمنح حرارة الرواد وقتاً للبرودة وقد أرسل ابن سعود إليهم رفيقاً من القدماء ، مع كثير من الواعظين ، لتأسيس مدرسة ، وتغذية حماستهم . ثم حول إليهم مبلغاً أكثر قليلاً من المال ، وكمية من بذور الشعير والقمح ، ووعد بمنح كل رجل يسجل اسمه في سجلات المسجد بندقية وذخيرة .

ونمت المستعمرة ومن الطبيعي أن تحدث فيها خيبات ونكسات ذلك أن البدو كانوا يجدون صعوبة في التكيف للعمل اليدوي . وعندما جاء الربيع ساور الكثيرين منهم حنين إلى الصحراء . لقد وجدوا صعوبة شديدة في مقاومة غريزة المهاجرين ، التي تستولي ، في ذلك الفصل على كل الرجال الأحياء . وآخرون ، رأوا ، وقد وضعوا أنفسهم " في

حماية الله " أنه من غير المفيد لهم حرث الحقول . مقتنعين أن العناية الالهية ستعوضهم بنفسها عن ذلك فنشأت بسبب هذا السلوك ردات وخلافات ، وبتعبير آخر منازعات ...

ومع ذلك فإن الأرطاوية قد ازدهرت . لقد كان اختيار موقع المستعمرة اختياراً بارعاً ودقيقاً رغم الظواهر المخالفة. لقد تبين أن الأرض ذات خصوبة استثنائية بعد أن رويت . فنمت فيها نباتات الحلفاء والشعير والقمح بغزارة شديدة . وهكذا أصبح تجمع البداية الصغير ، تحت الإدارة الذكية الحازمة لمطيب ، قرية كبيرة ، ثم قصبة نامية. ومن ثم مدينة مزدهرة . وقد افتخر سكانها بعد قليل أنهم أكثر المسلمين تديناً في بلاد نجد كلها.

إذ كانوا من التزمت والشدة على أنفسهم فيما يتعلق بالعبادات ، بحيث أن العرب غير الوهابيين لم يكونوا يجرءون على زيارتهم . لقد تركوا أغطية الرؤوس عند قبائلهم ثم لم يريدوا أن يلبسوا غير عمامة ابن عبد الوهاب البيضاء ، رمز الطهارة . كما أنهم افتخروا باسم الأخوان الذي أعطاهم ابن سعود إياه ، احياء لذكرى فيالق النبي الظافرة . وبدأوا يعتبرون البدو الآخرين على أنهم دونهم في المرتبة ، أوليظ الذين ما يزالوان غارقين في ظلمات الجهل والخطيئة . على أن هؤلاء المتطهرين المتقشفين كانوا من رجال القتال الموهوبين ، فهم مستعدون دائماً للذهاب إلى الحرب . وكانوا قد تبنوا صرخة التجمع القائلة : " نحن فرسان الوحدة ، وأخوان الإسلام لإرادة الله ! " .

ثم زاد عدد المتطوعين . وجاءت قبيلة المطيريين تزور موقع الأرطاوية وهي القبيلة التي ثارت ثورتها المعهودة قبل بضعة أعوام وعاقبها ابن سعود عقوبة شديدة . وعندما شاهدت النتائج التي حصل عليها أصحابها اشتدت حماسة أفرادها وطالبوا بأن يشاركوا جميعاً في بناء تلك المستعمرة . كما انضوى زعيمهم الدويش في منظمة الأخوان.

كانت هذه المساندة البرهان الذي لا يرد على نجاح التجربة . فالدويش ، زعيم الثوار الذي نجا من غضب ابن سعود بفارق قليل من الزمن ، لم يكن محارباً ذا قيمة وحسب ، بل كان أيضاً واحداً من أشد العرب تعلقاً باستقلالهم وتقاليدهم ، كان بدوياً يرى أن شرف القبيلة يأتي قبل أي اعتبار آخر . فانضمامه إلى الأخوان ، في نظر ابن سعود ، انتصار معنوي لا يقدر بثمن.

ولقد أفاد ملك نجد من هذا الحادث فائدة كبيرة . أو ليس أن واحداً من أهداف الإصلاح عنده أن يقنع القبائل بوضع منازعاتهم الشخصية جانباً ؟ ومن هنا وجب عليه أن يوقف خلافاته الشخصية ويتجاوز عنها. فصالح الدويش

علناً . ثم عينه قائداً عاماً للإخوان وحاكماً لأرطاوية . إنه بإيلائه هذا المركز لعدوه القديم ، كان يريد أن يظهر لمجموعة القبائل بأن كل الخلافات السابقة يجب أن تمحي وتزول أمام عملية التوحيد التي يقوم بها .

وبعد الانضمام الكثيف لقبيلة المطيريين ، أصبحت المستعمرة أصغر من أن تستوعب سكانها كلهم . فافترق قسم من السكان ليكونوا مراكز أخرى من الطراز نفسه . ومن هنا تكونت حاميات ديلام وشقرا وغيرهما . وقد عين ولد عبد الرحمن منذ الساعة الأولى متطوعين على رأس هذه التجمعات الحديدة . وعني بتحقيق الاختلاط بين القبائل، ليمنعها من أن تتجمع ثانية ثم تنقسم إلى عشائر متنافسة . وأخيراً ربط المستعمرات بعضها إلى بعض بمجموعة من الإمتيازات جعلتها تعتبر نفسها مؤلفة لطائفة وحيدة ، متميزة من غيرها من قبائل الصحراء ومتفوقة عليها . هكذا كانت تنشأ ارستقراطية عربية جديدة.

وعندما بلغت المستعمرات درجة كافية من التطور والنمو ، بدأ ابن سعود يختار منها الجنود . فكانت الوحدات التي جندها منها متفوقة جسدياً وأدبياً ، على غيرها من وحدات المقاطعات الأخرى في المملكة.

ولم تمض خمس سنوات على انشاء المستعمرة الأولى حتى ارتفع عدد الأخوان فأصبح خمسين ألفاً من الأعضاء . أنهم لم يعودوا لممات ملفقة شاذة من البدو الرحل ، بل جيشاً دائماً كانت وحداته التي بنيت وعبئت بقوة وصلابة مصدر فخر لمن سنعها على هذه الصورة.

حتى هنا ، لم يكن بيه يدي ابن سعود ، غير آلة عسكرية يقف حجمها عند حدود نجد . وكان من يملكها في ذلك الوقت ، كبيراً بحجم الجزيرة العربية كلها .

هنا بدأت الصعوبات الدينية .

لقد كان فقهاء الشريعة دائماً بالحذر الخفي باتجاه عبد العزيز . وزاد هذا الشعور عند بعضهم حتى بلغ درجة العداوة . ليس ، بالطبع ، لأنه كان يتخلف عن القيام بواجباته الدينية ! إن إحداً لم يكن في وسعه أن يوجه أي انتقاد حول هذه النقطة . كان يصلي ويصوم ويوزع الصدقات . وكان لا يشرب الخمر ، ولا يدخن ، ولا يتفوه بما لا يليق به من كلمات التجديف كما يراقب الأوامر القرآنية بطريقة لا غبار عليها أبداً .

لكن الحيوية الفياضة عند " الملك العملاق " تعكر عليهم سكينتهم . كان شديد المرح ، مفرط الحيوية بالنسبة لهؤلاء الرجال ذوي الأمزجة النكدة الكئيبة . وبوجوههم ذات اللون الضجر ، التي لم تكن تبتسم أبداً ، والذين تصدمهم الضحكة العالية كما تصدمهم الوقاحة الخشنة . كانوا يجدونه كثير الاهتمام بالنجاح الأرضي بحيث لا يستطيع القيام بواجباته نحو السماء في نظرهم . كان ، كما يقولون : " أميراً أكثر مما يلزم وإماماًدون ما يجب له " . وكانت له طريقة من الاختيال يزدري معها بنصائحهم ! أو ليس أنه سمح لجنوده بإنشاد الأناشيد في الطريق ؟ أو لم يكن قد سمح للعنيزيين بالتدخين العلني ؟ وماذا تعني صداقته لمبارك في حياته الخاصة ، وافتقاده للتقى ، والذي جاوز هذا كله في استضافته للأجانب في منزله ؟ أما الطريقة التي هدد بها بتفجير مسجد إبراهيم في الهفوف فقد بلغت حد تدنيس المقدسات وانتهاك الحرمات . صحيح أنه لم ينفذ ما توعد به من التفجير . لكن مجرد التفكير في هذا العمل شيء يدعو إلى القلق . لقد كان في كل هذه الوقائع ، علامة على حالة عقلية من اليقظة ، بل على كثير منها أيضاً.

والواقع أن كل هذه الدفوع لم تكن غير قناع يخفي " العلماء " من ورائه أفكارهم الخبيئة . لقد كان لعدم الرضى عندهم مصدر آخر : إنه نجاح منظمة الأخوان . لقد عارضوا هذا المشروع بادىء الأمر ، واعتبروه غير قابل للتحقق، حتى لا يسهموا في إصلاح كان يقدرون أنه سيغضب الناس . ثم انضموا إليه ، تحت إلحاح عبد الرحمن ، لكن انضمامهم كان من طرف اللسان وحسب وعلى أمل أن تكون عداوة القبائل له كافية لاسقاطه.

أما الآن فهم يعارضونه وينكرونه لأنه نجح كثيراً جداً . إن مثل هذه الآلة العسكرية ، الموالية كليةً للملك ، يجب أن تحدث القلق في نفوس هذه الطبقة من الناس . ألم يكونوا يتعرضون لخطر ، أن يصبحوا بين يديه ، أداة في خدمة الدولة الرهيبة ؟ ولنفترض أن عبد العزيز قد استعان بهذه المنظمة يوماً من الأيام ليجردهم من إمتيازاتهم ؟ لقد كانوا يفضلون بالطبع أن يكون لهم ملك ضعيف ، مطيع لرغباتهم ، من أن يكون سلطاناً قوياً ، قادراً على فرض إرادته عليهم .

ومن هنا بادروا إلى خوض معركة من التشهير المنظم بابن سعود . وتمت المحاولة ببراعة ومهارة بواسطة " المؤذنين " في المساجد ، و " المطوعة " في المدارس . إن هذه الدعاية القادحة المشهرة التي همس بها من فم إلى أذن قد خلقت حالة حقيقية من الضيق والانزعاج بين الناس . فالعلماء كانوا يقومون في الجزيرة العربية بدور الصحافة في الغرب . إنهم بفضل جهاز الدعاية الذي يتصرفون به كانوا قادرين على التأثير في الرأي العام وتوجيهه كما يريدون ويرغبون.

والجدير بالذكر أن ولد عبد الرحمن لم يكن يدري كيف يدافع عن نفسه أمام هذا الخطر الماكر ، والمختلف جداً عن الأخطار التي تعامل معها حتى ذلك الوقت . إنه لم يكن في وسعه أن يجابه هذه الطبقة من الناس بالهجوم ، ذلك أن سلطانها الخفي هو في كل مكان ولا مكان . فقدر أن خير وسيلة لاسكات هؤلاء " العلماء " وتدعيم سلطانه الديني على سكان الجزيرة العربية هي أن يجعل من نفسه سيد المدينتين المقدستين : المدينة ، ومكة . " سأضع خطواتي على خطوات النبي " هذا ما كان قد أقسم عليه بعد انسحابه إلى صحراء الصخور الكبيرة . أو ليس أن محمداً قد بدأ من هناك . "كذا " ؟ ! .

وكلما بالغ في التفكير فيها ، زادت هذه العملية إغراءً له . فهي أولاً ستفتح منفذاً على البحر الأحمر ، شبيهاً بذاك الذي يملكه عند الخليج العربي . وبامتطائه لشبه الجزيرة ، يصبح قادراً على ضبط مرور القوافل وممارسة رقابته على كل الحياة التجارية في البلاد . ثم أنها ستمح له بطرد الحسين من الحجاز . وتمنح سلطانه الديني قاعدة تكون من لاصلابة بحيث أن أشد العلماء عداوة له لا يجرؤون على مهاجمته . إنه في اليوم الذي يصبح فيه شريفاً على مكة وسيداً للحج ، يمتد إشعاعه حتى أبعد حدود العالم الإسلامي.

كانت السهولة التي طرد بها الأتراك من الاحساء توحي إليه بتحقيق انتصار سهل على مقاومة الحسين. أو ليس أنه في أثناء ذلك قد بنى آلة عسكرية ضمنت له التفوق والغلبة على كل الجيوش في شبه الجزيرة ؟ لقد كان المهم — مرة أخرى — هو التأكد من حياد البريطانيين .

كان ملك نجد قد بدأ بتعبئة قواته والاستعداد للانقضاض على عاصمة الحجاز ، حين جاء حادث غير منتظر يقلب كل خططه وأغراضه : لقد أعلنت الحرب العالمية الأولى .

الثاني من شهر أغسطس (آب) ! هذا الوقت المقدر في تاريخ أوروبا ، كان يدوي كما لو أنه قصف الرعد حتى في أعماق الشرق . كان عند بعضهم إشارة إلى الموت ، وكان عند غيرهم وعداً بالحياة . أصغى العرب بآذانهم كلها من القاهرة إلى البصرة ، ومن عدن إلى بغداد ، وهم يأملون في أن تكون الحرب التي بدأت نعياً للأمبراطورية العثمانية .

ومن الطبيعي أن يحاط ابن سعود علماً بما كان يهيأ في العالم . ذلك أن الجزيرة العربية كانت تعج منذ بضعة أشهر بالعملاء السريين . فهناك انكليز وألمان وفرنسيون وأتراك وايطاليون وروسيون وحتى يابانيون أيضاً . وهم يتوافدون من كل مكان : من السويس ، والبصرة ، وبومباي ، وطهران ، يسعون جميعاً إلى تجنيد الحلفاء من أجل النزاع القادم . لكن ابن سعود ، الذي تشغله المسائل الداخلية في الجزيرة العربية ، لم يكن قد شعر بمجيء العاصفة . ولذلك فإن الانفجار العالمي قد أخذه على حين غرة .

ولقد ظن بادىء الأمر أن دخول تركيا في الحرب سيهيء الجو المناسب لخططه لا سيما وأن لندن في هذه المرة هي في نزاع مكشوف مع القسطنطينية . أوليس أن هذا هو الوقت الملائم لتكرار المحاولة التي سبقت أن نجحت في الاحساء ، في مكة ؟ وهل إذا طرد الحسين والحاميات التركية من الحجاز ، تدعه انكلترا يفعل هذا ؟ أو أنها ترفض الاعتراف بسلطانه في هذه المقاطعة ؟

قرر ابن سعود ، كما كان شأنه من قبل ، أن يستشير مباركاً في هذا الأمر . لقد تعود اتباع نصائحه في هذا الميدان ، وكان سعيداً بذلك في كل مرة .

لم يكن اجتياز الملك سعود لعتبة قصر الكويت دون إحساس بالإنفعال الشديد حيث تلقى ، وهو فتى صغير، درسه الأول في السياسة . لكنه حين دخل إلى مكتب حاميه القديم ، وجد صعوبة في التعرف إليه ، فكم هرم هذا الأمير منذ لقائه الأخير به .

لقد رأى شيخاً عجوزاً مثقلاً بالشحم يتقدم نحوه ،ى بنظرات منطفئة ، وقسمات ذابلة . وكانت وجنتاه المتهدلتان تعطيانه هيئة عجوز شرس ، لقد كان له جيبان غليظان تحت عينيه ، أما شع ر رأسه ولحيته فكانا مصبوغين بالحناء ، وكانت أصابعه المفتولة المضغوطة مغطاة بالخواتم الكبيرة . وقد اتخذ وجهه تعبيراً غريباً فيه مزيج من الجشع والشهوة . نعم ، كان مبارك الذي استهلكته حياة مفرطة جداً قد وضع إدارة الكويت بين يدي ولده سالم . وإذا كان جسده في حالة انهيار فإن عقله قد حافظ على وعيه الكامل ووضوح الرؤية فيه . كان ما يزال يلاحق كل الأحداث الجارية في العالم . وإذا كان ابن سعود قد أذهله ما ضاءله الزمن من شخص حاميه القديم ، فإن مباركاً قد أنذر بما حققه الزمن من الكبر عند تلميذه القديم . ذلك أن سلطانه أصبح يومذاك يمتد على طول الخليج العربي ، وقد ندم جداً على ما قدمه إليه من المساعدة . فالنمو في القوة يسبب له الكثير من التخوف والخشية .

فماذا عساه يحدث لو أن عبد العزيز خطر في باله ، بعد أن يهضم منطقة الاحساء أن يبتلغ الكويت أيضاً ؟ هل سيمنعه الإنكليز من ذلك ؟ نعم إذا كانوا أعداء له . فماذا لو كانوا له حلفاء ؟ ألا يجوز أن يجد وزراء لندن مصلحة لهم في استبدال حاكم أكفأ وأنشط بسالم الذي لم يكن في ذلك الوقت غير شاب باهت ضعيف الشخصية ؟ وعلى ذلك فقد كان من الواجب أن يحول بأي ثمن دون عقد اتفاق بين ابن سعود وممثلي صاحب الجلالة ...

أما ملك نجد ، الذي يجهل كل هذه الأفكار الخفية ، فقد أطلع مباركاً على أهدافه المتعلقة بالحجاز وطلب إليه بكل براءة أن يدافع عن قضيته لدى الحكومة البريطانية فرفع مبارك ذراعيه إلى السماء وأخرج همهمة وإنكاراً لما سمعه .

– " أجابه قائلاً : هل أنت مجنون يا صديقي . إن حملتك على الحجاز ستكون أسوأ عمل طائش ! حاذر أن تمس الحسين ! أو لست في حال جيدة حيث أنت ؟ احتفظ بهدوئك . هل أنت على عجلة من الإلقاء بنفسك في شدق الذئب ؟ لو كنت مكانك لوقفت بأطماحي عند الجزيرة العربية الوسطى ، ولمارست سياسة حياد بانتظار أن تمر العاصفة " .

عاد ابن سعود إلى الرياض ، وقد أغضبه هذه المقابلة وخيبت رجاءه . إن عبارات مبارك المعسولة ، وقسماته المتخوفة ، وهمهمات المرأة العجوز عنده ، وتلميحاته المقنعة إلى خطر معين حين كان يتكلم عن الحجاز والحسين ، هذه كلها أحدثت في نفسه إحساساً خفياً بالكراهية والإشمئزاز . فما هي هذه اللعبة التي كان يلعبها ؟ لقد سبق للفتى عبد العزيز أن رأي أمير الكويت يتبنى التكتيك نفسه نحو من كان يريد أن يخدعهم . وهكذا عاد ملك نجد إلى عاصمته وهو أكثر حيرة وإرتباكاً مما كان عليه من قبل . أما رحلته فلم تعلمه غير شيء واحد : هو أن عليه أن يحذر منذ اليوم معلمه القديم . لقد انقضت ساعة الصداقة . إنه لم يعد في وسعه أن يستنصح غير نفسه في السياسة الداخلية والسياسة الخارجية.

هذه كانت تأملاته ، حين استقبل مرة بعد مرة ، كلاً من العملاء الألمان القادمين من البصرة ، والعملاء الانكليز القادمين من الكويت . الأولون كانوا يطلبون منه الانحياز إلى الأتراك ، والثانون يطلبون إليه محاربتهم .

هكذا كان الملك قد وضع في مأزق حرج . لقد نصحه مبارك باتخاذ سياسة محايدة . لكن البقاء على الحياد ، يعني البقاء وحيداً ، والبقاء وحيداً ، يعني التعرض دون دفاع لكل الشهوات عند جيرانه . إن الأمراء وحكام

المقاطعات التي تحيط بنجد ، كانوا يدركون هذه الحقيقة إدراكاً تاماً . وأيضاً فقد كانوا ينحازون ويتشيعون لهذا المعسكر أو لذاك تبعاً لما يفضلونه لأنفسهم .

من سيربح الحرب – الأتراك أم الانكليز ؟ هنا المسألة كلها ، وقد كانت الإجابة عن السؤال في تلك المرحلة الأولى من النزاع صعبة جداً . الأتراك يمثلون القوة الأقرب إليه ، أي القوة الأكثر خطورة . أنهم حلفاء الألمان الذين كانوا أغنياء وأقوياء . لكن ابن سعود يكره محالفتهم . أو ليس أن هؤلاء وهؤلاء كانوا أعداءه المعلنين ؟ ومهما تكن وعودهم ، فإن انتصارهم يعني انهيار حلمه : وبذلك يقضي نهائياً على تحرر الجزيرة العربية واستقلالها . أما فيما يتعلق بالانكليز ، فإن سياستهم لم تكن هي أيضاً أكثر السياسات وضوحاً وصفاء . فماذا عساهم يفعلون بشبه الجزيرة إذا انتصروا ؟ وما عساها تكون إجراءاتهم تجاه السعوديين ؟

أما البريطانيون فقد عدلوا كثيراً من رأيهم في عبد العزيز ، منذ الفترة التي كانوا يعتبرونه فيها شخصية هي من الضعف والبهاتة بحيث لا يجيبون على رسائله . إنه يسيطر الآن على جزء كبير من الشريط الساحلي للخليج العربي . فهو قوة يجب أن يحسب لها حسابها . فأرسلوا إليه قنصلهم في الكويت ، السيد شكسبير ، للحصول على محالفته لهم ، وفي حال الرفض ، على حياده الممالىء لهم .

وجاء السيد شكسبير يرى ابن سعود في الرياض ويلح عليه أن يعلن الحرب مباشرة على الأتراك (١) . كانت هذه العبارات هي نفسها التي رددها السيد لاسكاريس لسعود الكبير قبل ذلك بمائة عام . لكن عبد العزيز يعلم أية كارثة رهيبة أحدثها . لجده ، الاندفاع قبل الوقت الملائم في مثل هذه المحاولة . إنه لم تكنله أي رغبة في إرتكاب الخطأ نفسه مرة أخرى . ولذلك رفض الإنضواء في هذا الاتجاه . لقد اقترح مساندة القضية الانكليزية بطريقة غير مباشرة ، وذلك بالسير نحو الحجاز لإخراج الحسين منها.

صرخ شكسبير قائلاً : هذا غير ممكن وأنذره بلهجة جافة ، أن يقلع عن هذا الغرض . وقد استمرت المحادثات أسابيع كثيرة دون أن تنتهي إلى شيء ، فابن سعود يصم أذنيه عن سماع الالتماسات الانكليزية بينما شكسبير يتظاهر بالعجز عن إدراك الأغراض السعودية . وفجأة بادر الأتراك ، الذين حذرهم مبارك ، فأقلقتهم تلك المحادثات ، إلى وضع حد لها بخشونة . لقد ساروا نحو الرياض مع بعض القبائل الشمرية من حائل بعد أن دفعوا بها إلى الانتفاض

على ملك نجد ، للحيلولة دون التوصل إلى اتفاق يكونون ضحايا له . في هذه المرة كان مبارك قد كشف عن أوراقه : لقد كانت خيانته لتلميذه صرحية واضحة .

جمع ابن سعود جيشاً كبيراً من الأخوان بأقصى سرعة ممكنة وتقدم نحو الأتراك بعد أن قطع المفاوضات . وكان لقاؤه بهم عند جراب شمال الأرطاوية . كانت القوات المعادية تشتمل ، بالإضافة إلى فرسان شمر ، على كثير من الكتائب من الجيش التركي النظامي ، مع مدافع كثيرة . واستمرت المعركة عاصفة طوال النهار بعد أن بدأت مع الفجر . وقد تصرفت تشكيلات الأخوان . الذين يواجهون النار لأول مرة ، بطريقة رائعة . لقد حملوا ثماني عشرة مرة متوالية على القوات التركية . أما السيد شكسبير الذي أراد أن يتعرف بنفسه إلى القيمة القتالية للوحدات السعودية الجديدة فقد توجه نحو ميدان القتال رغم نصائح الملك.

---

١) أنظر : الرحلة الأخيرة للكابتن شكسبير — المجلة الجغرافية . المجلد ٤٩ — العام ١٩٢٢.

كان يشاهد العمليات الحربية ، وهو جالس على كرسي قابل للإنطواء يشرب شايه بسكينة تامة ، حين أطاحت به جماعة من فرسان شمر ، فقتلته بطعنات السيوف كما قتلت سكرتيره أيضاً .

وعند الغسق انتهى الأتراك المنهكون إلى التخلخل ثم تراجعوا نحو الشمال . فخرج ابن سعود من المأزق . لكنه كان أبعد من أن يحقق الانتصار له ، ذلك لأن قواته قد أصيبت بخسائر كبيرة جداً . وانتشرت الضجة في الصحراء معلنة أن شهرة الأخوان قد بولغ فيها وأن كتيبة تركية واحدة يقودها الألمان كانت كافية لإنزال الهزيمة بهم .

هنا أدرك ابن سعود أكثر من أي وقت آخر بأنه لا يجب أن يبقى وحيداً . فماذا عساه ينتظر من الأتراك والألمان ؟ أو لم يرفعوا القناع عن عواطفهم الحقيقية نحوه ؟ عاد إلى محادثاته مع الإنكليز ، وانتقل إلى عقير ، ميناء في الأحساء ، ليلتقي السيد كوكس ، الذي خلف شكسبير في القنصلية البريطانية في الكويت نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩١٦ .

في هذه المرة توصل المتفاوضان بسرعة إلى الإتفاق ، لم يقل ابن سعود كلمة واحدة حول أهدافه في الحجاز . بل وقع مع المندوب البريطاني معاهدة يعلن فيها وقوفه رسمياً إلى جانب انكلترا ويتعهد بصورة قطعية " ألا يهاجم حلفاءها

ولا يساعد أعداءها " . وفي كل حال لم يكن يطلب منه " الإسهام في العمليات العسكرية "كما اعترف الانكليز من جانبهم بسلطان ابن سعود على نجد والاحساء مستقلاً عن الأتراك . ووعدوا أن لا تكون أيلولة هذه البلاد موضع مناقشة فيما بعد أي بعد تقسيم الأمبراطورية العثمانية . ومنحوه وساماً كما تعهدوا بأن يدفعوا له مساعدة شهرية تبلغ خمسة آلاف جنيه استرليني ذهباً ثم زودوه بالسلاح وتعهدوا بتقديم المساندة ، إذا تعرض لعداون جديد.

غادر ابن سعود مدينة عقير سعيداً بهذه التسوية . لقد تمت له الحماية من أي هجوم تركي في المستقبل دون أن يكون مرغماً على محاربة الأتراك . يضاف إلى ذلك الصيغة التي تعهد فيها " ألا يهاجم حلفاء بريطانيا ولا يساعد أعداءها " قد أبقت الباب مفتوحاً لعملية عسكرية ضد الحسين . وبالجملة حصل على كل ما يرغب فيه . قال في نفسه : يجب ألا يكون الانكليز واثقين من أنفسهم بالقدر الذي يدعون ، ولولا ذلك لم يمنحوني مثل هذه الشروط الملائمة...

امتدت نيران الحرب العالمية التي بدىء بها في أوروبا وفي سهول الفلاندر بسرعة إلى الحوض الشرقي من البحر الأبيض المتوسط . ومنذ ديسمبر (كانون الأول) ١٩١٤ ، كان الأتراك قد جعلوا من الشرق قاعدة متحركة منها يستطيع عملهم العسكري أن يمارس تحركاته في الوقت نفسه باتجاه الشرق ، والجنوب الشرقي ، والجنوب. هذا وقد عين جمال باشا ، أحد ثلاثي لجنة " الاتحاد والترقي " حاكماً لسوريا ، مع سلطات واسعة تبلغ درجة النيابة – الملكية . وفي ١١ يناير (كانون الثاني) ١٩١٥ سار جمال باشا نحو قناة السويس على رأس جيش مؤلف من ٤٠،٠٠٠ رجل ، يقودهم ضابطان ألمانيان : الكولونيل كرس فون كرسنستين وقون سيكت . فهاجموا الطريق المائي إلى طوسون ، قرب الإسماعيلية ، لكنهم طردوا من منطقة القتال بواسطة المدفعية وسفن الحرب الانكليزية ٣ فبراير (شباط).

في تلك الأثناء ، كان جيش بريطاني ، آت من بلاد الهند ، يقوده الجنرال تاونسهند ، قد هبط إلى البر في أقصى الخليج العربي واستولى على البصرة . ثم صعد مجرى نهر دجلة ، باتجاه بغداد . لكن القوات البريطانية هزمت عند خرائب المدائن ٢٢ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩١٥ ، واضطرت للتراجع . ثم أحيط بها في كوت العمارة فانتهت إلى الاستسلام ٢٩ إبريل (نيسان) ١٩١٦.

ولما كان هذا الاستسلام قد حدث في الكوت بعد فشل الحملة في الدردنيل أصاب السمعة البريطانية اصابة قاسية في الشرق الأوسط كله. فبادر الانكليز إلى إعداد هجوم جديد ، رغبة منهم في إصلاح ما أفسدته هذه الهزيمة. وانطلاقاً من مصر كان على جيش جديد بقيادة الجنرال السير أرشيبالد موراي أن يستولي على شبه جزيرة سيناء والسير عبر فلسطين نحو بيت المقدس ودمشق . هذه العملية كانت دقيقة جداً ، لأن القوات التي تنطلق على امتداد الساحل ستتعرض لهجوم جانبي من قبل الحاميات التركية المقيمة في المدينة والحجاز فكان هذا الوقت الذي ينتظره ابن سعود للإنقضاض على مكة وطرد الحسين منها. كان يقول في نفسه : لن يجد الانكليز ما يقولونه بالنسبة لعملية ، يكون من نتائجها ، بالتعاون مع عمليتهم ، حماية مؤخراتهم . أما فيما يتعلق بالأتراك فإنهم لن يستطيعوا الصمود ، بسبب أن الجزء الهام من قواتهم سيكون مشغولاً بمقاتلة الإنكليز.

وفجأة ، في ٦ نوفمبر (تشرين الثاني) من عام ١٩١٦ ، وفي الوقت الذي كان فيه ابن سعود يضع لمساته الأخيرة على استعداداته ، أعلن الحسن استقلال الحجاز ، وانتهك قسم الولاء الذي كان يربطه بالسلطان ، وأعلن رسمياً محالفته للإنكليز . وفي الوقت نفسه ، نشر بياناً مدوياً أعلن فيه أنه على رأس حملة جهادية عامة لتحقيق الإستقلال العربي ، ودعا زعماء شبه الجزيرة للإنضمام إليه .

هذا التحول تم إعداده منذ وقت طويل من قبل السير هنري ما كماهون ، المندوب السامي البريطاني في مصر ، وأعضاء المكتب العربي التابع للانتلجنس سرفيس في القاهرة [١]..

وكان تطور العمليات العسكرية قد جعل من الحسين حجراً من الأحجار الرئيسية في شطرنج الشرق الأوسط . وأيضاً فإن الانكليز قد توسلوا كل الوسائل لدفعه إلى ترك الأتراك . لقد تعهدوا بالإعتراف بسلطانه على الحجاز وبأن يدفعوا له مساعدة شهرية تبلغ ٢٠،٠٠٠ جنيه استرليني ذهباً . وتملقوا غروره إذ وعدوه بتكوين اتحاد تحالفي عربي كبير، بعد الحرب ، يكون هو زعيماً له فكان هذا أكثر من كاف لجر ذلك العجوز إلى الانفصال عن القسطنطينية .

والواقع أن تحول الحسين قد عدل الموقف الاستراتيجي في الجزيرة العربية من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار . لقد وجد فيه الإنكليز مساعداً ثميناً جداً . كانوا يعتمدون عليه لطرد الحاميات التركية من الحجاز وحماية الجناح الأيمن من جيش سيناء . أي أن الساحل الشرقي للبحر الأحمر سيصبح منذ ذلك اليوم بين يدي حليف . فلا الأتراك ولا

الألمان بقادرين على إقامة قواعد للغواصات عبر ذلك الطريق المائي ، الذي تعبر فيه كل القوافل القادمة من بلاد الهند.

كان ابن سعود قد شهد ، في حياته ، تحركات مسرحية عديدة ، لكن أي تحرك منها لم يفاجئه بما فاجأه به هذا التحرك . لقد كان ما حدث يبدو له مذهلاً جداً . ومما كان يدهشه أكثر من ذلك ، أنه لم ينكشف له شيء من عمل يظهر جيداً أنه قد أعد منذ وقت طويل . لقد أ فهمته هذه العملية أشياء كثيرة مرة واحدة ، كانت قد بقيت غامضة حتى ذلك الوقت .

---

١) منذ صيف ١٩١٥ ، كان السير هنري ما كماهون ، المندوب السامي البريطاني في مصر قد تسلم عروضاً سرية من الحسين . في ٢٤ أكتوبر (تشرين أول) ١٩١٥ ، أعلن السير هنري ، جواباً على مثل هذه المفاتحات ، أن الإنكليز مستعدون لمساندة إستقلال –

كان من أجل ذلك أن الثوار السوريين ، الذين جاءوا يجتمعون إليه بعد إستيلائه على الاحساء ، قد أكدوا له أن الحسين هو معهم سرياً : وإذاً فقد كان يتآمر على القسطنطينية ! وكان من أجل ذلك أيضاً أن مباركاً قد نصحه بحرارة بالامتناع عن المس بالحجاز !.

كما أن شكسبير قد استبعد بخشونة كل مناقشة حول هذا الموضوع . وأدرك في ذلك الوقت السبب الذي جعل كوكس يمنحه ، في عقير ، شروطاً ملائمة جداً : لقد كان الهدف الرئيسي لهذه المعاهدة حماية عدوه ! أو ليس أن ابن سعود قد تعهد بصورة قطعية " بالإمتناع عن مهاجمة حلفاء بريطانيا " هذه الصيغة التي كانت تبدو له مبهمة ، اتخذت الآن معناها الواضح : لقد أصبح الحسين حليف بريطانيا . ولم يعد في وسع ملك نجد أن يهاجمه . لقد أغلق باب الحجاز على نفسه بنفسه !

كان يظن أنه فاز بامتياز خاص ، في تلك المفاوضة ، ثم لاحظ أنه استسلم للخداع كطفل ساذج . وأيضاً فإنه لم يكن يعرف كل شيء . كان يجهل أنه لعب دوراً في هذا الموضوع على غير علم منه ، ذلك لأن الانكليز قد استعانوا بمعاهدة عقير للتغلب على آخر ترددات الحسين . لقد أفهموه أن ملك نجد صديقهم ، وأن تركه يحتاج الحجاز غير متعلق إلا بهم . وفي هذه الحالة سيسحق شريف مكة بين أخوان عبد العزيز وفرق السير أرشيبالد موراي. والحل

الوحيد بالنسبة إليه هو تغيير المعسكر بأسرع ما يمكنه . وحين يصبح حليفاً للبريطانيين ، يكون في حمايتهم أي في منعة تامة من أي عدوان خارجي .

وبينما كان فهد الصحراء يطلق زئير الغضب في قصره في الرياض ، كان الحسين قد بدأ بطرد الحاميات التركية من الحجاز . بمساعدة أولاده الثلاثة علي ، عبد الله ، وفيصل . فرد الأتراك بهجوم عنيف. وفي الوقت الذي بدأ فيه التسلح يتجه في غير مصلحة الهاشميين أرسل الانكليز بعض السفن الحربية إلى موانىء جده وينبع ورابغ فأنزلوا فيها بنادق ومدافعاً وذخيرة بكميات كبيرة ، ثم صناديق مملوءة بالذهب ، وحفنة من الضباط النشيطين ، ستورز ، ويلسون، يونغ ، كوشران وضابطاً برتبة نقيب يدعى توماس ادوارد لورنس ، الذي سيجعل الناس يتحدثون عنه .

هكذا استعاد عرب الحجاز ثقتهم بأنفسهم متأثرين بنشاط الضباط البريطانيين . واستطاع الحسين بفضل الذهب البريطاني أن يجند محاربين بين قبائل الداخل – من بينهم قبائل نجد أيضاً – وأن يزيد قواته زيادة كبيرة جداً .

وباتجاهها إلى الشمال ، في محاذاة الخط الحديدي الذي يمتد من المدينة إلى دمشق ، استطاعت قوات الحسين أن تستولي على العقبة .

ثم تم الاتصال بينها وبين الجيش البريطاني قادماً عبر شبه جزيرة سيناء يقودها كل من فيصل ولورانس الذ ي رقي إلى درجة كولونيل . وقد ردوا القوات التركية معاً عند بئر السبع وغزة ٩ يناير (كانون الثاني) ١٩١٧.

وفي الوقت نفسه كان جيش بريطاني ثالث ، مجهز تجهيزاً أفضل من الجيش الأول ، قد نزل أرض البصرة في أعماق الخليج العربي . ثم صعد هذا الجيش في محاذاة نهر دجلة مستعيراً الطريق نفسها التي اتخذها الجنرال تاونسهند من قبل . فانتهى الأتراك المحاصرون في كوت العمارة إلى الاستسلام فبراير (شباط) ١٩١٧ . هذا النصر الذي عفى على آثار الكارثة في العام الماضي فتح أمام الحلفاء طريق بغداد والموصل .

هكذ ا دفع البريطانيون القوات العثمانية في كل جبهات الشرق ، ثم ركزوا فرقهم وعبئوها للقيام بهجوم أخير . وكان الجنرال اللنبي قد شغل مكان السير أرشيبالد موراي في القاهرة . وهو الرجل الضخم المرح ذو الوجه الأحمر الحافلة نفسه بالتفاؤل .

كما كان على جيش سيناء القادم من الجنوب ، وجيش البصرة القادم من الشرق أن يتلاقيا قريباً من مدينة حلب ثم يتابعا طريقهما معاً إلى القسطنطينية . وفي مقابل هؤلاء ، كان الجنود الأتراك ، الذين تنقصهم الأسلحة ، والتجهيزات، والذخائر ، والمؤونة ، يموتون بالآلاف بسبب الجوع والزحار ، أما القرار النهائي فقد كان يبدو في متناول اليد.

من أجل هذا الهجوم الأكبر والأعظم ، كان الانكليز راغبين في التأكد من مساندة الزعماء العرب كلهم لهم . إن تقدم قوات اللنبي يكون أسهل بقدر ما تكون هجمات الإنهاك ، التي يقوم بها الفرسان البدو عند الجناح الأيمن من الجيش التركي ، أشد اندفاعاً وأكثر تدميراً .

لهذا الغرض ، انتدبت الحكومة البريطانية بعثة دبلوماسية إلى الرياض ، لتحث ملك نجد على الانتقال أخيراً إلى حالة الحرب . وكان المقدمان على هذه البعثة هما سانت جون فيلبي ولورد بلهافن .

استقبل ابن سعود المبعوثين الانكليز باحتفال كبير جداً . وأسكنهم في قصره رغم أن العلماء وبسطاء الناس قد أزعجهم جداً أن يروه يعرض ضيافته على " هؤلاء الكلاب من الكفرة " وأصغى ابن سعود باهتمام ظاهر لكل ما قاله فيلبي وبلهافن ، لكنه رفض الخروج عن حياده . فلم تستطع حججهما ودفاعاتهما كلها أن تزلزل موقفه . لقد كان مقتنعاً بأن الحياد ، في ذلك الوقت ، هو السياسة الأعود عليه بالفائدة ، والانطلاق في الحرب قبل الوقت الملائم لا يعني شيئاً ذا قيمة عنده .

والأكثر من ذلك أن ما جاء الإنكليز يطلبونه منه ، أي الإسهام العملي " في جهاد إسلامي شامل " سيكون في نهاية المطاف في ظل راية الحسين ، وأنه ليفضل أن تقطع يده اليمنى على أن يسهم ، حتى في أقل من القليل ، في تحقيق نصر لمنافسه .

إنه لم يكن يؤمن بالاتحاد التحالفي العربي ، فإذا وجب أن يتجسد هذا الهدف يوماً من الأيام ، فإنه لن يسمح أبداً بأن يكون الحسين زعيماً له .

كان الهاشميون يمثلون أشد ما يكرهه . فهم في رأيه مثقفون مترفون وفنانون لكنهم فاسدون منتكسون بسبب إتصالهم الطويل بالحضارات الأجنبية . فبأي حق يجعل هذا الحسين من نفسه ناطقاً باسم العرب وهو زوج لامرأة

تركية وابن لأم شركسية ؟ وماذا يعرف من الاستقلال وهو الذي أحنى ظهره دائماً أمام سلطان القسطنطينية ؟ ولم تكن له غير رغبة واحدة : هي أن يبيع نفسه لأكبر مزايد ؟ فبالقدر الذي كان فيه خلق الأمبراطورية الإسلامية — هذا التسلل خارج الصحراء والتورط في الخطيئة — خيانة نحو الله وكارثة على الجزيرة العربية ، فإن الحسين ومن على شاكلته ، ممن كانوا ينتسبون إلى طراز من الرجال عرفته الأمبراطورية عند انهيارها ، لا يفعلون غير تمديد هذه الكارثة .

إن هؤلاء الارتيابيين غير الأمناء هم الذين فسحوا المجال لفساد العقيدة الحقيقية ، وحولوا الحج إلى صفقات مربحة ، وأدخلوا إلى المدينتين المقدستين كل العادات المعيبة الخجلة . وكانوا لا يكادون يذكرون اسم هذا العجوز ، حتى يختنق إمام الوهابيين من الغضب ، ويصب عليه أسوأ اللعنات . كان يتمثل بثورة الجزيرة العربية الداخلية ، في صرامتها وقوتها ، ضد عرب الخارج الضعفاء الفاسدين . وكان يلوح إمام المسلمين ذوي الأيدي الرطبة الدبقة ، بسيف الإسلام المتألق بالدم النقي.

وعندما يفكر بالمبالغ الكبيرة التي تدفعها حكومة لندن لملك الحجاز — مما يسمح له بتجنيد الجنود حتى في بلاد نجد . أي داخل أراضيه الخاصة — فان دمه يغلي في عروقه.

–" قال للمعوثين الإنكليز باعتزاز شديد : أنتم تخطئون في مساندتكم للحسين كما تفعلون . وفي اليوم الذي تكفون فيه عن إرسال المساعدات إلى مكة ، فإنني لن أجعل منه أكثر من لقمة واحدة . سترون حينئذ كيف تتوجه كل القبائل في الحجاز نحوي كما تتوجه نحو محررها ! " .

غادر فيلبي وبلهافن مدينة الرياض دون أن يوفقا إلى اقناع ابن سعود بتعديل سياسته . لكنهما في الوقت نفسه أعربا عن اقتناعهما بأن ملك نجد هو الشخصية المثلى في الجزيرة العربية ، وربما كانت بريطانيا على خطأ بإقامة سياستها العربية كلها على الحسين .

في تلك الأثناء ، كانت العمليات العسكرية تراوح في مكانها . وقد اضطر اللنبي أن يؤجر موعد هجومه الكبير مرات كثيرة . لأن الجنود الأتراك رغم حالتهم التي تدعو إلى الرثاء والنقص في تسلحهم قد قاوموا الهجمات التي شنت عليهم خيراً مما كانوا يقدرون ويرتقبون . أما الانكليز فإن واحدة من هجماتهم وضعت حيفا تحت سيطرتهم ١٧

نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩١٧ ، ثم جاء دور بيت المقدس ٩ ديسمبر (كانون أول) من العام نفسه . وحينما بلغوا هذه النقطة اضطرت قواتهم للتوقف من جديد والإحتماء وراء خط يبدأ من شمالي حيفا ويمتد إلى عمان [١] .

وجاء عام ١٩١٨ . فزادت العلاقات سوءاً وفساداً بين ابن سعود والحسين . ورغبة من الانكليز في تجنب أي انفجار بين الخصمين أعطى الانكليز أمراً للميجر فيلبي بالعودة إلى الرياض والإقامة فيها بصورة دائمة ، على رأس بعثة صغيرة.

---

١) من أجل مزيد من التفصيلات حول معركة فلسطين ، أنظر بنوا ميشان في كتابه : مصطفى كمال أو موت أمبراطورية ، ص : ١٧٢.

وفجأة ، في ربيع عام ١٩١٨ ، كان حادث غير منتظر يضع النار في البارود . لقد اعتنقت مدينة كرمة المذهب الوهابي ووضعت نفسها بصورة عفوية تحت حماية ابن سعود . والجدير بالذكر أن الحدود في الصحراء غير محددة . فوضعت كرمة الواقعة عند تخوم العتيبة والحجاز ، وضع الأرض المحرمة ، التي لم يتحدد انتسابها لجهة معينة . لكن هذه المحلة كانت سوقاً هامة ، يأتي إليها بدو الداخل ليبيعوا قطعانهم من تجار الساحل .

من هنا لم يكن في وسع الحسين أن يسمح بانتقال هذا الملتقى من الطرق إلى سيطرة عدوه المنافس . فأرسل قواته إلى كرمة لفرض حقوقه وتوكيدها . وقاوم سكانها المحاصرون ببطولة فذة ، لكنهم استسلموا أخيراً وسقطوا حتى ضغط العدو الكبير . وقد ذبح قسم منهم من قبل المشاة الحجازيين .

هذا العمل الوحشي القاسي أثار ، في بلاد نجد كلها ، موجة من الاستنكار العنيف فطالب الوهابيون والأخوان بالسير نحو كرمة للثأر لأخوانهم .

-" وصرخوا قائلين : إن الشريف حسيناً هو عدونا الكبير ! أية فضيحة هذه أن يكون رجل مثله سدناً للمدينتين المقدستين ! فهل سنسمح له بسحق أولئك الذين يدينون بعقيدتنا ، دون عقوبة ؟ انهض ، يا ابن سعود ! تقلد سيفك وقدنا إلى المعركة ، لننتزع أخواننا من براثن الفاسقين ! " .

-" أجابهم ابن سعود : كل ما تقولونه صحيح ، لكننا يجب أن نصبر لأسباب عليا " .

كان ابن سعود في حالة شديدة من الحيرة ، إن غرائزه ، ومصالحه ، وكبرياءه ، وشعبه نفسه ، هذه كلها كانت تدفعه لمهاجمة الحسين . لكن فيلبي الذي يراقب بانتباه شديد أقل تصرفاته وتحركاته ، والذي كان على اتصال مستمر به ، يذكره دون توقف ، باتفاقية عقير.

-"كان يردد على سمعه : لا تنس أن الحسين حليف بريطانيا وأن مهاجمته تعني انتهاك البنود في اتفاقنا . وأنت تعلم أن الخروج على تعهداتك ، سيسبب لبلاد نجد ولنفسك أوخم النتائج " .

ولما كان راغباً في صرف ابن سعود عن القيام بعمليته في الحجاز ، فان فيلبي أوحى إليه أن يسير نحو دمشق — مما يسهل هجوم الجنرال اللنبي — أو باتجاه الشمال الغربي ، نحو مقاطعة حائل ، حيث أقدم الأتراك على تعيين شخص يدعى محمد بن رشيد ، وهو ابن أخ لأبن رشيد القديم ، الذي يثير اسمه في نفس عبد العزيز ذكريات المعارك في شبابه .

تردد ابن سعود في العمل بهذه النصيحة . وعلى أمل أن يرغم الحسين على سحب قواته من كرمة ، كتب إليه رسالة ، يحتج فيها بعبارات عنيفة ضد الظلم الذي أنزله بأخوانه من أتباع المذهب الوهابي داعياً شريف مكة إلى إخلاء المدينة والجلاء عنها . والواقع أن هذا التصرف كان خاطئاً وفيه سوء تدبير ما دام أنه لم يكن من الممكن مساندته بأية عملية عسكرية .

أما الحسين ، الواثق من مساندة الانكليز له ، فقد رد إليه رسالته دون أن يقرأها.

-" أجاب الرسول الذي حملها إليه : عد إلى الرياض ، وقل لعبد العزيز ، بأنني أنا الحسين لن أتردد في السير إلى بلاد نجد لطرد أسرته وإبادة كل الوهابيين ، هذه الذرية من الخنازير المدودة " .

صدر هذا التصريح أمام الجميع ، ليسمعه كلهم . فكانت الإهانة فاضحة صريحة حتى ليقال أن ملك الحجاز كان يفعل ما يستطيعه للوصول بسخط ابن سعود إلى أقصى غاياته . أما ملك نجد فلم يتوصل إلى فهم حقيقة الموقف الانكليزي . لقد كان من طبيعة الأشياء أن يمنعه الانكليز من مهاجمة الحسين ما دام أنه حليف لهم . وما دام

أنهم يملكون وسائل الضغط عليه فلماذا لا يمنعونه من توجيه الإهانات الغليظة إلى ابن سعود ، الذي يؤكدون أنه هو أيضاً صديق لهم ؟

ماذا تعني تلك المسرحية المعقدة التي يعلن فيها الجميع أنهم أصدقاء ، ثم يعيشون في الوقت نفسه وهم يتبادلون الطعنات بالخناجر ؟

والحقيقة ، أن ما لم يكن ابن سعود يفهمه ، كان كثير من الانكليز لا يفهمونه أيضاً ، لأنهم كانوا يجهلون ما نعرفه نحن اليوم .

فالميجر سانت جون فيلبي الذي يساند ابن سعود ، كان ينتمي إلى المكتب الهندي ، المرتبط بحكومة بلاد الهند. أما الكولونيل لورانس ، الذي يساند الحسين ، فقد كان مرتبطاً بمكتب الجزيرة العربية في القاهرة والذي يتفرع بدوره عن وزارة الخارجية في لندن . وكان المكتبان يتبعان سياستين مستقلتين إحداهما عن الأخرى . إن عمليهما لم يكونا مختلفين وحسب : بل كانا في الغالب متناقضين .

كانت مشاغل مكتب الهند تدور حول العراق والطريق البري إلى البلاد الهندية . من أجل ذلك كان قادته يسعون إلى مصالحة الحكام المتاخمين للخليج العربي . كانوا على صلة بمبارك ، أثناء إقامته في بومباي ، وبفضله أقاموا محمية في الكويت . وبواسطته عقدوا صلاتهم مع ابن سعود ، الذي سمحوا له بتحقيق غزوته لبلاد الأحساء . وعلى ذلك فإن مصلحتهم تقضي بتقويته وإعلاء شأنه.

أما قادة مكتب الجزيرة العربية ، فقد كانت السويس شغلهم الشاغل ثم عدن وبالتالي الطريق البحري إلى البلاد الهندية . من أجل ذلك كانوا يسعون إلى بسط نفوذهم على الأمراء المتاخمين للبحر الأحمر . إنهم هم الذين فاوضوا الحسين وحققوا تحوله السياسي . ومن هنا وجب عليهم أن يشبعوا رغباته ويحققوا أطماحه . وبمرور الزمن أصبحت السياسات المتبعة من قبل الإدارتين الانكليزيتين متناقضة ومتعارضة ، بالقدر الذي كانت فيه مصالحهما مرتبطة بالمطالب المستعصية على التوفيق للأسرتين الحاكمتين المتنافستين .

وفي عام ١٩١٦ ، كان لورانس ، بالاتفاق مع السير هنري ما كماهون ، قد وعد الحسين برئاسة الاتحاد التحالفي العربي الذي ينتظر أن ينشأ بعد الحرب ، وتعهد بإعطاء العراق وسوريا إلى ولده فيصل ، بينما يعطي ولده

عبد الله كلاً من فلسطين وشرقي الأردن . لكن وزارة الخارجية كانت منذ ذلك الوقت ، وبالاتفاق مع اللنبي ، قد وقعت بصدد سوريا ومصيرها بروتوكولاً خاصاً مع الحكومة الفرنسية ، ينقض التعهدات التي أعطيت لفيصل [١] .

بينما كان بلفور قد أذاع تصريحاً ، يعلن فيه خلق وطن يهودي في فلسطين ، ينتهك به الوعود التي أعطيت لعبد الله [٢] .

---

١) اتفاق سايكس بيكو في ١٦ مايو (أيار) ١٩١٦.

٢) تصريح بلفور للورد روتشيلد في ٢ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩١٧.

ولما كان واضع " أعمدة الحكمة السبعة " قد أحيط به من قبل هذه النيران المتصالبة فانه لم يعد يعرف ما يصنع. " كتب يقول : كنت واحداً من ضباط اللنبي ، وكنت موضع ثقته : وفي مقابل ذلك ، كان ينتظر مني أن أفعل خير ما يمكن أن أفعله من أجله . لكنني كنت أيضاً مستشار الفيصل : وكان فيصل يطمئن إلى استقامتي وكفاءتي حتى أنه كان في الغالب يعمل برأيي دون مناقشته . ومع ذلك فلم يكن في وسعي أن أشرح لاللنبي كل الموقف العربي ، ولا أن أكشف القناع عن خطة الانكليز أمام الفيصل [١] ".

لكن هذا لم يكن كل شيء " يتابع لورانس قائلاً : وبمناسبة هذه الظروف الدقيقة رأت الحكومة البريطانية أن تعطي ، سعيدة ، باليد اليسرى . لقد وعدت العرب (وبتعبير آخر للجنة من سبعة حكماء لا سلطة لها في القاهرة) بملكية الأرض التي ينتزعونها من الأتراك أثناء الحرب ... ، ولكي تثبت أنها جديرة بمنح عدد من الوعود يساوي عدد الفرقاء ذوي العلاقة فإن حكومتنا عارضت وثائق — أ — الخاصة بالشريف حسين ، بوثائق — ب — الخاصة بحلفائها ، كما عارضت وثائق — س — الخاصة باللجنة العربية ، بالوثيقة — د — الموجهة إلى اللورد روتشيلد ، باعتباره رمزاً لقوة جديدة قدمت لها إمتيازات غامضة في فلسطين [٢] . وأخيراً وتتويجاً لهذا البناء ، بهندسة قابلة للإعتراض أقدم البريطانيون على إجراء محادثات سلام منفصلة مع الأتراك " كانت تشتمل " كما يضيف لورانس ، على قتل عدد لا يحصى من العرب المقاتلين إلى جانبنا [٣] " .

كل هذه الوعود المتشابكة كانت منطلقاً لعدد مثلها من المنازعات ، التي يبدو خبراء – داوننغ ستريت – غير مهتمين بها ، تقديراً منهم أن النصر سيضع التسوية المطلوبة لكل شيء. لكن المنازعات التي نشأت عن هذه الخطة كانت جديرة بتحويل الشرق الأوسط إلى تجمع فوضوي كبير . وكما يحدث غالباً في مثل تلك الظروف ، فإن الادارات المتنافسة انتهت إلى تبني المنازعات الخاصة بالجهات المحمية من قبلها على الترتيب فلورانس لا يريد أن يعرف غير شريف مكة ، وفيلبي لا يقسم إلا برأس ملك نجد . وبينما كانت التقارير الخاصة بالحسين وابن سعود تزداد سوءاً، فإنّ نزاعاً متنامياً وضع لورانس ضد فيلبي.

---

١) ت . أ . لورانس ، أعمدة الحكمة السبعة ، ص : ٤٨٢ .

٢) أعمدة الحكمة السبعة ، ص : ٦٩١ ، ٦٩٢ .

٣) المصدر نفسه ، ص : ٦٩٣.

–" قال ابن سعود بتنهيدة أسف : الحقيقة أنه إذا كانت الحملة على الحسين لا تعني فصم الاتفاق مع انكلترا ، فإنّ هذه الحملة كان يمكن أن تحدث منذ وقت طويل ! ذلك لأنني أكره الشريف حسيناً أكثر من أي شيء آخر في الأرض . أما فيما يتعلق بأبنائه علي وعبد الله وفيصل فإنني أريد أن أسحقهم بعقبي كما أسحق وكراً من العقارب ".

وعاد حادث كرمة إلى السطح . حين طرد سكانها حامية الحسين بانتفاضة يائسة ، واستعدوا للمقاومة من جديد . ومرة أخرى ، ألحوا على ابن سعود أن يبادر إلى انجادهم لكن ابن سعود لم يتحرك كما كان شأنه من قبل.

بدأ " العلماء " والأخوان يدمدمون . وراحوا يتساءلون : ماذا تعني هذه السلبية التي لا يجدون لها تفسيراً ؟ الوهابيون يقتلون ، وابن سعود يشهد المذبحة دون أن يخف إلى نجدتهم ، بل دون أن يقول لهم كلمة عطف وتعزية ؟ ماذا صنع له الإنكليز ، هؤلاء الكلاب الكفرة ، الذين كانوا يتنقلون دون توقف في ممرات القصر وأبهائه ؟ والذين يعقدون مع الملك إجتماعات خفية لا نهاية لها .

وفي مرة ثالثة ، وجه سكان كرمة نداء حزيناً يائساً إلى أخوانهم في نجد . ثم أرسلوا إلى ابن سعود رسولاً يحمل إليه الرسالة التالية :

– " إذا كنت ممتنعاً عن القدوم إلينا بسبب الحفاظ على فيض الذهب القذر الذي يغذيك به الأجانب فقل لنا ذلك يا ابن سعود ؟ فسنعذرك ، إذ أننا نعرف كم يكون الرجل ضعيفاً أمام المغريات.

لقد أرسلنا إليك جمعاً من المحاربين ليصفوا لك بؤسنا . لكنه كان جهداً ضائعاً لأنك لا تتحرك . لذلك سنرسل إليك في المرة القادمة أمهاتنا وزوجاتنا . انهن سيحرضن بلاد نجد كلها . وإذا كان قلبك الذي قدّ من حجر باقياً على صممه لا يسمع نداءاتنا فان قلب شعبك الكريم سيسمع صراخنا ! " .

أحدثت هذه الرسالة حالة انفعال شديد في طول البلاد وعرضها . ثم تحول الانفعال سريعاً إلى غضب عارم ، والغضب في تلك المرة أصبح موجهاً ضد الملك . وبدأ ولد عبد الرحمن ، بسبب امتناعه عن الاستجابة للنداءات الموجهة إليه ، يفقد شعبيته . في كل مكان من المدن والقرى كان اللوم يوجه إلى جموده . أما العلماء والمطوعة فانهم لم يترددوا في اتهامه ببيع حقه في البكورة من أجل صحفة من العدس وبتواطئه مع الأجنبي ، وكانوا يرددون هذه الاتهامات في المساجد والمدارس . وحميت نفوس الأخوان متأثرين بتحريض الوهابيين من الشيوخ . أما الجنود فقد سارعوا ، بصورة عفوية ، إلى أسلحتهم ، لينطلقوا في حربهم ضد الحسين — مع الملك أو دونه . كان السخط يزيد يوماً بعد يوم . وشعر ابن سعود أن سلطانه يتسرب من بين يديه.

أما فهد الصحراء فقد شلت حركته بسبب افتقاده لليقين ، مغلقاً على نفسه باب قصره في صمت وسكون . كان يتساءل : ماذا يجب أن يفعل ؟ ان الاستجابة لرغبة قواته يعني تمزيق اتفاقية عقير . ثم لا يلبث رد الفعل الإنكليزي أن يتحقق بصورة مباشرة . وبذلك يدمر الأخوان ثم يطرد هو شخصياً من نجد والأحساء.

وتسلم بلاده إلى آخرين سواه ، بعد التوقيع على السلام . أما سكان مملكته ، فيوضعون دون رحمة ، تحت سلطة أجنبية ، أو يتركون لأنفسهم ، فيعودون إلى الفوضى والعماء .

وعلى أن البقاء دون تصرف إيجابي ، هو توكيد للإدعاءات الكاذبة لمن يدعون أنه يضحي بشعبه ودينه في سبيل الذهب ، وترسيخ لها في عقول رعاياه كلهم .

وبالتالي تفجير لأزمة داخلية تبعده عن عرشه . وهذا سيعني ، ليس فقط عيباً وعاراً ينزلان به ، بل انهياراً لكل ما حققه ، ونهاية لكل أحلامه ... صحيح أن عبد العزيز قد عرف في حياته ظروفاً صعبة جداً ... لكنه قليلاً ما وجد نفسه أمام موقف قاس لا خيار له فيه .

وفجأة علم أن محمد بن رشيد ، قد انتقل إلى صفوف الحلفاء بعد أن استبان هزيمة الأتراك الحتمية . وكان الحسين قد قابله سراً وزوده بالسلاح ليسير نحو الرياض .

وفجأة أيضاً ، استعاد ابن سعود نشاطه كله . فأخرج الفهد براثنه واستعد للإنقضاض . فما دام أنه قد هوجم فإن على الإنكليز أن يساندوه . أو ليس أنهم قد دفعوه هم أنفسهم من قبل للتخلص من ابن رشيد ؟ وما دام أن الأخوان يضطربون وينتفضون ويطالبون بالقتال ، فلماذا ا لا يتقدم صفوفهم للقضاء على العدو التقليدي لأسرته المالكة ؟ هكذا تزوده المعركة بما يحي به نشاطه الحربي العنيف ...

قرر ملك نجد عقد اجتماع كبير في شقرا ، التي كانت واحدة من مستعمرات الأخوان الرئيسية ، وأستدعي كل قادة الجيش بداعي الخطورة . فأجاب هؤلاء بحماسة كانت على قدر تمنيهم للحرب ، وفكروا أن ابن سعود قد استدعاهم ليعلن إليهم بداية المعارك ضد الحسين .

وصل القادة وحراسهم الواحد بعد الآخر . فاستقبلهم ولد عبد الرحمن عند أبواب المدينة ثم رافقهم إلى الأمكنة المخصصة لهم . فأقام كل شيخ مضربه ، وركز علمه أمام المدخل ، وأقام حوله أتباعه وركائبه .

وفي اليوم التالي اجتمع سكان شقرا ، والقرويون في المناطق المتاخمة ، والقادة وحراسهم في سهل رملي ، يقع شمالي المدينة . ثم جاء الملك فجلس تجاههم ، يحيط به حرسه الخاص . والواقع أن أحداً من الناس لا يذكر أبداً أن الجزيرة العربية الوسطى قد شهدت مثل هذا العرض للقوات المسلحة .

نهض ابن سعود ، وقلب نظره طويلاً في الحاضرين ثم أعلن ما يلي :

– " لقد دعوتكملأنني في حاجة إليكم . وبعد أن فكرت طويلاً قررت أن أخوض الحرب ... ".

تردد هتاف عظيم تحية لهذه الكلمات . أخيراً سيعرف الناس أين هو موقعهم من الأحداث ! وأخيراً سيتحررون من الجمود والعار ! .

– " ثم تابع ابن سعود بهدوء تام ... لقد قررت أن أخوض الحرب ، والعدو الذي أقترح عليكم هزيمته هو محمد بن رشيد ... "

أمام هذه الكلمات تجهمت كل الوجوه . فكان بعد الهتاف دمدمة استياء .

نهض القادة العسكريون يطالبون بالكلام.

– " قالوا كل بدوره : ماذا يعني هذا ؟ وماذا يهمنا من محمد بن رشيد ؟ نحن لا نريد حربه – بل نريد هذه الحرب ضد الحسين ! ".

ولما لم يجب ابن سعود ، وقف الشيخ دويش القائد الأعلى للأخوان وطلب الكلام بإسم الجيش كله.

– " قال بلهجة حاسمة : نحن نطالب بمقاتلة الشريف حسين ، الذي يضطهد أخواننا في كرمة ، والذي سلحه الإنكليز ! ونحن نطالب بمقاتلة أعداء العقيدة ! أو ليس أنك قد جندتنا ، ودربتنا ، وعودتنا على الشدائد ؟ ليس لك يا عبد العزيز أن تقول غير كلمة واحدة ، ثم نتبعك حتى الموت ، شرط أن يكون سيرنا ضد الشريف حسين ، الذي " يسيء " إلى المدينتين المقدستين ! أما فيما سوى ذلك ، فاعلم أننا لن نطيع أوامر الأجنبي أبداً . إنني بهذا الكلام أعبر عن عاطفة كل واحد من جنودك ! ".

أصغى ابن سعود إلى الدويش دون أن يقاطعه . ذلك أنه كان يعلم ما يدور في رأس القائد الأعلى . لقد قيل له أن المعركة ضد محمد ابن رشيد قد أوحى بها الإنكليز ، وأنها ستحقق لمصلحتهم . هكذا كان الحكم الصارم الذي أصدره المحارب العجوز على موقف الملك ووجه به اللوم الشديد إلى المجاملة التي يبدو أنه يشبع بها رغبات الكفار . ذلك أن الدويش يطوي كراهية شرسة نحو الأجانب ، ولا سيما نحو الإنكليز ، الذين يتهمهم بـ " تطويع " ابن سعود.

ومن وراء الدويش ، كان ينتشر ، في صفوف كثيرة ، قادة الأخوان وكبار ضباطهم ، بالوجه القاتم ، ومعالم التهديد .

لقد كانت تقرأ في النظرات سمات عنف شديد.

هذا وكان عدد الأخوان قد زاد خلال السنوات الأخيرة زيادة كبيرة . لقد كانوا يكوّنون قوة في داخل البلاد وهم لا يجهلون ذلك . وأيضاً كانوا يهدفون إلى فرض إرادتهم.

أية مأساة هذه بالنسبة لابن سعود ! إنه هو الذي وضع الخطة الخاصة بتنظيم حركة الأخوان . وأخرجها من العدم . ومنذ اليوم الذي لم تكن تعد فيه غير فئة قليلة من المتطوعين ، وهو يوم بعيد ، تعهدها الملك بالرعاية وشجعها وأحاطها بحمايته . لقد قادها إلى النجاح ضد العواصف والتيارات العنيفة . وأراد أن يجعل منها الجيش الأول في الجزيرة العربية ، والآن قد تحققت هذه الغاية ، انقلب عمله عليه وأجاب نداءه بزمجرة من الغضب !

كان عبد العزيز يعرف رجال جيشه جيداً لكي لا يشعربأنه عند حافة الثورة . لقد الهب خطاب الدويش كراهيتهم نحو الأجانب . فإذا لم يستردهم بيديه مباشرة فإنه سيخسرهم إلى الأبد . لقد كانت المحاولة من أدق العمليات وأخطرها.

أن كلمة واحدة يساء فهمها ، أو حركة واحدة يساء تفسيرها ، تجعلهم لا يترددون بعد ذلك في إجتياح ملكهم للسير نحو مكة وسحق الحسين.

وبذلك لا تعود الكارثة قابلة للعلاج ، إذ أن الانكليز بمدافعهم ، وسياراتهم المسلحة بالرشاشات وطائراتهم يسحقونهم حتى آخر رجل منهم . إنها ستكون مذبحة مخيفة.

في تلك الفترة الحرجة ، لم يكن على ابن سعود أن ينقذ نفسه وأسرته وحسب . بل كان عليه أيضاً أن ينقذ كل هؤلاء الرجال الذين أعمتهم عواطفهم العنيفة ، بمنعهم من الإندفاع في مغامرة لا تعني غير الانتحار.

بقي الملك صامتاً لمدة دقيقة كاملة ثم نهض :

– " قال لهم بصوت مختنق أخذ يرتفعويقوى بازدياد نشاطه : أسمعوني جيداً ... أنتم تدعون جنودي ، والذين شاهدونا معاً في ميادين القتال يعرفون ماذا تعني هذه العبارة . إن العواطف التي أحملها لكم ليست تلك التي يحملها

رئيس لمرؤوسيه . بل هي أيضاً عوطف أخ نحو أخوانه ، وعواطف أب نحو أطفاله . هذه العواطف هي التي أتوجه اليوم إليها بالنداء . إنه ليس لي أي جيش ، وليس لي أي سلطان ، دون الله ودونكم.

معاً نستطيع أن نفعل كل شيء . فإذا افترقنا فنحن لا شيء . لا تظنوا أنني أهمل واجباتي الأساسية . إن الذين زعموا لكم هذا الزعم يستغلون حسن طويتكم . ولا يعرفون المسؤوليات التي تثقل كتفي . هل تظنون حقاً أن آلام أخواننا لا تحرك عواطفي ولا تثير شفقتي كما تحرك عواطفكم وتثير شفقتكم ؟ لكنني أعلم ما هو ضروري . توقفوا عن الاهتمام بشريف مكة وإنني لأقسم لكم – وهنا اتخذ صوته لهجة فخامة وجلال – إنه إذا لم يمنعه الإنكليز من تجديد حملاته على كرمة ، سرنا معاً نحوه ، لمعاقبته كما يستحق " .

هذه الكلمات الأخيرة أحدثت حالة من الانفراج عند السامعين . وبدأ ابن سعود يستعيد بعض ما فقده من سلطانه . " كان يعلم جيداً كيف يتحدث إلى هؤلاء الرجال المندفعين المتحمسين والبسطاء الموجودين أمامه ، لأنه يعرف الطيات العميقة لقلبهم . كان يبدو وهو الخطيب غير المدافع ، أنه مدرك لفكر أولئك الذين يتوجه نحوهم . إنه حين يخطب جنوده ، يظن أنه يهبط إلى ذواتهم ، ليضع إرادته موضع إرادتهم [١] " .

كان مشهداً مدهشاً تدور فيه معركة غريبة غير متساوية الطرفين يجابه فيها عبد العزيز ، وحيداً أعزل من السلاح، تلك الجموع ، وينتهي بالتغلب عليها .

– " ثم تابع قائلاً : أما فيما يتعلق بمحمد بن رشيد فالحقيقة أن الإنكليز قد ألحوا علي بمهاجمته . لماذا أخفي ذلك عليكم ؟ لكن الإنكليز ليسوا من يقطف ثمرات هذا الهجوم . أنهم سيزودونني ، من أجل ذلك ، بالذخيرة والسلاح ، وسنكون بعد ذلك في وضع أحسن لتصفية الحساب مع الحسين . وزيادة على ذلك أقول لكم : أننا إذا استولينا على مقاطعة حائل ، فإن الانكليز سيدعون لي كل قبائل الصحراء ، ومن ثم فإن الرؤساء الفاسدين الذين يحكمون عند تخوم البلاد سينحنون أمام قوتنا ويدعوننا نعيش في سلام ... " .

ساعتان مضتا وابن سعود يكلمهم بهذه اللهجة ، وعندما أنهى خطابه ، كان قادة الأخوان ومساعدوهم قد بلغ بهم التأثر إلى حد الانتقال من الحذر إلى الحماسة . لقد سقطوا على ركبهم ، ومرغوا جباههم بالتراب ، يسألون ابن سعود أن يغضي عن ضلالتهم.

– " قالوا له :لقد أرتبنا فيك يا ابن سعود . لقد خدعنا من قبل رؤوس سيئة . ألقت الشك حول سلوكك . لكننا ندرك الآن كم كنا مخطئين ! فأنت الأحكم ، ولسنا نحن من يناقش أوامرك . أنت وحدك تعرف كيف تقودنا في طريق الشرف والفخار . سنسير معك يا عبد العزيز حيث تقودنا : اليوم ضد ابن رشيد ، ما دمت تطلب منا هذا ، وغداً ضد الحسين ، ما دمت قد وعدتنا بذلك !".

---

١) هـ . س أرمسترونغ ، ص : ١٣٤ .

ولكي يثبتوا أنهم متفقون فقد صلوا معاً . ثم أخذ الألوف من الحاضرين يرتلون معاً بصوت قوي السورة الأولى من القرآن :

بسم الله الرحمن الرحيم .

الحمد لله رب العالمين .

الرحمن الرحيم .

مالك يوم الدين .

إياك نعبد وإياك نستعين .

أهدنا الصراط المستقيم .

صراط الذين أنعمت عليهم.

غير المغضوب عليهم.

ولا الضالين .

وعندما انتهوا من قراءة هذه المقاطع الجليلة . أستأذن ملك نجد قادة الأخوان بالانصراف وهو يقول لهم.

– " أنني لم أرتب أبداً في إخلاصكم . لا تدعوا الأفكار السيئة تزرع الخلاف بينكم وبيني ! عودوا إلى مواقعكم وأجمعوا رجالكم . إن موعدي معكم ، مع القمر الجديد في منطقة بريدة . فلعل الله ، برعايته ، أن يرزقنا نصراً من عنده ! " .

بعد ذلك بشهر واحد ، توغل ابن سعود في منطقة حائل ، يقود مقدمة الجيش بنفسه . كانت المعركة قصيرة . لقد انقض ، بسرعة البرق الخاطف ، على قبائل شمر ، فسحقها ، وفرق قوات محمد بن رشيد ، الذي ذهب إلى العراق . وعين ولد عبد الرحمن حكاماً مخلصين له في المدن الرئيسية من المنطقة . وبعد أن وزع الهدايا الثمينة على المقاتلين من الأخوان الذين تميزوا خلال العمليات الحربية ، انقلب إلى الرياض ، حيث استقبله الناس بحرارة بالغة .

إن هذا الهجوم اللامع ، الذي توج بالنجاح وبإلحاق مقاطعة جديدة إلى الأرض الخاضعة لسلطان السعوديين ، أعاد إليه إمتيازاته في نظر رعاياه . فمنذ سعود الكبير لم يعد عضو من هذه الأسرة يحكم حائل حتى جاء عبد العزيز.

أما " العلماء " وقد شعروا بتغير الاتجاه في الرياح ، وأن الرأي العام عاد يهتف للغالب ويتحمس له، فلم يكونوا أقل المتعجلين في الإعراب عن ولائهم . فنظموا حفلاً دينياً شكراً لله على نعمته في مسجد الرياض الكبير وأطلقوا على ابن سعود لقب : " سلطان نجد وكل ملحقاته " .

كان الاستيلاء على حائل قد وسع أراضي ابن سعود بقدر الثلث . ووفر له المزيد من الرجال والأمجاد . وبصورة خاصة منحه مهلة في نزاعه مع الحسين .

لكن شريف مكة ، وقد بالغ في غطرسته كما لم يفعل من قبل أبداً ، لم يدع مناسبة من المناسبات لدفع الوهابيين إلى حافة الانفجار . فلما ثار سكان كرمة للمرة الثالثة ، أمر ولده عبد الله بالسير نحو المدينة وإبادة الثوار فيها .

في هذه المرة ، لم يكن في وسع ابن سعود أن يتهرب من مواجهة الوقائع ، خوفاً من أن يفقد ثقة الأخوان بصورة نهائية . أو لم يقسم أمام قادته ، في اجتماع شقرا ، أنه إذا هاجم الحسين كرمة من جديد فإنه سيتوجه لمعاقبته على رأس قواته ؟ لقد أرغمه هذا العدوان الجديد على الوفاء بوعده . لتسقط اتفاقية عقير : لقد طالت هذه التحديات بما فيه الكفاية .

وبينما كان ابن سعود والحسين يستعدان للإقتتال ، تدخل الإنكليز وفرضوا تحكيمهم فقد أرهقتهم الخصومة المضحكة ، حول واحة مجهولة ، تحتكر كل الطاقة عند الزعماء العرب ، في وقت تنصرف فيه الجهود لتوجيه طلق الرحمة إلى تركيا . لقد عقدوا مؤتمراً في القاهرة دعوا إليه ملك نجد .

كان لورانس ورؤساء مكتب الجزيرة العربية ، في العاصمة المصرية ، الفريق القوي جداً . لا تنفذ فيها غير خططهم .

" كانوا يقولون : حسين هو حليف إنكلترا . والحرب لما تنته بعد ، وقد نحتاج إليه أيضاً . وإذاً فإن من المهم جداً أن يداري نزقه . أما فيما يتعلق بابن سعود فليس هو ، في رأيهم ، غير مغامر مزهو بنفسه ، ساعده حسن طالعه . وإذا هاجم الحسين ، فلا ريب أن هذا الأخير قادر على رده دون صعوبة إلى الجزيرة العربية الوسطى بفضل جيشه المدرب من قبل مدربين إنكلترا والذي يقوده ويديره ضباط سوريون . لكن الوقاية خير من العلاج . وما دام أن ملك نجد مصر على ركوب رأسه ، فإننا سنلقنه درساً لا ينساه أبداً ".

هكذا وجهوا الدعوة إلى إبن سعود للمثول امامهم ، وأفهموه ، بلهجة متعالية بأنهم لن يوافقوا على أية حماقة من جهته . وأمروه بترك كرمة لملك الحجاز ، ثم أضافوا قائلين : أنه إذا لم يعمل بوجهة نظرهم ، " فأنهم سيمتنعون عن إمداده بالمال وسيقدمون للأمير حسين كل مساندة تدخل في طاقتهم " . في هذه المرة جاوز الأمر كل حد بالنسبة لإحساس ابن سعود بكرامته.

– " أجاب بكل اعتزاز وهو متلفع بعباءته : النجاح بيد الله وحده . وأنا لا أستحق مثل هذه الإهانة . إنني منذ وقت طويل أمنع قواتي من مهاجمة الحسين ، لأبقى أميناً على الاتفاقية التي عقدتها معكم . وقد تصرفت على هذه الصورة ، لا جشعاً مني ، بل إحتراماً لكلمتي . فإذا ألغيتم المساعدات التي قدمتموها لي حتى الآن ، فإن شرفي بحمد الله سيكون محفوظاً ! وأخيراً سأكون حراً في التصرف على هواي " .

وعاد إلى الرياض ، يحس بحرقة الجرح الذي أحدثته له تلك الإهانة ، وقرر أن يتجاهل حق النقض البريطاني .

مضى عبد الله ، ولد الحسين البكر ، وقد جاء من الغرب ، في الطريق إلى كرمة ، واثقاً كل الثقة من مساندة الإنكليز له ، على رأس قوة نظامية من ٤٠٠٠ من المشاة و ١٠٠٠٠ فارس بدوي . وفي الساعة نفسها ، كان ابن سعود ، آتياً من الشرق ، يتقدم على رأس الأخوان . وقد ابتهج رجاله المحاربون : ذلك أن قائدهم قد وفى في النهاية بما وعد به . كان الجيشان المتعاديان يقتربان من كرمة ، حين قرر لؤي زعيم المدينة الوهابي ، الذي كان خلال كل هذه الشهور يمثل روح المقاومة ، أن يتصرف ببادرة منه .

ذلك أن بعض الجواسيس الوهابيين جاءوا يقولون له : أن القوات الهاشمية ، تخيم في واحة تقع قريبا من تربة ، وأن عبد الله لم يجد فائدة من إقامة الحراس حول المعسكر إعتقاداً منه أنه في مأمن من كل مفاجأة . كان الليل شديد السواد . وكانت قد هبت عاصفة عند المغيب فأصبحت الأرض كلها غارقة في ضباب كثيف .

هذا وكان عدد من محاربي الأخوان ، قد ذهبوا فردياً إلى كرمة منذ بعض الوقت لتقديم العون إلى الأهالي المحاصرين . وكان عددهم في حدود ٤٠٠ رجل جمعهم الزعيم الوهابي لؤي وانطلق بهم في ظلام الليل ، ثم فاجأ معسكر عبد الله .

العدو يغط في نومه ، والضباط عراة نائمون . وبفضل الضباب ، تسلل المتطوعون من الأخوان في صمت شديد إلى المضارب وطعنوا من فيها بالخناجر . أما عبد الله فلم يكن له غير الوقت الذي يستقل فيه حصانه ويهرب نصف عار لينجو من المذبحة .

وانطلق عبد الله إلى مكة في نفس واحد ، يرتجف من البرد والخوف ، ثم صعد درج القصر راكضاً وأيقظ أباه ، وأحاطه علماً بالكارثة . إن مائة فقط من القوات النظامية التي كانت تبلغ أربعة آلاف من المشاة ، قد نجت من الموت . هكذا غنمت كل الأسلحة ، والذخائر ، والمؤن والركائب . لقد أبيد جيش الحسين ١٣ يونيو (حزيران) ١٩١٨ .

أغرق هذا النبأ كل مكة في ذعر ووجوم . في ذلك الفصل كانت المدينة مليئة بالحجاج فأحدث الإعلان عن وصول ابن سعود الوشيك وفرسانه الوهابيين حالة من الذعر العظيم الذي لا يوصف . فانطلقوا جماعات كبيرة في الطريق إلى جدة ، لركوب مياه البحر . أما الحسين الذي هزته أزمة غضب شديد قاربت حافة الهستيريا ، فقد طرد

ولده من القصر ، ومنعه من الظهور أمامه مرة أخرى وأرسل رسالة استغاثة إلى الانكليز، يلتمس منهم أن يأتوا لنجدته .

وفي الصباح ، دخل ابن سعود إلى تربة بكامل جيشه وراح يركض راجلاً فوق ساحة القتال . كانت الأرض مغطاة بالجثث ، وصناديق الذخيرة الموضوعة في غير نظام ، وأكوام من المؤن والأسلحة المتروكة . لقد دمرت القوات العدوة لا بجملة الجيش كله ، بل بمفرزة مؤلفة من ٤٠٠ متطوع . إن الثابت أن الأخوان كانوا أداة حرب ممتازة ! فليس من قوة أخرى في الجزيرة العربية تقارن بهم . هكذا فتحت الطريق واسعة إلى مكة أمام ابن سعود . وكان كل الحجاز الأعزل تحت رحمته.

كان ملك نجد يتذوق انتصاره . ولم يكن قد بقي عليه غير أن يبذل القليل من الجهد ليستولي على المدينتين المقدستين . ثم تتوجه جيوشه نحو البحر وهي تردد الأناشيد .

وفي الوقت نفسه حمل إليه إنذار من الإنكليز . لقد منحوه ست ساعات ليجمع قواته ، ويعود بها إلى الصحراء الوسطى ، وإذا لم يفعل ما يؤمر به فانهم يرسلون إليه فرقة أسترالية مع تشكيلات مدرعة محمولة والكثير من فصائل الأسطول الجوي .

ارتجف ابن سعود وهو يقرأ الرسالة ، كما لو أنه تلقى ضربة سوط في وجهه . وأدرك أنه لم يعد له ما يفعله غير الانحناء . لقد كان سهلاً عليه أن يكتسح ما تبقى من قوات الحسين . لكنه لن يستطيع أن ينال من الأمبراطورية البريطانية .

جمع عبد العزيز قادة الأخوان ، وأمرهم ، والغضب يعصف في قلبه ، بالعودة من حيث أتوا . لقد كان الامتحان شديد المرارة . ومع ذلك ، أمسك بجيشه جيداً ، بحيث أطاعه الجميع ، دون أي احتجاج . هنا أدرك المحاربون الأخوان . لماذا طال تردد قائدهم في خوض المعركة ضد الحسين . إن الأمر لم يك كما تصوروه انحيازاً للجانب الانكليزي ! وبعد أن ترك حامية صغيرة في كرمة لحمايتها ضد أي هجوم محتمل من قبل العدو ، استدار ابن سعود وقواته مخلفين مكة وراءهم وأخذوا ، في صمت طريقهم إلى الصحراء الوسطى .

كان ملك نجد يرى نفسه في الدقيقة الأخيرة محروماً من ثمرات غزوه للمدينتين المقدستين لكنه لم يكن غير تأخير إلى أجل . "كان يقول في نفسه : صبراً يا عبد العزيز . لن يكون الإنكليز دائماً هنا لحماية الحسين . فسيأتي أخيراً اليوم الذي أجد فيه الوسيلة للإنقضاض على رقبته ! " .

وكل واحد من جنوده كان يجتر الفكرة نفسها في أعماق صمته..

اندفعت التشكيلات الانكليزية العربية لكل من لورانس واللنبي للقيام بالهجوم النهائي ١٩ سبتمبر(أيلول) ١٩١٨بعد أن راوح أفرادها قريباً من العام أمام الخطوط التركية التي تمسك منذ ديسمبر (كانون الأول) ١٩١٧ ، الجبهة الممتدة من شمالي حيفا حتى عمان .

وكانت القوات الأمبراطورية الإنكليزية تشتمل على أفواج بريطانية وأسترالية ونيوزيلندية وهندوسية . وكانت أفواجاً جديدة جيدة الغذاء حسنة التسلح . تقابلها من الجانب الآخر الجيوش التركية : الثامن والسابع والرابع ، وقد أصبحت في حالة من الهزال الموميائي ، وعريت من كل شيء .

بذل مصطفى كمال ، الذي وصل قبل قليل إلى نابلس ، جهوداً تجاوزت الحدود البشرية لتقوية مواقعه ورفع مستوى المعنويات المحزنة عند قواته . لكن كل شيء كان عبثاً من العبث .

وبعد أربع وعشرين ساعة من بداية الهجوم ، كانت الجبهة التركية قد خرقت على امتداد البحر ، فأحيط بالجيش الثامن الذي يقوده الكولونيل رفعت ، واتخذت الهزيمة حجم كارثة عامة . أما عند نهر الأردن حيث حوصرت الأفواج التركية ، وقذفت بقنابل الطائرات الإنكليزية وأنهكت دون هوادة من قبل بدو فيصل ، فإن هذه الأفواج قد تمزقت الواحد منها بعد الآخر واتجهت في فوضى ظاهرة نحو الشمال . هكذا فتحت طريق سوريا أمام الانكليز .

ودخلت الوحدات البريطانية إلى دمشق ٣٠ سبتمبر (أيلول) ١٩١٨ ، بعد أن أسرت خمسين ألفاً من العسكريين الأتراك . فاستقبل فيها لورانس واللنبي " بسور من الهتافات " وحملا من قبل جمهور كان في حالة هذيان شديد . كل البلاد العربية كانت قد انتفضت بحماسة لا توصف : لقد دقت ساعة الحرية عندهم !.

وبينما كانت العناصر التركية الأخيرة ، المجمعة من قبل الذئب الأغير ، تحاول تثبيت أقدامها في طوروس لبذل أقصى مجهود ممكن . كانت حكومة السلطان توقع في الثلاثين من أكتوبر (تشرين الأول) في مودرس ، هدنة تحقق هزيمتها وتؤكد إنتصار الحلفاء .

وبعد ذلك باثني عشر يوماً وضعت ألمانيا السلاح فانتهت الحرب العالمية الأولى.

كانت الأمبراطورية العثمانية قد جعلت مزقاً . فنشأت مكانها تشكيلة من الأمارات الصغيرة " المستقلة " " المتمتعة " " بالحكم الذاتي " أو بنصف هذا الحكم (تبعاً للوعود التي قدمت إليها) وهي وعود مثلت أدوات إزعاج حقيقية لرؤساء الحكومات الغربية . هكذا كان ممثلو القوات قد حاولوا ، وهم جالسون حول الطاولة الخضراء لمؤتمر باريس ، أن يعيدوا لصق بقايا عالم متحطم بأية وسيلة تتهيأ لهم . فهناك : أرمينيا، وكردستان ، والعراق ، وسوريا ، ولبنان ، وفلسطين ، وشرقي الأردن ، والحجاز ، واليمن ، والجزيرة العربية الوسطى ، والسويس ، وعدن ، والعقبة ، والموصل ، والكويت – وكان عدد المعضلات مساوياً لعدد هذه البلدان .

كانت كل " حدود " تثير أطماعاً خفية ، وكل مقاطعة تستخدم مبرراً لتسويات لا نهاية لها ، بل كل صيغة يحتمل أن تصبح فتيلاً لنزاع جديد . فالخلفاء لم يرثوا بقايا الأمبراطورية العثمانية وحسب : بل ورثوا مشكلاتها أيضاً .

في تلك الفترة ، كانت كل بلدان الشرق الأدنى والأوسط متماسكة بالسيمنت البريطاني . لقد كان للإنكليز ، وهم في أوج قوتهم ، حاميات في القاهرة والقسطنطينية ، وبغداد ، وحلب ، ودمشق ، والموصل ، والقدس ، والبصرة. وهكذا امتدت منطقة نفوذهم من الأهرام إلى البوسفور ، ومن بلاد البلقان إلى بلاد الهند . وكانت الحكومة البريطانية قد أعلنت وضع مصر تحت حمايتها منذ بداية الحرب العالمية الأولى (١٨ ديسمبر كانون أول) ١٩١٤ وعند نهاية الحرب ، كان السير برسي كوكس ، القنصل البريطاني القديم في الكويت ، والمرفع أثناء ذلك إلى رتبة مفوض سام في بغداد ، قد استغل حرمان روسيا فأعلن بطلان الاتفاق الانكليزي – الروسي الموقع عام ١٩٠٧ ، وفرض على طهران معاهدة حماية تتناول بلاد فارس كلها ٩ أغسطس (آب) ١٩١٩ . وظهر أن " أمبراطورية الشرق الأوسط " قد

خرجت إلى الوجود وتجسمت فيها ، تلك التي حلم بتحقيقها على التوالي كل من دزرائيلي ، غلادستون ، بالمرستون وتشمبرلين ، والتي أريد منها أن تكون صلة وصل بين المتوسط الشرقي وبلاد الهند — بين قبرص وبومباي.

وفي الوقت الذي شهدت فيه بريطانيا آمالها التي راودت عقول قادتها منذ أكثر من قرن واحد تتحقق ، لاحظت حكومة لندن أنه ليس في وسعها أن تحتفظ بكل الأراضي التي احتلتها إلى أجل غير مسمى ، فإن مثل هذا الأمر يحتاج إلى جيوش كبيرة ، ويكلف مبالغ خيالية ، كما يقتضي ، بالضرورة ، تجنيد الرجال .

كما أن الجنود البريطانيين المتعبين من الحرب ، قد طالبوا بتسريحهم من الجندية . وكانت جماهير من الناس تمر في الستراند ، تحمل يافطات كتبت عليها أمنية الأمة كلها : " أعيدوا أولادنا إلى أرض الوطن ! " وفي بريطانيا نفسها كان دافعو الضرائب ، المثقلون بالرسوم الكبيرة ، يطالبون الحكومة بتخفيض مستويات العيش عند رجالها ، وتقليل نفقاتها إلى أبعد حد ممكن ، وتصفية الاحتلالات في البلاد الأجنبية بأسرع ما يمكن من الوقت . لقد انتهت الحرب ولم يعد في بريطانيا من يريد متابعة التضحية بالرجال والمال من أجل تنمية أمبراطورية تغطي خمس الكرة الأرضية .

فهل يجب التنازل إذاً عن ثمرات سنوات كثيرة من الجهود الدبلوماسية والعسكرية ؟ أجاب لورانس ، الذي قدر مجيء الوقت الملائم لتغليب أفكاره وخططه : "كلا " .

فإذا كانت بريطانيا عاجزة عن احتلال بلدان الشرق الأوسط ، وحكمها بصورة مباشرة ، فلماذا لا تولي حكاماً وطنيين نترك لهم مهمة إدارتها لحسابها الخاص ؟ إن في وسع بريطانيا أن تدير هذه البلاد سياسياً واقتصادياً بواسطة أشخاص آخرين . والمهم في هذا الإجراء هو الاختيار السليم لرجال موثوقين . والهاشميون ، على التحقيق ، يقدمون كل الضمانات المطلوبة .

أوليس أنهم وعدوا منذ أكتوبر (تشرين الأول) عام ١٩١٥ . بوضع كل البلدان الواقعة بين مصر والخط الممتد بين حلب والموصل وبغداد والبصرة . تحت قيادتهم ؟ إن الواجب يفرض تعيين عبد الله ملكاً على شرق الأردن ، وأخيه فيصل ، ملكاً على العراق وسوريا أما الاتحاد التحالفي فيكون مرؤوساً من الحسين الأب ، ملك الحجاز . ولما كان هذا الأخير شريفاً على مكة ، فإنّ من السهل جداً بأن نجعل منه خليفة للإسلام . صحيح أن هذا اللقب كان ما يزال لسلطان القسطنطينية ، لكنه أصبح من الضعف بعد الهزيمة التي نزلت ببلاده ، بحيث يسهل انتزاعه منه . إن

القدرة على ممارسة النفوذ المباشر على قرارات الخليفة ليست بالأمر اليسير ، لأن سلطانه الروحي يمتد حتى ماليزيا وبلاد الهند ، حيث يوجد أكثر من مائة مليون من المسلمين . ويؤكد لورانس أن في وسع الحسين أن يتصرف " بوعي ومرونة ".

كان لورانس آنذاك في قمة مجده . ذاع صيته في الصالونات اللندنية . وكانت السيدات الجميلات في وست – إند وماي فير ، لا تمل ولا تتعب من الاستماع إلى ما يحكى من قصص شجاعته ومغامراته . أما برنارد شو الذي اعتمد لقراءة المخطوطة الأصلية لأعمدة الحكمة السبعة ، فلم يتردد في القول بأن مثل هذا الأسلوب الرائع لم يخرج إلى النور في بريطانيا من قبل أبداً .

وصرح لوويل توماس ، بأن المغامرات الباهرة ، والأنباء الخاصة بمهمته ستقدم عناصر وموضوعات ذهبية للكتّاب في المستقبل ، تماماً كما قدم التروبادور وكتاب الأزمنة القديمة للشعراء قصص أوليس والملك آرثر وريتشارد قلب الأسد(١) .

كما كان يقارنه آخرون براليه ودريك وكليف وغوردون مضيفين إلى ذلك أن معرفته المدهشة لشعوب الشرق تجعل منه على الأقل قريناً لماركو بولو رجل البندقية . حتى أن تشرشل نفسه الذي لم يكن قد نهض بعد من كبوته في الدردنيل ، كان يخفي وراء تقريظة الشديد له ، الغيرة التي بلغت درجة كشفت شعبية تشرشل نفسه .

كان لورانس ملك الجزيرة العربية غير المتوج فأخذ يستثمر الهالة الخرافية التي صنعتها له معاركه ، ابتداء من سفوح سيناء وانتهاء بتألقه في دمشق ، يتنزه في حدائق هايد بارك وقد تلفع بعباءته ولبس حذاءيه الأحمرين ، ووضع في حزامه الخنجر الذهبي المعقوف الخاص بأمراء مكة ، وتعمم بالعقال المصنوع من الحرير . كما كان الحرام أمام قصر بوكنجهام يأخذون تحية السلاح في دهشة عارمة لهذا البدوي ذي العينين الزرقاوين الذي يحمل أعلى الأوسمة الإنكليزية ، ويتحدث بلهجة أوكسونية مثالية . ثم ضاعف لورانس نشاطه في لندن وباريس وفرساي ، مكرراً أن الوقت قد حان للوفاء أخيراً بالتعهدات المعقودة نحو الحسين وعائلته .

والجدير بالذكر أن البطانة كانت مختلفة عن الزينة الخارجية ! فلورانس يخفي في الحقيقة قلقاً عميقاً وراء ثقته المتعالية بنفسه .

"كتب يقول : لقد أعلنت الثورة العربية بوسائل إحتيالية . وكانت حكومتنا قد وعدت بالعمل على إقامة حكومات عربية في بعض الأجزاء من سوريا والعراق " دون أن تضع في حسابها مصالح حليفتنا فرنسا " وذلك لدفع الشريف حسين إلى التحرك والعمل ، فعلت ذلك بواسطة السير هنري ماكماهون . إن هذا البند الصغير يخفي معاهدة لم يكن ماكماهون (وبالتالي الشريف نفسه) يعلمان شيئاً عنها حتى فات الأوان ، وبها اتفقت فرنسا وانكلترا وروسيا على ما يلي :

---

١) أنظر أوويل توماس : مع لورانس في الجزيرة العربية ، ص : ٢١.

١ – إلحاق بعض الأجزاء ، على الأقل ، من المناطق الموعودة .

٢ – إقتسام ما بقي منها إلى مناطق نفوذ .

" وبلغت أنباء هذه الخديعة بعض الآذان العربية بواسطة تركيا . ولما كان الشرقيون يقون بالرجال أكثر منهم بالمؤسسات . فإن العرب الذين عاينوا صداقتي وإخلاصي في مواقف القتال ، طلبوا إلي ، باعتباري عميلاً حراً ، أن أضمن وعود الحكومة البريطانية . والواقع أنني لم أكن أعلم شيئاً حول تعهدات ماكماهون ومعاهدة سايكس بيكو : لقد وضعت كلتاهما في مكاتب وزارة الخارجية . ولما لم أكن غبياً أبداً ، فقد كنت أرى أن الوعود التي أعطيت للعرب ستكون مجرد أوراق مسودة وحسب فيما إذا ربحنا الحرب . ولو قد كنت مستشاراً شريفاً ، لوجب أن أعيد رجالي إلى بيوتهم ، بدلاً من أن يعرضوا حياتهم للأخطار في سبيل أحداث من هذا النوع . لكن ، أليست الحماسة العربية خير أداة لنا ، في حرب الشرق الأدنى ؟ من أجل ذلك أكدت لرفاقي في القتال أن انكلترا تحترم حرفياً جوهر الوعود التي قدمتها . فقاتلوا بشجاعة وهو مطمئنون إلى هذا الأمر . أما بالنسبة إلي فأنني لم أكف عن اجترار هذا العار المرير ، بعيداً عن أي اعتزاز بما كنا نصنعه معاً ...

" في مقابل ذلك ، أقسمت بأن أجعل من الثورة العربية أداة لنجاحها ، بالقدر الذي أجعل به منها أداة لخدمة جيشنا المصري . لقد وعدت نفسي بقيادتها إلى نصر مؤزر بحيث أن انتهازية القوى الكبرى في العالم في العالم ستملي عليها الاستجابة للمطالب العربية .

وهذا يفترض بالطبع أن أكون حياً حين توضع معاهدة الصلح ، لأربح المعركة الأخيرة في قاعة المؤتمر . والواقع أن وجود الخديعة لم يكن قابلاً للنزاع والمناقشة .

" من البديهي أنه لم يكن من حقي توريط العرب ، على غير علم منهم ، في لعبة حياة أو موت . بل لم يكن لي ظل من الحق ! إن حصاداً مراً ، حزيناً ، لثمرة جهد بطولي ، كان ينتظرنا بصورة حتمية وبحق . وعلى ذلك ،

وسخطاً مني على وضعي المزور (هل يحدث أبداً أن ملازماً ثانياً يبعد عن الحقيقة لتغطية رؤسائه إلى هذه الدرجة ؟) شرعت في هذه الرحلة الطويلة الخطرة [١] " .

إذا كان لورانيس قد دافع بمثل هذا الإلحاح عن مصالح الحسين وأولاده ، فذلك لأنه كان منهمكاً ، كما قال هو نفسه ، في خوض " معركته الأخيرة " . إن معنى عمله يتعلق في النهاية بالقرارات التي ستتخذ في قاعة المؤتمر . وفي ضوء المواقف النهائية من الوعود المقطوعة للهاشميين ، إيجاباً أو سلباً ، سيعلم ما إذا كان قد فاز أو خسر معركته ، كما سيعلم ما إذا كان بطلاً أو مغامراً ، نبياً أو دجالاً . لا لأن ذلك يهمه أمام الأجيال القادمة ، فقد كان يعرف جيداً تقلب الرجال لكي لا يزدري بالرأي العام ، بل لأن هذا يهمه أمام ضميره وأمام أنظار القدامى من رفاق السلاح.

وفي أثناء ذلك ذهب سانت جون فيلبي الذي كان يراقب من الرياض انهيار الأمبراطورية التركية ليلتقي لورانس وليقول له : إنه يرتكب خطأ فاحشاً إذ يمحور كل سياسته العربية حول الحسين وعائلته وإذ يرفض أن يضع الجزيرة العربية وابن سعود موضع الإعتبار . لقد كانت بلاد نجد في الوقت نفسه المحرك والضابط للحياة العربية . وإذا لم يحسب لها حسابها ، فإن كل البناء الذي يسعى إلى رفعه يتعرض لطريق غير نافذ . أنه لن يكون في وسع الهاشميين أن يحملوا كل أكتافهم المتهافتة ثقل اتحاد تحالفي عربي . كانوا كلهم في رأيه ، باستثناء فيصل ، من المتآمرين .

صحيح أنهم مثقفون لكنهم لا أخلاق لهم ، لا يسعون إلا إلى الإثراء على حساب رعاياهم ، كما أنهم لم يكونوا محبوبين ولا محترمين من قبل السكان في شبه الجزيرة . ومنذ أن تغيب عنهم انكلترا فلا تعود تساندهم ، فانهم

يسقطون من أنفسهم ، كما هي التماثيل من الطين . الحسين ليس هو الرجل القوي : فالقوي هو ابن سعود ، فهد الصحراء ، وكرومويل الجزيرة العربية .

---

١) ت . أ. لورانس : أعمدة الحكمة السبعة ، ص : ٣٤٥ – ٣٤٧.

كانت المقابلة صاخبة عاصفة . وكان لورانس ذات صفات عظيمة ، لكنه لا يحب الاعتراض والمناقضة . وزيادة على ذلك ، لم يكن في حال نفسية تسمح له بالاستماع بهدوء إلى مثل هذه المشورة . كان يتشبث بمواقعه إلى درجة من العناد ، بحيث يشعر أنها أكثر تعرضاً للتهديد . والأسوأ من هذا كله أنه كان يعرف بأن فيلبي يقول الحقيقة فيما يتعلق بالحسين . أو لم يكن قد كتب هو شخصياً عنه بأنه " شخص عنيد ، ضيق الأفق ، كثير الشكوك " ، وغير مستعد للتضحية " بكبريائه العزيزة [١] " لأي واحد من الناس ؟ وأنه عجوز جشع ماكر " غير جدير بالسيطرة على شهواته [٢] " أولم يداخله الخوف إذ شهد " بأية سهولة يستطيع الدهاة الماكرون أن يمارسوا عليه تأثيرهم الخبيث [٣]؟" أولم يفاجأ هو شخصياً إذ لاحظ أن الهاشميين " كانوا في عزلة تامة عن عالمهم الخاص ، وأن الأخوة الثلاثة — علياً وعبد الله وفيصلاً — لم يكونوا على التحديد من أبناء أية مقاطعة ولا يؤثرون أية زاوية من الأرض دون غيرها ، وأنه لم يكن لهم أصدقاء حميمون يكونون موضع ثقتهم ولا وزراء مساعدون ، وأن أياً منهم لم يكن يبدو منفتحاً كلية للآخرين ، حتى للأب نفسه الذي يعربون له عن احترام خائف [٤] ؟ " أو لم يكن قد اكتشف هو شخصياً أن الرياض هي " قلب الجزيرة العربية ، وينبوع جبلتها وموطن فرديتها الواعية [٥] ؟ " .

لكنه كان قد بالغ في التورط والانضواء بحيث لم يعد في وسعه أن يتراجع . كان شرفه في الميزان . لقد أكثر من إطراء الحسين وأنصاره ، بحيث لم يعد في وسعه أن يمتنع عن الدفاع عنهم حتى النفس الأخير...

وقد أجاب فيلبي أيضاً أنه ، رغم اعترافه بكفاءته في هذا الميدان ، فإن له أفكاراً ومفهومات مختلفة فيما يتعلق بمستقبل الشرق الأدنى . تقول : إن ابن سعود هو كرمويل الجزيرة العربية ؟ دعك من هذا يا صديقي ! فليس هو في الحقيقة غير طاغية ذي أطماع واسعة ، دون رصيد ، ودون مستقبل ، يزعج كل الناس بتطهره المتزمت المتطرف وإدعاءاته المضحكة ! وتقول : وهابيون ؟ نعم ! أنهم متعصبون ، وغلاظ لا ذوق لهم ولا ثقافة ، سيدمرون أنبل أثار

١) ت . أ . لورانس ، المصدر نفسه ، ص : ٤٠٥.

٢) المصدر السابق نفسه ، ص : ٧١٧.

٣) المصدر السابق نفسه ، ص : ٤٠٦.

٤) المصدر السابق نفسه ، ص : ١٢٦ — ١٢٧ .

٥) المصدر نفسه ، ص : ٤٥ .

الفن العربي وسيضعون شبه الجزيرة في النار والحديد لو فسح لهم في الطريق ! وتقول : معركة تربة ؟ نعم ! إنها ضربة حظ لا تثبت ولا تنفي شيئاً أبداً . كلا ، كلا ! لقد وقرت عقيدته في نفسه ولن يتخلى عنها أبداً : فالسعوديون في رأيه لم يكونوا غير مغامرين لا ذمة لهم . أنه لم يكن لهم مكان أبداً . وما دام أنه حي يرزق فلن يكون لهم مكان في الاتحاد التحالفي العربي .

حاول فيلبي أن يصحح بعض هذه الأحكام وأن يعيد مخاطبه إلى رؤية للأشياء أقل انفعالية وعاطفية ، لكن لورانس أفهمه أنه يضيع وقته وأن المقابلة قد طالت أكثر مما يلزم .

انسحبت فيلبي متأثراً بشخصية لورانس ، لكنه انزعج من أن يراه مصراً على متابعة الطريق الخاطئة . إن المستقبل لن يلبث حتى يثبت بأن وصف ابن سعود " بالمغامر الذي لا ذمة له " هو خطأ يقدم عليه مؤلف كتاب " حكماء الأعمدة السبعة " شبيه بالخطأ الذي ارتكبه اللورد بلفور ، حين نعت مصطفى كمال بعبارة " زعيم عصابة من قطاع الطرق " – إنه خطأ ستدفع إنكلترا ثمنه غالياً ...

علم ابن سعود من فيلبي بالنتيجة السلبية لهذا اللقاء ، لكن هل أن وجهة نظر لورانس هي التي تتبناها الحكومة البريطانية ؟ ورغبة منه في توضيح الموقف وطمأنينة القلب قام ملك نجد بزيارة السير بيرسي كوكس ، الذي فاوضه يوم توقيع معاهدة عقير وسأله عن الوضع الذي ترى أنكلترا أن تدخره له . والواقع أن المندوب السامي البريطاني في العراق لم يكن يشارك لورانس في رأيه . كان يقدر ابن سعود ويضعه في المكانة التي يصلح لها ويحمد له جهوده التي بذلها ليبقى أميناً على الاتفاق المعقود بينهما ، رغم تحديات الحسين له . لكنه لم يكن في وسعه الخروج على تعليمات حكومته.

هذه التعليمات كانت واضحة حاسمة : إن ولد عبد الرحمن لن يقبل في الاتحاد التحالفي العربي . " أن مغامراً من الناس لا يستطيع الجلوس إلى طاولة الأمراء " . فبالرغم من تحذيرات فيلبي وإنذاراته انتهت وجهة نظر لورانس إلى التغلب عليه [1] .

١) في مارس (آذار) من عام ١٩٢١ ، أصبح لورانس مستشاراً للشؤون العربية في وزارة المستعمرات ، التي يديرها تشرشل (أنظر ليون بروسار : سر الكولونيل لورانس ، باريس ١٩٤٦ ، ص ١١٥).

هكذا وجد زعيم الوهابيين أنه لم يمنح أي نصيب في أسلاب الأمبراطورية العثمانية . وكان عليه أن يعتبر نفسه سعيداً بالحفاظ على ما يملكه ، أي ، نجداً والأحساء وحائل .

عاد ابن سعود إلى الرياض ، مقروح الفؤاد . ونظر إلى الخارطة : ففي كل مكان وجد فيه حكام أتراك، كانت انكلترا منهمكة بتنظيم دول تابعة لها وعلى رأسها حكام معادون له . أما في الكويت فقد توفي مبارك. لكنه قبل أن يموت ، أوصى ولده سالماً بالحذر من السعوديين . أما العراق مع بغداد والبصرة فسيؤول أمره إلى فيصل ، الذي يكره عبد العزيز . وأبعد من ذلك ، حيث شرقي الأردن فإن الأمر فيه سيؤول إلى عبد الله، عدو الوهابيين الشرس — بينما الحجاز يخص الحسين . أما عسير واليمن وعدن وحضرموت وعمان وكل سواحل الجزيرة العربية باستثناء الأحساء ، فقد كانت بين يدي إنكلترا أو بين أيدي المتعصبين الموالين لها من الحكام والأمراء . لقد كان ابن سعود محاصراً من كل مكان ... من الشرق ، والغرب ، والشمال والجنوب . فأدرك بمرارة أنه إذا كانت الأمبراطورية التركية قد ماتت ، فأن بريطانيا العظمى التي خلفتها تتابع السياسة نفسها ...

فكيف الخروج من هذا الحصار ، قبل أن تتاح للكواكب الدائرة حول لندن فسحة من الوقت كافية لتدعيم نفسها ضده ؟

في الشمال الغربي من حائل توجد منطقة محايدة تسرح فيها قبائل شمر قطعانها وترعيها فيها . ان هذه المنطقة التي تمتد متوغلة على صورة زاوية في شرقي الأردن ، هي القطاع الضعيف من الحصن الذي كان الانكليز يعملون على إنشائه حول الجزيرة العربية الوسطى .

فأرسل ابن سعود وحدة من الأخوان ، احتلت هذا القطاع دون أن تواجه أية مقاومة ثم انتظر رد الفعل البريطاني.

لكن المؤسف ، أن أفراد تشكيلات كثيرة من الأخوان ، قد تجاوزوا الحدود التي عينها الملك لهم متأثرين باندفاعهم العاطفي . فدخل الوهابيون إلى الجوف وهم يرددون أناشيدهم الحربية على بعد خمسين كيلو متراً داخل حدود شرق الأردن . وكان حاكم الجوف وهابياً فانضم مرة واحدة إلى الواصلين الجدد وفتح أبواب مدينته لطلائع الأخوان.

أدرك الانكليز مباشرة خطر هذا التصرف . لقد كان الجوف مركزاً تجارياً هاماً تمر منه القوافل التي تنتقل من بغداد إلى مصر فأي فريق يستولي على هذه الواحة يستطيع أن يهدد في الوقت نفسه كلاً من سوريا وفلسطين . وبذلك تبلغ الجزيرة العربية الداخلية حافة النار وتتدفق نحو حوض البحر الأبيض المتوسط .

" قال الخبراء في وزارة الخارجية البريطانية بقلق ظاهر : إن ابن سعود ، بهذا التصرف ، يقلب كل التوازن في الشرق الأدنى . فإذا استمر على هذا النحو فإنه سيفجر كل مشروعاتنا الخاصة بالإتحاد التحالفي العربي . ومن المهم جداً إعادته إلى صوابه " .

وهنا تستدعي السلطات الانكليزية ملك نجد للمرة الثانية إلى القاهرة ، لتسأله تفسيراً للموقف.

أما مستشارو ابن سعود ، وقد تهيجوا تهيجاً شديداً بتقدم الأخوان السريع ، فإنهم التمسوا منه ألا يستجيب لهذه الدعوة ، وأن يستغل وضعه المتميز بالاندفاع نحو بغداد والمتوسط . " ليس من قوة في العالم تستطيع إيقافنا . هذا ما كانوا يقولونه . لقد انتهى الإنكليز . انهم في كل مكان في قضة أشد المصاعب . أنظر كيف أن الكماليين فرضوا عليهم دفع الثمن الغالي دون أن يحدث هذا أي رد جدي من قبلهم ! " .

لكن ابن سعود شديد الحذر ، أن هؤلاء الرجال أنفسهم هم الذين قالوا له من قبل : لقد انتهت تركيا ، ومع ذلك فان الجيوش التركية بقيت صامدة ، لمدة أربعة أعوام ، أمام القوات الانكليزية والفرنسية والروسية المتحالفة . كما أنه لم ينس يوم تربة المهين . كان يعلم أن بريطانيا أبعد من أن تنتهي ، وأن من الخطورة بمكان التعرض لإجراءاتها الانتقامية . وعلى ذلك قبل ، أن يحضر مؤتمر القاهرة وأن يفاوض المندوبين البريطانيين . هذا وقد كانت خطته إجراء مبادلة بين الجلاء عن الجوف ومناطق الشمال الغربي وبين إلحاقه بالاتحاد التحالفي العربي .

وقد كان من الممكن أن يتوصل إلى ما يبتغيه ، لو لم يحدث حادث مكدر أفسد عليه حساباته كلها . لقد أقدمت مفرزة أخرى من الأخوان مؤلفة من ١٥٠٠ رجل ، مندفعة بروح المنافسة على قطع ستمائة كيلومتر من الصحراء في شهر أغسطس (آب) واجتياز الحدود الأردنية ثم الانقضاض على قرية طريف وتدميرها رأساً على عقب . والجديدر بالذكر أن السكان كلهم قد ذبحوا تقريباً بمن فيه النساء والأطفال .

وطريف تقع على بعد خمسين ميلاً من عمان التي هي العاصمة الجديدة لشرق الأردن . وقد أقام فيها الملك عبد الله مركز عمله وإقامته ، كما وضع فيها الإنكليز حامية صغيرة.

وطبيعي أن البريطانيين لا يستطيعون أن يسمحوا بتوجيه مثل هذه الإهانة إليهم . فان انتهاك الحدود ، والوحشية التي أرتكبت من قبل الوهابيين ، كل هذا لا يمكن قبوله والموافقة عليه .

فأرسلوا من عمان رتلاً من السيارات المسلحة بالرشاشات ، ومن القدس ثلاثة أسراب من الطائرات . فتعلم الأخوان لأول مرة ، ماذا يعني القذف الجوي للقنابل . إن الذين لم يمزقوا منهم بالطوربيدات ، خرقت أجسادهم بنيران الأسلحة الأوتوماتيكية . ولم ينج غير ثمانية رجال من ١٥٠٠ مقاتل كانوا في القرية . ثم تركت جثث هؤلاء طعمة للجوارح من الطير .

لم يكد ابن سعود يعلم بهذا الحادث حتى قطع المفاوضات وعاد إلى شقرا ، حيث انطلقت مفرزة الأخوان في وقت وظروف غير ملائمة . وكان الناجون الثمانية في طريف قد وصلوا قبل قليل ، منهوكة قواهم ، قد أفزعتهم انفجارات القنابل . فقضى ابن سعود بإعدامهم جميعاً ، ثم نفذ حكم الإعدام مباشرة ودون إبطاء ليعلم الوحدات الأخرى للأخوان ماذا يكلفهم عصيانهم له .

وأما الإنكليز فقد أنذروه رسمياً بالعودة إلى المؤتمر . فأخذ ابن سعود طريقه إلى القاهرة مستسلماً . وكان يأمل في أن تحدث العقوبة التي أنزلها بالمجرمين تأثيرها في نفوس مخاطبيه وأن تبين لهم عزمه على فرض الاحترام لسلطته . لكن التدمير السريع لتشكيلة الأخوان بالرشاشات والطائرات دفع البريطانيين إلى تجاهل الوضع ، كما كشف لهم عن أن ملك نجد لا يعدو أن يكون كياناً مهملا غير ذي شأن وأن قوته العسكرية قد بولغ في تقديرها مبالغة كبيرة . فعاملوه

في غير تحوط ولباقة وأمطروه بعبارات ساخرة في لقاء عقد بعد ظهر يوم كامل فثار ابن سعود غيظاً وإنكاراً لهذه الإهانات .

– " صرخ زعيم الوهابيين قائلاً : نعم ، صحيح أنني كنت صديق الإنكليز ! لكني وعدت نفسي ألا أماشيهم إلا بقدر ما يسمح لي به شرفي وديني وكرامتي . وها أن شرفي وديني وكبريائي قد نفد منها الصبر . وستندمون يوماً على أنكم قد عاملتموني على هذا النحو " .

ثم غادر قاعة المؤتمر دون أن يضيف كلمة واحدة متلفعاً بعباءته الكبيرة البيضاء .

وكما كانت مناوراته التي أعد لها من قبل قد سقطت دون الغرض منها وفشلت فقد جلا عن مناطق الشمال الغربي وعاد إلى الرياض ، مصمماً على الإنتظار ، والإنتظار أيضاً ...

ومضت الأعوام ١٩٢٠ ، ١٩٢١ ، ١٩٢٢ دون أن يحدث أي تغيير في وضع بلاد نجد . وفي أثناء تلك الفترة، حدث تعديل كبير في صفحة الشرق الأدنى كله . فالمسافر الذي كان يزور تلك المنطقة من الأرض لم يكن يسعه إلا أن يدهش من تضاؤل القوة البريطانية فيها . "كتب ويكهام ستيد " يقول لقد بدأ الجزر بعد المد العالي لعام ١٩١٩ ، وكان من الإتساع بحيث أنه اتخذ مظاهر الاستقالة ، في أعين السكان المحليين . " لقد اضطرت حكومة لندن ، في ممارستها لسياسة شد الحزام الاقتصادية ، أن تسرح قسماً كبيراً من قواتها المسلحة فعاد الأستراليون، والنيوزيلانديون والهندوس إلى بلادهم . وسحبت حاميات كل من البصرة وبغداد وعمان والقدس . ثم لم يعد السلطان الإنكليزي يستند إلا على الطيران والبحرية فيما عدا بعض الوحدات التي أحتفظ بها في القسطنطينية : عشرون سرباً من القوات الجوية الملكية موزعة في الطرق وشواطىء البوسفور ، يضاف إليها أسطول أقيم في إزمير والمضائق .

كان الإنسحاب التدريجي لقوات الإحتلال قد أثر بالطبع في المناخ السياسي . أما في بلاد فارس فإن البرلمان الذي ثار ضد الحماية البريطانية وأبدلها بمعاهدة عقدت مع الروس لم يترك للبريطانيين غير النصف الجنوبي من البلاد ٦ أكتوبر (تشرين أول) ١٩٢١ . وكانت الوحدات الأنجلو – ساكسونية المقيمة في القوقاز وأرمينيا قد تراجعت . مطرودة بالهجوم المزدوج الكمالي السوفياتي . وأما في مصر فقد رفضت الحكومة أيضاً واقع الحماية وألغته وأعلن الملك فؤاد استقلال بلاده ١٥ مارس (آذار) ١٩٢٢.

كما أن السير بيرسي كوكس قد أرهقته الجماهير في شوارع بغداد من العراق يوليو (تموز) ١٩٢٢ . هكذا كانت الأمبراطورية البريطانية تتخبط في الصعوبات في كل مكان.

هذه الأحداث لم تشجع أبداً على تشكيل الإتحاد التحالفي العربي . إن هذا الاتحاد لم يستطع الخروج إلى الواقع رغم الجهود التي بذلها لورانس . وانقلب السكان على حكامهم الذين لم يدينوا في الوصول إلى العرش إلا بفضل الحكومة في لندن . والذين لم يكن سلوكهم يزيد من شعبيتهم عند الناس .

أما ملك الحجاز . فإن جنون الكبرياء عنده ، قد زاد حدة عما كان عليه من قبل بتقدمه في السن . كما ضاعف طبعه السوداوي . إنه لم يكن يسمح بتوجيه أية ملاحظة إليه . وقد طالما انتابته في كل موضوع ، وعند كل مناسبة ، أزمات غضب جعلت حياة مساعديه معه مستحيلة .

وأيضاً لم يعد يحيط به غير فئة من الموظفين الخانعين ، الذين يتملقون هوسه إمعاناً في تعريته وسلبه . كان العجز والجشع ظاهرين منتشرين في بلاط مكة .

" الذهب ، ودائماً مزيداً من الذهب " هذا هو شعار الحكومة الشريفية ، وكانت تلجأ ، للحصول عليه ، إلى أكثر الوسائل مدعاة للمناقشة والجدال . الغرامات وسياسة الإغتصاب تلهب ظهور الناس . والضرائب تثقل عاماً بعد عام . وبدأ الحسين يضغط على البدو بفرض الأعشار على قطعانهم من الماشية حين نضبت موارده ثم برزت في رأسه فكرة مزعجة أخرى هي الحصول على أرباح إضافية من المدينتين المقدستين ، بفرض ضريبة إقامة على الحجاج ، وبوضع أثمان عالية للحصول على الإقامة والماء . وكان أكثر الحجاج من الفقراء .

فمات أكثرهم من العطش في أثناء إحدى الحجات . فأحدث هذا النبأ الذي طار صيته حتى أقصى الصحراء رفضاً شديداً واحتجاجاً بالغ العنف .

وفي الوقت الذي كان فيه نجم الحسين ينطفىء في الحجاز ، كان نجم محاميه المتحمس ، الكولونيل لورانس ، يتهاوى في انكلترا . لقد نتهى " ملك الجزيرة العربية غير المتوج " بازعاج كل من حوله من الناس بتدخلاته الصاخبة ، كل ذلك بسبب كبريائه وكآبة نفسه وحساسيته المرضية . ولم يعد كل من كليمنصو وويلسون ولويد جورج وأورلندو قادراً على رؤيته . وكان بفضل نفوذه قد جاء بالفيصل إلى باريس ، الذي أحدث بدوره صخباً في المجلس الأعلى بلغ

درجة الفضيحة ، حين راح يطالب في خشونة شديدة ، باستعادة سوريا المحتلة من قبل الفرنسيين ، مؤكداً أن السير هنري ماكماهون قد وعده بها على رؤوس الأشهاد .

إن هذه الطريقة اللادبلوماسية في الكشف عن ازدواج المستشاريات وريائها وضعت الجميع في حرج شديد . فأجابه " الأربعة الكبار " برفض طلبه .

وراح الحسين ، بعد أ ن علم بالنبأ ، يصرخ بدوره قائلاً : أنه يتعرض لسلب غير مشرف وأن انكلترا لا تفي بأي وعد من وعودها . وطالب بأن يعترف به حالاً : " ملكاً على كل البلاد العربية " ثم كتب رسالة شديدة إلى لويد جورج يطالب فيها بطرد الفرنسيين حالاً من سوريا .

وإخراج اليهود من فلسطين . ان مجرد كلمة " إنتداب " كانت تجعله يزيد غضباً . كتب لورانس يقول : ان الوعود الخلابة الخادعة ، تلك الطيور الجميلة الزرقاء ، التي قدمتها بريطانيا إلى العرب بمثل هذا السخاء ، في أيام قلقها وضيقها ، هي التي تبني اليوم لهم وكناتهم وأعشاشهم [١] .

ولما لم يتلق الحسين جواباً عن رسالته ذهب إلى عمان ، عند ولده عبد الله ، حيث كان الإنكليز يحتفظون ببعثة عسكرية . وطرد الضباط البريطانيين من القصر بضربات العصا ، موبخاً ولده بشدة على أنه سمح بوصايتهم عليه ، وهدده بحرمانه من الميراث إن هو استمر على ارتكاب هذا الخطأ معلناً أن الإنكليز لن يلبثوا حتى يحولوا الحجاز إلى الإنتداب البريطاني .

– " صرخ قائلاً : أنني لأفضل أن يحكم ابن سعود الجزيرة العربية كلها ، على أن أراها منحنية تحت النير البريطاني القذر ! " .

أرسلت وزارة الخارجية لورانس على عجل للعمل على تهدئته . وقد رأت أن زعيم الهاشميين قد فقد الوسيلة للسيطرة على نفسه .

– " صرخ الحسين قائلاً : أخرج من هنا ، فلست غير محتال وعميل مهيج محرض ! فأنت الذي أستدرجتني إلى هذه المغامرة البلهاء ، بوعودك الشائنة الكريهة ! إنك لم تكف يوماً عن خداعي منذ اليوم الأول الذي رأيتك فيه ! " .

---

١) ت . أ . لورانس : أعمدة الحكمة السبعة ، ص : ٨٠٥ .

وقد دعت الضرورة للإمساك بالعجوز ، الذي جن غضباً ، لمنعه من إلقاء لورانس إلى أسفل السلم ، نعم لقد فقد ملك الحجاز توازنه تماماً .

كان إبن سعود يراقب هذه الأحداث بابتسامة متشفية وهو متربص في قصره من الرياض ينتظر الفرصة المواتية . فجنون الحسين يخدم أغراضه وخططه على نحو معجب رائع . انه لم يبق عليه أن ينتظر طويلاً ، في ضوء مسيرة الأحداث ، ليقطف أخيراً ثمرات صبره ....

وفي مارس (آذار) ١٩٢٤ قرر المجلس الوطني في أنقرة إلغاء الخلافة وطرد عبد المجيد من القسطنطينية . فبادر الحسين ، دون أن يستشير أحداً ، إلى إعلان نفسه خليفة على كل المسلمين ووكيلاً عن النبي . أمام هذا النبأ ترددت همهمة غضب شديد وارتفعت أصداؤها في كل مكان من الجزيرة العربية . وكا ما حدث مجاوزة خطيرة لا يحسن السكوت عنها : نعم ، لقد جاوز الحسين قدره . إنه استطاع بجمعه الخطأ بعد الخطأ أن يجد الوسيلة لافساد ما بينه وبين الإنكليز وتعكير الجو معهم وأن يجعل من نفسه هدفاً لتشنيع العرب عليه .

استدعى ملك نجد علماء البلاد والسلطات الدينية ، لاجتماع يعقد في مسجد الرياض ، دون أن يضيع دقيقة من وقته وقال لهم :

– " لقد حان الوقت لوضع حد لمجاوزات من يسمي نفسه شريف مكة وهوسه ! أنه لم يحدث في تاريخ الإسلام كله، أن رجلاً بهذه المثابة ، قد جرؤ على إدعاء لقب الخلافة ! ان هذا أمر لا يستطيع أي مؤمن أن يتحمله دون الإحساس بالعار . إنني سأحرر المدينتين المقدستين ممن حولهما إلى مباءة للنتن .

وسأقوم بالرسالة التي اختارني الله لها . فلنشكر الله ونحمده على أنه قد هيأ لنا هذه الظروف الملائمة ! " .

ثم دعا إلى حشد أعوانه كلهم من الأخوان ، وقسم قواته إلى ثلاثة جيوش . فأرسل الأول إلى حدود العراق والثاني إلى حدود شرق الأردن ليمنع فيصلاً وعبد الله من المجيء لانجاد أبيهما . وبعد عزلة للحسين ، أرسل الجيش

الثالث ، وهو أضخم الجيوش الثلاثة ، باتجاه الحجاز موزداً إياه بالأمر بالسير مباشرة نحو مكة ، والقضاء على كل مقاومة تعترض طريقه .

لم يحاول الحسين منذ هزيمة تربة أن يعيد تنظيم جيشه . ذلك أن الجنود يكلفون كثيراً ، وكان يعتمد على الإنكليز لحمايته في حالة الخطر . "كان يقول في نفسه : إنهم سيكونون مرغمين على المجيء لانجادي فيما لو تعرضت لأي هجوم من الخارج . أن من الأفضل اللجوء إليهم والإعتماد على قواتهم : فهذا ربح لي دون ريب ".

كما أنه لم يأخذ تعبئة ابن سعود لقواته مأخذ الجد . ولكنه حين رأى الأخوان يتحركون ، وأن الإنكليز لم يفعلوا شيئاً لإيقافهم ، بدأ الخوف يساوره . فبادر سريعاً إلى تجميع وحداته الهزيلة التي بقيت له ، ووضعها تحت قيادة علي، أصغر أولاده وهو صبي شجاع دون ريب لكنه لم يكن بعد قد مارس أية قيادة من قبل .

هذا وقد اتخذ علي وقواته مواقعهم في الطائف ، معترضاً الطريق التي تقود من نجد إلى الحجاز . فجرفه الأخوان كما يجرفون حفنة من الأوراق الميتة الصفراء ، وتابعو تقدمهم إلى مكة حتى دون أن يبطئوا سيرهم نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٢٤ . لقد كانت حماسة المحاربين الوهابيين تزداد كلما اقتربوا من الأراضي المقدسة . أما نبأ هزيمة الطائف فقد أحدث في مكة حالة رعب عامة . وكما حدث بعد كارثة تربة ، انطلق الحجاج والتجار وسكان المدينة يبحثون عن ملجأ لهم في كل اتجاه صارخين " أن الوهابيين قادمون وأنهم سيقتلون الجميع " . هذا وقد جمع فريق من أهل مكة بعض ممتلكاتهم ووضعوها فوق عربات هزيلة وغادروا مدينتهم هاربين إلى الشاطىء ليجدوا فيه ملجأ لهم . وفي تلك الأثناء كان الوهابيون ، بأعلامهم المرفرفة ، قد وصلوا إلى نقطة على بعد بضعة كيلومترات من المدينة .

وأنطلق علي لاهثاً نحو القصر الملكي ، ليبلغ والده نبأ الكارثة . فطرده الحسين بعصاه ووجه رسلاً إلى كل القبائل المجاروة ، ملتمساً منها أن تأتي لانجاد ملكها . فلم تتحرك واحدة منها .

وفي تلك الأثناء تلقى الملك مكالمة تليفونية . صاحبها ، الطويل ، مدير الجمارك في جدة — وواحد من الرجال المخلصين الذين كانوا موضع ثقته — فألح عليه أن يتنازل عن العرش لمصلحة ولده علي قال له : أن يتجنب الأسوأ وأن يعمل ، كمحاولة أخيرة ، للحصول على تدخل إنكلترا . ثم ضمت الملكة توسلاتها إلى توسلات الطويل . أما

الحسين فقد كان يهرول في قاعة القصر الكبيرة في غدو ورواح بعينين زائغتين وملامح متشنجة لا يدري أي قرار يتخذه .

هذا وقد شاعت في المدينة ضجة حيرة الحسين كما انتشر فيها جو الفتنة . ثم أخذ خلق كثير معاد يتجمع أمام القصر الملكي وسمع الناس يصرخون قائلين :

- " دافعوا عن أنفسكم ! أو فلتغادروا هذه البلاد ! " .

واقترح بعض المتظاهرين الدخول إلى القصر وتدمير الأقبية التي يجمع فيها الحسين كنوزه . ثم زاد هياج الناس أكثر فأكثر ، وانطلقوا يقتحمون حاجز القصر الحديدي . فأدرك الحسين أنه لم يعد له خيار وأن عليه أن يستقيل . فخلع نفسه عن العرش متنازلاً لولده علي وأصدر أمره لخدامه بأن يعدوا حقائبه .

لم يكن في الحجاز غير اثنتي عشرة سيارة كلها ملك للملك . ذلك أن الحسين كان يرد أن يدرج وحده في سيارة . فجمعها في باحة القصر وكدس فيها بسطه وسجاجيده وبياضات أسرته وآنيته من الذهب والفضة . والصناديق التي تحتوي على جنيهاته السترلينية ثم غادر القصر بأقصى سرعة ممكنة متوجهاً نحو جدة ترافقه عائلته ويواكبه عدد من الحراس [١] .

كان اليخت الذي أعطاه الإنكليز إياه موجوداً في ميناء جدة . فأمر الحسين بنقل حقائبه إليه ، بعد أن تحقق من الصناديق واحداً واحداً . ثم استقله بعد ذلك بدوره ، دون أن يودع حراسه ، وأقلع باتجاه السويس فإلى قبرص ، حيث أدين بعد بضع سنوات بحكم صدر ضده في ديون مترتبة عليه .

ولم يعد منه غير شيخ متهدم فإن يقضي نهاراته ولياليه في إحصاء ذهبه مرة بعد مرة [٢].

بينما كان يمر هذا المشهد الحزين ، الذي يذكر على نحو غريب بهرب محمد السادس ، كانت طلائع الأخوان تنتظر ، شاكية السلاح ، عند أبواب مكة . ولم يكن ابن سعود واثقاً بعد من موقف الإنكليز.

١) العام ١٣٤٣ من الهجرة ، شهر رجب .

٢) عاد يموت عام ١٩٣١ عند ولده عبد الله الذي دفنه في مدينة القدس.

والآن بعد هرب الحسين ، هل عساهم يتدخلون لمصلحة علي ولده ؟ كان علي قد عاد إلى المدينة المقدسة لينظم فيها حركة المقاومة ، مستفيداً من فترة الهدنة غير المنتظرة في تتابع العمليات العسكرية. فكانت أول محاولة له ، كما تنبأ عبد العزيز ، هي اللجوء إلى الإنكليز والتماس العون منهم .

– أبرق إلى لندن بواسططة قنصل انكلترا في جدة قائلاً : " أرسلوا إلي طائرات ونقوداً ولا سيما أسلحة !".

لكن الإنكليز كانوا قد تعبوا من طلبات الحسين والهاشميين التي لا تتوقف . فأجابوه قائلين : " أن النزاع بين الحسين وابن سعود هو نزاع ديني ، والغرض منه هو تصفية بعض الخلافات التي أحدثتها أيلولة الخلافة ، وليس مما يتفق مع التقاليد البريطانية التدخل في مثل هذه الأمور ". أن أحداً لا يمكن أن يخطيء في إدراك المعنى من هذا الجواب .

وهنا توجه علي نحو ابن سعود يسأله شروطه ، بعد أن شعر بضياعه وفشله . فأدرك ملك نجد أن الانكليز قد تركوه ورفعوا أيديهم عنه . فأجابه بكبرياء متعالية بأنه لن يضع السلاح ما لم يغادر الحجاز آخر هاشمي . ثم أمر الأخوان بالدخول إلى المدينة .

غادر علي مدينة مكة إلى جدة ليمتنع فيها وفي الوقت نفسه كان عشرة آلاف محارب من الأخوان يقودهم لؤي، القائد المنتصر في تربة ، يجتازون أبواب الحصون ويمرون في صفوف متراصة خلال المدينة فبراير (شباط) ١٩٢٥ وقد أراد بتوليه قائد تربة على هذه القوات أن يمكنه من الثأر لنفسه.

كانت مكة ، الحافلة بالحيوية في العادة ، يبدو وكأنها ميته . الشوارع خالية ، والمخازن مغلقة ، ومصاريع الشبابيك مسدلة ، والأبواب مغلقة بأحكام شديد . والرياح تثير الغبار الشرس الغليظ في الميادين الصامتة، والناس الخائفون قد لجأووا إلى الأقبية ، مقتنعين أن موتهم قد حان حينه . هذا وقد جاس المحاربون من الأخوان كل شوارع المدينة وأزقتها وشهدوا في كل مكان هذا الجو المتحجر . ثم وزع القائد الأعلى للقوات الغازية بعض المنادين عند مفارق الطرق الرئيسية . وراح هؤلاء يعلنون على ضربات الطبول بأن المدينة قد وضعت منذ اليوم في ظل الحماية

المزدوجة لله وابن سعود ، وأن ملك نجد يضمن سلامة الجميع . لكن سكان المدينة مع ذلك لم يجرؤوا على الخروج من مخابئهم . لما كانوا يسمعون عن شراسة الوهابيين الأسطورية .

وراح جنود الأخوان ينتزعون زخارف المساجد ويحطمون الزينات المقدسة ، ويبقرون قبور الأولياء ، ويخرجون أكواماً من النفايات المكدسة في ساحات بيوت ، ويعيدون إلى الأبنية الدينية رصانته البدائية . هذا ولم يسمح قائد الجيش بحدوث أي اغتصاب أو تخريب . ولم يحدث أن واحداً من سكان المدينة قد ناله ضيم أو نزل به رهق أبداً .

وانتهى سكان المدينة ، وقد أدهشتهم نظامية الجيش السعودي ، إلى الجرأة على الخروج من أقبيتهم قليلاً قليلاً . ثم استعادت مكة وجهها العادي بعد مرور أسبوعين على مغادرة الحسين لقصره.

أما ابن سعود الذي بقي في الطائف فقد عاد إلى الرياض وأرسل رسله حتى حدود الصحراء ليعلن إليهم نصره . وأحاط القبائل علماً بأنه قد طرد الحسين ، الغصب ، وأنه أصبح منذ اليوم سيد المدينتين المقدستين ، وأنه لا يريد أن يحتفظ بهما إلا باعتباره منتدباً مفوضاً من قبل كل المؤمنين.

– " قال المنشور الملكي : الآن وقد باد حكم الظلم والفساد وذهب إلى غير رجعة ، فان أعز رغبة عندنا هي أن يكون الوصول ألى أرض الإسلام المقدسة ميسوراً ففتح الأبواب أمام كل المسلمين دون تمييز بينهم. وأن يتولوا هم بأنفسهم إدارة الأماكن المقدسة . لقد قررنا التوجه فوراً إلى مكة ونحن ندعو كل أخواننا من أقطار الدنيا كلها أن ينتدبوا إليها رجالاً مفوضين لكي نبحث معاً الإجراءات التي يليق بنا أن نتخذها ".

وبعد أن جمع حوله وزراءه وحكامه ومستشاريه المدنيين والدينيين امتطى جمله الكبير وخرج من الرياض متجهاً في الطريق إلى مكة.

واجتاز هضبة نجد بهدوء تتقدمه سرية الموسيقى وتواكبه كتيبة كاملة من الأخوان حتى بلغ مرتفعات الحجاز الأولى. وقد دامت هذه الرحلة المجيدة أربعة عشر يوماً . وعلى جانبي الطريق كان القرويون وبدو القبائل المجاورة يتزاحمون هتافاً للموكب وتحية للملك.

وفي اليوم الخامس عشر اجتاز المنتصر في الطائف سلسلة الجبال التي تحيط بالمدينة المقدسة . ثم ترجل عن راحلته وأقام مضربه عند مدخل واد عريض ، تبدو المدينة كلها في أعماقه ، مغتسلة بضياء ذهبي . من تلك النقطة لم

يعد يريد أن يكون فاتحاً بل مجرد حاج بسيط . لقد وضع كل معالم ملكيته : سيفه ، والعقال الذهبي الذي يلتف حول صدغيه ومعطفه الملكي [1].

ثم تلفع بثوب الحجاج التقليدي ، المؤلف من قطعتين من القماش الأبيض غير المخيط . وضع إحداهما حول حقويه وألقي الثانية فوق كتفيه ، ولبس حذاءً من الجلد ثم امتطى حصاناً عاري الرأس أعزل من السلاح واجتاز جبل عرفات ووادي عتبة ثم مضى في الطريق الرملية العريضة التي تقود إلى البيت الحرام.

وكان يردد خلال هذه المسيرة دعاء " التلبية " لبيك اللهم لبيك . لبيك لا شريك لك . إن النعمة والحمد لك والملك لا شريك لك.

إنه لم يكف ، منذ طفولته الأولى ، عن ترديد هذه الكلمات ، فقد كانت مشاركة له في كل عمل من أعمال حياته العظيمة الفذة . لكنها كانت تذكرة خاصة بإقامته الأولى في صحراء الربع الخالي ، في الفترة التي طرد فيها من بيته ، حيث لم يعد يملك سلاحاً ولا مناصراً ولا صديقاً ، وكاد يستسلم فيها لليأس . كما أنها كانت تذكره بذلك المساء الحافل بالحزن وحرارة اليقين حين شاهد ، وهو يدعو ربه في السماء ، في لهب المغيب كلاً من ابن عبد الوهاب وسعود الكبير ، وعمر ، ومحمد ، تحيط بهم فيالق من الرجال يشهرون سيوفاً متألقة لامعة كأنها الضياء ... وكانت تذكره أخيراً بالقسم الذي أقسمه لنفسه ، بتوحيد الجزيرة العربية ، وإصلاح العقيدة ، والإقتداء بالنبي خطوة خطوة.

وجاء قائد المدينة يستقبله عند مقبرة تقوم محاذية للحصون . فترجل ابن سعود عن حصانه ، وخلع حذاءيه ودخل المدينة عاري القدمين ، يتبعه موكب سغير من جنود الأخوان.

وعندما بلغ عتبة المسجد الحرام ، فتحت أبواب الله على مصاريعها أمامه. فدخل صحن المسجد وحده . وكان بيت الله قائماً بشكله الكثيف المربع أمام عينيه المنبهرتين . وشعر آنذاك أنه قد بلغ موضع القمة من حياته .

---

١) لعل المؤلف قصد من كلمة معطف عباءة الملك . " المعرب " .

ثم راح يردد الدعاء التقليدي بصوته القوي :

يا إلهي !

هذه أرضك المقدسة .

من دخل بيتك كان آمناً .

وهذا المعبد هو بيتك ، ومقامك ، وحرمك ،

إنه مقام السلام .

يا إلهي !

أنقذني من نيران جحيمك الخالدة !

وحرم لحمي ودمي على النار

وأنقذني من غضبك يوم يحشر فيه عبادك.

واقترب من الكعبة وقبل الحجر الأسود الذي وضع فيها . ثم ركع ، بكل بساطة ، كما يفعل أكثر المؤمنين تواضعاً ، ونثر على جبهته حفنة من الغبار ، وبقي مستغرقاً في خشوعه حتى هبط الليل.

وفي اليوم التالي استقبل ابن سعود الوفود المختلفة التي كان قد دعاها للإنضمام إليه في مكة . جاءت ، من كل البلاد الإسلامية ، واجتمعت في قاعة القصر الكبيرة حيث عرش الحسين ما يزال قائماً : كان هناك ممثلون عن العراق وبلاد فارس ومصر ، وزعيم السنوسيين من طرابلس الغرب ، ومبعوثون من الحبشة وأفغانستان وأزربيجان ، وماليزيا . كما كان أيضاً رجال قدموا من بلاد الهند.

كل هذه الوفود لم تأت إلى مكة دون الإحساس بمخاوف شديدة . كان أعضاؤها يتساءلون : كيف سيتم استقبالهم . وكانوا ينتظرون أن يجدوا الأماكن المقدسة مدمرة مقلوبة رأساً على عقب في ظل تعصب الوهابيين وكراهيتهم لما يعتبرونه إضافات يوحي بها الشرك بالله .

وكم كانت مفاجأتهم سعيدة حين وجدوا أن المدينة هادئة ، وبيوت الله قد طهرت من أكوام النفايات التي كانت تدنسها من قبل . يضاف إلى ذلك أن الإستقبال اللائق اللطيف الذي أعده الفاتح لهم قد أكد طمأنينتهم .

في تلك الأثناء لم تلبث المنازعات الدائرة حول حق التصدر أن ثارت بين الوفود المختلفة . فلمن توكل إدارة الأماكن المقدسة ؟ لقد أعلن الهنود أن هذا الشرف يعود إليهم بقوة القانون ودون منازعة ما دام أنهم يمثلون وحدهم عدداً من المسلمين يفوق عددهم عدد من تمثلهم الوفود الأخرى مجتمعة . فاحتج المصريون وعارضوا وجهة النظر هذه بحجج تتصل بالتقاليد وحق القدمية .

أوليس أنهم هم الذين كانوا قد حملوا مسؤولية مراقبة الحج . منذ انهيار أمبراطورية سعود الكبير ؟ وعندما رأى ابن سعود أن المناقشة مستمرة باقية وأن التوصل إلى اتفاق أمر غير ممكن وقف وأعلن بصوت حازم.

– " أيها السادة الموفدون ، كونوا على ثقة من شيء واحد : هو أنني لن أسمح أبداً بأية رقابة أجنبية فوق بلادي . وانني بعون الله سأعرف كيف أحافظ على استقلال هذه المناطق . وانني أقدر أن أياً من الشعوب المسلمة الممثلة هنا غير قادر على ضمان حرية الحجاز ، لسبب بسيط هو أن أياً منها لا يتمتع بحريته . فالهنود خاضعون للوصاية الإنكليزية ، وكذلك مسلمو العراق وشرقي الأردن ومصر . أما السوريون واللبنانيون فهم مرتبطون بالفرنسيين ، وأما شعب طرابلس الغرب فمرتبط بالإيطاليين . ان وضع إدارة المدينتين المقدستين بتصرف أي من هذه الشعوب سينتهي إلى وضعهما ، بطريقة غير مباشرة ، تحت تصرف القوة المسيحية التي تخضع لها هذه الشعوب .

" لقد استوليت على المدينتين المقدستين بإرادة الله ، وبقوة ذراعي هذه ، وولاء شعبي . وأنا وحدي هنا حر . فأنا إذاً وحدي في وضع يسمح لي بإدارة الأرض المقدسة كدولة حرة للإسلام. إن هذا هو حقي المطلق . وواجبي أن أتصرف هنا كملك !

" ولا يعني هذا أنني أخطط لممارسة سلطة شخصية على الحجاز ! هذه الفكرة هي أبعد ما تكون عني ! إن الحجاز هو المكان المقدس ا لذي عهد به إلي من قبل الله عز وجل . وسأحتفظ به تحت يدي حتى يصبح سكان هذا البلد في وضع يسمح له بانتخاب حاكم لهم – حاكم حر يستطيع أن يكون خادماً للإسلام وحسب.

نعم " حاكم حر يستطيع أن يكون خادماً للإسلام وحسب " ، من البديهي أن ابن سعود كان يعين نفسه باستعماله لهذه العبارة الخاصة . لكن ، من الخطأ القول أن في هذا مجرد مهارة سياسية : هذه الكلمات كانت تعبيراً عن عقيدة صادقة . وكما أننا لا يمكن أن ندرك ردود الفعل عند مصطفى كمال إذا نسينا أن تفكيره قد تشكل بقراءة فولتير وروسو والكتاب الموسوعيين ، فاننا في الوقت نفسه لا نستطيع أن ندرك العوامل النفسية عند ابن سعود، إذا أهملنا الجانب الصوفي والديني في مزاج نفسه .

إنه وقد رباه أبوه على احترام التعاليم القرآنية والالتزام لها بدقة ، لا يمكن أن تخطر في باله فكرة التمرد عليها . ان روح الثورة عنده مجهولة تماماً . وأن مثل هذا الموقف يكون مستعصياً على الإدراك في دين يعني اسمه " الخضوع والاستسلام" .

صحيح أنه يعارض في الغالب الإدعاءات الفاسدة لفقهاء متخلفين وتفسيرهم الجامد للشريعة : لكنه لا يجادل أبداً في حقيقتها الداخلية العميقة . لم يكن الإسلام بالنسبة إلية –كما كان بالنسبة للغازي كمال مجرد طعم أجنبي يخنق شعبه ببطء . بل كان جوهر العبقرية العربية ، ونظاماً ضرورياً لا يلبث البدو دونه حتى يسقطوا في الفوضى والفساد بطريقة تستعصي على المعالجة .

هل يعني هذا أن ابن سعود لم يكن يرى في الدين غير مجموعة من الوصفات ذات القيمة الانتفاعية المحض ؟لا زيادة على ذلك ؟ ! لم يكن عبد العزيز ورعاً ناسكاً مرتبطاً بأشكال العبادة الخارجية وحسب . لقد كان صوفياً . ان الاندفاع الكبير في حياته لم تحدث قراءة الكتب ولا مشاهد الظلم الاجتماعي . انه بانبثاقه من التوحد ، صدر عن رؤية تحققت له في الصحراء . ومنذ ذلك اليوم شعر أنه مكلف برسالة سماوية ، هذا اليقين كان يمنحه ثقة لا تتزعزع

بنفسه . إن تلك الرؤية ، وحياً كانت أو سراباً ، فلا يهم الإسم الذي يراد اعطاؤه لها ، هي في نظره شعاع من شمس الحقيقة . ان حياته كلها لا تتضح ولا تقبل تفسيراً إلا بهذه الرؤية .

" يقول لنا هـ . س . أرمسترونغ : لم يكن الله عنده ذاتاً تجريدية بعيدة ، بل شخصاً فاعلاً ، حاضراً إلى جانبه دون انقطاع . إنه يقوده في كل عمل من أعماله ، أكان في مجلس عام أو كان يتأمل في جناحه من القصر ، أو كان يمارس العدالة أو يخوض حرباً في الصحراء . كان يؤمن أن الله يرافقه في كل مكان ويأخذ بيده ، في القصر ، تحت خيمته المضروبة أو على طريق القوافل الرملية .

" كان يتأمل ويصلي قبل أن يتخذ أي قرار خطير . فإذا جاءت الفترة الحاسمة ، أفرغ قلبه من كل شاغل وسأل ربه بأن يدله إلى الطريق . ثم لا يعود بعد ذلك عن أي قرار يتخذه ، معتبراً أن هذا القرار قد أملي عليه من قبل إلهام إلهي [1] .

على أن الاعتقاد بأن حالة عقلية بهذه الصورة غير متوافقة مع الواقعية الحادة التي طالما كشف عنها في السياسة هو خطأ كبير . لقد رؤي في كل الديانات ، صوفيون وقديسون كانوا من كبار رجال الدولة ومن كبار الإداريين . وابن سعود لم يكن قديساً ، وكان " العلماء " يرددون ذلك عليه في الغالب فلا يجهله . لكنه لم يكن في الوقت نفسه وقحاً جريئاً ، لا يرى في ا لدين غير القناع الملائم لأخلاق النفاق . " قال يوماً للسير بيرسي كوكس أنا مسلم أولاً ، ثم عربي ، لكنني دائماً خادم لله عز وجل ! " . ولما كان ممثلاً أصيلاً لعنصر لم يرغب يوماً في الفصل بين الروحي والزمني ، فان العملين السياسي والديني عنده كانا يتداخلان تداخلاً تاماً حتى أنه كان هو نفسه يجد صعوبة في التمييز بينهما.

لماذا إذاً فعل هذا ما دام أن كلا م الجانبين يشكل عنصراً مساعداً للآخر ومؤثراً فيه ؟ أو ليس أن توسيع أراضيه ونشر العقيدة الوهابية ، شيء واحد؟ لقد كانت أطماحه السياسية ودعوته الدينية تتجه نحو هدف واحد . وهنا كانت قوته الكبيرة ، كما شهدت بذلك مبارزته مع الحسين.

كان الملك يجد فيه فرصته في تلك المبارزة ، لأنه بغزوه للحجاز ، يعطي مملكته منفذاً على البحر الأحمر ، ويقوم بخطوة أخرى في توحيد الجزيرة العربية ويحطم حصار الأعداء الذين كان زعيم الهاشميين منهم أبرز الممثلين وأظهرهم .

على أن المؤمن فيه أيضاً يجد في ذلك حاجته ، ما دام أن الحسين قد أثبت عجزه عن تأمين الحراسة للمدينتين المقدستين وانتهك التعاليم القرآنية بطريقة مهينة . أو لم يفرض ضريبة على العبادات ويضطهد الحجاج ؟ أو لم يأذن بتزيين المساجد بالزخارف المبتدعة ويحول مكة إلى موطن للفساد ؟ إن دين الإسلام بين يديه لا يسعه إلا أن يغنى . وعلى ذلك فان رسالة ابن سعود هي بعث الحياة فيه .

---

١) هـ . س . أرمسترونغ : ملك الجزيرة العربية ، ص : ١٧٠ – ١٧١ .

– " قال مصرحاً أمام أعضاء المؤتمر الإسلامية لعام ١٩٢٦ : أريد أن أجعل من الأماكن المقدسة مثابة كثيفة للحياة والثقافة الإسلاميتين . أريد أن أجعلهما مناطق يستطيع كل مؤمن أن يستمد منها مصدر عزة شرعية له ، يشهد إشعاعه ، عبر العالم كله ، بالفتوة والحيوية الخالدتين في الإسلام ! ".

كان انهيار الحسين وهربه قد فاجأ الإنكليز . إن مقاومته لم تدم أكثر من ثمان وأربعين ساعة . وكانوا يظنون أنه سيدافع عن نفسه بطريقة أكثر فاعلية وقة رغم أخطائه ومواطن الضعف عنده .

وقدر المسؤولون في وزارة الخارجية أنه لا يمكن العودة عن الأمر الواقع ، لكن الواجب يقضي بالاتصال فوراً بابن سعود قبل أن يتعاظم تعاظم سلفه من قبل . فأرسلوا إليه بعثة دبلوماسية برئاسة الجنرال سير جيلبرت كلايتون ، رئيس لورانس القديم في مكتب الجزيرة العربية من القاهرة .

تقدم ابن سعود نحو كلايتون حيث تم اللقاء في مدينة بحرا الصغيرة الواقعة في وسط الطريق بين جدة ومكة . والجدير بالذكر أن اتصالاته الأخيرة بالإنكليز قد تركت في نفسه ذكرى مريرة ، وهو لم يدخل في هذه المحادثات دون أن تراوده المخاوف . فبأي نوع من المطالب الجديدة سيصطدم في هذه المرة ؟

وفي الوقت الذي انطلق فيه السير جيلبرت كلايتون باتجاه مدينة بحرا ، كان الإنكليز قد احتلوا العقبة ، وهي ميناء واقعة في الشمال الأقصى من الحجاز ، في أعماق ذراع البحر الصغيرة التي تتغلغل في الشرق من شبه جزيرة سيناء . وقد كانت العقبة مع الكويت وعدن واحدة من أهم النقاط الاستراتيجية لشبه الجزيرة . وكان الإنكليز مصممين على الاحتفاظ بها ورفض التنازل عنها .

لكن ابن سعود ، كان هو أيضاً يمسك بضمانة خاصة — وهي ضمانة تزعج الإنكليز بصورة فريدة . فبينما كانت كل الأنظار مثبتة على مكة ، أرسل أمراً إلى جيش الأخوان الثاني ، المعسكر عند حدود شرقي الأردن ، بأن يتقدم قليلاً على طول وادي سرحان. ومرت هذه المناورة دون أن يشعر بها أحد لأن اهتمام المستشاريات قد استقلت به أحداث الحجاز . هذه المناورة مكنت ملك نجد من الإستيلاء على شريط من الأرض يمتد كالشوكة بين شرقي الأردن والعراق ، ويتوغل حتى يصبح قريباً من الحدود السورية .

إن هذه العملية تجيب عن حساب دقيق : " قال ابن سعود في نفسه : ما دام أن الإنكليز قد قرروا الإمتناع نهائياً عن مساندة الحسين ، أفليس من الممكن أن يتخلوا عن فيصل وعبد الله ؟ في هذه الحالة يكون الأخوان في وضع يسمح لهم بالقضاء على هذا وذاك والإنتهاء بصورة قاطعة من الهاشميين . فإذا لم يكن التقدير في محله فان في الإمكان أن يتم الجلاء مقابل الحصول على إمتيازات مادية في الحجاز أو في أي مكان آخر ".

كانت أهم المشاغل لدى المسؤولين في وزارة الخارجية البريطانية تنحصر في منع قوات الجزيرة العربية الداخلية من التدفق نحو الأقاليم الساحلية . وكانوا يعلمون جيداً ما يمكن أن تحدثه من الأصداء حركة من هذا الطراز ولا سيما فيما يتعلق بنتائجها على بلاد فارس ومصر . وأيضاً فقد كانت أعصابهم تزداد توتراً ، كلما اقتربت قوات ابن سعود من ساحل البحر الأبيض المتوسط . في هذه المرة كانت الهجمة بخاصة مبعث قلق جدي ، ذلك لأن شريط الأرض المحتل من قبل الأخوان يفصل شرقي الأردن عن العراق ، كما يقطع الطرق البرية التي تصل القاهرة ببغداد وتحول دون بناء خطوط الأنابيب التي ينتظر أن تنقل النفط من الموصل إلى حيفا ، حيث كانت الأميرالية البريطانية منهمكة في بناء قاعدة بحرية ضخمة . فإذا بقي فيها ابن سعود فان كل السياسة الإنكليزية تصبح معرضة لتغيير جذري . ان احتلال هذا الإقليم من قبل التشكيلات العسكرية السعودية قد طرح، أمام داوننغ ستريت ووايت هول معضلات يبدو الإستيلاء على مكة بالنسبة إليها شيئاً ثانوياً .

وكان ابن سعود يعتقد أن كلايتون قادم إلى بحرا ليفاوضه في أمر الجلاء عن الحجاز . لكن الواقع أن المفاوض البريطاني كان مهتماً بخاصة بالحصول على الجلاء عن وادي سرحان وكم كانت دهشة الملك كبيرة حين دارت أحاديث المؤتمر حول العقبة والممر الذي احتلته قوات الأخوان ، دون أي تعرض لموضوع مكة . ولما كان مقتنعاً بأن

كلايتون لا يلعب لعبة صريحة واضحة فقد جهد عبد العزيز في إخفاء لعبته . واستمرت المناقشات الحثيثة ستة أيام على التوالي — ستة أيام كان كل منهما في أثنائها يحاول النفاذ إلى الأفكار — الخلفية عند مخاطبه .

كان ابن سعود القائد الأعلى لجيش يعمل في ميدان القتال ، ذلك لأن فتح الحجاز لم يكن قد تم بعد . فجدة والمدينة ما تزالان تقاومان ولم يرغب الملك في إيقاف العمليات أثناء المؤتمر ، حتى لا يترك لهاتين المدينتين فرصة لتدعيم دفاعاتهما . لقد أقام قاعدة قيادته العامة في بحرا ، وتابع اهتمامه بالعمليات العسكرية ، في الوقت الذي يتابع فيه المحادثات الدبلوماسية مع الإنكليز.

وكانت تشيع في المدينة الصغيرة حيوية ناشطة ، حيث تتجمع وحدات ضخمة من الجيش السعودي . وتتوافد القبائل الجبلية من كل مكان في الحجاز أو يقبل المتطوعون أفراداً يطلبون الانضمام إلى صفوف الأخوان . وكان الواجب يفرض تنظيم وحدات جديدة وتسليحها بالأسلحة المنتزعة من العدو وتموين القرى المفتوحة وتأمين النظام في مكة وإحام الحصار حول جدة والمدينة . وكان ابن سعود مرغماً في كل وقت على تعليق المحادثات في المؤتمر ليستقبل زعيم قبيلة ، أو ليتخذ قرارات تكتيكية ، أو يصفي مشكلات خاصة يترتيب الأولويات في القيادات المختلفة وإعطاء التعليمات إلى أركان حربه .

يقول لنا أرمسترونغ ، أن حالات الانقطاع هذه لم تكن تزعجه أبداً . فهو يعود بعد كل منها ليجلس إلى طاولة المؤتمر ، ويستأنف المناقشة بهدوء تام ، تماماً من النقطة التي انتهى إليها من قبل .

ومع ذلك فان تلك التحركات المستمرة الخاصة بالأسلحة والخيول ورغاء الجمال ، وأصداء الطبول ، والغبار الذي تثيره الأرتال المتحركة والغادين والرائحين من المراسلين والضباط أركان الحرب ، مضافة إلى الغياب المتكرر ، قد انتهت إلى إغاظة ممثل الحكومة الإنكليزية وإسخاطه . وقد خيل للسير جيلبرت أن ابن سعود يسخر منه . فهل يظن ابن سعود أنه يرهبه بعرض قواته ؟

وفي صباح اليوم السابع ، أعلن كلايتون بلهجة جافة وضع حد للمحادثات وأنه ، ما دام أن التفاهم الودي غير ممكن ، فهي الحرب ، إنها الحرب التي ستخوضها بلاده بكل موارد التكتيك الحديث والتي ستشارك فيها القوات الفرنسية في سوريا إلى جانب القوات البريطانية .

والواقع أن تصريح كلايتون كان يحتوي على شيء من " البلف " فالفرنسيون ، المنشغلون بثورة الدروز ، لم تكن لهم أية رغبة في مواجهة عدو آخر . أما فيما يتعلق بالإنكليز ، فان حامياتهم في فلسطين كانت من القلة بحيث لا تستطيع أن تخوض حرباً دون مساعدة حلفائهم .

كان ابن سعود لا يجهل هذا الأمر . فتساءل لحظة عما إذا كان سيواجه التحدي بمثله ، لكنه لم يلبث حتى أعاد النظر في موقفه . ان مثل هذا العمل قد يعرض للخطر كل ما كان يملكه من قبل . ان الواجب يفرض عليه ألا يدع الفريسة من أجل الظل ، ولا يضحي المهم إشباعاً لأنانيته الشخصية . وما دام أن كلايتون لا يبدي أي اعتراض على الحجاز ، فلم يبق عليه غير التفاهم حول وادي سرحان . ولما لم يكن راغباً في الخضوع للقوة ، طلب ابن سعود مهلة أربع وعشرين ساعة للتفكير . وفي اليوم التالي أعلن للسير جيلبرت كلايتون بأنه موافق على شروطه ثم تم الاتفاق الذي يجلو الملك بموجبه من وادي سرحان ، مع المحافظة على حق السيادة المطلقة على قبائل تلك المنطقة . أما فيما يتعلق بالعقبة ، فانه يقلع وقتياً عن المطالبة بها باعتبارها جزءاً لا يتجزأ من الحجاز : وسيكون وضعها مادة لمفاوضات لاحقة .

هكذا حقق كلايتون كل أغراضه . فأعاد الاتصال بين العراق وشرقي الأردن ، وأبعد الخطر الجاثم على فلسطين ، وحرر الطرق القائمة بين بغداد والقاهرة وأنقذ خطوط الأنابيب بين الموصل وحيفا ، وكان هذا كثيراً جداً .

لكن ابن سعود احتفظ بحرية الحركة والتصرف في الأراضي التي كانت تابعة حتى ذلك الوقت للحسين. ان الصمت الذي احتفظت به معاهدة بحرا حول هذا الموضوع ، كان يعني أن بريطانيا لم تعد مهتمة به.

وإذاً فلم يبق غير الإنتهاء من إحتلال الحجاز.

كان علي قد تمترس في جدة وأمتنع فيها ودعم الحامية بمساعدة المرتزقة الأتراك المجندين من بين عمال المرفأ . وكذلك فعلت المدينة وينبع . فأصدر ابن سعود للأخوان أمراً بالقضاء على هذه المواقع الحصينة في أقصر وقت ممكن.

واستمر الحصار عدة أشهر رغم هجمات الوهابيين العنيفة الشرسة . لقد قاومت حامية جدة ببطولة . فالمدينة المبنية حول قبر حواء ، قد حصنت تحصيناً قوياً من قبل المصريين ثم من قبل القدماء من حكام السلطان . وكانت هذه المدينة ، في الأزمان العادية ، مركزاً تجارياً مزدهراً . لكنها رغم التقنين الشديد ، لم تلبث حتى افتقدت الماء والمؤن

. المحاصرون يموتون بالمئات وقد حبسوا داخل الأسوار العالية . وكان دفنهم مستحيلاً لأن المقابر الواقعة خارج الحصون موجودة في أيدي الوهابيين . ثم أصبحت المجاعة رهيبة . كان جمهور من المتسولين ، الذين غطيت أجسادهم بالندوب ، يجرجرون أقدامهم في الشوارع ، وقد بلغوا من الضعف حد العجز عن السير ، ثم يموتون جوعاً في الميادين والساحات العامة . رجال ونساء أصابهم الجنون من الجوع والعطش ، كانوا ينازعون الكلاب التائهة والطيور الجارحة على لحوم جثثهم . وتحولت أزقة المرفأ إلى مدافن للعظام وازدحمت فيها أكوام الجثث . وكان فصل الخريف شديد الحرارة . والشمس المحرقة تسكب سيولاً من النار فوق تلك المشاهد ا لمرعبة . والمدينة ، المليئة بالجثث المتعفنة تبعث رائحة نتنة حتى أن المراكب التي كانت تمر في عرض البحر تعود من حيث أتت تجنباً لها.

وفي نهاية عام نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٢٥ ، استعد الأخوان للقيام بالهجوم النهائي . وفي تلك الأثناء ، كان علي ، بتشجيع من الطويل ، يأمل في أن يشفق عليه الإنكليز ويأتوا لنجدته . فليس أسهل من تموينه عبر البحر. لكن ، لا الإنكليز ، ولا حسين ، ولا فيصل ولا عبد الله لم يقوموا بأي تحرك لمصلحته . وعندما تعب من الانتظار ، وشعر أن قضيته خاسرة لا محالة ، قرر أن يستسلم ليجنب المدينة خطر الإبادة التامة .

وهنا أبحر في بداية ديسمبر (كانون الأول) ، على مركب إنكليزي حمله إلى مدينة عدن . ومن هناك لجأ إلى بغداد عند أخيه فيصل . هكذا كان آخر هاشمي قد ترك الحجاز .

ثم استسلمت بدورها كل من المدينة وينبع حين جاءهما نبأ استسلام جدة.

دخل ملك نجد مدينة مكة للمرة الثانية . أما في المرة الأولى فقد جاءها على صورة حاج ، وحيد ، عاري الرأس ودون سلاح ، حفاظاً منه على صفتها بالدينية .

وفي هذه المرة ، أراد أن يدخل دخول الفاتحين ، وسط عرض كبير لقواته المسلحة وليعطي هذا الحادث كل معناه السياسي .

هكذا سار خمسة عشر ألفاً من الأخوان في أرتال طويلة يجوسون خلال شوارع المدينة شاهرين سيوفهم ، تتقدمهم الموسيقى وترفرف الأعلام فوقهم . أما ابن سعود فقد استولى رسمياً على القصر وقابل جماهير الناس من فوق الشرفة الشريفية بينما كانت مائة قذيفة وقذيفة مدفع تطلق من أعلى الحصون ويتردد دويها بعيداً في سلسلة الجبال

التي تحيط بالمدينة المقدسة ، فعل هذا بينما كان يرافقه ويحيط به أصحاب المقامات الرفيعة وكبار قادته العسكريين وحكامه .

ثم دخل قاعة العرش حيث وجد أمامه مائة من الشيوخ والوجهاء . جاءوا يعلنون إليه أن شعب الحجاز قد نادى به ملكاً على البلاد ٨ يناير (كانون الثاني) ١٩٢٦ .

وعندما علم لورانس بانهيار الحسين وبالطريقة التي تركته بها الحكومة الإنكليزية ، بالإضافة إلى اليأس الذي يشيع في نفسه منذ بعض الوقت ، استغرقه ألم شديد وأنهك قواه . وهكذا دفنت نهائياً كل الوعود التي قدمها للهاشميين ! وعندما علم بتفصيلات هجرتهم وعرف أن كلايتون — الذي كان قد عمل معه يداً بيد .

في الوقت الذي كان فيه تابعاً لمكتب الجزيرة العربية في القاهرة لم يفرض على السعوديين الجلاء عن الحجاز ، ولم يطالب بإبقاء علي على عرش أبيه ، شعر أن كل شيء ينهار في داخل ذاته ومن حوله.

كان قد ذهب ، قبل عشر سنوات ، لغزو الصحراء ، يدفعه شعور بالعزة المتهوسة ، وكانت الطريقة التي استجاب بها العرب لندائه قد منحته ثقة لا حدود لها في عبقريته :

كنت أحبك ، من أجل ذلك

كتبت في النجم إرادتي في السماء

بينما كنت أجتذب بيدي تلك المدود من الرجال .

وعندما عاد إلى قراءة هذه السطور الموضوعة في مقدمة كتابه الذي يحكي حكاية مغامراته ، بدت له على صورة سخرية مرة .

أين كانت هذه المدود من الرجال ؟ لقد اختفت كأنها دخان . لقد وجد الحسين نفسه وحيداً في ساعة الخطر ، واضطر علي للهرب نجاة من الموت . كان يظن ملك الجزيرة العربية غير المتوج أنه عمل للخلود ، أما إرادته فانها لم تنقش حتى على الرمال . ماذا بقي من اتحاده التحالفي العربي ؟ أهي مملكة العراق . وتلك المزقة البائسة من شرقي الأردن المنحصرة بين فلسطين والصحراء . دون منفذ إلى البحر ، مع قصرها الشبيه بدار العمدة ، وأرضها التي تبلغ

من الضيق درجة أن القبائل فيها لا تكاد تجد مساحة من الأرض تحرك فيها قطعانها من الماشية ؟ أنه لم يبق من العمل الكبير الذي قام به غير أنقاض وردوم .

لقد سألني الرجال أن أقيم منزلنا

ولكي تكون هذه الرائعة دقيقة صحيحة

حطمتها قبل أن تكتمل

والآن فان الصغار من الناس يتزاحمون

لاصلاح شأنهم من الأنقاض المتداعية

في الظل وفي خرائب الهدية

التي كنت قد أعددتها لك

كان قد خسر المعركة الأخيرة ولم يعد يأمل في شيء بعد . وكان سقوطه حتى الأعماق . ثم أراد أن يجعله أكثر عمقاً أيضاً ، بتوجيه تلك الرؤية الواضحة القاسية نحو نفسه وهي الرؤية التي كانت إحدى السمات الأساسية في أخلاقه .

"كتب يقول : أن أياً من الناس يقود ثورة الضعفاء بنجاح ضد سادتهم يجب أن يخرج منها وقد تقذر إلى حد لا يعود شيء في العالم ، قادراً على أن يعيد إليه الإحساس بالنظافة [١].

أوليس أنه أراد أكثر من مرة أن ينخلع من ألقابه المغتصبة ويتخلى عنها ، وأن يتحرر من قيادته الخادعة ! " لكن التضليل الخفي يستطيع أن يزين سقط المتاع البشري بأحسن زينة ! لقد ضلل العرب من قبلنا في الوقت الذي كاوا يقاتلون فيه العدو بكل قلوبهم . كانوا يتطايرون مع رياح إرادتنا كالقش ، ومع ذلك فأنهم لم يكونوا قشاً أبداً ، بل أشجع الرجال ، وأكثرهم بساطة وبهجة بين الناس ... وقد يكون من البطولة أن أبذل حياتي فداء قضية لم يكن في وسعي الإيمانبها . أما أن أجعل الآخرين يموتون بإخلاص وصدق من أجل صورتي المنحوتة فليس هذا غير نوع من السرقة – انه سرقة النفوس والأرواح [٢] . ... وإذاً فقد وجب أن يكون في نفسي بعض الميل ، أو لأقل بعض

الاستعداد للغش . إذ لولا هذا ما كان في مكنتي أن أزور وأخدع جيداً ولا أن أتابع خلال عامين صنع خديعة كان آخرون من الناس قد أعدوا لها وصوروها ثم عملوا على وضعها موضع التنفيذ . إنه لم يكن لي أي نصيب في بداية

---

١) ت . أ . لورانس ، أعمدة الحكمة السبعة ، ص : ٨١٩.

٢) ت . أ . لورانس ، المصدر نفسه ، ص : ٦٨٤ — ٦٨٥ .

الثورة العربية ، وأخيراً كنت المسؤول عن الحرج الذي كانت تسببه لمبدعيها . ففي أي وقت تماماً ، كان ذنبي الثانوي قد أصبح بمرور الزمن الذنب الرئيسي ؟ وما هو وجه الإدانة الذي تعرضت له ؟ ليس من شأني أن أجيب عن هذا التساؤل ، يكفي أنني أسفت بمرارة على تورطي في تلك الثورة — بمرارة تدفعني إلى أن ألهب نفسي في ساعات الفراغ ، ولكنها ليست من الشدة بحيث أقطع بها علاقاتي . من هنا نشأ التعرج والاضطراب في إرادتي ، وظهرت ، دون هوادة، شكاواي التافهة المسيخة [١] .

وفجأة لم تعد الشكاوي كافية . لقد كانت فكرة سقوطه تحرقه كالحمضي الكاوي ، ثم بدأت توحي إليه بأفكار الانتحار . " يقول لنا لورانس : وبسرعة حوجزت عقلي [٢] . ثم راحت غريزتي والمنطق يتقاتلان ويتنازعان كما هو شأني دائماً . كانت الغريزة تقول : " لتمت ! " أما المنطق فكان يردد قائلاً : هذا لا يعني غير قطع لمطول [٣] العقل، وتحريره ورد حريته إليه ومن ثم ضياعه . أن الأفضل هو البحث عن بعض الموت الذهني ، وتبذير بطيء للدماغ يجعله يسقط تحت هذه الألغاز والأسرار . إن حادثاً عارضاً يكون أدنى من خطأ مقصود . وإذا كنت لا أتردد في المخاطرة بحياتي ، فلماذا كل هذا الحرج من أجل وصمة قذرة ؟ في تلك الأثناء تبدو الحياة والشرف في فصيلتين مختلفتين ، إنّ أياً منهما لا يعوض عن الآخر . أو ليس أنني فقدت شرفي حين أكدت للعرب أن انكلترا ملتزمة بتعهداتها ؟ ان انهماكي في العمل المضني يتركني غير راضٍ ويبعث الشك دون هوادة ، والقضية الملحة علي دون توقف كانت تقيد عقلي بلولب يحدث لي دواراً شديداً ، ثم لا يدع لي مجالاً للتفكير أبداً [٤].

---

١) المصدر نفسه ، ص : ٦٨٧ — ٦٨٨.

٢) حوجز شيئاً أحاطه بحجاب حاجز .

٣) المطول بكسر الميم وسكون الطاء وفتح الواو : الرسن الذي يقاد به الحصان.

٤) ت . أ . لورانس ، المصدر نفسه ، ص : ٦٧٩ – ٦٨٠.

وفي ٤ يوليو (تموز) ١٩٢٢ كان لورانس قد قدم استقالته من وظيفة المستشار للشؤون العربية في وزارة المستعمرات ، تلك التي دعاه إليها تشرشل . وفي ٣ أغسطس (آب) ، وكان قد نفد صبره وخارت قواه تطوع في القوات الجوية الملكية كجندي عادي باسم جون هيوم روس . أكد قائلاً : كنت أحب الأشياء الدنيا ، ذلك أني أبحث عن الملذات والمغامرات باتجاه الأدنى من الأشياء . ويبدو لي أن في السقوط نوعاً من الثقة والطمأنينة ، والأمن النهائي . إن في وسع الرجل أن يرتفع إلى أية قمة ، لكنه لا يستطيع السقوط تحت مستوى حيواني معين [١] . كان يأمل في أن يستعيد تلك الحرية السعيدة التي عرفها قبل في أعماق بورسعيد ، في فترة شبابه ، حين كان يقضي نهاراته في تحميل فحم السفن والمراكب مع منبوذين آخرين جاؤوا منثلاثة أقطار الأرض ، كما يقضي لياليه نائماً وهو جالس القرفصاء على رصيف الميناء عند قدمي تمثال دوليسبس ، تلامسه أمواج البحر المضطربة ...

لكن لا شيء ، حتى مرور السنوات ، توصل إلى تهدئة عذابه النفسي . وبعد فترة قصيرة من الخدمة في فرقة المدرعات الملكية استرده اللورد ترنتشارد للقوات الملكية الجوية ودعاه إلى نسيان ما عنده . هناك حيث التستر والخفاء في الحياة العسكرية ، وحيث يمضي به التشابك الميكانيكي في حياة المعسكر ، وسط رجال لا يعرفو شيئاً عن حقيقته، ولا عن ماضيه ، وفي حال معرفتهم لهما يحترمون صمته – قد يجد أخيراً راحة نفسه . " كتب يوماً إلى أصدقاء له يقول : لا يستطيع الإنسان أن يكون غير قائد أعلى أو جندي بسيط . وليس ما بينهما غير الخيانة والخداع . فحين لا تكون القيادة المطلقة في اليد ، يجب الإختباء في الخضوع المطلق " .

وفي ١٣ مايو (أيار) ١٩٣٥ كان لورانس ضحية لحادث عجلة بخارية رهيب . لقد رفع مصاباً بكسور في جمجمته . ثم حمل على عجل إلى عيادة بوفنج –كامب ، وتوفي في ١٩ مايو (أيار) ، عن الساعة الثانية إلا ربعاً من الصباح ، بعد أن استمر في غيبوبة تامة لمدة مائة وأربعين ساعة . هذا وقد دهش السير رونالد ستورز الذي هرع إليه بالتعبير الهادىء في وجهه . " كانت ترتسم على شفتيه ابتسامة مزدرية . ولم تكن ترى يداه ولا شعره ، بل قناع قوي، له لون العاج القديم ، يبدو حياً للناظر إليه ، وفي تعارض مع العقم الكميائي للضمادات التي تغطي رأسه [٢].

١) أعمدة الحكمة السبعة ، ص : ٧٠٢ – ٧٠٣ .

٢) رونالد استورز : توجهات ، ص : ٥٣٠ – ٥٣١.

هذا وقد وضعت يدان تقيتان عليه وهو مسجى في سرير الميدان ، حفنة من الورود الحمراء إحياء الذكرى مقطوعة من الشعر كان قد نظمها في الصحراء :

يا إلهي ، إنني إذ أشعر بحريتي في الاختيار من بين أزهارك كلها ، فقد اخترت الورود الحزينة من العالم .

وها أنّ قدميّ من أجل ذلك داميتان وعيني قد عميتا من العرق ...

وارتفعت بعض الأصوات – ولا سيما صوت اللورد اللنبي – يطالب بدفنه في مقبرة وست منستر . لكن هذا كان صعباً . وقد أشعل موته نار مناقشات حامية حول شخصية . وراح الجميع يتساءلون : أين يجب أن يوضع ؟ في جناح الجنود أو في جناح الشعراء ؟

ودفن في مقبرة موريتون الصغيرة ، في دورسا ، غير بعيد عن رفاقه في الكتيبة ، وكان تشرشل وستورز وحدهما اللذين مشيا وراء جنازته سيراً على القدمية . وقد كتب على قبره عملاً بوصيته:

في ذكري

ت . أ . لورانس

انسان من كلية "كل النفوس " أوكسفورد

أغسطس ١٦ (آب) ١٨٨٨ – ١٩ مايو (أيار) ١٩٣٥ .

كان الأخوان مبتهجين فرحين . فالإستيلاء على الحجاز رفع حرارتهم الحربية إلى القمة . وكان المحاربون الوهابيون يضغطون على الملك للعودة إلى القتال . لقد طالبوا صارخين " بانتصارات جديدة " متأثرين بالدويش ، قائدهم الأعلى الذي تميز بشجاعته في حصار المدينة .

ورغبة منه في استغلال هذه الغبطة ، وقبل أن يمر من الوقت ما يبددها ، قرر ولد عبد الرحمن أن يلحق بمملكته أراضي عسير واليمن التي تمتد محاذية للبحر الأحمر في الجنوب الشرقي من الحجاز .

أما عسير فقد كانت تتميز بخصوبتها من باقي شبه الجزيرة . وهي باعتبارها منطقة زراعية مأهولة بسكان كثيرين ذوي مهارات خاصة . وبفضل نظام متطور من الري ، كان الفلاحون فيها يعيشون حياة شبيهة تقريباً بحياة زملائهم في أوروبا . يزرعون حقولهم ، مدة العام كله ، ذرة وبرسيما ودخناً [١] .

هذه البلاد كانت واحداً من مهاد الحضارة العربية . هناك كانت تحكم ، قبل ولادة الإسلام ، أسرات السبأيين نصف الأسطورية ، ثم الحميريين والنبطيين . وفي عاصمتها تيماء كان يعيش الملك نابونيد والد بلتزار الذي "كان قد حمل كل أمجاد برسيبوليس " وفي وسعنا أن نكون فكرة عن الوفرة والرخاء في تلك البلاد بفضل نص عراقي يعود تاريخه إلى ذلك العصر . إن لوحة منقوشة من الطين تخبرنا في الواقع أن واحداً من ملوكها ، خزعل ، فرض عليه أن يدفع لأسرحدّون " عشرة مناجم من الذهب ، وألف حجر كريم ، وخمسين جملاً ، وألف حزمة من العشب المطيّب " وقد دفعها كجزية لاستعادة آلهته المأسورة [٢] .

وفي عام ١٩٢٦ ، كانت عسير محكومة من قبل ملك صغير شرس يدعى حسن الإدريسي ، يتحكم بالناس من أعماق قصره المحصن ، أما الأخوان الذين كانوا يتقدمون بخطوات سريعة نحو أبها القصبة الضخمة التي يستخدمها كعرين له يلجأ إليه ، فانهم لم يجدوا أية صعوبة في إخراجه منها وارغامه على الهرب . فأعلن ابن سعود سقوطه ، وعين مكانه واحداً من أبناء عمومته ، تركي ابن السديري ، ثم تابع سيره باتجاه اليمن .

١) الدخن يضم الميم هو الذرة البيضاء .

٢) جيرالد دوغوري : نخيل الجزيرة العربية ، ص : ١٩.

هذه المقاطعة كانت أغنى وأكثر سكاناً من عسير . أو ليس أنها مصدر الهجرات البشرية التي تدفقت عبر الصحراء قرناً بعد قرن ؟ انها تحتوي على مدن كثيرة تعود أنقاضها إلى عصر الأشوريين وتفاخر الآخرين بماضيها الأسطوري . وكان الناس يمتدحون عظمة صنعاء القديمة عاصمتها ، والروعة الأسطورية لقصرها الذي يرتفع إلى عشرية طبقة ، ولاذي كان مقاماً للملكة بلقيس ، بجدرانه المبنية من صخور الجرانيت ، وحجر اليشب والرخام السّماقي ، وقاعاته المغلفة بالخزف الأزرق السماوي أما سقفه فقد صنع آجره من الذهب الخالص ، تتوجه أسود من معدن البرونز "كانت تزمجر كلما هبت عليها الرياح".

لا شك أن اليمن قد سقطت منذ عصر بعيد جداً حيث كانت تحكم من قبل " ملوك التاج " ولا سبيل إلى عقد أية مقارنة بين حالها اليوم وبين ما كانت عليه عظمتها الماضية . ومع ذلك فهي ما تزال بلاداً مزدهرة، بفضل تجارة البهارات والبخور واللؤلؤ .

والجدير بالذكر أن تلك الأرض كانت خاضعة لزعيم ديني ، أنه الإمام يحي ، رجل في الخمسين من عمره بدين ومصاب بداء المفاصل لا يخرج أبداً من قصره كما يقضي أكثر نهاراته في تناول الطعام . كان متأنقاً في إختيار المآكل ذواقة لها شديد التمسك بهذه العادة ، ولم يكن خصماً مخيفاً للأخوان .

فالمحاربون الوهابيون الذين يقودهم الفتى سعود قادرون على انتزاع العرش منه في لحظات قصيرة .

لكن اليمن لحسن حظ من يحكمها – هي منحدر خفيف ينتهي إلى عدن . وعدن محطة هامة في طريق الهند البحرية . لقد انتزع الإنكليز تلك المنطقة لأنفسهم منذ عام ١٨٣٩ واحتلواها بقوة وهي لا تعدو أن تكون مؤلفة من موقع صغير لا تتجاوز مساحته ١٩٤ كيلو متر مربع . ولذلك لم يكونوا راغبين في السماح للوهابيين بافتتاح المناطق القريبة منها.

هنا أرسلوا إلى ابن سعود رسولاً من قبلهم ، يرجونه عن طريقه أن يوقف تقدم قواته ويقترحون عليه في الوقت نفسه الدخول في مفاوضات عامة . وبعد تردد استمر أياماً كثيرة ، قرر ولد عبد الرحمن بفضل من حكمته أن يوافق على طلب الإنكليز وعروضهم .

هذه المرة جرت المحادثات في جو مختلف تماماً عن الجو الذي ساد من قبل في القاهرة أو في عقير. وفي تلك الأثناء كانت انكلترا قد كونت فكرة عن قوة ابن سعود الحقيقية وقررت أن تجعل منه صديقاً لها. وبذلك تغلبت وجهة نظر فيلبي على تلك التي ينادي بها لورانس . فانتهى بذلك عصر الإزعاج والإذلال.

أظهر المفاوضات البريطانيون كثيراً من العناية والرعاية في محادثاتهم وعاملوا الملك بالكثير من الاهتمام . أما ولد عبد الرحمن الذي أدهشه وأمتعه هذا التغير في لهجة مخاطبية ، اللهجة المختلفة تماماً عن تلك . المناقشات الصاخبة التي عرفها معهم حتى ذلك الوقت ، فقد و جد الفرصة مناسبة للإفادة من ميولهم نحو المصالحة ليعمل على توسيع الحوار وتصفية كل الأمور مرة واحدة ، في مفاوضة شاملة لا تتناول قضية عدن وحسب بل كل القضايا التي ما تزال عالقة بينه وبين إنكلترا .

لقد وافق على عقد معاهدات حسن جوار مع فيصل وعبد الله وتعهد بالامتناع عن مهاجمة العراق أو شرقي الأردن . كما قبل أيضاً بأن يجلو عن اليمن ويدع الإمام يحي في مكانه مع أطبائه ومنجميه وطهاته شرط أن يلغي هذا الأخير الاتفاق السري الذي يربطه بموسوليني [1] . وأن يوقع معه على معاهدة صداقة تشمل ما يلي :

١) أن تتبع صنعاء في السياسة الخارجية منذ ذلك اليوم الخط الذي تتبعه الرياض .

٢) ان في وسع اليمنيين التعاقد على الإنضواء لفترة طويلة في صفوف الأخوان (لقد كان مصدراً للتجنيد بالغ الأهمية بسبب كثافة السكان في اليمن . وبذلك يصبح ما يفيض من سكان هذه البلاد مورداً لتضخم المستعمرات الزراعية في الداخل بدلاً من أن يهاجروا في غير نظام أو يزيدوا عدد البدو في الصحراء).

٣) أن يسمح للوعاظ الوهابيين بالتعليم بحرية في طول البلاد وعرضها . وهكذا يكون الإمام يحي قد عرّي من ملكيته للبلاد رغم المظاهر المخالفة لذلك .

---

١) منذ تلك الفترة كان موسوليني يحاول أن يكون له موطيء قدم في البحر الأحمر . وكان يفكر ، كما يبدو ، في استعمال اليمن كقاعدة انطلاق له من أجل القيام بفتحه القادم لبلاد الحبشة .

وبعد تصفية هذه القضايا ، انتقل المتفاوضون إلى القضايا الأخرى الخاصة بالجزيرة العربية . فوافق ابن سعود على إلغاء اهتمامه بالشريطين الطويلين من الأرض التي تحاذي شبه الجزيرة في جنوبها الشرقي، وعلى طول المحيط الهندي : حضرموت وعمان إن تلك المناطق غير المزروعة والقليلة السكان والتي تمثل إمتداداً لصحراء الربع الخالي ، لم تكن تحتوي على تجمعت مدينية .

ففي خارج مسقط ، عاصمة عمان ، لم تكن ترى غير قرى متباعدة ، مبنية من الآجر واللّبن ، حيث يحيا جمهور من الصيادين حياة بائسة . هذه البلاد لم تكن تثير في نظر ابن سعود غير اهتمام ضئيل جداً [١] .

كما اتفق الطرفان على الإمارات المتصالحة – عمان . إن هذه المنطقة الصغيرة بمساحتها التي لا تزيد على ١٥،٠٠٠ كيلومتر مربع وسكانها الذين لا يزيدون على ٨٠٠٠٠ ، والتي تمتد في محاذاة الخليج العربي، تحتوي على الساحل الغربي لشبه جزيرة راس مسندم وجزء من الشاطيء الشرقي من دبّا إرى راس الكلبة . لقد كانت مؤلفة من مجموعة من الأمارات الوطنية المرتبطة بمعاهدة حماية بريطانية [٢] .

قبل ابن سعود الاعتراف بتلك المعاهدة وتعهد بعدم الإعتداء على سيادة الحكام المحليين . كما أن حلاً مثله قد جرى تبنيه فيما يتعلق بسلطنة قطر (٢٠٠٠ كيلو متر مربع ٢٥٠٠٠ من السكان) وهي تشغل من الخليج العربية شبه الجزيرة التي تحمل اسمها.

وفي مقابل هذه التنازلات ، يحتفظ المنتصر في الطائف بالحجاز وعسير . أما حقه في إدارة المدينتين المقدستين فلا يجادله فيه أحد . يضاف إلى ذلك أن ابن سعود طلب من انكلترا أن تعترف به ملكاً للجزيرة العربية وأن تدعو الدول الأخرى إلى أن تحذو حذوها . فأعلنت الحكومة البريطانية عن استعدادها " لدراسة هذا الطلب بكل العطف الممكن" .

١) مما يثير الفضول أنه لا يوجد أي تأثير متبادل ، أدبي أو سياسي ، بين هذه البلاد وبين بقية شبه الجزيرة . فحضرموت بصورة خاصة تمثل من الناحية التاريخية جزءاً من مجموعة الجزر المنتشرة في جنوب شرقي آسيا . ان حضارتها أشبه بحضارة جاوا منه بحضارة الجزيرة العربية . (أنظر ، ت . أ . لورانس ، أعمدة الحكمة السبعة ، ص : ٤٥).

٢) أبوظبي ، دبي ، شارجة ، رأس الخيمة ، عجمان ، أم القوين ، كلبة .

حينما فتح محمد مكة وأصبح سيد الحجاز ، تقبل تحية كل القبائل العربية ، التي جاءته خاضعة لسلطانه الروحي والزمني (٦٣٠ - ٦٣١) . ان ذلك العام الذي سجل لأول مرة في التاريخ وحدة شبه الجزيرة العربية تحت سلطان رجل واحد ، سمي من قبل الرواة " عام السفارات " ورغبة منه في التشبه ، مرة أخرى بالمثل النبوي وإحياء ذكرى هذا القائد السابق العظيم ، وجه ابن سعود دعوة إلى " جمعية عامة للبدان العربية " تعقد في الرياض خريف عام ١٩٢٨ ، ودعيت كل القبائل في المملكة والمدن والقصبات لإرسال وفود عنها .

إن عبد العزيز ، باتخاذه هذا القرار لم يكن فقط خاضعاً لرغبته في إثارة الخيال عند رعاياه : بل كان قراره يتجاوب في الوقت نفسه مع ضرورات السياسة الداخلية .

وكان ولد عبد الرحمن بانشغاله بغزو الحجاز وعسير بقي غائباً عن الجزيرة العربية الوسطى مدة عامين كاملين . وخلال هذا الوقت كانت مقاطعات نجد وحائل ، والأحساء والعتيبة تحكم وتدار من قبل مساعديه . ورغم أنه جرى اختيارهم بعناية تامة فان بعضهم لم يكن على مستوى العمل الذي وكل إليه . لقد أحدثت إداراتهم انتقادات كثيرة وسببت كثيراً من الإستياء والسخط . وفي بعض المناطق كان السكان يقفون عند حافة الثورة . ولم يكن الأخوان المنشغلون بمهماتهم العسكرية هناك للحفاظ على الهدوء . فنشأت عن ذلك حالة عامن من الضيق والانزعاج . عرضت استقرار المملكة للخطر . وعلى ذلك جاء الوقت لكي يسترد الأمور ويضعها بين يديه .

كان افتتاح الجمعية قد عين لليوم الثامن من أكتوبر (تشرين الأول) . فشوهدت خلال الأسبوع الأول من الشهر وفود قادمة إلى العاصمة من كل زوايا الجزيرة العربية . وفي اليوم المعين ازدحم جمهور كبير تجمع أفراده أمام القصر الملكي . لقد كان هناك ما يقرب من ستين ألفاً من الناس . وكان التوافقد من الكثرة بحيث فرض على المسؤولين أن يأمروا بفتح الحاجز الحديدي لمحل إقامة الملك فتدفقت الجماهير حتى بلغت الحديقة المجاورة . أما وسط

المدينة فقد اسود لونه من الناس . فتجمعت طوائف منهم عند الشرفات والنوافذ وفوق الأشجار وحتى على سطوح المنازل المجاورة . فالرياض لم تعرف أبداً مثل هذا الدفق من البشر منذ تأسيسها حتى ذلك اليوم .

هذه الجماهير كانت على صورة الجزيرة العربية كلها . فهناك كبار وجهاء المملكة ، والعلماء ، والوعاظ ، وأمراء القبائل والحكام وأمراء البيت السعودي ، ثم وجهاء المدن ، وشيوخ العشائر ، وقادة الأخوان ، النقباء من الضباط والجنود يحاذون القرويين وأصحاب الحرف والرعاة والمزارعين .

إن هؤلاء الرجال القادمين من مناطق مختلفة ومن طبقات متباينة ، لم يكونوا كلهم متأثرين بنفس العواطف . بعضهم صادق الولاء للملك ، وبعضهم الآخر أقل تأييداً له . ولم يكن أكثرهم قد رآه بعد . لقد قطعوا مئات الكيلومترات من الصحراء استجابة لندائه وانتظروا بصبر نافذ أن يسمعوا ما كان يريد أن يقوله لهم .

ظهر ابن سعود عند أعلى درجات القصر . فانتصب أمامهم بكل قامته ، وراح يجيل عينيه في الناس بنظرة مسيطرة وبدأ يتكلم .

– " قال : لا قوة إلا بالله وحده ! أذكروا جيداً ! أنني عندما قدمت إليكم ، وجدتكم متنازعين منقسمين بعضكم على بعض ، تتقاتلون ويدمر بعضكم بعضاً دون هوادة ولا توقف . كل الذين يسيرون أموركم ، عرباً كانوا أو أجانب، كانوا يتآمرون عليكم ويغذون خلافاتكم . ليمنعوكم من أن تتحدوا وأن تبلغوا ما تحتاجون إليه من القوة !

" وعندما قدمت إليكم ، كنت ضعيفاً ، لم تكن لي أية قوة ، غير الله عز وجل ، إذ لم يكن معي غير أربعين رجلاً ، كما تعرفون هذا جميعاً . ومع ذلك ، فقد صنعت منكم شعباً ، منتقلاً من نصر إلى نصر – بل صنعت منكم شعباً عظيماً .

" إن ما دفعني إلى دعوتكم ليس هو الخوف من رجل معين فأنا لا أخاف أحداً قط . لقد قاتلت وحدي ، في الماضي ، دون أي عون غير عون الله . وأنا لا أخاف من مجابهة جيوش أعدائي ، لأنني أعلم أن الله سيمنحني نصره.

" إن ما حداني إلى تجميعكم هنا ، هو الخوف من الله ، نعم – الخوف من الله والخوف من السقوط في خطيئة الكبرياء . انهما هما اللذان يدفعانني لمخاطبتكم هذا اليوم . ولذلك فإني أريد أن أتكلم بقلب مفتوح.

" لقد سمعت أن بعضكم يعترض علي ، وعلى نوابي وحكامي . هذه الإعتراضات أريد أن أعرفها لكي أقوم بواجباتي كاملة نحوكم ، وتغفر لي خطيئاتي يوم أقف بين يدي الله.

" لكن هناك مسألة يجب تصفيتها قبل المسائل الأخرى . لأنها مهيمنة عليها جميعاً . إذا كان بينكم من يريد أن يوجه لوماً إلي ، فليقل ما عنده بكل صراحة وليذكر ما إذا كان راغباً في أن أستمر في حكمكم ، أو إذا كان يؤثر أحداً آخر في مكاني . فأنا لن أسلم سلطاني أبداً لأي واحد يريد أن يسلبني إياه بالترهيب أو بالقوة . ولكنني أضعه بكل طواعيه بين أيديكم فيما إذا كانت هذه هي أمنيتكم لأنني من جهتي لا أرغب أبداً في حكم شعب لا يتمنى أن أكون ملكاً عليه !

" أنظروا ! هنا يوجد أمامكم أكثر أولادي تقدماً في السن : سعود ، فيصل ، عبد الله ، منصور ، وكل الأعضاء الذكور من أفراد عائلتي . اختاروا زعيماً من بينهم . فأياً كان الرجل الذي تختارونه فانني سأنحني أمامه وأخدمه بولاء صادق.

" والآن ، صرحوا بما عندكم ! فأنا أنتظر قراركم ! " .

سكت ابن سعود ، ليسمح للجمهور بالتعبير عن رأيه .

لكن الجمهور الذي فوجيء بهذا الاستهلال بقي صامتاً لفترة من الزمن . ثم ارتفعت دمدمة . واشتدت ونمت وتصاعدت كأنها الموج وانتهت إلى صخب ممتد طويل.

– " نحن متفقون جميعاً معك يا عبد العزيز ! ونحن لا نريد شخصاً غيرك ليقودنا ! ".

رفع ابن سعود ذراعيه ليعيد الصمت إلى الساحة.

– " أجابهم قائلاً : أشكركم على ثقتكم وسأعمل وسعي للحفاظ عليها . لكن يجب ألا يبقى أي ظل بيننا . أريد أن يكون كل شيء واضحاً دون أفكار خفية.

" هل تذكرون كلمات الوارث الأول لمحمد عليه السلام ، الخليفة الكبير أبي بكر حينما تلقى البيعة من أصحاب النبي ! –

قال لهم : أما بعد أيها الناس فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم فان أحسنت فأعينوني وان أسأت فقوموني . الصدق أمانة والكذب خيانة . والضعيف فيكم قوي عندي حتى أرجع عليه حقه ان شاء الله. والقوي فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه ان شاء الله. لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا خذلهمالله بالذل. ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا عمهم الله بالبلاء . أطيعوني ما أطعت الله ورسوله . فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم.

" وعلى ذلك فإنني أردد اليوم هذه العبارات أمامكم ، من أجلي أنا ومن أ جلكم أنتم. الأزمان تتغير لكن الواجبات لا تتغير أبداً . فإذا كان بينكم من أؤذي في نفسه ، أو من له اعتراض على بعض ما فعلت أو شكوى يوجهها إلي فليعرب عن ذلك بكل صراحة . انني لن أحفظ له ضغينة على ذلك ، أكان الأمر متعلقاً بشؤون هذه الدنيا أو العالم الآخر . أما الشكاوي فستحول إلى قضاة الشريعة الذين سيتفحصونها دون تحيز . فإذا أدانوني أو وجدوا خطأ في تصرفي ، فإنني سأضع نفسي تحت تصرف الشريعة العامة ، كأي إنسان من أناس هذه المملكة.

" من أجل ذلك ، تكلم يا شعبي ! قل دون تحفظ ما تحمله في قلبك ! وعرفني بما تعترض به على حكامي ! فأنا مسؤول عنهم ما دام أنني قد عينتهم . وأنتم يا " علمائي " تكلموا كما لو أنكم في يوم الدينونية، حينما ستمثلون بين يدي الله ، لتقولوا له ما فعلتم برسالتكم . تكلموا ولا تخافوا أحداً ، أكان ضعيفاً أو قوياً !"

في الأيام التالية ، كان من لديهم شكاوي يقدمونها قد سمعوا من قبل محكمة تأسست لهذا الغرض بخاصة. وفي أثناء ذلك الوقت ، بادر رؤساء الوفود ، المجتمعين في لجان ، إلى تدارس الوجوه المختلفة للإدارة الملكية مع ابن سعود. تنمية المستعمرات الزراعية ، أعمال الري ، الضرائب ، إدارة الحكام ، تجنيد الأخوان ، إدارة الأموال البلدية ، الأمن في الطرق ، كل شيء تمت غربلته وفحص بدقة تامة . ثم لم يحجب عن تحقيقات المفوضين أي وجه من وجوه النشاط عند الملك.

إن العرب أطفال كبار . وابن سعود يعرف نفسيتهم . كان يعلم أنه كلما بالغ في السماح لهم بمناقشة أعماله وانتقادها ، ظهروا بالتالي أكثر طاعة ووداعة . لكنه منعهم من الاشتغال بالقضايا المترتبة على المنازعات بين القبائل أو بين الأفراد . لقد كان يعتبر أن هذه المسائل لا تخص أحداً سواه . وكان يصر على الاحتفاظ بحقه في الفصل فيها بنفسه.

كان الجمهور قد تأثر تأثيراً طيباً بخطاب الملك . كما أن العقوبات التي نفذت ضد بعض الحكام ، الذين اقترفوا أخطاء في المقاطعات التي وكلت إليهم حراستها وغياب كل الإجراءات الثأرية ضد الشاكين ، قد زادت في فتنة الملك له . لقد أثبتت له أن عبد العزيز يفي بتعهداته ويعرف كيف يجعل أعماله متوافقة مع وعوده.

هذا وقد تميز اليوم لاذي ختمت فيه أنشطة الجمعية بمظاهر دينية وعسكرية هامة . فأديت في المسجد صلاة الشكر . وبعد أداء الصلاة ، أقدم مجموع القدماء من الأنصار وفقهاء الشريعة على إعلان قرار الشعب في المناداة بابن سعود ملكاً للجزيرة العربية وحامياً للأماكن المقدسة.

وعندما انتهت مراسم الاحتفال العظيم وظهر حفيد سعود الكبير في فناء بيت الله ، يحبط به أولاده ، ويمسك بيده سيف الريحان ويحمل على جسده شارات ملكيته الجديدة ، استقبله جمهور الناس بهتافات جنونية . ثم أعلن عبد العزيز من أعلى الدرجات في سلم المسجد وبصوت قوي بأنه لن تكون بعد اليوم ممالك متمايزة لنجد والحجاز والأحساء ، بل دولة واحدة تحمل إسم " العربية السعودية ".

ثم انتقل الملك إلى ميدان الرياض الكبير ، حيث جمعت المفارز المرسلة من قبل التشكيلات المختلفة للأخوان . فقدم إلى رجالها أعلاماً جديدة ووزع الهدايا الثمينة على العلماء والحكام والقادة الكبار والضباط والجنود الذين تميزوا بمواقفهم في المعارك الأخيرة.

لقد أعطاهم تبعاً لمراتبهم واستحقاقاتهم ، سيوفاً وخناجر دقيقة الصنع ، وسجادات للصلاة أو عباءات مطرزة ، أو رحالاً [١] مرصعة بالذهب والفضة ، أو كؤوساً مطلية بالميناء أو مصنوعة من رخام الأونيكس ، وبزاة للصيد وبنادق وغير ذلك من الأسلاب المختلفة التي تم الحصول عليها من الكنوز التي تركها الحسين وراءه.

كان الهواء قد أصبح شديداً ، والشمس ساطعة ، وضوء الفصل الشفاف يزيد من البريق الخلاب للأزياء المختلفة، التي انتشرت في كل مكان حول الساحة وعلى " مصاطب " القصر : أما أزياء الخدام الملكيين فقد كانت أرجوانية اللون أو بلون الليمون الحامض قد أثقلتها مطرزات ذهبية عند الرقبة والمعصمين ، وأما أزياء الحرس البدوي ، بمعاطفهم الدمشقية العريضة ، والظاهرة بزخارفها المصنوعة من الذهب ، وبأوشحتهم البيضاء والقرمزية أو ذات اللون الأخضر اللوزي . كل هذا كان يقدم مشهداً باذخاً مترفاً بألوانه الرقيقة . وقد صرح شاهد عيان بعد ذلك قائلاً :

١) رحال مفردها رحل وهو عدة الحصان.

" إن حركة الحراس الملكيين وهو ينحنون عند مرور الملك أمامهم تذكر بروضات من زهر التوليب ، المتموج تحت النسيم ".

لم تكف حماسة الجمهور عن الازدياد والنمو . كانت الهتافات تنطلق مع كل هبة تقدم لمستحقها . وكان الحاضرون يشيرون بالأصابع إلى أبناء الملك ، سعود ، فيصل ، منصور ، عبد الله ، وإلى أشهر الأبطال في الجيش المنتصر : مطيب ، مؤسس الأرطارية ، ثم ابن جلوي الذي استولى على الرياض والدويش الذي احتل المدينة ، ولؤي الذي ظفر بمدينة مكة ...

أما الوقت الذي لم تعد فيه فرحة الجماهير تقف عند حد معين فهو ذاك الذي رؤي فيه ممثلو البلاد الأجنبية التي اعترفت بالدولة السعودية الجديدة ، يتقدمون عند مدخل القصر . لقد كان فيهم الوزراء المفوضون والقناصل من قبل أكثر الدول الكبرى : من بينهم ممثلو تركيا وايطاليا وألمانيا والولايات المتحدة وهولندا واليابان ودول أخرى غيرها [١].

وعلى رأس هذه الجمهرة من الموفدين يأتي ممثل صاحب الجلالة البريطاني ، ولم يكن هذا الممثل غير السير جيلبرت كلايتون نفسه [٢] .

إن انكلترا بارسالها مثل هذه الشخصية المتميزة إلى الرياض قد أرادت أن تتصرف على نطاق واسع. فربما كانت حكومة لندن تأمل في الدقيقة الأخيرة ، أن تعطي ما يجري ظاهراً من الانتصار الإنكليزي ، مع العلم أن الانتصار هو انتصار لابن سعود في الحقيقة والواقع ؟ وربما كانت هناك مشاغل أخرى ساعدت على تفسير هذه الحركة . إن داوننغ ستريت رغم مبادرتها السريعة للإعتراف بابن سعود ملكاً على الجزيرة العربية كانت قد سبقت من قبل قوة منافسة عادت إلى الظهور ، على مسرح الشرق الأوسط ، بعد كسوف وقتي . لقد تم الاعتراف بالدولة السعودية من قبل الاتحاد السوفياتي قبل الانعقاد الكبير لاجتماع الرياض بثلاثة أسابيع.

١) لم تكن فرنسا قد مثلت بعد.

٢) كانت مهمة السير جيلبرت كلايتون وقتية . أما أول وزير مفوض انكليزي أنتدب رسمياً لدى ابن سعود فقد كان السير أندرو ريان . لقد جاء إلى الرياض في ٢٤ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٣٥ ، ليحمل إلى ملك الجزيرة العربية شارات وشاح الصليب الكبير الذي جعل من ولد عبد الرحمن " ابن عم في السلاح " لجورج الخامس.

لقد ظهر ابن سعود من تخوم سوريا إلى تخوم المحيط الهندي ومن البحر الأحمر إلى الخليج العربي سيداً للجزيرة العربية . نعم ، إن مملكة جديدة قد ظهرت في خارطة العالم.

الباب الرابع

العربية السعودية

(١٩٢٨ – ١٩٤٥)

غادر الحسين الحجاز وهو في حال من التلف يصعب وصفها.

كل شيء كان يجب أن يعاد صنعه وترتيبه ، الأموال ، الشرطة ، شبكات الطرق ، الصحة ، الإدارة البلدية ، ثم تنظيم مواسم الحج. إنها مهمة تزداد صعوبة وشدة بسبب من أن هذه البلاد ، التي كانت كل أنشطتها خاضعة لحضور بيوت الله ، تختلط فيها المسائل السياسية والإقتصادية والدينية وتتداخل على نحو معقد جداً.

بدأت الصعوبات تظهر في اليوم التالي للفتح . ولم يهمل شيئا من الأشياء للسماح للمفوضين بالعمل في أحسن الظروف الممكنة . كانت ثكنة المدفعية القديمة ، التي بناها الأتراك من قبل فوق قمة لهضبة عارية تشرف على الباب الغربي، قد أعيد بناؤها وجددت تجديداً كاملاً . لقد صبغ البناء مرة أخرى وزين بألوان نجد . كما أعد شريطان طويلان في جانبي الطريق ، زرعا شعيراً وجرى إرواؤها باستمرار من أجل أن تبسط الخضرة الطرية للنبتات الفتية – رمز نهضة الإسلام– صورة ممتعة للعين تتعارض بطبيعتها مع الجهامة الغبراء للبرية المجاورة . وأخيراً أعد برنامج للأعمال ، لتيسير مهمة المؤتمرين.

كانت الجلسات تعقد في قاعة الشرف ، وقد رفع عند طرفها منبر تعلوه ظلة ذهبية وخضراء . وكان عدد أعضاء المؤتمر، القادمين من كل البلاد الإسلامية قد بلغ السبعين وحسب . بينهم موفد تركيا الكمالية ، أديب سرفت، الذي كان يحدث تأثيراً عميقاً وسط المتعممين بالعقال واللابسين للعباءات بسترته وقبعته المستديرة المنتفخة [1] . ولم يكد المفوضون يستقرون في مقاعدهم حتى دخل ابن سعود بخطوات سريعة وجلس فوق المنبر. ثم قرأ مستشاره الأول حافظ وهبه باسمه، خطاب الترحيب.

---

١) أنظر مصطفى كمال أو موت امبراطورية ، ص : ٣٨٤.

" يقول الفرمان الملكي : كنت رجوتكم بعد الإستيلاء على مكة بقوة الأخوان أن تأتوا إلى هنا لتدرسوا معي الإجراءات التي يليق بنا اتخاذها . منذ ذلك اليوم ، مضى عام كامل ، وجدتم فيه فسحة كافية من الوقت للتفكير في هذه المسألة . وقد دعوتكم للإجتماع مرة أخرى ، لكي تحيطوني علماً بنتائج أعمالكم.

إنني أنتظر منكم، أن تقولوا لي كل ما يمكن وما يجب أن يعمل لرفع المستوى الأدبي وتحسين الوضع الديني في الحجاز، وأن تبادروا إلى اتخاذ كل القرارات التي يمكن أن ترضي الله والناس في هذا الميدان ، من عند أنفسكم".

ولم يكد حافظ وهبة ينهي قراءته حتى انحنى ابن سعود أمام المؤتمرين بكل احترام وغادر القاعة ليسمح لهم بإجراء مناقشات ومحاورات في إستقلالية تامة . والجدير بالذكر أن الخطاب كان واضحاً جداً : انه بقصره المناقشات على " المسائل الأدبية الدينية " يكون الملك قد ادخر لنفسه حق البت في المسائل السياسية والإدارية .

ومن الطبيعي ألا يعجب الموفدون بهذا النوع من التحديد. فصرحوا أن ابن سعود يعتدي على إمتيازاتهم ويغتصبها . وبرفضهم للبرنامج المعد من قبل الملك ، راحوا يحاذون ، بطريقة مباشرة تقريباً ، المسائل ذات العلاقة بالإدارة المدنية ، واقترحوا بناء خط حديدي يصل جدة بمكة . فكلف ابن سعود حافظ وهبه بأن يشكرهم على هذا الاقتراح ، ولكنه جعله يلفت نظرهم بأنهم قد خرجوا عن إطار المؤتمر. ثم عرض الموفدون اقتراحاً بجمع مبالغ كبيرة من المال في بلادهم المختلفة وادخارها لصيانة بيوت الله شرط أن تدفع لهم الأموال الناجمة عن رسوم الحج كاملة . فأعلن ابن سعود موافقته التامة على هذه البادرة الكريمة ، لكنه طلب منهم أن يجمعوا أولاً الأموال الخاصة بهذه المسألة ، أما الرسوم الناجمة عن الحج فإن تقرير وجهتها

يـدرس فيمـا بعـد . كـان يعلـم أن اقـتراح الموفـدين لم يكـن غـير عمليـة " بلـف " وأنهـم ليسـوا بالقـدر الذي يسمح لهم بجمع الأموال الضرورية .

وكلمـا تلاحقـت الجلسـات وتتابعـت اللقـاءات ، كـان ابـن سـعود يفقـد ثقتـه في أعضـاء المـؤتمر قلـيلاً قلـيلاً . إن هـؤلاء الموفـدين الـذين يفتقـدون التفكـير العملـي قـد أظهـروا أنهـم غـير جـديرين بحـل أيـة مشـكلة مـن المشـكلات العارضـة . ثم حـدث العكـس إذ ظهـر غـرورهم واضـحاً في عـين الشـمس. كـل المناقشـات كانـت تهـبط إلى مسـتوى المنازعـات الشخصـية ، حيـث كانـت المسـائل الخاصة بالأنانيات تنتزع لنفسها المكان الأول.

وكمـا كـان الشـأن في العـام الماضـي ، فـان الموفـدين الهنـود ، الغاضـبين مـن أن يـروا أنفسـهم محـرومين مـن الوضـع الممتـاز الـذي يطمحـون إليـه بحقهـم الشـرعي ، حـاولوا جاهـدين مضـاعفة الأزمـات وتوجيـه الاعتراضـات . وقـد اقـترح أحـدهم انتخـاب أديـب سـرفت رئيسـاً ، في الوقـت الـذي كـان يشـغل فيـه أحـد الحجـازيين المقعـد الرئاسـي . وآخـر أصـر علـى الكـلام بالأورديـة أو الإنكليزية ، مع العلم أنه قد تم الاتفاق من قبل على إجراء المناقشات باللغة العربية وحسب.

ثم راحـوا ينتقـدون كـل شـيء بتحيـز واضـح : العقيـدة الوهابيـة ، وإدارة أمـوال الحـج ، وتنظـيم المـؤتمر ، بـل حـتى مبـدأ عقـد الإجتماعـات السـنوية ، المقـترح مـن قبـل ابـن سـعود . أمـا الأتـراك والمصـريون فـإنهم بادروا بـدورهم إلى عرقلـة الأعمـال وتخريـب الجلسـات . وبعـد خمسـة عشـر يومـاً لم تسجل الأعمال خطوة واحدة إلى الأمام .

هـذه المنازعـات أحـدثت في نفـس ابـن سـعود خيبـة شـديدة جـداً . لقـد كـان يحلـم بأن يجعـل مـن هـذه الاجتماعـات قاعـدة أو منطلقـاً لبرلمـان إسـلامي كبـير مشـترك ، حيـث تجـري مناقشـة المعضـلات الأدبيـة والدينيـة الـتي تهـم ٤٠٠ مليـون مـن المـؤمنين في جـو حافـل بالحـرارة والأخـوة . كمـا فكـر بجعـل المـدينتين المقدسـتين في أرض ذات إسـتقلال ذاتي بحيـث تصـبح ملكيـة مشـتركة لأتبـاع محمـد في العـالم كلـه . لكـن المنازعـات التافهـة الـتي اختصـمت فيهـا الوفـود المختلفـة لم تظهـر

لـه خطـأه الكبـير وحسـب : بـل كشـفت لـه أيضـاً بطريقـة مأسـاوية عـن شـدة الانقسـامات في العـالم الإسلامي .

ذلـك أنـه ، وهـو المتعـود علـى الطوائـف الدينيـة الصـغيرة للجزيـرة العربيـة الوسـطى ، قـد مـد هـذه الصـورة فـوق جملـة العـالم الإسـلامي وظـن أن هـذا الكيـان العظـيم خاضـع لطمـوح مشـترك نحـو تحقيـق الوحـدة . لكـن المؤسـف أن هـذا الكيـان الكبـير كـان متهافتـاً ضـعيفاً وكـأن قـد خبـت نيرانـه وأظلمـت أنـواره . كمـا كـان قـد اسـتدعى إلى مكـة أولئـك الـذين يتكلمـون باسمـه ، وفي ظنـه أنـه علـى علاقـة برجـال ملـؤوا حكمـة وتجربـة ، فلـم يلبـث حـتى وجـد أمامـه جمهـوراً مـن الثـرثارين الأدعيـاء المتخـالفين ، لا يشـغلهم غـير اشـباع أطمـاعهم الشخصـية الصـغيرة . لقـد كانـت وحـدة العـالم الإسـلامي أقـل همـومهم شـأناً . إن خطـاباتهم ، وعقائـدهم ، وولاءهـم نفسـه ، لم تكـن غـير ظاهر من الضلال وحسب . ولم يكن ابن سعود يرى غير الفراغ وراء قناع الكلمات الكبيرة .

خـرج ولـد عبـد الـرحمن باسـتنتاج واحـد هـو أنـه لا يسـتطيع ، بـل لا يجـب أن يرفـع يـده عـن أي مـن امتيازاتـه الخاصـة . ان مـن حقـه هـو وحـده ، باعتبـاره فـاتح الحجـاز وسـيده ، أن يتـولى إدارته.

المـؤتمر يـراوح في مكانـه ويبـدو وكأنـه لـن يبلـغ نهايتـه . وفجـأة ، وبتحـريض مـن موفـد أفغـاني ، وضـع المـؤتمرون في جـدول أعمـالهم اليـومي المناقشـة الـتي تتنـاول اسـتقلال الأمـاكن المقدسـة . فقـرر ابن سعود حضورها ، ذلك لأن هذه المسألة موجهة نحوه شخصياً .

ولم يكد يصل إلى قاعة الإجتماعات حتى صدم بعنف من قبل أحد الموفدين .

- " لمـاذا تجلـس أنـت تحـت هـذه القبـة ؟ سـأله وهـو يشـير بيـده إلى الظلـة الخضـراء الـتي تعلـو المنبر.
- أجاب ابن سعود : " لأنني الملك " .

- فأردف عضو الوفد قائلاً : " وبأي حق تكون أنت الملك ؟ " وهنا وجد ابن سعود أن الوقاحة قد جاوزت كل الحدود . فنهض واقفاً بكل قامته ينظر إلى الجميع نظرة فاحصة .
- ثم سألهم بصوت مدوٍ قوي " من منكم يستطيع أن يضمن السلامة للأراضي المقدسة ضد كل تدخل أجنبي ؟ " .

راح الموفدون يتبادولون نظرات محرجة ثم وضعوا أنوفهم في ملفاتهم .

- " إنني أكرر سؤالي : من منكم يستطيع أن يضمن السلامة للأراضي المقدسة ضد كل تدخل أجنبي ؟ " .

ولما لم يجب أحد عن سؤاله :

أعلن ابن سعود بلهجة قاطعة : " أنا هنا وحدي الانسان الحر ! وأنا وحدي بالتالي القادر على فعل ذلك . وإذاً فاعتبروا هذا الاستقلال واقعاً مكتسباً ، ثم لا تكلموني في شأنه بعد ذلك أبداً " .

هكذا أغلق هذا التدخل الحاسم باب المناقشات عند المجتمعين .

لم يكن هؤلاء الموفدين وحدهم يناع بعضهم بعضاً . كانت قوافل الحجاج تفعل مثل ذلك. وكانت خصوماتهم ومنازعاتهم من الحدة بحيث أنها نزلت إلى مستوى الإقتتالات الدامية.

كان عام ١٩٢٧ قد تميز ، فيما تميز به ، بأحداث ذات خطورة خاصة . جرت مناسك الحج في بداية يونيو (حزيران). وقد بدأت القوافل بالتدفق من بلاد فارس وشرقي الأردن ومصر.

وعمـــلاً بتقـــديم قـــديم ،كـــان الحجـــاج المصـــريون ، الـــذين ينضـــم إلـــيهم حجـــاج المغـــرب والنيجـــر وتشـــاد وتيبســـتي يقـــدمون بـــ " المحمـــل " وهـــو صـــندوق مربـــع ، تعلـــوه محفـــة ، ومحمـــول علـــى ظهـــر جمل.

كـــان قبـــل ســـتمائة عـــام ، هودجـــاً لملكـــة مصـــر، شـــجرة الـــدر، أول ملكـــة أجنبيـــة اعتنقـــت الإســـلام دينـــاً ، تواكبـــه في كـــل عـــام ســـرية مســـلحة مـــن الجنـــود المصـــريين، يرافقهـــا مـــدفع . أمـــا القافلـــة فيقودها شخص كبير يدعى " أمير الحج " ينتسب عموماً إلى أسرة الخديوي .

وفي يـــوم العظـــة الكـــبرى – أي يـــوم عرفـــة – الـــذي هـــو أخطـــر المناســـك في الحـــج ، جـــرت العادة في أن ينقل المحمل في موكب كبير إلى عرفة ، مروراً بمنى.

وعرفـــة هـــو ســـهل صـــغير ، محـــاط بسلســـلة مـــن الهضـــاب ، ينتصـــب في وســـطه ، فـــوق أكـــوام مـــن الصـــخور الجافـــة القاحلـــة ، " جبـــل الرحمـــة " . في هـــذا المكـــان الخـــانق المســـور يـــزدحم في بعـــض الأوقـــات خـــلال نهـــار كامـــل ، تحـــت شمـــس شـــديدة الحـــرارة ســـتون أو ثمـــانون ألفـــاً مـــن النـــاس مـــع حيـــوانات ومضـــارب ومـــؤن ، بالإضـــافة إلى حاجـــات تقضـــى ، ونفـــايات بشـــرية أنهكـــت بســـفر طويل وأثيرت أعصابها بالإنفعالات الدينية [١].

في ذلـــك اليـــوم كـــان المصـــريون قـــد بلغـــوا مـــني عنـــد العصـــر وتوقفـــوا فـــترة مـــن الـــزمن عنـــد مـــدخل القريـــة ليســـمحوا للمتخلفـــين أن يلحقـــوا بمـــوكبهم . الحـــرارة شـــديدة ثقيلـــة وهنـــاك عاصـــفة تهـــدد بالهبـــوب وبســـبب مـــن كثافـــة الجمهـــور ،كـــان الجنـــود المصـــريون يقرعـــون طبـــولهم ليلفتـــوا أنظـــار المتخلفين إلى مكانهم.

كـــل شـــيء مضـــى جيـــداً حـــتى ذلـــك الوقـــت ، حـــين أشـــار وهـــابي بأصـــبعه إلى " المحمـــل " وصـــرخ قائلا :

- " هـــذا وثـــن ! لقـــد حمـــل المصـــريون إلى هنـــا وثنـــاً ! لقـــد رأيـــتهم يتعبـــدون لـــه ويضـــربون لـــه علـــى الطبول ! "

ثم أكد وهابي آخر أنه رأى حاجاً يدخن في القاهرة.

---

١) غودفروا دو مومبين : المؤسسات الإسلامية ، ص : ٩٦.

ثم صاح قائلاً : " هؤلاء الناس لا يكنون أي حرمة للعقائد المقدسة ! إنهم وثنيون ، كفرة، غير مؤمنين ولا صادقين ! ".

واقتربت جماعة من المتحمسين المندفعين نحو " المحمل " وبدأ أفرادها يقذفونه بالحجارة. ثم تجمع حجاج آخرون وراحوا يطلقون هتافات معادية . فأحس ضابط المفرزة المصرية بالخوف وأمر رجاله باطلاق النار في الفضاء . وإذا بدويّ رصاص البنادق يزيد الموقف حرجاً ويضاعف إستياء الجمهور . فتضاعفت الصرخات وزادت كلمات التجديف . وخوفاً من أن يغلب على أمره ويجري اجتياحه، طلب قائد السرية من جنوده أن يعدوا المدفع ويطلقوا قديفته على المتظاهرين . فسقط بها مائة جريح وقتل خمسة وعشرون شخصاً بينهم عدد من النساء.

وفوراً ارتفع زئير الغضب من كل مكان . فإذا بجنود الاخوان والنجديين يلجأون إلى السلاح . وازدحمت الهضبات المجاورة ، وقرية منى ، وجبل الرحمة بالرجال الغاضبين ، الذين كانوا يتنادون إلى التجمع لقتل المصريين.

كان ابن سعود في قصر مكة. فلم يكد يعلم بالحادث ، حتى علا حصانه، وصرخ في حراسه الشخصيين أن يتبعوه ومضى مسرعاً حتى وصل إلى منى [١]. فإذا بالوضع بالغ الخطورة ورأى أنه إذا لم يتوصل إلى السيطرة على الموقف وإعادة الأمن إلى رحابه فإنه سيظهر للعالم كله عجزه عن إدارة الأماكن المقدسة ، وسيؤكد الوهابيون رأي خصومهم فيهم : وخلاصته أن وجودهم في مكة هو خطر على الإسلام.

كان الليل قد هبط . والوادي قد اسود لونه بالظلال وبسحابة من الغبار، يميز الناظر من خلالها جماعات متهيجة ثائرة . أما الهواء فقد كان مشبعاً برائحة البارود والدماء.

١) هـ . س أرمسترونغ ، المصدر نفسه ، ص : ٢٠١ – ٢٠٢ .

ترجل ابن سعود عن حصانه وفتح لنفسه طريقاً بضربات سوطه . ثم تقدم الملك العملاق بخطوات واسعة نحو المكان الذي تتمدد فيه الضحايا ، وقد فصل بشدة بين المصريين والوهابيين ثم صرخ في النجديين أن يلتزموا الهدوء . وقد استطاع هؤلاء رغم الرؤية الضبابية للغسق ، أن يتعرفوا إلى عبد العزيز بقامته الطويلة فتراجعوا إلى سفوح الهضاب المجاورة ليشهدوا ما سيجري بعد ذلك.

نظر ابن سعود فيما حوله : كانت الأرض مغطاة بالجثث التي مزقت بصورة رهيبة وقد امتدت خطوط من الدماء السوداء فوق الرمال.

قطب حاجبيه والتفت نحو الضابط المصري وسأله بلهجة غاضبة :

- " بأي حق أخذت على نفسك مسؤولية القتل ؟ هنا توجد حكومة وشريعة . وأنا سلطان هذه البلاد ! ولو لجأت إلي لحسمت الموقف بنفسي ! ".
- قال الضابط بلهجة متعجرفة " لقد أمرت بإيقاف النار احتراماً مني لجلالتك وحسب ، ولولا ذلك ما ترددت لحظة في اكتساح كل هؤلاء الرعاع من الوهابيين !".

امتقع وجه ابن سعود . ذلك أنه كان إماماً للوهابيين والمصري لا يجهل هذه الحقيقة . أنه لم يحدث أبداً أن انساناً جرو على توجيه مثل هذه الاهانية إليه ! فاستشاط غضباً . وخطا خطوة إلى الأمام وجمع قبضتيه . المصري الوقح والملك كانا وجهاً لوجه ، بينهما مسافة مترين وحسب . أمسك الجمهور بأنفاسه ، متسائلاً : ماذا سيحدث بعد ذلك . أغمض ابن سعود عينيه . ودماؤه تخفق خفقاناً شديداً في رقبته وعند صدغيه . هل يقتل الرجل الذي كان يهين، عبره ، دين آبائه ؟ لكنه في هذه الحالة يكون قد أسال دماً حول بيت الله ، ومن ثم يجعل

حـــامي الـــديار المقدســـة مـــن نفســـه مســـؤولاً عـــن جريمـــة إنتهـــاك لحرمـــة هـــذه الأرض ! ثم راح يأخـــذ أنفاســـاً عميقـــة ، يحـــاول بهـــا جاهـــداً أن يســـيطر علـــى نفســـه ويســـكت عنـــه غضـــبه ، يحـــاول بهـــا جاهـــداً أن يســـيطر علـــى نفســـه ويســـكت عنـــه غضـــبه ، ثم تـــرك ذراعيـــه تســـقطان وانفرجـــت قبضـــتاه قليلاً قليلاً . وبعد فترة من الصمت :

- قـــال وهـــو يمســـك نفســـه : " لـــيس هـــذا هـــو المكـــان الـــذي يصـــلح للتـــبجح والتفـــاخر . أنـــه أرض مقدســـة كتـــب عنـــد عتبتهـــا : لا تقتلـــوا أبـــداً ! نحـــن في داخـــل الحـــرم [١] وأنـــتم ضـــيوفنا، ولولا ذلك لأنزلت بك العقوبة التي تستحقها ! ".

نادى الملك على رجال حرسه، وأمر برفع الجثث ونقل الجرحى إلى أقرب مستشفى . ثم أمر الضابط المصري بتجريد رجاله من سلاحهم، وأقام حاجزاً من الأمن بينهم وبين الوهابيين لتجنب إصطدام جديد. ثم امتطى حصانه وعاد ببطء إلى مكة. بينما هدأ الجمهور فجأة وتفرق في ظلام الليل.

وفي اليوم التالي ، طالب ابن سعود الحكومة المصرية بالتعويض عما حدث. فرفضت الحكومة طلبه . لكن شريف مكة الجديد ظهر صلباً شديد المراس . إن الحفاظ على الأمن في الأماكن المقدسة هو من إختصاصاته الشخصية . وهو غير راغب في السكوت عمن انتهك سلطته وتجاهل حقوقه . وقرر منع القوافل القادمة من القاهرة من دخول الأراضي المقدسة ما دام أنه لم تتحقق ترضيته.

وأخيراً ، وافقت الحكومة المصرية على الرضوخ له ودفعت التعويضات اللازمة لأسر الضحايا.

الإصطدامات الدامية بين الحجاج ، والمناقشات الصاخبة بين المؤتمرين كل هذا كان يثبت لابن سعود أن عليه أن يتصرف ويعمل دون أن يسأل الوفود الأجنبية رأيها في أي موضوع إن نظام المناقشات الحرة قد يكون صالحاً لبلدان أخرى : لكنه لا يساوي شيئاً بالنسبة للعرب ذوي العواطف المتهيجة والمتقلبين.

---

١ — " إن حدود الأرض المقدسة " الحرم " تقف تبعاً للتقاليد الإسلامية ، عند النقاط التي توقفت أمامها الشياطين وهي تنظر إلى النار التي أوقدها إبراهيم الخليل فوق قمة جبل قبيس فوق المدينة المقدسة فهي في الحقيقة داخلة في أرض الحرم . عند هذه الحدود، وضعت أكوام من الحجارة ثم أبدلت بركائز أو أعمدة ، إشارة إلى مدخل الحرم ... إن حرم مكة تحميه زواجر رادعة : فلا تسال فيه الدماء ، حتى دماء الحيوانات ، باستثناء بعض الأنواع المضرة ، كما يجب الامتناع عن قطع النباتات التي تنمو فيها بصورة طبيعية ، بل يجب أن يحترم تراب الأرض بحيث يمنع نقله خارج الحرم . هذه الزواجر والموانع عامة تطبق على الجميع وهي مستقلة تماماً عن الأوامر التي تنظم مناسك الحج . وهي تشرح معنى تحريم الدخول إلى الأرض المكية على غير المسلمين تحريماً قاطعاً ، " أنظر م . غودفروا دو مومبين المؤسسات الإسلامية ، ص : ٩١ ".

إن كرومويل الجزيرة العربية ، كما يدعوه فيلبي ، كان له من الثقة بمعاصم فرسانه المتطهرين فوق ما له منها بمحاورات المفكرين.

إن إصلاح تلك المقاطعة المتروكة منذ سنوات طويلة تحت رحمة المهربين واللصوص لا يكون بإلقاء الخطب وقراءة المحاضرات.

والبناء الصلب القوي لا يكون إلا انطلاقاً من القاعدة . والقاعدة هي، كما كانت دائماً النظام والأمن العمومي.

الحياة في الحجاز عهد الحسين أصبحت غير ممكنة. في كل عام مئات من الحجاج يسلبون أو يقتلون . والجرائم يومية .

كان الرجل يقتل من أجل كوفية فقط، أو يقتل من أجل بضعة دراهم بل يقتل من أجل قطعة من الخبز . أما السرقة فقد كانت منتشرة في استمرار غير منقطع. ليس من طريق آمن، ولم تكن قرية في مأمن من التخريب والتدمير. ولما كان الفساد شائعاً من أعلى الإدارة إلى أدناها فإن الجرائم والجنح تبقى بصورة عامة دون عقوبة.

أدرك ابن سعود أن الإجراءات الشديدة التعسفية هي وحدها القادرة على مقاومة الفوضى والقضاء عليها. وباستلهامه الأساليب المستعملة من قبل ابن جلوي في الأحساء ، وكل إلى حرسه الخاص مهمة تأمين الواجبات الشرطية في مكة ، وأقام مفارز صغيرة ثابتة من الأخوان في القرى والمدن ، وأطلق في كل البلاد دوريات طائرة متحركة مؤلفة من بعض الفرسان، الذين يتنقلون سريعاً في الليل أو في النهار.

هذه المفارز طبقت الشريعة بحزم لا هوادة فيه . المجرمون والجناة كانوا يحالون فوراً إلى محكمة عسكرية مؤلفة من ثلاثة وهابيين. والإجراءات فيها تتم بسرعة. ذلك أن الحياة البدائية في الصحراء لاتسمح بتنفيذ عقوبات طويلة ومعقدة في السجون. يقول لنا حتي :" في الصحراء الدم يدعو إلى الدم والعقوبة الوحيدة المعتمدة هي القود أو العقوبة

بالمثل [١] وأيضاً فإن العقوبات بسيطة سريعة وقاسية . القتلة تقطع رؤوسهم . أما اللصوص فإن أياً منهم يقبض عليه بالجرم المشهود تقطع يده اليمنى ، فإذا عاد إلى السرقة تبعتها اليد الأخرى، ثم القدم اليمنى فالقدم اليسرى . وأما السكارى الذين يعتقلون في حالة السكر فأنهم يضربون بالعصا ثمانين ضربة ، والذين يقترفون جريمة الزنى يدفنون في التراب حتى أوساطهم ثم يرجمون حتى الموت [٢] .

حدثنا جان بول بينيز ، أن عربيا جاء يقول لرجال الشرطة إن كيساً من الأرز قد سقط في الشارع.

فسأله المفوض – "كيف علمت أن ما في الكيس أرزاً ؟ "

أجاب العربي – " لقد لمسته "

- كان هذا كثيراً عليه : فقد فقد في ذلك إبهامه [٣] .

أما جنود الأخوان فقد طاردوا الأشقياء بحماسة لا تعرف تعباً . كانوا لا يفتحون آذانهم للضراعات أو للتهديدات، لا تأخذهم في المجرم شفقة ولا رحمة . ولما كانوا مدرعين بتزمتهم الشديد ضد إغراءات الفساد كلها، فإنهم لم يكونوا يعرفون أنصاف الحلول ولا التسويات ولا يفرقون بين الطبقات الإجتماعية . فإذا ثبتت جريمة أحدهم فإنهم ينفذون فيه العقوبة المحددة إياها لا يفرقون بين موظف كبير وراع صغير. كانوا لا يغفرون ذنباً ولا يدعون إنساناً من الناس . فيقومون بدورهم كجلادين بصلابة لا تلين . إن إيمانهم بأنهم " عادلون " يحول دون أن تضعف أذرعتهم، ويحمل إلى نفوسهم المذهبية إحساساً عميقاً بالرضى الشديد . كانوا يعاقبون بقوة شرسة يمنحها القسوة واقع أنها تمارس بإسم الفضيلة.

وأيضاً فإن العقوبة بلغت درجة من الشدة ، بحيث لم يكن في وسع المرء أن يجتاز قرية خلال الأشهر التالية ما لم يلق فيها واحداً من المشوهين المقعدين أو الكسحاء . هذه الخطة لم تلبث أن حققت نتيجة طيبة في وقت قصير جداً. فانتشر في الحجاز نظام مستقر وطمأنينة بالغة حتى أن وجه البلاد قد تغير تغيراً كبيراً .

١) فيليب . ك . حتي ، مختصر تاريخ العرب ، ص : ٢١ .

٢) الزاني الذي يستحق عقوبة الرجم حتى الموت هو المتزوج المحصن ، أما غير المتزوج فإن القاضي ينفذ في شأنه حكم التغرير والسجن ... " المعرب " .

٣) ج . ب . بينينز وموريس جارنو : تحقيق عند ولد ابن سعود ، ياري ماتش ، ٦ – ١٣ مارس (آذار) ، ١٩٥٤، ص:٤٥ .

لقد اختفت جرائم السرقة إختفاءً تاماً على التقريب . وطهرت الطرق من عصابات المخربين التي كانت تجوس خلالها فأصبحت آمنة حتى بالنسبة للمسافرين في عزلة عن الآخرين . كان الأتراك قد ملأوا البلاد بالقلاع والحصون الصغيرة لحماية رجال شرطتهم فيها أما ابن سعود فقد هدمها لأنها لم تعد مفيدة . وكان في وسع التاجر أن يترك أشياءه عند حافة طريق ثم يعود لأخذها بعد ذلك ببضعة أسابيع . والمارة يؤثرون أن يتابعوا سيرهم في إتجاه آخر على أن يلمسوا هذه الأشياء . أما المحاكم الوهابية فقد أشاعت في كل مكان رعباً صحياً شافياً . وبفضلها أصبح ثلاثة جنود من الأخوان يقودهم صف ضابط كافين للحفاظ على الأمن في منطقة بكاملها.

يقول جيرالد دوغوري : " إنه من الصعوبة بمكان تصور هذا التغير الجذري محققاً في مثل هذا الوقت القصير . ويقال اليوم أنه إذا كانت قافلة من القوافل قد تركت كيساً من البن يسقط في الصحراء فهي على ثقة تامة من أن في وسعها الوقوع عليه في المكان نفسه بعد ستة أشهر . إن الأمن في العربية السعودية شيء رائع حقاً : وربما كان أعظم شأناً منه في أي بلد من أوروبا اليوم . إن العوامل الرئيسية الأربع التي لا بد منها الحفاظ على الأمن هي :

١) الإعلام السريع .

٢) التعاون الوثيق بين الحاكم وقواته من رجال الشرطة .

٣) تحرك أسرع وأعظم من تحرك القبائل.

٤) فهم كامل للعادات والتقاليد المحلية (١).

وكان الإداريون السعوديون يتمتعون بهذه الأوراق الأربع الرابحة . وهذا هو سبب نجاحهم.

يقول لنا جان بينينز من جهته : " إذا كان ابن سعود قد نجح في تجميع الجزيرة العربية تحت صولجانه الملكي ، وإذا كان قد جعل من بلد مضطرب مليء بالعصابات ، بلداً هو أكثر البلاد أمناً في العالم كله ، تكون فيه الفضيلة

إجبارية ، فليس ذلك باللجوء إلى السيف وحسب . لقد سكب في بوتقة هذه الأمة الشابة أصلب أنواع السيمنت إنه : الصلابة القرآنية.

---

١) جيرالد دو غوري : نخيل الجزيرة العربية.

" في الجزيرة العربية اليوم يرتكب عدد من الجرائم خلال العام كله ما يساوي عدد مثلها في باريس خلال يوم واحد [١] ".

سبب ذلك أن الحياة كلها فيها موجهة بالقرآن والقرآن هو " شريعة توقعت كل شيء [٢] " .

ولم يكد النظام يستتب في البلاد ، حتى انصرف ابن سعود إلى تحسين الإدارة المدنية والظروف التي تتم فيها عبادة الحج.

قبائل كثيرة ، ولا سيما قبائل الخرج ، جرت عادته في جبي رسوم من القبائل التي تجتاز منطقتها للإتجاه إلى مكة. فمنع عبد العزيز هذا التعسف وكل ما هو شبيه به ، مما فرض في أيام السلطان العثماني وكان الحسين يشجع عليه ليملأ صناديقه الفارغة على الدوام .

أما الإستغلال التجاري للأماكن المقدسة من قبل سكان مكة فقد بلغ ، خلال القرن التاسع عشر نسباً لم يسمع بها من قبل . كتب غودفروا دو مومبين يقول : " لتقرأ بوركهارت ، بورتون ، سنوك ، بتنوني أو ابن شريف ، فإن ما يملأ ذكرياتهم هو شراسة المكيين ، ثم الابتسامات والمهارات التي حذقوها ليكسبوا في بضعة أيام ما ينفقونه على أنفسهم خلال عام كامل [٣] . هناك الأدلاء ، ومؤجرو المطايا ، ومؤجرو البيوت والغرف ، وتجار التعاويذ والتمائم وماء زمزم [٤] والحلاقون والمشرفون على البيوت ذات الطابع التاريخي ، تجار من كل طبقة وفي كل شيء، يفرغون جعبة الحجاج ، وقد تصرف ابن سعود بنشاط شديد ضد هذه الممارسات ، دون أن يتوصل إلى إلغائها بصورة كلية.

---

١) ج . ب . بينينز وموريس جارنو : تحقيق عند ولد ابن سعود : المصدر السابق .
٢) المصدر نفسه.

٣) غودفروا دو مومبين : المؤسسات الإسلامية ، ص : ١٠٠. ويضيف المؤلف بحق ما يلي : " يجب أن يكون هناك جهل غريب بأخلاق الناس الذين يعيشون في ظل الهياكل الكبيرة في عالم البشر حين يوجه صاحبه إلى المكيين لوماً على عاداتهم التجارية وليجد فيها خطأ متصلاً بالإسلام ".

٤)بئر مقدسة، قرب الكعبة ، ينضح الحجاج بها وجهوهم وجوارحهم ويغمسون في مياها قطع القماش التي ستستخدم كفناً لكل منهم فيما بعد . كان ماؤها يباع في أوعية من الصفيح.

ثم جرى بعد ذلك تنظيم شبكة للنقل بين موانىء الساحل ومكة والمدينة . كما بنيت خزانات كبيرة من الماء في عرفة [1] وفي محاذاة الطرق التي تسير فيها القوافل . وبعد حادث المحمل ، أقيمت محطات صحية ومراكز اسعاف للجرحى.

هكذا استطاعت الإدارة السعودية أن تقدم عناية خاصة لميدان التحسين الصحي ومقاومة انتشار الأوبئة بعد كل حجة ، تساعدها على تحقيق هذه الخطة اتفاقات دولية تسمح بتعميم الزيارات الطبية وإقامة مراكز للحجر الصحي [2].

أما في المدينة ومكة فقد أقام ابن سعود " لجاناً اجتماعية " مكلفة بتأمين نظافة الشوارع وتبليط الطرقات ورفع النفايات وصيانة المجارير . كما كان على هذه اللجان أيضاً أن تسهر على شيء آخر هو مراقبة سكان المدينتين المقدستين والتأكد من أنهم يتصرفون بدقة وأمانة في ضوء أوامر القرآن وتعاليمه . فالذين يغفلون الصلاة تفرض عليهم عقوبات مالية . أما الفجور فقد زجر أصحابه زجراً شديداً كما منع الربى ، وبذل جهد خاص للحيلولة دون الإنغماس في الترف . كما أنه منع الرجال كلهم من التدخين ومن التزين بالذهب ولبس الحرير داخل منطقة الحرمين . أما المظاهر التي تعطي صفة العبادة الشخصية الموجهة إلى محمد وأعضاء أسرته فقد أعلن أنها دنس محرم ومنعت منعاً باتاً [3] .

---

١) كانت قد حفرت قناة ماء في عصر العباسيين . لكن فساد الإدارة العثمانية جعلها تتساقط خرائب.

٢) إن الاجتماع في الأماكن المقدسة ، في مكة وعرفة ومنى من قبل جمهور كبير قادم من كل أقطار الأرض وحامل معه جراثيم أمراض هي من الخطورة على قدر غربتها عن البلاد ، إن هذا الاجتماع يمثل خطراً كبيراً بصورة دورية ضد الصحة البشرية : لقد كان الحجاز موطناً لكثير من الأوبئة الخطيرة ، منها وباء " الكوليرا " م . غودفروا دو مومبين، المصدر نفسه ، ص : ١٠٤.

٣) أن هذا الإجراء الذي تمليه الرغبة في الحفاظ على عقيدة التوحيد بكامل صفاتها كان تطبيقاً لواحد من المبادىء الأساسية للعقيدة الوهابية.

وتكميلاً لعملية إعادة التنظيم ، باشر ابن سعود بإنشاء مجالس بلدية في مدن الحجاز الست الرئيسية: مكة ، المدينة ، جدة ، ينبع ، رابغ ، والطائف . هذه المجالس ، التي منحت صلاحيات واسعة تألفت بتعيين نصف أعضائها من وجهاء المدينة من قبل الملك .. وبانتخاب النصف الآخر من قبل أبناء الشعب . وكانت مهمة هذه المجالس استشارية وتنفيذية في وقت معاً .

وعندما أصبحت موارد البلاد كافية ، بعد فترة من الزمن ، أمر الملك بالغاء الرسم السنوي الذي يجبيه من ثلاثمائة ألف حاج يتوجهون في كل عام إلى البيت الحرام . وتبلغ قيمة هذا الرسم ٢٨ جنيهاً [١].

كل هذه الإجراءات فتحت عصراً جديداً ليس فقط أمام الجزيرة العربية ، بل لمنسك الحج الذي يترتب عليه المستوى المادي والسلامة الدينية [٢].

وبالقدر الذي كانت تمتد فيه المملكة فتنضم مقاطعات جديدة إلى تلك التي كان يملكها عبد العزيز من قبل ، يصبح من الضروري أكثر فأكثر تزويد هذه المقاطعات بجهاز إداري متين ومنظم تنظيماً جيداً . والواقع أن الملك قد اقتصر بادىء الأمر في حكم البلاد على الإفادة من تجارب أبيه ، ثم الاعتماد على مجموعة صغيرة من " المستشارين".

لقد تعود من قبل أن يدير كل شيء بنفسه ، لأنه لاحظ في أغلب الأوقات أن أوامره لا تنفذ إلا إذا سهر هو شخصياً على تنفيذها . لكن الوضع الإداري الحاضر في البلاد قد تجاوز قوى إنسان واحد . إن توحيد الأرض ، وتدعيم النظام القائم ، وحسن استخدام الموارد في الجزيرة العربية هذا كله يفرض وجود إطارات دائمة ، وبالتالي حكومة ودولة .

---

١) هذا الرسم كان حتى عام ١٩٣٦ المورد الرئيسي للمملكة . لقد كان يوفر لخزينة الدولة مبلغ سبعة ملايين دولار.

٢) م . غودفروا دو مومبين : ص : ١٠٥ .

وقرر ابن سعود تقسيم العمل بين وزراء ومسؤولين ، يوضعون على رأس دوائر متخصصة : الداخلية ، المالية ، الشؤون الخارجية ، الزراعة والمناجم ، العدل ، الدفاع الوطني ألخ ... لكن أين يجد المساعدين الأكفاء والموثوقين ؟ كانت الجزيرة العربية قليلة السكان وهؤلاء السكان في كثرتهم الكبرى فقراء ، جهلة وأميون ... وأما طبقة الشيوخ الصغيرة فقد كانت غنية ولكنها مكتظة بأفكار مسبقة ، ولم تكن لها أية قيمة إلا في ميدان القتال . كان يكفي أن يغيب الملك لمدة عامين ، ليشيع جو من استياء والضيق عند أبناء الشعب . وهذا يثبت أن الذين أولاهم ثقته ومنحهم سلطانه من الحكام لم يكونوا على مستوى المهمة الموكلة إليهم . ثم اضطر الملك بعد عودته من الحجاز أن يعاقب بعض هؤلاء الحكام.

ومن هنا أدرك الملك كم هم نادرون رجال الإدارة الأكفاء. إن هذه الندرة في الإطارات العليا كانت من الخطورة بحيث أنه شعر بالحاجة الشديدة إلى وزراء وحكام ذوي كفاءة غير عادية لحل المعضلات التي تواجههم وتفرض نفسها عليهم ، وبالتالي لقيادة البلاد في طريق النجاح . ذلك أن ابن سعود عين لنفسه غرضا ثلاثياً :

١) توحيد تراب الجزيرة العربية .

٢) العودة إلى العقيدة الحقيقية .

٣) تحويل الجزيرة العربية إلى أمة عصرية .

أما الهدف الأول فقد تحقق تقريباً . وأما الهدف الثاني فكان في طريق التحقق . لكن الثالث كان ما يزال خفياً مدفوناً في قلب المستقبل [١].

وبذكاء غير عادي ، فكر ابن سعود في أن يتغلب على هذه الصعوبات الخاصة بتجنيد الرجال للعمل في الإطارات العليا ، باللجوء لا إلى نجد بل إلى مجموعة العالم العربي حيث يستطيع أن يجد الجهاز الإداري المطلوب . لم يكن يهمه أن يكون وزراؤه منتسبين إلى جنسية أجنبية شرط أن يكونوا عرباً ذوي أنساب صافية نقية ومؤمنين

---

١) هذه " النقطة الثالثة " من البرنامج السعودي كان ظاهراً أنه موحى به من قبل مثلين قائمين : الإتحاد السوفياتي وتركيا الكمالية .

متحمسين . وبعد هذا كله ، أليس أنهم يتكلمون اللغة العربية ؟ إن غياب كل فكرة مسبقة " قومية " (بالمعنى الذي ندركه نحن في الغرب) لم يكن من قبيل المصادفات ، بل هو نابع من العقائد الصحيحة العمية عند الحاكم . ففي نظره أن عربياً من دمشق أو من القاهرة ، من البصرة أو من بغداد ، ليس أجنبياً ، بل هو عضو في نفس الطائفة العنصرية والدينية ، التي وإن كانت فرقت وحجز بينها بسبب إنحرافات التاريخ ومفاسده ، فهي كانت وستبقى مدعوة يوماً من الأيام للعودة إلى وحدتها تحت راية واحدة .

هكذا كان عبد الله الفضل ، رئيس المجلس البلدي في مكة ، وهو من مواليد عنيزة ، في القصيم [1].وحافظ وهبه، المستشار الأول عند الملك ووزير الداخلية كان مصرياً ، ويوسف ياسين ، مدير هيئة السكرتارية عند الملك من اللاذقية في سورية الشمالية ، أما رشدي بن ملحس ، مدير مكتب الملك ، فكان فلسطينياً ، وفؤاد حمزة ، وهو واحد من أبرز العقول العاملة في جهاز الملك ، فقد نظم مصالح وزارة الشؤون الخارجية وأقسامها ، وأصبح لفترة من الزمن ، الوزير المفوض للملك في باريس ، كان درزياً من لبنان . والشأن هو نفسه بالنسبة للدكتور فرعون السفير القديم للعربية السعودية في باريس ، الذي كان يدين دون ريب لأصوله السورية في إدراكه الكامل لكل ألوان الفكر الفرنسي ودرجاته.

أما فيما يتعلق بالموظفين الذين يأتون دون ذلك في الأهمية فقد جرى اختيارهم بين التجار والمدرسين ، وكانوا يأتون من كل البلاد ، دون إستثناء العراق وشرقي الأردن.

والجدير بالذكر أن هذا القرار الصادر عن الملك ، من أحسن القرارات وأسعدها ، فقد سمح له بأن يجمع من حوله رجالاً أكثر تطوراً وأحسن تعليماً على التحقيق من أولئك الذين قد يختار من أبناء البلاد فيما لو قصر الإختيار

عليهم فقط . بل أن هذا الإختيار هو الذي يفسر إلى حد كبير النتائج المدهشة التي توصل إليها الملك ، إن في السياسة الداخلية أو في السياسة الخارجية .

---

١) إنه هو الذي أشرف على إدارة أموال المملكة لمدة خمسية عاماً ، دون محاسبات ودون دفاتر وبرقابة مالية بلغت الحد ألأدنى من الاتساع .

كان يوجد في أعلى التسلسل الوظيفي الملك وعائلته ولعلنا نذكر أن ولد عبد الرحمن قد تزوج عام ١٨٩٥ ، وهو في الخامسة عشرة من عمره ، حفيدة صغيرة لابن عبد الوهاب هي الأميرة جوهرة . لكن القرآن يمنحه الحق في أن تكون له أربع زوجات . ولا شك أن رجلاً له حيوية الملك ونشاطه لم يكن عنده أي مبرر للإمتناع عن الإفادة من هذه الحصة الدينية . (ويقال أنه كانت عنده نساء كثيرات بالإضافة إلى زوجاته الأربع ، وبخاصة محظية شركسية ذات جمال مدهش كان وجود مثلها جزءاً من التقاليد عند السلاطين العثمانيين). فزاد نسله زيادة سريعة .

وفي عام " ١٨٩٩ " رزق ولده الأول ، الذي سماه " تركي " وكان يحبه حباً جماً ويعنى به عنايته بحدقة عينه . ثم تتابع الأولاد فكان الثاني خالداً ، توفي في سنة مبكرة ، وجاء بعده ، سعود ، فيصل ، عبد الله ، منصور ، فهد ، نصر ، خالد ومحمد .

لكن عدد أولاده لم يتوقف عند هذا الحد . لقد كان عند موته على رأسٍ ٣٦ ولد من الأحياء ومثل هذا العدد من البنات [١]. كان رئيساً قديماً في وسط قبيلة ، أكثر منه والداً لأسرة بالمعنى الغربي لهذه الكلمة.

وكان الملك عصامياً درس على نفسه . حرمه طرده من الرياض وهو في عامه الحادي عشر من التردد على المدرسة بصورة منتظمة ، وكان يتألم بالتالي من ظاهرة التقطع والتفتت في دراساته. لأن غياب المعلومات التاريخية والدينية عنه كان يعجزه في بعض الأوقات عن مواجهة " العلماء " ومناقشاته لهم ، أولئك الذين لا يفتحون فمهم ما لم يوردوا نصاً من النصوص القديمة ، وما لم يستشهدوا بنقطة من العلوم الدينية . وأيضاً قد كان حريصاً على أن يكون أولاده أكثر ثقافة منه . فكانت تربيتهم موضع عنايته الخاصة وقد منحهم ، كمربين ، رجالاً من ألمع الأساتذة المدرسين .

والثابت أن مثل هذا الإنسان الكبير لا يسعه إلا أن يدفع ضريبة ثقيلة للموت ، ولا سيما في بلاد ترتفع فيها نسبة الوفيات إلى درجة عالية ، حيث لا يعرف الناس فيها غير القليل عن شروط الوقاية الصحية . ففي عام ١٩١٩، قضت الأنفلونزا الأسبانية ، التي اجتاحت الجزيرة العربية كلها ، على الأميرة جوهرة في بضع ساعات .

---

١) أنظر في الملحق من الكتاب ، شجرة أنساب الأسرة السعودية .

فصدم ابن سعود ، الذي كان يحبها حباً شديداً ، بوفاتها التي هدمته من الألم . وأعد للأميرة جنازة كبيرة جداً ثم دفنها في زاوية من حدائق القصر وخلال الأسابيع التي تبعت وفاتها ، قضى كل أيامه تقريباً وهو يتلو القرآن ويدعو لها قائماً عند قبرها ، رافضاً تناول أي طعام وممتنعاً عن الاهتمام بالقضايا العمومية . كان حزنه الصادق المخلص يثير الألم عند الناظر إليه . كان الملك يذبلفي رأي العين . فلم يكن أبداً من قبل في حياته على مثل هذه الحال من الكآبة والغم والإنهيار.

على أن الوباء نفسه حمل معه ولده البكر ، تركي ، وكان في العشرين من عمره . لكن الألم في هذه المرة كان أكبر من أن يحتمله . لقد ظن ابن سعود أنه لن يتغلب على هذه الضربة الثانية من القدر. تركي ، الفتى الجميل ، الجريء ! تركي الذي لم يكن له شبيه في صيد البازي ! تركي الذي كان الملك قد وضع فيه كل كبريائه وكل أمله ، لن يكون هناك بعد اليوم ، ليتابع عمله في يوم من الأيام ! وإذاً فلم كل هذه المعارك ، ما دام أن ولده المفضل لن يقطف شيئاً من الثمر ؟ وفكر ابن سعود في اللجوء إلى صومعة . إن هذين المأتمين ، المتعاقبين واحداً وراء الآخر ، قد دمرا صحته وبدت له ممارسة السلطة شيئاً لا معنى له ولا فائدة منه.

وعاش ابن سعود ، خلال الأعوام ، ١٩٢٠ ، ١٩٢١ ، ١٩٢٢ ، معزولاً في قصره ، لا يستقبل أحداً من الناس ، ولا يفتح فمه إلا نادراً ، مدخراً أيامه كلها للتأمل والصلاة . إن اهتماماته الوحيدة كانت مقتصرة على تلاوة القرآن ودراسة التاريخ الإسلامي، والواقع أن هذه الفترة كانت تمثل مرحلة سكون في الجزيرة العربية . وفي الوقت نفسه كانت انكلترا تحاول إقامة اتحادها التحالفي الهاشمي . على أنه لم تكن لجمود الملك آثار سيئة ، إذ أن كل مبادرة من قبله ، خلال تلك الأعوام الميتة ، كان لا بد من أن تنتهي إلى الفشل .

لكن صحته لم تلبث أن تحسنت بمرور الزمن ، واستعادت حيويته تفوقها وتغلبت على ضعفها . إن الخور العصبي الذي لغم قواه وهدّ حيله ، لم يلبث حتى أخذ يختفي بتدرج . وشعر فهد الصحراء أن جراحه قد بدأت تلتئم. هكذا استعاد حبه للحياة ، وعاد إلى الصيد ، وكما يكون شأن الشجرة القوية التي تخرج أغصاناً خضراء في المكان الذي قطعت منه مثلها فأس الحطاب ، فإن ابن سعود قد نقل عاطفته الحارة التي كانت وقفاً على ولده تركي، إلى بقية أولاده .

هناك الأمير سعود بن عبد العزيز ، المولود في الكويت خلال شهر شوال ١٣١٩ هـ و ١٩٠٢ م في الساعة نفسها التي كان يغزو فيها ابن سعود عاصمته – وهذا مما يجد فيه العرب إشارة إلى حسن المنقلب وعنواناً على مستقبل طيب كريم للطفل الوليد – وبذلك أصبح الطفل سعود بعد وفاة أخيه وريث المملكة . كان يشبه أباه شبهاً غريباً ، إن في بسطة جسده أو في خصائص نفسه وأخلاقه ، وكان قد أثبت مرات كثيرة لياقته التامة من أجل الحرب والسياسة . فمنذ بلغ الثامنة عشرة من عمره لم يكف عن قيادة القوات السعودية ، في حائل ، في اليمن ، وأيضاً في أماكن أخرى . كما أنه حكم الرياض ، خلال غياب ابن سعود في الحجاز ، وكشف في ممارسته لهذه الوظائف ، عن نضج مبكر ، حتى أن الملك لم يتردد في أن يكل إليه مركز نيابة الملك في نجد (١٩٣٠) . ثم قدم إلى الملك أعظم برهان على الولاء الذي يمكن أن يدخره ابن لأبيه : ففي عام ١٩٣٤ ، بينما كان ابن سعود يؤدي مناسك الحج في مكة ، انقض عليه أربعة قتلى (ربما بتحريض من الهاشميين).

ولما كان سعود إلى جانب أبيه مصادفة ، فقد أقدم على حمايته بنفسه ، متلقياً الطعنات محله . وكان البدو يحبونه حباً شديداً ، لأنه يشاركهم في طريقة عيشهم ويتوجه إليهم بطريقة بسيطة ومباشرة ، تبلغ قلوبهم . كان رشيق القامة ممشوقاً يتميز بالجلال في مشيته ، ويسر الجميع بأساليبه وتصرفاته الرقيقة المحببة.

ربما كان يبدو أكثر تحفظاً من ابن سعود (كان يفاخر سواه في أنه لا يتكلم أية لغة أجنبية) . لكن هذه هي السمة التي كانت تميز أحدهما من الآخر . لقد رباه أبوه في مدرسة شديدة قاسية ، فعلمه أن يمتطي حصانه وينطلق به أياماً كثيرة دون سرج ولا ركاب ، وبأن يقتصر في طعامه على حفنة من حبات التمر. لقد كان نجدياً كاملاً ووهابياً متحمساً لدينه.

كما عين ابن سعود ولده الثاني فيصلاً نائباً للملك في الحجاز ووضع إلى جانبه مستشارين مجربين . (إنه خلافاً لأخيه سعود لا يملك غير إمرأة واحدة كما يتكلم الفرنسية والإنكليزية بطلاقة).

ففيصل يمثل في شخصه الإتجاه العصري والديناميكي في داخل المملكة .

ثم لم يلبث أن أصبح فيما بعد وزيراً للشؤون الخارجية ، ثم رئيساً لمجلس الوزراء ، حيث استطاع أن يثير سريعاً اعجاب الآخرين بفضل معرفته للعالم الغربي.

وبعد ذلك بسنوات قليلة جعل ابن سعود من ولده السادس ، منصور ، المراقب العام للمعسكرات ووزير الدفاع الوطني. أما الأولاد الآخرون فقد كانوا ما يزالون صغاراً ليشاركوا في حمل جانب نشيط من مسؤوليات الحكم ومشكلاته.

احتفظ الملك شخصياً لنفسه ببعض المهمات التي تعز عليه ، في مقدمتها تطوير الأخوان وتحديثهم . والواقع أن الأخوان قد حققوا نجاحاً كبيراً لم يسمع بمثله من قبل ، منذ العصر الذي اجتمع فيه عدد من المتطوعين ثم أقاموا في أرطاوية ، بقيادة مطيب . ولما كانت نخبة المقاتلين في الجزيرة العربية قد تم اختيارها من منظمة الأخوان ، فقد أصبحت هذه الأخيرة بمرور الزمن قوة طاغية كشفت عن فاعليتها في تربة والطائف ، كما استولت على مكة وجدة والمدينة ، وأعادت الأمن والنظام إلى الحجاز وسمحت بالالحاق السريع لبلاد عسير.

لكن ابن سعود من الواقعية بحيث لا يتجاوز الحد في تقدير قوته . فلما كانت منظمة الأخوان قد تكيفت لمهمتها باعتبارها " ميليشيا الصحراء " بصورة معجبة ، فانها لم تكن كافية لتأمين السلامة للدولة السعودية . ومن هنا انصرف إلى تنمية قواه وتحسين تسلحه وتطوير التدريب عنده ورفع مستوى الإطارات المختلفة.

ومما لا شك فيه أن منظمة الأخوان لا تستطيع أن تنافس بامكاناتها جيشاً أوروبياً . لقد كان ابن سعود من الوضوح في الرؤية بحيث أنه لا يخدع نفسه حول هذا الموضوع ، ومن أجل ذلك لم يحاول في يوم من الأيام أن يجابه بالأخوان القوات البريطانية.

على أن قلة السكان في الجزيرة العربية لم تكن تسمح قبل وقت طويل بتعبئة واسعة النطاق مرتفعة العدد . ولكنها تستطيع أن تكون أكبر جيش في العالم العربي . وبهذا المعنى كان في وسعها أن تضمن احترام الحدود، والحيلولة دون أية محاولة عدوانية من قبل الدول المجاورة ، وحتى أنها بفضل ما تتصف به من الحركة والمهارة في حروب العصابات قادرة على خلق مزعجات جدية لكل قوة أجنبية تحاول أن تحتل البلاد عسكرياً.

إن أعظم الأوراق الرابحة عند منظمة الأخوان ، تلك التي طالما أمنت لها النجاح ، إنها السرعة في الحركة ، وزهد الجنود وبساطتهم ، وقدرتها على العمل دون أن تحسب حساباً للمسافة التي تفصلها في ميدان القتال عن قواعدها الثابتة . إن المعضلة التي كانت تواجه الملك هي التحديث والتطوير دون أن تفقد امتيازاتها الخاصة . من أجل ذلك كان يجب أن تزداد قوة النار عندها دون أن يجري إثقالها بعراقيل غير مفيدة ، أو تصغير مدى العمل عند وحداتها.

اشترى ابن سعود مدافع رشاشة ، وبعض السيارات المسلحة ، ومدفعية خفيفة واستدعى مدربين انكليز وأميركيين لتعليم رجاله فن استعمال هذه الأسلحة ، ثم أسس مدرسة الإطارات العسكرية، وعين هيئة دائمة لأركان حرب الجيش ، ذهب رؤساؤها إلى مصر وأميركا لمتابعة دورات دراسية فيها.

على أن تحديث منظمة الأخوان لم يتم دون صعوبات . فكما هو الشأن في كل مشروعات الملك ، يظهر في البداية تيار من العداوة قوي يجب التغلب عليه . لقد كان الفرسان الوهابيون يعتبرون المخترعات التكتيكية للدول المسيحية عملاً من أعمال الشيطان ، وكانوا يرفضون ترك السيف والجمل من أجل الرشاش والسيارة . كانوا يقولون : " ليس السلاح هو الذي يهب النصر. بل هو الله سبحانه . ان محمداً نفسه ما كان في وسعه أن يربح معركة بدر لو لم تأت الملائكة هابطة من السماء وتقاتل إلى جانبه ! فإذا أخذنا هذه الأسلحة فاننا سنخيف الملائكة ، ثم نخسر بعد ذلك رعاية الله عز وجل . انه لا سبيل إلى زيادة قوة الأخوان بتطوير أسلحتهم بل بتعميق الإيمان ، والصوم والصلاة " .

كان من الصعوبة بمكان اقناع هؤلاء الرجال بخطأ أحكامهم ، فإن هذا يعني زلزلة مجموعة من العقائد في نفوس ، قد يصبح زوالها مصدر خطر على وحدة الأخوان وتماسكهم . لقد حدثت هزات خطرة ، مرات كثيرة ، داخل تشكيلات هؤلاء الجنود .

واضطر ابن سعود أن يضع في كفة الميزان كل سلطته لتهدئة هيجانهم ووضع حد للجيشان في صفوفهم . لقد حطم دون شفقة كل محاولات التمرد ، وأعدم ، ضرباً للمثل — بعض الضباط المتمردين . وبعد فترة من الإضطراب القليل عاد الهدوء إلى مجموعة الأخوان .

ثم قسم الجيش إلى فئتين : الأخوان العاملين والأخوان الإحتياطيين . أما التشكيلات العاملة فهي مؤلفة من ٢٥ ألف مقاتل ، وهي تشكل بالتالي فيلقاً ثابتاً جرت تعبئته من بين المليون ونصف المليون من البدو الذين بلغوا سن حمل السلاح . هذا الفيلق مجهز تجهيزاً جيداً ، ووكلت قيادته إلى إطارات متقدمة ، كلف بالقيام بأعمال الشرطة في الصحراء والحفاظ على النظام والأمن الداخليين . أما التشكيلات الإحتياطية فإنها بقيت في المستعمرات الزراعية ، وكانت لا تجري تعبئتها إلا في فترات النزاع والخصومات العسكرية .

أما اليوم ، فإن الدولة السعودية تملك قوة عسكرية جدية ، يمكن عند الحاجة أن تصل إلى ١٥٠ ألف من الرجال . إنها مجهزة جزئياً بأسلحة أميركية من تلك التي جرى تسليمها خلال الحرب العالمية الثانية بموجب قانون " الإعارة والتأجير " [١] أو من " فائض " الأسلحة التي تركت في البصرة من قبل الولايات المتحدة ، والتي كان قد تقرر إرسالها إلى الاتحاد السوفياتي.

وفي خارج وحدات الفرسان والمدفعية وسلاح الإشارة والدبابات (٧٠٠٠ رجل مدرعون) ، فإن الجيش السعودي يحتوي على طيران مؤلف من أسراب كثيرة من طائرات المطاردة ، يقودها في أكثر الحالات طيارون ينتسبون إلى فتيان البلاد ...

" إن الجيش السعودي الجديد، الذي يستعمل الراديو ، والأسلحة الأوتوماتيكية والسيارات المسلحة ، لن يكون موضع ازدراء من قبل أي معتد عارض " هذا ما يؤكده الكاتب العسكري الإنكليزي ليدل هارت [٢].

عندما بدأ مصطفى كمال يضع " خطته في تحديث تركيا الجديدة " موضع التنفيذ ، اصطدم بصعوبات يكاد يستحيل التغلب عليها ، بسبب من أن كل المعضلات يرتبط بعضها ببعض . وكذلك ابن سعود فإنه لم يلبث حتى أحس بهذه الواقعة نفسها. إن أمن البلاد والدفاع عنها كانا مرتبطين بتطور الإخوان . وتطورالإخوان بدوره كان متعلقاً بمضاعفة المستعمرات الزراعية . لكن مضاعفة المستعمرات الزراعية موصولة بدورها بمعضلة الماء .

أو لم يكن من قبيل المخاطرة تأسيس قوة بلاد وتحقيق رفاهيتها على الزراعة ، في الوقت الذي تكون هذه البلاد، مؤلفة من الصحاري ، في الجزء الأكبر من أراضيها ، فلا يكون فيها نهر ولا تستقبل من السماء غير سبعة سنتيمترات من المطر خلال العام الواحد ؟ كان الجفاف – هذه الآفة الرهيبة –ينتصب في طريق ابن سعود كصعوبة تتعرض إرادته

١) بفضل هذا القانون دخلت العربية السعودية في عداد الدول المستفيدة عام ١٩٤٣ . " وسنرى فيما بعد ما هي الشروط الموضوعة لهذا الأمر.

٢) أنظر باري ماتش ٢٠ يونيو (حزيران) ١٩٥١.

أمامها لخطر الإنكسار . لقد كان من الجنون أن يفكر الإنسان في تحويل الطبيعة وتعديلها وهي التي صنعت مصير الجزيرة العربية منذ آلاف السنين ! إن هذا أشبه ما يكون بفكرة إيقاف مسيرة الشمس ...

ومع ذلك فإن الملك رغم النصائح التي يغدقها عليه كل من يحيط به من النصحاء والمشيرين ، رفض الإعتراف بالهزيمة . إن مجموعة كبيرة من القصص والحكايات الغريبة ، فيما يخص الماء ، كانت تنتشر بين البدو الذين يتناقلونها خلفا عنسلف منذ عدد من الأجيال . هذه الحكايات تتحدث عن عصر قديم كانت فيه الجزيرة العربية كلها مغطاة بالحدائق والغابات . لكن أكثر الناس كانوا يهزون أكتافهم ويقولون : إنها أساطير ! أما ابن سعود فكان مقتنعاً تماماً بأن في هذه الأساطير جزءا من الحقيقة .

والجدير بالذكر أن العرب يصرون على الاعتقاد بأن مواطن الماء عندهم وآبارهم يتصل بعضها ببعض بطرق ممدودة تحت سطح الأرض وكانوا يقصون ، اعتمادا منهم على الأقوال الشائعة قصة كرة من الخشب ، ضاعت في أعماق ينبوع ثم وجدت بعد ذلك بطريقة خفية في ينبوع آخر على بعد كثير من مئات الكيلومترات من هناك . وكانوا يزعمون أيضاً أنهم يعرفون متى أمطرت السماء في منطقة بعيدة ، بمجرد أن يشهدوا ارتفاع مستوى الماء في آبار منطقتهم . وعند شواطىء الخليج العربي ، كان صيادو اللؤلؤ يغطسون ليجدوا في أعماق البحر طبقة من المياه العذبة تحت طبقة المياه المالحة وكانوا يحملون معهم من تلك الأعماق خصلا من صوف الخرفان وشعر الجمال أو ليس أن هذه الظاهرة دليل قوي إلى أن الينابيع البحرية تحت الماء موصولة في قنوات عميقة بمثلها في المنطقة البرية الداخلية ؟ ألا يوجد في مكان ما حوض هائل من الماء ، دفن عميقاً تحت درع من الرمال ؟

هذا أيضاً ما كان يقوله الملك نفسه ، وكانت هذه الإعتقادات الشعبية تحضه على متابعة جهوده والإستمرار في بذلها . وقد اقترح عليه حافظ وهبه ، وزير الداخلية ، أن يستقدم مهندسين مائيين أمريكيين . ومرة أخرى ابتسم الحظ للملك . فقد قدم المهندسون من الولايات المتحدة الأمريكية ، وحاولوا استكشاف باطن الأرض فإذا بهم يؤكدون خواطر البدو والهاماتهم لقد اكتشفوا المياه . ليس فقط مجاري نحيلة منها ، بل ذخيرة غزيرة منها نسبياً . وهي غير موجودة فقط في عدد محدد من المواطن بل منتشرة وموزعة تحت الرمال ، حتى في أمكنة لم يكن أحد يظن أنها يمكن أن تحتوي عليها .

كتب جيرالد دوغوري : " إن للبدو نوعاً من الحس السادس يمكنهم أن يحزروا به أين يحفرون ليجدوا المياه . إنها غزيرة لا تتعرض للسقوط أبداً ، ولا يستطيع الأجنبي ، مهما فعل ، أن يكتسبها أبداً . وهم يخضعون لهذه الغريزة بقدر من الثقة ، بحيث يصرون على وجود المياه حتى في الأماكن التي لم تكشف عن شيء منها المحاولات الفنية التي يقوم بها الخبراء الأوروبيون أو الأميركيون . لكن الغربي يستعيد تفوقه ويساعد العربي بطريقة ناجحة حينما يقوم بعمليات التنقيب على أعماق كبيرة بواسطة الأجهزة المخصصة لهذا الأمر ، فمعرفته الدقيقة بطبقات الأرض تتجاوز إدراكات البدوي [1] . وهذا ما حدث على التحقيق مع المهندسين الأميركيين . هؤلاء مكنوا البدو من الوصول إلى بحيرات المياه في باطن الأرض ، وهي التي كانوا يستشعرون وجودها بملكاتهم الخاصة ، لكنهم لا يستطيعون الوصول إليها لافتقارهم إلى الآلات والأجهزة الضرورية .

كان في الرياض عدد من الابار ، ذات المنسوب الضئيل فجرى حفر بئر جديدة . وإذا بها ثقب هائل كبير بلغ عمقه ١٢٠ م وعرضه ٣٠ متراً .

- كتب كينيث — ج — ادواردز الذي كان يدير أعمال الحفر : " لن أنسى اليوم الذي جاء فيه الملك يزور ورشة العمل عندنا . لقد انحنى فوق حافة البئر ونظر طويلا إلى صفحة المياه التي كانت تتألق في أعماق الثقب القاتم . كانت المياه هناك ، أثمن من الذهب ، المياه الصانعة للحياة والموزعة لها ، والتي ستمكنه من تنفيذ مشروعاته وخططه وتحويل وجه مملكته شيئاً فشيئاً . وعندما انتصب قائماً ، كان وجهه الثابت الهادىء في العادة قد بدا مضطرباً . وكانت عيناه مغروقتين بالدموع . فضرب على كتفي وقال لي بصوت مضطرب من الإنفعال : لقد قمت يا إدوارد بعمل معجز ! إبق هنا خمسة عشر عاماً فنرغم الصحراء على التراجع !

١) جيرالد دو غوري : نخيل الجزيرة العربية ، ص : ٦٧ — ٦٨ .

إننا سنحيل الجحيم نفسه إلى جنة [١] ! أما في جدة فقد أكتشفت بحية مياه باطنية أخرى على بعد أربعين كيلو متراً من المدينة . إن موارد هذه البحيرة بانضمامها إلى الموارد الأخرى في وادي فاطمة لا تمكن المسؤولين من تزويد جدة بحاجتها إلى الماء وحسب بل كذلك محلات وقرى مجاورة أخرى حيث لم يعرف في حدود ما يتذكره الناس أن المياه قد وجدت فيها أبداً . كانت تباع فيها في البراميل أو تحفظ في صهاريج مخصصة لذلك.

هذه الاكتشافات ولدت حمى حقيقية من العمل . وبادر ابن سعود إلى توجيه الأمر بإعادة العمل في الآبار المتروكة . (أكثر من مائة منها تم اصلاحها وتعميقها في منطقة نجد فقط) ثم بدء ببناء الأقنية والممرات المائية عبر الصحراء ، بل بدء ببناء سدود لاحتجاز المياه في جبل طويق ، سلسلة الجبال التي تقوم بدور السلسلة الفقرية للجزيرة العربية الوسطى ، وقد تم هذا كله بإدارة وزير المالية عبد الله السليمان . وأخيراً تم حفر شبكة كاملة من الآبار الارتوازية الجديدة ، التي وصل بعضها إلى عمق ٢٥٠ م . أما اجمالي المنسوب من مياه الآبار المحفورة فإنه يسمح بتزويد ٤٠٠ ألف ومليوني رأس من الماشية بحاجتهم منها في العام الواحد.

هذا وقد انتشر في الصحراء كما ينتشر الحريق ، نبأ أن الملك قد فتح مواطن جديدة للمياه ، فإذا بالناظر يرى أمامه مشهداً يدعو إلى الدهشة والعجب . لقد توافد مائة ألف من البدو يسوقون أمامهم مائة وخمسين ألفاً من الجمال ، ومائة ألف من المعزي ، ثم مائتي ألف من الخرفان ، وتدفقوا جميعاً نحو خط الآبار ، في تجمعات فرحة ، لسقاية حيواناتهم . أما أكثرهم فقد عادوا إلى الهضاب العالية التي كانوا قد جاءوا منها بعد أن ذهب الظمأ عنهم وملأوا قربهم لكن آخرين منهم لم يغادروا هذه الأمكنة واختاروا البقاء في الوديان [٢].

وبفضل هذه المياه المتدفقة ، التي خرجت إلى الدنيا بصورة مفاجئة ، كان من المنتظر أن تمتد وتنتشر، حدائق، وحقول من النخيل ، ومستعمرات زراعية . إن وجه منطقة كاملة من الكرة الأرضية سيجد نفسه في حالة تغير وتحول كليين .

---

١) أنظر المجلة الأميركية أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٤٧ م .

٢) أنظر ، ج بير شرال : الضيق العربي ، الأورور ، ٢٨ أغسطس (آ ب) ١٩٥١.

إستقدم الملك من الولايات المتحدة مهندسين زراعيين وطلب منهم أن يقدموا إليه تقريراً يقيمون به الوضع الزراعي في البلاد . فراح هؤلاء الخبراء يجوسون خلال المملكة في كل اتجاه لحصر مواردها ووضع تقديرات لكفاءاتها رفعوا إلى ابن سعود تقريراً حافلاً بالحيوية والحماسة . هذه الوثيقة كانت مؤلفة من مائة صفحة ، كل منها أشد تفاؤلاً من غيرها . والمثل على ذلك أن التقنيين الأميركيين قد ظهروا بكامل قوتهم حين باشروا بتخصيص ٢٦ ألف هكتار من الأرض للزراعة في منطقة الأحساء وحدها ، ثم تعهدوا بمضاعفة هذا الرقم خلال ثلاثة أعوام . أما قطاف الثمار فإن من الممكن أن يضاعف ثلاث مرات أو أربعاً في فترة قصيرة . في كل مكان كان يمكن زيادة الانتاج في تربية الحيوانات أو زراعة الأرض . ثم ينتهي التقرير بعد ذلك بالتوكيد الواعد التالي : إنه ، من الناحية العملية ، لا حدود للإمكانات الزراعية في الجزيرة العربية . " .

هذه المعطيات ذهبت بعيداً إلى ما وراء آمال الملك . فقرر ، منذ بلغته وأصبحت بين يديه ، أن ينتقل إلى مرحلة التنفيذ . وكان غرضه الأول هو تكثيف المستعمرات الزراعية وزيادة عددها وربط إحداها بالأخرى بسلسلة من الحدائق .

أما بساتين الرياض وحدائقها فمن الطبيعي أن تكون موضع الاهتمام الخاص من قبل الملك ، وها هو جيرالد دوغوري الذي زارها عام ١٩٣٥ ، قد صدمته دهشة عارمة بسبب إزدهارها غير العادي . يقول لنا دوغوروي : " كانت ترى على امتداد المياه الجارية في وادي حنيفة ، أعداد كثيرة جداً من أشجار المشمش والرمان وقد فصلتها بعضها عن بعض مربعات من نبات البرسيم ، ذي الخضرة الزمردية ، وكانت كمائم كثيرة تطير من هنا وهناك ، بين

شعاعات الشمس ، أو ترسم دوائر حول جذوع النخيل الذهبية [1] . هذه الحدائق التي تزدهر طوال العام كله لم تكن الوحيدة من نوعها . كان يوجد مثلها في سليل ، ومكران ، وسلمى وليلى ، وظهارة وديلام ومنفوحة وسدوس والحوطة والمجمع وجلاجل وزلفي ، وهذه كلها قد نظمت على درجات متفاوتة في الإرتفاع على سفح جبل طويق ، تشرف عليها القصور المحصنة التي كان عبد العزيز قد استولى عليها خلال شبابه والتي يعود بعضها إلى عصر سعود الكبير.

---

١) أنظر المجلة الأميركية ، أكتوبر (تشرين أول) ، ١٩٤٧ م .

وكانت لابن سعود مزرعة نموذجية كما كان مثلها لمصطفى كمال . وكان ، كالغازي ، يقضي فيها تقريبا كل الأوقات التي لا يدخرها لشؤون الدولة . كانت موجودة في منطقة الخرج ، وهي واحة طبيعية مساحتها ١٢ كيلو متر مربع على بعد ٥٠ كيلو متر عن مدينة الرياض . إن الملك ، الذي أسكن فيها مجموعة من قدماء الإخوان المحاربين مع أفراد عائلاتهم ، طلب من ادوارد أن يشرف عليها وأن يجعل منها مركزاً تجريبياً يصلح أن يكون نموذجاً يقتدى به من قبل المؤسسات والمراكز المشابهة .

وهنا استحضر إدواردز أربعة اختصاصيين من تكساس . ثم بنى ، مستعيناً باليد العاملة المحلية ، قناة من السيمنت لجر المياه طولها ١٨ كيلو متر . وتغذيها أربع مضخات قوية ، تصب ٣٥ ألف ليتر في الدقيقة الواحدة ، وفي وسع كمية المياه هذه أن تروي مساحة من الأرض تبلغ ٣٠٠٠ هيكتار . على أن النتيجة قد جاوزت تقديرات الخبراء وتنبؤاتهم . فلم تكد الأرض تسقى بالمياه ، وقد كانت متروكة دون سقاية لقرون عديدة سابقة ، حتى استيقظت من سباتها وكشفت عن خصوبة تكاد تكون ذات طابع تفجيري.

كتب إدواردز إلى أسرته : كل شيء هنا ينمو بطريقة سحرية رغم ريح السموم والعواصف الرملية . نبات الحلفاء، والشعير ، والبندورة ، والجزر ، والبصل ، والبطيخ الأصفر والباذنجان ، كل هذا ينمو ويتكاثر بغزارة مدهشة . أما حقول القمح فإنها تعطي ١٧ قنطاراً في الهيكتار الواحد ، بينما لا تزيد النسبة في تكساس عن ٥ ، ٤ ، وأما البرسيم ففي وسع المزارع أن يحصده خلال عشرين يوماً فقط ، مما يسمح باستخراج ١٨ موسما في كل عام . قارنوا هذا بالمواسم عندنا حيث يتراوح عددها بين ٤ ، ٥ وحسب [1]. وعندما بلغ المركز التجريبي في الخرج أعلى مردود له،

طلب ابن سعود من ادواردز ، أن ينظم له خطط وزارة الزراعة . وهي مؤسسة لم يسبق للجزيرة العربية أن عرفتها عبر تاريخها كله ، كما هي خليقة أن تبدو ظاهرة شاذة غريبة قبل تلك الفترة بأعوام قليلة . كان القدماء يقولون دائما يقولون دائماً : " الحظ السعيد ذو لون أخضر " .

١) أنظر المجلة الأميركية ، أكتوبر (تشرين أول) ، ١٩٤٧ م .

هكذا دأب الملك ، دون أن يخامره إحساس بالتعب ، على دفع الجزيرة العربية إلى الأمام ، يغذي حماسة بعضهم، ويرد بعض انتقادات البعض الآخر ، ويثير الحماسة فيمن حوله بالمثل الذي يضربه لهم في نشاطه وحرارة سلوكه .

لكن هذه الحمى من الإبداع كانت بعيدة عن أن تفوز بالتأييد الجماعي . كان " العلماء " يتساءلون ماذا يريد الملك من هذا كله ؟ ألم يكن في وسعه الاكتفاء بحكم البلاد التي فتحها بهدوء خالص ؟ ماذا تعني هذه البدع المقلقة التي يفرضها على الجزيرة العربية ؟ السيارة والطيارة ، والتليفون ، واللاسلكي ؟ وانطلقت الألسنة دون قيد ، ثم لم يلبث الأفراد ذوو النفوذ من الفقهاء والعلماء حتى أخذوا يهمسون في الآذان بأن إمامهم قد باع روحه للشيطان . فالملك يقود البلاد إلى الهاوية والضياع ، فيما لو استمر على هذا النهج . وكان " المطوعة " ينتقلون من قرية إلى قرية، يحذرون الناس ويحرضونهم على هذه البدع الشيطانية ، ويرددون القول المأثور الذي كان يؤيده السلف من القدماء : "لا خير في الجديد أبداً " .

والحقيقة أن هذه المعارضة لم تكن تقلق ابن سعود أبداً . ألآن وقد انطلق في طريقه ، فإن شيئاً لن يوقفه عن متابعة مسيرته . وراح يتسلى في إسكات المعارضين بأساليبه التي يعرف أسرارها دون سواه بعيداً عن أن يواجه الإنتقادات بطريقة مأساوية ، فيهزم كل هؤلاء الرجال ذوي الوجوه الكئيبة الجليلة .

وعندما قرر أن يمدد خطوط أول جهاز تليفوني في قصر الرياض إستدعى مائة من أشهر فقهاء الإسلام ووضعهم أمام الجهاز على طريقة الأمر الواقع .

قال لهم : " يزعم بعض الناس أن هذا الشيء الغريب يستطيع أن ينقل الكلام إلى مسافات بعيدة . فإذا تكلمت في مكة سمع كلامي في الرياض ، والعكس بالعكس . إنه يثير الإهتمام حقاً لكنني شديد الحذر منه . وأيضاً فقد استدعيتكم ، لكي تطمئنوني . فأني أخاف أن يكون في هذه البدعة فخ شيطاني . ولذلك فإن أحدكم سوف يتلو الآيات الأولى من القرآن أمام هذا الثقب ثم بأخذ اخر منكم السماعة في أبعد حجرة من القصر . فإذا جرى إعتراض الكلام المقدس أو حدث أي تعديل فيه ، فأنه يكون دليلاً إلى أن الشيطان من وراء ذلك . ولما كنتم خير فقهاء الشريعة ، فستكونون أخلق الجميع بإدراك هذه الحقيقة " .

وأقدم الفقهاء على فعل ما طلب إليهم فعله . فجرى نقل آيات القرآن كلها من خلال التليفون ، دون حدوث أي تعديل أو تشويه . عند ذلك بادر علماء القرآ، إلى طمأنة الملك وقالوا له : ليس في هذا الجهاز أي ضرر أو أذية .

وفي يوم آخر بينما كان ولد عبد الرحمن في مكة ، أخبره بعض شرطته أن فقيهاً معروفاً في الرياض ، اشتهر بصلاحه ودينه أقدم على ارتكاب خطيئات خطيرة في ممارسته لبعض وظائفه . وقد كان هذا الرجل بالإضافة إلى ذلك من أشد المشنعين عليه . فاستدعاه الملك تليفونياً .

مضى رسول يبحث عن الرجل في مسجده واصطحبه أمام الجهاز وهو يقول له : – إن هناك من يكلمك من مكة – .

أخذ الرجل السماعة وأنصت فإذا به يسمع رواية مفصلة لكل ما صدر عنه . فجثا على ركبتيه أمام الجهاز العالم الذي يقص بصوت مرتفع ما كان يظن إن أحداً لا يعرفه غيره ، ثم راح يعترف أمامه كما لو كان في حضرة الله نفسه.

وأردف الصوت قائلاً : " إنني أغفر لك خطيئاتك شرط ألا تقول سوءاً في الملك بعد اليوم أبداً " .

وتعهد الرجل المذعور بأن يعمل بما أريد منه عمله . ثم أمتنع عن شن حملته التشهيرية ولم يعد يتكلم عن أجهزة التليفون إلا بإحترام كلي.

كان الملك يحلم بتزويد الجزيرة العربية بشبكة من الخطوط الحديدية والطرق شبيهة بالشبكات الموجودة عند الأمم الغربية الكبيرة . لكن الحلم شيء أيسر من تحقيقه ! فلم يلبث الملك أن وجد نفسه أمام عقبة جديدة، يعتبر التغلب

عليها أصعب من التغلب على ندرة الماء : إنها عدم التوفر الأموال الضرورية لذلك . فأين يمكن الحصول على المبالغ التي يحتاج إليها تنفيذ أشغال بمثل هذه الضخامة ؟ إن الدخول النظامية التي يمكن الإعتماد عليها هي تلك الناشئة من الرسوم المجبية من الحجاج إلى مكة والواقع أن اقتطاع هذا الرسم لم يكن يسر ابن سعود ، لأنه يعطي حماية المدينتين المقدستين طابع الإستغلال التجاري ، إن أية زيادة يجريها على الرسوم تعيد إلى الناس ذكرى الحسين السيئة . يضاف إلى ذلك أن هذه الدخول الكافية للقيام بحاجات الحجاز ، لا تسمح بتحقيق التوازن المطلوب في ميزانية الدول السعودية ، فكيف بتمويل برنامج للقيام بمشروعات كبيرة ؟ كانت الحاجة ماسة إلى مبالغ ضخمة لشراء السيمنت والفولاذ والأدوات والآلات وكل الأجهزة التقنية التي يحتاج إليها " تطوير الجزيرة العربية " . إن البلاد لم تكن تصنع شيئاً ولا تملك أي مصدر من مصادر الطاقة . كان بؤسها عبئاً ثقيلاً . ولا سبيل إلى الانتقال بين ليلة وضحاها من الإقتصاد الأبوي ، إلى الإقتصاد الرأسمالي.

مرة أخرى شعر ابن سعود أنه أمام جدار عريض ، وأنه قد بلغ الحد الذي لا يسطتيع مجاوزته . لكنه مرة أخرى ، كان ذا حظ كبير — حظ لم يسمع به من قبل . في هذه الحياة الخصيبة بالضربات المسرحية والشبيهة بقصة ألف ليلة وليلة ، أرادت الأقدار أن يحدث فيما بعد ما هو ادعى إلى الدهشة والعجب .

في خريف عام ١٩٢٠ ، قدر لميجور انكليزي يدعى فرانك هولمز ، كان منصرفاً إلى أعمال التنقيب في منطقة البحرين لحساب شركة بحرية بريطانية ، أن يقوم باكتشاف غير مرتقب . فبينما كان يقوم بأعمال الحفر للحصول على الماء ، وقع على بحيرة صغيرة من النفط . والبحرين هي جزيرة واقعة جنوبي الخليج العربي على بعد ٢ كيلو متر من شاطىء الأحساء . وكان يحكمها شيخ يتمتع باستقلال ذاتي سبق له أن وقع على معاهدة حماية مع الامبراطورية البريطانية شأن كل الحكام المجاورين لشبه جزيرة عمان.

توجه هولمز إلى شيخ البحرين وطلب منه أن يمنحه حق الخيار في هذا الحقل النفطي. فحصل عليه. وبعد أن تزود بعقد قانوني ، عاد الميجور إلى لندن وعرض حقه هذا على شركات نفطية في المدينة . لكن هذه الشركات قدرت أن المسألة هي من التفاهة بحيث أنها لم تثر اهتمامها . فالنفط في الجزيرة العربية لم يكن غير أسطورة ، وعلى كل حال فإن انكلترا كانت تملك كمية كافية في إيران والعراق حتى لا تربك نفسها بحقول نفطية جديدة.

ولما لم يعرف هولمز ماذا يصنع ، فقد باع إمتيازه بثمن ضئيل لشركة أميركية صغيرة، إنها شركة زيت الخليج . وقد كانت هذه الشركة تستغل بعض الآبار عند شواطىء الخليج العربي (ربيع عام ١٩٢٥). وتوقف الأمر عند هذا الحد ، ثم لم يتحدث أحد عنه بعد ذلك.

وعلى الرغم من أن هذه المساومات لم تحدث أية ضجة في تلك الفترة ، فقد أثارت اهتمام بعض الأوساط المالية.

وفي وسط يونيو (حزيران) من عام ١٩٣٠ ، رؤيت مجموعة صغيرة من البدو ، تنزل عند شاطىء الهفوف في منطقة الأحساء ، تبدو في ظاهرها غريبة غير مألوفة . ومما لا ريب فيه أن أفرادها كانوا يعتمون بالعقال والعباءة ولهم لحى مجعدة . لكن الظاهرة الفريدة فيهم ، أنهم لم يكونوا ينطقون بكلمة عربية واحدة ولا يتلون الصلوات المعتادة ، ويحاولون جهدهم ألا يلفتوا الأنظار إليهم.

فما هو العمل الخفي الذي كانوا ينصرفون إليه ؟ ولم يكد إبن سعود يعلم بحضورهم حتى أمر بإجراء تحقيق معهم.

أجابت شرطة الأحساء قائلة : هؤلاء على التحقيق عملاء سريون لدولة أجنبية . إن جهلهم الفاضح بالعادات الدينية في البلاد ، وتخفيهم الظاهر والسرية التي يحيطون بها أنفسهم ، هذا كله لا يمكن أن يخطئه أي إنسان من الناس.

قرر الملك أن يعتقلهم ، ليخضعهم لاستجواب نظامي ، حين علم فجأة أن هؤلاء البدو الغرباء هم في الحقيقة مجموعة من المنقبين الأميركيين ، جاءوا ليروا ما إذا كانت هذه المنطقة تحتوي على نفط وهنا عدل إبن سعود عن رأيه فأمر حاكم الأحساء بأن يترك هؤلاء الشبان يتفرغون لأعمالهم بكل هدوء . ولئن كان ولد عبد الرحمن قد رزق إلهاماً سعيداً ، فقد كان الإلهام في ذلك اليوم [١].

قام هؤلاء البدو المزورون بسلسلة من أعمال التنقيب . فاكتشفوا أن بحيرة النفط التي تنتشر من القوقاز حتى الخليج العربي ، مروراً بفارس والعراق ، تمتد تحت البحر حتى قلب شبه الجزيرة العربية فكم كان يوجد من " الذهب الأسود " تحت رمال الصحراء ؟ كان من المستحيل الإجابة عن ذلك . لكن الثابت أنه كثير جداً ، في ضوء الكميات التي تم الحصول عليها من بعض التقنيات الجارية . وعلى كل حال فإن النماذج التي أخذت كانت ذات خصائص استثنائية .

١) يزعم بعضهم — والأمر لا يبدو مستحيلاً — إن الملك قد غير رأيه بعد تدخل كينيث جـ . ادواردز ، الذي كان يهتم في ذلك الوقت بالمركز الزراعي في الخرج وكان ابن سعود يحبه كثيراً . فادواردز من تكساس وكذلك المنقبون أيضاً ...

هذا النبأ أحدث من الضجة في أوساط الغرب المالية أكثر كثيراً مما أحدثه اكتشاف هولمز قبل ذلك ببضعة أعوام. "يبدو أنه قد عثر على النفط في الجزيرة العربية ! " هذه العبارة طارت من فم إلى فم ، وكررت في لندن ، وأمستردام ، ونيويورك وباريس . ثم رؤي في الرياض ممثلو أقوى الشركات جاؤوا يعرضون على الملك شراء حقوله النفطية . لقد كان بينهم رسل شركة رويال دوتش وشل ، وستاندرد أوبل ، والمفوضية السوفياتية للمحروقات السائلة، فيهم أميركيون ، وانكليز ، وهولنديون ، وأرمن ، والمان ، وروس وحتى يابانيون . كانوا يتزاحمون جماعات في أبهاء القصر ، ويطالبون بمقابلتهم في إلحاح عصبي محموم . وكان وزير المالية محاصراً بالطلبات الكثيرة . كل واحد منهم يريد أن يقابله قبل الآخر . من أجل أن يسبق منافسيه . كلهم حسب أقوالهم ، لا يفكرون إلا بسعادة الشعب العربي ، ويشعرون بحب مفاجىء نزيه للجزيرة العربية . لكن ابن سعود لم يخدع بأقوالهم الجميلة . لقد جعلهم ينتظرون أسابيع كثيرة . وعندما لفت نظره بأن هذا يتعارض مع ما عرف عنه من روح المجاملة أجاب مبتسماً .

" دعوني أتصرف ! فأنا زعيم ديني . وإنني أعرف كيف يعامل هذا النوع من الحجاج ! " .

ورغم أكثر العروض فتنة وجاذبية ، رفض الملك رفضاً قاطعاً أن يبيع حبة تراب من أراضيه . كان يرى أن أرضه تخص شعبه بقدر ما تخصه هو شخصياً ، وانه لم يكن من حقه أن يتنازل عنها . كان لا يوافق إلا على تأجيرها . ولا يكون التأجير إلا لفترة محدودة ، وعلى شرك أن تعود إليه الملكية التامة لكل التمديدات والآلات بعد انتهاء العقود.

وكان ابن سعود في أمس الحاجة إلى المال ليتابع برنامجه في تطوير الجزيرة العربية وتحديثها . ومن الممكن أن تصبح قضية النفط هذه مصدراً لموارد كبيرة . لكنه كان من التعقل والحذر بحيث لم يبادر إلى تقييد يديه قبل أن يفكر ملياً في كل وجوه المسألة.

وأخيراً قرر التعامل مع شركة أميركية صغيرة ، شركة زيت الخليج ، إنها الشركة التي كانت قد اشترت امتياز هولمز القديم .

وعندما سئل الملك عن السبب الذي دفعه إلى اختيار هذه الشركة الأميركية المتواضعة دون غيرها من شركات البلدان الأخرى ، صرح قائلاً :

" إن الشركات الأميركية تتمتع باستقلال أكبر بالنسبة لحكومتها . يضاف إلى ذلك أن الولايات المتحدة هي أكثر بعداً عن الجزيرة العربية وليست لها أغراض سياسية فيها كالدول الأوروبية . وأخيراً فإن بعض مواطني الولايات المتحدة قد قدموا لي خدمات لا تقدر بثمن . وأنا أرجو أن يفعل هؤلاء مثلهم " .

هكذا حاول رئيس زيت الخليج وابن سعود القيام بلعبة حاذقة . لقد اعتقد كل منهما أنه وضع في لعبته كل الأوراق الرابحة . لكنهما كانا مخطئين .

إن الشركات الإحتكارية النفطية ، باعتبارها وريثة لكبار السادة الإقطاعيين الذين جاءوا يقيمون في بلاد الشرق عصر الصليبيين ، تنتشر اليوم حول الخليج العربي كله فهناك الشركة الإيرانية الإنكليزية ، وشركة نفط العراق ، وشركة رويال دوتش – شل –وشركة نفط الكويت ، وشركة أرامكو ، وشركة ستاندرد أويل نيو جرسي من كاليفورنيا ، وتكساس أويل ، وسوكوني فاكيوم وأخرى غيرها ، اجتمعت ، " تضخ الذهب الأسود " دون ملل أو تعب من أحشاء الأرض أما إقطاعاتها فهي إمتيازاتها ، ومناطق طرادها هي الحقول النفطية ، وقلاعها المحصنة هي المصافي ، وبروجها الرئيسية هي " بروج الآبار " المتلألئة ، ورمز قوتها هو هذه الأساطيل من الناقلات التي تشق الطرق البحرية ليلاً ونهاراً متجهة من شط العرب إلى المحيط الهندي.

إنها الآن مؤسسات جبارة ، لكنها لم تكن كذلك دائماً كانت بداياتها متواضعة ، بل صعبة جداً . ثم تطورت ونمت عبر سلسلة من الأزمات ، والمنازعات ، كما أنها ، من أجل أن تمضي أعمالها في الصمت المخملي لمجالس الإدارة أو في ظل مكاتب الوزارات ، لم تتورع عن أن تكون عنيفة ، خطرة ، وفي بعض الأوقات دموية أيضاً . إن " حرب النفط " التي تدور في عنف شديد منذ نصف نصف قرن في هذه المنطقة من الكرة الأرضية قد سجلت هدنات وفترات استراحة في بعض الأوقات ولكنها لم تعرف السلام أبداً والدخول في هذه الشبكة المعقدة من المصالح والأطماع يفرض علينا العودة قليلا إلى الوراء.

حول عام ١٩٠٦ ، اكتشف رجل أعمال انكليزي ، دارسي ، مادة النفط في بلاد فارس ، وحصل على إمتياز من قبل الشاه، وأسس مع رؤوس أموال بريطانية شركة الزيت الإنكليزية – الإيرانية . بعد ذلك بقليل استطاع السير هنري دتردينغ ، رئيس شركة رويال دوتش – أني حصل من سلطان تركيا عبد الحميد بواسطة أرمني يدعى كالوست غولبانكيان ، على الحق في استغلال النفط من منطقة الموصل [١]. ولقد أسست لهذا الغرض شركة دولية " شركة النفط التركية " ، حصلت على خمسين في المائة من أسهمها شركة النفط الإنكليزية – الإيرانية التي يملكها دارسي ، كما حصل مصرف دوتش على ٢٥ في المائة من أسهمها أيضاً . أما الربع الأخير فقد أدخر للمجموعة الانكليزية الهولندية التي يملكها ديتردينغ وغولبانكيان . وبفضل هذا النظام ، كانت انكلترا قد وضعت يدها على نفط الشرق كله . والواقع أن التغييرات السياسية والإقليمية الناتجة عن انتصار الحلفاء عام ١٩١٨ وانهيار الإمبراطورية العثمانية ، لم يحدث أي تعديل في هذا التفوق . وفي عام ١٩٢٠ نقلت معاهدة سان ريمو إلى فرنسا ملكية ربع الأسهم في شركة نفط التركية الذي كان ملكا للألمان من قبل . واستمرت انكلترا تشرف على الأربا ع الثلاثة من هذه المؤسسة .

على أن رجال الأعمال في لندن كانوا مصرين على ألا يتركوا شيئاً للمصادفة . فبعد سلسلة من المؤتمرات المعقودة مع المجموعات النفطية الأميركية الكبرى ، قبلت هذه الأخيرة الإمتناع عن التدخل في هذا القطاع . وزيادة في الأمن حصلت وزارة الخارجية البريطانية ، وقد كانت أقوى الدوائر الدولية في البلدان العربية ، من قبل كل الحكام ، إبتداء من أمراء الأسرة الهاشمية حتى الشيوخ ذوي الإستقلال الذاتي في شواطىء الخليج العربي ، على وعد قاطع بأن أي إمتياز للتنقيب لا يمنح فيما بعد لشركات أو حكومات غير بريطانية . لكن ابن سعود وحده ، هذا " المغامر الذي لا ذمة له "كما يقول خبراء وزارة المستعمرات " والذي كان لا يسيطر إلا على صحار عارية من كل فائدة " قد أستبعد عن هذه المفاوضات.

وبعد أن دعم الإنكليز إمتيازهم في الجانبين الأميركي والعربي التفتوا نحو شركائهم الفرنسيين والهولنديين . فاستطاعوا أن يستدرجوا هؤلاء إلى التوقيع على اتفاق تقرر فيه أن أية دولة مستفيدة من إقتسام الإمبراطورية العثمانية ليس من حقها القيام بتنقيبات جديدة أوتطوير استغلالها للأبار الموجودة ، داخل محيط معين ما لم يجر إتفاق مشترك على ذلك . إن هذا المحيط المحدد بما يسمى " خط الشريط الأحمر" يقابل على التقريب حدود المنطقة القديمة للسلاطين.

١) كشفت التنقيبات عن وجود هذا السائل الثمين في كركوك وفي بابا — غورغور.

وقد كانت الجزيرة العربية كلها داخلة فيها شأن العراق وسوريا وفلسطين وشرقي الأردن .

وزيادة في الأمن كانت الشركات الإنكليزية ، المكلفة بالحفاظ على محتوى هذا الإتفاق داخل " المحيط الأحمر " قد أسست مجموعة إحتكارية تملك أكثر الأسهم وفرض على الشركات غير الإنكليزية أن تتعاون معها بشروطها . هذه المجموعة الإحتكارية كانت تحدد ثمن مبيع النفط وحصص الإنتاج. وهذه الأرقام لا تقبل أي تعديل إلا بالموافقة الجماعية لأعضاء المجموعة الآخرين ، وهي موافقة ، لم يحدث يوماً أن أعطيت ما لم يكن الطلب صادراً عن شركة بريطانية .

فهل يمكن أن نتصور امتيازاً أكثر ضمانة ، وقلعة أكثر مناعة وحصانة ؟ وأيضاً فإن غضب الإنكليز كان كبيراً حينما علموا أن الإمتياز الممنوح للميجر هولمز من قبل شيخ البحرين قد انتقل إلى شركة أميركية هي شركة زيت الخليج ، والتي حصلت أيضاً على إمتياز من قبل ابن سعود . وارتفع الصريخ لهذه الفضيحة في الأوساط المالية اللندنية. فأجاب شيخ البحرين في براءة متصنعة على عتاب حكومة صاحب الجلالة ، بأنه لم يكن قد حنث بكلامه أبداً ، ما دام أنه قد اتفق مع شركة مسجلة في كندا . وقد كان يظن دائماً أن كندا تشكل جزءاً لا يتجزأ من الكومنولث البرطاني (١).

بادرت الشركات الإنكليزية إلى اتخاذ سلسلة من الإجراءات المعاكسة غايتها وضع حد للنتائج المترتبة على هذا التسلل إلى منطقة نفوذها . فأرغمت شركة زيت الخليج على الارتباط بالمجموعة الاحتكارية واشترطت عليها منذ ذلك الوقت أن تحترم قوانينها . وعندما طلبت شركة زيت الخليج من المجلس الأعلى للمجموعة الإحتكارية حصة إنتاج أعلى تسمح لها باستغلال حقول النفط في الاحساء (وهي التي حصلت على إمتياز التنقيب فيها مباشرة من ابن سعود) عارضها المجلس برفض قاطع. لأن المجموعات الإنكليزية تريد أن تتجنب بأي ثمن منافسة قد تعرض أسعار

النفط للهبوط في الأسواق العالمية . وكانت هذه الشركات تريد " إجداب " النفط العربي . وعلى ذلك فإن نفط الأحساء قد قضي عليه بألا يرى النور أبداً .

---

١) أنظر، جـ . ر بيرشرال : الضيق العربي ، الأورور ، ٢٧ أغسطس (آب) ١٩٥١.

هكذا ساءت أوضاع شركة زيت الخليج ولم تستطع أن تغطي نفقاتها بعد أن أمسك بعنقها حتى النقض البريطاني. ولما لم تتوصل إلى استغلال حقول الإحساء النفطية فإن إتفاقها مع إبن سعود تعرض لأن يصبح لاغياً ثم لم يعد لديها أي مورد غير أن تبيع امتيازها لشركة أميركية أخرى ، هي شركة زيت البحرين (التي كانت فرعاً من شركة ستاندرد أويل من كاليفورنيا)مقابل خمسين ألف دولار.

وعندما قابل رسول ستنادرد أويل ، بعقده الجديد ، مجلس إدارته سأله الرئيس بهيئة المستريب :

- " ماذا يمثل على التحقيق واقع هذا المشروع ؟ "
- أجاب قائلاً : " إنه يمثل كتلة هائلة من الرمال والذباب والحرارة ، ولكنه يمثل أيضاً كتلة عظيمة من الثقة ! "

وفي عام ١٩٤٣ ، أي بعد عشر سنوات ، كان على هارولد أيكس ، سكرتير الدولة للشؤون الداخلية

في حكومة روزفلت أن يصرح أمام مجلس الشيوخ الأميركي قائلاً :

- " إن شراء امتياز النفط العربي من قبل ستاندارد أويل من كاليفورنيا ، مقابل خمسين ألف دولار

هو أعظم صفقة تجارية عرفت في العصور الحديثة . "

كان هذا هو الشرخ الثاني في منطقة النفوذ النفطية الإنكليزية وهو شرخ لم يلبث أن أتخذ سريعاً أبعاد ثغرة كبيرة .

ذلك أن شركة ستاندرد أويل من كاليفورنيا ، باعتبارها لا تشكل جزءاً من المجموعة الإحتكارية ليست مرغمة على احترام القرارات الاستبدادية . وبذلك نجت من القوانين المالتوزية [١] . التي يمليها الإنكليز. لقد تجاهلت تحديدات الحصص وحقوق النقض عند قادة الشركة الانكليزية الايرانية وشركة نفط العراق ، ثم بادرت إلى القيام

بعمليات تنقيب جديدة في الأحساء ، وطورت الآبار وسعت إلى الحصول على أسواق في الشرق الأقصى [٢].

---

١) المالتوزي أي من أنصار نظرية مالتوس وهي تقضي بمعارضة التوسع الإقتصادي " المعرب " .

٢) وذلك لكي لا تدخل في نزاع الشركات النفطية الأميركية الأخرى التي كانت تبيع إنتاجها في أوروبا .

والجدير بالذكر أنه كانت توجد شركة أميركية أخرى هي شركة زيت تكساس تملك شبكة بيع في بلاد الهند . وكانت ستاندارد أويل من كاليفورنيا وتكساس أويل قد اتفقتا عام ١٩٣٣ على تأسيس شركة جديدة هي شركة كاليفورنيا أرابيان ستاندارد أويل . وهذه الأخيرة بادرت إلى إستغلال منطقة الأحساء وراحت تنافس بقوة كلا من الشركة الإنكليزية الإيرانية وشركة شل في الأسواق الأسيوية ، غير مترددة في خوض معركتها ضد منافساتها البريطانية دون إستثناء .

وقد احتجت الحكومة الإنكليزية لدى واشنطن ضد ما اعتبرته " إنتهاكاً صريحاً لاتفاقية عام ١٩٢٨ " ، واستدرجت الحكومة الفرنسية إلى مساندتها في هذا التدبير [١] . لكن الذي حدث أن الدور قد جاء على وزارة الخارجية الأميركية للتظاهر بالصمم.

منذ ذلك اليوم ، تم إنقاذ النفط العربي ، فلن يعترض شيء انطلاقة العرب التي تثير الدوار . وفي عام ١٩٣٥ بلغ إنتاج النفط ١٧٤ ألف طن ، وفي عام ١٩٣٦ ارتفع الرقم إلى ٦٤٠ ألف طن . أما في عام ١٩٣٧ فقد جاوز الرقم المليون فبلغ مليوناً ومائة ألف طن ثم جاء العام ١٩٣٩ فسجل الانتاج مليوني طن من النفط بينما بلغ في عام ١٩٤١ ثلاثة ملايين من الأطنان . وظهرت مصاف كثيرة على امتداد الشاطىء . يضاف إلى هذا كله كيلومترات من الأرصفة والرافعات والصهاريج وأحواض الترميم تشهد كلها على الحيوية الكثيفة لمنطقة لم يكن يزعج صمتها حتى ذلك الوقت غير الأغنيات الرتيبة لصيادي اللآلىء .

أقبل فريق من السكان الوطنيين على العمل في تصفية النفط ، وقد اجتذبته الأجور المرتفعة [٢]. كما أخذ يعمل على تعبئة البراميل وتحميل الناقلات بفيوض لا تنقطع من الذهب الأسود الذي كان ينبثق من الصحراء . إن هذا النشاط كان بدوره يسكب ، على صورة رسوم وعائدات ، مبالغ متزايدة الأرقام في صناديق الدولة السعودية

١)كان ذلك باعتبار فرنسا شريكة لها في شركة نفط العراق .

٢) في عام ١٩٥٥ كانت الأجور قد ارتفعت من ١٢ ألف فرنك في الشهر الواحد لعامل عادي ، إلى ١٠٨ آلاف فرنك لعامل ماهر.

والجدير بالذكر أن ما حدث لم يكن هو الرفاه بعد ، لكنه كان تمهيداً له ومدخلاً إليه . لقد أصبح من المنتظر أن يتم التغلب على عقبة الفقر.

وفي الوقت الذي كان فيه نبات الحلفاء والقمح ينبتان بكثرة هائلة في ممرات المياه ، كانت السكك الحديدية والطرق قد بدأت تتطور وتمتد في ممرات النفط . فانتشرت الجادات العريضة المسفلتة على امتداد الشواطىء ، ثم بدأت تتوغل شيئاً فشيئاً في داخل البلاد . هذا وقد نشأت أسطورة حول "كنوز الأحساء "كان يقال في أميركا " إن الجزيرة العربية هي بلاد العدم والثراء " . وكان هذا صحيحاً لأن كلا منهما يحاذي الآخر بصورة غريبة . لقد كان العدم فوق سطح الأرض بينما الثراء موجود في باطنها.

هذا وقد جاء منقبون آخرون ، بآلاتهم السابرة ومراجيفهم [١] . فاكتشفوا أن باطن الجزيرة العربية واحد من أغنى المناطق في العالم كله ، لا يحتوي نفطا فقط ، بل حديداً ، ونحاساً ، وفضة ، ومعدن التانجستين ، والكروم وحتى الذهب أيضاً . وفي عام ١٩٣٧ أسست جماعة من الماليين النيويوركين في جدة النقابة المنجمية للعربية السعودية ، لاستغلال الأراضي الحاوية للذهب في الحجاز . ومن هنا أعيد العمل في حقل بحران ، بعد أن توقف فيه لعدد من القرون . وكان محمد قد أقطع صاحبه بلالا المؤذن هذا المنجم. ويعتبر هذا المنجم ، واحداً من أقدم مناجم العالم ، جرى العمل فيه لمصلحة سليمان أما اليوم فهو يزود بالذهب وزير مالية ابن سعود .

كان الملك يرى أن كل هذه الثروات يجب أن تعود إلى البلاد حينما تبلغ العقود الموقعة مع الشركات الأجنبية نهايتها ، ونهايتها هي حول العام ألفين للميلاد . لكن هل سيكون العربي في حال تسمح له بالاستمرار في إستغلال هذه الثروات ، أو أنه سيستمر في الموت جوعاً ، وسط هذا الموطن الأسطوري من الثراء بحيث يكون عاجزاً عن اعداد ما يحتاج إليه من العمل المنتج ؟ هل سيكون في وسعه أن يدرك خلال جيلين ، ما تكبده من الخسارة خلال ستة قرون من السلطان العثماني والوف كثيرة من سنين الاسترخاء والخمول والفوضى ؟

هذا كله يتعلق بالأجيال الطالعة وبدرجة التعليم التي ستوفر لأفرادها .. .

١) المراجيف مفردها مرجاف وهو جهاز تسجيل درجة الزلازل ومقدارها .

هكذا ، دفع ابن سعود بقوة الأشياء وطبيعتها ، كما هو شأن مصطفى كمال ، لمواجهة المسألة الكبرى التي يتعلق بها كل ما بقي من المسائل : إنها تربية الشعب . ومن الممكن القول بأن هذه المسألة كانت تفرض نفسها بطريقة أشد حدة في الرياض منها في أنقره ، لأن كل شيء في الجزيرة العربية يجب أن يعاد صنعه من جديد : كان الناس فيها كلهم أميين على التقريب . وعلى كل حال فإن الذكاء العربي أكثر مرونة وأشد حدة من الفلاح الأناضولي ، وكفاءته في هضم ما يلقى إليه أعظم منه وأسرع . فما الذي لا ينتظر من شعب بنى قصوراً كقصور بغداد وقرطبه ، وقدم ، مرة بعد مرة ، رجالاً من أمثال أبي عبيدة بن الجراح ، ومحمد بن القاسم وحسان وموسى بن نصير ، كما قدم شعراء من مثل أبي العلاء المعري وأبي الطيب المتنبي ، ورياضيين من مثل ثابت بن قرة والخورازمي ثم أمراء في مادة العلوم من مثل ابن سيناء وابن رشد ؟ لماذا لا يتكرر الوصول إلى القمم الفكرية التي تم التوصل إليها من قبل ؟

على أن الملك لم يكن يهدف أبداً إلى إحياء هذه الطاقات العقلية الرفيعة مرة واحدة كانت أطماحه أكثر تواضعاً . إن القضية عنده تقتصر على إعطاء العرب معارف تقنية وحرفية كافية بحيث تسمح لهم بالقيام بالمهمات التي يدخرها لهم مستقبل قريب . ثم يأتي الباقي بعد ذلك بعون الله ...

وكان ابن سعود قد خصص لمركز الدراسات الإسلامية في مكة مبالغ هامة مقتطعة من عوائد الحج ورسومه . ثم حول جزءاً من دخوله الجديدة لانشاء مدارس إبتدائية ومراكز للتدريب المهني . وأصبح تطوير التعليم العام واحداً من أكبر همومه التي ينصرف إليها ، لم يدع فرصة تمر دون أن يشير إلى أهمية هذا القطاع من قطاعات الدولة . فإذا لم يصبح العرب جديرين بتكوين طبقة إجتماعية متطورة ، في الوقت المعين ، فإن الوارثين لهم سيكونون مرغمين على تجديد الإمتيازات الخاصة بالشركات الأجنبية وستكون هذه الأخيرة هدفاً لاغراءات شديدة تدفعها إلى الاقامة المستمرة فيتبخر إستقلال الجزيرة العربية كما يتبخر الحلم ...

صرح الملك في خطابه الذي ألقاه في نوفمبر (تشرين الثاني) من عام ١٩٣٨ ، في مركز الخرج الزراعي ، إحتفالاً بالذكرى الخامسة لتأسيسه قائلاً : إن التطور التقني والصناعي في الجزيرة العربية يجب أن يماشي التربية المهنية للشعب

العربي ، فإذا لم نفعل هذا فإنه سيقضى علينا أبداً أن نستعين بالأجانب ونلجأ إليهم . إنه لا يحسن بشعب ، في المدى الطويل ، أن يعتمد على الآخرين لتنفيذ مهمات ضرورية لحياته ...

ثم تابع قائلاً : ماذا يفيدنا أن نزلزل الوصاية السياسية ، إذا كان الغرض منها إبدالها بوصاية إقتصادية ؟ أنني أعتقد أنه من الضرورة بمكان أن نطور هذه البلاد ، لا لانتزاع حريتها منها ، بل لنجعلها في حال تستطيع معها أن تستمتع بها بامتلاء تام . والأمل من أصدقائنا الغربيين ، الذين نجد في مساعدتهم شيئاً ثميناً جداً ، ألا يسيئوا الظن بمعنى أقوالي هذه . إنها لا تحتوي أي موقف عدائي بالنسبة لهم . أنهم يعلمون ، أن لهم في كل وقت ، حرية الإتصال بي ، وشرح صعوباتهم باطلاعي على رغباتهم — وهم يعلمون أن في وسعهم الاعتماد على تقديري لهم ، وعلى صداقتي ، وأن مساندتي الرفيقة العطوف لن تخطئهم أبداً .

" كان الشعب العربي يحذرهم قبل اليوم لأن المساوىء والشرور كانت تأتيه دائماً من قبل الأجنبي . هذا الوضع الفكري بدأ يميل إلى الإعتدال والتغيير منذ بعض الوقت . لقد لاحظت وتبينت أن العلاقات الوثيقة بل الصديقة العطوف قد انعقدت بين النخبة من رعاياي والتقنيين الأجانب . وهذا نابع من أنهم يجدون فيهم اليوم ، أدلاء سيحررونهم من الجهالة وسيفتحون لهم الطريق إلى ازدهار جديد.

على أن المطلوب من أصدقائنا الغربيين ألا يقعوا في الأوهام : إن هذه الصداقة لن يحتفظوا بها إلا إذا احترموا العادات ، والتقاليد والعقائد عند الشعب العربي ، إنني أرغب في أن يأتوا إلى هذه البلاد كمعلمين أساتذة لا كسادة متسلطين ، وكضيوف لا كفاتحين ، إن الجزيرة العربية هي بحمد الله ، من السعة بحيث تشبع كل الأطماح وترضيها باستثناء شيء واحد : إنه الاعتداء على وحدة ترابها الوطني . هذه الوحدة دفعنا ثمناً كبيراً للحصول عليها ونحن بها فخورون جداً ، بحيث نفضل موت الفقراء على أن نتنازل عنها . إنني على ثقة من أن الجزيرة العربية ستكون مستعدة لرفض كل ما في المدنية التكنيكية من الحسنات ، إذا كانت هذه الحسنات تعني الخضوع والعبودية لقوة أجنبية .

كان ابن سعود في هذا الخطاب ، ذي الوطنية الأرتيابية ، يعرف بوضوح تام خط السير الذي أختطه للبلدان صاحبة الإمتيازات وهذه الكلمات لم تكن تزعج المشرفين على العمال والمنقبين الأميركيين الذين ألقيت أمامهم . كانوا

يدركون تماماً عاطفة الإستقلال هذه . أو ليس إنهم هم أنفسهم كانوا أبناء لمستعمرين متحررين ؟ لقد كان في جهود هؤلاء البدو ، الزاهدين المتطهرين شيء يذكرهم بماضيهم . هم أنفسهم كانوا من قبل ، رواداً بائسين ، لا يملكون ، كرأس مال لهم ، غير قوة أذرعتهم وثقتهم بالله . وهم أنفسهم أيضاً كان قد فرض عليهم أن يدافعوا عن حريتهم ضد الأطماع عند دول أكثر غني وتطوراً منهم . إنهم وهم عشاق الشجاعة الجسدية ، كان جسد " الملك العملاق " يؤثر فيهم أكثر من خطبه . وكانوا يتناقشون فيما بينهم ليعرفوا ، ماذا كان من الممكن أن يكون ، في أميركا ، بطلاً في الملاكمة أو في لعبة " البيز بول " . وإذا كانت قدرية العرب قد صدمتهم في بعض الأوقات ، فإنهم لا يلبثون حتى يتذكروا أنهم قد رأوا أجدادهم يبحثون عن العرافين والكهان في التوراة ، تماماً كما يرون زملاءهم من العرب يستخيرون القرآن (١).

إنها مملكة مثيرة للفضول تلك التي تنتظم على هذه الصورة ، بفضل التكافل والتعايش بين عالمين متباينين متعارضين ، حيث تعكس الآراء الوهابية ، أصداء التراتيل اللوثرية في صخب الآلات المنقبة ، وهدير الجرارات .

في تلك الأثناء ، كانت السحب المنذرة بالعاصفة تتجمع من جديد في السماء الأوروبية . وجاء عام ١٩٣٩ . وقبل أن ينتهي هذا العام ، كانت فرنسا ، وانكلترا، وألمانيا وبولونيا مرة أخرى في حالة حرب . كان الحريق العالمي الثاني قد انفجر .

في عام ١٩١٤ أخذ ابن سعود علىغرة من الأحداث ، أما هذه المرة فقد بدا محترساً وعلى حذر. وفي عام ١٩١٤ كان فقيراً أعزل من السلاح . وفي هذه المرة كان أقوى كثيراً وأغنى بما لا يقاس ولا يقارن . وفي عام ١٩١٤ كان أميراً غير ذي شأن ، له سلطان مهزوز ، مبعداً في رمال الصحراء الوسطى . أما في هذه المرة فقد كان ملكاً . كان يسيطر على جانب من شواطىء البحر الأحمر والخليج العربي . وكان سلطانه معترفاً به رسمياً من قبل الأمم الكبيرة ، كما كانت له مفوضيات في عواصم العالم الرئيسة .

لقد جند الإخوان ، وعبأهم باتجاه الشمال والغرب بحيث يستطيع التدخل في اتجاهات كثيرة في وقت معاً .

وراح يراقب مجرى العمليات . كانت الحرب العالمية الأولى قد قرعت جرس الحزن على الإمبراطورية العثمانية . فهل تكون الثانية بداية لإنهيار الإمبراطورية البريطانية ؟

١) فرق كبير بين الإستعانة بالعرافين والإستخارة . أما الأولى فهي تتصل بنفوذ الكهان ومصالح العرافين بينما الثانية هي نوع من التأمل الذاتي وتعميق الثقة بالله عز وجل " المعرب " .

وكما كان الشأن عام ١٩١٤ ، فأن الحرب بعد بدايتها في بولونيا وبلاد الفلاندر اقتربت من الشرق . وفي عام ١٩٤١ إستولى الألمان ، مرة بعد مرة ، على سالونيك أو أثينا وجزيرة إقريطش . كما أن جيشاً إيطالياً ألمانياً هبط على شواطىء ليبيا واتجه نحو الإسكندرية . افتلقت انكلترا واحدة من أقسى الحملات في تاريخها كله حين طردت من اليونان وتعرضت للتهديد في مصر ، ومن ورائها إيران المعادية بينما كانت أفغانستان وبلاد الهند في حالة غليان شديد. " كان عليها أن تواجه متاعب العالم كله ، كما قال تشرشل ، وأن تحتفظ برأسها فوق سطح الماء " حين أمطرتها طائرات اللغتواف بقذائفها ، وتخوفت من غزو أراضيها من قبل القوات الألمانية المتمركزة على شواطىء المانش وبحر الشمال .

كان عبد الله يحكم شرقي الأردن . أما في العراق فقد تدهور الموقف كثيراً . وكان فيصل قد توفي فجأة في جنيف عام ١٩٣٣ ، خلال جلسة من جلسات عصبة الأمم ، تاركاً السلطة لولده غازي . ثم توفي غازي بدوره في نيسان من عام ١٩٣٩ ضحية لحادث سيارة . وكان وريث عرشه ولده فيصل الثاني في الخامسة من عمره فأنشىء مجلس وصاية لمصلحة عمه عبد الإله ، شقيق غازي وحفيد الحسين .

أصدر تشرشل أمره إلى لواء هندي بالنزول في البصره ١٨ أبريل (نيسان) خوفاً على المصالح البريطانية في تلك المنطقة حيث كانت البحرية والطيران الإنكليزيان يتزودان بالقسم الأكبر من حاجتهما إلى الوقود فكانت عملية الإنزال هذه إنتهاكاً صريحاً لمعاهدة الحماية التي تربط بين البلدين [١].

أثار التدخل الإنكليزي سخط الضباط الوطنيين في الجيش العراقي [٢] ولا سيما أولئك الذين كانوا مرتبطين بجمعية سرية تدعى " المربع الذهبي " فتوجهوا نحو رشيد عالي : رجل سياسي معروف بعداوته لانكلترا ، وصرحوا له عن استعدادهم لمتابعته إذا أقدم على القيام بانقلاب ضد النظام القائم .

١) تقرر وضع العراق عام ١٩٢١ ، في ضوء الخطوط العامة التي وضعها لورانس ، في وقت كان فيه تشرشل وزيراً للمستعمرات ، بينما كان مؤلف " أعمدة الحكمة السبعة " يعمل مستشاراً له . كانت هناك معاهدة تضمن حماية انكلترا لهذه البلاد مقابل الانتداب . وبمقتضى هذه المعاهدة تقرر أن تكون القوى البرية وقوات الشرطة عراقية أما المركز الإنكليزي فقد كان مقتصراً على قاعدة من الطيران الجوي الملكي مقيمة في الحبانية مع كتيبة من الأشوريين لضمان أمنها وحمايتها . كتب سومرست جوشير ، النائب في مجلس العموم : "كان العراق بذلك أول بلد استخدم فيه الطيران بخاصة كوسيلة انذار " (البساط الذهبي ص : ٦٤).

٢)كان الجيش العراقي يتألف تقريباً من ٤٠ ألف رجل وكان مزوداً بأسلحة وأعتدة إنكليزية .

وعلى أثر مناورات إرهابية ، لم يواجهها الوصي إلا بمقاومة ضعيفة ، عين رشيد عالي نفسه رئيساً للوزراء ٢٤ أبريل (نيسان) . فغادر عبد الإله بغداد سراً ولجأ إلى القاعدة الجوية في الحبانية خوفاً على حياته ووضع نفسه تحت حماية السلطات البريطانية [١].

وعندما شعر رشيد عالي بحريته في التصرف ، احتفظ لنفسه بكل السلطات وأصدر أمره بحل البرلمان ثم أعلن نهاية الحماية البريطانية ونادى باستقلال العراق . وفي الوقت نفسه حاصر السفارة البريطانية في بغداد بقوات الشرطة. وكان قد صرح للسفير البريطاني كورنواليس أنه " إذا ألقت طائرات القوات الجوية الملكية قنبلة واحدة على بغداد ، فإنكم ستقتلون جميعاً كإجراء ثأري ".

أما إمبراطور إيران ، رضا شاه بهلوي ، فإنه ظناً منه بأن أيام بريطانيا الأخيرة قد أزفت مزق هو أيضاً المعاهدات التي تربطه بلندن واستعد لالحاق قواته بقوات رشيد عالي العراقية .

هكذا وجد البريطانيون أنفسهم في حالة حصار في جزيرتهم، لكنهم لم يفقدوا بسبب ذلك كل رد إنعكاسي إمبراطوري . لقد كان الارتداد المزدوج لكل من العراق وإيران يمثل في نظر الكومنولث خطراً هو بمثابة الخطر الذي تمثله غارات اللوغتواف على الأرض البريطانية ، فأتخذ تشرشل سلسلة من الإجراءات العنيفة الصارمة . وكلف الجنرال كلارك بالإشراف على جملة العمليات في الشرق الأوسط ، متجاهلاً نصائح الجنرال ويفل بالتعقل [٢]. ودّعم وحدات الطيران المتمركزة في الحبانية بأن ألحق بها أسراباً كثيرة من قاذفات ولنجتون ، كما أمر الجنرال أوكنلك بانزال جيش في شط العرب والتوجه صُعُداً على إمتداد مجرى النهرين إلى بغداد . وأخيراً أمر الجنرال كنغستون بتكوين رتل مدرع والتوجه بخطوات سريعة نحو مدينة الخلفاء ، لتحرير السفير والجالية البريطانية .

١) في نيسان ١٩٤١ كانت قاعدة الحبانية تحتوي على سربين من القاذفات وسرب من الطائرات المطاردة و ١٥٠٠ من الجنود الآشوريين يقودهم غراهام وكتيبة من الجيش الإنكليزي.

٢) ابرق القائد الانكليزي الأعلى في مصر إلى تشرشل قائلاً : أرى منواجبي أن أحذرك بطريقة قاطعة بأن مد القتال في العراق في رأيي للخطر خطة الدفاع عن فلسطين ومصر. إن النتائج السياسية لهذا القتال ستكون فوق الحصر وقد تثير ما أحاول تجنبه منذ قرابة عامين . أقصد اضطرابات جدية داخلية في البلاد التي نملك فيها قواعدنا . ونتيجة لذلك ، أصر من جديد ، بكل قوة ، على أن تجري تسوية للموقف في أسرع وقت ممكن.

وعندما فوجىء رشيد عالي بالرد البريطاني غير المنتظر، ورأى قواته تتهاوى تحت قذائف الطيران الجوي الملكي ، وجه في ٣٠ أبريل (نيسان) نداء إلى حكومة الرايخ يطلب مساعدتها. لكن هذه الأخيرة كانت بعيدة جداً فلم تستطع تقديم العون إليه. واقتصرت على إرسال أسلحة مقتطعة من مخزونات الجيش الفرنسي في الشرق [١]. كما باعته مائة من طائرات المطاردة لم يصل منها غير أربعين وحسب [٢].

كان ابن سعود، الجامد وراء حدود بلاده ، يتابع بانتباه شديد مراحل هذه المبارزة ، ولما لم يكن راغباً في إضعاف العراقيين بالوقوف إلى جانب الإنكليز، ولا راغباً في التعرض لعمليات ثأر من قبل القوات الجوية الملكية بالوقوف إلى جانب رشيد عالي الكيلاني ، فقد وجد من التعقل المحترس أن يقتصر على حالة الترقب ، واكتفى بوضع وحدة من الإخوان في محاذاة جبهة الكويت ، مستعداً للإستيلاء على هذه الأرض إذا تبين له أن نتائج القتال لم تكن في صالح الإنكليز.

تمركز رتل كنغستون عند الرطبه ، قرب خطوط الأنابيب الممتدة من الموصل إلى حيفا . ثم أكملت ببدو " الفيلق العربي " المجندين من قبل الميجر كلوب.

هذا الرجل القصير السمين الأحمر، بشعره الأشقر الرمادي المنتصب فوق رأسه ، وبشاربيه بلون الرمال والذي تبدو في وجنته ندبة عميقة أطلق عليه بسببها اللقب العربي " أبو حنيك " . لقد كان واحداً من الأفراد الشجعان المغامرين الذين تنتدبهم انكلترا بين وقت وآخر إلى الشرق للدفاع عن مصالحها فيه ، والذين لا تتردد في إنكارهم وعدم الإعتراف بهم بعد ذلك ، فيما إذا أصبحوا موضع شبهة أو تعرضوا للخطر.

والواقع أنه باعتباره موضع ثقة عند بعضهم، ورجل الأسراء عن آخرين ، وطموحاُ منه إلى أن يلعب في هذه الحرب دوراً شبيهاً بدور لورانس في الحرب السابقة ، فقد أدرك كلوب باشا بسرعة كبيرة ان أول شرط للنجاح في

الشرق هو أن تكون له أسطورته الخاصة . وصل إلى البلاد العربية قبل ذلك بعشرين عاماً، وجعل من نفسه مستشاراً عسكرياً للأمير عبد الله بمساعدة وزارة الخارجية الانكليزية، وأشرف على تنظيم الجيش الأردني وقيادته .

---

١) منذ انعقدت الهدنة الفرنسية الألمانية في ٢٤ يونيو (حزيران) ١٩٤٠ ،كانت هذه الأسلحة مخزونة تحت رقابة لجنة عسكرية جرمانية ايطالية.

٢) لم يجد الميجر فون بلومبرغ ، الذي كان يقود المجموعة ، الوقت الكافي للهبوط في أرض العراق : وقد اسقطت طائرته عن طريق الخطأ منذ اليوم الأول من قبل مجموعة من البدو العراقيين.

وقد عرف كيف يغزو قلب جنوده بنشاطه وطموحه من ناحية وبجاذبية من ناحية أخرى، وبكونه مبدع " دوريات الصحراء " التي يجند رجالها من كل بلدان الشرق . وكان يتمتع بامتياز لا ينكر على لورانس ، وإن كان أقل منه شاعرية . وينبع امتيازه من أن في وسعه أن يعتمد على سلطة مستقرة منتظمة.

كتب سومرست دوشير الذي شارك في رتل كنغستون من بعثة العراق العسكرية يقول : " في إجتماعات البدو في قلب القرى المعلقة عند قمة من القمم ، والتي لا يبلغها غير المشاة والفرسان، ذكرت إسم لورانس فإذا بي أرى هذه الوجوه القاتمة تتبادل نظرة ذات معنى . لكن شهرة لورانس لم تتم إلا بعد احداث كثيرة ، بانتشار الكتاب واليوميات والفيلم . إن إسمه هو من تلك الأسماء التي يحسن الانتساب إليها في الشرق الأوسط ، لكن كلوب ، أبو حنيك ، هو الشرق نفسه [(١)] .

أما رتل كنغستون فإنه اتجه نحو الشرق يرافقه عرب كلوب باشا وشق لنفسه بصعوبة بالغة طريقاً عبر الرمال بعد أن أكمل استعداداته الأخيرة ٥ مايو (أيار) ١٩٤١. لقد كان تقدم هذه الحفنة من الرجال ، الضائعين في المساحات الشاسعة الأبعاد ، قاسياً جداً . وكان الفصل سيئاً قد تعرضت فيه العناصر المدرعة لكثير من الطوارىء التي عطلتها أكثر من مرة . وكانت عناصره المتقدمة قد نفذت بعد خمسة عشر يوماً من السير المتواصل إلى ضفاف دجلة . أما رجال الرتل فقد أعمتهم ارجاع الضوء والحرارة في الصحراء وأنهكتهم غارات الطائرات القاذفة التي تحمل الواناً عراقية وبدت لهم في الأفق الصورة الجانبية الساحرة لمدينة الخلفاء.

كتب سومرست دوشير يقول : " كانت ساعة الغسق ، والبلاد تمتد في طيات متموجة، تشقها خيوط من الماء خلّفها وراءه آخر فيضان للنهر . ثم راح يتوغل أكثر فأكثر في ضباب قزحي الألوان، حتى بلغ خطا من الأشجار الخضراء القاتمة يعين إتجاه مجرى دجلة . وكانت تنطلق فوق الأشجار مجموعات من القباب والمنائر في بغداد . وفي

حدود ا لرؤية فوق مستنقعات الشمال، كان هناك مسجد بقبتيه الكبيرتين من لاذهب الذي يلمع تحت الشمس وأربع منارات عالية ذات رؤوس من الذهب أيضاً أشبه ما تكون بمشاعل متموجة بألسنة من الذهب . كان يجب أن

---

١) سومرست دوشير : البساط الذهبي ، ص : ٤١.

يكون مسجد الكاظمية ذا الآجر الذهبي . وقد ارتفعت أمامنا في إتجاه مستقيم على أقل من خمسة كيلومترات ، وبرزت فوق الأشجار سطوح قصر الزهور [١].

والمؤسف أنه لم يكن هناك أي أثر للقوات العسكرية التي يقودها الجنرال أوكنلك ، والتي يجب أن تتصل برتل كنغستون وقواته في هذ المكان . أما الفرقة الهندية التي وصلت مغ خيامها ومغاسلها ، ومطارق البولو ، ومضارب التنس ، وعصي الصيد الخاصة بأفرادها والتي كانت تستعد لمعركة تستمر لعامين متتابعين فقد بلغت الناصرية عند الفرات الأدنى.

هذا وقد أحدث وصول كنغستون بقواته حالاً من الحيرة والارتباك الشديدين بين العراقيين . إنهم لم يكونوا يترقبون وصول العدو من هذا الجانب وظنوا أن هذه الشاحنات والسيارات المسلحة بالرشاشات ليست غير طليعة لجيش أكثر قوة . ودون أن ينتظر الجنرال كنغستون وصول النجدات من فرقة أوكلنك قرر بالإتفاق مع الجنرال كلارك إستغلال المفاجأة . فانحاز فجأة إلى الجنوب ، وانقض على الحبانية ونفذ إلى القاعدة الجوية التي كان قد تجمع فيها منذ شهر إبريل (نيسان) أكثر من تسعة آلاف بريطاني مدني .

أما العراقيون الذين مزقتهم طائرات ولنجتون من القوات الملكية الجوية فقد لاذوا بالهرب عند اقترابه تاركين وراءهم موتاهم وجرحاهم [٢].

بقي عليهم تحرير السفارة . لكن العملية هنا تبدو أكثر دقة وأشق محاولة إلى حد بعيد ، إذ يجب للوصول إليها التوغل حتى وسط بغداد في الوقت الذي كان فيه الجانب البريطاني يجهل الوضع النفسي عند سكان العاصمة . إن الإنضواء في المعركة ، مع مثل هذه القوى الضئيلة ، هو طيش جنوني.

وكان وجود كلوب باشا ضربة حظ لهم . إذ في مثل هذه الأحوال يكون " صديق العرب " هذا ذا عون ثمين كبير . لقد استطاعت القيادة بواسطته أن تضمن لنفسها في المدينة شبكة إستخبارات جيدة ، وبعد بضعة أيام جرت فيها

مساومات وعقدت صفقات ، قدم رسل من بغداد يعلنون أن في الإمكان استقبال مندوبين بريطانيين فجر الثامن والعشرين من مايو (أيار).

---

١) المصدر نفسه ، ص : ١١٤.

٢)كانت المعارك التي دارت في ٢ ، ٦ مايو (أيار) طاحنة بالنسبة للمحاصرين الذين فقدوا أيضاً ، ١٢ مدفع ، ٦٠ رشاش ، ١٠ سيارات مسلحة.

وكم كان التناقض شديداً بين اللقاء التاريخي الذي أعده شعب دمشق للجنرال اللنبي وقواته قبل خمسة وعشرين عاماً ، وبين هذا الدخول الذي كاد يكون سرياً خفياً لممثلي جلالته إلى العاصمة القديمة لهارون الرشيد.

لقد أقتيد المندوبون المفوضون البريطانيون ، معصوبي العيون ، عبر المراكز الأمامية ثم لم ترفع العصائب عن عيونهم إلا عند أطراف المدينة.

كتب سومرست يقول : " مضينا عبر شوارع محاطة ببيوت خردلية اللون ، وقد أغلقت مصاريع نوافذها إغلاقاً محكماً . كل شيء كان صامتاً . أما الشوارع فقد كانت خالية على التقريب . ومن بعيد إلى بعيد يبدو لنا جندي ، بقبعته من القماش القاتم وبسرواله القصير ، أما الوجه والركبتان فتبدو بلون الجوز المصقول الملمع . كان يفاجأ ، والبندقية في نجادها على كتفيه ، برؤية ضابطين انكليزيين يمران في سيارة ، فيتجه برأسه وجهة أخرى حتى لا يضطر لرفع التحية إلينا [١] .

أما مشهد العودة فكان أشد إذلالاً أيضاً . عندما اجتاز خط السيارات شوارع العاصمة مرة أخرى للعودة إلى الحبانية ، يحمل معه السفير وحاشيته ، كان الوقت ضحى ، يقول لنا سومرست دوشير : " كان مزيد من الناس في الشوارع ، فيهم كل هذا الجمهور الطريف المبرقش الذي تزدحم به المدن الشرقية ، وعدد أكبر كثيراً من الجنود . كانوا ينظرون إلينا ببريق من الحقد يتلألأ في عيونهم القاتمة ثم يبصقون بازدراء في طريق الكفرة [٢] .

وفي اليوم نفسه ، رؤيت طائرة ضخمة " بومباي " من حاملات الجنود ، تهبط في أرض المطار. ثم خرج منها شاب ، يرتدي زي الجيش الأميركي . لقد كان الضابط النقيب جيمس روزفلت ، واحداً من أبناء الرئيس ، جاء يحقق في الموقف . فاستقبله الضباط البريطانيون إستقبالاً حاراً لأنهم كانوا في أمس الحاجة إلى مساندة الولايات المتحدة . على أنه كان من الممكن ألا يشعروا بالرضا عن هبوط هذا المراقب . الدخيل في مثل هذا الوقت العصيب.

---

١) سومر ست دوشير ، ص : ١٣٥ .

٢) المصدر نفسه ، ص : ١٣٧ .

والواقع أنه قد كانت لزيارة جيمس روزفلت نتائج كبيرة هامة . إذ ، بعد عودت إلى واشنطن ، لفت نظر أبيه إلى الأهمية العسكرية والإقتصادية للشرق الأوسط ، كما لفت نظره إلى ما لمسه من هبوط النفوذ الإنكليزي .

وعندما أصبحت الجالية الإنكليزية بعيدة عن الخطر ، لم يبق غير تصفية ما تبقى من الجيش الرشيدي . والجدير بالذكر أن هذا الجيش قد تفتت من نفسه ، فهبطت معنوياته لغياب المساندة من قبل قوات المحور ، وبسبب الإعلان عن اقتراب جيش أوكنلك الذي كان يهرول مسرعاً للمساعدة على تحقيق النصر .

وفي ٢٩ مايو (أيار) وصل وفد من الشخصيات العراقية الوجيهة ذات الميول الإنكليزية [١]. إلى الفندق الإمبراطوري الجوي في الحبانية . وقد أقتيد أعضاؤه فوراً من قبل كلوب باشا لدى الجنرال كلارك لقد جاءوا يطلبون هدنة.

تم الإتفاق بسرعة ، حتى أن البنود الخاصة به قد قبلت مقدماً ، من الجانبين ، بفضل الصلات الحميدة التي قام بها كلوب باشا . ثم تقرر تنفيذ الإتفاق إبتداء من منتصف الثلاثين من (مايو) أيار .

أخليت بغداد من قبل القوات العراقية صباح أول حزيران . أما الأمن في المدينة فقد قامت به قوات من الشرطة المختلطة العربية — البريطانية . وبادر رشيد عالي الكيلاني إلى النجاة بنفسه .

أما " الإطار المربع " فقد جرى حله واعتقل أعضاؤه ثم أحيلوا إلى مجلس حربي . وأعيد إلى البرلمان اعتباره . ثم نفذت عملية تطهير شامل في أوساط كل العراقيين المتهمين بالثورة على حاكمهم الشرعي . وعاد عبد الإله إلى عاصمته بحماية حرس الفرسان من الإنكليز وألف حكومة جديدة . هذه الحكومة تعهدت " بوضع التسهيلات الممكنة وبكل وسيلة " . تحت تصرف الجيوش البريطانية في حربها ضد المانيا وايطاليا . ثم صدر حكم غيابي بإعدام رشيد عالي الكيلاني وعينت جائزة لرأسه .

إنتهت حرب " الأيام الثلاثين " التي لم تكن في نهاية المطاف غير ثورة محلية ، لم يحسن إعدادها ولا قيادتها ، ولم يجر تسليحها تسليحاً كافياً ، لكنها في الوقت نفسه سببت ليالي طويلة من الأرق لزعماء داوننج ستريت . وأعلن تشرشل أمام مجلس العموم قائلاً : لقد انتظم كل شيء ، لكنني أعترف في الوقت نفسه أن الأزمة كانت شديدة جداً[٢].

---

١) من أعضاء هذا الوفد ابن نوري السعيد ، وعلي جودت رئيس وزراء عراقي سابق ، والمقدم عبيد مرافق الوصي عبد الإله .

٢) ونستون تشرشل : خطاب أمام مجلس العموم ، ٩ سبتمبر (أيلول) ١٩٤١م .

لم تكد تتم تصفية المسألة العراقية ، حتى بادر اللورد ويفل إلى تكليف الجنرال السير هنري ميتلاند بطرد الفرنسيين من سوريا . هذا وكانت ضجة مغرضة شاعت في أوساط القائد البريطاني تذكر أن سوريا قد جرى إحتلالها، أو ينتظر أن يتم هذا الإحتلال من قبل وحدات ألمانية قوية [١]. لكن هذه الإشاعات كانت عارية من كل أساس وكان الجنرال ويفل يتردد في التدخل .

ولما كان الفرنسيين الأحرار يلحون عليه ، وكان الجنرال كاترو، ممثل الجنرال ديغول في الشرق الأدنى ، قد صرح عن استعداده " لمنح الإستقلال الناجز للسوريين ووضع نهاية للإنتدابات الفرنسية في الشرق فقد قدر الإنكليز دون ريب بأنهم لن يجدوا خيراً من الفرصة لالغاء الإمتياز الذي صنعوه لفرنسا عام ١٩١٦ والذي لم يكفوا عن إظهار الندم عليه منذ ذلك الوقت .

وفي فجر الثامن من يونيو (حزيران) أقدمت القوات الانكليزية الديغولية ، تساندها وحدات هندية واسترالية على مهاجمة سوريا بعد أن جرى إجتياح البلاد بغارات جوية عنيفة جداً فوق بيروت والنيرب . فأصدر الجنرال دنتز المفوض الفرنسي السامي في بلاد الشرق أمره إلى قواته بالدفاع عن نفسها بنشاط وقوة.

جرت معارك طاحنة دامية فوق البر والبحر وفي الجو . " كان الفرنسيون يقاتلون قتالاً جنونياً على كل خط القتال " ، هذا ما صرح به ضابط بريطاني شارك في خوض المعارك [٢] . أما في تدمر بخاصة ، فقد تحصنت كتيبة يقودها المقدم جيراردي في خرائب هيكل بعل ، واستطاعت أن تقاوم مقاومة الند للند خلال أكثر من ثلاثة عشر يوماً ، القوات الانكليزية الهندية ، بنسبة واحد إلى عشرة مع كل ما في اليأس من قوة الدفع والطاقة .

في تلك الأثناء ، رأت القوات الفنرنسية ، التي تقاتل في الجنوب ، نفسها مرغمة على إخلاء صيدا بعد أن مزقتها وفرقتها نيران مدافع البحرية البريطانية . حدث ذلك في ١٥ يونيو (حزيران) . وبعد عملية الاخلاء هذه بثمانية أيام

دخلت القوات الانكليزية والديغولية مدينة دمشق ، في وسط جمهور غير مبال بها ٢٢ يونيو (حزيران) . لأن عملية " تبديل المحتلين " لم تعد تثير اهتمامه.

١) تصريحات للماريشال ويفل ، المعركة ، ٤ يوليو (تموز) ١٩٤٦ م .

٢) هذا ما صرح به ليفتنانت كوماندر هيوج هود جكنسون ، من البحرية الملكية .

وقد استمرت حامية تدمر ، التي لم يبق منها غير حفنة من الرجال ، تقاوم القوات المهاجمة . لكن عناصرها الأخيرة — وهي سرية من فيلق — أصبحت تقاتل واحداً إلى مائة . وأخيراً قرر هؤلاء الرجال الاستسلام مساء الثالث من يوليو (تموز) بعد أن تعرضوا للموت عطشاً واستنزفوا آخر طلقاتهم.

لم يعد في وسع القوات التابعة للجنرال دنتز أن تخرج منتصرة من تلك المعركة المتفاوتة الأطراف ، حيث لا تستطيع الشجاعة ، مهما كانت فاعلة مؤثرة ، أن تعوض عن نقصان السلاح . كان ذلك هو التصور الذي بدا للفرنسيين المدافعين عن أنفسهم وقد أنهكت قواهم ، وقطعت النجدات عنهم ، وندرت السيارات المسلحة والطائرات والأعتدة الثقيلة وأنواع الوقود التي يحتاجون إليها ، يضاف إلى ذلك أنهم كانوا في نشاط غير منقطع بل أن بعضهم قد امتنع النوم عليه خلال ثمانية أيام . وفي العاشر من يوليو (تموز) تلقى المندوب السامي الفرنسي . إذناً من المارشال بيتان بطلب تعليق السلاح . وفي الرابع عشر من يوليو (تموز) عقدت في عكا هدنة وضعت حداً للنزاع المسلح . صحيح أن الفرنسيين قد خرجوا بألفي أسير من هذه الحرب لكنهم خسروا في الوقت نفسه ١٨١٩ رجلاً بين قتيل ومفقود [١] . أما الانكليز فكانوا قد إعترفوا بتكبدهم ٤٥٠٠ بين قتيل أو جريح .

وتنفيذاً لما تعهد به الجنرال كاترو ، كانت الإنتدابات الفرنسية قد ألغيت رسمياً بعد ذلك بخمسة عشر يوماً . وجرى تأليف حكومة سورية برئاسة الشيخ تاج الدين الحسني وأقام الجنرال سبيرز في دمشق ليراقب تصرفات العملاء الديغوليين ، الذين لم يسمح بوجودهم إلا بصورة وقتية .

كانت فرنسا قد أبعدت نهائياً عن الشرق من الناحية النظرية بانتظار أن يتم هذا الإبعاد بصورة فعلية واقعية .

وبعد تسوية القضية السورية ، شعر الانكليز أنهم على قدر كاف من القوة ليتحدثوا كسادة للموقف . فتوجهوا ضد إيران ، التي كانت قد تظاهرت بمساندة حركة الإستقلال العراقية ، في ٢٥ أغسطس (آب) من عام ١٩٤١ واجتازت القوى الانكليزية والسوفياتية الحدود الإيرانية في وقت معاً وباتفاق مسبق ، واحتل الجانبان طهران ، وطالبا بإغلاق مفوضيات دول المحور وتراجع القوات الايرانية إلى ما وراء خط فاصل جرى تحديده من قبل ٥ سبتمبر

(أيلول) . أما الامبراطور رضا شاه بهلوي ، فقد أرغم على التنازل عن عرشه ثم نفي إلى جزيرة موريس ، باعتباره متهماً باتخاذ سياسة منحازة للألمان شبيهة بسياسة رشيد عالي الكيلاني .

---

١)كان من بينهم ٤٠٥ من الضباط وصفوف الضباط (التقرير الرسمية للجنرال دنتز) أورده المقدم غيو في كتابه معارك دون أمل ، ص : ١٩٥ .

وفي ٢٨ ديسمبر (كانون الأول) ، وقعت معاهدة ثلاثية بين بريطانيا العظمى وجمهوريات الاتحاد السوفياتي والحكومة الايرانية الجديدة . وتم الاتفاق في هذه المعاهدة على احتلال البلاد كلها حتى نهاية الحرب [١] .

وبعد أن أشعر الانكليز كلا من بغداد ودمشق وبيروت وطهران بقوة قبضتهم ، التفتوا نحو ابن سعود وطلبوا منه سحب قواته من الحدود الكويتية .

هكذا تكون بريطانيا قد كشفت عن قدرتها على فرض الاحترام لارادتها رغم النكسات التي نزلت بها في أوروبا . ولما كان ابن سعود غير راغب في مواجهة نفس المصير الذي واجهه شاه فارس أو رئيس وزراء العراق ، فقد وجد من حسن التصرف وشروط التعقل الا يصر على سوق قواته عند الحدود فأعاد الإخوان إلى داخل البلاد ...

وكان على حق إذ لم تكن الحرب قد انتهت بعد ، لكن الذي حدث من بعد أن الشرقين الأدنى والأوسط قد تميزا خلال العام ١٩٤٢ بأهمية أكبر من تلك التي تميزا بها خلال المرحلة الأولى من النزاع.

كانت مواضع الحرب قد حصرت بادىء الأمر في أوروبا وشمال أفريقيا ثم امتدت وانتشرت معاركها في كل أنحاء العالم .

لقد انتقلت إلى أراضي الاتحاد السوفياتي أولاً ثم إلى اليابان فالولايات المتحدة الأميركية ، ومرة أخرى ، أصبح الخليج العربي والبصرة نقطتي التقاء لخطوط القوى المتعادية .

هذا وكان رومل قد وضع تحت تصرف القيادة العسكرية للجيش الألماني خطة تهدف إلى الاستيلاء على قناة السويس . فعل ذلك منذ تموز ١٩٤١ م . لكن أهدافه الشخصية كانت تذهب بعيداً إلى ما وراء ذلك

هذا التقدم الأول ، لم يكن في ذهنه غير مقدمة لعمليات تهدف إلى الاستيلاء على مدينة البصرة ، لقطع تيار الأعتدة الأميركية التي بدأت تتوافد إلى الإتحاد السوفياتي عبر الخليج العربي.

كتب الجنرال بونغ يقول : قبل أن نسم هذا المخطط بالإستحالة او الوهم ، فإننا نحسن صنعاً بالعودة إلى قراءة التقرير الذي وضعه الجنرال أوكنلك ، والذي أستعرض فيه الأحداث المتعاقبة في الشرق الأوسط بين أول نوفمبر

---

١) هذه المعاهدة كانت تقسم فارس – أو ايران – إلى منطقتي نفوذ : منطقة شمالية مرتبطة بالإتحاد السوفياتي ، ومنطقة جنوبية مرتبطة بانكلترا . إنها كانت تجدد على نحو ما المعاهدة الانكليزية – الروسية في ٣١ أغسطس (آب) ١٩٠٧ م. كما تلغي إتفاق الحماية على بلاد فارس كلها ، الذي تم تمريره من قبل السير بيرسي كوكس مع الحكومة الفارسية . وفي ٩ أغسطس (آب) ١٩١٩ كان هذا الامتياز الهام الذي صنعه تشرشل للاتحاد السوفياتي ، ذا نتائج بالغة الخطورة بالنسبة لانكلترا . بعد تأميم النفط الايراني من قبل الدكتور مصدق .

(تشرين الثاني) ١٩٤١ والخامس عشر من أغسطس (آب) ١٩٤٢ ، فنتبين كم كنا نملك من الجيوش لحماية سوريا بعد أن غادروا فرنسيو فيشي ، وكم كنا نملك من هذه الجيوش في العراق وإيران ، وكم كان سهلاً في أي وقت قبل نهاية الصيف من عام ١٩٤٢، الإستيلاء على قبرص ، بمساعدة وحدات محمولة جواً ، وكم كان الجنرال أوكنلك، أخيراً مشغولاً بالتهديدات التي تضغط بقوة على جناحه الشمالي.

إنه لم يكن يخفي المخاوف التي تحدثها في نفسه أية هجمة ألمانية محتملة عبر بلاد القوقاز . مع العلم أن هذه الهجمة من أية جهة أتت ، لن نستطيع قواتنا الضئيلة أن تواجهها وتصدها [١] .

لكن قادة الجيش الألماني كانوا قد استبعدوا خطة رومل باعتبارها شديدة الطموح . وكان هتلر قد أحتفظ منها بخطوطها الكبيرة ، منبهراً بالأبعاد الواسعة التي تفتحها أمام جيوشه . كان يقول في الخامس من يناير (كانون الثاني) ١٩٤٢ ، لأتوابتز سفير الرايخ في باريس : " لو كان الإنكليز يعلمون ما ينتظرهم في الشرق لما وجدوا فيه ما يسرهم ويمتعهم " ؟ ... إنه منذ أن تسقط سنغفورة – وهذا لن يتأخر طويلاً – يصبح اليابانيون سادة خليج البنغال .. وعند نهاية الربيع ، لا تلبث طراداتهم حتى تظهر في الخليج العربي ..

في ذلك الوقت ، أكون قد عدت إلى الهجوم مرة أخرى على الجبهة الروسية ، بجيش أقوى من عام ١٩٤١. ثم تنطلق فرقي المدرعة متقدمة باتجاه القوقاز وتهبط بعد ذلك حتى تبلغ الخليج العربي حيث نعقد إتصالنا مع اليابانيين في مدينة البصرة [٢].

لكن السر الذي أحيطت به مخططاته وأهدافه ، لم يلبث حتى تسلل إلى بعض وحدات الجيش الألماني ، فظهرت موجة كبيرة من الحماسة . وفي وسعنا أن نجد صدى لهذا في صحيفة الميدان لليون ديغريل :

كتب بتاريخ ١٦ أغسطس (آب) ١٩٤٢ يقول : كانت الأوامر الخاصة بالفرقة قد وصلت .

الأهداف هي : أدلر ، ثم سوكوم ، غير بعيد عن تركيا الآسيوية . كما نعقد المراهنات : ففي عيد الميلاد ، تفليس ! وفي الربيع ، بلاد بابل ! ثم نجد عن النهرين المقدسين دجلة والفرات جيوش أفريقيا بقيادة الماريشال رومل ، قادمة من قناة السويس ، وهكذا تنتهي الحرب في مهد العالم !

١) الجنرال ديسموند يونغ ، رومل ، ص ٩٩ .

٢) بنوا ميشان : تقرير إلى الجنرال دارلان ، ٩ يناير (كانون الثاني) ١٩٤٢ (أنظر الدعوى ب . م . ص : ٣٤٤).

" نعم ... هناك سوكوم ، ومنطقتها الساحلية ونخيلها ! ثم تفليس ومنازلها المعلقة فوق صخور قوقوزيا ! فالبحيرات القمرية في أزربيجان ! ثم المنحدر الكبير للرمال البلورية باتجاه الخليج العربي ! لقد كانت عيوننا ونحن نفكر في ملحمتنا المدهشة المعجبة [١] .

أما في المعسكر المعادي ، فقد كان الجنرال أوكنلك أو أركان حربه يستعدون لمجابهة الإعصار القادم ويجرون كشف حساب لقواتهم في قلق عميق .

ولم يكن الأمر قد وقف عند انقطاع القوافل البحرية وعجزها عن الوصول إلى بلاد الشرق الأوسط بسبب أسراب الغواصات المعادية التي كانت تمزقها في الطريق بل لأن القيادة الإنكليزية العليا كانت مرغمة على إقتطاع وحدات معسكرة في مصر وفلسطين وإرسالها إلى الشرق الأقصى . هكذا كانت سوريا والعراق وإيران قد أخليت ثم نقلت القوات التي كانت تحتلها إلى وادي النيل.

فالجيش الثامن في موقف سيء . وكان قد سجل سلسلة من النكسات والتراجعات الخطيرة . أما في سيدي رزيق وفي بلحامد ، فإن لواء من لوائث الفرقة الأولى الجنوب – إفريقية قد أبيد عملياً عن بكرة أبيه.

وأما الفرقة النيوزيلندية فقد فقدت ثلثي الرجال والأعتدة . وكانت الألوية المدرعة الثلاثة التي تكون درع الجيش قد استحالت إلى تشكيل وحيد مختلط . وباختصار ، لم يكن قد بقي شيء كثير لمجابهة الحملات ذات الجموح المتزايد والتي كان يشنها رومل بجيشه الإفريقي [٢] .

هذا وقد لاحظت لجنة الدفاع عن الشرق الأوسط في أثناء تنظيمها للكشف عن القوات المتوفرة إن الجبهة في حاجة إلى ثمان فرق على الأقل (منها ثلاث مدرعة) وإلى ست وخمسين فوجاً من المدفعية المضادة للطيران ، بين ثقيلة وخفيفة ، من أجل الدفاع عن الأراضي التي عهد بها إليها – ولا يدخل طبعاً في هذا الحساب أي هجوم ألماني محتمل قادم من الشمال ، عبر القوقاز أو تركيا .

١) ليون ديغريل : معركتي في روسيا ، ص : ١٣٨ – ١٣٩ .

٢)كل هذه المعلومات والتي تلي بعد ذلك مستمدة من تقرير الجنرال أوكنلك تحت رقم ٣٨ – ١٧٧ ، لندن غازيت ، ملحق ١٣ يناير (كانون الثاني) ١٩٤٨.

وكان أوكنلك رغم سيطرته الشديدة على نفسه ، يجد صعوبة بالغة في إخفاء قلقه الشديد. أبرق إلى وزارة الحرب يقول : " إننا لن نكون في حال تسمح لنا بالدفاع عن الأرض بنجاح قبل مضي ثلاثة أشهر على الأقل . أرسلوا إليّ للضرورة الملحة مدافع ودبابات وطائرات ورجالاً . كما أنه من الضروري جداً تدعيم مالطه وقبرص بالمدافع المضادة للطائرات والقاذفات الثقيلة . فإذا سقطت مالطه ، فإن علينا أن نواجه إحتمال ضياع مصر ... ".

وخلاصة ما أجابت به الحكومة الإنكليزية إنها أفهمته إستحالة أن ترسل إليه أي شيء من الناحية العملية وأن عليه أن يتدبر أمره ويثبت في مكانه بالوسائل التي يملكها . وزيادة على ذلك : أنبأته إنها عازمة على إقتطاع وحدات من قوات الشرق الأوسط لإرسالها إلى سنغفورة حيث الوضع خطير جداً . فأجاب أوكنلك ، برباطة جأش ، " في هذه الحال لن يكون في وسعي القيام بالهجوم المرتقب قبل ستة أشهر ".

وبينما كان هذا الحوار يجري بين القاهرة ولندن ، كانت طلائع الماريشال فون بوك قد بلغت مابكوب وموزدوق في بلاد القوقاز . أما فرق رومل المدرعة ، فقد كانت تنطلق بكامل سرعتها ، بعد أن تجاوزت طبرق ، باتجاه العلمين. وأخيراً ذكر أن سفناً حربية يابانية رؤيت غربي ترينكو مالي ، في المحيط الهندي . وقد صرح الماريشال ، كيتل بعد ذلك قائلاً : " إننا لم نكن في أي وقت من الأوقات على مثل هذا القرب من النصر . ولم يكن قد بقي علينا الكثير للدخول إلى الإسكندرية ثم الإندفاع في تقدمنا حتى السويس وفلسطين [١] .

كان حاجز ستالينغراد وحده هو الذي يحجز قوات الجيش الألماني عن المساحات نصف الخالية من منطقة الشرق الأوسط [٢].

إن كل الطرق المؤدية إلى بلاد الهند – هذه الأوردة الحيوية للإمبراطورية البريطانية – معرضة لخطر الإنقطاع : الطريق البحرية التي تمر بالسويس وعدن وسيلان ، والطريق البرية التي تمر بحيفا وبغداد والبصرة . وأيضاً طريق ثالثة ، ليست أقل أهمية بالنسبة لاستراتيجية الحلفاء ، إنها تلك التي كانت قد انفتحت في الخليج العربي قبل قليل.

---

١) الجنرال ديسموند يونغ : رومل : ص : ١٨٦ .

٢) جنرال أوكنلك : برقية رقم : ٣٨ – ١٧٧ ، ص : ٣١٠ .

هذه " الطريق الثالثة " هي التي تتدفق منها ، عبر إيران ، فيوض متزايدة دائماً من المؤن والأعتدة والأسلحة التي كانت الولايات المتحدة ترسلها إلى الإتحاد السوفياتي لمساندته في مجهوده الحربي . فإذا كانت الرغبة جادة في تدعيم هذا الحاجز ومنع الفرق الألمانية من التدفق على البلاد العربية ، فقد كان من الواجب أن ينقطع هذا التيار من المؤونة.

وبعد إحتلال إيران في أغسطس (آب) ١٩٤١، كان الروس قد طلبوا من الإنكليز تزويدهم بمواد أولية. ثم عقد إتفاق بين البلدين يتعهد فيه الروس بنقل هذه البضائع من طهران إلى أراضي الاتحاد السوفياتي ، في ا لوقت الذي يقوم فيه الإنكليز بالمهمة الأثل كثيراً ، وهي تأمين الوسائل لنقل هذه المؤن من أراضي المنشأ حتى الخليج العربي ، ثم أفراغها في البر ونقلها على إمتداد إيران الجنوبية حتى حدود المنطقة الشمالية التي يشرف عليها الروس .

كتب إدواردز ، ستاتينيوس يقول : " عندما بدأ الانكليز بالعمل، لم يكن تحت تصرفهم فوق شاطىء الخليج العربي كله ، غير مرفأ واحد هو البصرة وهو المرفأ الذي بني عند مصب شط العرب.

والبصرة لسوء الحظ كانت موجودة في العراق من الجانب الآخر من المصب . وبالرغم من أن هذا المرفأ كان موصولاً مع تركيا وسوريا وفلسطين بخطوط حديدية فإنه لم يكن يتصل مع إيران إلا بالطريق الصحراوي ، إن خرم شهر القائمة على ضفة النهر المقابلة ، لا تكاد تستحق إسم مرفأ ، وكان يمكن أن يقال الشيء نفسه عن بندر شاهبور ، حيث نهاية الخط الجنوبي للخطوط الحديدية الإيرانية العراقية ، والواقعة أكثر إلى الشرق على الخليج العربي".

على أن الخطوط الحديدية هذه لم تكن قد بنيت إلا لحمل البضائع الخفيفة . كما لم تكن تملك غير مئات قليلة من الحافلات الشاحنة أما القاطرات نفسها فلم تكن من القوة والكثرة بحيث تستطيع أن ترفع حمولات ثقيلة فوق منحدرات شديدة عند منعطفات حادة . وكان الخط في الطريق كله تقريباً واحداً . يضاف إلى ذلك أنه يمر فوق مئات من الجسور . وفي وسط إيران ، حيث منطقة الجبال العالية ، يوجد نفق بعد كل ثلاثة كيلومترات .

هذا بالإضافة إلى الانهيارات التي تعترض مسيرة القاطرات .

صحيح أنه كانت هناك طرق أخرى تتجه إلى الشمال ، نحو طهران ، وبحر قزوين لكنها في الحقيقة لم تكن غير ممرات ، تصلح للحمير والجمال [١].

---

١) ادوارد ستاتينيوس : الإعارة والتأجير ، سلاح النصر ،ى ص : ٢٤٩ . (نيويورك ١٩٤٤).

ورغم هذه الظروف المؤسفة ، نجح الانكليز في تسليم الروس خلال الأشهر الستة الأخيرة من عام ١٩٤١ ، ٣٨ ألف طن من مطاط سنغفورة ، ١٣ ألف طن من جوت الهند ٨ الاف طن من قصدير ماليزيا ، و ١٨ ألف طن من رصاص رومانيا وأستراليا . ثم أتضح بعد ذلك أمام طلبات ستالين المتزايدة ، أن الانكليز لن يستطيعوا وحدهم القيام بهذه المهمة المزدوجة وإشباع حاجات السوفيات الضخمة ، وتجهيز المرافىء والطرق في إيران في الوقت نفسه . فالتفتت لندن إلى واشنطن وطلبت منها المساعدة.

أما قادة الولايات المتحدة الأميركية فلم يكونوا ينتظرون غير هذا النداء . فوصلت إلى إيران منذ نهاية خريف ١٩٤١ بعثة بقيادة الجنرال ميلر بمساندة المجهود الذي يبذله الانكليز .

وركز المهندسون الأميركيون جهودهم في خرم شهر بعد أن تركوا للإنكليز كلاً من البصرة وبندرعباس . فبنوا في خرم شهر أرصفة وجسوراً عائمة . كما عمقوا مجرى شط العرب ليسمحوا للمراكب الكبيرة بالدخول. وأقاموا فيها رافعات كبيرة لإنزال الأعتدة الثقيلة . وكانت هناك طريق قديمة تمتد من خرم شهر حتى الأهواز (على بعد ثمانية كيلومترات تقريباً — من مسيرة الخط الحديدي عبر إيران) أخذتها فرقة الهندسة الأميركية على عاتقها وجعلت منها طريقاً رائعة كما أن ورشاً لبناء زوارق قادرة على نقل حمولات ثقيلة قد أقيمت عند قارون بين الأهواز وخرم شهر.

في ربيع ١٩٤٢ ، بدأ الأميركيون يبنون في عبادان مصنعاً لتركيب الطائرات القاذفة ، التي كان السوفيات في أشد الحاجة إلى كميات كبيرة منها . كما أن أرضاً واسعة للطيران أعدت قريباً من المصنع لتجربة هذه الطائرات قبل تسليمها إلى الروس.

وفي ربيع ١٩٤٢ أيضاً كان حجم الحمولات المنقولة شهرياً بواسطة الخطوط الحديدية عبر إيران قد تضاعف ثلاث مرات . هكذا كان ينتشر فوق كل الشاطىء الشمالي من الخليج العربي نشاط محموم . فهناك حافلات إنكليزية وقاطرات من بلاد الهند تدرج فوق الخطوط الحديدية في ضجة ظاهرة ، بين قاطرات من مصانع كروب وحفلات أشتريت في ألمانيا من قبل الشاه القديم المعزول .

يضاف إلى ذلك أن عمالاً إيرانيين ، كانوا يعملون بإشراف مهندسين بريطانيين وأميركيين قد مدوا كيلومترات من السكك الحديدية الجديدة القادمة من الولايات المتحدة . والواقع أن القاطرات والحافلات الأميركية بدأت تصل ثم تبعها بعد فترة قصيرة رتل من السيارات الشاحنة . وفتحت طرق جديدة كما جرى توسيع الدروب الضيقة القديمة .

أما ورشات التصليح فانتشرت على امتداد الأوردة الرئيسية . يقول نا ادوارد ستاتينيوس : " إن الحمولات التي اجتازت إيران خلال عام ١٩٤٢ كله كانت تزيد قدر زيادة الأعتدة الأميركية المرسلة ، بينما تستمر عمليات البناء ، بإشراف الجنرال ميلر ، في المرافىء والطرق وتتقدم بخطوات سريعة مذهلة [١] .

وفي تشرين الأول من عام ١٩٤٢ ، اتخذ الرئيس روزفلت — دون أن يستشير الكونغرس — " بادرة كريمة — فأعلن : أن جيش الولايات المتحدة سيعفي البريطانيين نهائياً من مسؤوليات الأعتدة والمؤن التي يجب أن تقدم للإتحاد السوفياتي عبر إيران . " هذا القرار ، الثقيل بنتائجه ، كان سيتيح للإدارة الأمريكية بأن تحل شيئاً فشيئاً محل الإدارة البريطانية في تلك المنطقة في العالم . وبعد ذلك بخمسة عشر يوماً كان الجنرال كونالي يأخذ على عاتقه قيادة كل المصالح والأقسام الخاصة بالحلفاء في الخليج العربي.

لم تلبث حركة السير أن حققت قفزة جديدة إلى الأمام . ففي أيام ١٩٤٣ كانت المؤن المرسلة إلى روسيا عبر إيران قد جاوزت مائة ألف طن . أي أنها تساوي مرتين ونصفا وزن البضاعة التي كانت قد نقلت في الوقت الذي بدأ فيه الجيش الأمريكي يخوض هذه المعركة ، وعشر مرات وزن تلك التي تم نقلها في آب ١٩٤١ م .

وراحت إدارة السفن الحربية ترسل المراكب من أميركا إلى الشرق الأوسط بالسرعة التي يجري فيها إنزال حمولاتها . ففي خرم شهر والمرافىء الأخرى في الخليج العربي كانت السفن من طراز ليبرتي وجمهرة كبيرة من البواخر الشاحنة ، برايتها الحالية بالنجوم أو بألوان الأمم المتحدة الأخرى ، تزدحم وتتصاف جنباً إلى جنب . قرب الأرصفة والمستودعات البحرية التي بنيت من قبل الأميركيين .

وبلغ ما أرسل إلى روسيا بين يوليو (تموز) ١٩٤٢ ويونيو (حزيران) ١٩٤٣ ما يقرب من ثلاثة ملايين طن من الأعتدة ثم ارتفع هذا الرقم أيضاً خلال العام التالي . والجدير بالذكر أن ضخامة المجهود الذي بذل من قبل الولايات المتحدة . وتنوع البضائع المرسلة إلى الإتحاد السوفيات يثيران الحيرة والدهشة في النفوس . أما لوائح المؤن والأعتدة المرسلة فقد اشتملت على ٤١٠٠ طائرة ، ١٣٨ ألف سيارة شاحنة وجيب ، ٩١٢ ألف طن من الفولاذ

من كل نوع ، ومن الألومنيوم ، والنحاس ، و ١٠٠ ألف طن من البارود ومن خام الطولوئين ، ومئات الكيلومترات من السكك الحديدية ، والآت تحويل القطارات وإشارات الخطوط ، ثم قاطرات وحافلات وأكثر من مائة وخمسين

١) ادوارد ، ستاتينيوس : المصدر نفسه ، ص : ٢٥٢ .

مليون دولار من الأدوات والتجهيزات الصناعية : ساحقات ، وكسارات ، ومطاحن ، وآلات قاطعة ، وأجهزة خراطة، وأفران كهربائية ، ومطارق لتشكيل الحديد ، ومحركات كهربائية ، وطواحين نقالة وكل الأجهزة الضرورية للتنقيب عن آبار النفط ، لمساعدة الاتحاد السوفياتي على زيادة إنتاجه من النفط ، ست مصاف كاملة ، وضعت في صناديق ، وهي معدة للتركيب ، ومصنع للمطاط الصناعي ، قادر على إنتاج مليون إطار للشاحنات في العام الواحد، ومولدات كهربائية ، لزيادة قوة المحطات السوفياتية ، ومصانع مولدة ديزل ، تليفونات وأجهزة راديو ، ثم أدوات من كل نوع ، حفارات ، وعربات نقل ، وقحافات ، ورافعات ، ثم مليون ونصف مليون طن من المؤن ، وأخيراً تسعة آلاف طن من البذور والشتلات المنتقاة .

كان روزفلت يقول لمديري مشروع الإعارة والتأجير : إن الميزان الحقيقي لفاعليتنا هو في قدرتنا على تسليم المؤن والأعتدة المطلوبة للإتحاد السوفياتي ... يجب أن نقول للروس أن في وسعنا تزويدهم بكل ما يحتاجون إليه ، لكنهم يجب أن يقولوا لنا على أية صورة يريدون أن تقدم إليهم الخدمات المطلوبة . إن مطالبهم يجب أن تستجاب على الصورة التي يحددونها لنا [١] .

أما فيما يتعلق بالفرق الأميركية المكلفة بإرسال المؤن ، والفرق الروسية المكلفة باستلامها ، فقد نشأ بينهما نوع من التنافس الحبي .

وكان الجنود الأميركيون يجاهدون في إيصال البضائع إلى مناطق النقل ، بأسرع مما كان في وسع السوفيات أن يستقبلوا ما يحمل إليهم [٢].

فلم يلبث أن نشأ عن ذلك إزدحام شديد مثير للقلق إذ أن المرافىء لم تعد تتسع لهذه الحمولات الكبيرة رغم كل الاصلاحات التي أدخلت عليها . لأن الشاطىء الشمالي للخليج العربي وعر ، حافل بالصخور وهدف لعصف الرياح ، ولذلك فهو غير معد للإنزال وتموين القوافل . أما البصرة وخرم شهر فهما في وضع أحسن من سواهما لكن المجري الموصلة إليها في حاجة مستمرة للجرف والكسح حتى لا تمتلىء بوحول شط العرب . والجدير بالذكر أن

الشاطىء الجنوبي من الخليج ، كان مقسماً تقسيماً خيراً من الشاطىء الشمالي لكن المرافىء ، والأرصفة ، والطرق هناك كانت كلها بين يدي ابن سعود .

---

١) ادوارد ، ستاتينيوس ، المصدر نفسه ، ص : ٢٥٢ ، ٢٥٣ .

٢) المصدر نفسه ، ص : ٢٥٧ .

والواقع أن ملك الجزيرة العربية ، في ذلك الوقت ، كان يواجه عقبات مالية . أن الحرب ، بتجميدها لمواسم الحج إلى مكة ، حرمته من موارد هامة . وكان قد استلم من الشركة ٠٠٠، ٨٠٠ ، ٦ دولار مقدماً على نصيبه من الرسوم وخصصها لتسليح الإخوان . وكان قد مضى على تجنيد هؤلاء الإخوان ثلاثة أعوام ، مما أحدث هبوطاً في الإنتاج الزراعي . نعم كان في حاجة إلى عشرة ملايين دولار آخر .

وكان يقول في نفسه : " يريد الإنكليز أن يحتفظوا بالطريق إلى الهند مفتوحة ؟ فليد فعوا ثمن ذلك ! ويريد الأميركيون أن يحتفظوا بالطريق مفتوحة إلى الاتحاد السوفياتي ! فليدفعوا الثمن أيضاً ! كانت الولايات المتحدة تبحث عن مكان أمين يصلحون فيه سفنهم من طراز ليبرتي ، ويخزنون فيه أعتدتهم ! إن عندي ما يجب لهم : إنه مرافىء الاحساء . فهناك أرصفة ، ورافعات ، ومستودعات ، وتجهيزات مرفئية ، كانت الشركات النفطية الأميركية قد بنتها . لكن هذه المنشآت ، التي رفعت فوق الأراضي السعودية لأغراض مدنية وتجارية لا تكون ممراً لأعتدة الحرب إلا بإذني."

" أنا على استعداد لاعطاء هذا الاذن لهم . لكن ليدفعوا الثمن ! وليدفعوه بالذهب أو بالدولارات ، لأنه لم تعد لي غير ثقة محدودة في الجنيه الاسترليني .

رأت الحكومة الإنكليزية أن ولد عبد الرحمن قد بالغ في فرض شروطه . إن هذا القدر من الكبرياء والصلف ينتهي بصاحبه إلى مجاوزة الحدود — والإمبراطورية البريطانية لن تستسلم لابتزاز حاكم شرقي صغير — يضاف إلى ذلك أنه صادر عن حاكم كان قبل خمسة وعشرين عاماً مرتبطاً بها مقابل تعويض زهيد لا يتجاوز خمسة آلاف جنيه استرليني شهرياً ! فما الذي كان يمنع إنكلترا أو الولايات المتحدة من إستخدام قواعد الاحساء كما ترغبان ؟

أما حكومة لندن فقد اقترحت إقناع ابن سعود بالتعقل ، باستخدام الحزم والعنف ، اللذين حققا النجاح المطلوب في العراق وإيران .

لكن إنكلترا لم تعد توجه سياسة الأحلاف . إن قرارات الحرب الكبيرة لم تعد تصنع في لندن بل في واشنطن . ولم يكن ابن سعود يجهل هذه الحقيقة . كان يعلم أن الحكومة الأميركية لن تدع إنكلترا تتصرف بخفة في نزاع بلاد كانت لها فيها مصالح كبيرة . وقد أدرك الموقف الحقيقي للبيت الأبيض تجاهه من قبل بعثة في واشنطن ومدراء الشركة الأميركية صاحبة الإمتياز.

لم يكن هذا الموقف الأميركي نابعاً من أن الجيش السعودي يمثل قوة مرهبة ! فالحقيقة أبعد من ذلك ! على أن الموقف قد تطور كثيراً منذ الوقت الذي كان يرى فيه ، أوكنلك ، جزعاً ، الفك المزدوج لقوات الجيوش الألمانية في ليبيا والقوقاز يضغط عليه . لكن حاجز ستالينغراد قد صمد بقوة . ولم يتم إقتحام أبواب وادي النيل . وقد اضطرت فرق فون بوك للتراجع إلى كيرتش وكركوف .

أما فيما يتعلق باليابانيين فقد تعرضوا لهزيمة خطيرة في غواد لكنال واختفت سفنهم الحربية من المحيط الهندي . كان يبدو أن كل خطر من تدفق العدو على الشرق الأوسط قد أصبح مستبعداً .

لكن الإخوان لن يدعوا محاولة لاحتلال الجزيرة العربية دون القيام بعمل مضاد . إن البدو المتعصبين سيقاتلون حتى آخر أنفاسهم لحماية إستقلال بلادهم . وفي وسع مقاومتهم أن تمتد إلى البلاد المجاورة ، التي لم يستطع سكانها بعد ، أن يهضموا الإذلال الذي نزل بهم عام ١٩٤١ . أما آبار النفط فستتعرض للحريق ، مما يسبب ضرراً بالغاً وجدياً للمصالح الإنكليزية – الأميركية كما يجب أن تنصرف وحدات من جيوش الحلفاء عن مسارح العمليات الأساسية . وعلى ذلك باختصار ، ستكون إعادة النظام مصدر إضطرابات وصعوبات لا سبيل إلى حصرها .

فلماذا إذاً تعريض الشرق لخطر النار والدماء ، في الوقت الذي كان فيه الحل اليسير اللطيف في متناول اليد ؟ كانت الولايات المتحدة الأميركية قد أقرضت الحكومة البريطانية مبلغ ٤٢٥ مليون دولار هكذا أقدم جيمس . أ . موفت ، الموجه الخفي لسياسة الخارجية الأميركية، بالإتفاق مع روزفلت ، على توجيه النصح للإنكليز بأن يظهروا بمظهر المساير الملاطف : قال لهم : " إن الرئيس سيكون سعيداً جداً إذا رآكم تدخلون في محادثات ودية مع ملك الجزيرة العربية . كما يرغب في الوقت نفسه أن تدفعوا له جزءاً من الأموال التي أقرضتموها منا قبل قليل [١] . وفي الوقت نفسه كلف مدراء الشركة الأميركية باعلام ابن سعود خفية بأن المال الذي سيدفع له من قبل الإنكليز لم يتقرر بسبب من سخاء لندن بل نتيجة لتبرع واشنطن به " .

وجد الإنكليز هذا الحل مراً ، رغم انقطاع الطريق بهم . لقد سبق لابن سعود أن وضع الانكليز ضد الأترك . وها هو الآن يحاول الإستعانة بالولايات المتحدة ضد انكلترا . لقد أخطأت أميركا إذ استسلمت لهذه المناورات الماكرة. إن أيديولوجيتها المعارضة للنظام الإستعماري لن تنتهي بها إلى أية غاية . إن الحرب المقنعة ضد الإمبراطورية

١) أنظر مجلة لايف ، ٢٠ يونيو (حزيران) ١٩٤٩ ، ص ٤٥ .

البريطانية التي تابع روزفلت خوضها تحت ستار برنامجه في " مساعدة الشعوب المتخلفة " كانت سلاحاً ذا حدين يهدد بخطر إنقلابه على مبدعه . أما فيما يتعلق بالطريقة المختالة التي تقوم على خطة الاقراض بيد واسترداد القرض باليد الأخرى ، فإن الدبلوماسيين في وزارة الخارجية الإنكليزية قد وجدوها غير لطيفة ولا كريمة . والثابت ، أن العالم قد تغير كثيراً منذ عصر اللورد كرومر والملكة فيكتوريا ، حيث كان يكفي أن تقطب بريطانيا ما بين حاجبيها ، ليخاف العالم كله وينحني أما إرادتها ...

هكذا ، وعلى غير رغبة منهم ، التمس الانكليز من ابن سعود ، أن يأتي إلى القاهرة ليتفاوض معهم. أما ملك الجزيرة العربية ، الذي كان يعلم ماذ يعني هذا النوع من الدعوة ، فقد أجاب على الالتماس بدعوى أنه مريض ، وأنه لا يسطيع الإنتقال إلى القاهرة . وقد تلقى أعضاء الوفد الذين انتدبهم مكانه إلى العاصمة المصرية أمراً بأن يتباطؤوا في الحسم ويجرجرو خطواتهم . ولما كان المفاوضون الانكليز يربطون تقديم القرض المطلوب بالموافقة على بعض الشروط الأساسية ، فقد راوحت المحادثات في مكانها ولم تنته إلى شيء . وبذلك دخلت العلاقات الانكليزية العربية في طريق مسدود غير نافذ ...

وهنا قرر الرئيس روزفلت المبادرة إلى أخذ الأمر بيده . وكان إبنه جيمس قد رفع إليه تقريراً عن بعثته إلى العراق ، وحدثه عن العداوة الصريحة التي يكنها السكان نحو البريطانيين . أما الجنرالان ميلر وكونولي فقد وصفا له الثروات الخيالية التي تعمر بها المناطق المحيطة بالخليج العربي كذلك كان شأن مدراء الشركة الأميركية الذين لم يكفوا عن لفت نظره إلى الموارد غير المحدودة للعربية السعودية . هذا وكان الرئيس روزفلت قد توقف في القاهرة ، واستقبل عدداً من كبراء العالم الإسلامي في أثناء رحلته إلى طهران في أكتوبر (تشرين الثاني) عام ١٩٤٣ . والواقع أن هؤلاء الكبراء تملقوه وهم يلحون على الفوز بعطفه. هذا اللقاء المصلحي استطاع أن يرضي غروره دون أن يغشي على إحساسه كرجل أعمال . وكما كان

شأن كثيرين غيره من قبل ، بدأ سحر الشرق يسكره . وباعتباره زعيماً لديمقراطية حرة بدأ يدخل التاريخ منذ قليل ، وجد نفسه تحت سمات أوغسطس جديد ، يعمل على تهدئة المنازعات في العالم بحركة سنية سامية ...

وتدعيماً لهذه المواقف الملائمة ، كان الرئيس قد تلقى من السناتور لاندس تقريراً أصبح فيما بعد توراة البيت الأبيض فيما يتعلق بالسياسة " شرق – أوسطية " . إن كاتب التقرير ، بعد وصفه لكتلة الاسترليني كأداة قديمة بالية للسيطرة البريطانية ، طالب بتفجير هذه الكتلة ، بانشاء نظام للمبادلات المباشرة مع البلدان العربية .

ابتسم روزفلت حين علم أن الانكليز يسعون إلى إستعمال صفقتهم المالية مع ابن سعود للفوز بامتيازات سياسية. نعم لقد كان الانكليز في صميم هذا العمل يحاولون أن يمدوا منطقة نفوذهم . إن الثابت ، أنهم كانوا غير قابلين للاصلاح ! لكنهم كانوا أيضاً بسطاء إذ اعتقدوا أن الولايات المتحدة مستعدة لدفع نفقات هذه العملية . فما كان يجب أن تستخدم دولارات العم سام لهذا الغرض.

كان رد فعل الرئيس مباشراً وفورياً . ودون أن يستشير أحداً سجل الجزيرة العربية في لائحة الأمم المستفيدة من قانون " الإعارة والتأجير " هذا الاجراء يسمح للولايات المتحدة بتزويد الدولة السعودية بالأعتدة وتقديم الأموال إليها دون توسيط قوة ثالثة.

- كتب هاري هوبكنز إلى جيس جونز يقول : " إنني لا أعرف كيف سنشرح هذا القرار لأعضاء مجلس الشيوخ ، لولا كيف سنقنعهم بأن الجزيرة العربية هي ديمقراطية ، ضحية لعدوان فاشي . "

لكن الشيوخ لم يطرحوا أسئلة حول هذا الموضوع . فقد أعتمد قرار الرئيس بأكثرية كبيرة .

وبخلق هذا الجو الطيب الصديق سعى روزفلت إلى تدعيم الصلات التي تشد الولايات المتحدة إلى الجزيرة العربية. وكان توقفه في مصر ، في فبراير (شباط) من عام ١٩٤٥ ، في عودته من يالطا ، قد زوده بالمناسبة المطلوبة.

أبرق إلى الملك بواسطة القنصل الأميركي في جدة يقول له : " سأكون سعيداً بالتعرف إليك خلال مروري بالإسكندرية " .

هذه الدعوة التي وجهت دون معرفة الانكليز قد أذهلتهم حين علموا بها . وكان ذلك في آخر مساء من مؤتمر يالطا حين صرح روزفلت لتشرشل بكل برود ، إن في نيته الذهاب غداً إلى مصر بالطائرة " لأنه اتخذ الاجراءات اللازمة لكي يأتي ملك مصر ، وابن سعود ، وهيلاسيلاسي أمبراطور الحبشة ، ليتشاوروا معه خلال ثلاثة أيام على ظهر طراده ، في البحيرة المرة الكبيرة ".

كانت حيرة تشرشل واضحة ظاهرة . ولما كان روزفلت قد اتخذ الحيطة اللازمة باعلان هذا النبأ أمام عدد من الحضور ، فإن تشرشل لم يجد الفرصة الملائمة ليسأل الرئيس سراً عن الغرض من هذه المشاروات.

وكان تشرشل يبدو في عصبية متزايدة يمضي سهرة المساء . وأخيراً ، وعندما لم يستطع صبراً ، أنتحى جانباً بهاري هوبكنز وسأله عن نيات روزفلت تجاه هؤلاء الثلاثة من زعماء الدول .

- أجابه الموجه السياسي الخفي للبيت الأبيض – " إنني أجهل ذلك تماماً " وأضاف في مذكراته قائلاً كنت أعلم أن الرئيس يريد مشاورة ابن سعود حول الموقف في فلسطين . لكن لا شيء مما استطعت قوله لتشرشل قد توصل إلى طمأنته : لقد بقي مقتنعاً بأننا قد دبرنا مؤامرات لتقويض الامبراطورية البريطانية في تلك المناطق " .

وفي اليوم التالي ، قال رئيس الوزراء ، للرئيس روزفلت بأنه هو أيضاً سيذهب إلى مصر بعد زيارة قصيرة لليونان وسيقابل كلا من هؤلاء الزعماء الثلاثة . وكان قد وجه إليهم رسلاً ، يرجوهم البقاء في مصر ، لأنه راغب في إجراء مشاروات معهم بعد رحيل الرئيس الأميركي .

أثار هذا الاتصال إبتسامة روزفلت . لكنه بقي مغلقاً (١) . لم تكن عصبية تشرشل شيئاً إلى جانب الوضع الذي كانت عليه حكومة لندن . لقد كان الشرق الأدنى ، منذ قرن ونصف ، الميدان المحتكر لصيد صاحب الجلالة . وها هو منافس قوي – هو اليوم حليف وقد يكون خصماً في الغد – يريد أن ينتزع عملاءه على مرأى منه ، وببرود غير مقبول البتة ؟ ماذا عند رئيس الولايات المتحدة وملك الجزيرة العربية مما يتبادلان الكلام حوله ؟

لقد عامل الأميركيون ابن سعود باحتفال استثنائي . فأرسلوا طراداً خاصاً إلى جدة . أقيمت على ظهره خيمة من الموسلين الأبيض ، ليسمحوا له بالنوم في الهواء الطلق ، خلال رحلته في البحر الأحمر علق المدير العام

للارامكو[٢] وقد حضر فترة وصول الملك إلى الطراد قائلاً : " إنه يبدو لي وكأن ملكة سبأ تتوجه للقاء سليمان جديد" .

---

١) مذكرات روزفلت ، من أوراق لهاري هوبكنز ، المجلد ١١ ، ص : ٤١٥ .

٢) كانت بهذا الإسم منذ ٣١ يناير (كانون الثاني) ١٩٤٤ ، فإن شركة كاليفورنيا أرابيان ستاندرد أوبل كومباني قد أبدلت اسمها لتصبح شركة " **أرابيان أميركان أوبل كومباني** " (**أرامكو**).

لكن هذا المحارب بقامته الطويلة ، لم يكن ملكة مريحة رضية فقد استطاع أن ينتصر حتى الآن على خصومه كلهم . ولن يلبث " سليمان الجديد " أن يدرك ذلك ...

تمت المقابلة ، في ١٤ فبراير (شباط) ١٩٤٥ ، عند مدخل البحر الأحمر ، على ظهر الطراد كوينسي. أدخل إمام الوهابيين إلى زعيم الجمهورية الأميركية محوطاً بكل التشريفات اللائقة بسلطان عظيم.

- قال له روزفلت وهو يمد يده إليه ، وعلى وجهه إبتسامة فاتنة خلدتها ألوف الصور "كم أنا سعيد برؤيتك ثم أردف قائلاً : " ماذا أستطيع أن أفعل من أجلك " ؟
- أجاب ابن سعود " إنني أكثر تشرفاً بلقائك الطيب الكريم ، لكن ليست عندي أمنية أقدمها لك . فإنك أنت أيها السيد الرئيس ، قد أعربت عن رغبتك في رؤيتي . وعلى ذلك فإنني أفترض أن لديك مطالب معينة تريد أن تعرضها علي " .

هذه اللهجة كانت تتعارض مع المجاملات المفرطة عند غيره من الكبراء العرب . فاستعان الرئيس بكل ما يملكه من مصادر الإغراء — وهو الإغراء الذي أحدث تأثيراً عظيماً عند كثير من أقوياء هذا العالم ، وكان قد لجأ إليه كاملاً مع ستالين قبل وقت قصير .

لكن الفتنة المدروسة من قبل الرئيس لم تحدث أثرها المطلوب عند ضيفه الزائر ، الذي تعود منذ شبابه الأول على إستخدام أكثر عبارات التهذيب مبالغة . على أن الرئيس نفسه لم يكن في وضع صاحب التجربة الأولى ، ولم يكن عبثاً تصريح بعض مواطنيه ممن كانت تربطهم به علاقات عمل : بأنه كان " أكثر مرونة من الأفعى وحدة من البرق الخاطف [١] .

كان الملك في العادة يتحدث بغزارة ، مرصعاً خطبه بالأمثال والأقوال المأثورة وبنصوص من القرآن . وكان يسلسل حججه بالكثير من المنطق ويعرضها بفن حاذق بارع يرتفع بها إلى القمة . وعندما يبلغ هذه النقطة ينقطع عن الكلام ويميل قليلاً إلى الوراء ويبتسم إبتسامة جذابة كما لو أنه يريد أن يقول : " ألست موافقاً تماماً على رأي[٢]؟

---

١) جيرالد دوغوري : نخيل الجزيرة العربية ، ص : ٦٥.

٢) المصدر نفسه ، ص : ٦٦.

لكن ابن سعود في هذه المرة لجأ إلى تكتيك آخر ، لقد ظهر متحفظاً وصامتاً ، يريد أن يرغم مخاطبه على طرح أوراقه أولاً .

هذا ما حدث أخيراً . بدأ روزفلت ، وقد تعب من الانتظار ، يتحدث عن موضوع عزيز على قلبه : إنه مصير اليهود مستقبلاً في فلسطين .

كتب هاري هوبكنز يقول : إنني واثق من أن الرئيس كان يجهل تماماً حقيقة من سيتصل به حين وجه دعوته إلى ابن سعود لالتقائه . كان الملك رجلاً ذا كرامة متقشفة صارمة ، ويتمتع بسلطان كبير إلى جانب أنه جندي بولادته وكان عربياً قبل كل شيء ... وأيضاً حين طلب الرئيس من ابن سعود أن يوافق على مجيء يهود جدد إلى فلسطين لافتاً نظره إلى أنهم لن يمثلوا غير نسبة مئوية ضئيلة من مجموع السكان في العالم العربي ، أذهله أن يسمع ابن سعود يجيبه ، دون أي تردد :

- كلا .

" لقد ألح ابن سعود على واقع أن اليهود إذا نجحوا في تحقيق الإزدهار في قرى فلسطين ، فالفضل في ذلك يعود إلى الرساميل الأميركية والبريطانية التي ستتدفق بملايين الدولارات والجنيهات ، ثم أضاف قائلاً : إن هذه الملايين إذا أعطيت للعرب فإنهم جديرون بأن يفعلوا مثل ذلك . وقال أيضاً : إنه يوجد جيش فلسطيني مؤلف من اليهود ، وكلهم مسلحون حتى الأذقان ، ولاحظ أنهم لا يبدون راغبين أبداً في محاربة الألمان ، ولكنهم يهددون العرب في كل يوم " .

وصرح دون مواربة أو إبهام أن العالم العربي لن يسمح بادخال مجموعات جديدة من المهاجرين خارج الإتفاقات المعقودة بعد إقامة المستعمرات الصهيونية . وأضاف بوضوح : إن العرب سيفضلون اللجوء إلى السلاح على أن

يوافقوا على ذلك ، وأنه بصفته زعيماً دينياً للعالم الإسلامي ، يجب بالطبع أن يساند إخوانه في فلسطين . كان الرئيس يبدو وكأنه لم يدرك ما يقوله ابن سعود له ، إذ أنه طرح السؤال مرتين أو ثلاثاً وفي كل مرة يبدو ابن سعود أشد تمسكاً بموقفه.

" ومما لا شك فيه أن ابن سعود قد أحدث في نفس الرئيس أثراً ظاهراً ، فاقتنع منذ ذلك الوقت أن العرب لا يلقون الكلام على عواهنه (١) " .

وقد تأكدت وجهة النظر هذه بالتصريح الذي أدلى به روزفلت لبرنارد باروخ بعد نهاية هذه المقابلة . قال له : " لم ألتق بين كل الرجال الذين عاملتهم خلال حياتي ، رجلاً واحداً خرجت منه بأقل مما خرجت مع هذا الملك العربي ذي الإرادة الحديدية (٢) " .

إستمرت المناقشة ساعات كثيرة في ظلال مدافع البحرية الضخمة .

وأخيراً غير روزفلت موضوع الحديث بعد أن تعب من إنتظار امتيازات لا تأتي إلية . فطرح رغبات ومطالب القيادة الأميركية العليا في الخليج العربي . قال : إن أركان حرب الولايات المتحدة يتمنون أن يتمكنوا من إستعمال شواطىء الاحساء ومرافئها طبقاً لما يريدونه ويرغبون فيه ، ليس فقط لالجاء قوافلهم وتزويدها بالوقود بل أيضاً لبناء قاعدة جوية قوية ، تكون بمثابة قاعدة متحركة بين مسارح العمليات الأوروبية والآسيوية .

وهنا اتخذت المحادثات حالة أكثر انفراجاً . وعندما بدأت المناقشات تتناول مسائل الجزيرة العربية كان ابن سعود أكثر ليناً وتسامحاً . فأقبل بكل بشاشة على عروض روزفلت ، لكنه طلب مقابل ذلك أن تتعهد الولايات المتحدة بما يلي :

١) لا تخضع العربية السعودية ، بأي حال ، لاحتلال عسكري ، كما هو الشأن في مصر وسوريا والعراق وإيران .

٢) إن أية قطعة من التراب الوطني لا تملك ولا يتم التنازل عنها . إن الأراضي المطلوبة من الجيش الأمريكي تؤجر له لمدة خمس سنوات . فإذا مضت هذه المهلة عادت الأراضي إلى الدولة السعودية مع كل ما عليها من المنشآت (٣).

٣) يعطى بحكم الأولوية للحكومة السعودية قسم من الأعتدة الخفيفة المخزونة في خرّم شهر ليسمح لها برفع مستوى

١) روبرت أ . شيروود : مذكرات روزفلت ، المجلد الثاني ، ص : ٤١٥ – ٤١٦

٢) إيليوت روزفلت : أبي قال لي ... ، ص : ٢٨٨ .

٣) أي أن فترة التأجير تنتهي عام ١٩٥٠ .

التسليح عند الإخوان . وفي مقابل ذلك يتعهد ابن سعود بالامتناع عن مهاجمة الحلفاء " ومقاومة كل عدوان يأتي من قبل قوات المحور [١].

٤) وفي ضوء " الحريات الأربع " المقررة في عهدة الأطلنطي ، تعمل الولايات المتحدة على مساندة كل المبادرات المتخذة من قبل الدولة السعودية ، لجهة تحرير الشعوب العربية الموضوعة حالياً تحت الوصايات الأجنبية .

هكذا يكون ابن سعود ضمن استقلال الجزيرة العربية بالبند الأول ، أما البند الرابع ، فإنه يطرح نفسه فيه كبطل للأستقلال العربي الشامل .

أجاب روزفلت قائلاً : " أما فيما يتعلق بالنقطة الأولى فإنني لا أوافق على أي تصرف أميركي معاد للشعب العربي . وأما فيما يتعلق بالنقطة الرابعة فهذا مطلب يسير في إتجاه سياستي الخاصة مما لا سبيل لمناقشته . لقد انتهى وقت الإستعمار . وذهب عصر الأمبراطوريات السياسية إلى غير رجعة . إن من القواعد التي لا تجادل في هذه الحرب توجيه طلق الرحمة إليها " .

وصرح الرئيس مثيراً سابقة سوريا ولبنان ، قائلاً : إنه يملك وعداً محرراً من قبل لجنة الجزائر بأن الإستقلال التام سيمنح دون تردد لهذين البلدين .

وأكد قائلاً : إنني أستطيع في كل وقت أن أكتب إلى الحكومة الفرنسية لأطالبها بالحفاظ على شرف كلامها[٢].

وأضاف أنه سيساند اللبنانيين والسوريين بكل الوسائل المتوفرة عنده ، باستثناء القوة ، وهو عازم على أن يفعل مثل ذلك تجاه البلدان العربية الأخرى ، في ضوء مطالبة هذه الأخيرة باستقلالها الناجز .

أما فيما يتعلق بالنقطتين الثانية والثالثة – ولا سيما مدة تأجير الأراضي المسلمة للجيش فقد حاول روزفلت الحصول على بعض الإمتيازات الإضافية . لكن جهده كان ضائعاً . لقد بقي ابن سعود عند موقفه ملك العربية السعودية على رأيه . لكنه تحفظ فقط لجهة تحديد بعض التفصيلات بواسطة لجنة من الخبراء.

---

١) لم يكن هذا الإحتمال وارداً في فبراير (شباط) ١٩٤٥ .

٢) إيليوت روزفلت : أبي قال لي ... ، ص : ٢٨٩ .

ثم واجه الرئيس مسألة النفط . فطالب ابن سعود ، وهو يفكر فيما بعد الحرب ، بتخصيص الولايات المتحدة بالإمتياز في إستغلال كل الحقول النفطية الواقعة داخل أراضي العربية السعودية وهنا أيضاً كانت المناقشة حاذقة نشيطة . ثم اتفق رئيسا الدولتين على القواعد التالية :

١) لا يتنازل ابن سعود عن أية قطعة من أرض بلاده ولا يبيعها . فالشركات ذات الإمتياز لا تكون غير شركات مستأجرة للأرض.

٢) مدة الإمتيازات تكون لستين عاماً . وعند إنتهاء آجال العقود ، أي في عام ٢٠٠٥ ، تعود الآبار ، والمنشآت، والأعتدة بكلتيها ملكاً للدولة السعودية .

٣) الرسم المدفوع للملك يتراوح بين ١٨ سنتم و ٢١ سنتيم ، لكل برميل من براميل النفط المصدرة خارج الجزيرة العربية .

٤) يحتوي إمتياز شركة أرامكو على قطاع من البلاد يغطي منها ما مساحته مليون ونصف مليون كيلومتر مربع .

ثم أثار روزفلت موضوع بناء خط عملاق لأنابيب النفط يبلغ طوله ١٧٥٠ كيلومتر – خط عبر الجزيرة العربية – يتم به الربط بين الحوض النفطي في الاحساء وبين مرفأ من مرافىء شرقي البحر الأبيض المتوسط ، حيفا أو صيدا (لم تكن نقطة النهاية قد عينت بعد) . فأجاب الملك أن تحقيق هذا المشروع يستجيب لكل تمنياته وأنه سيبذل وسعه لتوفير التسهيلات اللازمة لتنفيذه . وقد كان يرغب في كل حال أن يبني هذا الخط من الأنابيب ويشغل من قبل شركة خاصة ، لا من الدولة الأميركية ، كما كان يبدو من ظاهر حديث الرئيس.

والواقع أن روزفلت وابن سعود قد انفصلا وهما يتبادلان الإعجاب أحدهما بالآخر رغم ما تميزت به المحادثات من بعض الخشونة عند البداية . كان كل منهما يحس أنه قد عقد صفقة جيدة لمصلحة بلاده ولكي يعرب الرئيس أمام الملك عن كامل رضاه فقد قدم إليه مقعده المتحرك الذي كان يجلس عليه بمثابة هدية .

أما الانكليز ، فقد كانوا بالطبع أقل امتنانا حينما علموا الثمن الذي يجب أن يدفع مقابل (حياد) ابن سعود. لكنهم لم يستطيعوا إلا الإنحناء أمام الأمر الواقع. هكذا وبصورة خفية ودون أن يحدث ما يكشف الأمر أمام الرأي العام العالمي، وجهت طعنة محسوسة الى التفوق الإنكليزي في الشرق: لقد نجت الجزيرة العربية من منطقة النفوذ البريطاني، لتدخل في منطقة نفوذ أميركي. فثأر ابن سعود لنفسه من عشرين عاماً من التحديات والمهانات، في أصيل يوم واحد من الأيام.

الباب الخامس

العربية السعودية

قلعة أمامية

لنصف الكرة الغربي

(١٩٤٥-١٩٥٣)

بدأ العمل فوراً بالإتفاق الذي عقد بين روزفلت وابن سعود على ظهر الطراد كوينسي. فمنذ شهر شهر مارس (أذار) من عام ١٩٤٥، كان امنقبون الأميركيون يمدون أجهزو التنقيب وينشرونها فوق مجموع المساحات المسلمة لشركة أرامكو (مليون ونصف مليون كيلو متر مربع). فكشفت لهم تحرياتهم عن وجود حوض من الوقود يمتد تحت الصحراء وتبلغ محتوياته مليارين من الأطنان. لقد كانت العربية السعودية- الى حد بعيد – أغني حقل بترولي في العالم كله. إنها تحتوي وحدها على ٤٢ في المئة منم النفط المعروف في ذلك العصر.

وعندما نشرت هذه الأرقام الضخمة في وول ستيت، أصيبت الاوساط النفطية الأميركية بنوع من الدوار. وقد ضمنت الولايات المتحدة لنفسها إمتيازاً لاستغلال هذه الثروات حتى عام ٢٠٠٥م بفضل الفكر الثاقب والرؤية الواضحة عند الرئيس الأميريكي والحقيقة أن شركة ستاندرد أويل من كاليفورنيا قد عقدت صفقة عظيمة في اليوم الذي إشترت فيه إمتياز شركة زيت الخليج مقابل خمسين ألف دولار! لكن زعماء النفط الأميركيين لم يشاركوا كلهم مدراء الأرامكوا في حماستهم هذه. أ أوليس أن هذه الشركة ستحاول استخدام تلك الموارد العملاقة لخنق الشركات المنافسة، من مثل شركة ستاندارد أويل نيوجرسي وشركة سوكوني فاكيوم أويل كومباني اللتين تحققان أكبر أرباحهما من تصدير النفط الأميركي الى الخارج؟

أما الإنكليز فإنهم هم أيضاً قد بدأوا يحذرونهم ويتناذرون. ان الثغرة التي حدثت في إمتيازهم بتدخل الأميركيين، كانت قد أخذت أبعاد الكارثة، كما كانت تهدد بتدمير تفوقهم النفطي تدميراً تاماً. ما الذي سيصيب الشركة الإنكليزية الإيرانية وشركة نفط العراق أمام الفيوض من الوقود الجديد الذي لنن تلبث

شركة أرامكو أن تسكبه في أسواق العالم؟ لقد وجدت كل عناصر النزاع الإقتصادي الحاد نفسها متحدة. كتب الإقتصادي أ. ويسون : هنا توجد معالم معركة جميلة في الأفق. إن كلاب البحر لن تلبث طويلاً حتى يفترس بعضها بعضاً...

وفي الوقت المحدد حين بلغ التوتر مستوى القمة وكانت الحرب المرتقبة من الجميع عند حافة الإنفجار، تدخلت الحكومة وتوصلت الى تحقيق عدد من الإتفاقات بين مختلف الأطراف.

وبكل تعقل، قدر مدراء الأرامكوا أنهم ليسوا من القوة بحيث يستطيعون أن يستقلوا وحدهم في استغلال مثل هذا الحقل الأسطوريوفي ١١ ديسمبر (كانون الأول) ١٩٤٦، وصلت برقية من نيويورك تعلن ان الشركتين المؤسستين لأرامكو، ستاندارد أويل من كاليفورنيا وتكساس اوبل قد عرضتا على ستاندارد أويل نيوجرسي وسوكوني فاكيوم حق المشاركة في شركة الزيت الأميريكية العربية بنسبة ٤٠ في المئة. وبعد ذلك بخمسة عشر يوماً كان الإتفاق قد تم توقيعه وبذلك تجنبت الولايات المتحدة إنفجار أزمة داخلية.

وفي اليوم نفسه ٢٦ ديسمبر (كانون الأول) ١٩٤٦ انفجر نبأ آخر، لا يقل عن سابقه خطورة وأهمية وكأنه قنبلة عظيمة، في كل من لندن ونيويورك. لقد علم أن ستاندارد أويل نيوجرسي وسوكوني فاكيوم قد إشترتا من الأميرالية البريطانية، لمدة عشرين عاماً، أربعين في المئة من النفط المنتج من قبل الشركة الإنكليزية الإيرانية[١]. ولما مانت شركة ستاندارد أويل نيوجرسي وشركة سوكوني فاكيوم تملكان ٣٢,٥ في المئة من أسهم شركة نفط العراق[٢]، فإن نشاطهما يكون قد امتد الى كل الشرق الأوسط.

ثم تعاقبت ثلاثة إتفاقات — صحيح أنها أقل أهمية — لكنها أكملت هذا التجمع. ففي مصر تعاقدت شركة حقول الزيت الإنكليزية المصرية وشركة سوكوني فاكيوم[٣] على إقتسام عمليات الإستغلال لحقول برزخ السويس وشبه جزيرة سيناء، وفي الكويت إتفقت شركة زيت الخليج (المعومة من قبل مجموعة ميللون) مع الشركة الإنكليزية الإيرانية على تأليف شركة نفط الكويت، هذا وقد تم مزيج من ذلك واعتمد في سلطنة قطر الصغيرة. وأخيراً كانت شركة ذات أكثرية أميريكية قد كلفت ببناء خطوط الأنابيب كلها، لحساب الأميريكيين والإنكليز في وقت معاً.

١) منطقة خاضعة للهيمنة الإنكليزية، وهي تشمل العلاق وإيران.

٢) ممنطقة خاضعة للهيمنة الأميريكية وهي تشمل الجزيرة العربية كلها.

٣) كانت الأميرالية البريطانية تملك ٥١ في المئة من أسهم الشركة الإنكليزية الإيرانية في ضوء الإتفاق الجماعي السري لعم ١٩٢٨، كانت شركتا ستاندارد أويل نيوجرسي وسوكوني فاكيوم قد دخلتا في شركة نفط العراق بواسطة مؤسسة: اتحاد الشرق الأدنى للتنمية ، التي كانت فرعاً من فروعها العديدة.

وفي مقابل ذلك، جرى توقيع إتفاق بين لندن وواشنطن يقضي باقتسام الشرقين الأدنى والأوسط واعتبارهما خاضعين لمنطقتي نفوذ متميزتين.

هكذا تم تجنب الصراع الذي كانت قد تنبأت به دوائر وول ستريت بين العاصمتين. كما أن إتحاد النفط العربي – الأميريكي (الذي كان يضم أقوى المجموعات المالية في الولايات المتحدة: روكفر مورغان وميللون) قد زود فيما بعد بالرساميل الكبيرة، والعناصر التقنية، والأدوات الضرورية للإستغلال المكثف في الأحساء[١] . لكن الدرس كان قاسياً بالنسبة الى لإنكلترا. ففي كل مكان لم يتم طردها منه من قبل منافسها الأميريكي الشاب، وجدت نفسها مرغمة على مقاسمته فيما تملكه. ومما لا ريب فيه أن مركزها ما يزال قوياً لكن السيطرة المطلقة التي كانت تمسك بها الشرق كله والتي نجحت في الحفاظ عليها حتى الحرب العالمية الثانية لم تعد غير ذكرى من الذكريات.

وقد احتج تشرشل،المبعد عن السلطة بالإنتخابات التي جرت في العام السابق، في مجلس العموم على ما أسماه " سياسة التخلي غير القابلة للوصف". وقد أجاب ستافورد كريبس متكلماً باسم الحكومة العمالية قائلاً : أن السير ونستون يتحمل هو شخصيا" جانباً كبيراً من المسؤولية في هذا المموضوع، لكي يوجه مثل هذا اللوم الى الآخرين وبالإضافة الى ذلك فإن الأوضاع المالية الإنكليزية المثقلة بديون الحرب، لم تكن بغير هذا الحل.

لم يكد ينته هذا "التجمع" حتى أستؤنفت تنمية منطقة الأحساء بخطوات متسارعة، أثارت الدهشة عند كل المراقبين. إن المنجزات التي تحققت بين ١٩٤٦ و ١٩٥٥ قد جاوزت الى حد بعيد كل ما أنجز

بين ١٩٣٦ و ١٩٤٥. أربعة حقول هائلة تم إستغلالها في وقت معاً: حقل في جزيرة البحرين وثلاثة على الشاطئ، في القطيف والدمام وابيق. ١٥٥ كيلوكتر من الأنابيب الرباعية الأفقية، تربط هذه المراكز المختلفة بعضها الى بعض.يضاف الى ذلك، ان خطاً من الأنابيب تحت الماء ربط منشآت الشاطئ بالجزيرة وبمرفأ البحرين.

١) تألفت إدارة الأرامكو من و.ف. مور (رئيساً) وفلويد أوهليغز (نائباً للرئيس – والذي كان ابن سعود يناديه باسم "ولدي") وجيمس ماكفرسون (مديراً عاماً للجزيرة العربية) . أما الرئيس الحالي حتى صدور هذا الكتاب فهو: م.س. أ دانفز (١٩٥٤)

وقد ارتفعت مصاف كبيرة في البحرين وابقيق والدمام. وأهمها مصفاة رأس تنورة شمال القطيف، وهي تنتج في كل يوم ١٨ مليون لتر من الوقود. كما أنشئ مرفأ ،زود بأحدث التجهيزات وأكثرها عصرية. أما خزانات النفط التي تنتشر فوق أكبر خزانات العالم كله. كان بعضها يتسع ل ١٨٠ ألف برميل من النفط ويجري في المرفأ تحميل عدد من الناقلات يومياً يتراوح بين ثمانين ومائة ناقلة، مما يمثل حركة سير جملة ما يعمل فيها ٢٦ ألف مركب في كل عام.

كتب جون بول بينيز يقول :

إن انبثاق الذهب الأسود يتم في إطار قمري، في الصحراء الصفراء فوق الهضبات والصخور الممزقة، تحت سماء شديدة الزرقة ، تدرج ألوف الشاحنات الشديدة الحمرة والتابعة للأرامكو. وهناك الصهاريج الكروية والأبراج المعدنية تكمل المشهد لتعطيه صورة إنزال على سطح القمر. وفوق سطح الأرض تبدو أعداد كبيرة من المشاعل وهي تقذف على بعد خمسة أمتار نحو السماء السنة متموجة كأنها الأوشحة. أما في الليل فان السماء تشتعل بحريق كبير . وترى نيران النفط على مسافة ١٥٠ كيلومتر [١].

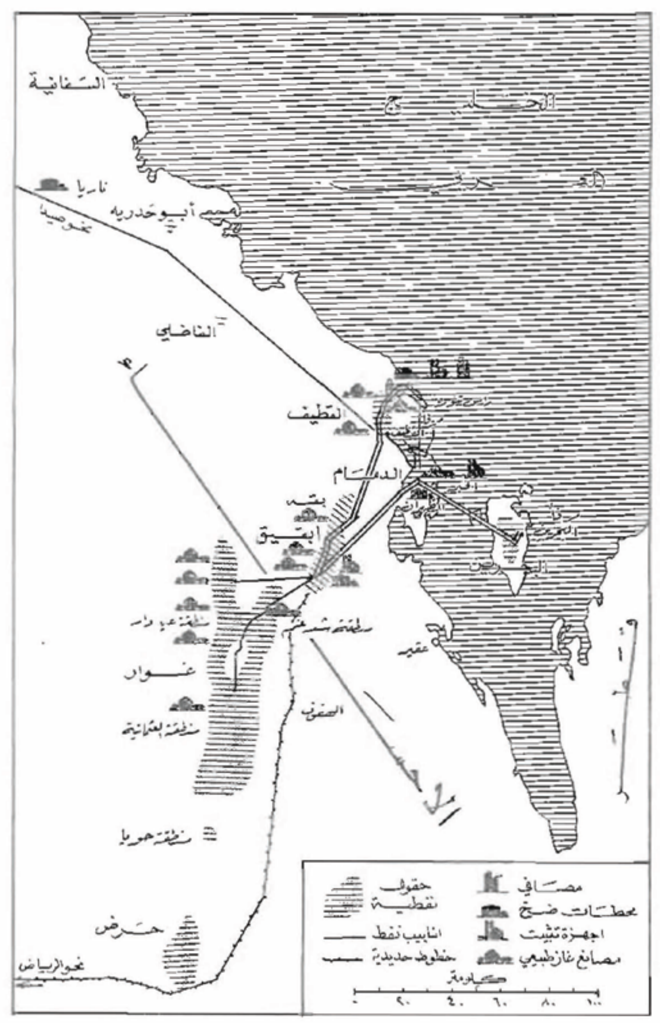
أما الظهران، عاصمة النفط، فقد خرجت من الصحراء خلال خمسة أعوام وكأنها مناظر مسرحية ببيوتها "الجاهزة"[٢]وصيدلياتها وبقالياتها وملاعبها وأحواض السباحة فيها وصالاتها السينمائية وأجنحتها الصغيرة المصبغة بألوانها القاتمة وحدائقها المروية بما يساوي الذهب ثمناً. كتب جيمس دوكوكا يقول: وقد زار مدينة الظهران عام ١٩٥١ : ان نبات الغار يأتي في صناديق معدة له، أما العشب الأخضر " غازون"

فيـؤتى بـه في لفـائف. كـل شـيء يسـتورد مـن الـولايات المتحـدة. وكـل مـا يسـتهلك في هـذه الـدارات " فيلايات" اتداء من الجعة وأنواع اللحوم، حتى السلطة الخضراء، هو من الصناعة الأميريكية المعلبة.

---

١)جان بول بينيز وموريس جارنو: تحقيق لدى ولد ابن سعود : باري ماتش ٦-٣-مارس (آذار) ١٩٥٤، ص ٤٥

٢)البيوت الجاهزة التي تصنع سابقاً في معامل خاصة.



خريطة رقم ٤ - حقول وأنابيب نفطية للبحرين والاحساء

إن موظفي الأرامكو على الساحل الشرقي من العربية السعوديةيتمتعون بشروط من العيش المترف حتى لكأنهم لم يغادروا بلادهم.

إن أسلوب الحياة الأميريكي يصل اليهم اسبوعياً بالطائرات أو المراكب على صورة معلبات، فيتامينات، أسطوانات، وأشرطة سينمائية ، وأ مجلات من كل نوع. وإذا كان التلفزيون لم يوجد بعد[1]، فإن لديهم النادي الريفي، وملاعب التنس والغولف والمساحات الخضراء الكاملة [2].

هكذا أصبحت الظهران بين ليلة وضحاها واحدة من المدن التي تشد إنتباه الإقتصاديين والمخططين الإستراتيجيين بعد أن كانت قصبة صغيرة ضائعة في الرمال. إنها باعتبارها منافسة للمدن السريعة النمو في الوسط-الغربي، وقد ارتفع عدد سكانها من ٧ آلاف نسمة الى ألف نسمة بين ١٩٣٣، ١٩٥٣. أما التجمعات البشرية فيها فهي تتألف من مضلع رباعي الخضرة حيث يعيش ثلاثة آلاف مواطن أميريكي كما يعيش كل صغار البرجوازيين في بلادهم، ومن مدينة عمالية فيها خمسة آلاف عامل مسلم من عمال الأرامكو يجدون فيها الواناً من ترف العيش مجهولة في الواحات،ثم من مدينة عربية ذات طراز تقليدي بشوارعها وأسواقها المغطاة،وحماماتها العامة ومساجدها. وفي هذه المدينة يقيم الأمير ابن جلوي، " أخطر أمير في الجزيرة العربية" . ان نظام الحازم الذي لا رحمة فيه والذي فرضه في المنطقة قد طهرها من عصابات العصاة، قطاع الطرق، الذين كانوا يجوسون خلالها منذ ثلاثين عاماً[3].

وفي عام ١٩٤٧ أرتفع إنتاج الأحساء الى ٤١ مليون من الليترات يومياً. ثم بلغ الضعف في نهاية عام ١٩٥٠، مما يمثل بنفس هذه النسبة ستين عاماً من الإنتاج تقريباً، فيما يتعلق بالحقول المنقب عنها حالياً. لكن تنقيبات أخرى أجريت حديثاً في أعماق تتراوح بين ١٠٠٠ و ١٣٥٠ متراُ، كشفت عن وجود بحيرة أخرى من النفط تحت تلك التي يجري استغلالها حتى ذلك اليوم، وهي أضخم حجماً من البحيرة السابقة.

---

١) الواقع ان التلفزيون قد دخل الى الظهران بعد صدور هذا الكتاب."المعرب"

٢) جميس دو كوكا: النفط ٥١ لوفيغارو، ٢٤-٢٤ مارس(آذار) ١٩٥١ ص: ٥

٣) ج.ب. يينيز وموريس جارنو: المصدر نفسه، باري ماتش، ٦-١٣ آذار

وإذا كـان علينـا أن نصـدق المهندسـين الـذين يشـرفون علـى عمليـات التنقيـب هـذه، فـان الجزيـرة العربيـة لا تحتوي ٤٢ في المائة من نفط العالم كله وحسب بل ترتفع النسبة فيها من ٧٥ الى ٨٠ في المائة

وفي عـام ١٩٥٥، كانـت الأرامكـو تنـتج في كـل يـوم مليـون برميـل مـن البنـزين، أي ثلـث إنتـاج الـولايات المتحـدة(٣ملايـين برميـل). وقـد كانـت تترقـب أن ترتفـع بإنتاجهـا الى مسـتوى الإنتـاج الأميريكـي حـوالي عـام ١٩٥٧ م .

وكمـا هـو المنتظـر، فـان هـذه الإنطلاقـة الصـناعية شـجعت علـى خلـق جملـة مـن المشـروعات الفرعيـة الملحقـة: محطـات كهربائيـة، معامـل ميكانيكيـة، ورش بحريـة، أفـران لصـهر الحديـد، كمـا أنهـا حققـت إندفاعـة شـديدة لأعمـال البنـاء. وقـد قـدرت الرسـاميل الأميريكيـة الـتي وظفـت في الجزيـرة العربيـة بتـاريخ أول ينـاير (كانون الثاني) ١٩٥٠ بمبلغ مليار وثمانمئة مليار دولار (أكثر من ٦٠٠ مليار فرنك).

أمـا الرسـوم الـتي دفعـت لـبن سـعود مـن قبـل الأرامكـو خـلال سـنوات حياتـه الأخـيرة، والـتي جعلـت منـه واحـداً مـن أغـنى أربعـة أو خمسـة رجـال في العـالم، فقـد ارتفعـت الى ٤٤٠ ألـف دولار يوميـاً، أو ١٦٠ مليـون دولار في العام الواحد تقريباً[١]. وقد خصص الملك هذه الأموال:

١) لاسـتيراد بعـض المـواد الغذائيـة والمنسـوجات الضـرورية للعـرب (أرز ،سكر،شـاي ،بـن ، أقمشـة قطنية).

٢) لشـراء سـيارات خفيفـة وثقيلـة(٣٥٠ عـام ١٩٤٢، ٥٠٠٠ عـام ١٩٤٤، ١٣٠٠٠عـام ١٩٤٩، ٢٢٠٠٠ عام ١٩٥١[٢]).

---

١) ٥٥ مليار فرنك

٢)في عـام ١٩٥٢، قـدمت شـركة أميريكيـة للملـك هديـة مؤلفـة مـن ٢٠ سـيلارة كـاديلاك لنسـاء أسـرته، وعنـدما قـدم ولي العهـد سـعود بزيارتـه للعراق في يناير (كانون الثاني) ١٩٥٤. كان عدد السيارات المواكبة له قد ارتفع الى ٥٠٠ سيارة.

٣) لتحقيق أول قطاع لبرنامجه الخاص (بتحديث الجزيرة العربية) ويهدف به الى ما يلي:

أ)كهربة مدينة الرياض والمدن الرئيسية في الحجاز (مكة، المدينة، جدة، والطائف).

ب)بناء شبكة منم الطرق البرية ، والسكك الحديدية والجوية.

ج)بناء قصر وحدائق.

د)تطوير التعليم العام.

٤) لتدعيم سباسته في تدعيم نفوذه تجاه الدول العربية الأخرى أما فيما يتعلق بشبكة الطرق البرية، فقد وضع الملك خطة تهدف الى بناء جادات وطرق دولية خلال عشرين عاماً ، يبلغ طولها ألف كيلومتر، وقد انتهى العمل حتى اليوم من بناء مسافات تقدر بستة آلاف كيلومتر. فيم كان يفكر وليم شكسبير حين قال على لسان أحد شخصياته في مسرحيته، تاجر البندقية،" إن المساحات الرملية من الجزيرة العربية الواسعة قد أصبحت طرقاً عريضة؟..."

كانت هذه العبارة بالنسبة لمشاهدي القرن السادس عشر بمثابة لغز من الألغاز. لكنها أصبحت في عام ١٩٥٤ حقيقة واقعة.

كتب الرحالة الإنكليزي جيرالد دوغوري، يوجد اليوم في الجزيرة العربية أكثر من عشرين ألف كيلومتر من الطرق الصالحة للسير، والمستخدمة بصورة رسمية من قبل السيارات، وفي المكان الذي كنا لا نكاد نفتح طريقاً لنا فيه من أرض الحجاز، إلا بصعوبة بالغة ، ندرج اليوم منه، فوق طرق مرصوفة معبدة. هذه الطرق تجتازها شاحنات كبيرة من ذوات الغطارات الست، تلك التي يملا هدير محركاتها منحدرات الوديان والتي يقودها نيجيريون قصار سمان كانوا فيما مضى يكسبون قوتهم بأجر تافه وهم يعملون كحمالين في مرفا جدة. لقد أصبحوا خلال سنوات قليلة سائقي سيارات من الدرجة الأولى وميكانيكيين ممتازين"[١].

---

١)جيرالد دوغوري، نخيل الجزيرة العربية، لندن، ١٩٤٦، ص: ١٣١.

في كل شهر، تمتد طرق جديدة عبر هضبة نجد العليا، التي لم يخترقها منذ عشر سنوات غير أحاد من الغربيين. إن سائقي الشاحنات الذين يعودون من جولاتهم، يحملون معهم في الغالب حكايات مثيرة. فهم يتحدثون عن طريق جديدة فتحت للسير في البلاد، وعن مسافات الرمال القاحلة التي إجتازوها في دورة واحدة دون توقف، أو عن بئر الآبار أو قرية إستطاعوا الوصول اليها لأول مرة. ثم يبادلون زملائهم وجهات نظرهم حول خير الإتجاهات التي يجب أن تتخذ في الأسفار، وعن أقصر الطرق وأقلها غثارة للمتاعب. أن مناقشتهم الحامية تشع في مقاهي المدينة شيئاً شبيهاً بما كان يشيع في المرافئ الإنكليزية خلال العصر الأليزابيتي، إنهم يعتبرون اليوم طريق الألف كيلو متير التي تخترق شبه الجزيرة من جانب الى جانب عبر الرياض وكأنها أنجاز يسر ويمضون فيها فيحدثون عبرها من الحرج أقل مما يحدثه سائق سيارة التاكسي اللندني الذي يطلب منه القيام بجولته في ضاحية المدينة" .

"كل الوديان الخصبة والواحات الكبيرة قد ربط بعضها ببعض بواسطة خطوط منم سيارات المواصلات الكبيرة وفي وسع كل راغب أن يجتاز بالسيارة دون أن يواجه أية صعوبة، مسافة ٣٤٠٠ كيلو متر تفصل مدينة عدن عن مدينة بغداد .حقاً إن المسافات الرملية الشاسعة للجزيرة العربية قد أصبحت طرقاً وجادات عريضة..."

وبالرغم من التطور السريع الذي تحقق في شبكة الطرق البرية ، فإن إهتمام الملك كان منصرفاً الى الخطوط الحديدية، لأنه يعلم بأن القطارات هي رمز الثراء والنجاح في نظرهؤلاء الأطفال الكبار الذين هم العرب في بعض الأوقات. وفي عام ١٩٤٧ بادر ابن سعود - الملك الذي يفكر في الخطوط الحديدية — كما كان المهندسون الأميركيون يقولون، الى توجيه النداء لشركة في نيويورك يطالبها فيه بوضع مخطط لطريق حديدي بين الرياض والظهران، ينتظر أن يخترق ٦٠٠ كيلومتر من الصحراء. وجاء الخبراء مثقلة أذرعتهم بالرسوم البيانية والإحصاءات والمعدلات،بعد دراسات مطولة ، يثبتون للملك بأن المناطق الرملية في المسافة القائمة بين المدينتين لا تسمح ببناء هذا الطريق. لكن ابن سعود كنس المخططات بظهر يده وقال بلهجة قاطعة حاسمة:" أريد طريقاً حديديا. لقد أتيت بكم من أجل بنائه. فإذا لم تكونوا جديرين بذلك فإنني سألجأ الى شركة أجنبية أخرى."

ثم لم يمض شهران حتى كان أول مخلب حديدي للتثبيت قد غرس في الرمال. ومضت أربعة أعوام، عمل فيها ألفان من العمال ليلاً ونهاراً . وقد عمد المهندسون الأميركيون الى إسالة الوف الأطنان من السيمنت لتدعيم كل مسافة من الأرض غير الصالحة بسبب طبيعتها الرملية. فإذا لم يجدوا السيمنت الضروري، عمدوا الى سكب انهار من النفط الخام على الرمال. فإن مزج الرمل بالنفط يكون نوعاً من القشور يوضع فوقه الخط الحديدي المطلوب[١].

وفي ٢٥ أكتوبر (تشرين أول) ١٩٥١، وضع سعود، الأمير الوارث بحضور أبيه آخر مسمار كبير من الذهب. ثم أمر ابن سعود، وقد شجعه هذا النجاح، بالعمل دون توقف:

١) على بناء" خط الجزيرة العربية" ويمتد ١١٠٠ كيلومتر من الخليج العربي الى البحر الأحمر مروراً بمدينة الرياض (التكاليف التقريبية: ٣٢,٥٠٠,٠٠٠ دولار)
٢) مد خط دمشق – المدينة حتى عدن مروراً بمكة، أبها، صنعاء، (مع وصلة بالخط الممتد عبر الجزيرة)،
٣) ترميم وتوسيع شبكة الحجاز الحديدية.

لكن الأرجح أن أعظم ما تحقق من النجاح كان في ميدان المواصلات الجوية. فنحن نذكر أن روزفلت وابن سعود قد اتفقا ، على ظهر كوينسي، على بناء قاعدة جوية – بحرية كبيرة في منطقة الإحساء. وكانت القيادة الأميركية قد اختارت مثلث الظهران – الخبر – العجيزية. وتم وضع البناء التحتي لهذا المشروع منذ شهر مارس (آذار من عام ١٩٤٥.

---

١) أنظر ج.ب. بينيز وموريس جارنو: باري ماتش ٦-١٣ مارس (آذار) ١٩٥٤.

وعنما انتقل المجهود الأميريكي في شهر مايو (أيار) من العام نفسه، بعد أنهيار الرايخ، من مسرح العمليات الأوروبي الى الجهة الآسيوية، قام هذا الميدان الجوي بدور القاعدة المتحركة واتخذ لهذا الغرض، أبعاداً بالغة الأهمية. لكن سقوط اليابان السريع ١١ أغسطس (آب) ١٩٤٥ لم يوقف العمل في بناء المطار. ولما كانت اتفاقات كوينسي تعطي أميركا الحق في إستعمال هذه القاعدة حتى شهر فبراير شباط من عام ١٩٥٠، فإن مصالح القوات الجوية للولايات المتحدة تابعت إعدادها ولم تبلغ نهايتها إلا في عام ١٩٤٦.

واليوم، تعتبر هذه القاعدة مجهزة خير تجهيز في العالم كله. إن فيه مدرجين لانطلاق الطائرات مبنيين بالسيمنتالمسلح طول أحدهما ١٨٠٠ م والثاني ٢١٠٠ م ، بالإضافة الى مركز قيادة مزود بأجهزة الإتصال اللاسلكي والرادار والحظائر وورشات التصليح التي تحتوي على أحدث الآلات والادوات المعروفة في العالم.

هذا وقد أصبحت الحكومة السعودية تملك لحسابها الخاص، أسطولاً من طائرات دس-٣، حصلت عليه من فائض أعتدة الحرب ووكلت مهمة إستغلاله لشركة الخطوط الجويةعبر العالم. وبذلك نشأت خدمة جوية منتظمة تربط جدة والظهران والرياض ونقاطاً أخرى من الجزيرة العربية حتى القاهرة ودمشق وأنقرة وبغداد والبصرة وطهران. وما تزال الخطوط الدولية لهذه الشركة حتى اليوم تتوقف بانتظام في الظهران في طيرانها الجوي بين الولايات المتحدة وبلاد الهند . كما ان الشركتين الجويتين الإنكليزية (بواك) والهولندية (ك.ل.م.) تستخدمان المطار نفسه لأغراضها التجارية.

وفي عام ١٩٤٧ كانت الحركة الجوية في الظهران قد جاوزت في كل شهر ٤٠٠ طائرة تقريباً. وعندما قامت الطائرة " لاكي ليدي" بطيرانها الأول حول العالم ٢٦ فبراير (شباط) —٢ مارس (آذار)برعاية الاميرالية الأميريكية كانت نقطة تموينها الثانية فوق الظهران.

لكن ابن سعود يعلم أن الشعوب لا تطلب ممن يحكمونها أن يوفروا لها الغذاء والتربية والأثراء وحسب، بل تطلب تغذية مخيلتها أيضاً. ان هذا الوجه من فن الحكم صحيحي وحقيقي في كل الأمكنة، والاميريكيون أشد إلحاحاً حين يتصل بشعب له حساسية العرب نحو الإنفعالات الجمالية . وبعودة الملك الى تقاليد الخلفاء العباسيين الكبار، قرر أن يخصص جزءاً من موارده لتجميل عاصمته وبناء قصور

جديـدة. ففـي رأيـه أن هـذه الاعمـال تعطـي رعـاياه شـعوراً متزايـداً بقوتـه وتغـذي في الوقـت نفسـه عـزتهم القومية.

فـالرياض لم تعـد تلـك االقصـبة القديمـة المهدمـة المفككـة الـتي عرفهـا في شـبابه ال؟أول. إنهـا اليـوم " مدينـة الملـك" الـتي لم يعـد المائـة ألـف مـن سـكانها إلا منـه وبواسـطته. فأصـدر ابـن سـعود قـراراً يعتـبر بموجبه كـل داخـل الى المدينـة ضـيفاً عليـه. ففتحـت أبـواب القصـر للجميـع ومـدت الموائـد لهـم يجلسـون اليهـا ويأكلـون. ويقـول لنـا جـان بـول بينيـز: " إنـه قصـر فرسـاي مغروسـاً في وسـط الصـحراء". وأصـبحت الـرياض مركـز اسـتقطاب لكـل زعماء القبائل، الذين يتزاحمون بالألوف في كل يوم ليطلبوا مقابلة الملك أو ليلتمسوا بعض أعطياته[١]".

وكـان ابـن سـعود راغبـاً في أن يجعـل مـن الـرياض عاصـمة عصـرية وأن يقـيم فيهـا الـوزارات والسـفارات لكنـه احـتفظ بـذكرى حزينـة لقصـر طفولتـه القـديم البـالي، المبـنى مـن ممـرات متداخلـة متعرجـة وحجـرات موصـول وحجـرات موصـول بعضـها بـبعض علـى أسـوأ صـورة، فقـد أفسـده مـرور الـزمن والتخريـب الـذي احدثـه فيـه غزاته المتعاقبون.

إنــه لم يـرد أبـداً أن يعـود مـن جديـد الى قاعـة الإسـتقبال حيـث شـهد، وهـو في عامـه الحـادي عشـر، مذبحـة سـالم، متكـوراً علـى نفسـه بـين سـاقي العبـد الحبشـي العمـلاق المكلـف بحمايتـه. كـان هـذا المشـهد الرهيـب قـد حفـر في ذاكرتـه، فـلا يفكـر فيـه دون أن تعـروه قشـعريرة الرعـب والرهبـة. مـن أجـل ذلـك ابتـنى لنفسه داراً جديدة على بعد عشرة كيلومترات من الرياض: إنها قصر الناصرية.

والحـق أنـه بنـاء سـاحر فـاتن، ارتفـع في صـميم الصـحرا تمامـا كالمدينـة الـتي تحمـل اسمـه وقـد ربـط بالعاصـمة بواسـطة جـادة ذات اتجـاهين . ولـيس في وسـع الزائـرين الـذين يـترددون علـى دار الإقامـة الملكيـة إلا أن ينـذهلوا أمـام عشـرات الألـوف مـن ورود الغـار الـتي تشـكل سـياجاً حـاجزاً متعـدد الألـوان بـين الطريـق الصـاعدة والطريـق النازلة. فإذا ترجلوا راحوا يجتازون القصر فيجدون أنفسهم أمام حدائق يمتد فيها العشب الاخضر (غازون)

---

١)جان بول بينيز: المصدر نفسه، ص: ٤٥

وأجمات من زهور الكاميليا الشيرازية وشجيرات البطم الفواحة وورود على إمتداد كيلومتلات مربعة. كما تحمل اليه في كل يوم أندر الزهور المقطوفة من منطقة الخرج الزراعية وقد احتفظ بها غضة طرية في مجموعة من الأحواض والينابيع المنبثقة الفوارة .إنه مشهد لم يسمع بمثله من قبل في تلك المنطقة من الجزيرة العربية. أما في الليل من المغيب حتى شروق الشمس، فإن عشرة آلاف مصباح كهربائي تضيء تلك الأمكنة الساحرة حقاً[1].ثم أمر سعود ببناء قصر للشتاء في الطائف، غير بعيد عن مكة لولده الثاني فيصل، نائب الملك في الحجاز. هذا البناء الرائع الذي أنجزه مهندسون معماريون من واشنطن، يشتمل على تسعين حجرة من بينها قاعة إستقبال كبيرة مبينة من الرخام الأخضر والأسود، ويحملها أربعة وستون عموداً، بالإضافة الى عدد من المسابح، والحدائق وقاعات حمامات بالغة الحداثة مغطاة بالسيراميك الوردي[2].

كل هذا لم يكن تحقيقه ممكناً إلا بفضل العائدات المدفوعة من قبل الأميريكيين ، وهنا ندرك معنى أن يردد الملك هتافاً قائلاً:

- " صدقوني ! فأنا أعلم قيمة الارامكو وسأعرف كيف أدافع عنها ضد كل من يريد بها شراً!".

لكن ابن سعود رغم فيوض الذهب التي يسكبها النفط في خزائن الجزيرة العربية، ورغم قصوره وحدائقه وخطوطه الحديدية وطرقه ، لم يحدث أي تغيير في أسلوب عيشه . لقد احتفظ بحياة البدوي الخشنة المتقشفة، التي غرسها أبوه في نفسه حين كان صبياً والتي منحته القدرة على الصمود الضروري ليحتفظ بنفسه حياً في منفاه من صحراء الربع الخالي. كان لا يحب الأسرة ويفضل النوم على فراش من حصير ممدد على الأرض. وكان يهرب من قصوره الرائعة الشامخة ويعيش في خيمة ما وجد الى ذلك سبيلا كما احتف في الوقت نفسه بزهد آبائه وأجداده في لين العيش. أما طعامه العادي فهو مؤلف من لبن الجمال وقليل من اللحم والأرز وحفنة من التمر.وهو لايشرب غير الماء أو القهوة أو الشاي. وفي تحفظه الشديد

---

١)أنظر فريديريك ميجرا: ألف ليلة وليلة في آبار النفط. مجلة المصور ٧٠ يناير (كانون الثاني)١٩٥٠ ص ٦

٢) غيماركا: مع ابن سعود، ملك الرمال، ويفارول: ٢٠ نوفمبر(تشرين الثاني) ١٩٥٣

يتبع نظام الرجل المتزهد أما أسلوبه الذي يفرضه في كل شيء فقد كان ينعكس على حياة القصر كما ينعكس على حياة البلاد الإدارية.

كان يتناول طعام غذائه ظهر كل يوم لا يتقدم ولا يتأخر. وفي أثناء رحلات الصيد بالصقور وهي أحب له الى نفسه ، كان ابن سعود يستقبل على مائدته أعضاء مجلس وزرائه وكبارضيوفه. فإذا حدثه أحدهم ناداه قائلاً: طال عمرك " وكان يدعى باسمه مجرداً من الألقاب . وهو بذلك بسيط وكبير في وقت معاً".

أما في الإجتماعات ، فهو يوجه حديثه الى الجميع ، ويعرف الجميع، ويهتم بالهموم الصغيرة عند كل منهم. الإتصال به سهل يسير. أي فرد من رعيته يستطيع أن يسأله العدل في أي أمر من الأمور. فلا يرد أحداً أبداً. كان يحب الشعر كثيراً .ويقدر الألمعية حق قدرها، والكلمة المرحة النشيطة،ويغرم بالطرف والنوادر، ويقص بعضها في الوقت المناسب، مع ضحكة عاطفة صريحة تنتقل للمستمعين اليه[1].

أما اسرافه الذي ينصرف اليه، فقد كان في حياته الخاصة حيث ضم الى نفسه عدداً من الزوجات . لكن هذا الإسراف لم يكن بدافع الشهوة قدر ما هو بسبب حيويته ، حتى أن أشد الوهابيين تزمتاً لا يجدون ما يقولونه حول هذا الموضوع ، في بلاد تعتبر الخصوبة فيها بركة من السماءوحيث أرباب الأسر هم في الحقيقة زعماء عشائر. والواقع أن رؤية ابن سعود يتقدم في أيام الإحتفالات يواكبه من حوله أولاده الخمسة والثلاثون، كانت مشهداً لا تنكر عظمته. أما العرب الذين ينحنون إحتراماً له عند مروره بهم فلا يكفون عن القول:

- "الحمد لله الذي وهبنا مثل هذا الملك العظيم!"
- " صدقوني ! فأنا أعلم قيمة الارامكو وسأعرف كيف أدافع عنها ضد كل من يريد بها شراً!".

إن الملك وهو يردد هذه الكلمات لم يكن يفكر فقط في النسبة المئوية التي كانت تدفعه له الشركة الأميريكية مباشرة . بل يفكر أيضاً في الإمتيازات الناجمة عنها من أجل الشعب العربي كله.

١) المصدر السابق نفسه

والواقع أن كل عامل تأتي به الأرامكو من الولايات المتحدة كان يكلفها ثلاثة آلاف دولار قبل أن يبدأ بالعمل في منطقة الأحساء. وأيضاً فان مدراء الشركة يجدون من قبيل الاقتصاد والتوفير أن يقصروا اليد العاملة الأميريكية على الإطارات العلياوالتقنيين وأن يستخدموا اليد العاملة المحلية الى أبعد حد ممكن.

لكن استخدام اليد العاملة المحلية يفرض عليهم ايجاد السكن لها أولا وبالذات. فخصص مبلغ ٢٦ مليون دولار موزعاً على خمس سنوات ابتداء من عام ١٩٤٥ لبناء مساكن عمالية مزودة بالماء الجاري وموصولة بالمجارير العامة، مع مطابخ كهربائية وأجهزة للتهوية.

ثم يجب أن يعلم أفرادها فقد فتحت الأرامكو مدارس للصبيان العرب الذين تتراوح أعماره مبين الثامنة والثامنة عشرة.المرحلة الدراسية الأولى تمتد ثلاثة أعوام . تقدم فيها الدروس بالعربية والإنكليزية والحساب، ومبادئ الميكانيكا والصحة.أما المرحلة الثانية فهي مخصصة لخمسمائة طالب من أ؛سنهم موهبة، فإنها تستمر ستة أعوام. هؤلاء يتمتعون بحقوق السكن والغذاء واللباس مجاناً على حساب الشركة، كما تصرف لهم بالإضافة الى ذلك نفقات التدرب في الولايات المتحدة. وتقدم اليهم دروس في الحساب والطبيعة والكيمياء والتاريخ والجغرافيا.

وأخيراً يجب أن تقدم لهذه اليد العاملة العناية الصحية. ولذلك فغن الأميريكيين أنشأوا هنا وهناك مراكز صحية ومستوصفات مجانية. تعالج أكثر الأمراض انتشاراً في البلاد: التراخوما والتقرح في الجلود والسفلس والملاريا. والجدير بالذكر ان الطلاب العرب قد كشفوا عن مواهب مدهشة في علم الطبابة. فجيء بأساتذة من لوس انجلس وسان فرنسيسكو لتقديم دروس في التمريض ، ثم انتشر الطلاب المتخرجون في المدن الأخرى من الجزيرة العربية ليعلموا فيها الناس مبادئ الصحة وفنون الوقاية من الامراض.

كتب جيرالد دوغوري يقول:" ما يزال الوقت مبكراً لتقرير ما سيكون عليه تأثير هذه المجموعة من الإجراءات على سكان البلاد . إلا أن في وسعنا التنبؤ بأن التغذية المنظمة، بالإضافة الى التمرينات المنتظمة سيكون لها تأثير كبير على جنس هو من أكثر أجناس العالم رجولة وفحولة. إن ستة أشهر من العمل في الحقول النفطية كافية لتحويل الرجال بحيث لا يعودون يعرفون كما كانوا من قبل . ان الصبي

النحيل الضامر الذي نشأ في الصحراء لا يلبث حتى يصبح بسرعة رجلاً عضلاً قد سفعته الشمس مليئاً بالحيوية. ان تحسين هذا العنصر سيكون مدهشاً دون ريب بعد جيل واحد فقط ... وفي وسعنا التنبؤ منذ اليوم بأن المنحنى الديموغرافي سيسجل صعوداً سريعاً قبل نهاية هذا القرن(١)".

وبسرعة أدرك مدراء الأرامكو أن نتاج العمال الوطنيين يكون أحسن جداً حينما يشرف عليهم إخوانهم في الدين. فتم انتقاء ثمانية الآلاف عربي وزعوا في فرق مستقلة ، تحت الإدارة المباشرة لأربعمائة من رؤساء العمال المسلمين قاموا معهم بجملة كثيرة من الأعمال المختلفة . وبذلك تعلم العرب ممارسة أكثر المهن تنوعاً فأصبحوا نجارين ، وبناة للبيوت الجاهزة، وسائقي تاكسيات ومزينين وغسالين ، وكوائين، وطهاة الخ... وآخرون كلفوا بالعمل في شرطة السير ، وصيانة الأرصفة وإصلاح الخطوط الحديدية .كما حصل عدد من قدماء الغخوان المحاربين على غدارة مقصف أو الإشراف على محطة لتوزيع البنزين. إنها وظائف شريفة كانوا فخورين جداً بها.

- ويقول فلويد أوليجر، نائب رئيس الارامكو: إن الغرض الذي نهدف اليه بالعمل على هذه الطريقة هو خلق طبقة عربية متوسطة ، مؤلفة من رجال جديرين بانجاز كل الأعمال الممكنة(١).ويضيف جيمس ماكفرسون ، المدير العام للجزيرة العربية قائلاً : " نحن مقتنعون بأننا بمساعدتنا للعرب على ان يساعدوا انفسهم، إنما نساعد انفسنا أيضاً في المدى البعيد.
- نحن نفكر في حدود الاجيال القادمة. إنني سأكون ميتاص عام ٢٠٠٥، التاريخ الذي ينتهي فيه هذا الإمتياز . لكننا نريد بالطبع ان تحتفظ الشركة به ، والطريقة الوحيدة المعقولة للتوصل الى ذلك هي في التعاون مع العرب كما نتعاون مع أصدقاء وشركاء(٢)"

---

(١) جيرالد دوغوري: المصدر نفسه ، ص ١٣٢.

(٢) مستعدون للقيام بأي عمل ممكن ".أنظر : أرامكو تربي عمالها في مجلة لايف عدد عشرين يونيو(حزيران) ١٩٤٩

كشف العرب في مدرسة الامريكيين ، عن روح مبادرة وحس تنظيمي لم يكن أحد يظن أنهم جديرون بهما قبل عشرة اعوام. إن الاجور العالية ، التي يمكن أن يدخر قسم منها هيأت الأسباب لتكوين رسمال صغير . ومن جهة أخرى ، أدركت الأسرة الغنية أن تشغيل رساميلها أعود عليها بالفائدة من أن تدعها نائمة في خزائنها المصنوعة من خشب الأرز. ففي عام ١٩٣٧ كانت البلاد كلها ست منشآت تجارية خاصة. وفي عام ١٩٤٧ تجاوز عددها المائة ، بعضها كان مهماً توزعت في فروع متنوعة من مثل مقاولات البناء، ومشروعات النقل واستغلال المرائب، ومصانع المعلبات ، والنسيج،والورش الميكانيكية ، والطحانة وصناعة الآجر.

والواقع ان ابن سعود كان شديدي الامتنان لشركة الأرامكو على العون الذي تقدمه في هذه الحقول المختلفة . لكن سهره على احترام الأساتذة الأجانب لعادات البلاد لم يكن أقل أهمية من ذلك. وقد واجه العرب مع النفط والاجور العالية إغراءات الغرب الكبيرة. " إن مجتمعاً بكامله لم يغير أسلوب حياته منذ قرون بدأ يتعرض لخطر الإنهيار باتصاله بالعالم الحديث" [١].

وكان ابن سعود راغباً في اقتباس حسنات المدينة الغربية، لكنه يرفض بتسلل الجوانب الهدامة منها الى بلاده، مما يمكن أن يفسد رعاياه وأن يغرقهم في فوضى أسوأ جداً من تلك التي كان عليها أجدادهم. وقد استعان بالقرآن ليكبح جماح هذه القوى. فراح المراقبون السطحيون يتسمون ساخرين من هذا التصرف. وأعلنوا ان الملك يريد أن يحمي بلاده من الورق. لكنهم كانوا مخطئين. لقد أثبتت هذه الدرع أنها أصلب جداً مما كانوا يفكرون. ذلك لأنها كانت التعبير عن عقيدة لاتتزلزل. لقد ضمنت الصلابة القرآنية نجاح الإخوان، واستخدمت لتدعيم وحدة القبائل. كما سمحت للملك بابعاد كل أشكال المدينة التي يعتبرها مفسدة لشعبة عن أرضه.

---

١) جان بول بينيز، المصدر نفسه

كـان ابـن سـعود، علـى عكـس مصـطفى كمـال، لا يريـد أبـداً أن يفصـل العـرب عـن ماضـيهم ولا عـن تقاليـدهم. كـان على الضـد مـن ذلـك يريـد أن يعمـق جـذورها في النفـوس، معتـبراً انهـا تمثـل خـير تـرياق لسـموم العـالم الحـديث. لقـد رفـض الـزي الاوروبي دائمـاً، ولم يسـمح أبـداً بأن يمثـل أمامـه أي زائـر بسـترته. كمـا لم يسـمح مـن قبـل للأجانـب بتوجيـه أي نقـد الى الـدين الإسـلامي ومنـع دخـول الأشـرطة السـينمائية وموسـيقى الجـاز الى كـل أراضـيه. وطالـب المـدراء الأميريكيـين بالإمتنـاع عـن تشـغيل اليهـود، ليتجنـب قـتلهم، والإمتنـاع عـن قـرع أجـراس كنائسـهم، حـتى لا يثـير غضـب الوهـابين مـن رجـال الـدين. ثم ذهـب الى أبعـد مـن ذلـك، فاتخـذ في ديسـيمبر (كـانون الأول) مـن عـام ١٩٥٢ قـراراً شـديداً بتحـريم دخـول المشـروبات الروحيـة الى الجزيرة العربية خوفاً من انتشار أخطار التسمم بالكحول.

ولكـي يتجنـب التهريـب أمـر دوائـر الجمـرك في جـدة باحتجـاز أيـة كميـة مسـتوردة مـن الكحـول لحسـاب المفوضيات والسفارات. لقد كان حرمان الأميريكيين من الويسكي خطرة جريئة.

لكـن الأميريكيـين أنحنـوا أمـام ارادة الملـك. لقـد حـاولوا ، في مقابـل ذلـك، جاهـدين أن يلطفـوا مـن عدالتـه الشـديدة. ذلـك أن العقـوبات الجسـدية مسـتمرة في الـبلاد. كمـا حـاولوا أن يشـرحوا لـه بربريـة هـذه التصـرفات: فكـان يجيـبهم قـائلاً: إنهـا أقـل بربريـة مـن حرمـان الرجـال مـن حـريتهم، في سـجون مغلقـة لمـدة سـنوات. ورفـض إدخـال أي تعـديل عليهـا. كـل مـا اسـتطاع الأميريكيـون أن يحصـلوا عليـه، هـو أن يكـون سـيف الجـلاد معقمـاً قبـل اسـتعماله، وأن يسـمح لطبيـب مـن الأطبـاء بمعالجـة عضـو الضـحية بعـد قطعـه بمـادة الميركـوروكروم... هكذا سجلت " المدينة" نقطة لنفسها...

وعلـى ذلـك فـان الأميريكيـين والبـدو كـانوا يسـعون جاهـدين الى مطابقـة أفكـارهم المسـبقة وعقائـدهم والمواءمـة بينهـا. أمـا عمـال تكسـاس فقـد تركـوا قبعـاتهم ولبسـوا العقـال الـذي يـوفر حمايـة أفضـل ضـد الشـمس، بينمـا أبـدل العمـال العـرب " دشاديشـهم" البيضـاء بأزياء العمـل الزرقـاء الـتي يجـدونها أكثـر ملاءمـة لهـم وأقـل تعرضـاً للأوسـاخ. وأخـيراً بـدأ النـاس يسـمعون البـدو يجيبـون زملاءهـم مـن العـالم الجديـد أكثـر بقـولهم" أوكـي بوي"،بينما اخذ هؤلاء يحي بعضهم بعضاً بالصيغة التقليدية" السلام عليكم"!

كتب جيرالد دوغوري يقول: " إن تحديث الجزيرة العربية الذي قام به ابن سعود قد حقق، من قبل ومن بعد، نتائج مدهشة. لقد اجتازت الجزيرة العربية من الطريق خلال الاعوام العشرة الأخيرة أكثر مما فعلت خلال القرو ن العشرة السابقة[1].

هكذا تكون الأرامكو قدمت للجزيرة العربية خدمات لم يكن في وسع ابن سعود ان يتبينها حينما اتصل لأول مرة بالمنقبين الاميريكيين. وفي مقابل ذلك قدمت الجزيرة العربية الى الولايات المتحدة خدمات ما كان لروزفلت هو أيضاً، أن يستبينها ويتنبأ بحدوثها يوم وجه دعوته لملك الجزيرة العربية للمجيء اليه والتشاور معه على ظهر الطراد كوينسي.

فمنذ عام ١٩٤٦، واكثر من ذلك، منذ عام ١٩٤٧ انتشرت منذرة خطيرة في الأوساط الصناعية الاميريكية: ان الولايات المتحدة قد بدأ ينقصها النفط ! ان أميركا، اول بلد منتج في العالم، يجد نفسه أمام أزمة خطيرة في الوقود.

رفضت هذه الشائعات بادئ الأمر باعتبار أنها تبدو غير واقعية . لكن أصحاب العلاقة لم يلبثوا حتى رضخوا للأمر الواقع: نعم... لقد أثبتت الوقائع تقديرات الأحصائيين ففي هذا البلد الذي كان يفاخر دائماً بأنه يملك كل شيء بوفرة كبيرة، والذي لم يسبق له أن عرف القيود وإجراءات التقنين، لم تلبث الإتحادات الإحتكارية الكبيرة في ميدان النفط أن وجدت نفسها، فجأة ، مرغمة على تحديد حصص توزعها على زبائنها. وفي كثير من الأمكنة، رفض موزعو البنزين تقديم خدماتهم لأصحاب السيارات. والأخطر من هذا أيضاً : أن الأبنية المجهزة بآلات تعمل بالمازوت فوجئت بحرمانها من التدفءة، خلال شتاء شديد البرودة. فماذا كان يجري في الحقيقة؟ قيل ان الإحتياط النفطي في العالم الجديد قد بدأ ينضب، على أثر الإسهلاك الضخم الذي سببته الحرب. فإذا صحت هذه الواقعة فهذا يعني أن الولايات المتحدة مهددة بكارثة حقيقية...

---

١) جيرالد دوغوري، المصدر نفسه، ص ١٣٣.

وكـان مـن حسـن حـظ الاميريكيـين أن هـذه الواقعـة غـير صـحيحة لكـن الأسـباب الحقيقيـة للأزمـة لم تكـن أقـل اثارة للقلـق. فبـين عـام ١٩٣٥ وعـام ١٩٤٦ كـان الإسـتهلاك الكلـي لمـادة الـنفط قـد زاد بنسـبة ٩٦ في المائـة. بينمـا لم ترتفـع نسـبة الغنتـاج خـلال المـدة نفسـها إلا ٣١ في المائـة[١]. وإذاً فقـد كـان هنـاك عجـز بنسـبة ٦٥ في المائـة. هـذا العجـز لم يكـن يسـبب النضـوب في الحقـول النفطيـة كمـا تبـادر الى ذهـن بعضـهم بـل كـان بسـبب المصـافي الـتي سـاءت حالهـا وفقـدت قـدرتها علـى الإنتـاج. هـذه المصـافي كانـت مرغمـة خـلال الحـرب علـى العمـل ليـل نهـار فلـم يتـوفر الوقـت الـذي يسـمح بصـيانة أجهزتهـا وأدواتهـا المختلفـة، أو لمقاومـة الصـدأ والبلـى في الحفـلات – الصـهاريج. إن تسـاقط كـل هـذه الأجهـزة واهتراءهـا همـا اللـذان أحـدثا الشـلل في حركـة الإنتـاج . وعلـى ذلـك فقـد وجـب العمـل علـى إبـدالها . لكـن عمليـة الإبـدال تتطلـب كميـات كبـيرة مـن الفـولاذ. فنشـأت عـن ذلـك أزمـة في الفـولاذ بـدوره ليطـرح معضـلة المـانغنيز... هكـذا تلاحقـت الصـعوبات وتشابك بعضها في بعض، في سلسلة لا نهاية لها...

وكـان مـن حسـن الحـظ، وجـود الـنفط في الجزيـرة العربيـة! لقـد جـاء هـذا الـنفط في الوقـت المعـين ليسـمح للـولايات المتحـدة باجتيـاز الفـترة الحرجـة. كتـب برترانـد دوجوفنيـل:" لأول مـرة في التـاريخ، توجهـت ناقـلات أميريكيـة الى الخلـيج العـربي لتحمـل منـه الـنفط الـذي تـزود بـه منطقـة " الميـدل – ويسـت"... لقـد حـدث مـا لم يكـن يظـن حدوثـه أبـداً: لقـد تحولـت الـولايات المتحـدة مـن بلـد مصـدر للـنفط الى بلـد مسـتورد لـه[١]. ففـي الوقـت الـذي بـدا فيـه الموقـف في طريـق مسـدود غـير نافـذ، طـارت الظهـران والبحـرين لتقـديم المسـاعدة مـن نيويورك وشيكاغو...

---

١) ٥،٠٠٠.٠٠٠ برميل يومياً عام ١٩٤٦ مقابل ٣،٥٠٠،٠٠٠ عام ١٩٣٩

٢) برتراند دوجوفنيل: أميركا في اوروبا ، ص : ٢٢٤.

وفجأة شاع التأثر والإنفعال في اوساط القيادة الجوية والاميرالية البحرية. إذا كان النفط العربي سلعة لا يستغنى عنها بالنسبة للإقتصاد الأميريكي في أيام السلم، فما عسى يكون الوضع في أيام الحرب؟ هكذا بادرت الاميرالية تنبؤاً منها بهذا الإحتمال ،الى تنظيم عقد مع الأرامكو يقضي بمنحها حق الخيار في مليار من براميل النفط، وبسعر ينقص عن سعر الأسواق العالمية بنسبة ٢٥% في تاريخ التسليم. لكن ما الذي سيحدث فيما لو لم تستطع الحصول على حاجاتها من النفط في الوقت المطلوب؟ كما أن قادة القوات الجوية لم يكن في وسسعهم، هم، أيضاً الإستغناء عن الإمتيازات الإستراتيجية التي توفرها لهم قاعدة الظهران.

وبالرغم من التنافس المفتوح في كثيرمن النقاط فان أركان حرب القوتين، الجوية والبحرية، كانوا متفقين على أن أميركا لن تستطع الصمود في عمليات حربية طويلة الانفاس، في أي نزاع يقوم ما لم تتصرف بالنفط السعودي بحرية تامة. فأحاطوا الجنرال مارشال بهذا الأمر وأطلعوه على مخاوفهم، فبادر الجنرال بدوره إلى اطلاع لجنة الشؤون الخارجية في الكونغرس، ومن ثم طالب الشيوخ بعقد مقابلة مع الرئيس ترومان ليشيروا الى "كل الاهمية التي يعيروها لسياسة الدفاع عن المصالح الأميريكية في الخليج العربي".

هكذا، وبطبيعة الأشياء كانت الولايات المتحدة قد استدرجت للإنضواء أكثر فأكثر في شؤون الشرقين الأدنى ولأأوسط. ولعلنا نذكر أن الخطوة الاولى التي تحققت في هذا الإتجاه تمت في أكتوبر تشرين الاول من عام ١٩٤٢، حين أقدم الجنرال كونولي على استلام القيادة العليا كل الدوائر في الخليج العربي " لإعفاء البريطانيين من مسؤوليات الإلتزامات الخاصة بتسليم الإعتدة المطلوبة لروسيا عبر إيران".

أما الخطوة الثانية فقد قام ترومان بانجازها في ١٢ مارس (آذار) ١٩٤٧. في ذلك اليوم أنبأ الرئيس أعضاء مجلس الشيوخ أن " بريطانيا" العظمى لم تعد في وضع يسمح لها بالحفاظ على التزاماتها نحو اليونان وتركيا، ولذلك أميركا قررت بأن تأخذ على عاتقها الوفاء بالتزامات انكلترا في المتوسط الشرقي والشرق الأدنى".

لم تعد بعد ذلك غير مرحلة أخيرة يجب ان يتم إنجازها . فتحقق ذلك في ٢٣ يونيو (حزيران) من عام ١٩٤٨ حين اعلن جون فورستال وزير الحرب الأميريكي امام مؤتمر القيادات المختلفة للجيش في ميامي " أن تعتبر منذ اليوم جزءاً داخلاً في منطقة الدفاع عن النصف الغربي من الكرة الأرضية".

وكلما زاد التوتر بين الولايات المتحدة والإتحاد السوفياتي ازدادت أهمية الشرق الأدنى في نظر الخبراء من البنتاغون باعتباره منطقة من أهم المناطق الإستراتيجية في العالم كله. لكن ما اكتشفه الاميريكيون شيئاً فشيئاً، كان الروس من جانبهم يعرفونه منذ وقت طويل. في هذه النقطة –كما في كثير من غيرها – لم يكن نشاط السوفيات غير استمرار ومتابعة لسياسة القياصرة التوسعية. وعندماة توجه مولوتوف ليرى هتلر في مارس(آذار) من عام ١٩٤١، كان من الشروط المتفق عليها في عقد المحالفة العسكرية الجرمانية – الروسية اطلاق أيدي السوفيات في ايران والعراق، والإستيلاء على قطاع كبير من العربية السعودية لتمكينهم من الإشراف على الخليج العربي وخليج عدن. هذه الحقائق كشف عنها وشهد بها بعض الوثائق في محاكمة نورمبرغ[١] كبار القادة السوفيات واكثر أعضاء المكتب السياسي نفوذاً أن الجنرال شتمانكو قد طرح امام ستالين مخططاً واسعاً لعمليات حربية تدخل فيه خطة هجوم صاعق على الخليج العربي ينفذها جيش مدرع مؤلف من خمسين فرقة؟

أوليس أن الروس قد عقدوا مؤتمراً مخصصاً للشرق الأوسط بعد ذلك بعامين نوفمبر(تشرين الثاني) ١٩٥٠، في مدينة باطوم، حيث درست الوسائل المطلوبة لحماية المنطقة النفطية الخاصة بالإتحاد السوفياتي " ودرست في الوقت نفسه خطة لإلحاق الموارد النفطية الواقعة في البلدان المجاورة، بحضور مفوضين ومراقبين منتدبين من قبل الاوساط الشيوعية في تركيا وفلسطين وايران والعراق وسوريا ولبنان وشرقي الأردن ومصر[٢]؟

---

١) ومنذ ذلك الوقت، لم يعدل زعماء الكرملين عقيدتهم ، تؤكد هذا الموقف المعلومات النادرة التي كانت تتسلل عبر الستار الحديدي. ألم يكن يقال ،بعد المؤتمر المنعقد في ٢٣ نوفمبر (تشرين الثاني) من عام ١٩٤٨ من قبل انظر ما قبل ذلك، ص ٣٣٩

٢) مجلة المصور، ٩ ديسمبر (كانون أول) ١٩٥٠.

كـل هـذه المظـاهر والانشـطة تشـير بطريقـة واضـحة ثابتـة بأن إتجـاه السياسـة الروسـية لم يتغـير. أغراضـها هـي نفسها على الدوام: المضائق، البحر المتوسط، الخليج العربي...

وهـل يمكـن أن يكـون هنـاك غـير ذلـك ؟ ولـو أراد زعمـاء الكـرملين أن يغـيروا خـط سياسـتهم لمـا اسـتطاعوا الى ذلــك ســبيلاً.. ان التنــافس الروســي – الأميريكــي حــول الخلــيج العــربي منقــوش ومســجل في طبيعــة الأشـياء. لقـد كانـت الـولايات المتحـدة والـديمقراطيات الغربيـة تشـرف علـى مـا يقـرب مـن ٩٠ في المائـة مـن انتـاج الـنفط العـالمي، و٧٥ في المائـة تقريبـاً مـن مصـادر الإحتيـاط المعروفـة. فـإذا نشـب نـزاع مسـلح؟ فمـاذا يفعـل الإتحـاد السـوفياتي مـع ١٠ في المائـة مـن الإنتـاج و ٢٥ في المائـة مـن الإحتيـاط[١]؟ ومـا عسـاها تكـون في الميـزان تلـك الكميـة الـتي يسـتخرجها سـنوياً مـن أباره وهـي لم تكـن تجـاوز ٣٧ مليـون طـن مقابـل ٥٢٣ مليـون طـن تنتجهـا المجموعـة الأطلنطيـة [٢]؟ لقـد كـان عليـه أن يصـحح هـذا الوضـع القـائم لغـير مصـلحته . فكيـف يفعـل، إذا لم يسـتول علـى حقـول نفطيـة جديـدة؟ وأيـن هـي أقـرب هـذه الحقـول إذا لم تكـن في إيـران في إيران والعراق والجزيرة العربية؟

أمـا الأميريكيـون، القـادمون حـديثاً الى هـذه المنطقـة مـن العـالم، فقـد انتهـوا الى إدراك أهميـة الرهـان كمـا أدركـوا أيضـاً بأن الجزيـرة العريبيـة ليسـت مصـدراً لتزويـدهم بالوقـود وحسـب، بـل هـي أيضـاً قاعـدة علـى المنـاورة الكبرى التي يستطيع أن ينطلق منها هجوم جوي واسع ضد الحقول السوفياتية في باطوم وباكو.

إن في وسـعهم ضـرب العمـلاق السـوفياتي بالإنطـلاق مـن هـذه القاعـدة الواقعـة عنـد ملتقـى أوروبا وآسـيا. والإمتنـاع عـن احـتلال الجزيـرة العربيـة هـو، في مقابـل ذلـك ، جعـل هـذه المنطقـة فريسـة سـهلة التنـاول لفـرق سوفياتية محمولة جواً تهبط في وسط الصحراء ثم تنتقل الى الشاطئ لتقدم عونها الى قوات بحرية للتموين.

---

١) هذه الأرقام وضعت من قبل إدارة مصلحة الدراسات في شركة يونيفرسال أوبل، في شيكاغو.

٢) راجـع أرقـام الإنتـاج العـالمي مـن الـنفط المعطـاة مـن قبـل هارولـد أيكـس في المـؤتمر الإقتصـادي المنعقـد في واشـنطن خـلال شـهري ابريـل و مـايو (نيسان و أيار) عام ١٩٤٤.

ان الجزيرة العربية ، في السباق القائم نحو القواعد الإستراتيجية ، الذي هو المرحلة التمهيدية لنزاع محتمل، تمثل في تلك الحالة، ورقة أساسية رابحة. حتى أن خبراء البنتاغون قد قدروا أن من يملك هذه القلعة، بعد إعلان الحرب، سيكون يه ، لهذا السبب فقط، امتياز كبير على عدوه. بل ذهبوا الى القول الى أن من يصبح سيداً للجزيرة العربية والشرق الأوسط، خلال عشرة أعوام، سيكون من الناحية العملية، سيداً للعالم القديم كله[١].

البلاد	الإحتياط الكلي بملايين الأطنان	الإنتاج عام ١٩٤٣ بملايين الاطنان	المدة المحتملة للإحتياط في ضوء الإنتاج لعم ١٩٤٣
الولايات المتحدة	٢٧٠٠	٢٠٠	٠١٣ عام
الخليج العربي	٢٢٠٠	١٥	١٤٦ عام
الإتحاد السوفياتي	١١٦٥	٢٥,٥	٠٤٦ عام
بحر الانتيل	١٠٢٥	٣٥,٥	٠٣٠ عام
أمكنة مختلفة	٣٨٠	٢٥	٠١٦ عام

هكذا ، دخلت قيادة الولايات المتحدة ، دون إبطاء في مفاوضات مع ابن سعود لتجديد العقد المتصل بالقاعدة الجوية البحرية في الظهران، والتي كانت تقترب من نهايتها في فبراير (شباط) من عام ١٩٥٠. وتم تجديد الإتفاق لخمس سنوات تالية في ١٥ يوليو (تموز)١٩٥١. وفي وقت معاً، وضعت هذه القيادة خططاً تهدف الى تحويل المنطقة الساحلية الشمالية من الجزيرة العربية الى ترسانة مزودة بأقوى الأسلحة الدفاعية والهجومية: مطارات تحت الأرض، ومزالق لإطلاق القذوفات الموجهة باللاسلكي إلخ..

---

١) أنظر البير دوكروك: أسلحة الغد، ص: ٣٤-٣٥

في هذه الخطط عين دور خاص للأخوان . لقد كان عليهم، في حال الحرب، أن يقوموا بما يلي:

١) أن يحتلوا فوراً كل مواقع الماء دون سقوطها في أيدي الغزاة المحمولين جواً.

٢) أن يحافظوا على أمن البلاد، ويحولوا دون إنزال التخريب بآبار النفط وخطوط الأنابيب الممدودة.

ثم يعقب هذا الإجراء اقامة خط دفاعي مستمر، شمال الخليج العربي يتألف من حلف عسكري يضم تركيا وايران وباكستان[١]. لكن اقامة هذه "الدرع الشرقية" التي يراد بها حماية قلب الجزيرة العربية لم تلبث حتى اصطدمت بصعوبات غير منتظرة.

إن ما كانت روسيا تعرفه منذ زمن طويل، وان ما اكتشه الاميريكيون منذ وقت قريب- وهو أهمية الشرق الأوسط باعتباره عاملاً للسيطرة باعتباره عاملاً للسيطرة العالمية- لم يغب عن بال انكلترا أبداً، ومن الواجب أن يجهل المراقب حقيقة العناد البريطاني ليظن أنها ستستسلم لخطة إبعاده دون رد قوي.

كانت بريطانيا العظمى وما تزال حتى ذلك الوقت ممسكة في تلك المنطقة بمواقع قوية حصينة ، بفضل الرساميل الموظفة في العمليات النفطية في العراق وايران[٢]. لقد كانت منطقة النفوذ الإنكليزية رغم انكفائها الضيقة التي رجعت اليها ممتدة أيضاً بين كركوك وحيفا وبين بغداد وطهران استناداُ منها الى قواعدها المالية واعتماداً منها على شبكة أنابيبها الفلسطينية العراقية.

وعلى ذلك السياسة البريطانية ، في ميدان النفط، كانت متعارضة تعارضاً كلياً مع سياسة الولايات المتحدة.

كانت السياسة الأميريكية واضحة بسيطة. فاحتياط النفط في نصف الكرة الغربي قد استخدم لتغذية حربين — وكان استهلاك النفط فيهما بنسبة عالية جداً. ولما كان القادة الإقتصاديون في أميركا قد أنذروا بأزمة ١٩٤٧، فقج قدروا وجوب الإعتدال في استغلال الحقول الأميريكية التي لم تكن رغم سعتها

---

١) أنظر مصطفى كمال أو موت أمبراطورية، ص: ٤٠٢، ملاحظة ١-

٢) لنتذكر أن انكلترا كانت تملك ٤٨ في المائة من أسهم شركة نفط العراقو ٥١ في المائة من حصص الشركة الإنكليزية الإيرانية .

وضخامتها مستعصية على النضوب والنفاذ. والوسيلة الى تحقيق هذا الإعتدال هي في تصدير النفط السعودي الى أوروبا بسعر رخيص، مما يحول دون أن يدع بيع النفط الاميريكي الى الخارج أي هامش للربح عند الشركات المصدرة.

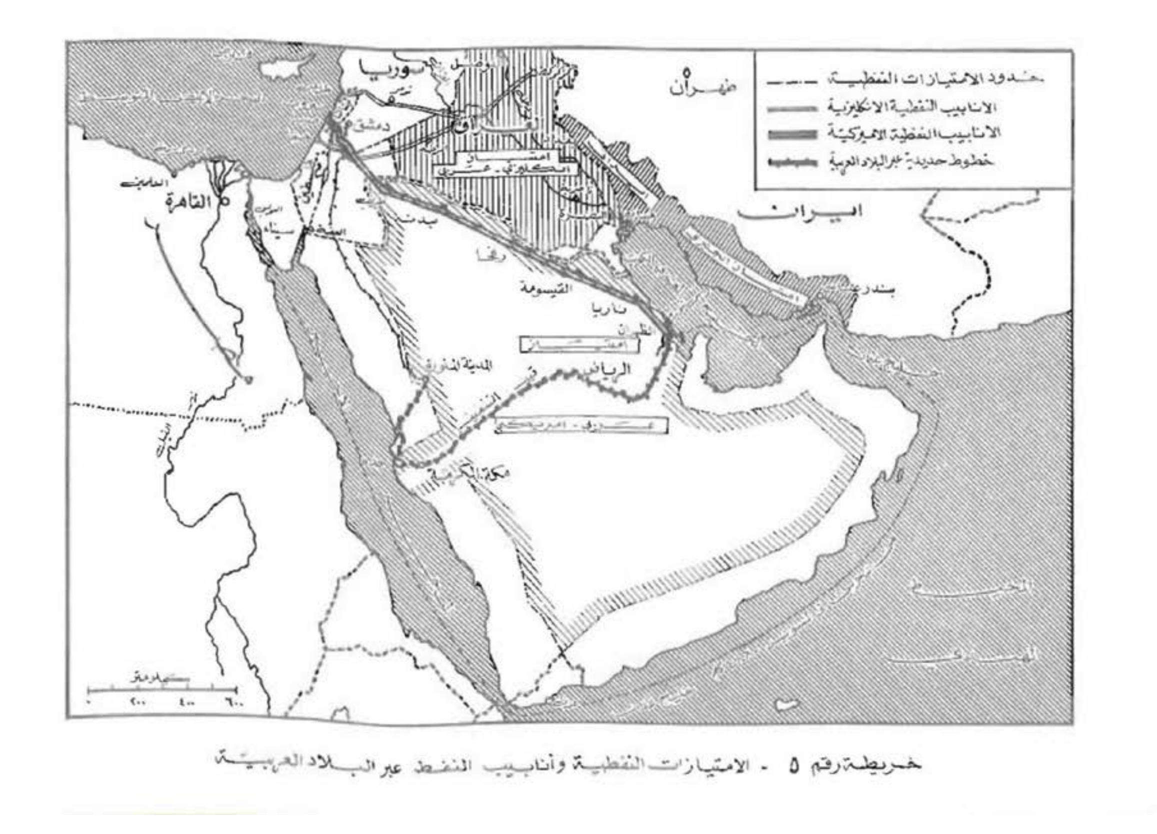
وللأسباب نفسها كانت سياسةإنكلترا تقضي بالإعتدال في استهلاك الإحتياط من نفط الأمبراطورية والإعتماد بصفة الأولوية علىالنفط القادم من الخارج – أي النفط الاميريكي، لأنه لم يعد في العالم غيره[1]. من أجل ذلك كانت حكومة لندن تعمد جاهدة على الإحتفاظ بسعر الوقود العراقي مرتفعاً قليلاً عن سعر النفط المستورد من بحر الولايات المتحدة .

وكانت قد توصلت الى تحقيق هذا الأمر بفرض تنظيم شديد على الشركات النفطية بالشرق الأوسط تثبيت الحد الأدنى من الإنتاج العراقي فيحدود ٤٧٠٠٠٠٠ طن في كل عام وتحريم استغلال حقول نفطية جديدة.

لكن ثغرة فتحت في هذا النظام، كما رأينا من قرب، في اليوم الذي باعت فيه شركة زيت الخليج لشركة ستاندارد كاليفورنيا، ثم تجاوزت فيه شركة زيت ستاندرادكاليفورنيا العربية حق النقض البريطاني، وقررت استغلال حقولالإحساء بصورة مكثفة لكن مدراء لندن لم يعترفوا بالهزيمة. ولكي يستمروا في تحديد الأسعار لجأوا الى منهج آخر.

---

١) كان النفط البولوني والروماني محتكراً من قبل روسيا. أما فيما يتعلق بالنفط الإنكليزي الهولندي في ماليزليا (١١,٧٠٠,٠٠٠ طن عام ١٩٤٠) فقد كان مستهلكاً تقريباً من قبل السوق الآسيوية : اليابان ، الصين ، ماليزيا، برمانيا، الهند .



خريطة رقم ٥ - الامتيازات النفطية وأنابيب النفط عبر البلاد العربية

إن النفط القدم من الظهران أو من البحرين، من قبل أن يبلغ الاسواق الأوروبية، يجب أن يقوم بدوره كاملة حول شبه الجزيرة العربية ثم يصعد البحر الاحمر ويجتاز قناة السويس. هذه الجولة تمثل ٤٧٠٠ كيلومتر. كانت شركة الأرامكو محرومة من وسائل النقل البحري. بينما وضعت الاميرالية البريطانية في هذا الخط ناقلات جديدة بنيت في أثناء الحرب، أما اميركا التي تنقصها هذه الناقلات باعتبار أنها كانت منصرفة الى البناء المكثف للسفن من طراز ليبرتي، فقد كانت مرغمة على تخصيص ناقلاتها للعمل داخل القارة الأميريكية. وفي ضوء هذا الواقع كان القسم الاكبر من نفط الإحساء ينقل بواسطة شركات بريطانية.

وزيادة على ذلك ، كانت انكلترا تفرض رسماً يتراوح بين ١٥ و ٢٠ سنتيم على كل برميل من النفط يمر في قناة السويس. فترتب على هذا التدبير جمع مبالغ كبيرة، ولاسيما حين نفكر بأن الناقلات تمثل في عام ١٩٤٨ نسبة ٥٨ في المائة من مجموع النقل البحري عبر القناة. (مقابل ٤٣،٩ في المائة عام ١٩٤٧ و ١٧ في المائة عام ١٩٣٨).

هكذا استمرت بريطانيا العظمى في إملاء الأسعار الخاصة بالنفط العربي:

١) بتحديد انتاج الأرامكو عن طريق غير مباشر. لأنه كان في وسع هذه الأخيرة أن تلقي في السوق ٥٠،٠٠٠،٠٠٠ طن سنوياً- وأكثر من ذلك لو لم يكن نشاطها محدداً بالحمولات المقررة من قبل الشركات البحرية البريطانية،

٢) برفع أثمان التقل أو تخفيضها،

٣) بزيادة الرسوم في السويس أو تخفيضها

---

١) اندريه ويسون: لماذا يجب أن نبني هذا الخط من الأنابيب؟ ريدرز دايجست يونيو (حزيران) ١٩٤٤ (الطبعة الأميريكية).

كل الإنتاج النفطي في الجزيرة العربية يجب أن يمر عبر عنق الزجاجة الضيق لقناة السويس . وانكلترا هي وحدها التي تحدد، على هواها، كمية ما يصب في هذا العنق.

وكان من الطبيعي أن الأميركيين يريدون التحرر من هذه الوصاية. من أجل ذلك لم يكن أمامهم غير إحدى وسيلتين: الاولى تقضي ببناء عشرين ناقلة على نقل طن ٥٠٠,٠٠٠ من الوقود والإبحار بسرعة عشرين عقدة. لكن هذه الوسيلة تستطيع أن تحل مشكلة الحمولات والأجور. ولا تستطيع أن تضع حلاً لمشكلة الرسوم في القناة.

أما الوسيلة الثانية فتقضي ببناء خط الأنابيب عبر الجزيرة العربية يربط الظهران مباشرة بالبحر الأبيض المتوسط. ان هذه الخطة التي بدئ بدرسها منذ العام ١٩٤٣، كانت تثير الإهتمام الكبير عند الحكومة الأميريكية. وكان فاتح روزفلت ابن سعود في هذا الموضوع على ظهر الطراد كوينسي. ان أنابيب تمتد على مسافة ١٧٥٠ كيلومتر، تستطيع أن تقصر الطريق بنحو الثلثين وتسمح بصب ٤١ مليون لتر من النفط في حوض البحر الأبيض المتوسط يومياً.

كان هذا المشروع، في الدرجة الاولى، رداً أميركياً على سياسة التضييق الإقتصادي التي يمارسها الإنكليز. كتب ادوارد سابليا يقول : " ان نقل النفط السعودي عبر خط الأنابيب نحو ساحل المتوسط يعني ضربة شديدة لبريطانيا العظمى. فهل تستطيع الشركة الإنكليزية الإيرانية أن تصمد طويلاً أمام المنافسة الأميريكية؟ ومن الجانب الآخر، كانت البلاد التي تستند اليهالندن للحفاظ على نفوذها في الشرق الأدنى، تتعرض لخطرالإنهيار. فالعراق لا يوجد إلا بفضل نفطه وشرقي الأردن لا يستمر الا بالحراسة التي بها على امتداد الانابيب العراقية...[1]

هكذا كانت الحرب الخفية التي يتقاتل فيها النفط الإسترليني ونفط الدولار قد تحولت الى منافسة مثيرة بين الانابيب والناقلات.

---

١) لوموند، ١٦ أغسطس (آب) ١٩٤٩

أما فيما يتعلق بالأنابيب الممتدة داخل الأراضي الخاضعة للإدارة السعودية، فان بناءها لا يثير أية عقبة. لكن الأمر يختلف بالنسبة للقطاع الأخير الممتد بين الحدود الشمالية الغربية من العربية السعودية وبين ساحل المتوسط. هنا يجب أن يجتاز خط الأنابيب الأميركي بالضرورة بلداناًيغلب فيها النفوذ الإنكليزي — شرقي الأردن وفلسطين -. وقد كانت حكومة لندن مصممة على استخدام كل الوسائل الممكنة لمنع هذا الخط من الوصول الى البحر.

لم يكن عبد الله ، ملك شرقي البلاد، في حاجة لمن يلتمس منه المشاركة في هذا الرأي . ان الزيادة في حجم الإنتاج الاميريكي ببناء خط الانابيب ستزيد من مداخيل ابن سعود. ومن الطبيعي أن يرفض ولد الحسين كل تدبير يؤدي الى هذا الإثراء السعودي وأيضاً فقد استخدم كل ما يملك من الوسائل لإسقاط المشروع الاميريكي، وعندما توصل عملاء الأرامكو الى انتزاع موافقة مبدئية منه، أثار أمامهم الوضع الغامض المضطرب القائم في فلسطين. ليؤجل عملية التنفيذ الى أجل غير مسمى.

وبعد أن تعب الأميركيون من هذه المماطلة، راحوا يبحثون عن منفذ آخر. فتوجهوا الى سوريا، التي أعلن استقلالها عام ١٩٤٥، بعد طرد فرنسا منها، وفكروا في ايصال خطوط التابلاين الى صيدا، بدلاً من حيفا، لكن الإنكليز هنا أيضاً كانوا يقومون بحراسة نشطة . لقد كانت الحكومة السورية برئاسة جميل مردوم تؤجل باستمرار عقد اتفاق حول هذا الموضوع مختبئة وراء أكثر الحجج اختلافاً لتبرر تهربها من ذلك الامر. وفي كل مرة تبدو فيها المفاوضات عند حافة النجاح، يعترضها حادث غير منتظر للإبتداء من جديد. فالمحادثات تراوح في مكانها، والانابيب التي يجب أن ينتهي مدها عام ١٩٤٦، لم يتحقق شيء منها حتى نهاية ١٩٤٩.

والواقع أن الاميريكيين لم يستطيعوا تفسير المماطلات ، ولم يكن الإنكليز ينظرون ايلهم يتخبطون في هذه الشبكة من التعقيدات المتجددة باستمرار دون سخرية خفية. والثابت أن قادة " نفط الإسترليني" يعلمون أنهم لن يستطيعوا إحباط المشاريع الخاصة بمنافسيهم الى الأبد. ان يوماً يأتي يكون فيه نفط الدولار قادراً على التصرف بعدد من الناقلات يتحرر بها من القيود الإنكليزية وعلى إيصال خطوط التابلاين الى البحر. ان ما كان يريده البريطانيون هو إرهاق الشركات الأميريكية بهذه

الحرب الإستفزازية واستدراجها الى التوقيع على اتفاق نفطي جديد من قبل حلول الأجل. بهذه الوسيلة كانت لندن تأمل في خلق تسوية انكليزية أميركية للحيلولة دون نشوء أية منافسة بعد ذلك ، وبهذه التسوية يتم اتفاق مشترك على تثبيت الأسعار وتحديد كميات الإنتاج ثم يتم اقتسام الثروات النفطية في الشرق الأوسط بين الدولتين على أساس يقل فيه التفاوت بينهما عان هو عليه في اتفاقية ديسمبر (كانون الأول) ١٩٤٦.

وقد قدم البريطانيون الى واشنطن عروضاً واقتراحات في هذا الإتجاه مرات كثيرة. كان الأميريكيون يرفضونها باستمرار. لكن مدراء الأرامكو بعد الذي قابلوه من المتاعب بدأوا يفقدون الصبر والشجاعة. فأخذ بعضهم يتتساءل ما إذا كان الحل الأفضل ، بعد هذا كله ، هو الدخول في مفاوضات مع لندن. وبينما كان الإنكليز يستعدون لقطف ثمرة الجهود التي بذبوها، ظهرت فجاة على مسرح السياسة السورية شخصية جديدة لم يسمع بها أحد من قبل انها شخصية حسني الزعيم.لقد غير وصوله الى السلطة كل معطيات المعضلة القائمة.

فمن هو هذا الرجل المجهول، باسمه الضاخب كضربة صنج مدوية، والذي دفعت به الأحداث الى الصف الأول؟

ان ما كان يعرف عنه، يتلخص في شيء قليل. ولد حسني الزعيم في حلب عام ١٨٩٧ وكان ضابطاً محترفاً، تابع قسماً من دراساته في فرنسا. طالب دقيم في سان – مكسان، خدم في فرقة من الجيش التركي عامي ١٩١٧ و ١٩١٨ وشارك في تراجع الجيش من سوريا بقيادة مصطفى كمال. وبعد وصول الجنرال غورو الى بيروت عام ١٩١٩ كان أول ضابط سوري توكل اليه قيادة وحدة فرنسية. وفي عام ١٩٤١ وضعه الجنرال دنتز وكانت له فيه ثقة كبيرة، وعلى رأس كتيبة وكلفه بالدفاع عن دمشق ضد القوات الإنكليزية الديغولية. فاعتقله الإنكليز بعد هدنة عكا لأنهم اتهموه بلاعطف على الألمان. وبعد ذلك بقليل عين قائداً أعلى لقوات السوري المسلحة. وقد تركت حياته العسكرية في نفسه ثلاثة ميول غالبة عليه: اعجاب كبير بالغازي مصطفى كمال، وعطف حقيقي على فرنسا وعداوة شديدة لإنكلترا.

كـان في بدايـة عـام ١٩٤٩ يمسـك بيـده زمـام الشـرطة والجـيش. فقـرر، متـأثراً بالفسـاد المنتشـر في الأوسـاط السـورية الحاكمـة، وبالإتفـاق مـع ثلاثـة ضـباط كبـار مـن أصـدقائه- بهـيج كـلاس أديـب الشيشـكلي وسـامي الحنـاوي – أن يقلـب النظـام القـائم وأن يطـرد مـن رئاسـة الجمهوريـة السـيد شـكري ومـن يحـيط بـه مـن رجال الحاشية.

وفي ٢٣ مـارس (آذار) ١٩٤٩ انقـض الجـيش العائـد مـن فلسـطين بقيـادة حسـني الـزعيم ، علـى دمشـق فاعتقـل رئـيس الدولـة ورئـيس الحكومـة وأبـرز الـوزراء. هتـف الشـعب لهـذا الإنقـلاب الـذي حـرره مـن حكومـة غـير شـعبية، دون إسـالة قطـرة دم واحـدة ودون اللجـوء الى الأجنـبي. وفي ٦ أبريـل (نيسـان) قـدم الـرئيس شـكري القـوتلي اسـتقالته مـن وظائفـه كلهـا، وفي اليـوم التـالي لحـق بـه خالـد العظـم رئـيس مجلـس الـوزراء. وفـس مـايو (أيار) تم انتخـاب الجنـرال حسـني الـزعيم رئيسـاً للجمهوريـة ب ٧٢٦١١٦ صـوتاً مـن ٧٣٠٧٣١ ناخبـاً بعـد أن رشـح نفسـه لمركـز رئاسـة الجمهوريـة. وبينمـا كانـت مئـة طلقـة وطلقـة مـدفع تـدوي في قضاء دمشق اعلاناً لنتائج الإستفتاء اخذ الزعيم

لنفسـه لقـب ماريشـال وكلـف وزيـر سـوريا المفـوض في القـاهرة محسـن الـبرازي بتـأليف حكومـة جديـدة. هكـذا اتخـذ الطالـب القـديم في سـان مكسـان مجلسـه مـن السـلطة لمـدة سـبعة أعـوام بعـد انتخابـه مـن قبل الشعب السوري بصورة شرعية. فماذا كان يريد أن يفعل بهذه السلطة ؟

كتـب الجنـرال كـاترو يقـول: " لم يكـن في فكـر حسـني الـزعيم شـيء غـير ثـورة جزريـة، لـيس فقـط في المؤسسـات السياسـية وفي البنيـة الإقتصـادية والإجتماعيـة، بـل في الواقـع النفسـي لـبلاده وفي عاداتهـا أيضـاً. لقـد كانـت ثـورة ذات صـلة بتلـك الـتي قـام بهـا كـل مـن بطـرس الكبـير وأتاتـورك ثـورة تهـدف الى زلزلـة الطبقـات الإجتماعية والمصالح والأفكار المكتسبة[١].

---

١) الجنرال كاترو: تأملات في القضية السورية. لوفيغارو، ٢٠ آب ١٩٤٩.

كان برنامج الزعيم الجديد للدولة السورية متقابلاً سطراً سطراً، وفقرة فقرة، مع برنامج مصطفى كمال: اصلاح زراعي وأعمال ري واسعة، واعادة تنظيم الجيش وتطهير الإدارة، وإلغاء القوانين الدينية والرجعية، ثم علمنة الدولة ومنح النساء حقهن في الإنتخاب ، تطوير التعليم العام، وتدعيم حزب الشعب السوري/ الخ... كل هذه الإجراءات كانت تهدف الى استئصال بقايا الإقطاعية في سوريا التي ما زالت موجودة فيها وتحويل الشعب السوري الى أمة عصرية.

لقد كانت شخصية الماريشال الجذابة ، وظرفه ، ونشاطه وارادته المتسلطة التي يحتمل أن يكون قد ورثها عن أصوله الكردية، تسمح بالتفكير في أنه سيجعل من هذا البرنامج حقيقة واقعة. يقول لنا أدوارد سابليا: "كان في تصديه للأقوياء واحترامه للعدالة ، رجلاً ذا نبرة واضحة ، وأفكار سليمة وخلق مستقيم[1]". فهل سنشهد بعد مصطفى كمال وابن سعود على مسرح الشرق الأدنى رجل دولة ثالثاً ، ذا استثنائية؟

الثابت أن مشروعات الماريشال لا يسعها أن ترضي جميع الناس. لقد جابهه منذ البداية الحلف التقليدي لمجموعة " العلماء" الرجعيين، وكبار أصحاب الأراضي والمنتفعون من النظام السابق، وعدد كبير من الموظفين الذين طردوا بسبب اختلاساتهم. أما ميله الظاهر الى فرنسا وتحفظه المتعالي تجاه عبد الله ، فقد سبباً له بالإضافة الى ذلك عداوة المجموعات السياسية الموالية للهاشميين، والتي كانت تعمل على خلق تكتل سوري – عراقي-أردني في ظل الحماية الإنكليزية. لكن هذه المعارضة لم تكن تقلقه أبداً اذ أنه كان يشعر بقدرته على تحطيمها.

عندما وصل الزعيم الى السلطة، وجد خزانة الدولة فارغة، كما وجد الاوضاع المالية العامة في حال مؤسفة. وهنا بادر الى عقد اتفاق نقدي مع فرنسا سمح له بمواجهة القضايا العاجلة .ولما كان راغباً في الحصول على موارد اضافية، تسمح له بتحريك الإقتصاد السوري، سعى الى عقد قرض من الخارج.

---

١)ادوار سابليا: الإنقلاب السوري الجديد . لومند ١٦ أغسطس (آب) ١٩٤٩

كـان حسـني الـزعيم ، كمـا قلنـا مـن قبـل، يعـود الى أصـل كـردي. أمـا ابـن سـعود الـذي كـان يعطـف عطفـاً ظـاهراً علـى هـذا العنصـر الفخـور القـوي، فقـد تابـع تصـرفات الـرئيس الجديـد باهتمـام شـديد. ألم يتحـدث النـاس فيلمحـون الى أن هـذا العطـف قـد ظهـر في مناسـبات كثـيرة بطريقـة ملموسـة، وأن ولـد عبـد الرحمن قد زوده بمبالغ من المال لتدعيم دعايته لنفسه في أوساط الشرطة والجيش؟

وزيادة علـى ذلـك فـان ابـن سـعود قـد فـتح لحسـني الـزعيم، بعـد إسـتيلائه علـى السـلطة ، اعتمـاداً بمبلـغ سـتة ملايـين دولار مسـتردة بعـد عشـرة أعـوام. انهـا المـرة الأولى الـتي كـان في وسـع حـاكم عـربي أن يقـوم فيهـا بعمليـة ماليـة بمثـل هـذا الإتسـاع. وفي الوقـت نفسـه بـدأت المفاوضـات بـين الحكـومتين السـورية والسـعودية لعقد حلف بينهما ٢٥ يونيو (حزيران) ١٩٤٩.

وبعـد ذلـك بأيام قليلـة ، ذيـل حسـني الـزعيم بتوقيعـه اتفاقـاً يأذن بمـرور خـط الأنابيـب عـبر سـوريا. وبـذلك يكون " نفط الدولار" كسب الجولة الأولى.

لم يمـر هـذا النبـأ، كمـا نظـن، دون أن يحـدث انفعـالاً عنيفـاً في لنـدن . ان الحكومـة البريطانيـة لم تحـاول اخفـاء قلقهـا كتـب محـرر المقـال اللإتتـاحي في جريـدة لومونـد في ٢٤ يوليـو (تمـوز) ١٤٩٤يقـول: " إن كـل مـا تحتويـه بريطانيـا العظمـى مـن الخـبراء في مسـائل الشـرق الادنى قـد اجتمـع في مكاتـب وزارة الخارجيـة . فـدارت المناقشـات، بعـد عمليـة الإفـلاس، حـول خطـة لتقـويم السياسـة الشـرقية في لنـدن... كـان الموقـف في حـال مـن الخطـورة، بحيثـأن الحكومـة العماليـة لعبـت باوراقهـا الـتي كانـت مـا تـزال تملكهـا حـين اسـتلامها للسـلطة، وخسرتها، في أقل من خمس سنوات".

لقـد أجمـع الخـبراء علـى التصـريح بأن الموقـف خطـير جـداً. ان سياسـة حسـني الـزعيم قـد هـدمت جـدار الـدول الصـغيرة التابعـة لهـا، هـذا الجـدار الـذي إستبسـلت بريطانيـا وكافحـت لبنائـه علـى امتـداد البحـر، لتـأمين الإسـتمرار لمواصـلاتها بـين القـاهرة وبغـداد، ولمنـع الجزيـرة العربيـة الوسـطى مـن " التـدفق نحـو حـوض البحر الأبيض المتوسط".

هـذه المهمـة كانـت الكـابوس الـذي يضـغط علـى كـل رجـال الدولـة الإنكليـز الـذين تعـاقبوا علـى السـلطة منـذ عـام ١٩١٩. في الوقـت الـذي لم يكـف فيـه ابـن سـعود عـن توجيـه مطارقـه نحـو هـذا الحصـن ، منقلاً جهوده مرة الى نقطة معينة ومرة الى نقطة أخرى.

أمــا في المــرة الأولى فقــد توغــل الوهــابيون عــام ١٩١٩ في الجــوف وطريــب. فطــردهم الإنكليــز بضـربات القنابـل. وفي المـرة الثانيـة، عـام ١٩٢٥، احتـل الأخـوان ممـر وادي سـرحان. فحصـل الإنكليـز علـى جلائهـم عنـه بطريـق المفاوضـات. وهـا هـو ابـن سـعود يعـود الى الحملـة مـرة ثالثـة، محمـولاً في هـذه المـرة علـى فـيض مـن الـنفط والـدولارات الأميركيـة! لقـد كـان يحـاول عقـد حلـف مـع الـزعيم مـن وراء المفاوضـات المتعلقـة بخطوط الأنابيب !.

فـإذا حـدث أن سـوريا قـد توافقـت مـع العربيـة السـعودية، فقـد قضـي نهائيـاً علـى الدولـة البريطانيـة في الشـرق الأدنى. وبـذلك يسـيل الـنفط الاميركـي حلـراً في حـوض البحـر المتوسـط. كمـا أن شـركة نفـط العـراق والشـركة الإنكليزيـة الإيرانيـة، اللتـين بليـت أجهزتهمـا ورثـت، لـن تكـونا في وضـع يسـمح لهمـا بالصـمود أمـام منافسـة الأرامكـو. ان عليهمـا أن يخليـا المكـان لشـركات أميركيـة، ومـن ثم تصـبح انكلـترا تابعـة للـولايات المتحـدة، فيمـا يتعلق بالوقود الضروري لطيرانها وبحريتها.

أمـا مـن الناحيـة السياسـية، فـان النتـائج لا تكـاد تكـون أقـل بـلاء وتعـاس. إذ أن بـذلك يفصـل العـراق . هـاتان الـدولتان، اللتـان عزلـت إحـداهما عـن الأخـرى لا تلبثـان حـتى تسـحقا عـاجلاً أة آجـلاً. وبـذلك تخسـر انكلـترا الـدعامتين الأخـريين اللتـين تسـتند ايهمـا هيبتهـا في الشـرق. علـى أن هـذا لم يكـن كـل شيء.

لقـد تأسسـت بتحـريض مـن عبـد الـرحمن عـزام بـك، المـدافع المـتحمس عـن نظـريات عـن نظـريات الوحـدة العربيـة، " جامعـة عربيـة" بتـاريخ ١٧ مـارس (آذار) في مدينـة هليوبـوليس قريبـاً مـن القـاهرة، مـن أجـل " تنسـيق العمـل بـين مختلـف الـدول العربيـة في الشـرق الأدنى" " وابـن سـعود، الـذي لم يسـتطع، مـن قبـل، الــدخول في مجموعــة الإتحــاد التحــالفي نادى لــورانس بــزعم — أن مغــامراً لا يســتطيع أن يجلــس الى طاولــة الأمراء!—" قد أصبح عضواً في الجامعة العربية منذ تأسيسها.

هـذه الجامعـة كانـت تحتـوي علـى سـبعة أعضـاء: مصـر، العربيـة السـعودية، الـيمن، شـرقي الأردن، سـوريا، لبنـان والعـراق. القـرارات تؤخـذ فيهـا بأكثريـة الأصـوات. مصـر والعربيـة السـعودية والـيمن، تقـترع معـاً باسـتمرار. بينمـا العـراق وشـرقي الأردن يشـكلان كتلـة علـى حـدة. وبـين هـاتين الكتلتـين كانـت سـوريا ولبنـان تمـيلان الميـزان تارة الى هـذا الجانـب وطـوراً الى الجانـب الآخـر[1]. فـإذا وقفـت سـوريا الى جانـب ابـن سـعود(وهي تجـر لبنـان الى صـفها بصـورة آليـة) فـإن ولـد عبـد الـرحمن لايعـود يتصـرف بثلاثـة أصـوات بـل بخمسـة مـن سـبعة، وبـذلك يصـبح مـع مصـر سـيد الجامعـة العربيـة. وهـانا قـرر خـبراء وزارة الخارجيـة، بإجمـاع الآراء، أن على انكلترا ألا تسمح بذلك أبداً.وهنا جاء الحل سريعاً وخشناً بعد عشرين يوماً فقط.

في تمـام السـاعة ثالثـة مـن صـباح الرابـع عشـر مـن أغسـطس (آب) ١٩٤٩، وقفـت أمـام مـدخل الرئاسـة في دمشـق ثـلاث سـيارات مسـلحة، بينمـا كـان حبـل مـن القـوات المسـلحة يحاصـر القصـر. ترجـل الضـباط الضـين كـانوا فيهـا وتبـادلوا بعـض الطلقـات الناريـة مـع الحـراس ثم تـدفقوا نحـو حجـرة الماريشـال حسـني الزعيم وقتلوه بوحشية. وكان زعيم القتلة هو الكولونيل سامي الحناوي — خير صديق له.

ثم حملـت جثـة الـزعيم بسـيارة الى قلعـة المـزة. وفي أثنـاء ذلـك كانـت مجموعـة أخـرى مـن الضـباط قـد توجهـت لاعتقـال رئـيس مجلـس الـوزراء، حسـني الـبرازي في منزلـه، فنقـل الى القلعـة فاقـداً وعيـه ومغطـى بالدماء، ثم أفرغ كل الجنود والضباط الحاضرين مسدساتهم في الجثتين[2].

وفي أثنـاء الليـل، انتـزع الكولونيـل سـامي الحنـاوي السـلطة لنفسـه، وأعلـن من خـلال الإذاعـة أنـه تحرر البلاد من طاغية كريه وكلف السيد هاشم الاتاسي بتأليف وزارة جديدة.

---

١)أنظر موريس برنو: الجامعة العربية، رجال وعوالم. مارس (آذار) ١٩٤٧

٢)راجع جورنال القاهرة،١٩ أغسطس (آب) ١٩٤٩

وعندما علمت زوجة الماريشال بوفاة زوجها، وقد كانت حاملاً ، أجهضت فولدت طفلاً ميتاً. وقد أعرب أحد الحكام العرب عن فرحه بطريقة تنقصها اللياقة، مما دعا الحكومة البريطانية الى تنبيهه ونصحه بالتزام الوقار اللائق به. ثم أعيد كل الموظفين المصروفين الى مراكزهم. بينما وجه البرلمان السوري، الذي دعي الى الإجتماع، رسالة تهنئة خاصة الى سيد الإنقلاب الجديد ورفض التصديق على الإتفاق المعقود بشأن التابلاين.

هكذا مضى حسني الزعيم في سماء سوريا السياسية كالشهاب الثاقب. وحكومته التي كان ينتظر لها أن تدوم سبع سنوات لم تبق غير مائة وعشرين يوماً.

وبذلك ربح" نفط الإسترليني" الجولة الثانية.

كتب ج.ر بيرشيرال [1] يقول :" ان الفكرة القائلة أن قتل الماريشال حسني الزعيم في دمشق قد تم تدبيره والأمر بتنفيذه من قبل لندن هو جوهر التصرفات الطائشة الحمقاء التي يفكر فيها أصحابها بعقلية الشعارات البالية". ربما كان على حق، وذلك أن المنافسات الشخصية والمؤامرات المحلية في هذه البلاد تشغل حيزاً هو من الكبر بحيث تكسف المعضلات ذات الطابع العام. فليس ما هو أبسط من مثل هذا التفكير في الموضوع. ومهما يكن الامر فان شيئاً بقي ثابتاً ومؤكداً، هو أن انكلترا قد تنفست الصعداء حين علمت بموت الزعيم المأساوي. والآن وقد ام تجنب الخطر، فقد وجب أن تمنع عودة هذه الظروف المشؤومة بأي ثمن.

---

١)الورو ٤ سبتمبر (أيلول) ١٩٥١.

بـدأ خـبراء وزارة الخارجيـة ينقبـون في ملفـاتهم وقـدروا وجـوب العـودة الى المخطـط الـذي أوصـى بـه لـورانس عـام ١٩١٩. والخلاصـة أن مؤلـف " أعمـدة الحكمـة السـبعة" قـد تميـز بالنظـر الثاقـب. لقـد برهنـت التجربـة علـى وجـوب إحيـاء مشـروعه في تكـوين الإتحـاد التحـالفي العـربي، ووضـعه تحـت سـيطرة الهـاشميين المفـردة. رغـم أنـه سـيكون، بالتأكيـد، بنيـة أقـل طموحـاً مـن تلـك الـتي خطـط لهاعـام ١٩١٩. سـيكون أضـيق مسـاحة أرض وأضـعف قـوة سياسـة. وسـيعطى هـذا الإتحـاد اسمـاً جديـداً وشـعرياً في مقابـل ذلـك. انـه سـيكون " الهلال الخصيب" فمن عساه يستطيع أن يقاوم هذا العنوان الواعد؟

هـذا المشـروع البريطـاني تقـرر أن يتحقـق علـى مـرحلتين. في المرحلـة الأولى تنـدمج سـوريا والعـراق تحـت اسـم واحـد هـو " سـوريا الكـبرى" بينمـا تنمـو دولـة شـرق الأردن، الـتي أبـدل اسمهـا بالأردن فقـط، بإلحـاق المناطق العربية المنفصلة حديثاً عن فلسطين بكيانها.

وفي المرحلـة الثانيـة ينـدمج الأردن وسـوريا الكـبرى بـدورهما إمـا تحـت سـلطة الملـك عبـد الله، وإمـا تحـت سـلطة حفيـد أخيـه فيصـل الثـاني ملـك العلـراق في المسـتقبل، والـذي كـان ينهـي دراسـته في كليـة هـارو وذلك مراعاة لبعض الحساسيات القائمة.

ولمـا كـان الفيصـل مـا يـزال دون سـن الرشـد، فإنـه يعـين لـه مجلـس وصـاية يؤلـف بالإضـافة الى عبـد الله، وعبـد الإلـه الوصـي علـى العـراق، مـن رئيسـي الجمهـوريتين السـورية واللبنانيـة وزعمـاء مـن الطـائفتين الدينيتين الشيعية والمارونية...

حـتى هنـا، كانـت الكثـرة الكـبرى مـن السـوريين واللبنـانيين قـد أعربـت عـن عـداوتها الشـديدة لمثـل هـذا النـوع مـن المـزيج السياسـي، ذلـك لأن مـا كـان يطلـق عليـه اسـم " سـوريا الكـبرى" لم يكـن في الحقيقـة غـير " العـراق الكبـير" وزيادة علـى ذلـك، فـان الـدعوة الى الإنـدماج قـد أثارت مسـائل خاصـة بالسياسـة الداخليـة. إذ مـن الممكـن أن يكـون الجمهوريـون في دمشـق مـوافقين علـى الإتحـاد مـع بغـداد، شـرط أن يتحـرر العـراق مـن النظـام الملكـي. لكـن هـذا الحـل لم يكـن يلائـم الإنكليـز أبـداً. فالهـدف الأساسـي مـن العمليـة كلهـا بالنسـبة إلـيهم يقضـي بوضـع سـوريا تحـت وصـاية هـاشمي أي وصـاية حـاكم تابـع للنـدن ومتشـيع لهـا. وإذاً فهـذا يعـني أن تتنازل دمشق عن النظام الجمهوري وتقلع عنه.

كـان وصـول الجنـرال حنـاوي الى السـلطة متزامنـاً مـع الـزيادة الظـاهرة في الـدعوة الملكيـة، وكأنـه مجـرد مصـادفة غـير مقصـودة. ففـي ٢٠ أغسـطس (آب)، أعلـن البرلمـان السـوري " اسـتعداده لـربط سـوريا بالعـراق والأردن". هكـذا بـدأ " الهـلال الخصـيب " يأخـذ صـورته الواقعيـة . ولم يبـق غـير أن يطلـب مـن الجامعـة العربيـة التصديق على هذا القرار.

وفي الرابـع والعشـرين مـن أغسـطس (آب) – أي بعـد عشـرة أيام مـن مقيـل الماريشـال الـزعيم – طلـب العـراق عقـد جلسـة مسـتعجلة لمجلـس الجامعـة في القـاهرة وأصـر علـى أن يعقـد الإجتمـاع قبـل نهايـة الشـهر نفسـه. هـذا الطلـب كـان قـد صـدر عـن نـوري السـعيد رئـيس وزارة العـراق، والمسـاعد القـديم للملـك فيصـل الأول، الـذي سـبق لمؤلـف " أعمـدة الحكمـة السـبعة " أن سمـاه " القائـد الأعلـى للقـوات العربيـة" ، بعـد الإسـتيلاء مباشـرة علـى دمشـق عـام ١٩١٨[١]م. وقـد تأديـت هـذه العـوة مـن قبـل ناظـم القدسـي وزيـر الشـؤون الخارجيـة للحكومـة السـورية ورياض الصـلح رئـيس مجلـس الـوزراء اللبنـاني، وبالطبـع ، مـن قبـل عبـد الله، ملـك الأردن. في هــذه الشــروط يمكــن القــول بأن الإقــتراح العراقــي قــد تم تبنيــه بصــورة مســبقة، مــا دام أن أربعــة أعضاء من سبعة قد منحوا تأييدهم له.

وفي الثلاثــين مــن أغســطس (آب)، اجتمــع المفوضــون في العاصــمة المصــرية. فطالبــت العربيــة السـعودية، والـيمن ومصـر، بتأجيـل المـؤتمر الى وقـت آخـر. لقـد قـالوا : " لقـد أخـذنا علـى غـرة بهـذه الـدعوة المبكـرة أعطـونا علـى الأقـل، مهلـة معقولـة، تسـمح لنـا بدراسـة الإنعكاسـات المترتبـة علـى حـادث الإنقـلاب في الدولـة السـورية". وبعـد مناقشـات حـادة مكثفـة، أجـل الإجتمـاع الى ١٢ أكتـوبر (تشـرين الأول). فكـان معـنى ذلـك ربحـاً لسـتة أسـابيع تسـتخدمها العربيـة السـعودية والجهـات المعاديـة للهـاشميين في إعـداد هجـوم مضاد.

---

١) ت.أ. لورانس: أعمدة الحكمة السبعة، ص:٨٠٦

وجاء الثاني عشر من أكتوبر (تشرين الثاني) لكن بينما كانت جلسة الوفود منعقدة للمرة الثانية، شهد العالم ضربة مسرحية حيرت الجميع وبلبلت أفكارهم. فمنذ افتتاح الجلسة الأولى، وقف نوري السعيد ، باسم العراق، وناظم القدسي – وهما الشخصان اللذان كانا قد طلبا عقد مجلس الجامعة – وأخذا دورهما في الكلام ثم صرحا " بأنهما قد تخليا عن خطتهما في دمج بلديهما معاً.

وعندما سألهما المندوب اليمني مبتسماً عن أسباب هذا التحول، أجابا في حرج ظاهر، " بأن الوقت لا يبدو لهما مناسباً للدخول حول موضوع مثل هذه الدقة". هكذا تراجعا علطول خط المعركة، وبلغا في تراجعهما حد المطالبة بالإمتناع عن تسجيل هذا البند في جدول الأعمال. وبدلاً من مشروع الإتحاد السوري العراقي، تبنى أعضاء الوفود، بإقتراح من مصر عقد معاهدة للدفاع المشترك ،مستندة الى إتصالات كثيرة بين رؤساء أركان الحرب لمختلف الجيوش العربية [١].

هكذا حققت العربية السعودية ومصر واليمن انتصارها في هذا الموضوع رغم أنها تمثل الاقلية في المجلس.

فماذا حدث خلال تلك الأسابيع الستة؟ هل صحيح، ما همس به بعضهم، من أن ابن سعود معتمداً على الإخوان، قد أفهم نوري السعيد بأنه يعتبر اندماج العراق مع سوريا مبرراً للحرب وذريعة لها، وأنه سينسحب من الجامعة العربية إذا صدق هذا الإجراء، وهل صحيح ، كما زرعم بعضهم، أن سفير الولايات المتحدة في القاهرة السيد جيفيرسون كافري، هو الذي أوحى بوضع معاهدة الفاع المشترك في آخر المطاف من قبل المندوب المصري، كبديل عن الهلال الخصيب وأن نوري السعيد قد تراجع في الدقيقة الأخيرة، خوفاً من أن يرى الدول العربية منقسمة الى كتلتين متعاديتين، احداهما تدور حول لندن، والأخرى تدور حول واشنطن؟ كل هذه الإشاعات انتشرت وكلها محتملة ومعقولة...

---

١) رفض البرلمان المصري فيما بعد تصديق هذه المعاهدة.

وبانتظار الجديد، كان مشروع الهلال الخصيب قد جمد الى أجل غير مسمى. وبذلك ضربة جديدة وجهت الى السياسة الموالية للهاشميين التي تتبناها حكومة لندن. ان المشرفين على " نفط الدولار" لم يسجلوا فوزهم الحاسم في هذا الميدان. لكنهم خرجوا بامتياز حاسم.

اغتاظت انكلترا أمام هذا الفشل غير المرتقب. فبعد أن قالت خيراً " في حكمة الجامعة العربية" أعلنت أن هذه المنظمة قد فقدت رصيدها بسبب تفككها وتنافر أعضائها وأنه لم يعد هناك مجال للتوقف عند قراراتها. ثم تخلت عن الهلال الخصيب، بإدخال مزيد من التضييق على خطتها في تحقيق الإتحاد التحالفي فاقتصرت على مشروع " سوريا الكبرى " وحسب. هذا المشروع الذي يفترض فيه أن يتحقق، دون استشارة البلدان المجاورة، بعقد اتفاق ثنائي بسيط بين دمشق وبغداد.

أما الجنرال حناوي فانه رغبة منه في تأمين قاعدة صلبة في البرلمان السوري، عمد في ١٥ نوفمبر (تشرين الثاني) الى تنظيم انتخابات جديدة. وقد قيل، ان ابن سعود وزع ٥٠٠ مليون ليرة سورية ليحول دون انتصار الأحزاب الموالية للهاشميين[١]. فلم يحصل على النتيجة المأمولة. لقد منحت الإنتخابات أكثرية الأصوات للحناوي وحكومته. أما هاشم الأتاسي فقد تدعم مركزه كرئيس لمجلس الوزراء.

تقرر أن يكون حلف اليمين للوزارة الجديدة في ١٩ ديسمبر (كانون الأول). أما البيان الوزاري فلم يكن يشير الى الجمهورية أبداً بينما ورد فيه الإتحاد السوري-العراقي بصورة ملحة واضحة.

هكذا قرر المشرفون على " نفط الدولار" ألا يسمحوا أبداً بأية عملية يترتب عليها إغلاق البحر الأبيض المتوسط أمامهم، أو تكبيدهم ثمناً غالياً جداً للوصول اليه.

---

١)فريدريك ميجرا: ألف

في الساعة الرابعة من صباح التاسع عشر من ديسمبر (كانون الأول) كان دمشق قد بقوات البوليس، بينما جرى احتلال المباني العامة والمطار من قبل الجيش. وبعد تبادل قصير وسريع لطلقات نارية، كان الجنرال الحناوي، وشقيق زوجته أسعد طلس، وزير المالية، وهاشم الأتاسي رئيس مجلس الوزراء ووزراء كثيرون آخرون ، قد اعتقلوا ووضعوا تحت المراقبة. أما الرجل الذي كان يقود العملسة فهو أديب الشيشكلي، ورئيس أركان الحرب في الجيش السوري، وعضو نافذ في حزب الشعب، وصديق حميم لحسني الزعيم وقريب لمحسن البرازي، الذي قتل مع الماريشال في الوقت نفسه.

وفي تمام السادسة من الصباح، أعلنت إذا عة دمشق ان " الجيش السوري قد أطاح بالحكومة" وبرر هذا العمل بالبيان التالي: موقعاً من قبل الكولونيل الشيشكلي.

لقد ثبت للجيش السوري أن الجنرال حناوي، وشقيق زوجته، أسعد طلس، كانا يعدان لاتحاد بين سوريا وبلد مجاور... فقرر الجيش، الأمين على الدستور الجمهوري، وجوب الدفاع عن النظام القائم وصيانته.

وفي ٣٠ أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٥٠، قتل سامي حناوي – وكان قد أطلق سراحة بصورة مؤقتة– من قبل محمد البرازي ابن عم محسن البرازي، أحد ضحايا المذبحة في العام السابق. لقد أفرغ فيه القاتل أربع طلقات من مسدسه على خطوات منه، في الوقت الذي كان يغادر فيه من حي المزرعة، ضاحية في جنوب بيروت. أخفت لندن غيظها وراء واجهة من اللامبالاة. لكن الضربة كانت قاسية شديدة. لقد قتل بطل سياستها الموالية للهاشميين، وبدا كمشروع " سوريا الكبرى" وكأنه قد دفن بصورة نهائية. هكذا فاز " نفط الدولار" بامتياز ثان. وأصبحت المراهنة على أن خطوط الأنابيب عبر الجزيرة العربية ستبلغ مياه البحر، ممكنة جداً...

وقد وصلت اليها حقاً في الثالث عشر من نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٥٠. في ذلك اليوم ، بعد صلاة الظهر، مد ابن سعود يده وأدار بها اطار عدادات جيجر. فانفتح سكر في أبقيق وتدفق مد من المازوت القاتم اللون في شبكة الأنابيب متجهاً نحو مصبه البعيد: مدينة صيدا.

والجدير بالذكر أن العمل المنجز كان ضخماً وعظيماً جداً ما في ذلك ريب. أن خطوط الانابيب عبر الجزيرة العربية، وقطرها ٣٢ بوصة، اجتازت في مسيرة واحدة مسافة ١٧٨٣ كيلومتر تفصل حقول الإحساء عن مياه البحر الأبيض المتوسط. أما ما دفع من المال لانجاز هذا العمل فقد بلغ ٢٨٠ مليون دولار. إن اسطولاً كاملاً من السفن الشاحنة قد عبئ بكامله لنقل الأعتدة الضرورية لبناء هذه الخطوط، التي تقدر في أرقام رجال الإختصاص بثلاثة مليارات طن- كيلومتر. أ/ا الخطوط نفسها فقد استهلك بناؤها ٢٦٥٠٠٠ طن من أنابيب الفولاذ. وأسهمت في تقديم الأعتدة اللازمة لتحقيق هذا المشروع ٥٠٠٠ شركة.

يضاف الى ذلك انه تم بناء طريق مسفلتة محاذية لخطوط الأنابيب طولها ١٨٠٠ كيلومتر، يستخدمها في كل يوم ما يزيد على ١٥٠٠ سيارة شاحنة. كما أن أسراباً من اغلطائرات تحلق بين ساعة وساعة للقيام بمراقبة الورش ومنع عمليا التخريب المحتملة. وحفرت أربعون بئراً على مسافا متساوية لتزويد فرق العاملين بالماء الذي نحتاج اليه. والواقع أن هذه الآبار تقوم اليوم بتزويد مائة ألف بدوي مع قطعانهم في حائل بالماء الذي يحتاجون اليه.

وهناك محطات للضخ تنتشر على امتداد هذه الخطوط. ثم بنيت عند كل من هذه المحطات مدينة جديدة من قبل الملك[1]. وقد أريد من هذه المدن أن تستخدم في الوقت نفسه مكاناً لإقامة التقنيين الأميركيين الذي يؤمنون عمل المضخات،ومستعمرات اضافية للأخوان. هذه المدن الخمس، خرجت من الرمال، بمساجدها ومستشفياتها ومراكزها الكهربائية، وملاعبها وأحواضها، التي خططت لها أمكنتها وعينت هندستها من قبل أحدث المهندسين في الولايات المتحدة.

---

١) في الناصرية-قسوصة-رفحة-بدنة وطريف.

استطاعت شركة-خطوط الأنابيب عبر الجزيرة العربية- بما حققته واتغلته من هذا المشروع الكبير ان تهبط بالأسطول المؤلف من ٦٥ ناقلة الى الدرجة الثانية. نقصد به الأسطول الذي كان يقوم من قبل برحلة ال ٤٨٨٠ كيلومتر حول شبه الجزيرة كما أن هذا المشروع قصر فترة النقل مدة عشرة أيام. والكمية التي يصبها من مادة النفط يومياً تبلغ ٣٥٠٠٠٠ برميل — ٤١ مليون ليتر. وهذه الكميات الكبيرة من النفط تتدفق في ثلاثة عشر خزاناً عملاقاً بينت عند شاطئ صيدا، وتبلغ سعتها الكلية ٧ ملايين برميل-أكثر من الإنتاج اليومي للولايات المتحدة.

ان دخول التابلاين في العمل سيكون من نتائجه صعب فيض من النفط فوق أوروبا الغربية، أرخص ثمناً من النفط الذي تزودها به الشركات الإنكليزية. وسيسمح التابلين لشركة أرامكو بمضاعفة انتاجها خمس مرات، مما سيزيد موارد ابن سعود بالنسبة نفسها أيضاً. كما ستكون للتابلين انعكاسات بعيدة المدى، على الإقتصاد الدولي الى حد يستعصى على الحساب والإحصاء. لقد أعلن السيد بيرت أ. هل، الرجل الذي بنى خطوط الأنابيب، ورئيس " تابكو"، " ان التابلين مدعو لتشوير خارطة العالم. فيما يتعلق بتوزيع الوقود السائل."[١]

هكذا يكون نفط الدولار قد ربح معركته بصورة نهائية.

لكن الملاحظ بعد ذلك بقليل ان مدن الحجاز ونجد — التي تنمو وتكبر يوماً بعد يوم، وان مصانع الأحساء ومحطات الضخ التابعة لخطوط الأنابيب الجديدة، والعاملين فيها من العرب والأميريكيين الذين يزيد عددهم بصورة مطردة ، ان الملاحظ أن هؤلاء جميعاً كانوا يستهلكون من المياه كميات تفوق تلك التي تستطيع الآبار الأرتوازية تأمينها لهم في الصحراء. ان استمرار هذا الوضع يعني أنه لن يبقى من الماء ما يستخدم لتطوير المستعمرات الزراعية وري الحدائق. هكذا تفرض معضلة الماء نفسها مرة ثانية.

---

١)راجع مجلة تايم، ٢٠ أكتوبر (تشرين الثاني) ١٩٥٠، ص ٣٩-٤٠

أما ابن سعود الذي كان منصرفاً بكل انتباهه الى تحركات السياسة الخارجية، فقد وكل الى ابنه البكر، مهمة معالجة هذه المعضلة.

فأقبل الأمير الوارث على هذه المهمة بحماسة أدهشت حتى أقرب مساعديه اليه. هؤلاء لم يشهدوه أبداً من قبل يظهر مثل هذا النشاط في عمله. ذلك انها المرة الأولى التي توكل اليه فيها من قبل أبيه مهمة بمثل هذا الإتساع باعتباره نائب الملك في بالد نجد. كان يريد أن يثبت للجميع انه ليس دون أبيه في ثراء خياله وقوة إرادته.

استدعى سعود الى قصر الرياض ممثلي أكبر الشركات الأجنبية في ميدان الأشغال العامة ، وأثار بينهم موجة من التنافس الشديد لتنفيذ مشروع خارق للعادة. ويتلخص هذا المشروع في تأمين السقاية المكثفة للصحراء بنقل الماء العذب مباشرة من شط العرب. على أن يتم جر المياه بأنبوب عظيم السعة قطره يساوي أربعة أضعاف قطر أنبوب النفط. ثم تصب مياه هذا الانبوب في بحيرة اصطناعية تبلغ مساحتها عدة مئات من الكيلومترات المربعة.

صرخ التقنيون قائلين: ان معجزات كثيرة قد تحققت أخيراً في الجزيرة العربية لكن المشروع في هذه المرة ، هو مشروع جنوني بل مستحيل، وغير قابل للتحقيق كما يكلف في الوقت نفسه عشرة أضعاف ما تكلفته الأرامكو في بناء التابلين. ومع ذلك، فان الأمير الوارث لم يرغب في التخلي عن هذا المشروع، اقتداء منه بأبيه.

- قال لهم: " ان زبيدة، ززوجة هارون الرشيد، قد بنت قناة لحمل الى مكة من الجبال المجاورة. أفلا تستطيعون، مع كل ما تملكون من الوسائل العصرية، أن تحققوا ما حققه المعماريون العرب في القرن الثامن الميلادي؟"

حاول المهندسون الغربيون عبثاً أن يثبتوا له بأنه ليست بين قناة العباسيين والمشروع الذي يطالبهم بتنفيذه، أية صلة مشتركة . فضاع جهدهم دون فائدة.

- أجاب سعود قائلاً: " وجد أبي مساحات من الرمال جعل منها مملكة. أما أنا فسأجد، بفضل أبي مملكة، ثم أستنبتها الغابات الواسعة. وهنا يأتي المطر، وتحل معضلة السقاية نفسها دون عون خارجي.

كانت رغبة الأمير في ربط اسمه بتحقيق هذا المشروع من القوة بحيث أن أول تحرك قام به، بعد اعتلائه عرش أبيه، هو التوجه الى حدود العراق العراق في موكب مؤلف من ثلاثة آلاف شخص يناير (كانون الثاني) ١٩٥٤. وهناك في ظل الصيد بالبزاة، عقد محاولات مع شخصيات عراقية كثيرة ، ليدرس معها، وسائل التعجيل ببناء " خط من أنابيب الماء".

والواقع أن الملك كان يجد في شخص الأمير الوارث مساعداً عظيم القيمة،صمم على متابعة خطة " تحديث الجزيرة العربية " دون تردد أو استسلام للعجز. لقد كان في وسعه أن يتخلى له عن كثير من المهمات التي لم يعد في مكنته الإنصارف اليها شخصياً والإشراف عليها بنفسه . وكان في هذا كثير من الخير. لأن سياسة المملكة الخارجية أصبحت في حاجة الى قدر من الحذر والسهر يزداد أهمية بازديادالروابط والصلات التي كانت تشده الى جيرانه وتشبعها.

كانت البلدان المتاخمة كلها عند منطقة البحر الأبيض المتوسط والخليج العربي، حيثما نقل المراقب نظره فيها، عرضة لسلسلة من التشنجات والتمزقات الداخلية. من القاهرة حتى طهران، كل شيء يبدو في حالة احتراق. وفي وسط هذه الإضطرابات والتحركات ، كانت العربية السعودية تبدو على صورة واضحة من الطمأنينة والسكينة. في كل مكان – في الأردن وسوريا ومصر والعراق وإيران – لم تكن غير جرائم قتل وانتفاضات وثورات وانقلابات. في كل هذه الشعوب، المتأثرة بالخمائر التي اشتركت في صنعها كل من الروح القومية، والتيارات الشيوعية، والتعصب الديني، توالدت جمعيات سرية ومنظمات خفية. ان قيادة اللعبة السياسية في وسط هذه المؤامرات، كانت في حاجة الى كل التجربة والفطنة عند الملك العجوز.

ففي ١٦ يوليو (تموز) ١٩٥١، قتل رياض الصلح ، رئيس وزراء سابق في لبنان، عند نهاية زيارة كان قد قام بها الى عمان لمفاوضة عبد الله ملك الأردن في عقد معاهدة سرية. وبعد ذلك بثلاثة أيام، قتل عبد الله بدوره بعدد من طلقات مسدس بينما كان يدخل المسجد الأقصى في بيت المقدس.

كـان عبـد الله الركيـزة الأخـيرة للهيكـل الـذي أراد لـورانس أن يبنيـه عـام ١٩١٩ فـوق أنقـاض الأمبراطوريـة العثمانيـة. وكـان اختفـاؤه طعنـة النفـوذ الإنكليـزي، زاد الإحسـاس بقوتهـا، بسـبب منـأن ولي عهـده ووريثـه الأمير طلال كان معروفاً نشاطه العدائي لانكلترا.

حاولـت حكومـة انكلـترا، وقـد أقلقهـا مسـتقبل الأردن، التقـرب مـن ابـن سـعود، الأمـير فيصـل ، الـذي كـان يسـاعد أباه في ميـدان السياسـة الخارجيـة، ليتباحـث معـه ، لا في القـاهرة ، بـل عنـد شـواطئ التـايمز. وقـد استقبل الأمـير فيصـل في داونـنج سـتريت بكثـير مـن الإحتفـال مـن قبـل السـيدين هيربـرت موريسـون وكليمنـت أتلـي. وعنـدما سـأله مضـيفاه عمـا إذا كـان موافقـاً علـى عـدم التـدخل فيمـا ابتلـع العـراق والأردن، التـزم موقـف الـتحفظ المتعقـل، ورفـض أن يأخـذ علـى عاتقـه أي تعهـد حـول هـذا الموضـوع ٨-١١ أغسـطس (آب) ١٩٥١.

شـعر الإنكليـز أنهـم مرغمـون علـى تـرك الأمـير طـلال يصـعد الى عـرش الأردن ٥ سـبتمبر (أيلـول) فلـم يكـد يسـتلم سـلطاته الملكيـة، حـتى بـدأ الحـاكم الجديـد معركـة مفتوحـة مـع قائـد الفيلـق العـربي، الجنـرال غلـوب باشـا. لقـد أراد طـلال أن ينتـزع منـه قيـادة الفيلـق العـربي ، رغـم أن هـذا الأخـير أعلـن عـن اسـتعداده " لخدمـة الملـك الجديد بمثل الولاء الذي خدم به الملك السابق."

وبـذلك جـاوز حـده فـانتفض الإنكليـز وبـدأوا يثـورون. وبعـد سلسـلة مـن الاحـداث المأسـاوية الهزليـة، ابتـداء مـن محاولـة القتـل حـتى إثارة المشـاهد البيتيـة، أعلـن جنـون طـلال، وعـزل عـن عرشـه مـن قبـل البرلمـان الأردني، ثم طلـب منـه أن يسـتريح في برانجينيـز، في مصـحة سوسـرية، قائمـة غـير بعيـدة عـن مدينـة جنيـف. أمـا ولـده الفـتى حسـين ، الـذي كـان ينهـي دراسـاته في كليـة انكليزيـة فقـد تمـت توليتـه علـى عـرش أبيـه ٢ مـايو (أيار) ١٩٥٢. وبـذلك اسـترد غلـوب باشـا نفـوذه القـديم . لكـن ، هـل أن ارادة الحـاكم المراهـق سـتكون مـن القـوة بحيـث يصـمد بهـا أمـام العواصـف المتراكمـة في الافـق، والـتي لم يكـن مقتـل جـده عبـد اللـه منهـا غـير بارقـة منذرة؟

فـإذا انتقلنـا مـن الاردن الى سـوريا، لاحظنـا أن وضـع الحكومـة فيهـا غـير مـريح. ان عـداوات لا تتوقـف بـين الأشـخاص والنظـريات قـد جعلـت مـن الأوسـاط العسـكرية طبقـة معاديـة للأوسـاط الدينيـة كمـا وضـعت أنصـار

" سوريا المستقلة" ضد دعاة " الهلال الخصيب" ، وأنصار النظام الملكي ضد المدافعين عن النظام اتلجمهوري.

رأينا أن الماريشال الزعيم قد أعدم منقبل الجنرال الحناوي، رئيس أركان حربه، في مارس (آذار) ١٩٤٩. وفي يناير (كانون الاول) من العام نفسه، خلع الحناوي ثم قتل بدوره بعد اقلاب قام به الكولونيل الشيشكلي. وهناكانت السلطة قد انتقلت الى أيدي المدنين، لزمن قصير ، لأن الجيش تدخل مرة أخرى بقيادة الكولونيل الشيشكلي، في ٢٩ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٥١، واسترد السلطان لنفسه " لتأمين النظام والإستقرار في البلاد ". وفي الثالث من ديسمبر (كانون الأول) ، استقال السيد هاشم الأتاسي، رئيس الجمهورية من وظائفه ليحل محله الكولونيل فوزي سلو أ؛د أصدقاء الشيشكلي . وفي اليوم نفسه، صرح هذا الأخير ، وقد رفع الى رتبة جنرال، في راديو دمشق قائلاً :" ان الحكومة السورية الجديدة مصممة على مقاومة سياسة الدمج بين سوريا والعراق، ومعارضة الدعوة الى تكوين " الهلال الخصيب " بكل وسيلة ممكنة. فنحن لن نقبل أبداً أن نوضع تحت وصاية حاكم هاشمي.

ظهر الشيشكلي سيداً للموقف تقريباً حتى نهاية عام ١٩٥٣، حين انفجرت ثورة الدروز، وانضمت اليها الأحزاب السياسية التي طردها الجنرال من الحكم.ولم يكن زعيم الثورة غير سلطان الأطرش. إذ أن مجرد حضوره على رأس القبائل الثائرة ذو معنى خاص. فهو الذي قاتل عام ١٩١٧ ضد الاتراك الى جانب لورانس وفيصل، وهو نفسه الذي كان أول داخل الى دمشق في اول أكتوبر (تشرين الاول) ، وأخيراً هو الذي بدأ في ١٩٢٢ و ١٩٢٥ العمليات القتالية الدامية ضد القوات الفرنسية في سوريا من أجل أن يجمع ما تم تفريقه ظلماً وعدواناً".

ان الثورة ، التي انطلقت من المزرعة، في جبل الدروز، حيث جمع الأطرش كميات كبيرة من الأسلحة – قنابل يدوية – بنادق – رشاشات، ومدافع هاون جيء بها من الخارج – هذه الثورة لم تلبث حتى سحقت من قبل الجيش السوري بعد معارك استمرت أسسابيع كثيرة. فلجأ سلطان الاطرش الى الأردن. وبدا أن الهدوء قد عاد أخيراً الى سوريا حين انفجرت في حلب مؤامرة عسكرية فبراير (شباط) ١٩٥٤.

فقلبت الحكومة، واعتقلت أفرادها، أما الجنرال الشيشكلي فقد اضطر نجاة بنفسه من الموت أن يلجأ الى العربية السعودية، في الوقت الذي عاد فيه شكري القوتلي الى رئاسة الجمهورية.

ومهما يكن حظ هذه الأحداث من الإثارة ، فإنها كانت تبدو أقل أهمية من تلك التي جرت في الفترة نفسها في وادي النيل. ففي القاهرة المظاهرة والمشاجرات شأن كل. وفي التاسع من ديسمبر (كانون الاول) ١٩٥١ مزق النحاس باشا المعاهدة الغنكليزية المصرية لعام ١٩٣٦، مدفوعاً برأي عام تزايدت عداوته للأجنبي تحت تأثير الدعوات المهيجة التي اشتركت في تغذيتها احزاب وطنية وفرق دينية ومصالح الدعاية في الجامعة العربية. وفي اليوم التالي أقدمت جماهير مندفعة غاضبة على تدمير وإحراق المؤسسات الإنكليزية في القاهرة ، منها المخازن، والمصارف، وشركات النقل البحري. ولم يبق من فندق شبرد ، واحد من أجمل فنادق العالم واوعها غير ركام من الجدران التي سودتها نيران الحريق. حتى السفارة الإنكليزية نفسها لم تنج من هجمات المتظاهرين إلا بفارق قليل من الزمن.

وفي الايام التالية، تابعت عمليات الإعتداء والتخريب وتضاعفت في الإسكندرية والإسماعيلية ومنطقة القناة. وكان يعلن في كل مكان عن القتلى والجرحى. وفي ١٤ نوفمبر (تشرين الثاني)، خرج مليون من أبناء القاهرة في تظاهرة صامتة اجتازت شوارع العاصمة احتجاجاً على وجود الإنكليز في السويس. وكانت التظاهرة بقيادة نحاس باشا شخصياً.

أما إنكلترا فقد اتخذت اجراءات مضادة عنيفة نشطة. فجيئ بلواء المظليين السادس عشر المعروفين ب " الشياطين الحمر" قادمين من قبرص وأنزلوا في مدينة الإسماعيلية، بانتظار وصول نجدات اخرى. كما أن أسطول المتوسط وضع في حالة تأهب وصرح سفير بريطانيا العظمى السير رالف ستيفنسون قائلاً: " إننا لن نستسلم للإرهاب أبداً." فرد النحاس باشا على هذا الإجراء بأن طرح أمام مجلس الدولة المصرية، مرسوماً بإعلان التعبئة العامة. فأصبح من المحتمل أن تقع الحرب بين وقت وآخر.

وعندما شعرت الأرامكو بصعود موجة الكراهية للأجنبي في كل البلدان المتخمة للجزيرة العربية، وخوفاً من ظان تنتزع منها امتيازات رأت من الحكمة أن تستبق الأحداث. فأعلن مجلس إدارتها في أول يناير (كانون الثاني) من عام ١٩٥١ تعديله الكلي للعقد الذي يربطه ابن سعود. فلم يقتصر فقط على تقديم

٥٠ في المائة من أرباحه الى ملك العربية السعودية، بل اعترف له ، باعتباره رئيساً للدولة ، بحقه في جباية ضريبة على موارد الشركة. لقد كانت المرة الأولى التي امتنعت فيها شركة صاحبة امتياز، عن التصرف كسلطة صاحبة سيادة، لا تعترف بسلطان إلا سلطان حكومتها الخاصة. لقد قررت طائعة غير مكرهة، الخضوع لقوانين البلاد التي كانت تستغل ثرواتها[١].

هكذا وضع نظام المناصفة لأول مرة.

هذا القرار لم يلبث أن أحدث ردود فعل " متسلسلة في كل الدول التي منحت شركات أجنبية حق استغلال حقولها النفطية . " ففي العرا، بدأت الأوساط الوطنية معركة عنيفة لإعادة النظر في عقود شركة نفط العراق، التي بلغت نهايتها. التي بلغت نهايتها . اما في إيران فقد قتل الجنرال زازميري بدوره وهو رئيس حكومة موالية للإنكليز، في ٧ مارس (آذار) ١٩٥١. فأبدل به الدكتور مصدق، الذي بادر فوراً الى خوض معركة شديدة تهدف إلى تأميم النفط وطرد الإنكليز. هكذا، من القاهرة الى طهران، مروراً بعمان وبغداد، تهب رياح لا تلبث حتى تتحول الى عاصفة.

في تلك الأثناء، وعلى الرغم من هيبتها الهابطة، وامتيازاتها الإقتصادية التي تتعرض للإحتجاج أو لإصابات شديدة ، بقيت انكلترا متشبثة بمواقعها الإمبراطورية بالعناد الذي سمح لها في الماضي، أكثر من مرة ، بتحويل سلسلة النكسات والتراجعات الى انتصار نهائي حاسم.

---

١) أنظر: ج.ر. بيرشرال، مجلة الأورور، ٢٧ أغسطس (آب) ١٩٥١. ويبدو أن هذا القرار قد اتخذت بتوصية من السيد أفريل هاريمان .

هذا هو الموقف في الشرق الأدنى، في الوقت الذي كان فيه ملك الجزيرة العربية يستعد لاجتياز العتبة من عامه الرابع والسبعين. كم تغيرت وجوه الأشياء منذ طفولته الأولى ! إنه لم تمض فترة حياة فردية واحدة، بل فترة كثير من القرون، منذ فجر ذلك اليوم البعيد الذي سمع فيه عبد العزيز الصغير لأول مرة ، يصعد الى السماء، نداء المؤذنين، يدعون به المؤمنين الى الصلاة. ككما أن عاماً يفصل قصر القرون الوسطى في الرياض، الذي ولد فيه وخرج الى الدنيا منه ، بحصونه المنهارة المتصدعة في عين الشمس، عن

ذلك المشهد الصناع من الظهران، مما يظن أنه اتعير من شريط سينمائي مستقبلي، بخزاناته المصنوعة من الفولاذ ومدارج طيرانه التي تعوي فوقها وتصرخ، الطائراات الأمريكية المطاردة بمحركاتها النفاثة.

قليلون من الرجال هم الذين يستطيعون المفاخرة بتحقيق مثل هذه المسيرة من الطريق خلال حياته وهو " لا يملك سقفاً يؤويه " ثم أصبح سيداً على مملكة يزيد تعداد سكانها على ستة ملايين ومساحتها على ١٩٠٨٠٠٠ كيلومتر مربع، أي ثلاث مرات ونصف من مساحة فرنسا. فهل كان في وسعه أن يتخيل بأن حلمه سيتجسد يوماً على مثل هذا الشكل من الإدهاش والإذهال. هذا الحلم الذي ملأ عليه نفسه في أشد فترات الحماسة من شبابه ، وفي أثناء نفيه الى صحراء الربع الخالي المحرقة، عندما أقسم أن يوجد بين يديه السلطتين الزمية والروحية؟

أما فيما يتعلق بالسلطة الزمنية، فقد ظهرت بخضوع أربعةأخماس الجزيرة العربية لشريعة حكمه، كما ظهرت في سيفه الذي يمتد فوق مساحات شاسعة، تطل على بحرين، وأيضاً في انتفاضة الإحساء الاسطورية، التي منحت نفوذه قاعدة اقتصادية تثير حسد كل جيرانه، فجعلت منه واحداً من أغنى حكام الأرض.

واما السلطة الروحية فقد كانت في المدينة ومكة، قبر النبي والبيت الحرام، ومقري النشاط الديني اللذين يجتذبان في كل عام ما لا يقل عن ثلاثمئة ألف حاج، والذين يمتد نفوذهما المعنوي بين الأطلنطي والصين. ألا يمكننا أن نقرر بأن مثل هذا النجاح قد جاوز حدود آماله. أي بناء غريب لمملكة أسستكلها فوق النفط والصلاة!

الثابت، ان فهد الرياض قد كافح كثيراً للوصول الى ما وصل اليه. ان طاقته على العمل لم تتوقف يوماً واحداً أبداً. وان إرادته لم تضعف امام أية عقبة يوما واحدا أيضاً. لقد عرف كيف ينتظر ساعته، كما عرف كيف يصبر ويتخايل حين لا يستطيع قتالاً، وكيف ينربص خلال سنوات منتظراً الوقت المناسب لينقض على فريسته. لقد كشف خلال نصف قرن من السنين عن اقدار متساوية من الشجاعة والتعقل ، من القوة والمرونة، من الصمود والحيلة. لكنه فاز في الوقت نفسه بحظ فريد قليلاً ما يفوز به غيره. فلما ظن انه سيغلب على أمره بسبب الجفاف، وجد الماء. وعندما ظن أنه سيشل بسبب البؤس، تماكتشاف "

الذهب الأسود". فأي توافق بين الاحداث الغربية نسق مراحل نهوضه وصعود نجمه وتطور العالم كله! لقد أتاح إنهيار الأمبراطورية العثمانية له فرصة الإستلاء على نجد والإحساء. وهيأ ضعف السلطان البريطاني الأسباب لغزو الحجاز وحائل. وعندما بدأ الأميريكيون يميلون الى التصلب ورفع نبرتهم في الحديث والحوار، كان دخول الألمان الى مسرح الأحداث، بعد كسوف استمر ثمانية أعوام قد حمل الى الملك " حلولاً للتبديل " تسمح له ألا يكون تحت رحمة أحد ولا لحساب أحد من الناس[1]. الحقيقة أن ولد عبد الرحمن قد حصل على البركة.

وإذاً فهو باعتباره مؤسساً لطوائف بشرية ومن، وموحداً لمقاطعات، ومؤسساً للمملكة ، في كل الميادين وعلى كل المستويات، التي يمكن أن يمارس فيها نشاط الرجل المبدع، يمكننا القول أنه قد نجح بصورة رائعة.

---

١) " لاحظ الأميركيون ، أن الألمان ، بدافع من المنافسة ، بدؤوا شيئاً فشيئاً بحلون محلهم في كل مكان. ولهذا سبب واحد هو، الوحيد الذي يريد الملك أن يعرفه : إنهم أقل غلاء من الأميركيين. لقد استطاعوا أن ينتزعوا منذ عام كل الطلبات الخاصة بالتجهيزات التليفونية والتزامات السكك الحديدية. وفي كل المدن التي كان الاميريكيون أقاموا فيها مخازن كبيرة ، لم يلبث هؤلاء أن انسحبوا منها ليخلوا الامكنة للألمان. أما الشركات الأميريكية في الأشعال العامة بيكر وبكتل فقد كنست وأبعدت عن كل مواقعها من قبل الشركة الألمانية جوفنكو". ــج.ب. يينيز وموريس جارنو: تحقيق عند ولد ابن سعود، باري ماتش، ٦-١٣ مارس (آذار)١٩٥٤، ص:٤٥)." وقد أنشء في الإسكندريز للهجرة ، يديره هانز موللر، الياس حازم بك، ليوتنان *كولونيل قديم في جيش رومل، ثم به تجنيد ١٢٠٠ مدرب واختصاصي في الشؤون العسكرية من أجل الشرق الأدنى. اكثر من ٨٠٠٠ عامل وتقني ألماني يعملون بين النيل والخليج العربي"(باري ماتش،٢٩ ديسمبر (كانون الأول) ١٩٥١) ان عودة الالمان الى الظهور – وليس الالمان فحسب بل الإيطاليون واليابانيون- فوق مسرح الشرق الأدنى هو ظاهرة جديدة لا تلبث أن تكون لها نتائج غير مرتقبة.

مثل هذا النجاح كان مستحيلاً لو أن صاحبه جاء قبل دلك بعشرين عاماً أو بعده بعشرين عاماً. لقد اصطدم ابن سعود مواقف ثابتة متخذة ، وأبواب مغلقة بإحكام. وكان من حسن حظه أنه ولد في الوقت المعين الذي كانت تنحل فيه قبضة تخنق الجزيرة العربية، ثم تابع عمله وأنجزه، قبل أن تشتد قبضة أخرى غيرها حول عنق هذه البلاد. لقد توصل الى فرض الوحدة على قبائل الصحراء وجمع كثرتها المتفرقة بين يديه، تماماً في الوقت المناسب ليجنبها السقوط تحت سلطان يد أجنبية أخرى.

وقد فعل هذا مستفيداً من تراجع المد العثماني. ولو العمل الذي تم انجازه بين ١٩٠٠، ١٩١٤، ما كان في وضع يسمح له بالتحرر من الاتراك ومجابهة لندن، وفرض الشروط على واشنطن. وبعد أن كانت الجزيرة العرية تابعة للسلطان وخاضعة لنفوذه ثم منطقة صيد موقوفة على وزارة الخارجية البريطانية، أصبحت ببساطة، منطقة نفوذ اقتصادية للبيت الأبيض. قال كليمنصو: إن العمل الكبير في الحياة هو أن نمضي بين الرجال. " لكن ابن سعود قد مضى بين الأمبراطوريات".

وإذا كانت الجزيرة العربية ، قد أفادت حتى الآن من تطور العالم ، فإنها تتعرض أيضاً لخطر أن تكون ضحيته. فيما مضى كان فقرها وعزلها قد جعلاها خارج التشنجات الكبيرة في التاريخ فالعصر الذي يمكن أن نتحدث فيه عن " العربية السعيدة" قد مضى الى غير رجعة. لكن الثروات الهائلة التي اكتشفت في باطن أراضيها تهدد بجعلها غداً غرضاً لشهوات رهيبة، وان القيمة الإستراتيجية التي أعطاها ايها تطور الأسلحة الحديثة تجعل منها منطقة من أكثر المناطق تعرضاً للعطب، انها تلك التي سيتنازع عليها المحاربون في مستقبل الأيام بأكثر ما يملكون من العناد والعنف والضراوة. انه ليس من الممكن أن نحتجز أنفسنا " في حياد " ملائم بحيث نضع، مرة ثانية، أمبراطورية ضد أخرى: لأن أول محرك للحروب قائم فوق ترابها نفسه. كما أنه من المستحيل البقاء بعيداً عن المنازعات : وستكون الجزيرة العربية في مركز الإعصار منذ اليوم الاول...

اننا لا نستطيع أن نلوم الملك على نشوء مثل هذا الوضع. فهو اكان هناك أو لم يكن ، يبقى هو نفسه لا يتغير. كما أننا زيادة على ذلك ، لا نستطيع ان نعتبره مسؤولاً، عن واقع أنه رغبةً منه في تحقيق الإستقلال كثيراً من قيمته فأي استقلال هذا موجود بالنسبة للامم الصغيرة؟

إن أنشودة الحرية لا تبعث أصداءها أبداً الا حيث ترتفع الهيمنة الرتيبة لأجهزة تحطيم الذرة ، في هانفورد أو في كيلينوسك. وحدهما فقط، الولايات المتحدة والإتحاد السوفياتي ما يزالان يتمتعان بالسيادة التامة على مستقبلهما. كل البلدان الاخرى أصبحت ذات أدوار ثانوية . بعضها، الفخور بعظمته الماضية ، يرفض الإعتراف بهذا الواقع. ان هذه الدول ما تزال تعتقد أنها حرة في توجيه مصيرها كما تشاء لكن

هـذا مجـرد وهـم . ولـئن انفجـر حـادث غـير منظـور في الطـرف الآخـر مـن العـالم، فـان مـن الممكـن قبـل هبـوط الليل، أن تسحق مدن هذه البلاد ...

وهنـاك ميـدان آخـر، يطـرح فيـه تطـور الجزيـرة العربيـة مـادة واسـعة للتأمـل والتفكـر. ان الرغبـة في القفـز مـن فـوق الـف عـام مـن التـاريخ، بانتهـاب كـل المراحـل المتوسـطة ، والمرور دون خطـوات متدرجـة، مـن الإنقطـاع القبلـي، الى أشـكال الرأسماليـة المعاصـرة المتطـورة تطـوراً، ان هـذا كلـه عمليـة لا يمكـن أن تمـر دون ألم. ان هـذه " النقلـة " الجماعيـة، الـتي تكـون اكثـر قسـوة وخشـونة بقـدر السـرعة في ايقـاع تقـدمها، يمكـن أن تحـدث انعكاسـات نفسـية غـير مرئيـة ولا مرتقبـة. فكيـف يسـتطيع الفـرد أن يتحمـل هـذا الإنقطـاع عـن طـرز الحيـاة الـتي عرفتهـا الاجيـال السـابقة لجيلـه؟ هـل سـيكون جـديرا بالتكيـف لشـروط الحيـاة الجديـدة، بطريقـة مسـتمرة؟ ألا يتعـرض لخطـر الـتحطم والإنكسـار في أثنـاء الطريـق، بسـبب عـدم مراعاتـه واحترامـه لمراحـل الإنتقـال الضـرورية؟ وأخـيرا هل ستكون له العقلية المطلوبة ليكتسب ويهضم مجموعة المعف التي تقتضيها حالة جديدة؟

أمـا نـوربرت دوبيشـوف، وهـو مراقـب ذكـي لمعضـلات الشـرق الادنى ، فانـه يجيـب بالإيجـاب .. انـه يـرى ان الركـود القـديم الـذي يقـدم لنـا تاريـخ البـدو صـورة عنـه، لـيس وضـعاً أساسـياً نابعـاً مـن طبيعـتهم، ولكنـه انعكـاس لجمود الوسط الذي عاشوا فيه.

كتـب يقـول: " التقاليـد تسـتند الى الملكيـة، والبـدوي لا يملـك شـيئاً علـى التقريـب . تاريخـه يبـدأ مـع ولادتـه وينتهـي بموتـه. فـلا يصـله بالماضـي ايـة خرافـة عائليـة أو خرافـة تاريخيـة. لا شـيء يشـده الى الأرض ويربطـه بهـا. لا مـأوى ، ولا منـزل. إنـه يجتـاز المسـافات غـير المحـدودة مـن السـهوب أو مـن الصـحراء، يحمـل معـه تراثـه النحيل ، هذا التراث الذي يستطيع أن يبدله بغيره في كل وقت وفي كل مكان.

" أمـا وحـدة القبيلـة بقيـادة شـيوخها، فإنهـا تـتم تحـت ضـغط الضـرورات العـابرة، ثم تنحـل بعـد ذلـك تحـت ضـغط غيرهـا مـن الضـغوط: مرونـة ولدونـة إلى أبعـد الحـدود: تلـك همـا القاعـدتان اللتـان يجـب أن يراعيهمـا الرجل حينما يعيش وجهاً لوجه مع طبيعة كلية القوة، تمارس عليه تفوقاً ظاهراُ.

" وفي مقابـل ذلـك، يملـك البـدو متاعـاً غنيـاً مـن وقـائع التجربـة الملاحظـات المتعلقـة بكـل ميـادين الحيـاة اليوميـة. إننـا نخطـئ خطـأ كبـيراً إذا اعتـبرنا ثمـرة تجربـة ألـف مـن السـنين كالبرهـان الـذي يقدمـه الـتراث أو التقليـد الثابـت. يجـب بالأحـرى، أن نـرى فيهـا شـهادة علـى ثبـات الشـروط الخارجيـة واسـتمرارها ففـي صـميمها يخوض البدو ،منذ آلاف السنين، معركتهم القاسية ضد طبيعة ثابتة العداوة.

في هـذه المعركـة، توصـلوا الى اكتسـاب درجـة لا تصـدق مـن القـدرة علـى التكيـف. لكـن ثمـرات تجـربتهم لا تغـرس جـذورها فـب أعمـاق الـنفس البشـرية. لأنهـا ذات طـابع انتفـاعي. . وأيضـاً فـان البـدو لا يلبثـون أن يتركـوا ثمـرات تجـاربهم باكثـر سـهولة ممكنـة منـذ ان يضـع التغـير في الشـروط الخارجيـة بـين أيـديهم وتحـت تصـرفهم أسلحة أفضل، وأقل كلفة وأكثر نجاعة في الكفاح من أجل الحياة.

" مـن أجـل ذلـك، وفي ضـوء مـا ذكـر، يتبـين لنـا أن الشـعوب الاكثـر تخلفـاً مـن وجهـة النظـر الثقافيـة، نقصـد الشـعوب الـتي هـي أقـرب مـا تكـون الى الحالـة البدائيـة ، تظهـر أقـل قـدر مـن المقاومـة للتقنيـة الحديثـة، وتقبـل علـى السـحر بحماسـة طفوليـة. هـذه النقطـة هامـة جـداً إذا أردنا أن نـدرك طبيعـة الحركـة والبنـاء في الفكـر البدوي، والتطور الحالي في الشرق[١]."

---

١) نوربرت دوبيشوف: تركيا في العالم ، ص: ٤٧-٤٩

هـذا مـا أحـس بـه ابـن سـعود احساسـاً جيـداً. لقـد أدرك مستضـيئاً بمعرفتـه الصـحيحة لشـعبه، انـه لكـي يخرجـه مـن خـدره وفتـوره ومـن عـدم اسـتقراره (هـاتان الصـفتان لا تتعارضـان الا في الظـاهر)، يجـب أن يبـدأ بتعـديل الغطـار في حياتـه ، فـإذا لم يتغـير هـذا الإطـار كـان لا بـد مـن جديـد في أداء العمـل الـذي يقـوم بـه. لقـد رأى وجـوب أن يعطـي الجماعـات البدويـة بنيـة اجتماعيـة متسلسـلة، راسـخة في الـتراب ومبنيـة للبقـاء . أو

ليس أن بناء منظمة الإخوان هو استجابة لهذه الضرورة ؟ أوليس من أجل ذلك أن ولد عبد الرحمن قد شرح ، دون أن يمل أو يتعب، للرواد الأوائل في الأرطاوية ، بأن مستقبل الجزيرة العربية معلق كله بنجاح مشروعهم؟ أية وسيلة غير هذه يمكن أن توجد لوضع حد لهذا النوع الرهيب من تبذير الطاقة الذي كان يقودهم، من قرن الى قرن، الى الإنفجار في الخارج أو الى الإقتتال في مواطنهم؟

فمن أجل أن تتخذ الجزيرة العربية مكانها بين الأمم الحديثة، يجب تجميد الأجيال الصاعدة، وابدال مضاربهم المصنوعة من اللباد من الحجارة وتنمية حب الوطن، في نفوسهم، أقوى من نداء الصحراء أو جاذبية المجهول. ان المعضلة هي نفسها، أكنت القضية قضية الأناضوليين التائهين من حامية الى حامية أو البدو المتنقلين من موطن ماء الى موطن ماء آخر. لكن ما أراد مصطفى كمال أن ينجزه عن طريق التجحويل النفسي للفرد ، بذل ابن سعود جهوده لتحقيق هذا الإنجاز بالتعديل التقني للوسط الذي يعيش الفرد فيه.

ان من البديهي جداً ألا يمضي هذا التشويش أو القلقلة دون أن يحدث اضطرابات غير مرتقبة في أعماق هذه النفوس المعجبة الفخور، والمرتبطة في أعماقها بتقاليدها وعاداتها الخاصة. كتب جيرالد دوغوري يقول:" ان الجزيرة العربية لم تنسى أسرار ماضيها، ولا ما تدين به لحضاراتها الممتدة ألفي عام الى الوراء. فهل يجب أن تتنازل عن هذا كله لتتلقى من الغرب امتيازات من طبيعة أخرى؟ إن الإحتمال قليل جداً في أن بلداً قد آوى قلب الإسلام واحتواه وجعل من نفسه حارساً عليه ، وهو البيت الحرام في مكة ، أن

ينصرف عن تعاليم محمد ليتبنى عقيدة أجناس أجنبية. فالإسلام شريعة[١] جامدة ومن الممكن ألا يسهل على أنصاره الإستمرار في التاقلم معه والتكيف له بدقة ، في الوقت الذي يقدمون فيه على بناء حياة صناعية متطورةجداً يقدم الغرب إليهم نموذجاً عنها. هذه الحياة تصطحب آفاقاً جديدة ، ومحرمات جديدة ، وفلسفة جديدة، وطرازاً جديدة في العيش، وإدراكاً للأمن يستند إلى مبدأ الأجور المستقرة. ومن

جهـة أخـرى يمكـن أن تولـد هـذه العـادات الجديـدة نوعـاً مـن التعـب والتقـزز. كثـيرون مـن أبنـاء الـبلاد المتاخمـة يتـأوهون اليـوم ويأسـفون علـى سـنوات الماضـي الطيبـة حيـث كـان في وسـع الرجـال ان يحصـلوا، في ليلـة واحـدة علـى الثـروة والسـلطان ، وأن يثـيروا بـين ليلـة وضـحاها، حسـد جـيرانهم ، حيـث كـان مـن المحتمـل جـداً أن يسـقط وينهـار فجـأة مـن يكـون في القمـة ، كمـا كـان مـن المحتمـل أيضـاً أن يرتفـع مـن يكـون في السـفح بطريقـة لاتقـل مسـرحية عـن طريـق سـقوط الأول، حيـث كـان هنـاك مكـان لمغـامرات الجسـد، والعقـل والـروح. ان الـذين نجحـوا في تلـك الحيـاة القديمـة لا يأملـون أبـداً في تحقيـق أي نجـاح في الحيـاة الجديـدة . إن الثابـت هـو أن رجـالاً مـن طـراز جديـد سـيخرجون الى دنيـا النـاس ليكونـوا مـثلاً صـالحاً لعنصـرهم. هـذا التطـور لم يتحقـق بعـد علـى الصـورة المطلوبـة. ان سـنوات قليلـة قـد مضـت حـتى الآن منـذ اليومالـذي شـم فيـه أول أوروبي رائحـة الـنفط العـربي في الهـواء العـربي وفي الوقـت الـذي نسـتجوب فيـه الأبعـاد المحدودبـة في تلـك الـبلاد المجهولـة، ننحـني مـروعين فـو الثقـوب المحفـورة الـتي تفـور في أعماقهامسـتنقعات الـنفط المخضوضـر-الأزرق. ومـع ذلـك فان للعرب أطماحاً جديدة ، ولهم الى حد ما، أخلاق جديدة[٢].

١)إذا كـان هنـاك جمـود فهـو لا ينبـع مـن الإسـلام نفسـه ومـن تعاليمـه في كتـاب الله والسـنة الصـحيحة ولكنـه ينبـع مـن العقـول الـتي مضـت عليهـا قـرون فقـدت فيهـا مرونـة الحـوار ولدونـة التفكـير علـى التكيـف لأغـراض الحيـاة المتعاقبـة. ان المشـكلة ليسـت في النصـوص الدينيـة الإسـلامية ولكنهـا في طبيعـة وعـي الأجيـال الإسلامية بما في الإسلام من المرونة والواقعية. " المعرب".

٢)جيرالد دوغوري: نخيلل الجزيرة العربية، ص ١٣٣

ان مـا هـو صـحيح بالنسـبة للكائنـات الحيـة ، وهـو أيضـاً صـحيح بالنسـبة للطبيعـة. ان تطـوراً بمثـل هـذه الجذريـة لا يتحقـق في لحظـات. فالحاجـة الى الوقـت ماسـة جـداً مـن أجـل أن تمتـد حقـوا النخيـل المزعـة فـوق مسـاحات واسـعة جـداً مـن الرمـال كـأرخبيلات مـن الخضـرة ، ويكـون امتـدادها كافيـاً لينضـم بعضـها الى بعـض. فالصـحراء كبـيرة جـداً وتبقـى هـي الصـحراء. ويبـدو جلالتـه راغبـاً في تحـدي جهـود البشـر . ولـيس مـا يمنع منالتفكير في أن الإنسان سينتصر مع الإمكانات المتنامية التي توفرها الأدوات العصرية.

إن يوماً سيأتي في العاجل أو الآجل، يجد العرب فيه أنفسهم قادرين على تحقيق الإكتفاء الذتي. فهل سيكونون مستعدين، حين يأتي الوقت المعين، للقيام بدور التقنيين الغربيين؟ وهل أن بناء صناعة قوية في الإحساء، سيكون قادراً على تحقيق ما يتمناه الأميركيون وهو خلق: " طبقة عربية متوسطة من الحرفيين والزراعيين الجديرين بالقيام بأي عمل يعهد به اليهم"؟ أ, أن هذه الصناعة ستلد كما يؤكد الروس " طبقة من البروليتاريا الوطنية، قد انتزعت من جذورها وكثر الإلحاح في مطالبها ، وتكون أكثر ، الى حد بعيد، تأثراً بالأيدولوجية الشيوعية مما كان يمكن أن تكون عليه قبائل المحاربين والإقطاعية القديمة"؟ إن ماحدث في مصافي عبادان، بعد ذهاب الإنكليزلا يدعو لاى كثير من الطمأنينة.

لكن أطماح الملك كانت أبعد مدى وأعلى درجة. ان ما كان ينتظره "من تحديث الجزيرة العربية دون أن تستسلم ليس ظهور طبقة اجتماعية جديدة –بورجوازية أو عمالية. بل هو تشكيل أمة، بالمعنى الدقيق لهذا التعبير. يعني ذلك تكوين جسم اجتماعي مزود بكل الأعضاء الضرورية لعيشه وقادر على أن يكون الدليل الرائد لبقية البلدان العربية.

فهل سيتمكن ابن سعود ووارثوه من التوصل الى تحقيق هذه التجربة؟ وهل يعيدون الى الإسلام قوته وسطوعه الذين كانا له من قبل، في عصر بهائه القديم وعظمته؟ هل سيكون التزمت الشديد في النظريات الوهابية عنصراً مساعداً على تحقيق البرنامج الذي رسموه لأنفسهم أم انه سيكون عثرة معترضة لمسيرته؟

يقول لنا لورانس:" ان في وسعنا أن نربط العرب الى فكرة معينة، كما الى رسن من الأرسان. ان ولاءهم المتحرر لأفكارهم يجعل منهم خداماً أمناء ومطيعين. ان أياً منهم لا يحاول النجاة بنفسه قبل النجاح. وإن في وسعنا أن نستدرجهم ونجرهم الى اربعة أقطار العالم، بمجرد أن ندلهم الى ثروات الأرض وملذاتها. لكنهم في الوقت نفسه حين يلتقون في طريقهم صاحب عقيدة، لا بيت له يؤويه ولا مصدر عيش يرتزق منه غير الصيد أو الإحسان، لا يلبثون حتى يتبعوه بالتنازل عن ثرواتهم هذه . انهم مثاليون لا قابلية للإصلاح عندهم، يتصفون بعمى الألوان والعنى عن الفروق بين الأفكار والظلال. فكرهم غريب قاتم، غني في انهياراته وإلتواءاته كما هو غني في حماسته وقوته، دون توسط أو اعتدال، ولكنه أكثر نشاطاً

وحيوية وأكثر خصوبة في العقائد من أي فكر آخر في العالم كله. انه شعب الإنطلاقات الجميلة الرائعة: يشده بجنون أكثر المفهومات تجريداً، ويطرح في المعركة شجاعة ةقدرة على الإبداع لا حدود لهما، وهو غير مبال في النهاية. ان في هذا الشعب صفة الماء في عدم ثباته واستقراره، ولكنه كالماء على التحقيق، قد يكون مضموناً في نهاية النصر. منذ فجر الحياة، تتحطم موجاته واحدة وراء الأخرى فوق صخور الشهوات. فتسقط كل منها، وقد انتزعت في أثناء ذلك قليلاً من صخور الجرانيت التي توقفها وتعترض طريقها. وما يدرينا أن موجة شبيهة بها تنطلق يوماً من الأيام دون أن تواجه أية صعوبة في مكان يختفي فيه العالم المادي، وربما تحلق روح الله عند ذلك فوق سطوح هذه المياه...[١].

إن الجزيرة العربية تبعث صورة البحر في مدها وجذرها وفي تياراتها الخفية، وفترات هدوئها الطويلة وأوقات عواصفها. فمن يستطيع أن يتنبأ بمستقبل البحر؟

ثلاث موجات، حتى الآن ، رفعتها فوق ذاتها، واستطاعت أن تقذف الى النجوم زبد عبقريتها المتلألئ. أما الأولى فقد جاءت مع محمد من القرن السابع الى القرن الثاني عشر، وأما الثانية فمع ابن عبد الوهاب، في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، والثالثة، مع ابن سعود الذي ينطلق وينمو تحت أعيننا. هل هي الموجة العليا، التي وعدت بالنصر ؟ أو أنها، ستنهار كالموجتين السابقتين، لتخلي المكان لقرون

١)ت.أ.لورانس: أعمدة الحكمة السبعة، ص: ٥٥-٥٦

من الصمت والجمود، وفي أثنائها تتكون الموجة التالية في هدوء[١].

هذه أسئلة لا يستطيع الإجابة عنها غير العرب...

أما ابن سعود ، فقد أجاب من جانبه، على هذه الأسئلة يتلك الروح الخاصة من الثقة بالمستقبل والتي هي سمة من السمات المميزة في طبيعته.

وفي مساء يوم من نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٥٠، كان سيد العربية السعودية يستقبل ، في قصر الرياض، لجنة من منظمة الأمم المتحدة، جاءت تستشيره حول المعضلة الفلسطينية. كانت قد قدمت وجبة طعام خفيفة فوق شرفات القصر، منها يمتد البصربعيداً عبر الفضاء الذهبي من نجد. وكان الغسقرقيقاً. ونسيم الأصيل يحرك قمم أشجار النخيل، بينما كان النهارفي الغرب يظلم شيئاً فشيئاً في بريق كبريق حجر عين الهر[٢].

١) يبدو لنا أن المؤلف لم يدرك بعد أبعاد الرسالة الإسلامية التي جاء بها محمد عليه السلام . إن موجة الإسلام لم تكن مجرد انتفاضة سياسية عسكرية بل كانت تعبيراً عن رؤية متكاملة وما وراءه للإنسان، فرداً وجماعة... إنهاكانت تعبيراً عن تحول نوعي في عقل الإنسان وروحه وأخلاقه ... أما الموجتان الأخرتان اللتان ذكرهما بعد ذلك فانهما تشاركان الموجة الأولى في بعض حيويتها مع محاولة جادة لإحياء أبعادها الفكرية والروحية. إلا أنهما تبقيان مختلفتين عنها من حيث قدرتهما على زلزلة القيم والمقاييس التقليدية وبالتالي على إعادة تشكيل الإنسان المسلم. ان في وسعنا القول أن موجتي ابن عبد الوهاب وابن سعود هما انتفاضتان في الإسلام لا قرينتان له وهذا ما يقرره صاحبا هاتين الموجتين حين يعلنان غرضهما من الدعوة الوهابية التي تتلخص في العودة الى الإسلام على طريق السلف الصالح. ولا أدل على الفارق بين رسالة النبي عليه السلام ودعوة كل من ابن عبد الوهاب وابن سعود من الآثار الحضارية والتحولات التي أحدثتها كل منهما في الزمان والمكان. أما رسالة محمد فلم تلبث حتى أصبحت حركة عالمية بين خمسين عاماً من ظهورها بينما ما تزال الوهابية حركة ذات أبعاد وطنية ضيقة.

٢)عين الهر: حجر لبني كريم متغير الألوان.

وفي الوقت الذي هبط فيه الليل – والليل في هذه المناطق يهبط بسرعة- أضيئت مصابيح الجادة الواسعة التي تربط القصر بالعاصمة، مرة واحدة، راسمة حتى الأفق اكليلاً من الضياء. فلم يستطع أحد الموفدين أن يمسك صرخة إعجاب.

فانحنى ابن سعود نحوه وقال له بمجاملة مهيبة:

- " ان ما تراه هناك يا صاحب السعادة ، هو عقود اللآلئ للجزيرة العربية الجديدة."

ثم أضاف قائلاً وهو يشير الى مجموعة من الشبان المتلفعين بالعقال ذي الخيوط الحريرية يتبادلون الحديث جانباً مع ضباط من الأخوان:

- " على أن خير ماأملكه من الجواهر في الحقيقة ، ليس هذه الأضراء بل هم أبنائي. لقد بدأت أقترب من الهرم . وقضيت حياة حافلة بالكثير. ان الوقت الذي تحق لي فيه الراحة، غير بعيد . لكنني سأموت مطمئناً: ان أبنائي سيكملون عملي هذا . فاذا أعانهم الله كما أعانني، فانهم سيحتوون يوماً من الأيام مصائر أكثر من مائة مليون مؤمن."

فأردف العضو الموفد معترضاً :" – أليس في مثل هذا التنبؤ البعيد ما يتعارض مع الحكمة؟ ان العالم يعيش فوق بركان . فإذا وقع نزاع جديد. فما عسى يكون مصير الجزيرة العربية ؟"

فكر ابن سعود قليلاً وأجاب بكل بساطة:

- " لا قوة إلا بالله، وأنا لاأزعم انني أعرف ما قدره ورسمه للبشر. لكنه غمر الجزيرة العربية بالكثير من الخير ، وسيتابع فعل ذلك إذا قدر إنها تستحقه. لقد بدا لي في الصحراء خلال شبابي الأول ، وقال لي كلام لم يذهب عن بالي أبداً. هذا الكلام هو الذي ألهمني كل أعمالي في حياتي هذه ...[1].
- " هل نستطيع أن نعرف ماذا قال لجلالتك؟

١) نحن واثقون بان عبد العزيز بن سعود لا يمكن أن ينسب مثل هذه العبارة الى ربه. ان له من دينه وأصالة تفكيره ما يحول دون وقوعه في مثل هذه الشطحات الخيالية. " المعرب".

بقي ابن سعود صامتاً فترة من الزمن. ثم ردد هذه الكلمات بصوت منخفض تقريباً وببطء شديد.

- "كل شيء عندي ليس غير وسيلة حتى العقبة الكأداء".

توفي الملك ابن سعود فس الساعة التاسعة وأربعين دقيقة من صباح التاسع من نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٥٣، وكانت وفاته بالذبحة الصدرية، بينما كان مقيماً في قصر الشتاء من مدينة الطائف، الواقعة على بعد خمسين كيلومتراً من مكة.

كان الملك لا يغادر الكرسي المتحرك الذي أعطاه إياه روزفلت منذ عدة أشهر، عندما أضعفه توالي الأزمات القلبية عليه وكل بصه. لقد نقل السلطة فعلياً الى ولده البكر الأمير سعود. لكن حيويته بقيت تظهر في ثورات من الغضب وانتفاضات من الإرادة الحازمة تثير الرعب فيمن حوله. كان أشبه بالملك لير. إذ احتضر طويلاً تحت القباب القاتمة لقصر الطائف مكافحاً دون هوادة ضد التطور في مرضه، حتى اليوم الذي جاءته فيه أزمة بالغة فصرعته.

لم يلبث راديو مكة حتى أذاع النبأ، ونقله عند راديو دمشق، ثم لم تمض ساعات قليلة حتى تردد النبأ في إذاعات العالم كله. وعندما علم سكان نجد والحجاز، وحائل والإحساء أن أقوى قلب في الجزيرة العربية قد توقف عن الخفقان، أصابهم روع شديد . كل شيء توقف مرة واحدة. العمال في المصافي توقفوا عن أعمالهم ، والعاملون في المرافئ ألقوا أثقالهم على الأرصفة ، والبدو في القوافل ترجلوا عن ركائبهم، والجنود في الثكنات وضعوا بندقياتهم على الارض، الطائرات، والقطارات والسيارات الشاحنة، كل شيء جمد في مكانه. ستة ملايين من العرب توجهوا الى مكة وسقطوا ساجدين راكعين.

أما صحافة العالم كله فقد حيت الملك الراحل بعبارات فيها إعجاب واحترام.

- "كتبت جريدة الأهرام القاهرية تقول: " مات ملك الصحراء عبد العزيز عبد الرحمن آل سعود، السيد المطلق للعربية السعودية. كم هي غريبة حياة هذا الحفيد لهارون الرشيد ، لقد أصبح بفضل المدينة الغربية، وهو المسلم المتعصب، واحداً من أعظم أغنياء العالم."
- وكتبت " الديلي اكسبرس" من لندن قائلة، " مات ابن سعود. لقد كان أصلب كل الزعماء العرب في جيله، وأمهرهم وأسعدهم حظاً . لقد غزا مملكة رغم السياسة البريطانية،واستغل حقوله النفطية بالتعاون مع الأميريكيين . ان البريطانيين الذين تغلب عليهم، وان الأميريكيين

الـذين كـانوا يـدفعون ٥٠ مليـون جنيـه في كـل عـام، قـد تعلمـوا كيـف يحترمـون صـفاته الإستثنائية."

- وكتـب جـان بـول بينيـز في " باري مـاتش" يقـول: ان الملـك ابـن سـعود إذ يمـوت، وهـو الـذي أطلـق عليـه الإنكليـز اسـم" نابليـون الجزيـرة العربيـة" قـد تـرك لولـده مملكـة واسعة سعة النصـف مـن أوروبا ، وهـو منـتج الـنفط الثالـث في العـالم، والـزعيم الروحـي للعـالم العـربي . نصـف قـرن مـن الفروسـية الخارقـة، وملحمـة مذهلـة لم يسـبق أن تخيلـت مثلهـا روايـة مـن روايات الفروسـية قـد أنجـزا هذه المعجزة. وفي صميم القرن العشرين، أخرج ابن سعود من الرمال أمة جديدة."
- ثم كتـب رينـه برانيلـك في مجلـة " إللوستراسـيون" يقـول:" إن قصـة هـذا الامـير دون إمـارة ، والـذي تنحني أمامه اليوم كل الجزيرة العربية، ستكون واحدة من أكثر الواقعات إدهاشاً في قرننا هذا."
- وكتـب غيماركـا في " ريفـارول" يقـول:" ذهـب ملـك الرمـال! لقـد تـوفي ابـن سـعود فـاختفى معـه أعظـم وجـه في العـالم العـربي. لقـد دخـل في الأسـطورة ، بينمـا كـان لا يـزال بـين الأحيـاء وسـيحلق ظله طويلاً فوق معالم الصحراء."

كـان مـن الواجـب أن تـدفن جثـة المغفـور لـه قبـل غيـاب الشـمس تبعـاً لأوامـر الشـريعة الإسـلاميو. فلـف جسـد الملـك العجـوز المحـارب، الـذي يحمـل ثلاثـة وأربعـين ندبـة مـن جـراح السـيف أو الـرمح ، تلقاهـا خـلال نصـف قـرن مـن المعـارك، بسـبعة أكفـان وبسـاط للصـلاة. ثم حملتـه طائرتـه الخاصـة الى الـرياض حيـث بـدأت تتوافـد برقيات التعزية من كل زعماء الدول الأجنبية .

أراد كبـار رجـال المملكـة، والأخـوان ، ورجـال الـدين، أن قيمـوا لـه جنـازة عظيمـة . لكـن الملـك قبـل أن يتـوفى، أمـر بغـير ذلـك : فعمـلاً بالعـادات المتبعـة عنـد الوهـابيين أراد أن يلـف ويسـجى دون زينـات ظـاهرة ورغب في ألا يختلف قبره تواضعاً عن قبر أي مؤمن عادي.

هكـذا حمـل الى مقـبرة قائمـة في الجنـوب الشـرقي مـن المدينـة، تلـك الـتي اختبـأ فيهـا حـين قـام بالهجـوم علـى العاصـمة. لقـد لحـق فيهـا بالملكـة جـوهرة الـتي أحبهـا كثـيراً، كمـا لحـق بأبنائـه الـذين توفـاهم الله قبلـه. وعمـلاً

برغبته، فان شيئاً لا يميز قبره من قبور من حوله. انه ليس غير مستطيل متواضع من الأرض وشاهد لم يكتب شيء عليه–مجرد حجر بسيط أبيض في مواجهة اللانهاية...

صانعان لفصل منسي...

عندما كنت أترجم لحياة كل من مصطفى كمال وابن سعود، التقيت في طريقي، بطريقة حتمية، رجلين استثنائيين، – توماس إدوارد لورانس وهاري سانت جون بريدجر فيلبي – لعبا دوراً حاسماً في تاريخ الشرق الأدنى وبدونهما لا تعود للعالم العربي على التحقيق، صورته التي هي له اليوم.

ولما كنت، بمرور الزمن، قد كونت فكرة أدق عن شخصيتهما، فان الصورة ذات الخطوط التي رسمتها للورانس بدت لي غير كافية لإعطائه حقه من العرض. هذه الصورة لا تسمح للقارئ بإدراك شراسة معاركة، ولا أعماق يأسه. من أجل ذلك خصصت له كتاباً قائماً بذاته، لإدراج مداره المأساوي بين المعارك المظفرة لكل من الذئب والفهد[1].

لكن العمل التاريخي لا ينتهي أبداً، فهو أشبه ما يكون، بنسيج بنيلوب. إن الواجب يقضي بالعودة إليه لإيضاح هذه الشخصية أو تلك ، أو إبراز النتوء في هذا الحادث أو ذاك. ومن هنا كانت الصفحات التي وضعت فيها رحلة لورانس قد دفعت بي اليوم لإعطاء مزيد من الأهمية لفيلي.

إن عمل هذين الرجلين في الواقع، يتوازن بأسلوب يدعو الى الدهشة ليس لأن مصيرهما يشكلان مطابقة كاملة، بل لأن أخلاقهما وعملهما هما في الوقت نفسه من التعارض والتكامل بحيث إنه لا يسعنا أن نبعث صورة أحدهما دون أن تخرج إلينا وتبرز ذكرى صورة الآخر.

---

١) بنوا ميشان ، لورانس الجزيرة العربية، أو الحلم الذي تحطم، دار: لاغلد دو ليفر ومطبوعات كلير فونتين، لوزان، ١٩٦١

كتب فيلبي يقول: " حاولت رسالة وطنية أن تشركني مع لورانس في عملية التحول التي خضعت لها خريطة الشرق الأوسط، وقد يكون من الممكن إننا لعبنا نحن الإثنين دوراً في هذا السياق: صانعان لفصل منسي في هذا اليوم[1]".

" رفيقـان يسـيران جنبـاً الى جنـب، وصـانعان لفصـل منسـي في هـذا اليـوم.." ومـا دام أن فيلـبس قـد اختـار هـو نفسـه هـذه الصـيغة ليحـدد علاقاتـه مـع رجـل لم يكـف أبـداً عـن أن يكـون المـاعرض العنيـف لـه، ومنافسـة البـائس، فإننـا لم نـر خـيراً مـن أن نتبـنى هـذه الصـيغة بـدورنا. لكـن فيلـبي في تواضـعه حـين يحـاول أن يفهـم مـن يريـد أن يسـمع بإنهمـا ربمـا شـاركا في " فصـل منسـي" ان هـذا الفصـل ، بعيـداً عـن أن ينسـى، يثـير اهتمـام جمهـور مـن النـاس يتسـع أكثـر فـأكثر دون توقـف. وإذا كـان اسماهمـا مـا يـزالان شـريكين بصـورة صـحيحة، فمـا كان ذلك نتيجة لمصادفة عابرة، أو لنزوة هجاء ناقد ، بل بفضل دور تاريخي لعبارة بصورة واقعية...

ولـد تومـاس إدوارد لـورانس في ١٦ أغسـطس (آب) ١٨٨٨، في تريمـا دوك، مـن بـلاد الغـال. أمـا هـاري سـانت جـون بريـدجرفيلبي فقـد رأى النـور في الثالـث مـن أبريـل (نيسـان) عـام ١٨٨٥ في بادولا (سـيلان) ومـن الغريـب أن نفكـر بأن الحيـاة سـتقود هـذين الـرجلين، المولـودين في وقـت واحـد تقريبـاً، علـى بعـد ٨ آلاف كيلـومتر أحـدهما مـن الآخـر، مـن الغريـب أن نفكـر بأن الحيـاة سـتقودهما ليتصـادما ويتجابهـا في صـحراء الجزيـرة العربية- هذه العربية التي يحس كل واحد منهما نحوهما بإنبهار لا يقاوم ولا يغلب.

نحـن نعلـم أن لـورانس كانـت لـه شـكوك دائمـة حـول شـرعية مولـده، لأن أبويـه لم يكـونا متـزوجين في عـرف القـانون، ونعلـم إنـه غـير اسمـه مـرات كثـيرة، كمـا لـو انـه يريـد الهـروب مـن هويـة أصـبحت غريبـة عنـه. وهنـاك مصـادفة تثـير الفضـول، فـان شـكاً قـد حلـق دائمـاً حـول هويـة فيلـبي كـل حياتـه. لا لأن زواج والديـه لم يكـن مشروعاً. فالامور بالنسبة اله قد مضت على غيره هذه الصورة.

---

١)هـ. سانت جون فيلبي، أربعون عاماً في فلاة. أنظر الفصل المعنون ب: ت.أ. لورانس ونقاده لندن، ١٩٥٧،ص ١٠٩.

يقـول لنـا صـاحب الغبطـة ريكمـانز:" لقـد نسـيته أمـه يومـاً عنـد بدايـة زيارة لمزرعـة مـن مـزارع الشـاي وبعـد استقصـاءات وجـولات كثـيرة ، وجـد الخـدم امـرأة غجريـة تحمـل طفلـين مـن عمـر واحـد ولهمـا سمـات واحـدة لقـد وجـدت أحـدهما في الطريـق، ولمـا كـان الطفـل اللقـيط يحمـل ثيـاباً جميلـة غاليـة الـثمن وكـان طفلهـا عـارياً كيـوم ولدتـه تقريبـاً ، فقـد بادرت الى توزيـع الثيـاب بطريقـة أكثـر عدالـة ، بحيـث أنهـا أصـبحت غـير قـادرة

على تمييز طفلها من ذك الذي وجدته. أما الخدم المنذهلون فقد حسموا الموقف باختيار من يلبس ثياباً أجمل وأفضل[١]."

هذا الحادث لم يكن له في نفس فيلبي أي تأثير على توازنه الخلقي، خلافاً للصدمة النفسية التي أحدثها في نفس لورانس، علمه بعد شرعية مولده. انه على العكس من ذلك، قد أحدث له لذة خبيثة ماكرة :" ان أحداً لا يعرف حتى اليوم ما إذا كنت أنا نفسي، أو كنت ولد الغجرية." هذا ما كتبته بعد ذلك بإحساس فيه من التسلية أكثر مما فيه من الغيظ والهم[٢]. ولنضف مع صاحب الغبطة ريكامننز بأن الشك لم يكن ممكناً أبداً." ذلك أن فيلبي كان هو فيلبي حقاً، انكليزي حتى أطراف أصابعه. عينان زرقاوان زرقة الفولاذ مع نكتة لا تهدأ ولا تنام وارادة من حديد، ثم صلابة وصراحة، ونوبات عنف لا تلبث أن تهدأ بصبر صامد عنيد، ومجاملة تعود بالذكرى الى أيام لا ترتد أبداً، هذه كلها تحسم المعضلة بكل أمن وطمأنينة[٣]."

وفي عامه العاشر، أي في السن التي دخل فيها لورانس مدرسة " سيتي سكول أوكسفورد" ألحق فيلبي بمدرسة وستمنستر في لندن. لكن هناك لم تكن تتوفر له جولات مثيرة عبر الريف الإنكليزي بحثاً عن الكنائس الرومانية أو حصون القرون الوسطى. لقد انقضى شبابه الهادئ المجتهد في ظلال المدير القديم حيث كان يشارك في صلوات يوم الأحد، يلبس دراعته الكهنوتية البيضاء. ولما كان صوته جميلاً فقد كان يرتل في جوقات المرتلين . وبهذه الصفة شارك في إحياء يوبيل الملكة فيكتوريا وفي الإحتفال بتتويج أدوارد السابع.

---

١)غ. ربكمانز:هـ. سانت جون فيلبي، المؤسسة الهولندية للدراسات التاريخية الأثرية ، استامبول ١٩٦١ ص:٢

٢) سانت جون فيلبي: أيام عربية ص ٩-١٠

٣)غ. ريكمانز: المصدر نفسه، ص: ٣ ولنذكر هنا أن اسم سانت جون قد جاءه من مزرعة الشاي التي كانت تخص أباه.

وفي الفترة التي اكتشف فيها هوغارت عند لورانس استعدادات مبكرة لتعلم التاريخ وعلم الآثار، كان أساتذة فيلبي يعدونه إعداد تربوياً كلاسيكياً. فدرسوه اللغات اللاتينية والفنسية والعربية الأدبية التي انتهى

بـه الأمـر الى اسـتخدامها في يسـر وسـهولة. ثم تابـع دراسـاته في كمـبردج، الجامعـة المنافسـة لاوكسـفورد حيـث كـان لـورانس يعـد اجـارة البكـالوريوس، بتـأليف أطروحـة حـول تأثـير الصـليبيين في الهندسـة المعماريـة في القـرون الوسطى.

منـذ تلـك الفـترة ، أخـذت التناقضـات في صـفاتهما تـزداد بـزوراً ووضـوحاً. أمـا فيلـبي فإنـه لم يكشـف عـن عبقريـة شـبيهة بعبقريـة مزاحمـة. كمـا لم يمـارس فـيمن حولـه السـلطة نفسـه. ولم يتميـز أسـلوبه بالروعـة الوهاجـة اللامعـة الـتي تميـز كتـاب " أعمـدة الحكمـة السـبعة". ولـئن كـان دون لـورانس مـن الناحيـة الفنيـة، فإنـه كـان يملـك مقابـل ذلـك إحساسـاً دينيـاً عميقـاً، غريبـاً كـل الغربـة عـن مؤلـف كتـاب " الثـورة في الصـحراء". لقـد كـان فكـر متـزن رزيـن، يعـوض عـن افتقـاده للمخيلـة الشـعرية بالحكـم الصـائب والغيـاب التـام لـروح التفـاخر والمباهـاة والتظارف السخيف.

فـإذا أردنا أن نحـدد الفـرق بـين طبيعتيهمـا فـان في وسـعنا القـول بأن لـورانس كـان شـاعراً يحـاول أن يجسـد حلمـه بعاطفـة حـارة، أمـا فيلـبي فهـو مكتشـف لا يهـزه شـيء غـير مراقبـة العـالم الـواقعي. ومـن هنـا اخـتلاف طريقتيهمـا في مواجهـة الشـرق: ففيلـي يحـاول أن يعرفـه كمـا هـو في واقعـه، بينمـا لـورانس يطالبـه بأن يكـون صورة لشخصيته الخاصة.

ومـع ذلـك فقـد كـان الـرجلان يملكـان سمـة مشـتركة: انهاكراهيـة التقيـد بالعـرف. في كمـبردج بـدأ فيلـبي يؤكـد شخصـيته ويتمـرد علـى الجـو الفيكتـوري للجامعـة القديمـة . يقـول لنـا صـاحب الغبطـة ريكمـانز : " إن وضـعه يفسـر بانعكـاس مـزاج فريـد في نشـاطه ، وجبلتـه واصـالته ، ضـد سـلطان بيئتـه المرتبطـة بتقليـد محـافظ شـديد التقيد بالعرف خال من محتواه ، والتي كانت تفرض الانتساب إلى أفكار اجتماعية مسبقة تبدو قديمة بالية

في نظـر شـاب طالـب[١]. وفي عـام ١٩٠٨ انضـم فيلـبي الى مكتـب الهنـد ، حيـث عمـل سـبعة أعـوام . ثم التحـق بإدارة السسـير بيرسـي كـوكس، الـذي كـان قـد سمـي قبـل قليـل منـدوباً سـامياً بريكانيـاً في العـراق (١٩١٥). وكـان لـورانس قـد ألحـق بقيـادة القـاهرة في العـام السـابق. وهنـا أيضـاً، لم تلبـث المصـلحتان اللتـان كـانا ينتسـبان اليهمـا أن وضـعتهما في موضـع النـزاع. ذلـك لأن السياسـة الإنكليزيـة في العـراق، المتـأثرة بالسـلطات البريطانيـة في بومبـاي، كانـت تحـاول أن تحـتفظ لإنكلـترا بطريـق الهنـد البريـة، الـتي تمـر بدمشـق،

وبغـداد، وطهـران، وكراتشـي، بينمـا كانـت السياسـة الإنكليزيـة في الجزيـرة العربيـة، كمـا هـي في نظـر القـاهرة، تهـدف قبـل كـل شـيء الى الإحتفـاظ بالطريـق البحريـة مفتوحـة سـالكة، وهـي الـتي تمـر بقنـاة السـويس والبحـر الأحمر ومضيق باب المندب.

كـل شـيء كـان يعمـل علـى تحقيـق التعـارض بـين هـذين الشـابين اللـذين تخصصـا في دراسـة العـالم الإسـلامي. وأيضـاً فإنهـا لم يتفاهمـا أبـداً حـين تلاقيـا لأول مـرة في البصـرة في ينـاير (كـانون الثـاني) مـن عـام ١٩١٦. كـان فيلـبي في الثلاثـين مـن عمـره ولـورانس في السـابعة والعشـرين. وكـان جـيش الجنـرال تاونسـهند قـد أحـيط بـه مـن قبـل الأتـراك في كـوت العمـارة. أمـا لـورانس فقـد أرسـل الى العـراق ليرشـو خليـل باشـا، قائـد الجيش التركـي وليحصـل منـه علـى تحريـر الوحـدات المحاصـرة . وبعـد فشـله في مفاوضـاته ، اقـترح لـورانس اعـداد ثـورة عامـة بـين اعـرب المقيمـين في وادي دجلـة ، تكـون الغايـة منهـا ارغـام الأتـراك علـى رفـع الحصـار . لكنـه اصـطدم باعـتراض قيـادة الجـيش في الهنـد . وقـد طالـب لـورانس بعـرض حـق تقريـر المصـير علـى السـكان العـراقيين لاثارة حماسـتهم . فـرفض القـادة البريطـانيون هـذا الاقـتراح بسـخط شـديد ، بـدعوى أن هـذا المشـروع سيشجع الهند على المطالبة بامتيازات مماثلة ...

---

١) غ. ربكمانز: في الموزابون، ١٩٤٨ ، ص ٣٠٨.

نحـن لا نعلـم مـا اذا كـان فيلـبي يشـارك العسـكريين في رفضـهم هـذا ، لكـن الصـورة الـتي رسمهـا في ذكرياتـه تعـزز الموقـف الـذي اتخـذ مؤلـف الأعمـدة السـبعة مـنهم . انهـم كمـا وصـفهم ، لا يحـدثون الانطبـاع في أن لهـم ذهنـاً ثاقبـاً وعقليـة واعيـة . "كـانوا يتصـرفون ضـد كـل منطـق ولا يبـدو أنهـم يسـلمون بأيـة وسـيلة مـن وسـائل الاقنـاع غـير توجيـه الضـربات أو التهديـد بالكارثـة : فكانـت هـاتان الوسـيلتان الحجتـين الوحيـدتين الجـديرتين بـدفعهم إلى العمـل . " هـذا التشـابه في وجهـات النظـر كـان في وسـعه أن يقـرب مـا بـين الـرجلين . لكـن شـيئاً

مـن ذلـك لم يحـدث . لقـد كـان لقاؤهمـا الأول في البصـرة متصـفاً بـروح المجاملـة ، مـع تحفـظ شـديد . فكـان بداية لعداوة لم تكف عـن النمـو خـلال السنوات التاليـة . أمـا فيلـبي فقـد وجـد لـورانس شـديد الاعتـزاز بنفسـه ، بينما وجد لورانس في فيلبي شخصية تافهة غير ذات قيمة.

وبعـد ذلـك بسـتة أشـهر ١٧ أكتـوبر (تشـرين الأول) ١٩١٧ بـدأ السـير رونالـد سـتورز ولـورانس مفاوضـات مـع الحسـين ، شـريف مكـة الكبـير ، لتنظـيم ثـورة البـدو في الحجـاز . وفي الوقـت نفسـه تقريبـاً نـوفمبر (تشـرين الثـاني) ١٩١٦ أقـدم السـير بيرسـي كـوكس وفيلـبي علـى الاتصـال بعبـد العزيـز بـن سـعود في عقـير ، أمـير نجـد الشـاب الـذي كـان يرتفـع نجمـه في سمـاء الجزيـرة العربيـة . وفـوراً وقـع فيلـبي تحـت تأثـير الشخصـية القويـة للرجـل الـذي كـان سيسـميه بعـض مـن تـرجم لـه " نابليـون الصـحراء " لقـد وجـد فجـأة " رجـل المستقبل " في ذلـك البـدوي المـاكر العبقـري ، ذي الارادة الـتي لا تلـين والحيويـة الـتي لا مثيـل لهـا . وكمـا كـان اللقـاء بـين لـورانس وفيصـل في الحمـراء ، فـان لقـاء فيلـبي وابـن سـعود في عقـير قـد أحـدث تأثـيراً حاسمـاً في تعاقـب الحـوادث التاليـة . هكـذا قـدر لهـذين الـرجلين ، اللـذين كـانا يعمـلان في إدارتـين متنافسـتين ، ان يكونا، منذ ذلك اليوم ، بطلين لحاكمين عربيين يتبادلان أشد الكراهية والبغض .

لقـد بـدا فيصـل للـورانس منـذ المقابلـة الأولى " الرجـل القـادر علـى صـنع الثـورة العربيـة بكامـل مجـدها " ، بينمـا لم يكـن عبـد العزيـز ، كمـا يقـول ، غـير " رجـل فـظ غلـيظ ، غـير مثقـف ، وعـدو للتقاليـد المرعيـة " عـارياً مـن كـل مـا يجتـذب العـالم الإسـلامي : مـن مثـل الشـعر والثقافـة واسـلوب الحيـاة الرائـع المهـذب . أمـا فيلـبي فلـم يكـن يطـوي في نفسـه نحـو فيصـل غـير الازدراء . وفي مقابـل ذلـك يحـس باعجـاب مخلـص صـادق نحـو ابـن سـعود ، الـذي يحلـم بانتـزاع مكـة مـن سـلطة الهـاشميين ليعيـد إلى العبـادة طهارتهـا الأساسـية . ففـي رأيـه أن حفيـد ابـن عبـد الوهـاب يجسـم الفضـيلة القرآنيـة ، المتقشـفة والمقاتلـة ، في مواجهـة الـورع المنـافق لأسـرة حاكمـة فاسـدة . كمـا أنـه تجسـيد للقـوة أيضـاً ، مـا دام أننـا نعـرف أنـه كـان – ويؤكـد هـذا الأمـر ماسـنيون نفسـه – الحاكم العربي الوحيد الذي يملك ، في تلك الفترة ، بنية عسكرية واجتماعية صادقة الولاء .. " .

في عقـير ، قـدم السـير بيرسـي كـوكس ، باعتبـاره عـاملاً باسـم انكلـترا ، كـل الضـمانات لاسـتقلال نجـد ، وفي مقابـل ذلـك حصـل علـى حيـاد ابـن سـعود في النـزاع القـائم بـين الانكليـز والأتـراك . لكـن لنـدن استمرت

تلعب ورقة الهاشميين ، ربما تحت تأثير الأصدقاء الأقوياء الذين يملكم لورانس في العاصمة . وبذلك استبعد عبد العزيز الذي ظن أنه قد " تحيد " وتم تجاهله كلية .

أما فيلبي وقد أنذر بالنتائج الخطرة التي تتعرض لها هذه السياسة ، فقد توجه إلى القيادة العامة للجنرال اللنبي الموجودة أمام غزة . واحتج بقوة ضد سياسة لورانس ، وأكد بأن الهاشميين غير جديرين بأن يلعبوا الدور الذي ينيطه بهم صانع " الثورة في الصحراء " وحذر القائد الأعلى لجيش مصر بأن لورانس " قد راهن على الحصان الخاسر " . إن ابن سعود – لا فيصل هو الذي يجب أن يساند ... أما لويس ماسنيون ، الذي التقى فيلبي في غزة خلال تلك الزيارة فقد لاحظ أنه " لم تكن له خامة لورانس [1] ، ولكنه يرى أبعد وأكثر حكمة منه " .

وهنا لا حاجة بنا إلى القول بأن هذا التدخل من قبل فيلبي قد أغضب مؤلف أعمدة الحكمة السبعة ، الذي لم تكن رحابة الصدر السمة الغالبة عليه . بالاضافة إلى أن هذا التدخل يهدد باضعاف رصيده عن اللنبي . حدث هذا في الوقت الذي كانت فيه أعصابه بالغة التوتر ، إذ علم قبل قليل بوجود معاهدة سايكس بيكو ، التي يهدد تطبيقها بالقضاء على كل الوعود المبذولة للهاشميين .

ومما لا ريب فيه ، أنه قد أقسم في ذلك الوقت " على قيادة الثورة العربية (أي الهاشمية) إلى النصر بعنف إلى درجة أن انتهازية الدول الكبرى قد دفعت بها من بعد إلى الاستجابة لمطالبه [2] ".

---

١) أنظر ، لويس ماسينيون : علاقاتي مع لورانس عام ١٩١٧ . في روجيه ستيفان : لورانس ، باريس ، ١٩٦٠ ، ص : ٢٠٩ .

٢) ت . أ . لورانس ، أعمدة الحكمة السبعة ، ص : ٣٤٦.

نحن لا نعلم على التحقيق ما هي الوسائل التي استعان بها وما هي التأثيرات التي استخدمها لتجميد الآثار التي ترتبت على تصريحات فيلبي . كل ما في الأمر أن حكومة لندن لم تعدل خط سيرها . لقد استمرت تحابي الحسين وتتجاهل ابن سعود . وعاد فيلبي إلى الرياض ، خائب الرجاء ، باعتباره رئيساً لبعثة بريطانية صغيرة .

وفي صباح الأول من أكتوبر (تشرين الأول) ١٩١٨ ، دخل لورانس إلى دمشق دخول الفاتحين ، وسط هتافات ترددها جماهير هاذية . لكن هذا اليوم المظفر كتب عليه أن يطل على غد مر شديد .

ومنذ يناير (كانون الثاني) ١٩١٩ ، أصبح من الواضح أن الحلفاء المجتمعين في مؤتمر السلام المنعقد في باريس غير مستعدين للوفاء بعهودهم . وفي أثناء مشاهد مأساوية ، خاض لورانس فيها " معركة حياته الكبرى " اصطدم بالرفض الحاسم من قبل لويد جورج وكليمنصو . لقد وضع نصف الأراضي العربية المحررة من النير العثماني تحت وصاية فرنسا رغم الحاحه الشديد ، ووضع النصف الثاني تحت وصاية انكلترا ، كما تقررت اقامة " وطن قومي لليهود " في فلسطين . فلم يبق شيء من الاتحاد الهاشمي الذي وعد به الحسين وأبناؤه . هكذا انهار حلم لورانس انهياراً لا قيام له من بعده .

أما الجماهير العربية التي ذهلت بصورة هذا المستقبل المختلفة عن تلك التي وعدت بها من قبل فقد دخلت فوراً في مرحلة الغليان الشديد . اضطرابات في القاهرة ومظاهرات في العراق واغتيالات في فلسطين ، ومعارك منظمة في سوريا ، هذه كلها حولت تلك المنطقة من العالم إلى قدر ساحرة . فكلف تشرشل باعادة النظام . فبادر بدوره إلى استدعاء كل الخبراء البريطانيين في قضايا الشرقين الأدنى والأوسط للاجتماع في القاهرة مارس (آذار) ١٩٢١ .

في مؤتمر القاهرة ، تقدم لورانس ، الذي ألحقه تشرشل بوزارته بصفة مستشار ، باقتراح عدد من الاجراءات بدت له قادرة على تهدئة الأوضاع القائمة . أما فيصل فقد فاز بعرش العراق ، وخلقت مملكة صغيرة في شرقي الأردن وضعت مقدراتها بين يدي أخيه عبد الله . انه ترقيع ساخر في مواجهة البناء العظيم الذي وعد به لورانس أصدقاءه العرب .

ولم يكد المؤتمر يبلغ نهايته حتى أوفد لورانس في مهمة إلى جدة ليطلع الشريف حسيناً على القرارات المتخذة . لكن زعيم اسرة الهاشميين أصبح بمرور الزمن شيخاً سوداوي الخلق ذا مزاج حانق . ان مجرد كلمة " انتداب " كانت كافية لاخراجه عن طوره . وعندما علم بأن فيصلاً لن يفوز بسوريا وان عبد الله لن يحصل على فلسطين ، لم يعد يمسك نفسه . فرفع عصاه على لورانس واتهمه بالخداع والدجل وهدده بالقائه من سلم القصر . أما لورانس فقد قطع المحادثات وعاد إلى القاهرة مقروح الفؤاد .

ومن هنا توجه إلى عمان ليقنع عبد الله بالاكتفاء بقطعة الأرض الضيقة التي قدمت له سبتمبر (أيلول) ١٩٢١ . كانت هذه المهمة من الكراهية بحيث وجب على لورانس أن يجعل فيها من نفسه المحامي المدافع عن هزيمته . فوجد في عمان فيلبي الذي جاء يشغل وظيفة الممثل لصاحب الجلالة البريطاني . وعلى عكس ما كان منتظراً ، بدا الرجلان متفاهمين تماماً . لقد خسر كلاهما كثيراً من أوهامهما ، ولم يريدا أن يبسطا خلافاتهما أمام الأنظار المعادية لشعب أجنبي . وزيادة على ذلك فقد كانا يملكان الفضيلة البريطانية الخالصة في الآ يدعا خلافات الرأي بينهما تهبط إلى مستوى المنازعات الشخصية . وقد كان في وسع فيلبي أن ينتصر .

فلم يمتنع عن انتهاز هذه الفرصة وحسب بل حاول أن يداري الشعور بغزة النفس عند لورانس ثم بالغ في لباقته حتى أنه دافع عن صاحبه ضد المشنعين عليه . وكم كانت دهشته شديدة حين وجد عنده " مزيجاً مثيراً للفضول من الرجولة والحساسية الأنثوية [١] ".

وقد فسر شذوذه " بالاصالة العميقة ، والرغبة الساذجة في الدعاية ، والمزاج الفكري المتجه نحو الزهد والتقشف " مضيفاً إلى ذلك قوله : ان فيه دون ريب " شيئاً ما من العبقرية [٢] ".

---

١) هـ . سانت جون ب . فيلبي : أيام عربية ، ص : ٤٩ – ٥٠ .

٢) أنظر : غ . ريكمانز ، في الموزابون ، ١٩٥٩ ، ص : ٢٤٣.

لكن لورانس ، في تلك الفترة ، كان يجتاز أشد أزمة مؤلمة في حياته . فعندما غادر عمان في الثامن من ديسمبر (كانون الأول) ١٩٢١ ، وبعد أن نقل سلطاته إلى فيلبي ، كان ذلك للعودة إلى انكلترا ، والاستقالة من كل وظائفه والتطوع في القوات الجوية الملكية . كجندي عادي ٣ أغسطس (آب) ١٩٢٢ .

فهـل شـرح لخصـمه المنـافس ، قبـل أن يتركـه ، أسـباب يأسـه ؟ وهـل حدثـه إلى أيـة درجـة حنـث المنتصـرون بكلامهـم؟ لـيس هـذا مسـتحيلاً . لكـن فيلـبي كـان يعلـم مـن الأمـر مـا يعلمـه صـديقه . ثم انتهـى بـه الأمـر شخصـياً ، وقـد تقـزز بـدوره أكثـر فـأكثر مـن سياسـة بريطانيـا العظمـى تجـاه الـبلاد العربيـة ، إلى تقـديم استقالته مـن كـل وظائفـه بعـد وقـت قصـير ولحـق بابـن سـعود في الجزيـرة العربيـة . امـا ابـن سـعود ، وقـد أحـس بأنـه مهـدد بجنـون العظمـة عنـد الحسـين وانـه قـد " تـرك " مـن قبـل بريطانيـا العظمـى الـتي ضـمنت اسـتقلاله ، قرر أن يتجاهل معاهدة عقير بدفع الاخوان ضد

الحجاز . ومنذ ذلك اليوم تعين مصير فيلبي : " لقد اختار الحرية ، بقطع كل روابطه نهائياً مع الغرب [(١)]"

هنـا اختلفـت وتباينـت المسـيرات الروحيـة بـين فيلـبي ولـورانس . كتـب مؤلـف أعمـدة الحكمـة السـبعة يقـول: " مـن الشـرق اسـتطعت أن أتبـين الغـرب ومعاهداتـه بعينـين جديـدتين فـأكف عـن الإيمـان بـه ." لكنـه مـع ذلـك لم ينقطـع عنـه بهـذا القـدر . لقـد رجـع إلى انكلـترا ، رغـم انهيـار آمالـه ، ليتطـوع كجنـدي بسـيط في القـوات الجويـة الملكيـة ، منـتقلا بـذلك مـن " السـلطة المطلقـة " إلى " الخضـوع المطلـق " . لقـد فـرض عليـه أن يخضـع لصليب الآلام ثلاثة عشر عاماً قبل أن يقتل نفسه في حادث عجلة بخارية .

---

١) غ . ريكمانز : هـ . سانت جون فيلبي ، ص : ٥ .

لكـن فيلـبي لم يكـن لـه مـزاج تومـاس ادوارد . انـه لم يكـن رجـل التحليقـات الخياليـة الخاطفـة ، والسـقوط اليـائس . ولمـا كـان عنيـداً صلباً عنـاد خصـمه المنـافس وصـلابته تابـع هـو أيضـاً مغامرتـه حـتى النهايـة . لقـد اتخـذ طريقـاً مختلفـة ولكنهـا جذريـة أيضـاً . فبـدلاً مـن أن يضـج ويثـير الفضـائح وينـتفض في مكانـه ، قطـع بكـل هـدوء كـل الصـلات الـتي كانـت تصـله بالغـرب وانطلـق وهـو يهـز غبـار حذاءيـه . ولمـا كـان قـد اتخـذ قـراره في صمت فقد حققه دون ضجة .

وبعد أن أنجز هذا التغيير الكامل لوجهته ، شارك إلى جانب عبد العزيز في غزو الحجاز . فشهد حصار جدة، الذي أورد كل تفاصيله المضحكة في بعض الأوقات في كتاب بعنوان " أربعون عاماً في القفر [1] " ودخل دخول الفاتحين إلى هذه المدينة في صحبة الملك نفسه ٢٣ ديسمبر(كانون الأول) ١٩١٥.

كان لورانس قد دخل دمشق قبل ذلك بسبعة أعوام وسط عاصفة من الهتافات . أما فيلبي فقد اجتاز جدة في صمت مغموم مكروب ، لأن السكان كانوا يرهبون تعصب الوهابيين .

ومع ذلك فان تحرير دمشق لم يكن غير لهب من نار القش المحترق ، بينما السعوديون ما يزالون في جدة حتى اليوم.

منذ ذلك الوقت ، أقام فيلبي نهائياً في الجزيرة العربية ، وانضوى ، دون التفكير في العودة ، في الطائفة الوهابية التي تبنى أساليبها ، ولباسها ، ولغتها ودينها أيضاً [2] .

---

١) هـ.سانت جون ب.فيلبي : أربعون عاماً في القفر . حصار جدة ، ص : ١١٠ – ١٤٢.

٢) غ.ريكمانز : المصدر نفسه ، ص : ٦.

ولما كان قد دخل في الإسلام ، فقد قام بحجته الأولى إلى مكة عام ١٩٣٠ . ووصف لنا بعبارات أخاذة الانفعال العميق الذي استولى عليه عند رؤية الحجر الأسود وجبل الرحمة . كتب يقول : " شعرت بنفسي وكأنني روح تجرد من جسده ، ثم عاد بحادث عارض ، أو بمعجزة ، إلى بيئته الطبيعية [1] .

لقد أحس يومذاك وكأنه اجتاز نهر روبيكون [2] . قال : " ان انفعالاتي التي هي من التعقيد بحيث لا أستطيع تحليلها ، وجب أن تكون كانفعالات الكثيرين من الرجال الآخرين في الماضي ، الذين ، منذ زمن قيصر حتى أيامنا هذه ، قد قاموا بكامل وعيهم ، بخطوة إلى الأمام، يعلمون أنها يجب أن تكون نهائية .

ولما كنت قد أحرقت مراكبي من خلفي ، دخلت في عمل جديد ، دون أن يخامرني ظل من الأسف أو تأنيب الضمير (٣) .

يقول لنا صاحب الغبطة ريكمانز : "كان اتصاله بالوسط الوهابي بمثابة تجل من التجليات . وتبين له لأول مرة أن المثال الديني يمكن أن يكون خميرة لحياة أمة بأكملها . فما كان للجزيرة العربية أن تتوحد، وما كان لهذه الوحدة أن تستمر دون هذه الخميرة . وأيضاً فانه لم يكن يحس بأي أسف لغياب القليل الذي كان قد بقي من تقليد شكلي ، خال من المعنى في بيئة المتطهرين في الصحراء . ودون أن يتخلق بأخلاق المتطهرين لكراهيته لكل أنواع التعصب ، قرر أن يعبد الله كما كان يعبده هذا الشعب الذي أصبح منذ ذلك اليوم شعبه (٤) .

---

١) هـ .سانت جون فيلبي ، أيام عربية ، ص : ٢٨١.

٢) روبيكون : نهر صغير كان يفصل ايطاليا عن بلاد الغول . وكان مجلس الشيوخ حماية لروما من جيوش الغول ، قد اعتبر خائناً كل من يجتاز هذا النهر على رأس فيلق من الجند أو جمهور من الرعاع . هذا الدفاع هو الذي ازدرى به قيصر باجتيازه نهر الروبيكون وقد صرخ قائلاً : (لقد تقرر المصير) انها عبارة تستعمل حين اتخاذ قرار جرىء وحاسم . فيقال بالمعنى نفسه : اجتاز الروبيكون ." المعرب ".

٣) هـ . سانت جون فيلبي ، أربعون عاماً في القفر . الخطوات الأولى في الإسلام ، ص : ١٤٦ .

٤) غ . ريكمانز : هـ . سانت جون فيلبي ، ص : ٦.

أما الملك الذي منحه اسم " الشيخ عبد الله " فقد وهبه منزلاً في مكة – جعل منه – " بيته الوحي" – ومنزلاً آخر متواضعاً جداً في الرياض ليسمح له بالمشاركة في جلسات مجلس التاج (١) .

هكذا انعقدت أواصر الصداقة التي جمعت لمدة ثلاثين عاماً وارث الزعماء البدو والعميل البريطاني القديم . كانا يتلاقيان كل يوم في ديوان القصر الملكي حيث يجتمع المجلس الذي يناقش أعضاؤه ، وهم جلوس فوق البسط على امتداد الجدران ، مشكلات الدولة وقضاياها في وقار شديد ، بينما يتخذ الملك مجلسه، تبعاً للعادة البدوية ، عند زاوية الجدار الداخلي من القاعة ، قرب النافذة . وقد يحدث في أوقات كثيرة أن يستدعي صديقه خلال النهار ليرى رأيه في موضوع من الموضوعات المهمة (٢) .

ان فيلـبي هـو الـذي عـرّف الملـك – بتشـارلز كـرين – والمهنـدس الأميركـي كـارل س . تويتشـل . اللـذين انتهيـا بتنقيباتهمـا الجيولوجيـة إلى الكشـف عـن حقـول الـنفط الـتي صـنعت ثـروة الأسـرة الحاكمـة . لقـد حـاول بادىء الأمـر أن يكـل العمليـات إلى شـركة نفـط العـراق ، حيـث يغلـب فيهـا النفـوذ البريطـاني ، لكـن الأميركيين ، بتقديمهم لشروط خير من سواهم ، جعلوه يقلع عن موقفه.

منـذ ذلـك الوقـت ، خصـص أكثـر أيامـه لاكتشـاف الـبلاد والتعـرف إلى خفاياهـا ولا يسـعنا إلا أن نعجب بجملة الملاحظات والمعارف التي حصل عليها هذا الهيرودوت الجديد خلال رحلاته .

وأنـه ليصـعب علينـا العثـور علـى بـدوي أنجـز مـن الـرحلات عـدداً أكثـر مـن تلـك الـتي أنجزهـا فيلـبي عـبر المقاطعـات المختلفـة لشـبه الجزيـرة هـذه . لـيس مـن مدينـة ، أو قصـبة أو واحـة واقعـة في المسـاحات المتراميـة بـين أرض مـدين في الشـمال [٣] . حـتى قطـاع نجـران في الجنـوب ، ومـن شـواطىء البحـر الأحمـر في الغـرب حتى شواطىء الخليج العربي في

١) كان يحضر الجلسات بصورة غير رسمية ، لأنه رفض أن يسمى مستشاراً للتاج ، ليحتفظ باستقلاله كاملاً .

٢) غ . ريكمانز ، المصدر نفسه ، ص : ٧.

٣) أنظر سانت جون فيلبي : أرض مدين ، لندن ، ١٩٥٧.

الشـرق الا ألم بهـا في زيارة قصـيرة أو طويلـة . بـل أنـه أول مـن اجتـاز صـحراء الربـع الخـالي الكبـيرة [١] مـن جانـب إلى جانـب ، وأول مـن رسـم خريطـة للجزيـرة العربيـة الوسـطى . علـى أن أنشـطته لم تتوقـف عنـد هـذا الحد وحسب.

خـلال شـتاء ١٩٣١ – ١٩٣٢ ، كانـت تشـكيلات سـعودية قـد أقامـت – بغـير حـق علـى مـا يبـدو في قريـة عـارو . فعمـد الامـام يحـي ، كـاجراء انتقـامي إلى احـتلال نجـران حيـث حاولـت قواتـه ، كمـا يقـول فيلـبي [٢] بلهجته الساخرة، " القيام بسلسلة من أعمال الاغتصاب والسلب والتدمير ... ".

فغضـب ابـن سـعود ، ووجـه ضـد هـذه القـوات وحـدات مـن الاخـوان بقيـادة لـؤي ، بطـل الكرمـة . فاسـتطاعت هـذه الوحـدات أن تـرغم المحتلـين اليمنيـين علـى الانسـحاب مـن نجـران وأن تهـزمهم شـر هزيمـة . ثم

انعقدت مفاوضات لايقاف اطلاق النار . ولما طالت هذه المفاوضات ، نفد صبر ابن سعود . ولما كان راغباً في فقء هذا الدمل الذي كان يثير المجادلات المتكررة أصدر أمره إلى ولديه سعود وفيصل ، بالتوجه إلى صنعاء ، عاصمة اليمن .

وفي الخامس من أبريل (نيسان) ١٩٣٤ ، اجتازت القوات السعودية الحدود اليمنية في ظل عاصفة رملية . وفي أقل من ثلاثة أسابيع ، بلغ فيصل مدينة الحديدة ، وهي مرفأ على البحر الأحمر ، كانت عاصمة اليمن تستمد منها مؤونتها . وفي تلك الأثناء كان سعود قد احتل مقاطعة تهامة . فبدت المقاومة اليمنية في حالة انهيار تام . لكن غارة فيصل الخاطفة لم تلبث حتى أنذرت الدول الغربية وفي مقدمتها انكلترا ، التي ترى في اليمن ، سفحاً يحمي مدينة عدن والأراضي التابعة لها . فتوجهت سفن حربية بريطانية وايطالية وفرنسية نحو الحديدة وأنزلت فيها مراسيها ، لارغام السعوديين على الاعتدال في تصرفاتهم ... " .

---

١) أنظر سانت جون فيلبي : الأرض الخالية ، لندن ، ١٩٣٣.

٢) سانت جون فيلبي : اليوبيل العربي . العلاقات مع اليمن ، ص : ١٨٥.

وهنا أدرك ابن سعود معنى هذا التحذير وقد كان موجودا في مدينة الرياض . وبرؤية حكيمة منه ، قدر أنه لا يسعه أن يتجاهل ذلك . فأرسل إلى ولديه يأمرهما بالامتناع عن متابعة التقدم .

وبعد وقت قصير انعقدت مفاوضات جديدة في مدينة الطائف بين السعوديين واليمنيين . قم انتهت في ١٣ مايو (أيار) ١٩٣٤ بمعاهدة يتعهد فيها ابن سعود بسحب قواته من الحديدة والجلاء عن تهامة، مقابل تعويض مجز يدفع له .

لكن معاهدة الطائف لم تحل دون استمرار أسباب الاحتكاكات . وكان الحل العقلي الوحيد يقضي بالحد منها . وقد وكل ابن سعود هذه المهمة لفيلبي ، الذي قبلها بكل سرور . فهي التي جعلت منه حكماً بين العربية السعودية واليمن .

وفي ١٩ مايو (أيار) ١٩٣٦ انطلق فيلبي في طريقه . فاتجه أولا نحو أبها ، عاصمة مقاطعة عسير ، بعد أن استأذن الملك بالسفر في عشرة ، مصمماً منحدرات وادي رانية ، ثم وادي بيشا ، ووادي تثليث ، مصمماً على متابعة السير حتى المحيط الهندي ، ليكون أول أوروبي يجتاز الجزيرة العربية من الشمال إلى الجنوب ، بعد أن تم اجتيازه لها من الشرق إلى الغرب ، ومن الغرب إلى الشرق . لقد تجول ابتداء من أبها الجزء الجنوبي من الحجاز في كل اتجاه ، ثم رسم خريطة حدودية في المنطقة المحاذية لليمن وأشرف على أعمال اللجنة المختلطة المكلفة بوضع شواخص الحدود ومعالمها [١] . فلم تلبث هذه الجهود أن كشفت عن انتظام مائتين وأربعين شاهداً من شواهد الحدود على امتداد خط يبلغ ٦٥٠ كيلو متر يبدأ من نقطة على البحر الأحمر قائمة بين معصم ومعيدي حتى تخوم الربع الخالي [٢] . وقد وضع ، في رسم الحدود ، موضع الاعتبار في وقت معاً ، كلاً من المعطيات الجغرافية ومواطن الكلأ التي ترتادها القبائل . والجدير بالذكر أن توصله إلى تحقيق هذا الغرض دون احداث منازعات جديدة ، يشهد ، في وقت معاً ، على مهارته كدبلوماسي ، ونفوذه بين الناس على امتداد تلك المنطقة . كما أنه حرص ، بالاضافة إلى ذلك ،

١) كان لورانس قد أسهم في رسم الحدود الخاصة بشرقي الأردن في مؤتمر القاهرة . ومن هنا يجب أ ن يؤخذ تأكيد فيلبي في هذا الميدان بمعناه الحرفي وهو الذي ذكر فيه أنه ولورانس قد لعبا دوراً في التعديل الذي خضعت له خريطة الشرق الأوسط .

٢) غ . ريكمانز ، ص : ١٢ .

على مراعاة التطبيق الدقيق لبند المعاهدة الذي تعهد الطرفان بموجبه بالامتناع عن بناء المواقع الحصينة على أقل – من خمسة كيلومترات من خط الحدود الفاصل بين الجانبين.

وبعد أن قضى شهراً في واحة نجران ، حيث كان هاليفي أول من اكتشف كتابات سبئية عام ١٨٧٠. هبط فيلبي نحو الجوف الجنوبي ، ليبلغ شبوة ، عاصمة حضرموت القديمة . وفي نهاية شهر أغسطس (آب)، وصل إلى شبام ، وتريم وسيوون . وفي ضوء خططه ، وصل إلى المحيط الهندي عند بلاد الشحر ، ومنها إلى المكلاّ .

يقول لنا ريكمانز : " لم تستقبل سلطات عدن بمودة خاصة حضور رسيل لابن سعود فوق الأراضي ذات التابعية البريطانية . وزيادة على ذلك ، شاع بين الناس أن فيلبي قد نفذ إلى حضرموت على رأس مفرزة من الجنود الوهابيين . لكن فيلبي لم يصر على خط سيره [١] .هذا مع العلم أنه فيما وراء الحدود

السعودية ، لم يعد يتمتع بحماية ابن سعود . كان يعلم أن ملك الجزيرة العربية سيغمض عينيه عن مجاوزته لمنطقة الحدود ، شرط ألا يسبب له ما يزعجه .

وفي طريق العودة شاهد من بعيد خرائب مأرب الاسطورية ، عاصمة السبئيين القديمة ، لكنه لم يستطع النفاذ إليها ، بسبب من سوء نظرة حاكم المقاطعة إليه ، الذي كان يخاف أن يغضب الامام باستقبال صديق لابن سعود[٢] .

وبعد العودة إلى نجران ، توجه فيلبي نحو مرفأ جيزان المطل على البحر الأحمر ثم صعد سهل تهامة حتى بلغ جدة. هكذا لم يعين حدود المملكتين وحسب بل تجول في منطقة مساحتها ٢٠٠ ألف كيلو متر مربع، لم يكن قد اكتشف بعد الجزء الأكبر منها .

---

١) المصدر السابق نفسه .

٢)كان هانز هيلفريتز ، المكتشف الألماني ، قد شاه تلك الخرائب قبل ذلك بعام واحد ، لكنه لم يتوقف عندها ، بسبب السلوك العدائي عند السكان.

كان فيلبي ، بعد أداء هذه المهمة قد بدأ يشعر بنمو اهتمامه بكتابات ما قبل الإسلام التي شاهد نماذج كثيرة منها على امتداد الطريق . ولما كان قد لحق بمكة في بداية موسم الحج ١٨ فبراير (شباط) ١٩٣٧ فقد لقي فيها الملك وأطلعه على رغبته في إعداد تقويم بما شاهده في الطريق . فولد مشروع البعثة التي قدر له القيام بها فيما بعد عام ١٩٥١ بصحبة ثلاثة من العلماء البلجيكيين ذوي الشهرة العالمية : الكاهن ريكمانز ، من جامعة لوقان ، وابن أخيه جاك ريكمانز ثم الدكتور فيليب لبينيز [١].

هذه ليست المناسبة التي تصلح لايراد التفصيلات الخاصة بتلك الرحلة المدهشة . والتي كان يحلو له أن يطلق عليها اسم " اللحن المسكر " في حياته.

ولنقتصر على القول بأن القافلة الصغيرة ، التي نظمت برعاية الملك ، قد اجتازت مسافة ٥٤٤٨ كيلو متر وتجولت فيها وبينها أكثر من ألفي كيلومتر في مناطق كانت ما تزال مجهولة ، وحملت معها في

طريق العودة بالاضافة إلى مجموعة كبيرة من الملاحظات الجيولوجية ، والزولوجية ، والظروف الجوية ، قرابة ١٥ ألف كتابة من الكتابات السبئية وما قبل الإسلامية ، منسوجة بعناية تامة ، ومصورة ومبوبة [٢] .

وبينما كان فيلبي يسدد الحسابات المترتبة على هذه المهمات وينصرف إلى الاستمتاع بالنقوش [٣] ، كانت الجزيرة العربية تخضع لتحول عميق ، لقد كانت تتدفق على البلاد موجات من الذهب مع تدفق موجات النفط ، تلك الموجات التي تهز البنى المتقشفة للدولة الوهابية القديمة وتزلزلها . لقد انصرف فيلبي في مقدمة كتابه " العربية السعودية " إلى وضع التكهنات القائمة [٤] .

---

١) كان فيليب لبينز ، المكلف بتدبير الجانب المادي من البعثة ، وضع تقريراً حول " غارة الربيع " هذه ، في كتابه : " مهمة في الجزيرة العربية الوسطى" أدريان ميزونوف ، باريس ، ١٩٥٦ .

٢) نشرت هذه الكتابات برعاية المعهد الاستشراقي لجامعة لوفان ، من قبل غ . ريكمانز ، في الموزايون ص : ٢٦٧ — ٣١٧ وأيضاً من قبل جاك ريكمانز : المصدر نفسه ص : ٣١٨ — ٣٤٢ . كما نذكر في الوقت نفسه كتاباً لجاك ريكمانز : المؤسسة الملكية في الجزيرة العربية الجنوبية قبل الإسلام (معين وسبأ) مكتبة الموزايون ، مجلد ٢٨ ، لوفان ، ١٩٥١ . كتب هذا الكتاب تماماً قبل تاريخ البعثة .

٣) هـ . سانت جون فيلبي : بعثة دراسات النقوش في العربية السعودية (١٩٥١ — ١٩٥٢) الأعمال الخاصة بمؤتمر المستشرقين الثالث والعشرين ، كمبريدج من ٢١ — ٢٨ أغسطس (آب) ١٩٥٤ . لندن ١٩٥٧ ص : ٩٠ — ٩١ و ١٠٩ .

٤) هـ . سانت جون فيلبي : العربية السعودية ، لندن ، ١٩٥٥ .

واجتاحت الأحداث الملك ابن سعود العجوز دون أن يكون مستعداً لاستقبالها . وهو الذي قضى حياته كلها يعيش عيشة بدوي زاهد عادل تقي . نعم ، لقد عاش فقيراً ثم سحق في شيخوخته تحت ثقل الثراء . فأصبحت مطالب من حوله شديدة مبالغة بينما عجزت صحته المتعبة عن وضع حد للمد الصاعد من الفساد الذي حمله بخاصة أناس قادمون من الخارج لا ذمة ولا أخلاق لهم لاستغلال هذا الشعب الزاهد الذي لم يكن قد أعد بعد لاستخدام هذه الثروات الكبيرة [١] .

وزاد الموقف سوءاً بعد وفاة ابن سعود . اما فيلبي فكان يتألم لرؤيته هذا القدر من الفضائل الأساسية قد ضحي به على مذبح الشهوة إلى الربح ، بينما أخذ الزهد يتراجع أمام أشد أنواع الاسراف جنوناً . ومما لا ريب فيه أن فيلبي لم يكن من المتطهرين أبداً . لكن تذوقه الفطري للزهادة مع تقدم السن به قد استرد نشاطاً جديداً في ظل المعطف الوهابي.

وفي فبراير (شباط) ١٩٥٥ ، ألقى ، باعتباره ضيفاً على الأرامكو ، سلسلة من المحاضرات نوقشت فيها المعضلات السياسية والاقتصادية التي كانت تواجه العربية السعودية بحرية في التعبير تبررها دون ريب سعة الخدمات التي قدمها إلى الأسرة الحاكمة ، لكنها لم تكن تسر القصر الملكي ولا حكومة الرياض . ثم ساء الموقف أكثر فأكثر حين نشر قسم من هذه المحاضرات في مجلة الشؤون الخارجية الصادرة في لندن.

وهنا لم يطل رد الفعل . فقد منع كتابه " يوبيل العربية السعودية " من التداول في البلاد ، وهو الذي نقله إلى العربية وطبعه في القاهرة محافظ مكة القديم . كما طلب من فيلبي استدراك ما كتبه وتحويل كتاباته إلى المراقبة أو مغادرة البلاد .

---

١) غ . ريكمانز : هـ . سانت جون ب. فيلبي ، ص : ١٦ .

رفض مستشار ابن سعود القديم الاستجابة لهذا الأمر . وكان قد انقضى على اليوم الذي طرد فيه لورانس من جدة بغضب من الحسين ، ثلث قرن من السنين . وهذا فيلبي بدوره يغادر الجزيرة العربية بقلب ممزق . كتب يقول: " عند ظهر الخامس عشر من أبريل (نيسان) ١٩٥٥ ودعت منزلي باكياً وغادرت الرياض لكي لا أعود إليها أبداً"[١] .

وتدخل بعض الأصدقاء لمصلحته عند الملك سعود . وقالوا له أن فيلبي لا يستحق مثل هذه النكبة . وليست انتقاداته بعد كل ذلك غير تعبير عن حبه الملتهب للجزيرة العربية ... فلم يجدوا مشقة في رد الملك عن قراره الذي يبدو أنه قد أصدره بتحريض من أحد أخوته . قال الملك : " أنا لا آخذ على الشيخ عبد الله نقده لحكومتي ، لكنني ألومه على أنه لم يأتني ليقول لي ما عنده شخصياً بدلاً من أن يبسط الموضع أمام جمهور أجنبي غريب . "

وغفر سعود لفيلبي ما صدر عنه خلال بضعة شهور . فألغى قرار النفي وأفهمه أنه لم يعد هناك ما يعترض عودته إلى الجزيرة العربية . أما فيلبي الذي كان يجد من ألم النفي ما هو أقسى عليه من استعداده للاعتراف بخطأه ، فقد بادر إلى الافادة من هذا العرض وعاد للإقامة في منزله الصغير في الرياض ٣٠ مايو (أيار) ١٩٥٦ . وقد كرس ما بقي من سنوات حياته الأخيرة لكتابة مذكراته وأعداد كثير من المجلدات التي لم تطبع حتى اليوم [٢] .

وقد توفي في العام الخامس والسبعين من عمره في مدينة بيروت ٣٠ / ٩ / ١٩٦٠ ، في أثناء عودته من رحلة إلى أوروبا ، زار خلالها غـ . ريكمانز مع العلم أن أحد رفيقي الاكتشاف لم يكن يفكر في أن هذا اللقاء سيكون اللقاء الأخير لا سيما وأن فيلبي قد أظهر الكثير من النشاط والمرح عنده [٣] .

انه يستريح اليوم في " الباشورة " المقبرة الإسلامية الصغيرة . وقد كتب ولده على شاهد قبره هذه العبارة البسيطة " هنا يستريح أكبر مكتشفي الجزيرة العربية " .

---

١) هـ. سانت جون فيلبي : أربعون عاماً في القفر ، ص : ١٦.

٢) نذكر منها بخاصة الكتاب الثاني من مؤلفه : أرض مدين ، تاريخ ولايته في عمان وترجمة لحياة الملكة بلقيس .

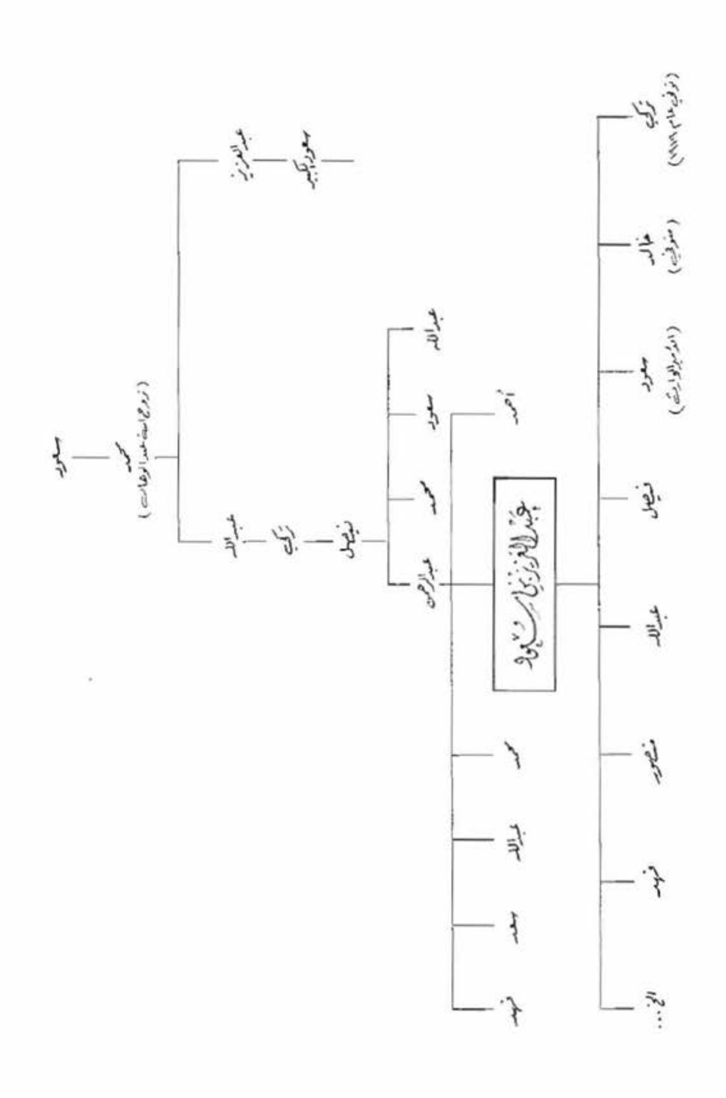
٣) أنظر : غ . ريكمانز – المصدر نفسه .

هكذا انتهت ، في سكينة مقبرة لبنانية صغيرة ، الرحلة الطويلة التي بدأها منذ أوائل الحرب العالمية الأولى ، في صحبة توماس ادوارد لورانس . لقد كانت لهذين الرجلين عواطف مشتركة هي بحيث لا يمكن أن يكونا عدوين حقيقيين رغم أنهما قد تصادما في الغالب خلال حياتهما العملية .

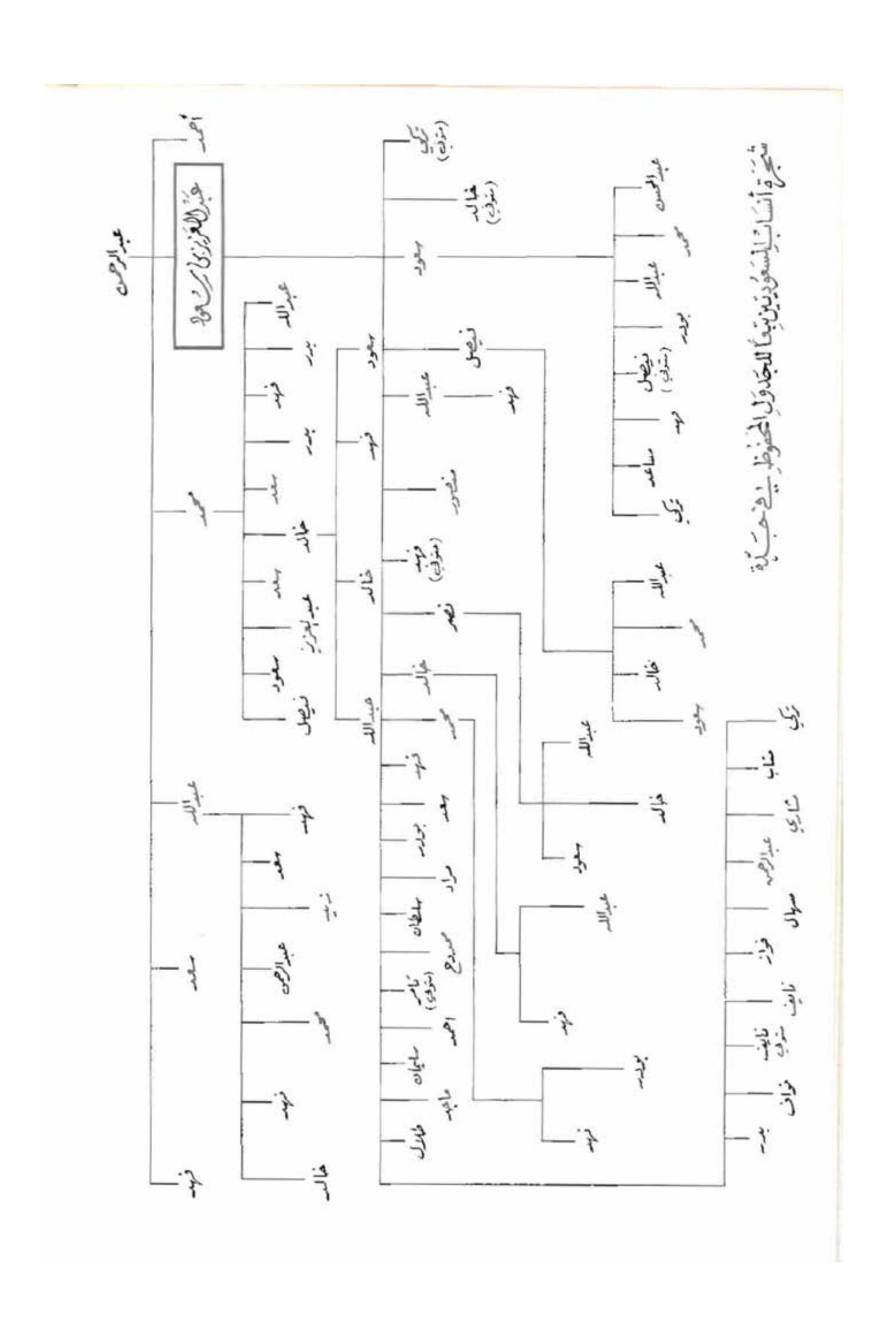
ولو أن " اورنس " و " عبد الله " [١] قد تلاقيا في عالم أفضل . فان الثابت أنهما لن يتابعا الطريق فيه جنباً إلى جنب ، ولو أتيح لنا أن نسمع محاوراتهما – التي تشغل فيها الجزيرة العربية مكان الصدارة – لزودانا فيها بحوار أموات رائع .

نوفمبر (تشرين ثاني) ١٩٦١

١) هذان هما الاسمان اللذان كان العرب يطلقونهما بالترتيب على الشاعر والمكتشف .



سعود
محمد
(زوج ابنة عبد الوهاب)
عبد الله
عبد العزيز
تركي
سعود الكبير
فيصل
عبد الرحمن
محمد
سعود
عبد الله
أحمد
عبد العزيز بن سعود
محمد
عبد الله
سعد
فهد
تركي
(توفي عام ١٩١٩)
خالد
(متوفى)
سعود
(الأمير الوارث)
فيصل
عبد الله
منصور
فهد
الخ ...



ثبت المراجع

مجلدات

أنسل (جاك) : المسألة الشرقية ، باريس ، ١٩٢٣

أرمسترونغ (هـ . س) : ملك الجزيرة العربية ، لندن ، ١٩٣٧

بنوا ميشان : مصطفى كمال . أو موت أمبراطورية ، باريس ، ١٩٥٤

برتو (و) : الوهابيون ، باريس ، ١٩٢٦

بيشوف (نوربير) : تركيا في العالم ، باريس ، ١٩٣٦

بوسار (ليون) : سر الكولونيل لورنس ، باريس ١٩٤٦

بريمون (جنرال) : الحجاز في الحرب العالمية ، باريس . ١٩٣١

بروك (ج) : امبراطورية ابن سعود العربية . بروكسيل ١٩٢٩

بيرتون (سير ريتشارد) : مناجم الذهب في مَدْيَن ، لندن ، ١٨٢٨

شير (سومرست) : البساط الذهبي ، باريس ١٩٥١

شال (ميشال) : مذكرة في مناهج الهندسة ، باريس

دوغربل (ليون) : معركتي في روسية ، بروكسيل ١٩٥٢

دوتي (شارل م .) صحراء الجزيرة العربية ، باريس ١٩٤٩

ديكروك (البير) : اسلحة الغد ، باريس . ١٩٤٩

غود فروى – ديمومبين (م) : المؤسسات الإسلامية . باريس ١٩٤٦

جورى – (جيرالد . دو) : نخيل الجزيرة العربية ، لندن ١٩٤٦

غريف (روبير) : لورنس والعرب ، باريس ، ١٩٣٣

غيبو (كومندان) : معارك بائسة ، باريس ، ١٩٥١
حتي (ف) : مختصر تاريخ العرب ، باريس . ١٩٥٠
هوفر : تاريخ الكيمياء
همبولدت (الكسندر) : الكون ، الكارتل الدولي للنفط ، واشنطن . ١٩٥٢
جوفينيل (برتراند) : اميركا كما هي في أوروبا ، باريس . ١٩٥٢
كمرير (أ) : الحبشة ، البحر الأحمر والجزيرة العربية . القاهرة ، ١٩٣٥
خير الله (الدكتور جورج) : نهضة الجزيرة العربية . جامعة نيو مكسيكو
لورنس (ت – أ) : أعمدة الحكمة السبعة ، باريس ، ١٩٤٩
لورنس (ت – أ) مقدمة في كتاب صحراء الجزيرة العربية لدوتي ، باريس ، ١٩٤٩
لورنس (ت – أ) : رسائل
لورنس (ت – أ) : الينبوع (غير مطبوع)
ليبنز (فيليب) : رحلة إلى قلب الجزيرة العربية . ادريان ميزونيف ، باريس . ١٩٥٦
كتاب في المئوية الثامن لبرنارد دى كليرفو . ستراسبورغ . ١٩٥٣
لونغريتج (ستيفن همسلي) : النفط في الشرق الأوسط صحيفة جامعة أكسفورد
القرآن : ترجمة وطبعة ، مونتت باريس ، ١٩٢٣
ميولن (فان در) : آبار ابن سعود . بريجر – نيويورك
ميكاسش (داغوبير – فون) : الملك ابن سعود . بول ليست ، فرلاج – ميونيخ

بلليغرين (آرثر) : الاسلام في العالم . باريس ، ١٩٥٠
فيلبي (هـ . سان جون . ب) : قلب الجزيرة العربية ، لندن ، ١٩٢٢
فيلبي (هـ . سان جون . ب) : جزيرة الوهابيين العربية . لندن . ١٩٢٨
فيلبي (هـ . سان جون . ب) : حج الجزيرة العربية ، لندن ، ١٩٤٦
فيلبي (هـ . سان جون . ب) : أيام عربية . لندن . ١٩٤٨
فيلبي (هـ . سان جون. ب) : اليوبيل العربي . روبيرة هال ، لندن ، ١٩٥٦
فيلبي (هـ . سان جون . ب) : اربعون عاما في المفازع ، روبيرت هال ، لندن ، ١٩٥٧
بيلمانت (جورج) : قصور وحصون عربية في الأندلس ، باريس ، ١٩٥١
بطليموس : جغرافية الكتاب الخامس والسادس
روزفلت (اليوت) : أبي قال لي ... ، باريس ، ١٩٤٧
سيديبو (ل – أ) : تاريخ العرب . باريس ، ١٨٥٤
شيروود (روبرت . أ) : مذكرات روزفلت ، باريس ، ١٩٥١
ستتينوس (ادوارد) : عنصر الاعارة والتأجير ، سلاح النصر ، نيويورك ١٩٤٤
استرابون : جغرافية الكتاب السابع
توماس (لويل) : مع لورنس في الجزيرة العربية . لندن ، ١٩٢١
تويتشل (كارل س) : العربية السعودية ، صحيفة جامعة برنستون .
يونج (جنرال ديسمنوند) : روميل . لندن . ١٩٥٠

ب – تقارير – وخطب

اوكنيلك (جنرال) : تقرير رقم ٣٨ – ١٧٧ لندن ، ملحق الصحيفة « الغازيت » بتاريخ ١٣ يناير (كانون الثاني) ١٩٤٨

٦٤٠

بنوا ميشان : تقرير الى الاميرال دارلن ، بتاريخ ٩ يناير (كانون الثاني) ١٩٤٢

كاترو (جنرال) : تصريح في اذاعة القاهرة ، بتاريخ ٨ يونيو (حزيران) ١٩٤١

تشرشل (السير ونستون) : خطاب في مجلس العموم ، بتاريخ ٩ سبتمبر (ايلول) ١٩٤١

سوريا ، اغسطس (آب) ١٩٤٨

ويغل (ماريشال) : تصريح معركة : ٤ يونيو (حزيران) ١٩٤٦

ج – مصادر توثيق

مدارس اللغات الشرقية ، باريس

المتحف الحربي الامبراطوري ، في لندن

مدرسة للغات الشرقية ، لندن

المعهد الملكي للشؤون الدولية ، لندن

د – صحف ومجلات دورية

١) **القاهرة**

الجورنال المصري

٢) **دمشق**

صحيفتا اللواء والاستقلال

٣) **لندن**

الامبرالية البريطانية : « مرشد الخليج العربي »

الدايلي التلغراف
الجورنال الجغرافي
الرحلة الأخيرة للكابتن شكسبير ، المجلد ٥٩ – ١٩٢٢
جورنال الجمعية الآسيوية الملكية ، جيرالد دوجوري ، الجزيرة العربية والمستقبل ، المجلد ٣١ – ١٩٤٤
الشرق الادنى والاقتصاد الهندي
التايمز

٤) مكة المكرمة

أم القرى

٥) نيويورك

المجلة الأميركية : تصريحات لكنيث (ج أ) ادوارد اكتوبر (تشرين أول) ١٩٤٧
المجلة الأميركية : جيرالد دو جوري اكتوبر (تشرين أول) ١٩٤٧
المجلة الاميركية : جيمس ماك فيرسون أكتوبر (تشرين أول) ١٩٤٧
كاتوليك هيرالد
فورتشن
لايف : فلويد أوهليغر ، ٢٠ يونيو (حزيران) ١٩٤٩
نيويورك تايمز : ١٩ مارس (آذار) ١٩٤٦
التايم : بيرت . أ . هال ، ٢٠ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٥٠
ريدرز ديجزت : اندريه ويشون . «لماذا يجب أن نبني هذا الخط من من الانابيب» يونيو (حزيران) ١٩٤٤

٦) باريس

دليل مكتب خطوط الطول سنة ١٨٥٠

الاورور : (ح . ر) بيرشرال ، « الضيق العربي » ٢٨ أغسطس (آب) ١٩٥١

الفيغارو : الجنرال كاترو ، « تأملات في الشؤون السورية » ٢٠ أغسطس (آب) ١٩٤٩

الفيغارو : السير وستون تشرشل . « مذكرات » ٩ فبراير (شباط) ١٩٥٠

الفيغارو : جيمس كوكيه : « نفط ٥١ » ٢٤ – ٢٥ مارس (آذار) ١٩٥١

فرانس ايلوستراسيون : فريدريك ميغري : « الف ليلة وليلة عند آبار النفط » ٧ يناير (كانون الثاني) ١٩٥٠

فرانس إيلوستراسيون : رينيه برانيلك : « ابن سعود » ٢٠ يناير (كانون الثاني) ١٩٥١

رجال وعوالم : موريس برنو : « الجامعة العربية » مارس (آذار) ١٩٤٧

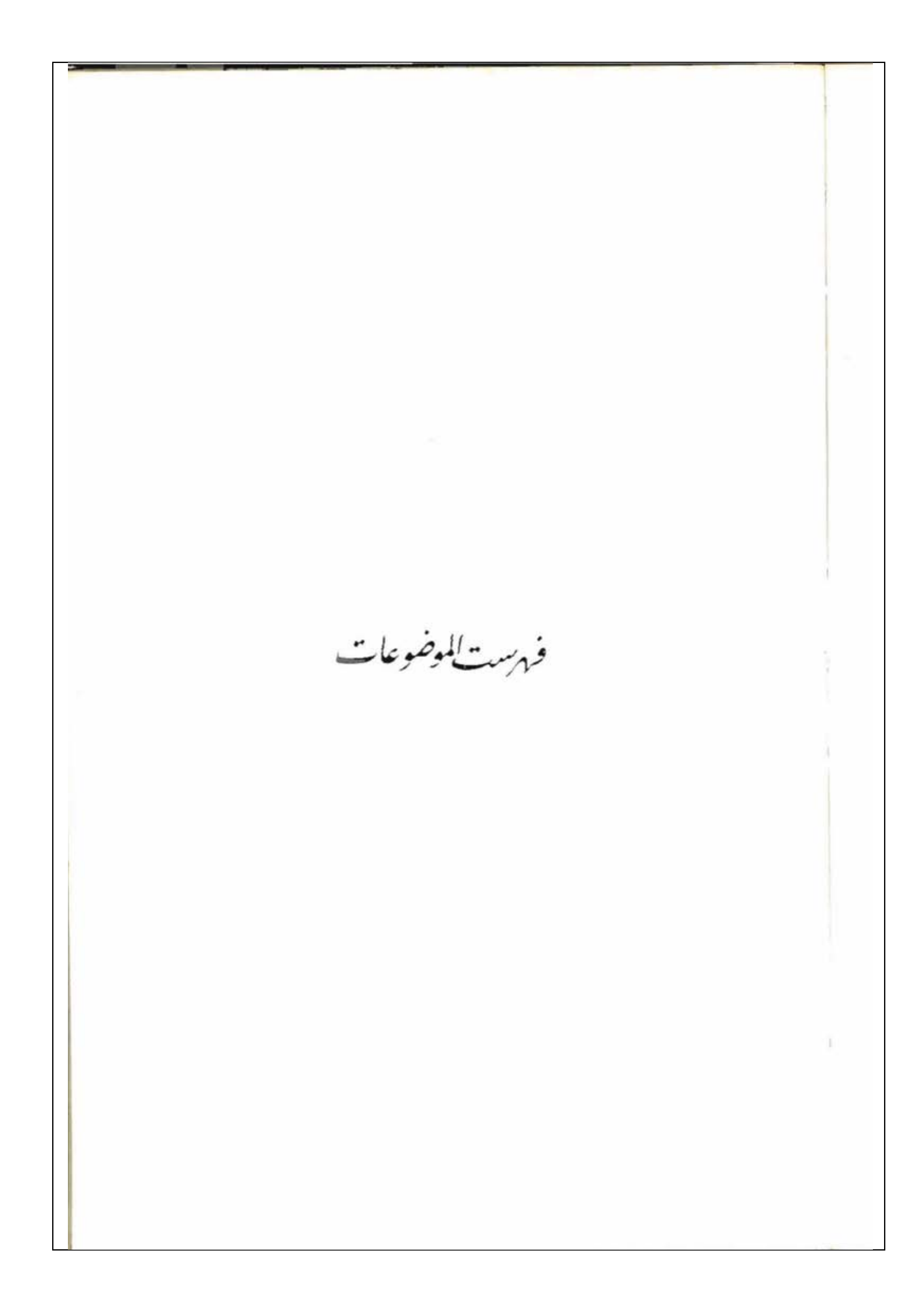
لو موند : ادوار سابلييه : « الانقلاب السوري الجديد » ١٦ أغسطس (آب) ١٩٤٩

لو موند : ادوار سابليه : « المعركة الحقيقية للشرق الأدنى » ١٩ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٤٩

باري ماتش : جان بيار بنيز وموريس جارنو : « تحقيق لدى ولد ابن سعود » ٦ – ١٣ مارس (آذار) ١٩٥٤

ريفارول : غيماركيه : « مع ابن سعود ملك الرمال » . ٢٠ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٥٣

سامدي سوار : ٣ أكتوبر (تشرين أول) ١٩٤٩



فهرست الموضوعات

فهرست

الباب الأول

الحركة والجمود عند العرب

(٥٠٠٠ ق‌م – ١٨٨٠ ب‌م)

الباب الثاني

فتح نجد

(١٨٨٠ – ١٩٠٥)

الباب الثالث

غزوة الجزيرة العربية
(١٩٠٥ – ١٩٢٨)

الباب الرابع

العربية السعودية

(١٩٢٨ – ١٩٤٥)

الباب الخامس

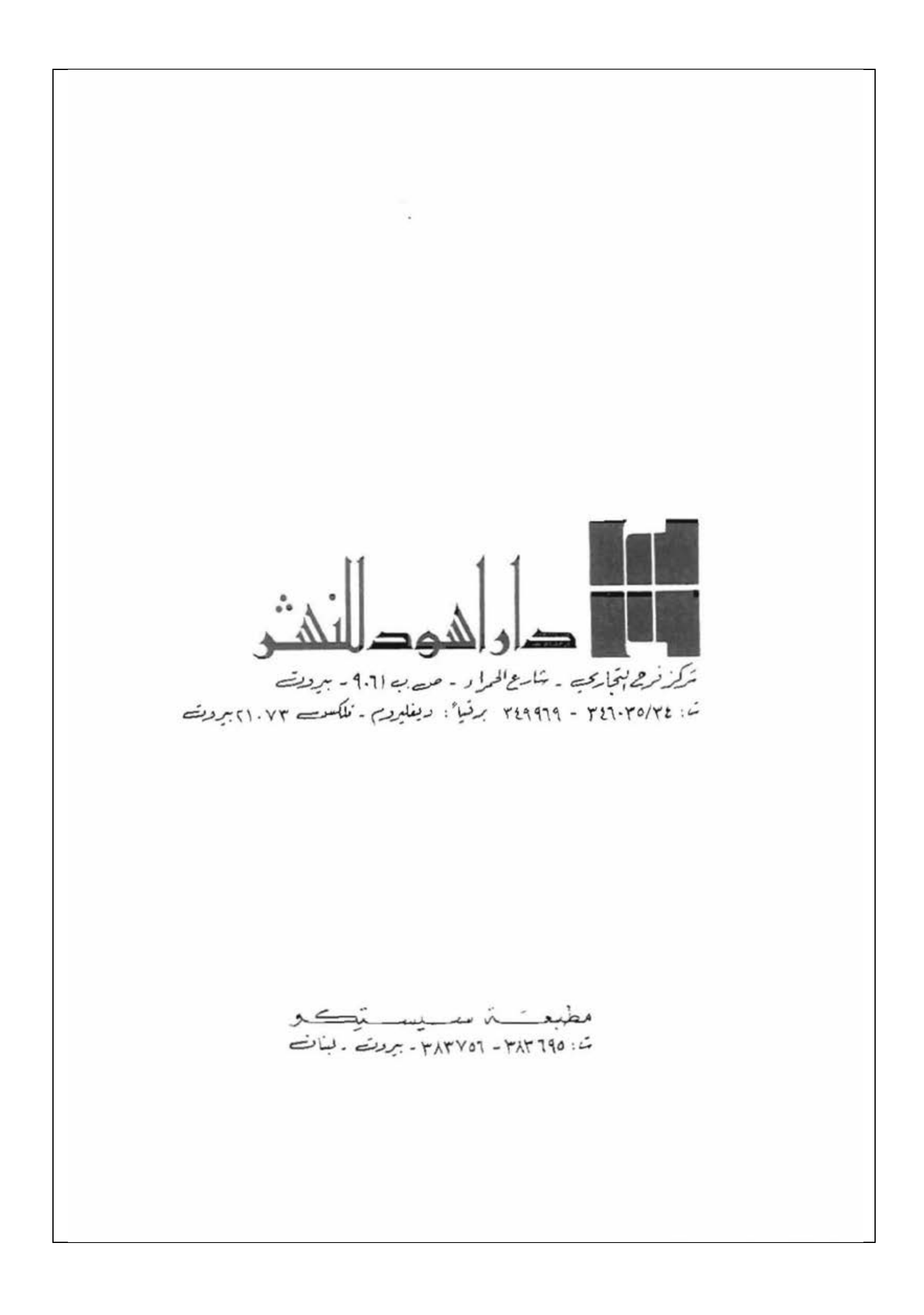
العربيه السعوديه

قلعه أماميه لنصف الكرة الغربي

(١٩٤٥ – ١٩٥٣)

ملاحق

خرائط ورسوم


مركز فرح التجاري - شارع الحمراء - ص.ب ٩٠٦١ - بيروت
ت: ٣٤٦٠٣٥/٣٤ - ٣٤٩٩٦٩ برقياً: ديفليردم - تلكس ٢١٠٧٣ بيروت
مطبعة سيستيكو
ت: ٣٨٣٦٩٥ - ٣٨٣٧٥٦ - بيروت - لبنان